

السيرة الحلبية

وهو الكتاب المسمى

(إنسان العيون في سيرة الأمين المأمون)

علي بن برهان الدين الحلبي

من الكتب المشهورة في السيرة النبوية جمعها من كتاب عيون الأثر لابن سيد الناس (وذكر أنه أحسن ما ألف في السيرة) واختصر منه الأسانيد، ومن سيرة الشمس الشامي. وحاول تنقية كتابه من الروايات الموضوعية المكذوبة، وحلى كتابه بتوزيع همزية البوصيري بحسب أحداث السيرة، كما يذكر شيئاً من أبيات تائية السبكي، وأبيات ابن سيد الناس في ديوان بشرى اللبيب بذكرى الحبيب. وكثيراً ما ينسب النقول إلى قائلها وكتبهم، والأحاديث إلى مخرجها وأحياناً يحكم عليها. وقد أطلال في آخر الكتاب الكلام على سرايا النبي وشمائله وخصائصه وصفاته

عدد الأجزاء / ثلاثة أجزاء
دار النشر / دار المعرفة – بيروت
الكتاب موافق للمطبوع

بسم الله الرحمن الرحيم
حمد لمن نصر وجوه أهل الحديث وصلاة وسلاماً على من نزل عليه أحسن الحديث وعلى آله وأصحابه أهل التقدم في القديم والحديث وصلاة وسلاماً دائماً ما سارت الأئمة في جمع سير المصطفى السر الحثيث وبعد فيقول أفقر المحتاجين وأحوج المفتقرين لعفو ذي الفضل والطول المتين على بن برهان الدين الحلبي الشافعي إن سيرة المصطفى عليه أفضل الصلاة والسلام من أهم ما اهتم به العلماء الأعلام وحفاظ ملة الإسلام كيف لا وهو الموصل لعلم الحلال والحرام والحامل على التخلق بالأخلاق العظام وقد قال الزهري رحمه الله في علم المغازي خير الدنيا والآخرة وهو أول من ألف في السير

قال بعضهم أول سيرة ألفت في الإسلام سيرة الزهري وعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أنه قال كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم وسراياه فيقول يا بني هذه شرف آبائكم فلا تنسوا ذكرها وأحسن ما ألف في ذلك وتداولته الأكياس سيرة الحافظ أبي الفتح ابن سيد الناس لما جمعت من تلك الدراري والدرر ومن ثم سماها عيون الأثر غير أنه أطلال بذكر الإسناد الذي كان للمحدثين به مزيد الإعتداد وعليه لهم كثير الإعتقاد إذ هو من خصائص هذه الأمة ومفتخر الأئمة لكنه صار الآن لقصور الهمم لا تقبله الطباعة ولا تمتد إليه الأطماع وأما سيرة الشمس الشامي فهو وإن أتى بما فيما يعد في صفائح وجوه الصحائف حسنات لكنه أتى فيها بما هو في أسمع ذوى الأفهام كالمعادات

ولا يخفى أن السير تجمع الصحيح والسقيم والضعيف والبلاغ والمرسل والمنقطع والمعصل دون الموضوع ومن ثم قال الزين العراقي رحمه الله

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

مكتبة مشكاة

% وليعلم الطالب أن السيرا % تجمع ما صح وما قد أنكرا %

وقد قال الإمام أحمد بن حنبل وغيره من الأئمة إذا روينا في الحلال والحرام شددنا وإذا روينا في الفضائل ونحوها تساهلنا وفي الأصل والذي ذهب إليه كثير من أهل العلم الترخّص في الرقائق ومالا حكم فيه من أخبار المغازي وما يجرى مجرى ذلك وأنه يقبل منها مالا يقبل في الحلال والحرام لعدم تعلق الأحكام بها فلما رأيت السيرتين المذكورتين على الوجه الذي لا يكاد ينظر إليه لما اشتملتا عليه عن لي أن أخص من تينك السيرتين أنموذجا لطيفا يروق الأحداق ويحلو للأذواق يقرأ مع ما أضمه إليه بين يدي المشايخ على غاية الإنسجام ونهاية الإنتظام ولا زلت في ذلك أقدم رجلا وأؤخر أخرى لكوني لست من أهل هذا الشأن ولا ممن يسابق في ميدانه على خيل الرهان حتى أشار علي بذلك وبسلوك تلك المسالك من إشارته واجبة الإتيان ومخالفة أمره لاتستطاع ذو البديهة المطاوعة والفضائل البارعة والفواضل الكثيرة النافعة من إذا سئل عن أي معضلة أشكلت على ذوي المعرفة والوقوف لا تراه يتوقف ولا يخرج عن صوب الصواب ولا يتعسف ولا أخبر في كثير من الأوقاف عن شيء من المغيبات وكاد أن يتخلف وهو الأستاذ الأعظم والملاذ الأكرم مولانا الشيخ أبو عبدالله وأبو المواهب محمد فخر الإسلام البكري الصديقي كيف لا وهو محل نظر والده من نشر ذكره ملاً المشارق والمغرب وسرى سره في سائر المسارى والمسارب ولي الله والقائم بخدمته في الإسرار والإعلان والعارف به الذي لم يتمار في أنه القطب الفرد الجامع إثنان مولانا الأستاذ أبو عبدالله وأبو بكر محمد البكري الصديقي

ولا بدع فإنه نتيجة صدر العلماء العاملين وأستاذ جميع الأستاذين والمعدود من المجتهدين صاحب التصانيف المفيدة في العلوم العديدة مولانا الأستاذ محمد أبو الحسن تاج العارفين البكري الصديقي أعاد الله تعالى على وعلى أحيابي من بركاتهم وجعلنا في الآخرة من جملة أتباعهم فلما أشار على ذلك الأستاذ بتلك الإشارة ورأيتها منه أعظم بشارة شرعت معتمدا في ذلك على من يبلغ كل مؤمل أمله ولم يخيب من قصده وأمله وقد يسر الله تعالى ذلك على أسلوب لطيف ومسلك شريف لا تملأ الأسماع ولا تنفر منه الطباع والزيادة التي أخذتها من سيرة الشمس الشامي على سيرة أبي الفتح ابن سيد الناس الموسومة بعيون الأثر إن كثرت ميزتها بقولى في أولها قال وفي آخرها انتهى

وإن قلت أتيت بلفظه أي وجعلت في آخر القولة دائرة هكذا بالحمرة وربما أقول وفي السيرة الشامية وربما عبرت عن الزيادة القليلة يقال وعن الكثيرة بأي وما ليس بعده تلك الدائرة فهو من الأصل أعني عيون الأثر غالبا وقد يكون من زيادتي على الأصل والشامي كما يعلم بالوقوف عليهما وربما ميزت تلك الزيادة بقولى في أولها أقول وفي آخرها والله أعلم وقد يكون من الزيادة ما أقول وفي السيرة الهشامية بتقديم الهاء على الشين وحيث أقول قال في الأصل أو ذكر في الأصل أو نحو ذلك فالمراد به عيون الأثر ثم عن لي أن أذكر من أبيات القصيدة الهمزية المنسوبة لعالم الشعراء وأشعر العلماء وهو الشيخ شرف الدين البوصيري ناظم القصيدة المعروفة بالبردة وما تضمنته تلك الأبيات وأشارت إليه من ذلك السياق فإنه أحلى في الأذواق وربما أحل ذلك النظم بما يوضح معناه ويظهر تركيب مبناه وربما أذكر أيضا من أبيات تائية

الإمام السبكي ما يناسب المقام وربما أذكر أيضا بعض أبيات من كلام صاحب الأصل من قصائده النبوية المجموعة بديوانه المسمى ب بشرى اللبيب بذكرى الحبيب وقد سميت مجموع ذلك

إنسان العيون في سيرة الأمامون
وأسأل من لا مسئول إلا إياه أن يجعل ذلك وسيلة لرضاه أمين

باب: نسبه الشريف

هو محمد (ابن عبد الله) ومعنى عبد الله: الخاضع الذليل له تعالى، وقد جاء «أحب أسمائكم» وفي رواية: «أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن» وجاء «أحب الأسماء إلى الله ما تعبد به» وقد سمي بعبد الله في القرآن، قال الله تعالى: {وأنه لما قام عبد الله يدعوه} وعبد الله هذا هو (ابن عبد المطلب) ويدعى شبيهة الحمد لكثرة حمد الناس له: أي لأنه كان مفزع قريش في النوائب وملجأهم في الأمور، فكان شريف قريش وسيدها كمالاً وفعالاً من غير مدافع. وقيل: قيل له شبيهة الحمد، لأنه ولد وفي رأسه شبيهة: أي وفي لفظ كان وسط رأسه أبيض، أو سمي بذلك تفاقماً بأنه سيلبغ سن الشيب () قيل اسمه عامر، وعاش مائة وأربعين سنة: أي وكان ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية () وكان مجاب الدعوة، وكان يقال له الفياض لجوده، ومطعم طير السماء لأنه كان يرفع من مائدته للطير والوحوش في رؤوس الجبال. قال: وكان من حلماة قريش وحكمائها، وكان نديمه حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف والد أبي سفيان، وكان في جوار عبد المطلب يهودي فأغلظ ذلك اليهودي القول على حرب في سوق من أسواق تهامة، فأغرى عليه حرب من قتله، فلما علم عبد المطلب بذلك ترك منادمة حرب، ولم يفارقه حتى أخذ منه مائة ناقة دفعها لابن عم اليهودي حفظاً لجواره، ثم نادى عبد الله بن جدعان انتهى ملخصاً.

وقيل له عبد المطلب، لأن عمه المطلب لما جاء به صغيراً من المدينة أردفه خلفه: أي وكان بهيئة رثة: أي ثياب خلقة، فصار كل من يسأل عنه ويقول من هذا؟ يقول عبدي أي حياء أن يقول ابن أخي، فلما دخل مكة أحسن من حاله وأظهر أنه ابن أخيه وصار يقول لمن يقول له عبد المطلب: ويحكم إنما هو شبيهة ابن أخي هاشم () لكن غلب عليه الوصف المذكور ف قيل له عبد المطلب: أي وقيل لأنه تربى في حجر عمه المطلب، وكان عادة العرب أن تقول لليتيم الذي يتربى في حجر أحد هو عبده وكان عبد المطلب يأمر أولاده بترك الظلم والبعي، ويحثهم على مكارم الأخلاق، وينهاهم عن دنيئات الأمور. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وكان يقول: لن يخرج من الدنيا ظلوم حتى ينتقم منه وتصيبهم عقوبة إلى أن هلك رجل ظلوم من أهل الشام لم تصبه عقوبة، ف قيل لعبد المطلب في ذلك،

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

ففكر وقال: والله إن وراء هذه الدار داراً يجزى فيها المحسن بإحسانه، ويعاقب المسيء بإساءته: أي فالمظلوم شأنه في الدنيا ذلك، حتى إذا خرج من الدنيا ولم تصبه العقوبة فهي معدة له في الآخرة، ورفض في آخر عمره عبادة الأصنام، ووحد الله سبحانه وتعالى. وتؤثر عنه سنن جاء القرآن بأكثرها، وجاءت السنة بها: منها الوفاء بالندى، والمنع من نكاح المحارم، وقطع يد السارق، والنهي عن قتل الموءودة، وتحريم الخمر والزنا، وأن لا يطوف بالبيت عريان كذا في كلام سبط ابن الجوزي (ابن هاشم) وهاشم: هو عمرو العلاء أي لعلو مرتبته، وهو أخو عبد شمس وكانا توأمين، وكانت رجل هاشم أي أصبعها ملصقة بجبهة عبد شمس، ولم يكن نزعها إلا بسيلان دم، فكانوا يقولون سيكون بينهما دم، فكان بين ولديهما أي بين بني العباس وبين بني أمية سنة ثلاث وثلاثين ومائة من الهجرة، ووقعت العداوة بين هاشم وبين ابن أخيه أمية بن عبد شمس، لأن هاشماً لما ساد قومه بعد أبيه عبد مناف حسده أمية ابن أخيه، فتكلف أن يصنع كما يصنع هاشم فعجز، فغيرته قريش وقالوا له أنتشبه بهاشم، ثم دعا هاشماً للمنافرة فأبى هاشم ذلك لسنه وعلو قدره، فلم تدعه قريش، فقال هاشم لأمية: أنا فرك على خمسين ناقة سود الحدق تنحر بمكة، والجلاء عن مكة عشر سنين، فرضي أمية بذلك، وجعلا بينهما الكاهن الخزاعي وكان بعسفان، فخرج كل منهما في نفر، فنزلوا على الكاهن، فقال قبل أن يخبروه خبرهم «والقمر الباهر» والكوكب الزاهر، والغمام الماطر، وما بالجو من طائر، وما اهتدى بعلم مسافر، من منجد وغائر، لقد سبق هاشم أمية إلى المفاجر فنصر هاشم على أمية، فعاد هاشم إلى مكة ونحر الإبل، وأطعم الناس، وخرج أمية إلى الشام فأقام بها عشر سنين، فكانت هذه أول عداوة وقعت بين هاشم وأمية، وتوارث

ذلك بنوهما، وكان يقال لهاشم وإخوته عبد شمس والمطلب ونوفل أقداح النصار: أي الذهب، ويقال لهم المجيرون لكرمهم وفخرهم وسيادتهم على سائر العرب.

قال بعضهم: ولا يعرف بنو أب تباينوا في محال موتهم مثلهم، فإن هاشماً مات بغزة: أي كما سيأتي، وعبد شمس مات بمكة، وقبره بأجباد، ونوفلاً مات بالعراق، والمطلب مات ببرعاء من أرض اليمن: أي وقيل له هاشم، لأنه أول من هشم الثريد بعد جده إبراهيم، فإن إبراهيم أول من فعل ذلك: أي ثرد الثريد وأطعمه المساكين () وفيه أن أول من ثرد الثريد، وأطعمه بمكة بعد إبراهيم جد هاشم قصي. ففي الإمتاع: وقصي أول من ثرد الثريد وأطعمه بمكة. وفيه أيضاً هاشم عمرو العلاء، أول من أطعم الثريد بمكة، وسيأتي أن أول من فعل ذلك عمرو بن لحي، فليتأمل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وقد يقال: لا منافاة لأن الأولية في ذلك إضافية، فأولية قصي لكونه من قريش وأولية عمرو بن لحي لكونه من خزاعة، وأولية هاشم باعتبار شدة مجاعة حصلت لقريش وإلى ذلك يشير صاحب الأصل بقوله:

وأطعم في المحل عمرو العلاء

فللمستنين به خصب عام

وقال أيضاً:

عمرو العلاء ذو الندى من لا يسابقه
مر السحاب ولا ريح تجاربه
جفانه كالجوابي للوفود إذا
لبوا بمكة ناداهم مناديه
أو أمحلوا أخصبوا منها وقد ملئت
قوتا لحاضره منهم وباده
وقد قيل فيه:
قل للذي طلب السماحة والندی
هلا مررت بآل عبد مناف
الرائشون وليس يوجد رائش
والقائلون هلم للأضياف
وعن بعض الصحابة قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر رضي
الله تعالى عنه على باب بني شيبه فمر رجل وهو يقول:
يا أيها الرجل المحوّل رحله
ألا نزلت بآل عبد الدار
هبلتك أمك، لو نزلت برحلهم
منعوك من عدم ومن إقتار
فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي بكر رضي الله عنه فقال:
أهكذا قال الشاعر؟ قال: لا والذي بعثك بالحق، ولكنه قال:
يا أيها الرجل المحول رحله

ألا نزلت بآل عبد مناف
هبلتك أمك لو نزلت برحلهم
منعوك من عدم ومن اقراف
الخالطين غنيهم بفقيرهم
حتى يعود فقيرهم كالكافي
فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: هكذا سمعت الرواة ينشدونه،
وكان هاشم بعد أبيه عبد مناف على السقاية والرفادة، فكان يعمل الطعام
للحجاج، يأكل منه من لم يكن له سعة ولا زاد، ويقال لذلك الرفادة.
واتفق أنه أصاب الناس سنة جذب شديد فخرج هاشم إلى الشام، وقيل بلغه
ذلك وهو بغزة من الشام، فاشترى دقيقاً وكعكاً وقدم به مكة في الموسم،
فهشم الخبز والكعك ونحر الجزر وجعله ثريداً، وأطعم الناس حتى أشبعهم،
فسمي بذلك هاشماً. وكان يقال له أبو البطحاء وسيد البطحاء.
قال بعضهم: لم تزل مائدته منصوبة لا ترفع في السراء والضراء.
قال ابن الصلاح: روينا عن الإمام سهل الصعلوكي رضي الله عنه أنه قال في
قوله: «فضل عائشة على النساء كفضل الثريد على سائر الطعام» أراد فضل
ثريد عمرو العلاء، الذي عظم نفعه وقدره، وعم خيره وبره، وبقي له ولعقبه
ذكره. وقد أبعده سهل في تأويل الحديث.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6
والذي أراه أن معناه تفضيل الثريد من الطعام على باقي الطعام، لأن سائر

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

بمعنى باقي أي فالمراد أي ثريد لا خصوص ثريد عمرو العلا حتى يكون أفضل من ثريد غيره. وكان هاشم يحمل ابن السبيل، ويؤمن الخائف.

قال: وقد ذكر أنه كان إذا هل هلال ذي الحجة قام صبيحته وأسند ظهره إلى الكعبة من تلقاء بابها ويخطب يقول في خطبته: يا معشر قريش إنكم سادة العرب، أحسنها وجوهاً، وأعظمها أحلاماً أي عقولاً، وأوسط العرب: أي أشرفها أنساباً، وأقرب العرب بالعرب أرحاماً. يا معشر قريش إنكم جيران بيت الله تعالى، أكرمكم الله تعالى بولايته، وخصكم بجواره دون بني إسماعيل، وإنه يأتبكم زوار الله يعظمون بيته فهم أضيافه وأحق من أكرم أضياف الله أنتم فأكرموا ضيفه وزواره، فإنهم يأتون شعثاً غيراً من كل بلد على ضواير كالقذاح فأكرموا ضيفه وزوار بيته، فورب هذه البنية لو كان لي مال يحتمل ذلك لكفيتكموه، وأنا مخرج من طيب مالي وحلاله ما لم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ بظلم، ولم يدخل فيه حرام؟ فمن شاء منكم أن يفعل مثل ذلك فعل، وأسألکم بحرمة هذا البيت أن لا يخرج رجل منكم من ماله لكرامة زوار بيت الله وتقويتهم إلا طيباً، لم يؤخذ ظلماً، ولم يقطع فيه رحم، ولم يؤخذ غصباً، فكانوا يجتهدون في ذلك، ويخرجونه من أموالهم فيضعونه في دار الندوة انتهى. وقيل في تسمية شيبه الحمد عبد المطلب غير ما تقدم. فقد قيل: إنما سمي شيبه الحمد عبد المطلب، لأن أباه هاشماً قال للمطلب الذي هو أخو هاشم وهو بمكة حين حضرته الوفاة أدرك عبدك يعني شيبه الحمد بيثرب، فمن ثم سمي عبد المطلب كذا في المواهب وقدمه على ما تقدم.

وفيه أنه حكى غير واحد أن هاشماً خرج تاجراً إلى الشام، فنزل على شخص من بني النجار بالمدينة وتزوج بنته على شرط أنها لا تلد ولداً إلا في أهلها: أي ثم مضى لوجهه قبل أن يدخل بها ثم انصرف راجعاً فبنى بها في أهلها ثم ارتحل بها إلى مكة، فلما أثقلت بالحمل خرج بها فوضعها عند أهلها بالمدينة ومضى إلى الشام فمات بغزة، قيل وعمره حينئذ عشرون سنة، وقيل أربع، وقيل خمس وعشرون. وولدت شيبه الحمد فمكث بالمدينة سبع سنين وقيل ثمان، فمر رجل على غلمان يلعبون أي ينتضلون بالسهام وإذا غلام فيهم إذا أصاب قال أنا ابن سيد البطحاء، فقال له الرجل: ممن أنت يا غلام؟ فقال أنا شيبه بن هاشم بن عبد مناف، فلما قدم الرجل مكة وجد المطلب جالساً بالحجر فقص عليه ما رأى، فذهب إلى المدينة، فلما راه عرف شبه أبيه فيه ففاضت عيناه وضمه إليه خفية من أمه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وفي لفظ أنه عرفه بالشبه وقال لمن كان يلعب معه: أهذا ابن هاشم؟ قالوا نعم، فعرفهم أنه عمه، فقالوا له: إن كنت تريد أخذه فالساعة قبل أن تعلم به أمه، فإنها إن علمت بك لم تدعك وحالت بينك وبينه، فدعاه المطلب وقال يا ابن أخي أنا عمك وقد أردت الذهاب بك إلى قومك، وأناخ ناقته فجلس على عجز الناقة، فانطلق به ولم تعلم به أمه حتى كان الليل فقامت تدعوه، فأخبرت أن عمه قد ذهب به وكساه حلة يمانية، ثم قدم به مكة، فقالت

قريش: هذا عبد المطلب: أي فإن هذا السياق يدل على أن عبد المطلب إنما ولد بعد موت أبيه هاشم بغزة، وكون عمه المطلب كساه حلة لا ينافي ما سبق أنه دخل به مكة وثيابه رثة خلقة، لأنه يجوز أن تكون هذه الحلة ألبست له عند أخذه ثم نزعته عنه في السفر: أي أو أن هذه الحلة اشتراها بمكة كما يصرح به كلام بعضهم. وما وقع هنا من تصرف الراوي على أنه يجوز أن يكون اشترى له حلتين واحدة ألبسها له بالمدينة وأخرى اشتراها بمكة وألبسها له ().

وفي السيرة الهشامية أن أم عبد المطلب كانت لا تنكح الرجال لشرافها في قومها حتى يشرطوا لها أن أمرها بيدها، إذا كرهت رجلاً فارقت: أي وإنها لا تلد ولداً إلا في أهلها كما تقدم، وأن عمه المطلب لما جاءه لأخذه قالت له لست بمربسته معك، فقال لها المطلب: إني غير منصرف حتى أخرج به معي، إن ابن أخي قد بلغ وهو غريب في غير قومه، ونحن أهل بيت شرف في قومنا، وقومه وعشيرته ويلده خير من الإقامة في غيرهم، فقال شبيهة لعمه: إني لست بمفارقها إلا أن تأذن لي، فأذنت له ودفعته إليه، فأردفه خلفه على بغيره. ويحتاج إلى الجمع بين هذا وما قبله، فقالت قريش عبد المطلب ابتاعه: أي ظناً منهم أنه اشتراه من المدينة فإن الشمس أثرت فيه وعليه ثياب أخلاق، فقال لهم: ويحكم إنما هو ابن أخي هاشم. ولا يخالف هذا ما سبق، من أنه صار يقول لمن يسأله عنه من هذا؟ فيقول عيدي، لأنه يجوز أن يكون بعض الناس قال من عند نفسه هذا عبد المطلب ظناً منه، وبعضهم سأله فأجابته بقوله هذا عيدي كما تقدم، ولما دخل مكة قال لهم ويحكم إلى آخره. وهاشم (بن عبد مناف) وعبد مناف اسمه المغيرة. أي وكان يقال له قمر البطحاء لحسنه وجماله، وهذا هو الجد الثالث لرسول الله، وهو الجد الرابع لعثمان بن عفان، والجد التاسع لإمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنهما.

ووجد كتاب في حجر: أنا المغيرة بن قصي، أوصي قريشاً بتقوى الله جل وعلا، وصلة الرحم، ومناف أصله مناة اسم صنم كان أعظم أصنامهم، وكانت أمه جعلته خادماً لذلك الصنم. وقيل وهبته له لأنه كان أول ولد لقصي على ما قيل، لأن عبد مناف بن قصي أي ويسمى قصي زيدا.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وعن إمامنا الشافعي رضي الله عنه أن اسمه يزيد، ويدعى مجمعاً أيضاً. وقيل له قصي لأنه قصي: أي بعد عن عشيرته إلى أخواله بني كلب في ناديهم. وقيل بعد إلى قضاة مع أمه لأنها كانت منهم.

أقول: لا منافاة، لجواز أن تكون أم قصي من بني كلب وأبوها من قضاة، وأنها رحلت بعد موت عبد مناف إلى بني كلب، ثم لما تزوجت من قضاة رحلت إليها، ولعل قضاة كانت جهة الشام، فلا يخالف ما قيل.

وقيل له قصي لأنه بعد مع أمه إلى الشام، لأن أمه تزوجت بعد موت أبيه وهو فطيم بشخص يقال له ربيعة بن حزام. وقيل حزام بن ربيعة العذري، فرحل بها إلى الشام وكان قصي لا يعرف له أباً إلا زوج أمه المذكور، فلما كبر وقع بينه وبين آل زوج أمه شر: أي فإنه ناضل رجلاً منهم فنضله قصي أي غلبه، فغضب

ذلك الرجل وغير قصياً بالغربة وقال له: ألا تلحق بقومك وببلادك فإنك لست منا.

وفي لفظ: لما قيل له ذلك، قال ممن أنا؟ قيل له سل أمك فشكا ذلك إلى أمه، فقالت له: بلادك خير من بلادهم، وقومك خير من قومهم، أنت أكرم أباً منهم، أنت ابن كلاب بن مرة، وقومك بمكة عند البيت الحرام تفد إليه العرب، وقد قالت لي كاهنة رأتك صغيراً إنك تلي أمراً جليلاً، فلما أراد الخروج إلى مكة قالت له أمه: لا تعجل حتى يدخل الشهر الحرام فتخرج مع حجاج قضاة، فإني أخاف عليك، فشخص مع الحجاج، فقدم قصي مكة على قومه مع حجاج قضاة، فعرفوا له فضله وشرفه، فأكرموه وقدموه عليهم، فساد فيهم ثم تزوج بنت حليل بالحاء المهملة المضمومة الخزاعي وكان أمر مكة والبيت إليه، وهو آخر من ولي أمر البيت والحكم بمكة من خزاعة، فجاء منها بأولاده الآتي ذكرهم، فلما انتشر ولده وكثر ماله وعلم شرفه مات حليل، فرأى قصي أنه أولى بأمر مكة من خزاعة، لأن قريشاً أقرب إلي إسماعيل من خزاعة، فدعا قريشاً وبني كنانة إلى إخراج خزاعة من مكة فأجابوه إلى ذلك وانضم له قضاة، جاء بهم أخو قصي لأمه فأزاح قصي يد خزاعة وولي أمر مكة. وقيل إن حليلاً جعل أمر البيت لقصي. ولا منافاة لجواز أن تكون خزاعة لم ترض بما فعله حليل من أن يكون أمر البيت لقصي فحاربهم وأخرجهم من مكة.

وقيل إن حليلاً أوصى بذلك لأبي غبشان بضم الغين المعجمة بعد أن أوصى بذلك لابنته زوج قصي وقالت له لا قدرة لي على فتح البيت وإغلاقه، وأن قصياً أخذ ذلك منه بزق خمر، فقالت العرب: أخسر صفقة من أبي غبشان. وقيل إن أبا غبشان أعطى ذلك لبنت حليل زوج قصي، وأعطاه قصي أثواباً وأبصرة، فكان أبو غبشان آخر من ملك أمر مكة والبيت من خزاعة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

ولا يخالف ذلك ما تقدم من أن حليلاً آخر من ولي أمر البيت والحكم بمكة، لجواز أن يكون المراد آخر من ولي ذلك، واستمر كذلك إلى أن مات. قال بعضهم: وكان أبو غبشان خالاً لقصي، وكان في عقله شيء، فخدعه قصي فاشترى منه أمر مكة والبيت بأذواد من الإبل. والجمع بين هذه الروايات من أن قصياً أخذه من أبي غبشان بزق خمر، وبين أنه أخذ ذلك بأثواب وأبصرة، وبين أنه أخذ ذلك بأذواد من الإبل ممكن، لجواز أن يكون جمع بين الخمر والأثواب والإبل فوقع الاقتصار على بعضها من بعض الرواة تأمل. ثم جمع قصي قريشاً بعد تفرقها في البلاد وجعلها اثنتي عشرة قبيلة كما سيأتي، ومن ثم قيل له مجمع. وفي كلام بعضهم: ولذلك سماه النبي صلى الله عليه وسلم مجمعا، وإلى ذلك يشير قول الشاعر:

قصي لعمرى كان يدعى مجمعا
به جمع الله القبائل من فهر

وهذا البيت من قصيدة مدح بها عبد المطلب مدحه بها حذافة بن غانم، فإن ركباً من جذام فقدوا رجلاً منهم غالته بيوت مكة، فلقوا حذافة فأخذوه فربطوه ثم انطلقوا به، فتلقاهم عبد المطلب مقبلاً من الطائف معه ابنه أبو لهب يقوده وقد ذهب بصره، فلما نظر إليه حذافة هتف به، فقال عبد المطلب لأبي لهب: ويحك ما هذا؟ قال: هذا حذافة بن غانم مربوطاً مع ركب، قال الحقهم واسألهم ما شأنهم، فلحقهم فأخبروه الخبر، فرجع إلى عبد المطلب، فقال ما معك؟ قال: والله ما معي شيء، قال: الحقهم لا أم لك وأعطهم ما بيدك وأطلق الرجل، فلحقهم أبو لهب فقال: قد عرفت تجارتني ومالي، وأنا أحلف لكم لأعطينكم عشرين أوقية ذهباً وعشراً من الإبل وفرساً، وهذا ردائي رهناً بذلك، فقبلوه منه وأطلقوا حذافة فأقبل به، فلما سمع عبد المطلب صوت أبي لهب قال: وأبي إنك لعاص؟ ارجع لا أم لك، قال: يا أبتاه هذا الرجل معي، فناداه يا حذافة أسمعني صوتك فقال: ها أنا ذا بأبي أنت يا ساقى الحجيج أردفني، فأردفه خلفه حتى دخل مكة، فقال حذافة هذه القصيدة ومطلعها:

بنو شيبة الحمد الذي كان وجهه
يضىء ظلام الليل كالقمر البدر
وهي قصيدة جيدة.

فإن قيل: كيف قبل القوم من أبي لهب رهناً على ما ذكره لهم في أن يخلوا عن الرجل مع أن رداءه لا يقع موقعاً من ذلك؟

أجيب: بأن سنة العرب وطريقتهم أن الواحد منهم إذا رهن غيره ولو شيئاً حقيراً على أمر جليل لا يغدر، بل يحرض على وفاء ما رهن عليه، ومن ثم لما أجدبت أرض تميم بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ذهب سيدهم حاجب بن زرارة والد عطاردي رضي الله تعالى عنه إلى كسرى ليأخذ منه أماناً لقومه لينزلوا ريف العراق لأجل المرعى، فقال له كسرى: أنتم قوم غدر، وأخاف على الرعايا منكم، فقال له حاجب: أنا ضامن أن لا تفعل قومي شيئاً من ذلك، فقال له كسرى: ومن لي بوفائك؟ قال: هذه قوسي رهينة، فحمقه كسرى وجلساؤه وضحكوا منه، فقيل له: العرب لو رهن أحدهم شيئاً لا بد أن يفي به، فلما أخصبت أرض تميم بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم لهم لما وفد إليه جماعة منهم وأسلموا ومات حاجب، أمر عطاردي رضي الله عنه قومه بالذهاب إلى بلادهم، وجاء عطاردي رضي الله عنه إلى كسرى فطلب قوس أبيه، فقال: إنك لم تسلم إليّ شيئاً فقال: أيها الملك، أنا وارث أبي وقد وفينا بالضمان، فإن لم تدفع إلي قوس أبي صار عاراً علينا وسبة، فدفعها له وكساه حلة، فلما وفد عطاردي على النبي صلى الله عليه وسلم وأسلم دفعها للنبي، فلم يقبلها وقال «إنما يلبس هذه الحلة من لا خلاق له» فكانت بنو تميم تعد ذلك القوس من مفاخرهم، وإلى هذا أشار بعض الشعراء وقد أحسن وأجاد وتلطف بقوله:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

تزهو علينا بقوس حاجبها

تبه تميم بقوس حاجبها

وصار قصي رئيساً لقريش على الإطلاق حين أزاح يد خزاعة عن البيت، وأجلاهم عن مكة بعد أن لم يسلموا لقصي في ولاية أمر البيت، ولم يجيزوا ما فعل حليل وأبو غيثان على ما تقدم، وذلك بعد أن اقتتلوا آخر أيام منى بعد أن حذرتهم قريش الظلم والبغي، وذكرتهم ما صارت إليه جرهم حين الحدوا في الحرم بالظلم، فأبت خزاعة، فاقتتلوا قتالاً شديداً، وكثر القتل والجراح في الفريقين إلا أنه في خزاعة أكثر، ثم تداعوا للصلح واتفقوا على أن يحكموا بينهم رجلاً من العرب، فحكموا يعمر بن عوف وكان رجلاً شريفاً، فقال لهم: موعدكم فناء الكعبة غداً، فلما اجتمعوا قام يعمر، فقال: ألا إني قد شذخت ما كان بينكم من دم تحت قدمي هاتين، فلا تباعة لأحد على أحد في دم. وقيل قضى بأن كل دم أصابته قريش من خزاعة موضوع، وأن ما أصابته خزاعة من قريش فيه الدية، وقضى لقصي بأنه أولى بولاية مكة، فتولاها. قيل: وكان يعشر من دخل مكة من غير أهلها، أي بتجارة، وكانت خزاعة قد أزالته يد جرهم عن ولاية البيت، فإن مضاض بن عمرو الجرهمي الأكبر ولي أمر البيت بعد ثابت بن إسماعيل عليه الصلاة والسلام، فإنه كان جداً لثابت وغيره من أولاد إسماعيل لأهمهم، واستمرت جرهم ولاة البيت والحكام بمكة لا ينازعهم ولد إسماعيل في ذلك لخؤولهم، وإعظاماً لأن يكون بمكة بغي.

ثم إن جرهماً بغوا بمكة، وظلموا من يدخلها من غير أهلها، وأكلوا مال الكعبة الذي يهدى لها، حتى إن الرجل منهم كان إذا أراد أن يزني ولم يجد مكاناً دخل البيت فزنى فيه، فأجمعت - أي عزمت - خزاعة لجرهم وإخراجهم من مكة، ففعلوا ذلك بعد أن سلط الله تعالى على جرهم دواب تشبه النغف بالغين المعجمة والفاء؛ وهو دود يكون في أنوف الإبل والغنم، فهلك منهم ثمانون كهلاً في ليلة واحدة سوى الشباب. وقيل سلط الله عليهم الرعاف فأفنى غالبهم: أي وجزأ أن يكون ذلك الدم ناشئاً عن ذلك الدود فلا مخالفة، وذهب من بقي إلى اليمن مع عمرو بن الحرث الجرهمي آخر من ملك أمر مكة من جرهم، وجزنت جرهم على ما فارقوا من أمر مكة وملكها حزناً شديداً وقال عمرو أبياتاً منها:

كان لم يكن بين الحجون إلى الصفا

أنيس ولم يسمر بمكة سامر

وكننا ولاة البيت من بعد ثابت

نطوف بذاك البيت والخير ظاهر

بلى نحن كنا أهلها فأبادنا

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

صروف الليالي والدهور البواتر

ومن غريب الاتفاق ما حكاه بعضهم قال: كنت أكتب بين يدي الوزير يحيى بن خالد البرمكي أيام الرشيد فأخذ النوم، فنام برهة ثم انتبه مذعوراً فقال: الأمر كما كان، والله ذهب ملكنا، وذل عزنا، وانقضت أيام دولتنا. قلت: وما ذاك أصلح الله الوزير؟ قال: سمعت منشداً أنشدني: كان لم يكن بين الحجون البيت، وأجبتة من غير روية: بلى نحن كنا أهلها البيت، فلما كان اليوم الثالث وأنا بين يديه على عادتي إذ جاءه إنسان وأكب عليه، وأخبره أن الرشيد قتل جعفر الساعة قال: أو قد فعل؟ قال نعم، فما زاد أن رمى القلم من يده

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وقال: هكذا تقوم الساعة بغتة. ومما يؤثر عن يحيى هذا: ينبغي للإنسان أن يكتب أحسن ما يسمع، ويحفظ أحسن ما يكتب، ويحدث بأحسن ما يحفظ. وقال: من لم يبت على سرور الوعد لم يجد للصنعة طعاماً.

وصارت خزاعة بعد جرهم ولاة البيت والحكام بمكة كما تقدم، وكان كبير خزاعة عمرو بن لحي، وهو ابن بنت عمرو بن الحارث الجرهمي آخر ملوك جرهم المتقدم ذكره. وقد بلغ عمرو بن لحي في العرب من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده في الجاهلية. وهو أول من أطعم الحج بمكة سدائف الإبل ولحمانها على الثريد. والسدائف: جمع سديف، وهو شحم السنام، وذهب شرفه في العرب كل مذهب حتى صار قوله ديناً متبعاً لا يخالف. وفي كلام بعضهم: صار عمرو للعرب رباً، لا يتدع لهم بدعة إلا اتخذوها شرعة، لأنه كان يطعم الناس ويكسوهم في الموسم، وربما نحر لهم في الموسم عشرة آلاف بدنة وكسا عشرة آلاف حلة. وهو أول من غير دين إبراهيم: أي فقد قال بعضهم: تضافرت نصوص العلماء على أن العرب من عهد إبراهيم استمرت على دينه: أي من رفض عبادة الأصنام إلى زمن عمرو بن لحي، فهو أول من غير دين إبراهيم، وشرع للعرب الضلالات، فعبد الأصنام وسبب السائبة وبحر البحيرة. وقيل أول من بحر البحيرة رجل من بني مدلج كانت له ناقتان فجدع أذنيهما وحرّم البانهما، فقال رسول الله: «رأيت في النار يخبطانه بأخفافهما، وبعضانه بأفواههما».

وعمرّو أول من وصل الوصيلة، وحمى الحامي، ونصب الأصنام حول الكعبة وأتى بهيل من أرض الجزيرة ونصبه في بطن الكعبة فكانت العرب تستقسم عنده بالأزلام على ما سيأتي. وأول من أدخل الشرك في التلبية، فإنه كان يلبي بتلبية إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، وهي «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك» فعند ذلك تمثل له الشيطان في صورة شيخ يلبي معه، فلما قال عمرو لبيك لا شريك لك، قال له ذلك الشيخ: إلا شريكاً هو لك، فأنكر عمرو ذلك، فقال له ذلك الشيخ: تملكه وما ملك، وهذا لا بأس به، فقال ذلك عمرو، فتبعته العرب على ذلك: أي فيوحدونه بالتلبية، ثم يدخلون معه أصنامهم ويجعلون ملكها بيده، قال تعالى توبيخاً لهم {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون} وهو أول من أحل أيضاً أكل الميتة، فإن كل القبائل من ولد إسماعيل لم تزل تحرم أكل الميتة حتى جاء عمرو بن لحي فزعم أن الله تعالى لا يرضى تحريم أكل الميتة، قال: كيف لا تأكلون ما قتل الله وتأكلون ما قتلتم؟.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

مكتبة مشكاة

وروى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رأيت جهنم يحطم بعضها بعضاً، ورأيت عمراً يجر قُصبه في النار» وفي رواية «أمعاه» أي وهي المراد بالقصب بضم القاف. وفي رواية «رأيت يئذي أهل النار بريح قصبه» ويقال للأمعاء الأفتاب واحدها قتب بكسر القاف وسكون المثناة الفوقية آخره باء موحدة، ومن ذلك قوله «يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار فتندلق أفتابه في النار» والاندلاق: الخروج بسرعة. وقال لأكثم بن الجون الخزاعي واسمه عبد العزى و أكثم بالناء المثلثة: وهو في اللغة واسع البطن «يا أكثم رأيت عمرو بن لحي يجر قصبه في النار، فما رأيت رجلاً أشبه من رجل منك به ولا بك منه، فقال أكثم: فعسى أن يضرنى شبيهه يا رسول الله، قال لا، إنك مؤمن وهو كافر، إنه أول من غير دين إسماعيل فنصب الأوثان» أي ودين إسماعيل هو دين إبراهيم عليهما الصلاة والسلام، فإن العرب من عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام استمرت على دينه لم يغيره أحد إلى عهد عمرو المذكور كما تقدم. وفي كلام بعضهم أن أكثم هذا هو أبو معبد زوج أم معبد التي مّر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند الهجرة، وأكثم هذا هو الذي قال له رسول الله «رأيت الدجال، فإذا أشبه الناس به أكثم بن عبد العزى، فقام أكثم فقال: أبيضرنى شيهي إياه؟ فقال: لا، أنت مؤمن وهو كافر» ورده ابن عبد البر حيث قال: الحديث الذي فيه ذكر الدجال لا يصح إنما يصح ما قاله في ذكر عمرو بن لحي.

وإنما كان عمرو بن لحي أول من نصب الأوثان، لأنه خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فرأى بأرض البلقاء العماليق ولد عملاق بن لاوذ بن سام بن نوح، وراهم يعبدون الأصنام، فقال لهم، ما هذه؟ قالوا هذه أصنام نعبدها، فنستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: أفلا تعطوني منها صنماً فأسير به إلى أرض العرب؟ فأعطوه صنماً يقال له هبل، فقدم به مكة فنصبه في بطن الكعبة على بئرها، وأمر الناس بعبادته وتعظيمه فكان الرجل إذا قدم من سفره بدأ به قبل أهله بعد طوافه بالبيت وحلق رأسه عنده، وكان عند هبل سبع قداح: قدح فيه مكتوب الغفل إذا اختلفوا فيمن يحمله منهم ضربوا به فعلى من خرج حمله. وقدح مكتوب فيه نعم. وقدح مكتوب فيه لا وذلك للأمر الذي يريدونه، وقدح فيه منكم. وقدح فيه ملصق من غيركم إذا اختلفوا في ولد هل هو منهم أو لا. وقدح فيه بها. وقدح فيه ما بها إذا أرادوا أرضاً يحفرونها للماء وكان هبل من العقيق على صورة إنسان. وعاش عمرو بن لحي هذا ثلثمائة سنة وأربعين سنة، ورأى من ولده وولد ولده ألف مقاتل: أي ومكث هو وولده من بعده في ولاية البيت خمسمائة سنة، وكان آخرهم حليل الذي تزوج قصي بنته كما تقدم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وقيل: وكان لعمرو تابع من الجن، فقال له: اذهب إلى جدة وائت منها بالآلهة التي كانت تعبد في زمن نوح وإدريس عليهما الصلاة والسلام، وهي ودّ وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فذهب وأتى بها إلى مكة ودعا إلى عبادتها، فانتشرت

عبادة الأصنام في العرب، فكان ود لكلب، وسواع لهمدان، وقيل لهذيل، ويغوث لمذحج بالذال المعجمة على وزن مسجد أبو قبيلة من اليمن، ويعوق لمراد. وقيل لهمدان، ونسر لحمير أي وكانوا هؤلاء على صور عباد ماتوا، فحزن أهل عصرهم عليهم فصوّروهم إبليس اللعين أمثالهم من صفر ونحاس ليستأنسوا بهم، فجعلوها في مؤخر المسجد، فلما هلك أهل ذلك العصر قال اللعين لأولادهم: هذه آلهة آبائكم تعبدونها، ثم إن الطوفان دفنها في ساحل جدة فأخرجها اللعين.

وفي كلام بعضهم أن آدم كان له خمسة أولاد صلحاء، وهم ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر، فمات ود فحزن الناس عليه حزناً شديداً، واجتمعوا حول قبره لا يكادون يفارقونه، وذلك بأرض بابل، فلما رأى إبليس ذلك من فعلهم جاء إليهم في صورة إنسان وقال لهم: هل لكم أن أصور لكم صورته إذا نظرتم إليها ذكرتموه؟ قالوا نعم، فصوّروهم صورته، ثم صار كلما مات واحد منهم صور صورته وسموا تلك الصور بأسمائهم، ثم لما تقادم الزمان وماتت الآباء والأبناء وأبناء الأبناء قال لمن حدث بعدهم إن الذين كانوا قبلكم يعبدون هذه الصور فعبدوها، فأرسل الله لهم نوحاً، فنهاهم عن عبادتها فلم يجيبوه لذلك، وكان بين آدم ونوح عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق. فأول ما حدثت عبادة الأصنام في قوم نوح، فأرسله الله تعالى إليهم فنهاهم عن ذلك. ويقال إن عمرو بن لحي هو الذي نصب مناة على ساحل البحر مما يلي قديد، وكانت الأزدي يحجون إليه ويعظمونه، وكذلك الأوس والخزرج وغسان.

وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني في تفسيره لبعض الآيات القرآنية عند قوله تعالى {ولله يسجد من في السموات والأرض} أن أصل وضع الأصنام إنما هو من قوة التنزيه من العلماء الأقدمين، فإنهم نزهوا الله تعالى عن كل شيء وأمروا بذلك عامتهم، فلما رأوا أن بعض عامتهم صرح بالتعطيل وضعوا لهم الأصنام وكسوها الديباج والحلي والجواهر، وعظموها بالسجود وغيره ليتذكروا بها الحق الذي غاب عن عقولهم، وغاب عن أولئك العلماء أن ذلك لا يجوز إلا بإذن من الله تعالى، هذا كلامه.

وكان في زمان جرهم رجل فاجر يقال له إساف فجر بامرأة يقال لها نائلة في جوف الكعبة أي قبلها فيها كما في تاريخ الأزرقى.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وقيل زنى بها فمسخا حجرين، فأخرجها منها ونصبا على الصفا والمروة ليكونا عبرة، فلما كان زمن عمرو بن لحي أخذهما ونصبهما حول الكعبة أي على زمزم وجعلها وصار من يطوف يتمسح بهما يبدأ بإساف ويختم بنائلة، وذلك قبل أن يقدم عمرو بهيل وبتلك الأصنام، وكانت قريش تذبح ذبائحها عندهما.

وذكر أنه لما كسر نائلة عند فتح مكة خرجت منها امرأة سوداء شمطاء تخمش وجهها وهي تنادي بالويل والثبور، وكان عمرو يخبر قومه بأن الرب يشنتي بالطائف عند اللات وبصيف عند العزى، فكانوا يعظمونهما وكانوا يهدون إلى العزى كما يهدون إلى الكعبة.

وقصي هو الذي أمر قريشاً أن يبنوا بيوتهم داخل الحرم حول البيت وقال لهم إن فعلتم ذلك هابتكم العرب ولم تستحل قتالكم، فبنوا حول البيت من جهاته الأربع وجعلوا أبواب بيوتهم جهته لكل بطن منهم باب ينسب الآن إليه، كباب بني شيبه، وباب بني سهم، وباب بني مخزوم، وباب بني جمع، وتركوا قدر الطواف بالبيت، فبنى قصي دار الندوة وهي أول دار بنيت بمكة، واستمر الأمر على أنه ليس حول الكعبة إلا قدر المطاف، وليس حوله جدار زمنه وزمن ولاية الصديق رضي الله عنه فلما كان زمن ولاية عمر بن الخطاب رضي الله عنه اشترى تلك الدور من أهلها وهدمها وبنى المسجد المحيط بها، ثم لما كان زمن ولاية عثمان رضي الله عنه اشترى دوراً آخر وغالى في ثمنها وهدمها وزاد في سعة المسجد، ثم إن ابن الزبير رضي الله عنهما زاد في المسجد زيادة كثيرة، ثم إن عبد الملك بن مروان رفع جداره وسقفه بالساج وعمره عمارة حسنة ولم يزد فيه شيئاً، ثم إن الوليد بن عبد الملك وسع المسجد وحمل إليه أعمدة الرخام، ثم زاد فيه المهدي والد الرشيد مرتين، واستقر بناؤه على ذلك إلى الآن.

وكانت قريش قبل ذلك: أي قبل بناء منازلهم في الحرم يحترمون الحرم ولا يبيتون فيه ليلاً، وإذا أراد أحدهم قضاء حاجة الإنسان خرج إلى الحل. وقد جاء أنه لما كان بمكة إذا أراد حاجة الإنسان خرج إلى المغمس بكسر الميم أفصح من فتحها، وهو على ثلثي فرسخ من مكة، وهابت قريش قطع شجر الحرم التي في منازلهم التي بنوها، فقد كان بمكة شجر كثير من العضاه والسلم، وشكوا في ذلك إلى قصي فأمرهم بقطعها، فهابوا ذلك، فقالوا نكره أن ترى العرب أيا استخففنا بحرماننا، فقال قصي: إنما تقطعون لمنازلكم وما تريدون به فساداً، بهلة الله: أي لعنته على من أراد فساداً، فقطعها قصي بيده وبيد أعوانه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وفي كلام السهيلي عن الواقدي: الأصح أن قريشاً حين أرادوا البنين قالوا لقصي كيف نضع في شجر الحرم، فحذرهم قطعها وخوفهم العقوبة في ذلك، فكان أحدهم يحدق بالبنين حول الشجرة حتى تكون في منزله. قال: وأول من ترخص في قطع شجر الحرم للبنين عبد الله بن الزبير حين ابتنى دوراً بقعيقعان، لكنه جعل فداء كل شجرة بقرة فليتأمل الجمع. وأنزل قصي القبائل من قريش: أي فإنه جعلها اثنتي عشرة قبيلة كما تقدم في نواحي مكة بطاوحها وظواهرها، ومن ثم قيل لمن سكن البطاح قريش البطاح، ولمن سكن الظواهر قريش الظواهر، والأولى أشرف من الثانية، ومن الأولى بنو هاشم، وإلى ذلك يشير صاحب الأصل في وصفه بقوله:

من بني هاشم بن عبد مناف

وبنو هاشم بحار الحياء

من قريش البطاح من عرف النا

س لهم فضلهم بغير امتراء

قال بعضهم: كان قصي أول رجل من بني كنانة أصاب ملكاً ولما حضر الحج قال لقريش: قد حضر الحج وقد سمعت العرب بما صنعتنم وهم لكم معظمون، ولا أعلم مكرمة عند العرب أعظم من الطعام، فليخرج كل إنسان منكم من

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

ماله خرجاً ففعلوا، فجمع من ذلك شيئاً كثيراً، فلما جاء أوائل الحج نحر على كل طريق من طرق مكة جزوراً ونحر بمكة وجعل الثريد واللحم، وسقى الماء المحلى بالزبيب وسقى اللبن. وهو أول من أوقد النار بمزدلفة ليراها الناس من عرفة ليلة النفر. ومما يؤثر عن قصي: من أكرم لثيماً أشركه في لؤمه. ومن استحسن قبيحاً نزل إلى قبحه. ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان. ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان. والحسود العدو الخفي. ولما احتضر قال لأولاده: اجتنبوا الخمرة، فإنها تصلح الأبدان وتفسد الأذهان. وحاز قصي شرف مكة كله، فكان بيده السقاية والرفادة والحجبة والندوة واللواء والقيادة.

وكان عبد الدار أكبر أولاد قصي وعبد مناف أشرفهم: أي لأنه شرف في زمان أبيه قصي، وذهب شرفه كل مذهب، وكان يليه في الشرف أخوه المطلب، كان يقال لهما البدران، وكانت قريش تسمي عبد مناف الفياض لكثرة جوده، فأعطى قصي ولده عبد الدار جميع تلك الوظائف التي هي السقاية والرفادة والحجبة والندوة واللواء والقيادة: أي فإنه قال له: أما والله يا بني لألحقنك بالقوم يعني أخويه عبد مناف والمطلب وإن كانوا قد شرفوا عليك، لا يدخل رجل منهم الكعبة حتى تكون أنت تفتحها له: أي بسبب الحجبة للبيت، ولا يعقد لقريش لواء لحربها إلا أنت بيدك: أي وهذا هو المراد باللواء، ولا يشرب رجل بمكة إلا من سقائك، وهذا هو المراد بالسقاية، ولا يأكل أحد من أهل الموسم إلا من طعامك: أي وهذا هو المراد بالرفادة ولا تقطع قريش أمراً من أمورها إلا في دارك يعني دار الندوة: أي ولا يكون أحد قائد القوم إلا أنت وذلك بسبب القيادة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

فلما مات عبد الدار وأخوه عبد مناف أراد بنو عبد مناف وهم هاشم وعبد شمس والمطلب، وهؤلاء إخوة لأب وأم، أمهم عاتكة بنت مرة، ونوفل أخوهم لأبيهم، أمه واقدة بنت حرملة أن يأخذوا تلك الوظائف من بني عمهم عبد الدار، وأجمعوا على المحاربة: أي وأخرج بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها لأحلافهم في المسجد عند باب الكعبة ثم غمس القوم أيديهم فيها، وتعاقدوا هم وحلفاؤهم، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً على أنفسهم، فسموا المطيبين: أي أخرجتها لهم أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب عممة النبي صلى الله عليه وسلم توامة أبيه، ووضعتها في الحجر وقالت: من تطيب بهذا فهو منا، فتطيب منها مع بني عبد مناف بنو زهرة وبنو أسد بن عبد العزى وبنو تميم بن مرة وبنو الحارث بن فهر، فالمطيبون من قريش خمس قبائل. وتعاقد بنو عبد الدار وأحلافهم، وهم: بنو مخزوم وبنو سهم وبنو جمح وبنو عدي بن كعب، على أن لا يتخادلوا ولا يسلم بعضهم بعضاً، فسموا الأحلاف لتحالفهم بعد أن أخرجوا جفنة مملوءة دماً من دم جزور نحرها ثم قالوا: من أدخل يده في دمها فلحق منه فهو منا وصاروا يضعون أيديهم فيها ويلعقونها فسموا لعقة الدم.

وقيل الذين لعقوا الدم فسموا لعقة الدم بنو عدي خاصة، ثم اصطلحوا على أن تكون السقاية والرفادة والقيادة لبني عبد مناف، والحجابه واللواء لبني عبد الدار، ودار الندوة بينهم بالاشتراك، وتحالفوا على ذلك هذا. والذي رأته (في المشرق فيم يحاضر به من آداب المشرق): ولما شرف عبد مناف بن قصي في حياة أبيه، وذهب شرفه كل مذهب، وكان قصي يحب ابنه عبد الدار أراد أن يبقى له ذكراً فأعطاه الحجابه ودار الندوة واللواء، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة، وجعل عبد الدار الحجابه لولده عثمان، وجعل دار الندوة لولده عبد مناف بن عبد الدار، ثم وليها عبد العزى بن عثمان بن عبد الدار، ثم وليها ولده من بعده.

والسقاية كانت حياضاً من أدم توضع بفناء الكعبة، وينقل إليها الماء العذب من الآبار على الإبل في المزاد والقرب قبل حفر زمزم، وربما قذف فيها التمر والزبيب في غالب الأحوال لسقي الحاج أيام الموسم حتى يتفرقوا، وهذه السقاية قام بها وبالرفادة بعد عبد مناف ولده هاشم، وبعده ولده عبد المطلب، وكان شريفاً مطاعاً جواداً، وكانت قريش تسميه الفياض لكثرة جوده، فلما كبر عبد المطلب فوَّض إليه أمر السقاية والرفادة، فلما مات المطلب وثب عليه عمه نوفل بن عبد مناف وغصبه أركاحاً: أي أفنية ودوراً، فسأل عبد المطلب رجلاً من قومه النصره على عمه نوفل فأبوا وقالوا: لا ندخل بينك وبين عمك فكتب إلى أخواله بني النجار بالمدينة بما فعله معه عمه نوفل، فلما وقف خاله أبو سعد بن عدي بن النجار على كتابه بكى، وسار من المدينة في ثمانين راكباً حتى قدم مكة فنزل الأيطح، فتلقيه عبد المطلب وقال له المنزل يا خال، فقال: لا والله حتى ألقى نوفلاً، فقال: تركته في الحجر جالساً في مشايخ قريش، فأقبل أبو سعد حتى وقف عليهم، فقام نوفل قائماً وقال: يا أبا سعد، أنعم صباحاً فقال له أبو سعد: لا أنعم الله لك صباحاً، وسل سيفه وقال: ورب هذه البنية لئن لم تردّ على ابن أختي أركاحه لأملأن منك هذا السيف، فقال: قد رددتها عليه، فأشهد عليه مشايخ قريش، ثم نزل على عبد المطلب، فأقام عنده ثلاثاً ثم اعتمر ورجع إلى المدينة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

ولما جرى ذلك حالف نوفل وبنوه بني أخيه عبد شمس على بني هاشم، وحالفت بنو هاشم خزاعة على بني نوفل وبني عبد شمس: أي فإن خزاعة قالت: نحن أولى بنصرة عبد المطلب، لأن عبد مناف جد عبد المطلب أمه حي بنت حليل سيد خزاعة كما تقدم، فقالوا لعبد المطلب: هلم فلنحالفك، فدخلوا دار الندوة وتحالفوا وتعاقدوا وكتبوا بينهم كتاباً: باسمك اللهم، هذا ما تحالف عليه بنو هاشم ورجالات عمرو بن ربيعة من خزاعة على النصره والمواساة ما بلّ بحر صوفة، وما أشرفت الشمس على ثبير، وهبّ بفلاة بعير، وما أقام الأخشبان، واعتمر بمكة إنسان، والمراد من ذلك الأبد.

وعبد المطلب لما حفر زمزم صار ينقل الماء منها لتلك الأحواض ويقذف فيها التمر والزبيب، ثم بعده قام بها ولده أبو طالب، ثم اتفق أن أبا طالب أملق: أي

افتقر في بعض السنين، فاستدان من أخيه العباس عشرة آلاف درهم إلى الموسم الآخر، فصرفها أبو طالب في الحجج عامه ذلك فيما يتعلق بالسقاية، فلما كان العام المقبل لم يكن مع أبي طالب شيء، فقال لأخيه العباس أسلفني أربعة عشر ألفاً أيضاً إلى العام المقبل لأعطيك جميع مالك، فقال له العباس: بشرط إن لم تعطني تترك السقاية لأكفلها؟ فقال نعم، فلما جاء العام الآخر لم يكن مع أبي طالب ما يعطيه لأخيه العباس فترك له السقاية، فصارت للعباس، ثم لولده عبد الله بن عباس، واستمر ذلك في بني العباس إلى زمن السفاح، ثم ترك بنو العباس ذلك.

والرفادة: إطعام الحاج أيام الموسم حتى يتفرقوا، فإن قريشاً كانت على زمن قصي تخرجه من أموالها في كل موسم فتدفعه إلى قصي، فيصنع به طعاماً للحاج يأكل منه من لم يكن معه سعة ولا زاد كما تقدم حتى قام بها بعده ولده عبد مناف ثم بعد عبد مناف ولده هاشم ثم بعد هاشم ولده عبد المطلب، ثم ولده أبو طالب وقيل ولده العباس، ثم استمر ذلك إلى زمنه وزمن الخلفاء بعده ثم استمر ذلك في الخلفاء إلى أن انقضت الخلافة من بغداد ثم من مصر.

وأما القيادة: وهي إمارة الركب، فقام بها بعد عبد مناف ولده عبد شمس ثم كانت بعد عبد شمس لابنه أمية ثم لابنه حرب، ثم لابنه أبي سفيان، فكان يقود الناس في غزواتهم، قاد الناس يوم أحد ويوم الأحزاب، ومن ثم لما قال الوليد بن عبد الملك لخالد بن يزيد بن معاوية: لست في العير ولا في النفير، قال: له ويحك، العير والنفير عيبي: أي وعائي، لأن العيبة ما يجعل فيه الثياب، جدي أبو سفيان صاحب العير، وجدي عتبة بن ربيعة صاحب النفير.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

ودار الندوة كانت قريش تجتمع فيها للمشاورة في أمورها، ولا يدخلها إلا من بلغ الأربعين، وكانت الجارية إذا حاضت تدخل دار الندوة ثم يشق عليها بعض ولد عبد الدار درعها ثم يدرعها إياه وانقلب بها فتحجب، وهذه كانت سنة قصي، فكان لا ينكح رجل امرأة من قريش إلا في دار قصي التي هي دار الندوة، ولا يعقد لواء حرب إلا فيها، ولا تدرع جارية من قريش إلا في تلك الدار فيشق عنها درعها ويدرعها بيده، فكانت قريش بعد موت قصي يتبعون ما كان عليه في حياته كالدين المتبع، ولا زالت هذه الدار في يد بني عبد الدار إلى أن صارت إلى حكيم بن حزام فباعها في الإسلام بمائة ألف درهم، فلامه عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما وقال أتبيع مكرمة آبائك وشرفهم؟ فقال حكيم رضي الله عنه: ذهبت المكارم إلا التقوى، والله لقد اشتريتها في الجاهلية بزق خمر، وقد بعته بمائة ألف، وأشهدكم أن تمنها في سبيل الله تعالى فأينا المغبون؟

قيل وقصي: هو جماع قريش، فلا يقال لأحد من أولاد من فوقه قرشي، ونسب هذا القول لبعض الرافضة، وهو قول باطل، لأنه توصل به إلى أن لا يكون سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر رضي الله تعالى عنهما من قريش فلا حق لهما في الإمامة العظمى التي هي الخلافة، لقوله «الأئمة من قريش» ولقوله لقريش: «أنتم

أولى الناس بهذا الأمر ما كنتم على الحق إلا أن تعدلوا عنه» لأنهما لم يلتقيا مع النبي صلى الله عليه وسلم إلا فيما بعد قصي، لأن أبا بكر رضي الله عنه يجتمع معه في مرة كما سيأتي، لأن تيم بن مرة بينه وبين أبي بكر رضي الله عنه خمسة آباء، وعمر رضي الله عنه يجتمع معه في كعب كما سيأتي، وبين عمر رضي الله عنه وكعب سبعة آباء () وقصي (بن كلاب) أي واسمه حكيم، وقيل عروة، ولقب بكلاب لأنه كان يحب الصيد وأكثر صيده كان بالكلاب، وهو الجد الثالث لأمنة أمه، ففي كلاب يجتمع نسب أبيه وأمه (ابن مرة) وهو الجد السادس لأبي بكر رضي الله تعالى عنه، والإمام مالك رضي الله تعالى عنه يجتمع معه في هذا الجد الذي هو مرة أيضاً (ابن كعب) أي وهو الجد الثامن لعمر رضي الله تعالى عنه، وكان كعب يجمع قومه يوم العروبة: أي يوم الرحمة الذي هو يوم الجمعة، ويقال إنه أول من سماه يوم الجمعة لاجتماع قريش فيه إليه، لكن في الحديث كان أهل الجاهلية يسمون يوم الجمعة يوم العروبة، واسمه عند الله تعالى يوم الجمعة. قال ابن دحية: ولم تسم العروبة الجمعة إلا منذ جاء الإسلام، وسيأتي في ذلك كلام فكانت قريش تجتمع إلى كعب ثم يعظهم ويذكرهم بمبعث النبي، ويعلمهم بأنه من ولده، ويأمرهم باتباعه، ويقول: سيأتي لحرمة نبي عظيم، وسيخرج منه نبي كريم، وينشد آياتاً آخرها:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

على غفلة يأتي النبي محمد

فيخبر أخباراً صدوق خبيرها

وينشد أيضاً:

يا ليتني شاهد فحواء دعوته

حين العشيبة تبغي الحق خذلانا

وكان بينه وبين مبعثه خمسمائة سنة وستون سنة. وفي الإمتاع: وعشرون سنة، لأن الحق أن الخمسمائة والستين إنما هي بين موت كعب والفيل الذي هو مولده كما ذكره أبو نعيم في الدلائل النبوية. وقيل إن كعباً أول من قال «أما بعد» فكان يقول: أما بعد فاسمعوا وافهموا، وتعلموا واعملوا، ليل داج. وفي رواية: ليل ساج، ونهار صاح، والأرض مهاد، والسماء بناء، والجيال أوتاد، والنجوم أعلام، والأولون كالآخرين، فصلوا أرحامكم واحفظوا أصهاركم، وثمروا أموالكم، الدار أمامكم، والظن غير ما تقولون: أي وقيل له كعب لعلوه وارتفاعه، لأن كل شيء علا وارتفع فهو كعب، ومن ثم قيل للكعبة كعبة وعلوه وارتفاع شأنه أرخوا بموته حتى كان عام الفيل أرخوا به ثم أرخوا بعد عام الفيل بموت عبد المطلب وكعب (بن لؤدي) أي بالهمزة أكثر من عدمها. أي وفي سبب تصغيره خلاف (ابن غالب بن فهر) سماه أبوه فهراً، وقيل هو لقب واسمه قريش، والمناسب أن يكون لقباً لقولهم: إنما سمي قريشاً لأنه كان يقريش: أي يفتش على خلة حاجة المحتاج فيسدها بماله، وكان بنوه يقريشون أهل الموسم عن حوائجهم فيرفدونهم، فسموا بذلك قريشاً. قال بعضهم: وهو جماع قريش عند الأكثر، قال الزبير بن بكار: أجمع النسابون من قريش وغيرهم على أن قريشاً إنما تفرقت عن فهر، وفهر هذا هو الجد السادس لأبي عبيدة بن الجراح. ولما جاء حسان بن عبد

كلال من اليمن في حمير وغيرهم لأخذ أحجار الكعبة إلى اليمن ليبنى بها بيتاً، ويجعل حج الناس إليه ونزل بنخلة، خرج فھر إلى مقاتلته بعد أن جمع قبائل العرب، فقاتله وأسره، وانهزمت حمير ومن انضم إليهم واستمر حسان في الأسر ثلاث سنين ثم افتدى نفسه بمال كثير، وخرج فمات بين مكة واليمن، فهابت العرب فھراً وعظموه وعلا أمره.

ومما يؤثر عن فھر قوله لولده غالب: قليل ما في يدك أغنى لك من كثير ما أخلق وجهك وإن صار إليك () (وفھر هو ابن مالك) قيل له ذلك لأنه ملك العرب (ابن النضر) أي ولقب به لنضارته وحسنه وجماله، واسمه قيس، وهو جماع قريش عند الفقهاء، فلا يقال لأحد من أولاد من فوقه قرشي () ويقال لكل من أولاده الذين منهم مالك وأولاده قرشي، فقد سئل رسول الله «من قريش؟ فقال من ولد النضر» أي وعلى أن جماع قريش فھر كما تقدم، فمالك وأولاده والنضر جده وأولاده ليسوا من قريش () (النضر بن كنانة) قيل له كنانة، لأنه لم يزل في كِنٍّ من قومه. وقيل لستره على قومه وحفظه لأسرارهم، وكان شيخاً حسناً عظيم القدر تحج إليه العرب لعلمه وفضله. وكان يقول: قد أن خروج نبي من مكة يدعى أحمد يدعو إلى الله وإلى البر والإحسان ومكارم الأخلاق، فاتبعوه تزدادوا شرفاً وعزاً إلى عزكم، ولا تعتدوا أي تكذبوا ما جاء به فهو الحق.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

قال ابن دحية رحمه الله: كان كنانة يأنف أن يأكل وحده، فإذا لم يجد أحداً أكل لقمة ورمى لقمة إلى صخرة ينصبها بين يديه أنفة من أن يأكل وحده. ومما يؤثر عنه: رب صورة تخالف المخبرة، قد غرت بجمالها، واختبر قبج فعالها فاحذر الصور واطلب الخبر (وكنانة بن خزيمة بن مدركة) ومدركة اسمه عمرو، وقيل له مدركة لأنه أدرك كل عز وفخر كان في آبائه، وكان فيه نور رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي ولعل المراد ظهوره فيه (ومدركة بن إلياس) بهمزة قطع مكسورة، وقيل مفتوحة أيضاً، وقيل همزة وصل. ونسب للجمهور، قيل سمي بذلك، لأن أباه مضر كان قد كبر سنه ولم يولد له ولد فولد له هذا الولد فسماه إلياس، وعظم أمره عند العرب حتى كانت تدعوه بكبير قومه وسيد عشيرته، وكانت لا تقضي أمراً دونه.

وهو أول من أهدى البدن إلى البيت، وأول من ظفر بمقام إبراهيم لما غرق البيت في زمن نوح عليه السلام فوضعه في زاوية البيت كذا في حياة الحيوان فليتأمل، وجاء في حديث «لا تسبوا إلياس فإنه كان مؤمناً» وقيل إنه جماع قريش: أي فلا يقال لأولاد من فوقه قرشي. وكان إلياس يسمع من صلبه تلبية النبي صلى الله عليه وسلم المعروفة في الحج. قيل وكان في العرب مثل لقمان الحكيم في قومه. وهو أول من مات بعلة السل، ولما مات حزنت عليه زوجته خندف حزناً شديداً، لم يظلمها سقف بعد موته حتى ماتت. ومن ثم قيل: أحزن من خندف (وإلياس بن مضر) قيل هو جماع قريش فلا يقال لأولاد من فوق مضر قرشي. ففي جماع قريش خمسة أقوال: قيل قصي، وقيل فھر،

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وقيل النضر، وقيل إلياس، وقيل مضر، ويقال له مضر الحمراء، قيل لأنه لما اقتسم هو وأخوه ربيعة مال والدهما أعني نزاراً أخذ مضر الذهب فقبل له مضر الحمراء، وأخذ ربيعة الخيل ومن ثم قيل له ربيعة الفرس. وجاء في حديث «لا تسبوا ربيعة ولا مضر فإنهما كان مؤمنين» أي وفي رواية «لا تسبوا مضر فإنه كان على دين إسماعيل». ومما حفظ عنه: من يزرع شراً يحصد ندامة. أقول: سيأتي في بنيان قريش الكعبة أنهم وجدوا فيها كتباً بالسريانية من جملتها كتاب فيه: من يزرع خيراً يحصد غبطة، ومن يزرع شراً يحصد ندامة، إلى آخر ما يأتي. وعن أبي عبيدة البكري أن قبر مضر بالروحاء يزار، والروحاء على ليلتين من المدينة والله أعلم.

وكان مضر من أحسن الناس صوتاً، وهو أول من حدا للإبل، فإنه وقع فانكسرت يده فصار يقول يا يداه يا يداه فجاءت إليه الإبل من المرعى، فلما صح وركب حدا. وقيل أول من سن الحداء للإبل عبد له ضرب مضر يده ضرباً وجيعاً فصار يقول يا يداه يا يداه فجاءت إليه الإبل من مرعاها: أي لأن الحداء مما ينشط الإبل لا سيما إن كان بصوت حسن، فإنها عند سماعه تمد أعناقها وتصغي إلى الحادي وتسرع في سيرها وتستخف الأحمال الثقيلة، وربما قطعت المسافة البعيدة في زمن قصير، وربما أخذت ثلاثة أيام في يوم واحد، وفي ذلك حكاية مشهورة، ولأجل ما ذكر ذكر أئمتنا أنه مستحب.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وفي الأذكار للإمام النووي رضي الله تعالى عنه: باب استحباب الحداء، للسرعة في السير، وتنشيط النفوس وترويحها، وتسهيل السير عليها فيه أحاديث كثيرة مشهورة (ومضر بن نزار) بكسر النون كان يرى نور النبي صلى الله عليه وسلم بين عينيه. وهو أول من كتب الكتاب العربي على الصحيح، والإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه يجتمع معه في هذا الجد الذي هو نزار بن (معد بن عدنان) هذا هو النسب المجمع عليه في نسبه عند العلماء بالأنساب، ومن ثم لما قال فقهاؤنا: شرط الإمام الأعظم أن يكون قرشياً، فإن لم يوجد قرشي جامعاً للشروط التي ذكرها فكناني. قال بعضهم: وقياس ذلك أن يقال: فإن لم يوجد كناني فخزيمي فإن لم يوجد خزيمي فمدركي، فإن لم يوجد مدركي فاللياسي، فإن لم يوجد إلياسي فمضري. فإن لم يوجد مضري فنزاري، فإن لم يوجد نزاري فمعدّي، فإن لم يوجد معدّي فعدناني، فإن لم يوجد عدناني فمن ولد إسماعيل، لأن من فوق عدنان لا يصح فيه شيء، ولا يمكن حفظ النسب فيه منه إلى إسماعيل.

وقيل له معد لأنه كان صاحب حروب وغارات على بني إسرائيل، ولم يحارب أحداً إلا رجع بالنصر والظفر. قال بعضهم: ولا يخرج عربي في الأنساب عن عدنان وقحطان.

وقيل وولد عدنان يقال لهم قيس، وولد قحطان يقال لهم يمن. ولما سلب الله بختنصر على العرب أمر الله تعالى أرمياء أن يحمل معه معد بن عدنان على

البراق كيلا تصيبه النقمة، وقال: فإني سأخرج من صلبه نبياً كريماً أختم به الرسل، ففعل أرمياء ذلك، واحتمله معه إلى أرض الشام، فنشأ مع بني إسرائيل، ثم عاد بعد أن هدأت الفتن: أي يموت بختنصر. وكان عدنان في زمن عيسى عليه السلام، وقيل في زمن موسى عليه السلام. قال الحافظ ابن حجر، وهو أولى: أي ومما يضعف الأول ما في الطبراني عن أبي أمامة الباهلي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لما بلغ ولد معد بن عدنان أربعين رجلاً وقعوا في عسكر موسى عليه الصلاة والسلام فأنتهبوه فدعا عليهم موسى عليه الصلاة والسلام، فأوحى الله تعالى إليه: لا تدع عليهم فإن منهم النبي الأمي البشير النذير» الحديث، إذ بعد بقاء معد إلى زمن عيسى عليه الصلاة والسلام، ومعلوم أنه لا خلاف في أن عدنان من ولد إسماعيل نبي الله تعالى: أي أرسله الله تعالى إلى جرهم وإلى العماليق وإلى قبائل اليمن في زمن أبيه إبراهيم، وكذا بعث أخوه إسحق إلى أهل الشام، وبعث ولده يعقوب إلى الكنعانيين في حياة إبراهيم، فكانوا أنبياء على عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وذكر بعضهم أن من العماليق فرعون موسى عليه الصلاة والسلام، ومنهم الربان بن الوليد فرعون يوسف عليه الصلاة والسلام. وكان إسماعيل بكر أبيه جاء له وقد بلغ أبوه من العمر سبعين سنة، وقيل ستا وثمانين سنة. ولد بين الرملة وإيليا، وكان بين عدنان وإسماعيل أربعون أباً. وقيل سبعة وثلاثون. وفي النهر لأبي حيان رحمه الله أن إبراهيم هو الجد الحادي والثلاثون لنبينا ، هذا كلامه.

ولا يخفى أن إسماعيل أول من تسمى بهذا الاسم من بني آدم، ومعناه بالعبرانية مطيع الله. وأول من تكلم بالعربية أي البينة الفصيحة، وإلا فقد تعلم أصل العربية من جرهم، ثم ألهمه الله العربية الفصيحة البينة فنطق بها. وفي الحديث «أول من فتق لسانه بالعربية البينة إسماعيل وهو ابن أربع عشرة سنة».

وفي كلام بعضهم: «لما خرج إبراهيم بهاجر وولدها إسماعيل إلى مكة علي البراق واحتمل معه قربة ماء ومزوداً فيه تمر، فلما أنزلهما بها وولى راجعاً تبعته هاجر وهي تقول: الله أمرك أن تدعني وهذا الصبي في هذا المحل الموحش الذي ليس به أنيس؟ قال نعم، فقالت: إذن لا يضيعنا، ولا زالت تأكل من التمر وتشرب من الماء إلى أن نفذ الماء» الحديث. وكان إنزاله لهما بموضع الحجر، وذلك لمضي مائة سنة من عمر إبراهيم.

وكون إسماعيل أول من تكلم بالعربية البينة لا ينافي ما قيل: أول من تكلم بالعربية يعرب بن قحطان، وقحطان أول من قيل له: أبيت اللعن. وأول من قيل له: أنعم صباحاً. ويعرب هذا قيل له أيمن، لأن هوداً نبي الله عليه الصلاة والسلام قال له أنت أيمن ولدي، وسمي اليمن يمناً بنزوله فيه. وهو أول من قال القريض والرجز، وقيل سمي اليمن يمناً لأنه علي يمين الكعبة. وقيل إن أول من كتب الكتاب العربي إسماعيل والصحيح أن أول من كتب ذلك نزار بن معد كما تقدم، وكذا كون إسماعيل أول من تكلم بالعربية البينة لا ينافي ما

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

قيل: أول من تكلم بالعربية آدم في الجنة فلما أهبط إلى الأرض تكلم بالسريانية. قيل وسميت سريانية، لأن الله تعالى علمها آدم سرّاً من الملائكة وأنطقه بها.

وقيل إن أول من كتب الكتاب العربي والفارسي والسرياني والعبراني وغيرها من بقية الاثني عشر كتاباً، وهي الحميري، واليوناني، والرومي، والقبطي والبربري، والأندلسي، والهندي، والصيني آدم عليه الصلاة والسلام، كتبها في طين وطبخه، فلما أصاب الأرض العرق وجد كل قوم كتاباً فكتبوه، فأصاب إسماعيل الكتاب العربي: أي وأما ما جاء: أول من خط بالقلم إدريس فالمراد به خط الرمل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6
وفي كلام بعضهم: أول من تكلم بالعربية المحضة، وهي عربية قريش التي نزل بها القرآن إسماعيل. وأما عربية قحطان وحمير فكانت قبل إسماعيل، ويقال لمن يتكلم بلغة هؤلاء العرب العاربة، ويقال لمن يتكلم بلغة إسماعيل العرب المستعربة وهي لغة الحجاز وما والاها.
وجاء «من أحسن أن يتكلم بالعربية فلا يتكلم بالفارسية فإنه يورث النفاق». وقد ذكر بعضهم أن أهل الكهف كلهم أعجم، ولا يتكلمون إلا بالعربية، وأنهم يكونون وزراء المهدي. واشتهر على السنة الناس أنه قال: «أنا أفصح من نطق بالضاد» قال جمع: لا أصل له، ومعناه صحيح لأن المعنى أنا أفصح العرب لكونهم هم الذين ينطقون بالضاد ولا توجد في غير لغتهم.
وإسماعيل عليه الصلاة والسلام أول من ركب الخيل وكانت وحوشاً: أي ومن ثم قيل لها العرب، أو لما سيأتي. وقد قال «اركبوا الخيل فإنها ميراث أبيكم إسماعيل عليه الصلاة والسلام».

وفي رواية «أوحى الله تعالى إلى إسماعيل: أن اخرج أجساد» الموضع المعروف، سمي بذلك لأنه قتل فيه مائة رجل من العمالقة من جباد الرجال «فأدع يأتك الكنز، فخرج إلى أجساد فألهمه الله تعالى دعاء فدعا به فلم يبق على وجه الأرض فرس بأرض العرب إلا جاءته وأمكنته من نواصيها، وذلكها الله تعالى له، فاركبوها واعلفوها فإنها ميامين، وهي ميراث أبيكم إسماعيل».

وذكر الحافظ السيوطي رحمه الله أن له كتاباً في الخيل سماه (جر الذيل في علم الخيل) وفي العرائس «أن الله تعالى لما أراد أن يخلق الخيل قال لريح الجنوب: إني خالق منك خلقاً، فأجعله عزاً لأولياي، ومذلة على أعدائي، وجمالاً لأهل طاعتي، فقالت: أفعل ما تشاء، فقبض قبضة فخلق فرساً فقال لها: خلقتك عربياً، وجعلت الخير معقوداً بناصيتك، والغنائم مجموعة على ظهرك، وعطفت عليك صاحبك، وجعلتك تطيري بلا جناح، فأنت للطلب وأنت للهرب».

وعن وهب أنه قيل لسليمان صلوات الله وسلامه عليه: إن خيلاً بلقا لها أجنحة تطير بها وترد ماء كذا، فقال للشياطين عليّ بها فصبوا في العين التي تردّها خمرًا، فشربت فسكرت فربطوها وساسوها حتى تأنست.

وقيل ويجوز أن يكون المراد من تلك الخيل الفرس الذي قال فيه صلى الله عليه وسلم «أتيت بمقاليد الدنيا على فرس أبلق جاءني به جبريل عليه الصلاة والسلام».

وجاء «إن الله تعالى لما عرض على آدم عليه الصلاة والسلام كل شيء مما خلق قال له اختر من خلقي ما شئت، فاختر الفرس، فقيل له: اخترت عرك وعز ولدك، خالداً ما خلدوا وباقياً ما بقوا أبد الآبدين ودهر الدهرين» وهذا صريح في أن الخيل خلقت قبل آدم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وقد سئل الإمام السبكي: هل خلقت الخيل قبل آدم أو بعده؟ وهل خلقت الذكور قبل الإناث أو الإناث قبل الذكور؟ فأجاب بأننا نختار أن خلق الخيل قبل آدم عليه الصلاة والسلام، لأن الدواب خلقت يوم الخميس، وادم خلق يوم الجمعة بعد العصر وأن الذكور خلقت قبل الإناث لأمرين: أحدهما أن الذكر أشرف من الأنثى. والثاني حرارة الذكر أقوى من الأنثى، ولذلك كان خلق آدم قبل خلق حواء فليأمل.

وقد ذكر الإمام السهيلي أن في الفرس عشرين عضواً كل عضو منها يسمى باسم طائر، ذكرها وبينها الأصمعي. فمنها النسر، والنعام، والقطاة، والذباب، والعصفور والغراب، والصدرد، والصقر. قالوا: وفي الحيوان أعضاء باردة يابسة كالعظام نظير السوداء، وأعضاء باردة رطبة كالدماع نظير البلغم. وأعضاء حارة يابسة كالقلب نظير الصفراء. وأعضاء حارة رطبة كالكبده نظير الدم. وعن أنس رضي الله عنه «أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن شيء أحب إليه بعد النساء من الخيل» وجاء «ما من ليلة إلا والفرس يدعو فيها ويقول: رب إنك سخرتني لابن آدم، وجعلت رزقي في يده اللهم فاجعلني أحب إليه من أهله وولده» وقيل لبعض الحكماء: أي المال أشرف؟ قال فرس يتبعها فرس، وفي بطنها فرس. ومن ثم قيل: ظهر الخيل حرز، وبطنها كنز. وفي الحديث «لما أراد ذو القرنين أن يسلك في الظلمة إلى عين الحياة سأل أي الدواب في الليل أبصر؟ فقالوا الخيل، فقال: أي الخيل أبصر؟ فقالوا الإناث، قال: فأي الإناث أبصر؟ قالوا البكار، فجمع من عسكره ستة آلاف فرس كذلك».

وأعطى الله إسماعيل القوس العربية، وكان لا يرمي شيئاً إلا أصابه. «وفي الحديث ارموا بني إسماعيل، فإن أباكم كان رامياً» أي قال ذلك لجماعة مر عليهم وهم ينتصلون، فقال «حسن هذا اللهو مرتين أو ثلاثاً» زاد في بعض الروايات «ارموا وأنا مع بني فلان فأمسك الفريق الآخر، فقال لهم، ما بالكم لا ترمون؟ فقالوا يا رسول الله كيف نرمي وأنت معهم؟ إذن ينزلونا قال: ارموا وأنا معكم كلكم» أخرجه البخاري في صحيحه. زاد البيهقي في دلائل النبوة «فرموا عامة يومهم ذلك، ثم تفرقوا على السواء ما نضل بعضهم بعضاً». وقد جاء «أحب اللهو إليّ إجراء الخيل والرمي، ارموا واركبوا، وأن ترموا أحب إليّ من أن تركبوا» وقد جاء «أحب اللهو إلى الله تعالى إجراء الخيل والرمي»

وجاء «كل شيء يلهو به الرجل باطل، إلا رمي الرجل بقوسه، أو تأديبه فرسه، أو ملاعبته امرأته فإنهن من الحق» وجاء «علموا أولادكم السباحة والرمي» وفي رواية «الرمية» وفي رواية «علموا بنيكم الرمي، فإنه نكاية العدو» وقد جاء «تعلموا الرمي؟ فإن ما بين الهدفين روضة من رياض الجنة» وروي مرفوعاً «حق الولد على الوالد أن يعلمه الكتابة والسباحة والرمي» وجاء «من تعلم الرمي ثم نسيه فليس منا» وفي رواية «فهو نعمة جدها».
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

قال الحافظ السيوطي رضي الله عنه والأحاديث المتعلقة بالرمي كثيرة. قال: وقد ألفت كتاباً في الرمي سمّيته (غرس الأنشاب في الرمي بالنشاب) وفي العرائس: كان إسماعيل مولعاً بالصيد، مخصوصاً بالفنص والفروسية والرمي والصراع، والرمي سنة إذا نوى به التأهب للجهاد، لقوله تعالى {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} وقوله «القوة الرمي» على حد قوله «الحج عرفة» وإلا فقد قال ابن عباس رضي الله عنهما في الآية {وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة} قال: الرمي والسيوف والسلاح. وسئل الحافظ السيوطي رضي الله عنه هل ما ذكره الطبري والمسعودي في تاريخيهما أن أول من رمى بالقوس العربية آدم عليه الصلاة والسلام، وذلك لما أمره الله تعالى بالزراعة حين أهبط من الجنة وزرع، أرسل الله تعالى له طائرين يخرجان ما بذره ويأكلانه، فشكا الله تعالى ذلك، فهبط عليه جبريل ويده قوس ووتر وسهمان، فقال آدم: ما هذا يا جبريل؟ فأعطاه القوس وقال: هذه قوة الله تعالى، وأعطاه الوتر وقال: هذه شدة الله تعالى، وأعطاه السهمين وقال: هذه نكاية الله تعالى، وعلمه الرمي بهما فرمى الطائرين فقتلهما، وجعلهما، يعني السهمين، عدة في غربته، وأنسا عند وحشته ثم صار القوس العربية إلى إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام، ثم إلى ولده إسماعيل، وهو يدل على أن قوس إبراهيم هي القوس التي هبطت على آدم عليه الصلاة والسلام من الجنة، وأنه ادخرها لإبراهيم، وهو خلاف قول بعضهم إنها غيرها أهبطت إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام من الجنة. فأجاب الحافظ السيوطي رضي الله عنه بقوله: راجعت تاريخ الطبري في تاريخ آدم وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام فلم أجده فيه، ولا تبعد صحته فإن الله تعالى علم آدم علم كل شيء.

وذكر أن ابن أبي الدنيا ذكر في كتاب الرمي من طريق الضحاك بن مزاحم عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «أول من عمل القسي إبراهيم، عمل لإسماعيل وإسحاق قوسين فكانا يرميان بها» وتقدم أن إسحاق جاء لإبراهيم بعد إسماعيل بثلاث عشرة، وقيل بأربع عشرة سنة: أي حملت به أمه سارة في الليلة التي خسف الله تعالى بقوم لوط فيها. ولها من العمر تسعون سنة. وفي جامع ابن شداد يرفعه «كان اللواط في قوم لوط في النساء قبل الرجال بأربعين سنة، ثم استغنى النساء بالنساء والرجال بالرجال، فخسف الله تعالى بهم» قيل ولا يعمل عمل قوم لوط من الحيوان إلا الحمار والخنزير. وكان أول

من اتخذ القسي الفارسية نمرود فلي تأمل الجمع.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وقد يقال: لا منافاة، لجواز أن يكون إبراهيم عليه الصلاة والسلام أول من عمل القسي بعد ذهاب تلك القوس، فالأولية إضافية. ومعلوم أن إسماعيل بن إبراهيم خليل الله تعالى عليهما الصلاة والسلام: أي ولم يبعث بشريعة مستقلة من العرب بعد إسماعيل إلا محمد . وأما خالد بن سنان وإن كان من ولد إسماعيل على ما قيل، فقال بعضهم: لم يكن في بني إسماعيل نبي غيره قبل محمد، إلا أنه لم يبعث بشريعة مستقلة، بل بتقرير شريعة عيسى عليه الصلاة والسلام: أي وكان بينه وبين عيسى ثلاثمائة سنة، وخالد هذا هو الذي أطفأ النار التي خرجت بالبادية بين مكة والمدينة، كادت العرب أن تعبدها كالمجوس، كان يري ضوءها من مسافة ثمان ليال، وربما كان يخرج منها العنق فيذهب في الأرض فلا يجد شيئاً إلا أكله، فأمر الله تعالى خالد بن سنان بإطفائها، وكانت تخرج من بئر ثم تنتشر، فلما خرجت وانتشرت أخذ خالد بن سنان يضربها ويقول: بدا بدا بدا كل هدى وهي تتأخر حتى نزلت إلى البئر، فنزل إلى البئر خلفها فوجد كلاباً تحتها فضربها وضرب النار حتى أطفأها، ويذكر أنه كان هو السبب في خروجها فإنه لما دعا قومه وكذبوه وقالوا له إنما تخوفنا بالنار، فإن تسل علينا هذه الحرة ناراً اتبعناك، فتوضأ ثم قال: اللهم إن قومي كذبوني ولم يؤمنوا بي إلا أن تسيل عليهم هذه الحرة ناراً فأسلها عليهم ناراً، فخرجت، فقالوا: يا خالد أرددنا فإننا مؤمنون بك، فردها.

قيل وكان خالد بن سنان إذا استسقى يدخل رأسه في جيبه فيجيء المطر ولا يقلع إلا إن رفع رأسه. قيل «وقدمت ابنته وهي عجوز على النبي، فتلقاها بخير وأكرمها، وبسط لها رداءه وقال لها: مرحبا بابنة أخي، مرحبا بابنة نبي ضيعه قومه فأسلمت» وهذا الحديث مرسل رجاله ثقات. وفي البخاري «أنا أولى الناس بابن مريم في الدنيا والآخرة، وليس بيني وبينه نبي» قال بعضهم: وبه يرد على من قال كان بينهما خالد بن سنان. وقد يقال مراده بالنبي الرسول الذي يأتي بشريعة مستقلة. وحينئذ لا يشكل هذا لما علمت أنه لم يأت بشريعة مستقلة، ولا ما جاء في رواية أخرى «ليس بيني وبينه نبي ولا رسول» ولا ما في كلام البيضاوي تبعاً للكشاف من أن بين عيسى ومحمد أربعة أنبياء: ثلاثة من بني إسرائيل، وواحد من العرب وهو خالد بن سنان، وبعده حنظلة بن صفوان عليهما الصلاة والسلام، أرسله الله تعالى لأصحاب الرس بعد خالد بمائة سنة لأنه يجوز أن يكون كل من هؤلاء الثلاثة لم يبعث بشريعة مستقلة، بل كان مقررراً لشريعة عيسى عليه الصلاة والسلام أيضاً كخالد بن سنان.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

والرس: البئر الغير المطوية: أي الغير المبنية، كذا في الكشاف، والذي في القاموس كالصاح المطوية بإسقاط غير، فإنهم قتلوا حنظلة ودسوه فيها: أي وحين دسوه فيها، غار ماؤها، وعطشوا بعد ريهم، وبيست أشجارهم، وانقطعت ثمارهم بعد أن كان ماؤها يرويههم ويكفي أرضهم جميعاً، وتبدلوا بعد الأنس الوحشة، وبعد الاجتماع الفرقة لأنهم كانوا ممن يعبد الأصنام: أي وكان ابتلاهم الله تعالى بطير عظيم ذي عنق طويل كان فيه من كل لون، فكان ينقض على صبيانهم يخطفهم إذا أعوزه الصيد، وكان إذا خطف أحداً منهم أغرب به: أي ذهب به إلى جهة المغرب، فليل له لطول عنقه ولذهابه إلى جهة المغرب عنقاء مغرب، فشكوا ذلك إلى حنظلة عليه الصلاة والسلام، فدعا على تلك العنقاء، فأرسل الله تعالى عليها صاعقة فأهلكتها ولم تعقب، وكان جزاؤه منهم أن قتلوه وفعلوا به ما تقدم.

وذكر بعضهم أن حنظلة هذا كان من العرب من ولد إسماعيل أيضاً عليه الصلاة والسلام: ثم رأيت ابن كثير ذكر أن حنظلة هذا كان قبل موسى عليه الصلاة والسلام، وأنه لما ذكر أن في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه فتحت تستر المدينة المعروفة وجدوا تابوتاً، وفي لفظ: سريراً عليه دانيال عليه الصلاة والسلام، ووجدوا طول أنفه شبراً، وقيل ذراعاً، ووجدوا عند رأسه مصحفاً فيه ما يحدث إلى يوم القيامة، وأن من وفاته إلى ذلك اليوم ثلاثمائة سنة، وقال: إن كان تاريخ وفاته القدر المذكور فليس بنبي بل هو رجل صالح، لأن عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام ليس بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي بنص الحديث في البخاري.

أقول: قد علمت الجواب عن ذلك، بأن المراد بالنبي الرسول. وفيه أن هذا يبعده عطف الرسول على النبي المتقدم في بعض الروايات، إلا أن يجعل من عطف التفسير والله أعلم.

والفترة التي كانت بينهما أربعمئة سنة، وقيل ستمائة، وقيل بزيادة عشرين سنة. قالت عائشة رضي الله عنها: ما وجدنا أحداً يعرف ما وراء عدنان ولا قحطان إلا تخرساً أي كذباً لأن الخراس الكذاب كذا قيل. أقول: لعل المراد بالكذب الغير المقطوع بصحته، لأن الخراس حقيقته الحزر والتخمين، وكل من تكلم كلاماً بناه على ذلك قيل له خراس، ثم قيل للكذاب خراس توسعاً، وحينئذ كان القياس أن يقال إلا خرساً: أي خرساً وتخميناً. وعلى هذا كان الصديقية رضي الله تعالى عنها أرادت المبالغة للتنفير عن الخوض في ذلك. والله أعلم.

وعن عمرو بن العاص رضي الله عنه «أن النبي صلى الله عليه وسلم انتسب حتى بلغ النضر بن كنانة ثم قال: فمن قال غير ذلك» أي مما زاد على ذلك «فقد كذب».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

أقول: إطلاق الكذب على من زاد على كنانة إلى عدنان يخالف ما سبق من أن المجمع عليه إلى عدنان إلا أن يقال: لا مخالفة، لأنه يجوز أن يكون عمرو بن العاص لم يسمع ما زاد على النضر بن كنانة إلى عدنان مع ذكره له الذي سمعه غيره. وفي إطلاقه الكذب على ذلك التأويل السابق. وأخرج الجلال السيوطي في الجامع الصغير عن البيهقي أنه انتسب فقال «أنا محمد بن عبد الله بن عبد

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

المطلب، إلى أن قال: ابن مضر بن نزار» وهذا هو الترتيب المألوف، وهو الابتداء بالأب ثم بالجد ثم بأب الجد وهكذا. وقد جاء في القرآن على خلافه في قوله تعالى حكاية عن سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام {واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب} قال بعضهم: والحكمة في ذلك أنه لم يرد مجرد ذكر الآباء، وإنما ذكرهم ليذكر ملتهم التي اتبعها، فبدأ بصاحب الملة ثم بمن أخذها عنه أولاً فأولا على الترتيب، والله أعلم.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا انتسب لم يجاوز معد بن عدنان بن أدد، ثم يمسك ويقول: كذب النسابون مرتين أو ثلاثاً».

قال البيهقي: والأصح أن ذلك: أي قوله «كذب النسابون» من قول ابن مسعود رضي الله عنه: أي لا من قوله .

أقول: والدليل على ذلك ما جاء: كان ابن مسعود إذا قرأ قوله تعالى: {ألم يأتكم نبا الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله} قال: كذب النسابون، يعني الذين يدعون علم الأنساب، ونفي الله تعالى علمها عن العباد. ولا مانع أن يكون هذا القول صدر منه أولاً ثم تابعه ابن مسعود عليه.

وقد يقال: هذه الرواية تقتضي إما الزيادة على المجمع عليه، وإما النقص عنه: أي زيادة أدد أو نقص عدنان، فهي مخالفة لما قبلها.

وفي كلام بعضهم أن بين عدنان وأدد أد، فيقال عدنان بن أد بن أدد قيل له أدد لأنه كان مديد الصوت، وكان طويل العز والشرف.

قيل وهو أول من تعلم الكتابة: أي العربية من ولد إسماعيل، وتقدم أن الصحيح أن أول من كتب نزار.

وانظر هل يشكل على ذلك ما رواه الهيثم بن عدي أن الناقل لهذه الكتابة يعني العربية من الحيرة إلى الحجاز حرب بن أمية بن عبد شمس. وقد يقال: الأولية إضافية: أي من قريش وعدنان، سمي بذلك، قيل لأن أعين الإنس والجن كانت إليه ناظرة.

قال بعضهم: اختلف الناس فيما بين عدنان وإسماعيل من الآباء، فقيل سبعة، وقيل تسعة، وقيل خمسة عشر، وقيل أربعون، والله أعلم، قال الله عز وجل {وقروناً بين ذلك كثيراً} أي لا يكاد يحاط بها، فقد جاء «كان ما بين آدم ونوح عليهما السلام عشرة قرون، وبين نوح وإبراهيم عليهما السلام عشرة قرون».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن مدة الدنيا: أي من آدم عليه السلام سبعة آلاف سنة: أي وقد مضى منها قبل وجود النبي صلى الله عليه وسلم خمسة آلاف وسبعمائة وأربعون سنة. وعن أبي خيثمة وثمانمائة سنة.

قلت: وفي كلام بعضهم من خلق آدم إلى بعثة نبينا محمد خمسة آلاف سنة وثمانمائة سنة وثلاثون سنة.

وقد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما من طرق صحاح أنه قال «الدنيا سبعة أيام كل يوم ألف سنة، وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم في آخر يوم منها».

وفي كلام الحافظ السيوطي: دلت الأحاديث والآثار على أن مدة هذه الأمة تزيد على الألف سنة، ولا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة أصلاً، وإنما تزيد بنحو أربعمائة سنة تقريباً وما اشتهر على السنة الناس أن النبي صلى الله عليه وسلم لا يمكث في قبره أكثر من ألف سنة باطل لا أصل له، هذا كلامه. وقوله لا تبلغ الزيادة خمسمائة سنة، هل يخالفه ما أخرجه أبو داود «لن يعجز الله أن يؤخر هذه الأمة نصف يوم يعني خمسمائة سنة».

وفي كلام بعضهم قد أكثر المنجمون في تقدير مدة الدنيا. فقال بعضهم عمرها سبعة آلاف سنة بعدد النجوم السيارة أي وهي سبعة. وبعضهم اثنا عشر ألف سنة بعدد البروج. وبعضهم بثلاثمائة ألف وستون ألفاً بعدد درجات الفلك، وكلها تحكيمات عقلية لا دليل عليها.

وفي كلام الشيخ محيي الدين بن العربي: أكمل الله خلق الموجودات من الجمادات والنباتات والحيوان بعد انتهاء خلق العالم الطبيعي بإحدى وسبعين ألف سنة، ثم خلق الله الدنيا بعد أن انقضى من مدة خلق العالم الطبيعي أربع وخمسون ألف سنة. ثم خلق الله تعالى الآخرة يعني الجنة والنار بعد الدنيا بتسعة آلاف سنة، ولم يجعل الله تعالى للجنة والنار أمداً ينتهي إليه بقاؤهما فلهما الدوام. قال: وخلق الله تعالى طينة آدم بعد أن مضى من عمر الدنيا سبع عشرة ألف سنة، ومن عمر الآخرة التي لا نهاية لها في الدوام ثمانية آلاف سنة وخلق الله تعالى الجن في الأرض قبل آدم بستين ألف سنة: أي ولعل هذا هو المعنى بقول بعضهم: خلق الله قبل آدم خلقاً في صورة البهائم، ثم أماتهم قبل، وهم الجن والبن والطم والرم والحس والبس فأفسدوا في الأرض وسفكوا الدماء كما سيأتي.

قال الشيخ محيي الدين: وقد طفت بالكعبة مع قوم لا أعرفهم، فقال لي واحد منهم: أما تعرفني؟ فقلت لا، قال: أنا من أجدادك الأول، فقلت له: كم لك منذ مت؟ قال لي بضع وأربعون ألف سنة فقلت: ليس لآدم هذا القدر من السنين، فقال لي: عن أي آدم تقول عن هذا الأقرب إليك، أم عن غيره؟ فتذكرت حديثاً روي عن النبي «إن الله خلق مائة ألف آدم» فقلت: قد يكون ذلك الجد الذي نسني إليه من أولئك، والتاريخ في ذلك مجهول مع حدوث العالم بلا شك هذا كلامه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وفي كلام الشيخ عبد الوهاب الشعراني: وكان وهب بن منبه رضي الله تعالى عنه يقول: سأل بنو إسرائيل المسيح عليه الصلاة والسلام أن يحيي لهم سام بن نوح عليهما الصلاة والسلام، فقال: أروني قبره، فوقف على قبره وقال: يا سام قم بإذن الله تعالى، فقام وإذا رأسه ولحيته بيضاء، فقال إنك مت وشعرك أسود، فقال: لما سمعت النداء ظننت أنها القيامة فشاب رأسي ولحيتي الآن، فقال له عيسى عليه السلام: كم لك من السنين ميت؟ قال خمسة آلاف سنة، إلى الآن لم تذهب عني حرارة طلوع روجي.

وسبب الاختلاف فيما بين عدنان وادم أن قدماء العرب لم يكونوا أصحاب كتب

يرجعون إليها، وإنما كانوا يرجعون إلى حفظ بعضهم من بعض، ولعله لا يخالفه ما تقدم من أن أول من كتب معد أو نزار. وفي كلام سبط ابن الجوزي أن سبب الاختلاف المذكور اختلاف اليهود، فإنهم اختلفوا اختلافاً متفاوتاً فيما بين آدم ونوح وفيما بين الأنبياء من السنين. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لو شاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعلمه لعلمه: أي لو أراد أن يعلم ذلك للناس لعلمه لهم، وهذا أولى من يعلمه بفتح الياء وسكون العين.

وذكر ابن الجوزي أن بين آدم ونوح شيئاً وإدريس، وبين نوح وإبراهيم هود وصالح، وبين إبراهيم وموسى بن عمران إسماعيل وإسحاق ولوط وهو ابن أخت إبراهيم وكان كاتباً لإبراهيم، وشعيب وكان يقال له خطيب الأنبياء ويعقوب ويوسف، ولد يوسف ليعقوب، وله من العمر إحدى وتسعون سنة، وكان فراقه له وليوسف من العمر ثماني عشرة سنة وبقياً مفترقين إحدى وعشرين سنة، وبقياً مجتمعين بعد ذلك سبع عشرة سنة هذا. وفي الإتيان: ألقى يوسف في الحب وهو ابن ثنتي عشرة سنة، ولقي أباه بعد الثمانين، وعاش مائة وعشرين سنة، وكان كاتباً للعزير. قيل وسبب الفرقة بين سيدنا يعقوب وسيدنا يوسف عليهما السلام أن سيدنا يعقوب ذبح جدياً بين يدي أمه فلم يرض الله تعالى له ذلك، فأراه دماً بدم، وفرقة بفرقة، وحرقة بحرقة، وموسى بن عمران بن منشاء. وبين موسى بن عمران وهو أول أنبياء بني إسرائيل وداود يوشع، وكان يوشع كهراون يكتب لموسى. ويذكر أن مما أوصى به داود ولده سليمان عليهما السلام لما استخلفه: يا بني إياك والهزل فإن نفعه قليل، وبهيج العداوة بين الإخوان، أي ومن ثم قيل: لا تمازح الصبيان فتهون عليهم، ولا تمازح الشريف فيحقد عليك ولا تمازح الدنيا فيجترىء عليك، ولكل شيء بذر، وبذر العداوة المزاح. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وقد قيل المزاح يذهب بالمهابة ويورث الضغينة. وقيل أكد أسباب القطيعة المزاح. وقد قيل: من كثر مزاحه لم يخل من استخفاف به أو حقد عليه، واقطع طمعك من الناس فإن ذلك هو الغنى. وإياك وما تعتذر فيه من القول أو الفعل، وعود لسانك الصدق، والنزم الإحسان ولا تجالس السفهاء، وإذا غضبت فالصق نفسك بالأرض: أي وقد جاء في الحديث «إذا جهل على أحدكم جاهل، فإن كان قائماً جلس، وإن كان جالساً فليضطجع».

وممن مات من الأنبياء فجأة داود وولده سليمان وإبراهيم الخليل عليهم أفضل الصلاة والسلام، ثم بعد يوشع كالب بن يوفنا، وهو خليفة يوشع، ثم حزقيل وهو خليفة كالب، ويقال له ابن العجوز لأن أمه سألت الله تعالى أن يرزقها ولداً بعد ما كبرت وعقمت فجاءت به، وهو ذو الكفل لأنه تكفل بسبعين نبياً وأنجاهم من القتل.

وإلياس ثم طاوالت الملك: أي فإن شمويل عليه السلام لما حضرته الوفاة

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

سأله بنو إسرائيل أن يقيم فيهم ملكاً فأقام فيهم طالوت ملكاً، ولم يكن من أعيانهم بل كان راعياً، وقيل سقاء، وقيل غير ذلك. وبين داود وعيسى عليهما السلام وهو آخر أنبياء بني إسرائيل: أيوب ثم يونس ثم شعيب ثم أحصياء ثم زكرياء ويحيى عليهم السلام.

وفي النهر لأبي حيان في تفسير قوله تعالى {ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسول} كان بينه وبين عيسى من الرسل يوشع وشمويل وشمعون وداود وسليمان وشعيب وأرميا وعزير: أي وهو من أولاد هرون بن عمران، وحزقيل وإلياس ويونس وزكرياء ويحيى. وكان بين موسى وعيسى ألف نبي، هذا كلامه، وكان يحيى يكتب لعيسى، وتقدم الكلام على من بين عيسى ومحمد

ومما يدل على شرف هذا النسب وارتفاع شأنه وفخامته وعلو مكانه ما جاء عن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال «قيل يا رسول الله قتل فلان لرجل من ثقيف، فقال أبعد الله، إنه كان يبغض قريشاً». وفي الجامع الصغير «قريش صلاح الناس، ولا يصلح الناس إلا بهم، كما أن الطعام لا يصلح إلا بالملح، قريش خالصة لله تعالى، فمن نصب لها حرباً سلب، ومن أرادها بسوء خزي في الدنيا والآخرة».

قال: وعن سعد بن أبي وقاص أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من يرد هوان قريش أهانه الله تعالى» أه أي وأشد الإهانة ما كان في الآخرة، وحينئذ إما أن يراد بالإرادة العزم والتصميم، أو المراد المبالغة، أو يكون ذلك من خصائص قريش، فلا ينافي أن حكم الله المطرد في عدله أن لا يعاقب على مجرد الإرادات، إنما يعاقب ويجازي على الأفعال والأقوال الواقعة، أو ما هو منزل منزلة الواقعة كالتصميم، فإن من خصائص هذه الأمة عدم مؤاخذتها بما تحدث به نفسها.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وعن أم هانئ بنت أبي طالب رضي الله تعالى عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل قريشاً» أي ذكر تفضيلهم «بسبع خصال لم يعطها أحد قبلهم، ولا يعطاها أحد بعدهم: النبوة فيهم، والخلافة فيهم، والحجاجة فيهم، والسقاية فيهم، ونصروا على الفيل» أي على أصحابه «وعبدوا الله سبع سنين» وفي لفظ عشر سنين «لم يعبده أحد غيرهم، ونزلت فيهم سورة من القرآن لم يذكر فيها أحد غيرهم لإيلاف قريش» وتسمية لإيلاف قريش سورة يرد ما قيل إن سورة الفيل وإيلاف قريش سورة واحدة، ولينظر ما معنى عبادتهم الله تعالى دون غيرهم في تلك المدة.

وعن أنس رضي الله تعالى عنه «حب قريش إيمان وبغضهم كفر». وعن أبي هريرة رضي الله عنه «الناس تبع لقريش، مسلمهم تبع لمسلمهم، وكافرهم تبع لكافرهم» وقال «العلم في قريش» أي وقال «الأئمة من قريش» وقد جمع الحافظ ابن حجر طرق هذا الحديث في كتاب سماه (لذة العيش في طرق حديث «الأئمة من قريش»).

وفي الحديث «عالم قريش يملأ طباق الأرض علماً» وفي رواية «لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ الأرض علماً» وفي رواية «اللهم أهد قريشاً فإن عالمها يملأ طباق الأرض علماً» قال جماعة من الأئمة منهم الإمام أحمد: هذا العالم هو الشافعي رضي الله تعالى عنه، لأنه لم ينتشر في طباق الأرض من علم عالم قريشي من الصحابة وغيرهم ما انتشر من علم الشافعي. وفي كلام بعضهم: ليس في الأئمة المتبوعين في الفروع قرشي غيرهِ. وفيه أن الإمام مالك بن أنس من قريش. ويجاب بأنه إنما يكون قرشياً على القول الباطل من أن جماع قريش قصي.

وقد ذكر السبكي أنهم ذكروا أن من خواص الشافعي رضي الله تعالى عنه من بين الأئمة أن من تعرض إليه أو إلى مذهبه بسوء أو نقص هلك قريباً، وأخذوا ذلك من قوله «من أهان قريشاً أهانه الله تعالى» هذا كلامه. قال الحافظ العراقي: إسناد هذا الحديث يعني «لا تسبوا قريشاً فإن عالمها يملأ الأرض علماً» لا يخلو عن ضعف، وبه يرد ما زعمه الصغائي من أنه موضوع، وحاشا الإمام أحمد أن يحتج بحديث موضوع أو يستأنس به على فضل الشافعي.

وقال ابن حجر الهيتمي: هو حديث معمول به في مثل ذلك أي في المناقب، وزعم وضعه جسد أو غلط فاحش: أي وعن الربيع قال: رأيت في المنام كأن آدم مات، فسألت عن ذلك؟ ف قيل لي هذا موت أعلم أهل الأرض، لأن الله علم آدم الأسماء كلها، فما كان إلا يسير حتى مات الشافعي رضي الله تعالى عنه ورضي عنا به.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

ومما يؤثر عن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه: من أطراك في وجهك بما ليس فيك فقد شتمك، ومن نقل إليك نقل عنك، ومن نمّ عندك نم عليك، ومن إذا أرضيته قال فيك ما ليس فيك إذا أسخطته قال فيك ما ليس فيك. وقال «قدموا قريشاً ولا تقدموها» أي لا تتقدموها. وفي رواية «ولا تعالموها: أي لا تغالبوها بالعلم ولا تكاثروها فيه». وفي رواية «ولا تعلموها» أي لا تجعلوها في المقام الأدنى الذي هو مقام المتعلم بالنسبة للمعلم. وقال «أحبوا قريشاً، فإنه من أحبهم أحبه الله تعالى» وقال «لولا أن تبطر قريش لأخبرتها بالذي لها عند الله عز وجل».

وفي السنن المأثورة عن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه رواية المزني عنه. قال الطحاوي: حدثنا المزني قال: حدثنا الشافعي رضي الله تعالى عنه «أن قتادة بن النعمان وقع بقريش وكأنه نال منهم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: مهلاً يا قتادة لا تشتم قريشاً فإنك لعلك ترى منهم رجلاً إذا رأيتهم عجبت بهم، لولا أن تطغى قريش لأخبرتها بالذي لها عند الله تعالى» أي لولا أنها إذا علمت ما لها عند الله من الخير المدخر لها تركت العمل، بل ربما ارتكبت ما لا يحل اتكالا على ذلك لأعلمتها به، لكن في رواية «لأخبرتها بما لمحسنها عند الله من الثواب». وهذا دليل على علو منزلتها وارتفاع قدرها عند الله تعالى. وقال يوماً «يا أيها الناس إن قريشاً أهل أمانة، من بغاها العواثر» أي من طلب لها المكاييد «أكبه الله تعالى لمنخره» أي أكبه الله على وجهه «قال ذلك ثلاث مرات» وعن سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان بالمسجد فمر عليه سعيد بن العاص فسلم عليه، فقال له: والله يا ابن أخي ما

قتلت أباك يوم بدر، وما لي أن أكون أعتذر من قتل مشرك، فقال له سعيد بن العاص: لو قتلتك كنت على الحق وكان على الباطل، فعجب عمر من قوله وقال: قريش أفضل الناس أحلاماً، وأعظم الناس أمانة، ومن يرد بقريش سوءاً يكبه الله لفيه. هذا كلامه.

والذي قتل العاص والد سعيد علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وقيل سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه، فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله تعالى عنه قال: قتلت يوم بدر العاص وأخذت سيفه ذا الكثيفة وقال «شرار قريش خير شرار الناس» وفي رواية «خيار قريش خيار الناس، وشرار قريش شرار الناس» أي ولعله سقط من هذه الرواية قبل شرار الثانية لفظ خيار لتوافق الرواية قبلها المقتضي لذلك المقام. ويحتمل إبقاء ذلك على ظاهره لأنه ممن يقتدى به. فكانوا أشر الأشرار، ويكون هذا هو المراد بوصفهم بأنهم خيار شرار الناس.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

ثم رأيت في كتاب السنن المأثورة عن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه ما رواه المزني عنه «خيار قريش خيار الناس، وشرار قريش خيار شرار الناس» وفي الحديث «ولاة هذا الأمر، فبر الناس تبع لبرهم، وفاجرهم تبع لفاجرهم» ومن ثم قال الطحاوي: قريش أهل أمانة، هكذا قرأه علينا المزني أهل أمانة أي بالنون، وإنما هو أهل إمامة أي بالميم. وفي كلام فقهاءنا «قريش قطب العرب وفيهم الفتوة».

ومما يدل على شرف هذا النسب أيضاً ما جاء عن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنه «إن الله اختار العرب على الناس، واختارني على من أنا منه من أولئك العرب» وما جاء عن وائلة بن الأسقع رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله اصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

أقول: وجاء بلفظ آخر عن وائلة بن الأسقع وهو «إن الله اصطفى من ولد آدم إبراهيم عليهما السلام. واتخذه خليلاً، واصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، ثم اصطفى من ولد إسماعيل نزاراً، ثم اصطفى من ولد نزار مضر، ثم اصطفى من ولد مضر كنانة، ثم اصطفى من كنانة قريشاً، ثم اصطفى من قريش بني هاشم، ثم اصطفى من بني هاشم بني عبد المطلب ثم اصطفاني من بني عبد المطلب» والله أعلم. قال وفي رواية «إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل، واصطفى من ولد إسماعيل كنانة، واصطفى من بني كنانة قريشاً، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم».

وما جاء عن جعفر بن محمد عن أبيه قال: قال رسول الله «أتاني جبريل فقال لي: يا محمد إن الله بعثني فطفت شرق الأرض ومغربها وسهلها وجبلها، فلم أجد حياً خيراً من مضر، ثم أمرني فطفت في مضر فلم أجد حياً خيراً من كنانة، ثم أمرني فطفت في كنانة فلم أجد حياً خيراً من قريش، ثم أمرني فطفت في قريش فلم أجد حياً خيراً من بني هاشم. ثم أمرني أن أختار في

أنفسهم» أي أختار نفساً من أنفسهم «فلم أجد نفساً خيراً من نفسك» انتهى.
وفي الوفاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: {لقد
جاءكم رسول من أنفسكم} قال: ليس من العرب قبيلة إلا ولدت النبي صلى
الله عليه وسلم مضرها وربيعتها ويمانيها. وعن ابن عمر رضي الله تعالى
عنهما قال: قال رسول الله «إن الله خلق الخلق فاختر من الخلق بني آدم،
واختار من بني آدم العرب، واختار من العرب مضر، واختار من مضر قريشاً،
واختار من قريش بني هاشم، واختارني من بني هاشم، فأنا خيار من خيار إلى
خيار» انتهى. وقوله واختار من مضر قريشاً يدل على أن مضر ليس جماع
قريش وإلا كانت أولاده كلها قريشاً.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وعن أبي هريرة يرفعه بسند حسنه الحافظ العراقي «إن الله حين خلق الخلق
بعث جبريل فقسم الناس قسمين: قسم العرب قسماً، وقسم العجم قسماً،
وكانت خيرة الله في العرب. ثم قسم العرب إلى قسمين، فقسم اليمن قسماً
وقسم مضر قسماً وكانت خيرة الله في مضر، وقسم مضر قسمين فكانت
قريش قسماً وكانت خيرة الله في قريش، ثم أخرجني من خيار من أنا فيه». قال
بعضهم: وما جاء في فضل قريش فهو ثابت لبني هاشم والمطلب، لأنهم
أخص وما ثبت للأعم يثبت للأخص ولا عكس.
وفي الشفاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله «إن
الله سبحانه وتعالى قسم الخلق قسمين فجعلني من خيرهم قسماً فذلك قوله
تعالى: {أصحاب اليمين وأصحاب الشمال} فأنا من أصحاب اليمين، وأنا خير
أصحاب اليمين. ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلاثاً، فذلك قوله
تعالى {فأصحاب الميمنة - وأصحاب المشأمة - والسابقون السابقون} فأنا
خير السابقين ثم جعل الأثلاث قبائل فجعلني من خيرها قبيلة، وذلك قوله
تعالى: {وجعلناكم شعوباً وقبائل} الآية فأنا أبر ولد آدم وأكرمهم على الله
تعالى ولا فخر، وجعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً ولا فخر، فذلك قوله
تعالى: {إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت} الآية «هذا كلام
الشفاء، فليتأمل. وإلى شرف هذا النسب يشير صاحب الهمزية رحمه الله
تعالى بقوله:

وبدا للوجود منك كريم
من كريم أبأوه كرماء
نسب تحسب العلا بحلاه
قلدتها نجومها الجوزاء
حبذا عقد سودد وفخار
أنت فيه اليتيمة العصماء

أي ظهر لهذا العالم منك كريم: أي جامع لكل صفة كمال، وهذا على حد
قولهم: لي من فلان صديق حميم، وذلك الكريم الذي ظهر وجد من أب كريم
سالم من نقص الجاهلية أبأوه الشامل للأمهات جميعهم كرماء: أي سالمون

من نقائص الجاهلية: أي ما يعد في الإسلام نقصاً من أوصاف الجاهلية، وهذا نسب لا أجل منه، ولجلالته إذا تأملته تظن بسبب ما تحلى به من الكمالات: أي معاليها جعلت الجوزاء نجومها التي يقال لها نطاق الجوزاء قلادة لتلك المعالي، وهذه القلادة نعم هي قلادة سيادة وتمدح موصوفة بأنك في تلك القلادة الدرّة اليتيمة التي لا مثابه لها المحفوظة عن الأعين لجلالته.

لا يقال: شمول الآباء للأمهات لا يناسب قوله نسب، لأن النسب الشرعي في الآباء خاصة. لأننا نقول: المراد بالنسب ما يعم اللغوي أو قد يقال سلامة آبائه من النقائص إنما هو من حيث أبيه: أي كونه متفرعاً عنه، وذلك يستلزم أن تكون أمهاته كذلك، وسيأتي «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» وسيأتي الكلام على ذلك مستوفى.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وقال الماوردي في كتاب (أعلام النبوة): وإذا اختبرت حال نسبه وعرفت طهارة مولده علمت أنه سلالة آباء كرام ليس فيهم مستزل، بل كلهم سادة قادة، وشرف النسب وطهارة المولد من شروط النبوة، هذا كلامه ومن كلام عمه أبي طالب:

إذا اجتمعت يوماً قريش لمفخر

فعبد مناف سرها وصميمها

وإن حصلت أنساب عبد منافها

ففي هاشم أشرافها وقديمها

وإن فخرت يوماً فإن محمداً

هو المصطفى من سرها وكريمها

بالرفع عطفاً على المصطفى، وسر القوم: وسطهم، فأشرف القوم قومه،

وأشرف القبائل قبيلته، وأشرف الأفخاذ فخذ.

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله: «من أحب العرب فبحبي أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم».

وعن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال قال لي رسول الله: «يا

سلمان لا تبغضني فتفارق دينك، قلت يا رسول الله كيف أبغضك وبك هداني

الله تعالى؟ قال: تبغض العرب فتبغضني».

وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال لي رسول الله: «لا يبغض العرب إلا

منافق».

وفي الترمذي عن عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى

الله عليه وسلم قال: «من غش العرب لم يدخل في شفاعتي ولم تنله

مودتي» قال الترمذي: هذا حديث غريب، وقال «ألا من أحب العرب فبحبي

أحبهم، ومن أبغض العرب فببغضي أبغضهم» وقال: «أحبوا العرب لثلاث:

لأنني عربي، والقرآن عربي، وكلام أهل الجنة عربي» وقال: «إن لواء الحمد

يوم القيامة بيدي وإن أقرب الخلق من لوائي يومئذ العرب» وقال: «إذا ذلت

العرب ذل الإسلام» وفي كلام فقهاءنا: العرب أولى الأمم، لأنهم المخاطبون

أولاً والدين عربي.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «خير العرب مضر، وخير مضر عبد

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

مكتبة مشكاة

مناف، وخير بني عبد مناف بنو هاشم، وخير بني هاشم بنو عبد المطلب، والله ما افترق فرقان منذ خلق الله تعالى آدم إلا كنت في خيرهما».

أقول: وفي لفظ آخر عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله: «إن الله حين خلقني جعلني من خير خلقه، ثم حين خلق القبائل جعلني من خيرهم قبيلة، وحين خلق الأنفس جعلني من خير أنفسهم، ثم حين خلق البيوت جعلني من خير بيوتهم، فأنا خيرهم بيتاً وأنا خيرهم نسباً» وفي لفظ آخر عنه قال: قال رسول الله «إن الله قسم الخلق قسمين، فجعلني في خيرهم قسماً، ثم جعل القسمين أثلاثاً فجعلني في خيرها ثلثاً، ثم جعل الثلث قبائل فجعلني في خيرها قبيلة، ثم جعل القبائل بيوتاً فجعلني في خيرها بيتاً» وتقدم عن الشفاء مثل ذلك مع زيادة الاستدلال بالآيات، وتقدم الأمر بالتأمل في ذلك، والله أعلم. وفيه أنه ورد النهي في الأحاديث الكثيرة عن الانتساب إلى الآباء في الجاهلية على سبيل الافتخار، من ذلك «لا تفتخروا بأبائكم الذين ماتوا في الجاهلية، فوالذي نفسي بيده ما يدحرج الجعل بأنفه خير من أبائكم الذين ماتوا في الجاهلية» أي والذي يدحرجه الجعل وهو النتن. وجاء في الحديث «ليدعن الناس فخرهم في الجاهلية. أو ليكونن أبغض إلى الله تعالى من الخنافس» وجاء «آفة الحسب الفخر» أي عاهة الشرف بالآباء التعاضم بذلك.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وأجاب الإمام الحلبي بأنه لم يرد بذلك الفخر، إنما أراد تعريف منازل أولئك ومراتبهم: أي ومن ثم جاء في بعض الروايات قوله ولا فخر: أي فهو من التعريف بما يجب اعتقاده وإن لزم منه الفخر، وهو أشار إلى نعمة الله تعالى عليه، فهو من التحدث بالنعمة وإن لزم من ذلك الفخر أيضاً. وعن ابن عباس رضي الله عنهما «في قوله تعالى: {وتقلبك في الساجدين} قال: من نبي إلى نبي حتى أخرجت نبياً» أي وجدت الأنبياء في آباءه فسيأتي «أنه قذف بي في صلب آدم، ثم في صلب نوح، ثم في صلب إبراهيم عليهما الصلاة والسلام» بدليل ما يأتي فيه. وفي لفظ آخر عنه «ما زال النبي صلى الله عليه وسلم يتقلب في أصلاب الأنبياء» أي المذكورين أو غيرهم «حتى ولدته أمه» أي وهذا كما لا يخفى لا ينافي وقوع من ليس نبياً في آباءه، فالمراد وقوع الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم في نسبه عليه الصلاة والسلام كما علمت، ضرورة أن آباءه كلهم ليسوا أنبياء، لكن قال غيره: لا زال نوره ينقل من ساجد إلى ساجد. قال أبو حيان: واستدل بذلك، أي بما ذكر من الآية المذكورة: أي المفسرة بما ذكر الرافضة على أن آباء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين: أي لأن الساجد لا يكون إلا مؤمناً، فقد عبر عن الإيمان بالسجود، وسيأتي مزيد الكلام في ذلك، وهو استدلال ظاهري، وإلا فالآية قيل معناها وتصفحك أحوال المتجهدين من أصحابك لأنه لما نسخ فرض قيام الليل عليهم وعليهم بناء على أنه كان واجباً عليه وعلى أمته وهو الأصح.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

مكتبة مشكاة

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان واجباً على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله «طاف تلك الليلة على بيوت أصحابه لينظر حالهم» أي هل تركوا قيام الليل لكونه نسخ وجوبه بالصلوات الخمس ليلة المعراج حرصاً على كثرة طاعتهم فوجدوها كبيوت الزنابير: أي لأن الله عز وجل افترض عليه: أي وعلى أمته قيام الليل أو نصفه أو أقل أو أكثر في أول سورة المزمل، ثم نسخ ذلك في آخر السورة بما تيسر: أي وكان نزول ذلك بعد سنة، ثم نسخ ذلك بالصلوات الخمس ليلة المعراج كما سيأتي. وجعل بعضهم ذلك من نسخ الناسخ فيصير منسوخات، لما علمت أن آخر هذه السورة ناسخ لأولها ومنسوخ بفرض الصلوات الخمس.

واعترض بأن الأخبار دالة على أن قوله تعالى: {فاقرؤوا ما تيسر من القرآن} إنما نزل بالمدينة يدل على ذلك قوله تعالى: {علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون في سبيل الله} لأن القتال في سبيل الله إنما كان بالمدينة، فقوله تعالى: {فاقرؤوا ما تيسر} اختيار لا إيجاب.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وقيل معنى {وتقلبك في الساجدين} وتقلبك في أركان الصلاة قائماً وقاعداً وراكعاً وساجداً في الساجدين: أي في المصلين، ففي الساجدين ليس متعلقاً بتقلبك بل بساجد المحذوف.

لا يقال: يعارض جعل الساجدين عبارة عن المؤمنين أن من جملة آبائه آزر والد إبراهيم الخليل صلى الله على نبينا وعليه وسلم وكان كافراً.

لأننا نقول: أجمع أهل الكتاب على أن آزر كان عمه، والعرب تسمي العم أباً كما تسمي الخالة أما فقد حكى الله عن يعقوب عليه السلام أنه قال: «آبائي إبراهيم وإسماعيل» ومعلوم أن إسماعيل إنما هو عمه. أي ويدل لذلك أن أبا إبراهيم كان اسمه تارخ بالمشناة فوق والمعجمة كما عليه جمهور أهل النسب، وقيل بالمهملة وعليه اقتصر الحافظ في الفتح لا آزر، لكن ادعى بعضهم أنه لقب له، لأن آزر اسم صنم كان يعبده فصار له اسمان: آزر وتارخ كيعقوب وإسرائيل.

قال بعضهم: وقد تساهل من أخذ بظاهر الآية كالقاضي البيضاوي وغيره فقال: إن أبا إبراهيم مات على الكفر وما قيل إنه عمه فعدول عن الظاهر من غير دليل.

ويوافق ما في النهر نقلاً عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن آزر كان اسم أبيه، ويرد ذلك قول الحافظ السيوطي رحمه الله: يستنبط من قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام {ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم الحساب} وكان ذلك بعد موت عمه بمدة طويلة، أن المذكور في القرآن بالكفر والتبري من الاستغفار له: أي في قوله تعالى: {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه} هو عمه لا أبوه الحقيقي. قال: فله الحمد على ما ألهم: أي ولا يخفى أن هذا لا يتم إلا إذا كان أبوه الحقيقي حياً وقت التبري منه، وأن التبري سببه الموت: أي موت عمه على الكفر لا الوحي بأنه يموت كافراً فليتأمل، وحينئذ يكون أبوه الحقيقي هو المعني بقول أبي هريرة: أحسن كلمة قالها أبو إبراهيم. أن قال لما رأى ولده

وقد ألقى في النار أي على تلك الحالة أي في روضة خضراء وحوله النار: لم تحرق منه إلا كتافه نعم الرب ربك يا إبراهيم، وكان سنه حين ألقى في النار ست عشرة سنة كما في الكشاف. وفي كلام غيره كان سنه ثلاثين سنة بعد ما سجن ثلاث عشرة سنة.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إن قريشاً كانت نوراً بين يدي الله تعالى قبل أن يخلق آدم عليه الصلاة والسلام يألقي عام يسبح ذلك النور وتسبح الملائكة بتسبيحه فلما خلق الله تعالى آدم عليه الصلاة والسلام ألقى ذلك النور في صلبه، قال: فأهبطني الله تعالى إلى الأرض في صلب آدم، وجعلني في صلب نوح، وقذفني في صلب إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، ثم لم يزل ينقلني من الأصباب الكريمة والأرحام الطاهرة حتى أخرجني من بين أبوي لم يلتقيا على سفاح قط».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

أقول: قوله: «فأهبطني» ينبغي أن لا يكون معطوفاً على ما قبله من قوله: «إن قريشاً كانت نوراً بين يدي الله تعالى الخ» فيكون نوره من جملة نور قريش، وإنه انفرد عن نور قريش وأودع في صلب نوح عليه الصلاة والسلام الخ، بل على ما يأتي من قوله: «كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم بأربعة عشر ألف عام» اللازم لذلك أن يكون نوره سابقاً على نور قريش، ويكون نور قريش من نوره.

وحكمة اقتصاره على من ذكر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا تخفى. وهي أنهم آباء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فمن ذرية نوح هود وصالح عليهما الصلاة والسلام، ومن ذرية إبراهيم إسماعيل وإسحاق ويعقوب ويوسف وشعيب وموسى وهارون بناء على أنه شقيق موسى أو لأبيه وإلا فسيأتي أن نوره انتقل إلى شيث، وتقدم أنه من ذرية إسماعيل.

وعن علي بن الحسين رضي الله تعالى عنهما عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كنت نوراً بين يدي ربي قبل خلق آدم عليه الصلاة والسلام بأربعة عشر ألف عام» ورأيت في كتاب التشریفات في الخصائص والمعجزات لم أقف على اسم مؤلفه، عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سال جبريل عليه الصلاة والسلام فقال يا جبريل كم عمرت من السنين؟ فقال يا رسول الله لست أعلم، غير أن في الحجاب الرابع نجماً يطلع في كل سبعين ألف سنة مرة، رأيتُه اثنتين وسبعين ألف مرة فقال: «يا جبريل وعزة ربي جل جلاله أنا ذلك الكوكب» رواه البخاري، هذا كلامه، فلما خلق الله آدم عليه الصلاة والسلام جعل ذلك النور في ظهره: أي فهو حالة كونه نوراً سابق على قريش حالة كونه نوراً، بل سيأتي ما يدل على أن نوره سابق على سائر المخلوقات، بل وتلك المخلوقات خلقت من ذلك النور آدم وذريته وحينئذ يحتاج إلى بيان وجه كون آدم خلق من نوره، وجعل نوره في ظهر آدم عليه الصلاة والسلام، فقد تقدم في الخبر «لما خلق الله تعالى آدم جعل ذلك النور في ظهره» أي فكان يلعب في جبينه فيغلب

على سائر نوره الخ ما يأتي، ثم انتقل إلى ولده شيث الذي هو وصيه، وكان من جملة ما أوصاه به أنه يوصي من انتقل إليه ذلك النور من ولده أنه لا يضع ذلك النور الذي انتقل إليه إلا في المطهرة من النساء، ولم تزل هذه الوصية معمولاً بها في القرون الماضية إلى أن وصل ذلك النور إلى عبد المطلب: أي وهذا السياق يدل على أن ذلك النور كان ظاهراً فيمن ينتقل إليه من آباءه، وهو قد يخالف ما تقدم من تخصيص بعض آباءه بذلك، ولم تلد حواء ولداً مفرداً إلا شيئاً كرامة لهذا النور، قيل مكث في بطنها حتى نبتت أسنانه وكان ينظر إلى وجهه من صفاء بطنها وهو الثالث من ولد آدم عليه الصلاة والسلام، وكانت تلد ذكراً وأنثى معاً: أي فقد قيل إنها ولدت لآدم أربعين ولداً في عشرين بطناً، وقيل ولدت

مائة وعشرين ولداً، وقيل مائة وثمانين ولداً، وقيل خمسمائة. ويقال إن آدم عليه الصلاة والسلام لما مات بكى عليه من ولده وولد ولده أربعون ألفاً، ولم يحفظ من نسل آدم إلا ما كان من صلب شيث دون إخوته: أي فإنهم لم يعقبوا أصلاً فهو أبو البشر.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

وعن جابر بن عبد الله رضي تعالى عنهما قال: «قلت يا رسول الله بأبي أنت وأمي أخبرني عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء؟ قال: يا جابر إن الله تعالى قد خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره» الحديث، وفيه أنه أصل لكل موجود، والله سبحانه وتعالى أعلم.

واختلف الناس في عد طبقات أنساب العرب وترتيبها، والذي في الأصل عن الزبير بن بكار أنها ست طبقات، وأن أولها شعب، ثم قبيلة، ثم عمارة بكسر العين المهملة، ثم بطن، ثم فخذ، ثم فصيلة قال: وقد نظمها الزين العراقي في قوله:

للعرب العربيا طباق عدة

فصلها الزبير وهي ستة

أعم ذاك الشعب فالقبيلة

عمارة بطن فخذ فصيلة

أي فالشعب أصل القبائل، والقبيلة أصل العمارة، والعمارة أصل البطون، والبطن أصل الفخذ، والفخذ أصل الفصيلة، فيقال: مضر شعب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي وقيل شعبه خزيمة، وكنانة قبيلته، وقريش عمارته، وقصي بطنه، وهاشم فخذ، وبنو العباس فصيلته. وقيل بعد الفصيلة العشيرة، وليس بعد العشيرة شيء. وقيل بعدها الفصيلة قال: ثم الرهط. وزاد بعضهم الذرية والعترة والأسرة، ولم يرتب بينها. وقد ذكرها محمد بن سعد اثني عشر فقال: الجذم، ثم الجمهور، ثم الشعب، ثم القبيلة، ثم العمارة، ثم البطن، ثم الفخذ، ثم العشيرة، ثم الفصيلة، ثم الرهط، ثم الأسرة، ثم الذرية، وسكت عن العترة.

وفي كلام بعضهم: الأسباط بطون بني إسرائيل، والشعب في لسان العرب: الشجرة الملتفة الكثيرة الأغصان والأوراق، والقبائل بطون العرب والشعوب بطون العجم، فيتأمل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 6

باب: تزويج عبد الله أبي النبي صلى الله عليه وسلم أمته وحفر زمزم وما يتعلق بذلك
 قيل خرج عبد المطلب ومعه ولده عبد الله، وكان أحسن رجل في قريش خلقاً، وخلقاً، وكان نور النبي صلى الله عليه وسلم بينا في وجهه. وفي رواية أنه كان أحسن رجل رثاء بكسر الراء وبضمها ثم همزة مفتوحة: منظراً في قريش. وفي رواية أنه كان أكمل بني أبيه، وأحسنهم وأعفهم، وأحبهم إلى قريش، وقد هدى الله تعالى والده فسماه بأحب الأسماء إلى الله تعالى. ففي الحديث «أحب الأسماء إلى الله تعالى عبد الله وعبد الرحمن» وهو الذبيح. وذلك لأن أباه عبد المطلب حين أمر في النوم بحفر زمزم بئر إسماعيل عليه السلام: أي لأن الله تعالى أخرج زمزم لإسماعيل بواسطة جبريل كما يأتي إن شاء الله تعالى في بناء الكعبة، أخرج زمزم مرتين: مرة لآدم، ومرة لإسماعيل عليهما الصلاة والسلام، وكانت جرهم قد دفنتها: أي فإن جرهما لما استخفت بأمر البيت الحرام، وارتكبوا الأمور العظام، قام فيهم رئيسهم مضاض بكسر الميم وحكى ضمها، ابن عمرو خطيباً: ووعظهم فلم يرفعوا فلما رأى ذلك منهم عمد إلى غزالتين من ذهب كانتا في الكعبة وما وجد فيها من الأموال: أي السيوف والدرع على ما سيأتي التي كانت تهدى إلى الكعبة ودفنها في بئر زمزم.

وفي مرآة الزمان أن هاتين الغزالتين أهداهما للكعبة وكذا السيوف ساسان أول ملوك الفرس الثانية. ورد بأن الفرس لم يحكموا على البيت ولا حجوه هذا كلامه. وفيه أن هذا لا ينافي ذلك، فيتأمل. وكانت بئر زمزم نضب ماؤها: أي ذهب فحفرها مضاض بالليل وأعمق الحفر ودفن فيها ذلك: أي ودفن الحجر الأسود أيضاً كما قيل، وطم البئر، واعتزل قومه فسلط الله تعالى عليهم خزاعة، فأخرجتهم من الحرم، وتفرقوا وهلكوا كما تقدم، ثم لا زالت زمزم مطمومة لا يعرف محلها مدة خزاعة ومدة قصي، ومن بعده إلى زمن عبد المطلب. ورؤياه التي أمر فيها بحفرها. قيل وتلك المدة خمسمائة سنة: أي وكان قصي احتفر بئراً في الدار التي سكنتها أم هانئ أخت علي رضي الله تعالى عنهما، وهي أول سقاية احتفرت بمكة.

فغن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال عبد المطلب: إني لنائم في الحجر إذ أتاني أت فقال احفر طيبة، فقلت: وما طيبة؟ فذهب وتركني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال احفر برة، فقلت: وما برة فذهب وتركني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فقلت: وما المصنونة؟ فذهب وتركني، فلما كان الغد رجعت إلى مضجعي فنمت فيه، فجاءني فقال احفر زمزم، فقلت: وما زمزم؟ قال: لا تنزف، ولا تدم، تسقي الحجيج الأعظم، وهي بين الفرث والدم، عند نقرة الغراب الأعصم، عند قرية النمل. وقوله لا تنزف: أي لا يفرغ ماؤها، ولا يلحق قعرها.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

وفيه أنه ذكر أنه وقع فيها عبد حبشي فمات بها وانتفخ فنزحت من أجله،

ووجدوا قعرها فوجدوا ماءها يفور من ثلاثة أعين، أقواها وأكثرها التي من ناحية الحجر الأسود.

وقوله ولا تدم بالذال المعجمة: أي لا توجد قليلة الماء، من قولهم: بئر ذمة أي قليلة الماء قيل وليس المراد أنه لا يذمها أحد، لأن خالد بن عبد الله القسري أمير العراق من جهة الوليد بن عبد الملك ذمها وسماها أم جعلان، واحتفر بئراً خارج مكة باسم الوليد بن عبد الملك، وجعل يفضلها على زمزم ويحمل الناس على التبرك بها.

وفيه أن هذا جراءة منه على الله تعالى وقلة حياء منه، وهو الذي كان يعلن ويفصح بلعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه على المنبر، فلا عبرة بدمه.

وقيل لزمزم طيبة لأنها للطيبين والطيبات من ولد إبراهيم، وقيل لها برة لأنها فاضت للأبرار، وقيل لها المصنونة لأنها صن بها على غير المؤمنين، فلا يتصلح منها منافع، وقد جاء في رواية «يقول الله تعالى صننت بها على الناس إلا عليك» ولعل المراد إلا على أتباعك، فيكون بمعنى ما قبله. وفي رواية أنه قيل لعبد المطلب احفر زمزم، ولم يذكر له علامتها فجاء إلى قومه وقال لهم: إني قد أمرت أن أحفر زمزم، قالوا: فهل بين لك أين هي؟ قال لا، قالوا فارجع إلى مضجعك الذي رأيت فيه ما رأيت، فإن يكن حقاً من الله تعالى بين لك، وإن يكن من الشيطان فلن يعود إليك، فرجع عبد المطلب إلى مضجعه فنام فيه فأتاه فقال احفر زمزم إنك إن حفرتها لن تندم، وهي ميراث من أبك الأعظم، لا تنزف أبداً ولا تدم، تسقي الحجيج الأعظم، فقال عبد المطلب: أين هي؟ فقال: هي بين الفرث والدم، عند قرية النمل حيث ينقر الغراب الأعصم غداً: أي والأعصم، قيل أحمر المنقار والرجلين، وقيل أبيض البطن، وعلى هذا اقتصر الإمام الغزالي حيث قال في قوله «مثل المرأة الصالحة في النساء مثل الغراب الأعصم بين مائة غراب» يعني الأبيض البطن، هذا كلامه. وقيل الأعصم أبيض الجناحين، وقيل أبيض إحدى الرجلين، فلما كان الغد ذهب عبد المطلب وولده الحارث ليس له ولد غيره، فوجد قرية النمل، ووجد الغراب ينقر عندها بين الفرث والدم: أي في محلها وذلك بين إساف ونائلة: الصنمين اللذين تقدم ذكرهما، وتقدم أن قريشاً كانت تذيب عندهما ذبائحها: أي التي كانت تتقرب بها، وهذا يبعد ما جاء في رواية أنه لما قام بحفرها رأى ما رسم له من قرية النمل ونقرة الغراب، ولم ير الفرث والدم فبينما هو كذلك ندت بقرة من ذابحها فلم يدركها حتى دخلت المسجد فنحرتها في الموضع الذي رسم له.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

وقد يقال لا يبعد لأنه يجوز أن يكون فهم أن يكون الفرث والدم موجودين بالفعل فلا يلزم من كون المحل المذكور محلها وجودهما فيه في ذلك الوقت، فلم يكتف بنقرة الغراب في محلها، فأرسل الله له تلك البقرة ليرى الأمر

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

عياناً.
وذكر السهيلي رحمه الله لذكر هذه العلامات الثلاث حكمة لا بأس بها، ولعل إسافاً ونائلة نقلا بعد ذلك إلى الصفا والمروة بعد أن نقلهما عمرو بن لحي من جوف الكعبة إلى المحل المذكور، فلا يخالف ما ذكره القاضي البيضاوي وغيره أن إسافاً كان على الصفا ونائلة على المروة، وكان أهل الجاهلية إذا سعوا مسحوماً: أي ومن ثم لما جاء الاسلام وكسرت الأصنام، كره المسلمون الطواف أي السعي بينهما، وقالوا يا رسول الله هذا كان شعارنا في الجاهلية لأجل التمسح بالصنمين، فأنزل الله تعالى - {إن الصفا والمروة من شعائر الله} - الآية: ويقال إن بقرة نحررت بالحزورة بوزن قسورة فانفلتت ودخلت المسجد في موضع زمزم فوقعت مكانها، فاحتمل لحمها، فأقبل غراب أعصم فوقع في الفرث فليتأمل الجمع.

وقد يقال: لا منافاة، لأن قوله في الرواية الأولى: فندت بقرة من ذابحها: أي ممن شرع في ذبحها ولم يتمه حتى دخلت المسجد فنحرها: أي تم ذبحها، فقد نحررت بالحزورة وبالمسجد أو يراد بنحرها في الحزورة ذبحها، وبنحرها في المسجد سلخها وتقطيع لحمها فقد رأينا الحيوان بعد ذبحه يذهب إلى موضع آخر ثم يقع به، وعند ذلك جاء عبد المطلب بالمعول وقام ليحفر، فقامت إليه قريش، فقالوا له: والله لا نتركك تحفر بين وثنينا اللذين ننحر عندهما فقال عبد المطلب لولده الحرث ذد عني: أي امنع عني حتى أحفر، فوالله لأمضين لما أمرت به، فلما رأوه غير نازع خلوا بينه وبين الحفر وكفوا عنه، فلم يحفر إلا يسيراً حتى بدا له الطي: أي البناء، فكبر وقال هذا طي إسماعيل عليه السلام: أي بناؤه، فعرفت قريش أنه أصاب حاجته، فقاموا إليه وقالوا والله يا عبد المطلب إنها بئر أبينا إسماعيل، وإن لنا فيها حقاً فأشركنا معك، فقال: ما أنا بفاعل، إن هذا الأمر قد خصصت به دونكم، فقالوا نخاصمك فيها، فقال: اجعلوا بيني وبينكم من شئتم أحاكمكم إليه، قالوا: كاهنة بني سعد بن هذيم وكانت بأعالي الشام: أي ولعلها التي لما حضرتها الوفاة طلبت شقاً وسطيحاً وتفلت في فمهما، وذكرت أن سطيحاً يخلفها في كهانتها ثم ماتت في يومها ذلك، وسطيح ستاتي ترجمته. وأما شق فقيل له ذلك، لأنه كان شق إنسان، يداً واحدة، ورجلاً واحدة، وعينا واحدة، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بني عبد مناف، وركب من كل قبيلة من قريش نفر، وكان إذ ذاك ما بين الحجاز والشام مفازات لا ماء بها، فلما كان عبد المطلب ببعض تلك المفاوز فني ماؤه وماء أصحابه، فظمئوا ظمأ شديداً حتى أيقنوا بالهلكة، فاستقوا ممن معهم من قبائل قريش فأبوا عليهم وقالوا نخشى على أنفسنا مثل ما أصابكم، فقال عبد المطلب لأصحابه ما ترون؟ قالوا، ما رأينا إلا تبع لرأيك، فقال: إني أرى أن يحفر كل أحد منكم حفيرة يكون فيها إلى أن يموت فكلما مات رجل

دفعه أصحابه في حفرتة ثم واروه حتى يكون آخرهم رجلاً واحداً فضيعة رجل واحد: أي يترك بلا مواراة أيسر من ضيعة ركب جميعاً، فقالوا نعم ما أمرت به فحفر كل حفيرة لنفسه ثم قعدوا ينتظرون الموت، ثم قال عبد المطلب

لأصحابه: والله إن إلقاءنا بأيدينا هكذا إلى الموت لعجز، فلنضرب في الأرض فعسى الله أن يرزقنا، فانطلقوا، كل ذلك وقومهم ينظرون إليهم ما هم فاعلون فتقدم عبد المطلب إلى راحلته فركبها، فلما انبعثت انفجرت من تحت خفها عين ماء عذب، فكبر عبد المطلب وكبر أصحابه ثم نزل فشرب وشرب أصحابه وملأوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل فقال: هلموا إلى الماء فقد سقانا الله فاشربوا واستقوا، فجاؤوا فشربوا واستقوا، ثم قالوا لعبد المطلب قد والله قضى لك علينا يا عبد المطلب، والله لا نخاصمك في زمزم أبداً، إن الذي سقاك الماء بهذه الفلاة لهو الذي سقاك زمزم، فارجع إلى سقايتك راشداً، فرجع ورجعوا معه ولم يصلوا إلى الكاهنة، فلما جاء وأخذ في الحفر وجد فيها الغزالتين من الذهب اللتين دفنتهما جرهم، ووجد فيها أسياً وأدراعاً، فقالت له قريش: يا عبد المطلب لنا معك في هذا شرك، فقال: لا، ولكن هلموا إلى أمر نصف بيني وبينكم. والنصف: بكسر النون وسكون الصاد المهملة ويفتحها النصفة بفتحات نضرب عليها بالقداح قالوا: كيف تصنع؟ قال: أجعل للكعبة قدحين، ولي قدحين، ولكم قدحين، فمن خرج قدحاه على شيء كان له، ومن تخلف قدحاه فلا شيء له، قالوا أنصفت، فجعل قدحين أصفرين للكعبة وقدحين أسودين لعبد المطلب وقدحين أبيضين لقريش، ثم أعطوها لصاحب القداح الذي يضرب بها عند هبل: أي وجعلوا الغزالتين قسماً والأسياف والأدراع قسماً آخر، وقام عبد المطلب يدعو ربه بشعر مذكور في الأمتاع، فضرب صاحب القداح، فخرج الأصفران على الغزالتين، وخرج الأسودان على الأسياف والأدراع، وتخلف قدحاً قريش، فضرب عبد المطلب الأسياف بابا الكعبة، وضرب في الباب الغزالتين، فكان أول ذهب حليت

به الكعبة ذلك. ومن ثم جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما: والله إن أول من جعل باب الكعبة ذهباً لعبد المطلب.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

وفي شفاء الغرام أن عبد المطلب علق الغزالتين في الكعبة، فكان أول من علق المعاليق بالكعبة، وسيأتي الجمع بين كونهما علقتا بالكعبة وبين جعلهما حلياً لباب الكعبة وقد كان بالكعبة بعد ذلك معاليق، فإن عمر رضي الله تعالى عنه لما فتحت مدائن كسرى كان مما بعث إليه منها هلالان فعلقا بالكعبة، وعلق بها عبد الملك بن مروان شمسيتين وقدحين من قوارير، وعلق بها الوليد بن يزيد سريراً وعلق بها السفاح صحيفة خضراء، وعلق بها المنصور القارورة الفرعونية، وبعث المأمون ياقوتة كانت تعلق كل سنة في وجه الكعبة في زمن الموسم في سلسلة من ذهب.

ولما أسلم بعض الملوك في زمنه أرسل إليها بصنمه الذي كان يعبد، وكان من ذهب متوجاً ومكلاً بالجواهر والياقوت الأحمر والأخضر والزرجد، فجعل في خزنة الكعبة.

ثم إن الغزالتين سرقتا وأبيعتا من قوم تجار قدموا مكة بخمر وغيرها، فاشتروا بثمنها خمراً.

وقد ذكر أن أبا لهب مع جماعة نفدت خمرهم في بعض الأيام، وأقبلت قافلة من الشام معها خمر، فسرقوا غزالة واشتروا بها خمراً، وطلبتها قريش، وكان أشدهم طلباً لها عبد الله بن جدعان، فعلموا بهم فقطعوا بعضهم وهرب

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

بعضهم، وكان فيمن هرب أبو لهب: هرب إلى أخواله من خزاعة فمنعوا عنه قريشاً، ومن ثم كان يقال لأبي لهب سارق غزاة الكعبة. وقد قيل منافع الخمر المذكورة فيها أنهم كانوا يتغالون فيها إذا جليوها من النواحي لكثرة ما يربحون فيها لأنه كان المشتري إذا ترك المماكسة في شرائها عدوه فضيلة له ومكرمة فكانت أرباحهم تتكثر بسبب ذلك.

وما قيل في منافعها أنها تقوي الضعيف، وتهضم الطعام، وتعين على الباه، وتسلي المحزون، وتشجع الجبان، وتنصفي اللون، وتنعش الحرارة الغريزية، وتزيد في الهمة والاستعلاء، فذلك كان قبل تحريمها، ثم لما حرمت سلبت جميع هذه المنافع، وصارت ضرراً صرفاً، ينشأ عنها الصداع والرعدة في الدنيا لشاربها، وفي الآخرة يسقي عصارة أهل النار. وفي كلام بعضهم: من لازم شربها حصل له خلل في جوهر العقل، وفساد الدماغ والبخر في الفم، وضعف البصر والعصب، وموت الفجأة ومميتة للقلب، ومسخطة للرب، ومن ثم جاء أنها أي الخمر ليست بدواء ولكنها داء. وجاء «اجتنبوا الخمر فإنها مفتاح كل شر» أي كان مغلقاً. وجاء «الخمر أم الفواحش» وفي رواية «أم الخبائث» وجاء في الخمر «لا طيب الله من تطيب بها، ولا شفى الله من استشفى بها».

وقد قيل لا منافاة بين كون الغزالتين علقتا في الكعبة وسرقتا أو سرقت إحداهما، وبين كون عبد المطلب جعلهما حلياً للباب، لأنه يجوز أن يكون عبد المطلب استخلص الغزالتين أو الغزاة من التجار، ثم جعلهما حلياً للباب بعد أن كان علقهما.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

وفي الإمتاع: وكان الناس قبل ظهور زمزم تشرب من آبار حفرت بمكة، وأول من حفر بها بئراً قصي كما تقدم، وكان الماء العذب بمكة قليلاً. ولما حفر عبد المطلب زمزم بني عليها حوضاً وصار هو وولده يملأه فيكسره قوم من قريش ليلاً حسداً فيصلحه نهاراً حين يصبح، فلما أكثروا من ذلك وجاء شخص واغتسل به غضب عبد المطلب غضباً شديداً فأري في المنام أن قل: اللهم إن لا أحلها لمغتسل وهي لشارب حل وبل: أي حلال مباح ثم كفيهم، فقام عبد المطلب حين اختلفت قريش في المسجد ونادى بذلك، فلم يكن يفسد حوضه أحد، أو اغتسل إلا رمى في جسده داء.

ثم إن عبد المطلب لما قال لولده الحرث ذد عني: أي امنع عني حتى أحفر، وعلم أنه لا قدرة له على ذلك نذر إن رزق عشرة من الولد الذكور يمنعونه ممن يتعالى عليه ليذبحن أحدهم عند الكعبة. أي وقيل إن سبب ذلك أن عدي بن نوفل بن عبد مناف أبا المطعم قال له: يا عبد المطلب تستطيل علينا وأنت فذل لا ولد لك: أي متعدد، بل لك ولداً واحداً ولا مال لك، وما أنت إلا واحد من قومك، فقال له عبد المطلب: أتقول هذا، وإنما كان نوفل أبوك في حجر هاشم: أي لأن هاشماً كان خلف علي أم نوفل وهو صغير، فقال له عدي: وأنت أيضاً قد كنت في يثرب عند غير أبيك كنت عند

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

أخوالك من بني النجار، حتى ردك عمك المطلب، فقال له عبد المطلب: أو بالقلة تعيرني، فله علي النذر لئن أتاني الله عشرة من الأولاد الذكور لأنحرن أحدهم عند الكعبة. وفي لفظ: أن أجعل أحدهم لله نحيرة. قيل إن عبد المطلب نذر أن يذبح ولداً إن سهل الله له حفر زمزم، فعن معاوية رضي الله عنه أن عبد المطلب لما أمر بحفر زمزم نذر الله إن سهل الأمر بها أن ينحر بعض ولده، فلما صاروا عشرة: أي وحفر زمزم أمر في اليوم بالوفاء بنذره: أي قيل له قُرب أحد أولادك: أي بعد أن نسي ذلك وقد قيل له قبل ذلك: أوف بنذك، فذبح كبشاً أطعمه الفقراء ثم قيل له في النوم: قرب ما هو أكبر من ذلك فذبح ثوراً، ثم قيل له في النوم قرب ما هو أكبر من ذلك فذبح جملًا، ثم قيل له في النوم قرب ما هو أكبر من ذلك فقال: وما هو أكبر من ذلك؟ فقيل له قرب أحد أولادك الذي نذرت ذبحه، فضرب القداح على أولاده بعد أن جمعهم وأخبرهم بنذره، ودعاهم إلى الوفاء وأطاعوه.

ويقال إن أول من أطاعه عبد الله وكتب اسم كل واحد على قدح، ودفعت تلك القداح للسادن والقائم بخدمة هبل، وضرب تلك القداح، فخرجت على عبد الله: أي وكان أصغر ولده، وأحبهم إليه مع ما تقدم من أوصافه، فأخذه عبد المطلب بيده وأخذ الشفرة، ثم أقبل به على إساف ونائلة وألقاه على الأرض، ووضع رجله على عنقه، ف جذب العباس عبد الله من تحت رجل أبيه حتى أثر في وجهه شجة لم تزل في وجه عبد الله إلى أن مات، كذا قيل.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

وفيه أن العباس لما ولد كان عمره ثلاث سنين ونحوها، فعنه رضي الله عنه: أذكر مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا ابن ثلاثة أعوام أو نحوها فجيء به حتى نظرت إليه وجعلت النسوة يقلن لي قبل أخاك فقبلته، وقيل منعه أخواله بنو مخزوم وقالوا له: والله ما أحسنت عشرة أمه، وقالوا له أرض ربك وافد ابنك، ففداه بمائة ناقة، وفي رواية «وأعظمت قريش ذلك» أي وقامت سادة قريش من أنديتها إليه ومنعوه من ذلك وقالوا له: والله لا نفعل حتى تستفتي فيه فلانة الكاهنة أي لعلك تعذر فيه إلى ربك لئن فعلت هذا لا يزال الرجل يأتي بابنه حتى يذبحه أي ويكون سنة، ولعل المراد إذا وقع له مثل ما وقع لك من النذر وقال له بعض عظماء قريش لا تفعل إن كان فداؤه بأموالنا فديناه، وتلك الكاهنة قيل اسمها قطبة وقيل غير ذلك كانت بخير فأتها فاسألها فإن أمرتك بذبحة ذبحته، وإن أمرتك بأمر لك وله فيه فرج قبلته، فأتها أي مع بعض قومه وفيهم جماعة من أخوال عبد الله بن مخزوم، فسالها وقص عليها القصة فقالت: ارجعوا عني اليوم حتى يأتي تابعي فأسأله، فرجعوا من عندها ثم غدوا عليها، فقالت لهم: قد جاءني الخبر كم الدية فيكم؟ فقالوا عشرة من الإبل، فقالت تخرج عشرة من الإبل وتقده، وكلما وقعت عليه يزداد الإبل حتى تخرج القداح عليها، فضرب على عشرة فخرجت عليه فما زال يزيد عشرة عشرة حتى بلغت مائة، فخرجت القداح عليها، فقالت قريش ومن حضره قد انتهى رضا ربك، فقال عبد المطلب: لا والله حتى أضرب عليها ثلاث

مرات: أي ففعل ذلك وذبح الإبل عند الكعبة لا يصدُّ عنها أحد، أي من آدمي ووحش وطير. قال الزهري: فكان عبد المطلب أول من سن دية النفس مائة من الإبل: أي بعد أن كانت عشرة كما تقدم. وقيل أول من سن ذلك أبو يسار العدواني. وقيل عامر بن الظرب، فجرت في قريش: أي وعلى ذلك فأولية عبد المطلب إضافية ثم فشت في العرب، وأقرها رسول الله .

وأول من ودي بالإبل عن العرب زيد بن بكر من هوازن قتله أخوه: أي وأما ما قيل إن القدح بعد المائة خرج على عبد الله أيضاً، ولا زال يخرج عليه حتى جعلوا الإبل ثلثمائة، فخرج على الإبل فنحرها عبد المطلب فضعيف جداً. وقد ذكر الحافظ ابن كثير أن ابن عباس رضي الله عنهما سألتها امرأة أنها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبح مائة من الإبل أخذاً من هذه القصة ثم سألت عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن ذلك فلم يفتها بشيء فبلغ مروان بن الحكم وكان أميراً على المدينة، فأمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير بدل ذبح ولدها وقال: إن ابن عباس وابن عمر رضي الله عنهما لم يصيبا الفتيا، ولا يخفى أن هذا نذر باطل عندنا معاشر الشافعية فلا يلزمها به شيء. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

وعند أبي حنيفة ومحمد يلزمها ذبح شاة في أيام النحر في الحرم أخذاً من قصة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام قال القاضي البيضاوي: وليس فيه ما يدل عليه.

وفي الكشف أنه قال: «أنا ابن الذبيحين» أي عبد الله وإسماعيل وعن بعضهم قال: كنا عند معاوية رضي الله تعالى عنه فتذاكر القوم الذبيح هل هو إسماعيل أو إسحاق، فقال معاوية على الخبر سقطتم كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتاه أعرابي: أي يشكو جذب أرضه، فقال: يا رسول الله خلفت البلاد يابسة هلك المال وضاع العيال، فعد عليّ مما أفاء الله عليك يا بن الذبيحين، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليه، فقال القوم من الذبيحان يا أمير المؤمنين؟ قال عبد الله وإسماعيل. قال الحافظ السيوطي: هذا حديث غريب، وفي إسناده من لا يعرف حاله.

قال بعضهم: لما أحب إبراهيم ولده إسماعيل بطبع البشرية أي لا سيما وهو بكره ووحيدته إذ ذاك، وقد أجرى الله العادة البشرية أن بكر الأولاد أحب إلى الوالد: أي وخصوصاً إذا كان لا ولد له غيره، أمره الله بذبحه ليخلص سره من حب غيره بأبلغ الأسباب الذي هو الذبح للولد، فلما امتثل وخلص سره له ورجع عن عادة الطبع فداه بذبح عظيم، لأن مقام الخلعة يقتضي توحيد المحبوب بالمحبة، فلما خلصت الخلعة من شائبة المشاركة لم يبق في الذبح مصلحة فنسخ الأمر وفدى هذا.

وجاء مما يدل على أن الذبيح إسحاق حديث «سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم أي النسب أشرف» وفي رواية «من أكرم الناس؟ فقال: يوسف صديق الله ابن يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله

عليهم الصلاة والسلام» كذا روي.

قال بعضهم والثابت: يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم، وما زاد على ذلك من الراوي.

وما ذكر أن يعقوب لما بلغه أن ولده بنيامين أخذ بسبب السرقة كتب إلى العزيز وهو يومئذ ولده يوسف: بسم الله الرحمن الرحيم، من يعقوب إسرائيل الله ابن إسحاق ذبيح الله ابن إبراهيم خليل الله، إلى عزيز مصر. أما بعد: فإننا أهل بيت موكل بنا البلاء، أما جدي فربطت يداه ورجلاه ورمي به في النار ليحرق فنجاه الله وجعلت النار عليه برداً وسلاماً، وأما أبي فوضع السكين على قفاه ليذبح، ففداه الله، وأما أنا فكان لي ابن وكان أحب أولادي إليّ فذهب فذهبت عينا من بكائي عليه ثم كان لي ابن وكان أخاه من أمه وكنت أتسلى به، وإنك حبسته، وأنا أهل بيت لا نسرق ولا نلد سارقاً، فإن رددته عليّ وإلا دعوت عليك دعوة تدرك السابغ من ولدك والسلام لم يثبت.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

ففي كلام القاضي البيضاوي، وما روي أن يعقوب كتب ليوسف من يعقوب بن إسحاق ذبيح الله لم يثبت: أي ولعله لم يثبت أيضاً ما في (أنس الجليل) أن موسى لما أراد مفارقة شعيب وذهابه إلى وطنه بمملكة فرعون بسط شعيب يديه وقال: يا رب إبراهيم الخليل، وإسماعيل الصفي، وإسحاق الذبيح، ويعقوب الكظيم، ويوسف الصديق رد على قوتي وبصري فأمن موسى على دعائه، فرد الله عليه بصره وقوته.

وذكر أن يعقوب رأى ملك الموت في منامه، فقال له: هل قبضت روح يوسف؟ فقال لا والله هو حي وعلمه ما يدعو به وهو: يا ذا المعروف الدائم الذي لا ينقطع معروفه أبداً، ولا يحصيه غيره فرج عني.

وذكر أن سبب ذبح إسحاق أي على القول بأنه الذبيح أن الخليل قال لسارة إن جاءني منك ولد فهو لله ذبيح، فجاءت سارة بإسحاق، وكان بينه وبين ولادة هاجر لإسماعيل ثلاث عشرة أو أربع عشرة سنة، وإسحاق اسمه بالعبرانية الضحاك. وجاء في حديث راويه ضعيف «الذبيح إسحاق» وأن داود سأله ربه فقال أي ربي اجعلني مثل أبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب، فأوحى الله إليه إني ابتليت إبراهيم بالنار فصبر، وابتليت إسحاق بالذبح فصبر، وابتليت يعقوب: أي بفقد ولده يوسف فصبر الحديث.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى {وبشرناه بإسحاق نبياً} قال بشر به نبياً حين فداه الله تعالى من الذبح، ولم تكن البشارة بالنبوة عند مولده: أي لما صبر الأب على ما أمر به وسلم الولد لأمر الله تعالى جعلت المجازاة على ذلك بإعطاء النبوة. قال الحافظ السيوطي: وجزم بهذا القول عياض في الشفاء، والبيهقي في التعريف والإعلام، وكنت ملت إليه في علم التفسير، وأنا الآن متوقف عن ذلك أي كون إسحاق هو الذبيح، هذا كلامه. وقد تنبأ كل من إسماعيل وإسحاق ويعقوب في حياة إبراهيم عليهم الصلاة والسلام، فبعث الله إسماعيل لجرهم، وإسحاق إلى أرض الشام، ويعقوب إلى أرض

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

كنعان. ولا ينافي ذلك أي كون إسحاق هو الذبيح تبسّمه من قول القائل له يا ابن الذبيحين ولم ينكر عليه، لأن العرب كما تقدم تسمى العمّ أباً. وفي الهدى: إسماعيل هو الذبيح على القول الصواب عند علماء الصحابة والتابعين ومن بعدهم. وأما القول بأنه إسحاق فمردود بأكثر من عشرين وجهاً. ونقل عن الإمام ابن تيمية أن هذا القول متلقى من أهل الكتاب مع أنه باطل بنص كتابهم الذي هو التوراة، فإن فيه أن الله أمر إبراهيم أن يذبح ابنه بكره. وفي لفظ وحيد، وقد حرفوا ذلك في التوراة التي بأيديهم اذبح ابنك إسحاق، أي ومن ثم ذكر المعافى بن زكريا أن عمر بن عبد العزيز سأل رجلاً أسلم من علماء اليهود أي ابني إبراهيم أمر بذبحه؟ فقال: والله يا أمير المؤمنين إن اليهود يعلمون أنه إسماعيل، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب أن يكون أياكم للفضل الذي ذكره الله تعالى عنه، فهم يجحدون ذلك ويزعمون أنه إسحاق لأن إسحاق أطبوهم، ولي رسالة في ذلك سميتها (القول المليح في تعيين الذبيح) رجحت فيها القول بأن الذبيح إسماعيل جواباً عن سؤال رفعه إليّ بعض الفضلاء.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

وعلى أن الذبيح إسماعيل فمحل الذبح بمنى. وعلى أنه إسحاق فمحلّه معروف بالأرض المقدسة عليّ ميلين من بيت المقدس. وفي كلام ابن القيم تأييد كون الذبيح إسماعيل لا إسحاق، ولو كان الذبيح بالشام كما يزعم أهل الكتاب لكانت القرابين والنحر بالشام لا بمكة. واستشكل كون أولاد عبد المطلب عند إرادة ذبح عبد الله كانوا عشرة بأن حمزة ثم العباس إنما ولدا بعد ذلك، وإنما كانوا عشرة بهما، وحينئذ يشكّل قول بعضهم: فلما تكامل بنوه عشرة وهم الحرث والزبير وحجل وضرار والمقوم وأبو لهب والعباس وحمزة وأبو طالب وعبد الله هذا كلامه. وأجيب عن الأول بأنه يجوز أن يكون له حينئذ أي عند إرادة الذبح ولداً ولد: أي فقد ذكر أن لولده الحرث ولدين أبو سفيان ونوفل، وولد الولد يقال له ولد حقيقة، هذا.

وذكر بعضهم أن أعمامه كانوا اثني عشر، بل قيل ثلاثة عشر، وأن عبد الله ثالث عشرهم، وعليه فلا إشكال، ولا يشكّل كون حمزة أصغر من عبد الله والعباس أصغر من حمزة، وكلاهما أصغر من عبد الله، على ما تقدم من أن عبد الله كان أصغر بني أبيه وقت الذبح، لأنه يجوز أن يكون المراد أنه كان أصغرهم حين أراد ذبحه: أي لا بقيد كونهم عشرة أو بذلك القيد. ولا ينافيه كونه ثالث عشرهم، لأن المراد به واحد من الثلاثة عشر. وكان عبد الله كما تقدم أحسن فتى يرى في قريش وأجملهم، وكان نور النبي صلى الله عليه وسلم يرى في وجهه كالكوكب الدرّي: أي المضيء المنسوب إلى الدر، حتى شغفت به نساء قريش، ولقي منهنّ عناء، ولينظر ما هذا العناء الذي لقيه منهنّ.

قيل إنه لما تزوج أمنة لم تبق امرأة من قريش من بني مخزوم وعبد شمس وعبد مناف إلا مرضت: أي أسفاً على عدم تزوجها به، فخرج مع أبيه ليزوجه

أمّنة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة، بضم الزاي وفتح الهاء. والزهرة في الأصل هي البياض: أي وأم وهب اسمها قبيلة بنت أبي كبشة: أي وكان عمر عبد الله حينئذ نحو ثمان عشرة سنة () فمر على امرأة من بني أسد ابن عبد العزي أي يقال لها قتيلة، وقيل رقية، وهي أخت ورقة بن نوفل وهي عند الكعبة، وكانت تسمع من أخيها ورقة أنه كائن في هذه الأمة نبي أي وأن من دلائله أن يكون نوراً في وجه أبيه، أو أنها أنعمت ذلك، فقالت لعبد الله: أي وقد رأيت نور النبوة في غرته () أين تذهب يا عبد الله؟ قال: مع أبي، قالت: لك مثل الإبل التي نحرت عنك وقع على الآن، قال أنا مع أبي ولا أستطيع خلفه ولا فراقه، وأنشد:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

أما الحرام فالممات دونه

والحل لا حل فاستبينه

يحمي الكريم عرضه ودينه

فكيف الأمر الذي تبغينه

قال: ومن شعر عبد الله والده كما في تذكرة الصلاح الصفدي:

لقد حكم اليادون في كل بلدة

بأن لنا فضلاً على سادة الأرض

وأن أبي ذو المجد والسؤدد الذي

يشار به ما بين نشز إلى خفض

أي ارتفاع وانخفاض.

وعن أبي يزيد المدني أن عبد المطلب لما خرج بابنه عبد الله ليزوجه، فمر به على امرأة كاهنة من أهل تبالة: بضم التاء المثناة فوق بلدة باليمن قد قرأت الكتب، يقال لها فاطمة بنت مر الخثعمية، فرأت نور النبوة في وجه عبد الله، فقالت له: يا فتى هل لك أن تقع علي الآن وأعطيك مائة من الإبل؟ فقال عبد الله ما تقدم اهـ.

أقول: قال الكلبي: كانت أي تلك الكاهنة من أجمل النساء وأعفهن، فدعته إلى نكاحها فأبى. ولا منافاة، لأنه جاز أن تكون أرادت بقولها قم علي الآن أي بعد النكاح وفهم عبد الله أنها تريد الأمر من غير سبق نكاح، فأنشد الشعر المتقدم الدال على طهارته وعفته، وهذا بناء على اتحاد الواقعة، وأن المرأة في هاتين الواقعتين واحدة، وأنه اختلف في اسمها، وأنه مر على تلك المرأة في ذهابه مع أبيه ليزوجه أمّنة، ويدل لذلك «فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت». وظاهر سياق المواهب يقتضي أنهما قضيتان، وأن الأولى عند انصرافه مع أبيه ليزوجه أمّنة.

وقوله قد قرأت الكتب: أي فجاز أنها رأت في تلك الكتب أن النبي صلى الله عليه وسلم المنتظر يكون نوراً في وجه أبيه، وأنه يكون من أولاد عبد المطلب، أو أنها ألهمت ذلك فطمعت أن يكون ذلك النبي منها، ويؤيد الثاني ما سيأتي عنها، والله أعلم.

فأتى عبد المطلب عمّ أمّنة وهو وهيب بن عبد مناف بن زهرة، وهو يومئذ سيد بني زهرة نسباً وشرفاً، وكانت في حجره لموت أبيها وهب بن عبد مناف. وقيل أتى عبد المطلب إلى وهب بن عبد مناف فزوجه ابنته أمّنة، وقدم هذا

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

في الإستهيعاب، فزوجها لعبد الله وهي يومئذ أفضل امرأة في قريش نسباً وموضعاً، فدخل بها عبد الله حين أملك عليها مكانه، فوقع عليها، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم وانتقل ذلك النور إليها. قيل وقع عليها يوم الاثنين في شعب أبي طالب عند الجمرة الوسطى. أقول فيه: أنه سيأتي في فتح مكة أنه نزل بالحجون، بفتح الحاء المهملة عند شعب أبي طالب بالمكان الذي حصرت فيه بنو هاشم وبنو المطلب. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51 ويمكن أن يقال: ذلك الشعب الذي كان في الحجون كان محلاً لسكن أبي طالب في غير أيام مني، وهذا الشعب الذي عند الجمرة الوسطى كان ينزل فيه أبو طالب أيام منى فلا مخالفة، والله أعلم.

ثم أقام عندها ثلاثة أيام، وكانت تلك السنة عندهم إذا دخل الرجل على امرأته أي عند أهلها أي فهي وأهلها كانوا بشعب أبي طالب، ثم خرج من عندها، فأتى المرأة التي عرضت عليه ما عرضت، فقال لها: مالك لا تعرضين علي اليوم ما عرضت بالأمس؟ فقالت له: فارقك النور الذي كان معك بالأمس فليس لي اليوم بك حاجة.

قال: وفي رواية أنه لما مر عليها بعد أن وقع على آمنة قال لها: مالك لا تعرضين علي ما عرضت بالأمس؟ قالت: من أنت؟ قال: أنا فلان، قالت له: ما أنت هو، لقد رأيت بين عينيك نوراً ما أراه الآن، ما صنعت بعدي؟ فأخبرها، فقالت: والله ما أنا بصاحبة ريبة، ولكن رأيت في وجهك نوراً فأردت أن يكون في، وأبى الله إلا أن يجعله حيث أراد، إذهب فأخبرها أنها حملت بخير أهل الأرض اهـ.

أقول: وفي رواية أن المرأة التي عرضت نفسها عليه هي ليلة العدوية، وأن عبد الله كان في بناء له وعليه الطين والغبار، وأنه قال: حتى أغسل ما علي وأرجع إليك، وأنه رجع إليها بعد أن وقع على آمنة وانتقل منه النور إليها، وقال لها: هل لك فيما قلت، قالت: لا، قال: ولم؟ قالت: لقد دخلت بنور وما خرجت به.

أي وفي سيرة ابن هشام مررت بي وبين عينيك غرة فدعوتك فأبيت ودخلت على آمنة فذهبت بها، ولئن كنت أي وحيث كنت ألممت بآمنة لتلدن ملكاً. ولا يخفى أن تعدد الواقعة ممكن، وأن هذا السياق يدل على أنه هذه المرأة كان عندها علم بأن عبد الله تزوج آمنة، وأنه يريد الدخول بها، وأنها علمت أنه كائن نبي يكون له الملك والسلطان. وغير خاف أن عرض عبد الله نفسه على المرأة لم يكن لريبة، بل ليستبين الأمر الذي دعاها إلى بذل القدر الكثير من الإبل في مقابلة هذا الشيء على خلاف عادة النساء مع الرجال، ولا يخالف ذلك، بل يؤكد ما في الوفاء من قوله: ثم تذكر الخثعمية وجمالها وما عرضت عليه، فأقبل إليها الحديث، والله أعلم.

وعن الكلبي أنه قال: كتبت للنبي خمسمائة أم: أي من قبل أمه وأبيه، فما وجدت فيهن سفاحاً، والمراد بالسفاح الزنا: أي فإن المرأة كانت تسافح الرجل

مدة ثم يتزوجها إن أراد () ولا شيئاً مما كان من أمر الجاهلية أي من نكاح الأم: أي زوجة الأب، لأنه كان في الجاهلية يباح إذا مات الرجل أن يخلفه على زوجته أكبر أولاده من غيرها. وفي كلام بعضهم: كان أقيح ما يصنعه أهل الجاهلية الجمع بين الأختين، وكانوا يعيبون المتزوج بإمرأة الأب ويسمونه الضيزن. والضيزن: الذي يزاحم أباه في امرأته. ويقال له نكاح المقت: وهو العقد على الرابة، وهي امرأة الأب، والرابع: زوج الأم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

وما قيل إن هذا أي نكاح امرأة الأب وقع في نسبه لأن خزيمة أحد آباءه لما مات خلف على زوجته أكبر أولاده وهو كنانة فجاء منها بالنضر فهو قول ساقط غلط، لأن الذي خلف عليها كنانة بعد موت أبيه ماتت ولم تلد منه، ومنشأ الغلط أنه تزوج بعدها بنت أخيها، وكان اسمها موافقاً لاسمها فجاء منها بالنضر. وبهذا يعلم أن قول الإمام السهيلي نكاح زوجة الأب كان مباحاً في الجاهلية بشرع متقدم ولم يكن من المحرمات التي انتهكوها ولا من العظائم التي ابتدعوها، لأنه أمر كان في عمود نسبه، فكانت تزوج امرأة أبيه خزيمة، وهي برة بنت مرة فولدت له النضر بن كنانة.

وهاشم أيضاً قد تزوج امرأة أبيه واقدة فولدت له ضعيفة، ولكن هذا خارج من عمود نسب رسول الله، لأنها أي واقدة لم تلد جداً له، وقد قال «أنا من نكاح لا من سفاح» ولذلك قال الله تعالى: {ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف} أي إلا ما قد سلف من تحليل ذلك قبل الإسلام.

وفائدة هذا الاستثناء أن لا يعاب نسب رسول الله، وليعلم أنه لم يكن في أجداده من كان من بغية ولا من سفاح. ألا ترى أنه لم يقل في شيء نهى عنه القرآن: أي مما لم يباح لهم إلا ما قد سلف نحو قوله تعالى {ولا تقرّبوا الزنا} ولم يقل إلا ما قد سلف {ولا تقتلوا النفس التي حرم الله} ولم يقل إلا ما قد سلف، ولا في شيء من المعاصي التي نهى عنها إلا في هذه. وفي الجمع بين الأختين، لأن الجمع بين الأختين قد كان مباحاً أيضاً في شرع من كان قبلنا. وقد جمع يعقوب عليه السلام بين راحيل وأختها ليا، فقوله «إلا ما قد سلف» التفات هذا المعنى، هذا كلامه، فلا التفات إليه ولا معول عليه. على أن قوله إن يعقوب جمع بين الأختين ينازعه قول القاضي البيضاوي: إن يعقوب عليه السلام إنما تزوج ليا بعد موت أختها راحيل.

وفي أسباب النزول للواحد أن في البخاري عن أسباط. قال المفسرون: كان أهل المدينة في الجاهلية وفي أول الإسلام إذا مات الرجل وله امرأة جاء ابنه من غيرها فألقى ثوبه على تلك المرأة وصار أحق بها من نفسها ومن غيرها، فإن شاء أن يتزوجها تزوجها من غير صداق إلا الصداق الذي أصدقها الميت، وإن شاء زوجها غيره وأخذ صداقها ولم يعطها شيئاً، وإن شاء عضلها وضارّها لتفتدي منه، فمات بعض الأنصار فجاء ولد من غيرها وطرح ثوبه عليها، ثم تركها فلم يقربها ولم ينفق عليها ليضارّها لتفتدي منه، فأتت تلك المرأة وشكت حالها للنبي، فأنزل الله تعالى الآية {ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء} الآية.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

وقيل توفي أبو قيس فخطب ابنه قيس امرأة أبيه، فقالت: إني أعدك ولدًا،

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

ولكنني آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأستأمره، فأنته فأخبرته، فأنزل الله تعالى الآية.

وعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: لقيت خالي يعني أبا الدرداء رضي الله تعالى عنه ومعه الراية، فقلت: أين تريد؟ قال «أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى رجل تزوج امرأة أبيه أن أضرب عنقه» زاد في رواية أحمد «وأخذ ماله».

وذكر بعضهم أن الجاهلية كان إذا أراد الشخص أن يتزوج يقول خطب، ويقول أهل الزوجة نكح، ويكون ذلك قائماً مقام الإيجاب والقبول. ومن نكاح الجاهلية الجمع بين الأختين، فإنه كان مباحاً عندهم: أي مع استباحهم له كما تقدم.

وذكر بعضهم أن قبل نزول التوراة كان يجوز الجمع بين الأختين: أي ثم حرم ذلك نزولها. قال: وقد افتخر رسول الله صلى الله عليه وسلم بجدهاته أي تحدث بنعمة ربه قاصداً به التنبيه على شرف هؤلاء النسوة وفضلهن على غيرهن، فقال «أنا ابن العواتك والفواطم». فعن قتادة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أجرى فرسه مع أبي أيوب الأنصاري فسبقته فرس المصطفى، فقال: أنا ابن العواتك، إنه لهو الجواد البحر يعني فرسه».

وقال في بعض غزواته أي في غزوة حنين وفي غزوة أحد «أنا النبي لا كذب، أنا بن عبد المطلب، أنا ابن العواتك». وجاء «أنا ابن العواتك من سليم» والعاتكة في الأصل المتلطخة بالطيب أو الطاهرة.

وعن بعض الطالبين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في يوم أحد «أنا ابن الفواطم» أي ولا ينافيه ما سبق أنه قال في ذلك اليوم «أنا ابن العواتك» لأنه يجوز أن يكون قال كلا من الكلمتين في ذلك اليوم. واختلف الناس في عدد العواتك من جداته، فمن أكثر ومن أقل.

وقد نقل الحافظ ابن عساكر أن العواتك من جداته أربع عشرة وقيل إحدى عشرة: أي وأولهن أم لؤي بن غالب واللواتي من بني سليم. منهن عاتكة بنت هلال أم عبد مناف، وعاتكة بنت الأوقص بن مرة بن هلال أم هاشم، وعاتكة بنت مرة بن هلال أم أبي أمه وهب: أي وقيل أراد بالعواتك من سليم ثلاثة من بني سليم أباكراً أرضعنه كما سيأتي في قصة الرضاع، وكل واحدة منهن تسمى عاتكة. قال وعن سعد أن الفواطم من جداته عشرة أه. أقول: وقيل خمس، وقيل ست، وقيل ثمان، ولم أقف على من اسمه فاطمة من جداته من جهة أبيه إلا على إثنين: فاطمة أم عبد الله، وفاطمة أم قصي، إلا أن يكون لم يرد الأمهات التي في عمود نسبه، بل أراد الأعم حتى يشمل فاطمة أم أسد بن هاشم، وفاطمة بنت أسد التي هي أم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه وفاطمة أمها. وهؤلاء الفواطم غير الثلاث الفواطم اللاتي قال فيهن لعلي وقد دفع إليه ثوباً حريراً وقال له: «اقسم هذا بين الفواطم الثلاث» فإن هؤلاء فاطمة بنت رسول الله، وفاطمة بنت حمزة، وفاطمة بنت أسد.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51
ثم رأيت بعضهم عدّ فيهن أم عمرو بن عائذ، وفاطمة بنت نصر بن عوف أمّ أم عبد مناف، والله أعلم.
وعن عائشة وابن عباس رضي الله تعالى عنهم عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خرجت من نكاح غير سفاح» أي زنا، فقد تقدم أن المرأة كانت تسافح الرجل مدة ثم يتزوجها إن أراد، فكانت العرب تستحل الزنا إلا أن الشريف منهم كان يتورع عنه علانية وإلا بعض أفراد منهم حرمه على نفسه في الجاهلية: أي وفي حديث غريب/ «خرجت من نكاح ولم أخرج من سفاح من لدن آدم إلى أن ولدني أبي وأمي ولم يصبني من سفاح الجاهلية شيء، ما ولدني إلا نكاح الإسلام».

قال: وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله: «ما ولدني بغي قط منذ خرجت من صلب آدم ولم تزل تتنازعي الأمم كائناً عن كابر حتى خرجت من أفضل حيين من العرب هاشم وزهرة» اهـ.
أقول: والبغايا كنّ في الجاهلية ينصبن على أبوابهن رايات تكون علماً، فمن أرادهن دخل عليهن، فإذا حملت إحداهن ووضعت حملها جمعوا لها ودعوا لهم القافة ثم ألحقوا ولدها بالذي يرون به شبه، فالتايط: أي تعلق والتحق به ودعى ابنه لا يمتنع من ذلك، والله أعلم.

قال: وعن أنس رضي الله تعالى عنه قال: «قرأ رسول الله {لقد جاءكم رسول من أنفسكم} بفتح الفاء وقال: أنا أنفسكم نسباً وصهرراً وحسباً، ليس في آبائي من لدن آدم سفاح كلها نكاح» وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما «كنكاح الإسلام» أي يخطب الرجل إلى الرجل موليته فيصدقها ثم يعقد عليها اهـ.

وعن الإمام السبكي: الأنكحة التي نسبه منه إلى آدم كلها مستجمعة شروط الصحة كأنكحة الإسلام، ولم يقع في نسبه منه إلى آدم إلا نكاح صحيح مستجمع لشرائط الصحة كنكاح الإسلام الموجود اليوم. قال: فاعتقد هذا بقلبك وتمسك به، ولا تزل عنه فتخسر الدنيا والآخرة.

قال بعضهم: وهذا من أعظم العناية به، أن أجرى الله سبحانه وتعالى نكاح آباءه من آدم إلى أن أخرجه من بين أبويه على نمط واحد من وفق شريعته ولم يكن كما كان يقع في الجاهلية إذا أراد الرجل أن يتزوج قال خطب وتقول أهل الزوجة نكح كما تقدم، ويكون ذلك قائماً مقام الإيجاب والقبول.

والمراد بنكاح الإسلام ما يفيد الحل حتى يشمل التسري، بناء على أن أم إسماعيل كانت مملوكة لإبراهيم حين حملت بإسماعيل، ولم يعتقها ولم يعقد عليها قبل ذلك.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

وعن عائشة رضي الله عنها كما في البخاري: «إن النكاح في الجاهلية كان على أربعة أنحاء: نكاح كنكاح الناس اليوم» أي بإيجاب وقبول شرعيين دون أن

يقول الزوج خطب ويقول أهل الزوجة نكح، وحينئذ يزيد على ذلك النكاح الذي كان يقال فيه ذلك «ونكاح البغايا. ونكاح الاستبضاع. ونكاح الجمع» أي ومن أنكحة الجاهلية نكاح زوجة الأب لأكثر أولاده والجمع بين الأختين، على ما تقدم، وحينئذ يكون المراد ليس في نسبه نكاح زوجة الأب، خلافاً لم تقدم عن السهيلي، ولا الجمع بين الأختين، ولا نكاح البغايا، وهو أن يطأ البغي جماعة متفرقين واحداً بعد واحد، فإذا حملت وولدت الحق الولد بمن غلب عليه شبه منهم، ولا الاستبضاع، وذلك أن المرأة كانت في الجاهلية إذا طهرت من حيضها يقول لها زوجها أرسلني إلى فلان استبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسه أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذي تستبضع منه، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب، وليس فيه نكاح الجمع، وهو أن تجتمع جماعة دون العشرة ويدخلون على امرأة من البغايا ذوات الرايات كلهم يطؤها فإذا حملت ووضعت ومر عليها ليل بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم، فلم يستطع رجل أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها، فتقول لهم قد عرفتم الذي كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان، تسمي من أحببت منهم، فيلحق به ولدها، لا يستطيع أن يمتنع منه الرجل إن لم يغلب شبهه عليه.

فنكاح البغايا، وحينئذ يحتمل أن تكون أم عمرو بن العاص رضي الله عنه من القسم الثاني من نكاح البغايا، فإنه يقال إنه وطئها أربعة: وهم العاص، وأبو لهب، وأميمة بن خلف، وأبو سفيان بن حرب، وادعى كلهم عمراً فألحقته بالعاص. وقيل لها لما اخترت العاص؟ قالت: لأنه كان ينفق على بناتي. ويحتمل أن يكون من القسم الأول ويدل عليه ما قيل إنه ألحق بالعاص لغلبة شبهه عليه، وكان عمرو يعير بذلك، غيره بذلك عليّ وعثمان والحسن وعمار بن ياسر وغيرهم من الصحابة رضي تعالى عنهم، وسيأتي ذلك في قصة قتل عثمان عند الكلام على بناء مسجد المدينة.

قال: وجاء، أنه قال «لم أزل أنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرجام الطاهرات» أي وفي رواية «لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الحسبية إلى الأرحام الطاهرة».

وروى البخاري «بعثت من خير قرون بني آدم قرناً فقراً حتى كنت في القرن الذي كنت فيه» وقد تقدم في قوله تعالى {وتقلبك في الساجدين} قيل من ساجد إلى ساجد، وتقدم ما فيه، ومن جملة قول أبي حيان إن ذلك استدل به بعض الرافضة على أن آباء النبي صلى الله عليه وسلم كانوا مؤمنين أي متمسكين بشرائع أنبيائهم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

ثم رأيت الحافظ السيوطي قال: الذي تلخص أن أجداده من آدم إلى مرة بن كعب مصرح بإيمانهم: أي في الأحاديث وأقوال السلف، وبقي بين مرة وعبد المطلب أربعة أجداد لم أظفر فيهم بنقل، وعبد المطلب سيأتي الكلام فيه. وقد ذكر في عبد المطلب ثلاثة أقوال:

أحدها وهو الأشبه أنه لم تبلغه الدعوة: أي لأنه سيأتي أنه مات وسنه ثمان سنين.

والثاني أنه كان على ملة إبراهيم عليه الصلاة والسلام: أي لم يعبد الأصنام. والثالث أن الله تعالى أحياه له بعد البعثة حتى آمن به ثم مات، وهذا أضعف

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

الأقوال وأوهاها، لم يرد قط في حديث ضعيف ولا غيره، ولم يقل به أحد من أئمة السنة وإنما حكى عن بعض الشيعة.

قال بعضهم: وقوله «من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات» دليل على أن آباء النبي صلى الله عليه وسلم وأمهاته إلى آدم وحواء ليس فيهم كافر، لأن الكافر لا يوصف بأنه طاهر. وفيه أن الطاهرية فيه يجوز أن يكون المراد بها ما قابل أنكحة الجاهلية المتقدمة. وقد أشار إلى إسلام آبائه وأمهاته صاحب الهمزية بقوله:

لم تنزل في ضمائر الكون تختا
ر لك الأمهات والآباء

أي لأن الكافر لا يقال إنه مختار لله.

والسبب الذي دعا عبد المطلب لاختيار بني زهرة ما حدّث به ولده العباس رضي الله تعالى عنه قال: قال عبد المطلب: قدمنا اليمن في رحلة الشتاء، فنزلنا على حبر من اليهود يقرأ الزبور: أي الكتاب، ولعل المراد به التوراة فقال: من الرجل؟ قلت: من قريش، قال من أيهم؟ قلت من بني هاشم قال: أتأذن لي أن أنظر بعضك؟ قلت نعم ما لم يكن عورة، قال: ففتح إحدى منخريّ فنظر فيه ثم نظر في الأخرى فقال: أنا أشهد أن في إحدى يديك وهو مراد الأصل بقوله في منخريك ملكاً وفي الأخرى نبوة، وإنما نجد ذلك: أي كلا من الملك والنبوة في بني زهرة، فكيف ذاك؟ قلت: لا أدري، قال: هل لك من شاعة؟ قلت: وما الشاعة؟ قال: الزوجة، أي لأنها تشايح أي تتابع وتتاصر زوجها، قلت: أما اليوم فلا: أي ليست لي زوجة من بني زهرة إن كان معه غيرها، أو مطلقاً إن لم يكن معه غيرها، فقال: إذا تزوجت فتزوج منهم: أي وهذا الذي ينظر في الأعضاء وفي خيلان الوجه، فيحكم على صاحبها بطريق الفراسة يقال له حزاء بالمهملة وتشديد الزاي آخره همزة منونة. وقد ذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني عن شيخه سيدي علي الخواص نفعنا الله تعالى ببركاتهما أنه كان إذا نظر لأنف إنسان يعرف جميع زلاته السابقة واللاحقة إلى أن يموت على التعيين من صحة فراسته هذا كلامه.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

أي ومن ذلك أن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما تزوج امرأة ولم يدخل بها، فقال لزوجته ميسون أم ابنه يزيد اذهبي فانظري إليها، فأتتها فنظرت إليها ثم رجعت إليه فقالت: هي بديعة الحسن والجمال ما رأيت مثلها، لكن رأيت خالاً أسود تحت سرتها، وذلك يدل على أن رأس زوجها يقطع وبوضع في حجرها، فطلقها معاوية رضي الله تعالى عنه ثم تزوجها النعمان بن بشير رضي الله تعالى عنه وكان والياً على حمص، فدعا لابن الزبير وترك مروان ثم خاف من أهل حمص لما تبعوا مروان ففر هارباً فتبعه جماعة منها فقطعوا رأسه ووضعوها في حجر تلك المرأة، ثم بعثوا بتلك الرأس إلى مروان، وقتل النعمان هذا من أعلام نبوته لأن أمه لما ولدته وكان أول مولود ولد للأنصار بعد الهجرة على ما سيأتي حملته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعا بتمرة

فمضعها ثم وضعها في فيه فحنكه بها، فقالت: يا رسول الله ادع الله تعالى أن يكثر ماله وولده، فقال: «أما ترصين أن يعيش حميداً ويقتل شهيداً ويدخل الجنة» وهو الذي أشار علي يزيد بن معاوية بإكرام آل البيت لما قتل الحسين ممن كان مع الحسين من أولاده وأولاد أخيه وأقاربه، وقال له: عاملهم بما كان يعاملهم به رسول الله صلى الله عليه وسلم لو رأيهم على هذه الحالة، فرق لهم يزيد وأكرمهم، وردده معهم، وأمره بإكرامهم على ما سيأتي ذكره إن شاء الله تعالى.

ومما يروى عنه أنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن للشيطان مصالي وفخوخاً، وإن مصاليه وفخوخه البطر بنعم الله، والفخر بعباء الله، والتكبر على عباد الله واتباع الهوى في غير ذات الله». وقد ذكر أن حمص نزل بها تسعمائة من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فيهم سبعون بدرياً. وفي حياة الحيوان أن حمص لا تعيش بها العقارب، وإذا طرحت فيها عقرب غريبة ماتت لوقتها، قيل لطلسم بها.

وفي حديث ضعيف أن حمص من مدن الجنة، وقيل الحزاء هو الكاهن، وقيل هو الذي يحزر الأشياء ويقدرها بطنه، ويقال للذي ينظر في النجوم فإنه ينظر فيها بطنه فربما أخطأ: أي لأن من علوم العرب الكهانة والعيافة والقيافة والزجر والخط: أي الرمل والطب، ومعرفة الأنواء ومهابّ الرياح. فلما رجع عبد المطلب إلى مكة تزوج هالة بنت وهيب بن عبد مناف فولدت له حمزة وصفية وزوج ابنه عبد الله أمّنة بنت وهب أخي وهيب فولدت له رسول الله صلى الله عليه وسلم كما تقدم، فكات قريش تقول فلج عبد الله على أبيه: أي فاز وظفر لأن الفلج بالفاء واللام المفتوحتين والجيم الفوز والظفر، أي فاز وظفر بما لم ينله أبوه من وجود هذا المولود العظيم الذي وجد عند ولادته ما لم يوجد عند ولادة غيره.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

أي وفي كلام ابن المحدث أن عبد المطلب خطب هالة بنت وهيب عم أمّنة في مجلس خطبة عبد الله لأمّنة وتزوجا وأولما ثم ابتنبا بهما. ثم رأيت في أسد الغابة ما يوافقها، وهو أن عبد المطلب تزوج هو وعبد الله في مجلس واحد، قيل: وفيه تصريح بأن عبد الله كان موجوداً حين قال الحبر لعبد المطلب إن النبوة موجودة فيه، وكيف تكون موجودة فيه مع انتقالها لعبد الله؟ وقد يقال، من أين أن عبد المطلب تزوج هالة عقب مجئيه من عند الحبر حتى يكون قول الحبر لعبد المطلب صادراً بعد وجود عبد الله؟ جاز أن يكون ذلك صدر من الحبر لعبد المطلب قبل ولادة عبد الله. وفيه أن هذا لا يحسن إلا لو كانت أم عبد الله من بني زهرة، إلا أن يقال يجوز أن يكون عبد الله وجد من بني زهرة لجواز أن يكون عبد المطلب تزوج من بني زهرة غير هالة فأولدها عبد الله.

ثم إن قول الحبر لعبد المطلب: إنه يجد في إحدى يديه الملك وإنه ي كون في بني زهرة مشكل أيضاً، لأن الملك لم يكن إلا في أولاد ولده العباس، ولا

يستقيم إلا لو كانت أم العباس من بني زهرة. أما هالة التي هي أم حمزة أو غيرها وأم العباس ليست من بني زهرة، خلافاً لما وقع في كلام بعضهم أن العباس ولدته هالة فهو شقيق حمزة لأنه خلاف ما اشتهر عن الحافظ، إلا أن يقال جاز أن يكون الملك والنبوة اللذان عنهما الحبر هما نبوته وملكه، لأنه أعطيهما: أي كلا من الملك والنبوة المنتقلين إليه من أبيه عبد الله، بناء على أن أم عبد الله من بني زهرة، ولعله لا ينافيه قول بعضهم: تزوج عبد المطلب فاطمة بنت عمرو وجعل مهرها مائة ناقة ومائة رطل من الذهب، فولدت له أبا طالب وعبد الله والد النبي، لأنه يجوز أن تكون فاطمة هذه من بني زهرة، وحينئذ لا يشكل قول الحبر: إذا تزوجت فتزوج منهم: أي من بني زهرة بعد قوله: ألك شاعة.

وقيل الذي دعا عبد المطلب لاختيار آمنة من بني زهرة لولده عبد الله أن سودة بنت زهرة الكاهنة وهي عمّة وهب والد آمنة أمه كان من أمرها أنها لما ولدت رآها أبوها زرقاء شيماء أي سوداء وكانوا يثدون من البنات من كانت على هذه الصفة، أي يدفنونها حية، ويمسكون من لم يكن على هذه الصفة مع ذل وكآبة: أي لأنه سيأتي أن الجاهلية كانوا يدفنون البنات وهنّ أحياء خصوصاً كندة قبيلة من العرب خوف العار أو خوف الفقر والإملاق. وكان عمرو بن نفيل يحيي المؤودة لأجل الإملاق يقول للرجل إذا أراد أن يفعل ذلك لا تفعل أنا أكفيك مؤوتتها، فيأخذها، فإذا ترعرعت قال لأبيها إن شئت دفعتها إليك، وإن شئت كفيتك مؤوتتها.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51

وكان صعصعة جد الفرزدق يفعل مثل ذلك فأمر أبوها بوأدها وأرسلها إلى الحجون لتدفن هناك، فلما حفر لها الحافر وأراد دفنها سمع هاتفاً يقول: لا تند الصبية وخلصها في البرية فالتفت فلم ير شيئاً، فعاد لدفنها فسمع الهاتف يسبح بسجع آخر في المعنى فرجع إلى أبيها وأخبره بما سمع، فقال: إن لها لشأناً وتركها، فكانت كاهنة قريش فقالت يوماً لبني زهرة: فيكم نذيرة أو تلد نذيراً، فأعرضوا عليّ بناتكنّ فعرضن عليها، فقالت في كل واحدة منهن قولاً ظهر بعد حين حتى عرضت عليها آمنة بنت وهب، فقالت: هذه النذيرة أو تلد نذيراً له شأن وبرهان منير: أي فاختيار عبد المطلب لآمنة من بني زهرة عبد الله واضح من سياق قصة هذه الكاهنة.

وأما اختياره لتزوجه بعض نساء بني زهرة، فسببه ما تقدم عن الخبر، بناء على أن أم عبد الله كانت من بني زهرة. وأما جعل الشمس الشامي ما تقدم عن الحبر سبباً لتزويج عبد المطلب ابنه عبد الله امرأة من بني زهرة ففيه نظر ظاهر، إذ كيف يتأتى ذلك مع قوله إذا تزوجت فتزوج منهم بعد قوله: ألك شاعة، أي زوجة.

ثم رأيت ابن دحية رحمه الله تعالى ذكر في التنوير عن البرقي: أن سبب تزويج عبد الله آمنة أن عبد المطلب كان يأتي اليمن، وكان ينزل فيها على عظيم من عظمائهم فنزل عنده مرة فإذا عنده رجل ممن قرأ الكتب، فقال له ائذن لي أن أفتش منخرك، فقال دونك فانظر، فقال: أرى نبوة وملكاً، وأراهما في المنافين عبد مناف بن قصي وعبد مناف بن زهرة، فلما انصرف عبد المطلب انطلق بابنه عبد الله فتزوج عبد المطلب هالة بنت وهيب فولدت له

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

حمزة، وزوج ابنه عبد الله آمنة فولدت له رسول الله ، وهذا واضح لأنه أسقط قول الحبر لعبد المطلب هل لك من شاعة إلى آخره، فاحتاط عبد المطلب فتزوج من بني زهرة وزوج ولده عبد الله منهم، وحينئذ كان المناسب للبر في رحمة الله تعالى أن يزيد بعد قوله إن سبب تزويج عبد الله آمنة قوله وتزوج عبد المطلب هالة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 51
باب ذكر حمل أمه به وعلى جميع الانبياء المرسلين
عن الزهري رحمه الله تعالى قال: قالت آمنة: لقد علقت به فما وجدت له مشقة حتى وضعته. وعنهما أنها كانت تقول: ما شعرت بفتح أوله وثانيه: أي ما علمت بأني حملت به، ولا وجدت له ثقلاً بفتح القاف كما تجد النساء إلا أنني أنكرت رفع حيضتي بكسر الحاء: الهيئة التي تلزمها الحائض من التجنب. وأما بالفتح فالمرة الواحدة من دفعات الحيض: أي والذي ينبغي أن يكون الثاني هو المراد أن بعضهم نقل أن الحيضة بالكسر اسم الحيض، قالت: وربما ترفعني وتعود: أي فلم يكن رفعها دليلاً على الحمل: أي وهذا ربما يفيد أن حيضها تكرر قبل حملها به ولم أقف على مقدار تكررهِ.
وقد ذكر أن مريم عليها السلام حاضت قبل حملها بعيسى عليه الصلاة والسلام حيضتين، قالت آمنة: وأتاني آت أي من الملائكة وأنا بين النائمة واليقظانة، وفي رواية بين النائم: أي الشخص النائم واليقظان، فقال: هل شعرت بأنك قد حملت بسيد هذه الأمة ونبيها؟ أي وفي رواية بسيد الأنام: أي اعلمي ذلك، وأمهلني حتى دنت ولادتي أتاني فقال قولي أي إذا ولدتيه: أعيدته بالواحد من شر كل حاسد.
أي ثم سميه محمداً فإن اسمه في التوراة والإنجيل أحمد، يحمده أهل السماء وأهل الأرض، وفي القرآن محمد أي والقرآن كتابه، وسيأتي عن محمد الباقر رضي الله تعالى عنه أن تسميه أحمد. قال بعضهم: ويذكر بعد هذا البيت أبيات لا أصل لها. وإذا ثبت أنها قالت له ذلك بعد ولادته كان دليلاً لما يقوله بعض الناس أن آمنة رقت النبي صلى الله عليه وسلم من العين.

أقول: ظاهر هذا السياق أنها لم تعلم بحملها إلا من قول الملك لأنها لم تجد ما تستدل به على ذلك لأنها لم تجد ثقلاً، وعادتها أن حيضها ربما عاد بعد عدم وجوده في زمنه المعتاد لها: أي ولم تعوّل على مفارقة النور لعبد الله وانتقال النور إلى وجهها على ما ذكر بعضهم. ففي كلام هذا البعض: لما فارق النور وجه عبد الله انتقل إلى وجه آمنة، ولا على خروج النور منها مناماً أو يقظة بناء على أنه غير الحمل علي ما يأتي لخباء دلالة ما ذكر على ذلك، ولعل أباه عبد الله لم يبلغها قول المرأة التي عرضت نفسها عليه اذهب فأخبرها أنها حملت بخير أهل الأرض، والثقل في ابتداء الحمل الذي حمل عليه بعض الروايات كما سيأتي يجوز أن يكون بعد إخبار الملك لها. لكن في المواهب في رواية عن كعب رضي الله تعالى عنه أن مجيء الملك لها كان بعد أن مضى من حملها ستة أشهر فليتأمل، فإن الستة أشهر لا يقال إنها ابتداء الحمل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 75

ونص الرواية: كانت آمنة تحدث وتقول: أتاني آت حين مر بي من حملي ستة أشهر في المنام وقال لي: يا آمنة إنك حملت بخير العالمين، فإذا ولدته فسميه محمداً واكتمي بشأنك، إلا أن يقال يجوز تعدد الملك أو تكرر مجيء الملك لها فليتأمل والله أعلم.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: كان من دلالة حمل آمنة برسول الله صلى الله عليه وسلم أن كل دابة لقريش نطقت تلك الليلة أي التي حمل فيها: أي في اليوم قبلها برسول الله صلى الله عليه وسلم أي بناء على ما هو الظاهر مما قدم أنه حين وقع عليها انتقل إليها ذلك النور وقالت: حمل برسول الله صلى الله عليه وسلم ورب الكعبة، ولم يبق سرير لملك من ملوك الدنيا إلا أصبح منكوساً: أي ومثل هذا لا يقال من قبل الرأي.

أقول: دلالة الأول على مطلق الحمل به لا على خصوص حمل آمنة به حينئذ واضحة.

وأما دلالة الثاني عليه فقد يتوقف فيها إلا أن يقال إن ذلك كان من علامة الحمل به في الكتب القديمة مع أن المدعي في كلام ابن عباس رضي الله تعالى عنهما إنما هو خصوص حمل آمنة به. على أن السياق يدل على أن المراد علم أمه بحملها به، والله أعلم.

وعن كعب الأحبار رضي الله تعالى عنه أن في صبيحة تلك الليلة أصبحت أصنام الدنيا منكوسة: أي ولعل ذلك كان من علامة حمل أمه في الكتب القديمة، وقول الصادق لا يتخلف، وسيأتي أن عند ولادته أيضاً تنكست الأصنام، ولا مانع من التعدد.

قال: وروى الحاكم وصححه «أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا: يا رسول الله أخبرنا عن نفسك، فقال: أنا دعوة أبي إبراهيم، وبشرى أخي عيسى، ورأت أمي حين حملت بي كأنه خرج منها نور» وفي لفظ «سراج» وفي لفظ «شهاب أضاءت له قصور بصرى من أرض الشام» قال الحافظ العراقي: وسيأتي أنها رأت النور خرج منها عند الولادة، وهو أولى لكون طرده متصل. ويجوز أن يكون خرج منها النور مرتين: مرة حين حملت به، ومرة حين وضعته: أي وكلاهما يقظة، ولا مانع من ذلك، أو هذه أي رؤية النور حين حملت به كانت مناماً كما تصرح به الرواية الآتية وتلك يقظة، فلا تعارض بين الحديثين اهـ.

أقول: الرواية الآتية هي رواية شداد بن أوس، ولفظها أنها رأت في المنام أن الذي في بطنها خرج نوراً: أي وهي تفيد أن ذلك النور هو نفس حملها، فهو بعد تحقق الحمل ووجوده، والرواية التي هنا تفيد أن النور غيره، وأنه كان وقت ابتداء وجود الحمل، فلا يصح حمل إحداهما على الأخرى، إلا أن يقال المراد بحين حملت زمن حملها، وأن النور كان هو ذلك الحمل، لكن الذي ينبغي أن تكون رواية شداد التي حملت عليها الرواية الأولى حاصلة قبيل الولادة، فتكون رأت النور عند الولادة مناماً ويقظة تأنيساً لها.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 75

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

على أنه يجوز إبقاء الروايات الثلاث على ظاهرها وأنها رأت مناماً أنها خرج منها نور عند ابتداء الحمل، ثم رأت كذلك عند قرب ولادتها أن الذي في بطنها خرج نوراً، ثم رأت يقظة عند وضعه خروج النور. وسيأتي في رواية عن أمه أنها قالت لما وضعته: خرج معه نور، وهي لا تخالف هذه الرواية الثالثة حتى تكون الرابعة، فبصرى أول بقعة من الشام خلص إليها نور النبوة. وعلى أنه مرتين ناسب قدومه لها مرتين مرة مع عمه أبي طالب ومرة مع ميسرة غلام خديجة رضي الله تعالى عنها كما سيأتي، وبها مبارك الناقة التي يقال إن ناقته بركت فيه، فأثر ذلك فيه، وبنى على ذلك المحل مسجد، ولهذا كانت أول مدينة فتحت من أرض الشام في الإسلام، وكان فتحها صلحاً في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه على يد خالد بن الوليد رضي الله تعالى عنه، وبها قبر سعد بن عباد، وهي من أرض حوران، والله أعلم. ووقع الاختلاف في مدة حمله، فعن ابن عايد أي بالياء المثناة تحت والذال المعجمة «أنه بقي في بطن أمه تسعة أشهر كاملاً لا تشكو وجعاً ولا مغصاً ولا ريحاً ولا ما يعارض لذوات الحمل من النساء» أي وقد ولد عند وجود المشتري وهو كوكب نير سعيد، فقد كانت ولادته عند وجود السعد الأكبر، والنجم الأنور، وكانت أمه تقول: ما رأيت من حمل هو أخف منه ولا أعظم بركة منه.

وروى ابن حبان رحمه الله عن حليلة رضي الله تعالى عنها عن أمه أم النبي صلى الله عليه وسلم أنها قالت «إن لابني هذا شأناً، إني حملت به فلم أجد حملاً قط كان أخف عليّ ولا أعظم منه بركة» وقيل بقي عشرة أشهر، وقيل ستة أشهر، وقيل سبعة أشهر، وقيل ثمانية أشهر: أي ويكون ذلك آية، كما أن عيسى عليه السلام ولد في الشهر الثامن كما قيل به مع نص الحكماء والمنجمين على أن من يولد في الشهر الثامن لا يعيش، بخلاف التاسع والسادس والسادس الذي هو أقل مدة الحمل: أي فقد قال الحكماء في بيان سبب ذلك إن الولد عند استكمال سبعة أشهر يتحرك للخروج حركة عنيفة أقوى من حركته في الشهر السادس، فإن خرج عاش، وإن لم يخرج استراح في البطن عقب تلك الحركة المضعفة له، فلا يتحرك في الشهر الثامن ولذلك تقل حركته في البطن في ذلك الشهر، فإذا تحرك للخروج وخرج فقد ضعف غاية الضعف فلا يعيش لاستيلاء حركتين مضعفتين له مع ضعفه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 75

وفي كلام الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله تعالى: لم أر للثمانية صورة في نجوم المنازل، ولهذا كان المولود إذا ولد في الشهر الثامن يموت ولا يعيش. وعلى فرض أن يعيش يكون معلولاً لا ينتفع بنفسه، وذلك لأن الشهر الثامن يغلب فيه على الجنين البرد واليبس وهو طبع الموت: أي وقيل بل كان حمله ووضع في ساعة واحدة، وقيل في ثلاث ساعات: أي وقيل بذلك في عيسى عليه السلام: أي وكانت تلك السنة التي حمل فيها برسول الله صلى الله عليه وسلم يقال لها سنة الفتح والابتهاج، فإن قريشاً كانت قبل ذلك في جذب وضيق عظيم، فاخضرت الأرض، وحملت الأشجار، وأتاهم الرعد من كل

جانب في تلك السنة وفي حديث مطعون فيه «قد أذن الله تلك السنة لنساء الدنيا أن يحملن ذكوراً كرامة لرسول الله» أي ولم أقف على ما يجري على السنة المداح من أنه كان يذكر الله في بطن أمه، كما نقل عن عيسى عليه السلام أنه كان يكلم أمه إذا خلت عن الناس ويسبح الله ويذكره إذا كانت مع الناس وهي تسمع، وعن شداد بن أوس رضي الله تعالى عنه قال «بيننا نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أقبل شيخ كبير من بني عامر هو مدرة قومه» أي المقدم فيهم «يتوكأ على عصا فمثل بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم ونسبه إلى جده، فقال: يا ابن عبد المطلب إني أنبت أنك تزعم أنك رسول الله إلى الناس أرسلك بما أرسل به إبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء إلا أنك فهت بعظيم، وإنما كانت الأنبياء والخلفاء» أي معظمهم «في بيتين من بني إسرائيل وأنت ممن يعبد هذه الحجاره والأوثان، فما لك وللنبوة، ولكن لكل حق حقيقة فأنيثني بحقيقة قولك وبدء شأنك؟ قال: فأعجب النبي صلى الله عليه وسلم بمسألته ثم قال: يا أخا بني عامر إن لهذا الحديث الذي سألتني عنه نبأ ومجلساً فاجلس فثنى رجليه ثم برك كما يبرك البعير، فاستقبله النبي صلى الله عليه وسلم بالحديث فقال: يا أخا بني عامر إن حقيقة قولي وبدء شأنني أني دعوة

أبي إبراهيم عليه السلام: أي حيث قال أي (ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم) رأي أي وعند ذلك قيل له قد استجيب لك وهو كائن في آخر الزمان» كذا في تفسير ابن جرير.

قال في ينبوع الحياة: أجمعوا على أن الرسول المذكور ههنا هو محمد . أقول: وفيه أن جبريل عليه السلام أعلم إبراهيم عليه السلام قبل ذلك بأنه يوجد نبي من العرب من ذرية ولده إسماعيل. فقد جاء أن إبراهيم لما أمر بإخراج هاجر أم ولد إسماعيل عليه السلام حمل هو وهي وولدها على البراق، فلما أتى مكة قال له جبريل: انزل فقال: حيث لا زرع ولا ضرع قال: نعم ههنا يخرج النبي الأمي من ذرية ولدك يعني إسماعيل عليه السلام الذي تتم به الكلمة العليا، إلا أن يقال الغرض من دعائه بذلك تحقيق حصوله، وتقدم أن أم إسماعيل قالت لإبراهيم ما قاله لجبريل، والله أعلم، ثم قال «وبشرى أخي عيسى» وفي رواية «إن آخر من بشر بي عيسى عليه السلام» أي آخر نبي بشر بي من الأنبياء عيسى، بدليل الرواية الأخرى «وكان آخر من بشر بي عيسى» لأن الأنبياء بشرت به قومها، وإلى ذلك يشير صاحب الهمزية بقوله:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 75

ما مضت فترة من الرسل إلا

بشرت قومها بك الأنبياء

وبشرى عيسى في قوله تعالى: {وإذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} أي والمبشر بهم من الأنبياء قبل وجودهم أيضاً أربعة:

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

إسحاق ويعقوب ويحيى وعيسى، قال الله تعالى في حق سارة { فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب } قيل بشرت بأن تبقى إلى أن يولد يعقوب لولدها إسحاق، وقال في حق زكريا { إن الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح } ثم قال « وإني كنت بكر أبي وأمي وإنما حملتني كأثقل ما تحمل النساء، وجعلت تشكو إلى صواحبها ثقل ما تجد، ثم إنها رأت في المنام أن الذي في بطنها خرج نورا، قالت فجعلت أ تبع بصري النور والنور يسبق بصري حتى أضاءت له مشارق الأرض ومغاربها» الحديث، وستأتي تتمته في الرضاع: أي وقال ابن الجوزي: ممن روى عن أمه هو لما قيل له يا رسول الله ما كان بدء أمرك؟ قال «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورؤيا أمي، قالت خرج مني نور أضاءت له قصور الشام». قال الحافظ أبو نعيم: الثقل الذي وقع في هذه الرواية كان ابتداء الحمل، والخفة التي جاءت فيما سبق من الروايات كانت عند استمرار الحمل ليكون ذلك خارجاً عن المعتاد كذا قال.

أقول: قد قدمنا أنه يجوز أن يكون هذا الثقل الواقع في ابتداء الحمل كان بعد إخبار الملك لها بالحمل، فلا يخالف ما سبق. وفيه ما سبق والجواب عنه لكن تقدم عن الزهري قال: قالت أمنة لقد علقت به فما وجدت له مشقة حتى وضعت.

ويمكن أن يكون المراد بالمشقة ما تقدم في بعض الروايات «لم تشك وجعاً ولا مغصاً ولا ريحاً، ولا ما يعرض لذوات الحمل من النساء» أي فمع وجود الثقل لم يحصل لها المشقة المذكورة وحينئذ لا ينافي ذلك شكواها ما تجده من ثقله، والله تعالى أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 75
باب وفاة والده

عن ابن إسحاق: لم يلبث عبد الله بن عبد المطلب أن توفي وأم رسول الله صلى الله عليه وسلم حامل به: أي كما عليه أكثر العلماء () وصححه الحافظ الدمياطي، وسيأتي في بعض الروايات ما يدل على أن ذلك من علامات نبوته في الكتب القديمة قيل وإن موت والده كان بعد أن تم لها من حملها شهران، وقيل قبل ولادته بشهرين، وقيل كان في المهد حين توفي أبوه ابن شهرين. وذكر السهيلي أن عليه أكثر العلماء، فليتأمل مع ما قبله، وقيل كان ابن سبعة أشهر. أي وقيل ابن تسعة أشهر، وقيل وعليه الأكثرون. والحق أنه قول كثيرين لا الأكثرين () وقيل ابن ثمانية عشر شهراً وقيل: ابن ثمانية وعشرين شهراً: أي وما يأتي في الرضاع من أن المراضع أبتة ليتمه يخالفه لتمام زمن الرضاع وكذا يخالف القول الذي قبله، لأنه لم يبق من زمن الرضاع إلا شهران، وكانت وفاته بالمدينة خرج إليها ليتمار تمراً أو لزيارة أخواله بها: أي أخوال أبيه عبد المطلب () بني عدي بن النجار: أي ولا مانع من قصد الأمرين معاً، وقيل خرج إلى غزة في غير من عيرات قريش، والعيترات بكسر العين وفتح المثناة تحت جمع غير: وهي التي تحمل الميرة، خرجوا للتجارة ففرغوا من تجارتهم وانصرفوا فمروا بالمدينة وعبد الله مريض، فقال أنا أتخلف عند أخوالي بني عدي بن النجار، والنجار هذا اسمه تميم وقيل له النجار لأنه اختن بقُدوم: أي وهو آلة النجار، وقيل لأنه نجر وجه رجل بقُدوم فأقام عندهم مريضاً شهراً: أي

وهذا أثبت من الأول () ومضى أصحابه فقدموا مكة، فسألهم أبوه عبد المطلب عنه، فقالوا خلفناه عند أخواله بني عدي بن النجار وهو مريض، فبعث إليه أخاه الحارث وهو من أكبر أولاد عبد المطلب كما تقدم: أي ومن ثم كان يكنى به، ولم يدرك الإسلام فوجده قد توفي.

أي وفي أسد الغابة أن عبد المطلب أرسل إليه ابنه الزبير شقيق عبد الله فشهد وفاته، ودفن في دار التابعة بالثاء المثناة فوق والباء الموحدة والعين المهملة: أي وهو رجل من بني عدي بن النجار: أي فقد جاء أنه لما هاجر إلى المدينة ونظر إلى تلك الدار عرفها وقال: «ها هنا نزلت بي أمي، وفي هذه الدار قبر أبي عبد الله وأحسنتم العوم في بئر بني عدي بن النجار». ومن هذا ومما جاء عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهم «أنه كان هو وأصحابه يسبحون في غدير أي في الحجة، فقال النبي عليه الصلاة والسلام لأصحابه: ليسبح كل رجل منكم إلى صاحبه، فسبح كل رجل إلى صاحبه وبقي النبي عليه الصلاة والسلام وأبو بكر فسبح النبي عليه الصلاة والسلام إلى أبي بكر رضي الله عنه حتى اعتنقه وقال أنا وصاحبي أنا وصاحبي» وفي رواية «أنا إلى صاحبي أنا إلى صاحبي» يعلم رد قول بعضهم وقد سئل هل عام؟ الظاهر لا، لأنه لم يثبت أنه سافر في بحر ولا بالحرمين بحر، قال: و قيل قد توفي ودفن أبوه بالأبواء: محل بين مكة والمدينة اهـ. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 81 أقول سيأتي أن الذي بالأبواء قبر أمه على الأصح، فلعل قائل ذلك اشتبه عليه الأمر، لأنه يجوز أن يكون سمعه يقول وهو بالأبواء «هذا قبر أحد أبوي». وقد ذكر بعضهم في حكمة تربيته يتيماً ما لا نطيل به، وقد جاء «ارحموا اليتامى وأكرموا الغرباء، فإنني كنت في الصغر يتيماً، وفي الكبر غريباً» وقد جاء «إن الله لينظر كل يوم إلى الغريب ألف نظرة» والله أعلم.

وأورد الخطيب عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن الله أحيا له أباه وآمن به وفي المواهب «أحيا الله له أبويه حتى آمنا به» قال السهيلي: وفي إسناده مجاهيل. وقال الحافظ ابن كثير: إنه حديث منكر جداً و سنده مجهول. وقال ابن دحية: هو حديث موضوع. قال: ويرده القرآن والإجماع وعلى ثبوته يكون ناسخاً أي معارضاً لقوله وقد سأله رجل «أين أبي؟ فقال في النار، فلما قفا أي ولى دعاه وقال له إن أبي وأباك في النار» وفيه أن هذا رواه مسلم فلا يكون ذلك الحديث ناسخاً أي معارضاً له. أقول: هو على تقدير ثبوته يكون معارضاً على أن حديث مسلم هذا لم تتفق الرواة على قوله فيه إن أبي وأباك في النار، وهذه اللفظة إنما رواها حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس وخالفه معمر عن ثابت عن أنس، فروى بدل ذلك إذا مررت بقبر كافر فبشره بالنار، وقد نصوا على أن معمرأ أثبت من حماد، فإن حماداً تكلم في حفظه، ووقع في أحاديثه مناكير. ذكروا أن ربيعة دسها في كتبه، وكان حماد لا يحفظ فحدث بها فوهم فيها. وأما معمر فلم يتكلم في حفظه ولا استنكر شيء من حديثه. وأيضاً ما رواه معمر ورد من حديث سعد

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

بن أبي وقاص رضي الله عنه، فقد أخرج البزار والطبراني والبيهقي من طريق إبراهيم بن سعد عن الزهري عن عائذ بن سعد عن أبيه «أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أين أبي؟ فقال، في النار، قال: فأين أبوك؟ قال حينما مررت بقبر كافر فبشره بالنار» وهذا الاسناد على شرط الشيخين، فاللفظ الأول من تصرف الراوي رواه بالمعنى بحسب ما فهم فأخطأ.

وذكر الحافظ السيوطي أن مثل هذا وقع في الصحيحين في روايات كثيرة، من ذلك حديث مسلم عن أنس في نفي قراءة البسمة، والثابت من طريق آخر نفي سماعها ففهم منه الراوي نفي قراءتها، فرواها بالمعنى على ما فهمه فأخطأ، كذا أجاب إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه عن حديث نفي قراءة البسمة. والذي ينبغي أن يقال: يجوز أن يكون هذا أي ما في الصحيح كان قبل أن يسأل الله تعالى أن يحييه له فأحياه وأمن به كما أشار إليه الأصل، أو أنه قال ذلك لمصلحة إيمان ذلك السائل، بدليل أنه لم يتدارك إلا بعد ما قفا، فظهر له من حاله أنه تعرض له فتنة: أي يرتد عن الإسلام، فأتى له بما هو شبيه بالمشاكلة مريداً بأبيه عمه أبا طالب لا عبد الله، لأنه كان يقال لأبي طالب: قل لابنك يرجع عن شتم ألهتنا، وقالوا له: أعطنا ابنك وخذ هذا مكانه، فقال أعطيكم ابني تقتلون، إلى غير ذلك مما يأتي. على أنه تقدم أن العرب تسمى العم أبا.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 81

لا يقال على ثبوت هذا الحديث وصحته التي صرح بها غير واحد من الحفاظ ولم يلتفتوا لمن طعن فيه: كيف ينفع الإيمان بعد الموت. لأننا نقول: هذا من جملة خصوصياته، لكن قال بعضهم: من ادعى الخصوصية فعليه الدليل: أي لأن الخصوصية لا تثبت بمجرد الاحتمال، ولا تثبت بحديث صحيح. وفي كلام القرطبي: قد أحيا الله سبحانه وتعالى على يديه جماعة من الموتى.

وإذا ثبت ذلك فما يمنع إيمان أبويه بعد إحيائهما، ويكون ذلك زيادة في كرامته وفضيلته، ولو لم يكن إحياء أبويه نافعاً لإيمانهما وتصديقهما لما أحيا كما أن رد الشمس لو لم يكن نافعاً في بقاء الوقت لم ترد، والله أعلم.

قال الواقدي: المعروف عندنا وعند أهل العلم أن آمنة وعبد الله لم يلدا غير رسول الله. ونقل سبط ابن الجوزي أن عبد الله لم يتزوج قط غير آمنة، ولم تتزوج آمنة قط غيره. ونقل إجماع علماء النقل على أن آمنة لم تحمل بغير النبي، ومعنى قولها: لم أحمل حملاً أخف منه المفيد أنها حملت بغيره أنه خرج على وجه المبالغة اهـ. أقول: هذه الرواية لم أفق عليها، والذي تقدم ما رأيت من حمل هو أخف منه. وفي رواية أخرى: حملت به فلم أجد حملاً قط أخف منه علي وحمل الرؤبة والوجدان على العلم الحاصل بإخبار غيرها من ذوات الحمل لها عن حالهن ممكن، فلا يقتضي ذلك أنها حملت بغيره. ولا ينافيه قولها أخف علي لأن المراد علي فيما علمت، والله أعلم.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

قال: والحافظ ابن حجر نسب سبط ابن الجوزي في نقل الإجماع إلى المجازفة فقال: وجازف سبط ابن الجوزي كعادته في نقل الإجماع، ولا يمتنع أن تكون آمنة أسقطت من عبد الله سقطاً فأشارت بقولها المذكور إليه اهـ. أقول: وحينئذ تكون حملت بذلك السقط بعد ولادته ، بناء على أن والده لم يمت وهو حمل، بل بعد وضعه، وأنها وجدت المشقة في حمل ذلك السقط، وأن إخبارها بذلك تأخر عن حملها بذلك السقط، وأنها رأت في حملها بذلك السقط من الشدة ما لم تجده في حمله .
وأما حملها بذلك السقط قبل حملها به فلا يتأتى، لمخالفته لما تقدم من أن عبد الله دخل بها حين أمك عليها، وانتقل إليها النور عند ذلك، ولأنه يخرج بذلك عن كونه بكر أبيه وأمه.
وأما رواية حملت الأولاد فما وجدت حملاً، فقال فيها الواقدي: لانعرف عند أهل العلم كما بينا ذلك في الكوكب المنير. على أن إمكان حملها بسقط لا يقدر في نقل الإجماع على أنها لم تحمل بغيره ، لإمكان أن مراده حملاً تاماً.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 81
وفي الخصائص الصغرى للجلال السيوطي: ولم يلد أبواه غيره والله أعلم.

قال: وترك عبد الله جاريتيه أم أيمن بركة الحبشية، أسلمت قديماً هي وولدها أيمن وكان من عبد حبشي يقال له عبيد اهـ.
أقول: في كلام ابن الجوزي أنه أعتقها حين تزوج خديجة، وزوجها عبيداً الحبشي بن زيد من بني الحرث فولدت أيمن. ولا ينافيه ما في الإصابة: كانت أم أيمن تزوجت في الجاهلية بمكة عبيداً الحبشي ابن زيد، وكان قدم مكة وأقام بها، ثم نقل أم أيمن إلى يثرب فولدت له أيمن، ثم مات عنها، فرجعت إلى مكة، فتزوجها زيد بن حارثة قاله البلاذري، والله أعلم.
قال: وقد زوجها أي بعد النبوة مولاه زيد بن حارثة: أي وإنما رغب زيد فيها لما سمعه يقول: «من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج بأم أيمن» فجاءت منه أسامة فكان يقال له الحب ابن الحب.
وقيل أعتقها عبد الله قبل موته. وقيل كانت لأمه ، وترك: أي عبد الله خمسة أجمال وقطعة من غنم، فورث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم من أبيه اهـ أي فهو يرث ولا يورث. قال : «نحن معاشر الأنبياء لا نورث، ما تركناه صدقة».

ودعوى بعضهم أنه لم يرث بناته اللاتي متن في حياته، فعلى تقدير صحته جاز أن يكون ترك أخذ ميراثه تعففاً وسيأتي. وقال ابن الجوزي وأصاب أم أيمن هذه عطش في طريقها لما هاجرت: أي إلى المدينة على قدميها وليس معها أحد وذلك في حر شديد، فسمعت شيئاً فوق رأسها، فتدلى عليها من السماء دلو من ماء برشاء أبيض فشربت منه حتى رويت، وكانت تقول: ما أصابني عطش بعد ذلك ولو تعرضت للعطش بالصوم في الهواجر ما عطشت: أي وفي مزيل الخفاء قال الواقدي: كانت أم أيمن عسرة اللسان، فكانت إذا دخلت على قوم قالت سلام لا عليكم: أي بدل سلام الله عليكم، فرخص لها

رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تقول: سلام عليكم أو السلام عليكم، هذا كلامه فليتأمل، فإن هذا يقتضي أن الصيغة الأصلية في السلام سلام الله عليكم، مع أن الصيغة في السلام إما السلام عليكم أو سلام عليكم، وكذا عليكم السلام، ولم تذكر أئمتنا تلك الصيغة.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: «شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً وأم أيمن عنده، فقالت: يا رسول الله اسقني، فقلت لها أرسول الله صلى الله عليه وسلم تقولين هذا؟ فقالت: ما خدمته أكثر، فقال النبي صلى الله عليه وسلم صدقت، فسقاها».

وذكر بعض المؤرخين أن بركة هذه من سبي الحبشة أصحاب الفيل وكانت سوداء: أي لونها أسود، ولهذا خرج ابنها أسامة في السواد: أي وكان أبوه زيد أبيض، ومن ثم كان المنافقون يطعنون في نسب أسامة، ويقولون: هذا ليس هو ابن زيد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتشوش من ذلك.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 81

وقد روى الشيخان عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «دخل عليّ النبي صلى الله عليه وسلم مسروراً، فقال: ألم تري أن مجزراً المدلجي قد دخل علي فرأى أسامة وزيداً عليهما قطيفة قد غطيا رؤوسهما وقد بدت أقدامهما، فقال: إن هذه الأقدام بعضها من بعض» وقد جعل أئمتنا ذلك أصلاً لوجوب الأخذ بقول القائف في إلحاق النسب.

قال الأبى رحمه الله: والمعروف أن الحبشية إنما هي بركة أخرى جارية أم حبيبة، قدمت معها من الحبشة، وكانت تكنى أم يوسف، كانت تخدم النبي صلى الله عليه وسلم أي وهي التي شربت بوله كما سيأتي.

قيل وورث من أبيه موله شقران، وكان عبداً حبشياً فأعتقه بعد بدر. وقيل اشتراه من عبد الرحمن بن عوف وأعتقه. وقيل بل وهبه عبد الرحمن بن عوف له.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 81

باب ذكر مولده صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم

عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم مسروراً أي مقطوع السرة. وجاء «أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين ولد نزل جبريل عليه السلام وقطع سرتة، وأذن في أذنه، وكساه ثوباً أبيض» وولد نبينا مختوناً أي على صورة المختون: أي ومكحولاً ونظيفاً ما به قدر.

أقول: أي لم يصاحبه قدر وبلبل، فلا ينافي جواز وجود البلبل والقدر بعده: أي في زمن إمكان النفاس، فلا يستدل بذلك على أن أمه لم تر نفاساً، فإن النفاس عندنا معاشر الشافعية هو البلبل الحاصل بعد الولادة في زمن إمكانه، وهو قبل مضي خمسة عشر يوماً لا الحاصل مع الولد، والله أعلم.

قال: وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال قال رسول الله «من كرامتي على ربي أني ولدت مختوناً، ولم ير أحد سواتي» أي لئلا يرى أحد سواتي عند الختان. قال الحاكم: تواترت الأخبار أنه ولد مختوناً. وتعقبه الذهبي

فقال: ما أعلم صحة ذلك، فكيف يكون متواتراً: أي وأجيب بأنه أراد بالتواتر الاشتهار، فقد جاءت أحاديث كثيرة في ذلك. قال الحافظ ابن كثير: فمن الحافظ من صححها، ومنهم من ضعفها، ومنهم من رآها من الحسان: أي وقد يدعى أنه لا مخالفة بين هذه الأقوال الثلاثة، لأنه يجوز أن يكون من قال صحيحة أراد صحيحة لغيرها، والصحيحة لغيرها قد تكون حسنة لغيرها، ومن قال ضعيفة أراد في حد ذاتها.

وفي الهدى أن الشيخ جمال الدين بن طلحة صنف في أنه ولد مختوناً مصنفاً أجلب فيه من الأحاديث التي لا خطام لها ولا زمام. ورد عليه في ذلك الشيخ جمال الدين بن العديم وذكر أنه ختن عليّ عادة العرب. وولد من الأنبياء على صورة المختون أيضاً غير نبينا ستة عشر نبياً، وقد نظم الجميع بعضهم فقال:

وفي الرسل مختون لعمر كخلقة
ثمان وتسع طيبون أكارم
وهم زكريا شيث إدريس يوسف
وحنظلة عيسى وموسى وأدم
ونوح شعيب سام لوط وصالح
سليمان يحيى هود يس خاتم
وليس هذا من خصائص الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، بل غيرهم من الناس يولد كذلك.

ومن خرافات العامة أن يقولوا لمن يولد كذلك: ختنه القمر: أي لأن العرب تزعم أن المولود في القمر تنفسخ قلفته فيصير كالمختون، وربما قالت العامة ختنه الملائكة وبهذا يرد على ذكره الجلال السيوطي في الخصائص الصغرى أن من خصائصه ولادته مختوناً.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وقيل ختن: أي ختنه الملك الذي هو جبريل كما صرح به بعضهم يوم شق قلبه عند ظئره: أي مرضعته حليلة. قال الذهبي: إنه خبر منكر. وقيل ختنه جده يوم سابع ولادته. قال العراقي، وسنده غير صحيح اهـ: أي لما عق عنه بكبش كما سيأتي.

أقول: وقد يجمع بأنه يجوز أن يكون ولد مختوناً غير تام الختان كما هو الغالب في ذلك، فتمم جده ختانه، لكن يناع فيه ما تقدم من قوله «من كرامتي على ربي أني ولدت مختوناً ولم ير أحد سواي» أي لأجل الختان كما هو الظاهر إن صح كما قدمنا.

وفي كلام بعضهم أن عيسى عليه الصلاة والسلام ختن بآلة. وعلى صحته يجمع بنحو ما تقدم. والظاهر أن المراد بالآلة التي ختن بها عيسى والتي ختن بها بناء على أن جده ختنه كانت بالآلة المعروفة التي هي الموسى وإلا لنقلت، لأن ذلك مما تتوفر الدواعي على نقله.

لا يقال عدم وجود القلفة نقص من أصل الخلقة الإنسانية، فقد قالوا في حكمة وجود العلقة السوداء التي هي حظ الشيطان فيه ولم يخلق بدونها، بل خلق بها تكملة للخلق الإنساني. لأننا نقول: إنما لم يخلق بتلك القلفة ليحصل كمال الخلقة الإنسانية، لأن هذه القلفة لما كانت تزال ولا بد من كل أحد مع ما يلزم

على إزالتها من كشف العورة، كان نقص الخلقة الإنسانية عنها عين الكمال، بخلاف العلقة السوداء.
وكره الحسن أن يختن الولد يوم السابع، لأن فيه تشبيهاً باليهود، أي لأن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما ختن ولده إسحاق عليه الصلاة والسلام يوم سبع ولادته، اتخذ بنو إسرائيل في ذلك اليوم سنة، وختن ولده إسماعيل عليه الصلاة والسلام لثلاث عشرة سنة. قال أبو العباس بن تيمية، فصار ختان إسماعيل عليه الصلاة والسلام، أي في ذلك الوقت سنة في ولده يعني العرب، ويؤيده قول ابن عباس رضي الله عنهما: كانوا لا يختنون الغلام حتى يدرك: أي لأن الثلاثة عشر هي مظنة الإدراك، ومن ثم لما سئل ابن عباس عن سنه حين قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: وأنا يومئذ مختون، أي في أوائل زمن الختان، والله أعلم.
ولما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وقع على الأرض مقبوضة أصابع يده يشير بالسبابة كالمسيح بها.

أقول: وفي رواية عن أمه أنها قالت «لما خرج من بطني نظرت إليه، فإذا هو ساجد قد رفع أصبعيه كالمتضرع المبتهل» ولامخالفة، لجواز أن يراد بأصبعيه السبابتان من اليدين، والله أعلم. وفي سجوده إشارة إلى أن مبدأ أمره على القرب من الحضرة الإلهية قال وروى ابن سعد «أنه لما ولد وقع على يديه رافعاً رأسه إلى السماء» وفي رواية «وقع على كفيه وركبتيه شاخصاً ببصره إلى السماء» اهـ.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

أقول: وفي رواية: «وقع جاثياً على ركبتيه» ولا يخالف هذا ما سبق من أنها نظرت إليه، فإذا هو ساجد، لجواز أن يكون سجوده بعد رفع رأسه وشخص بصره إلى السماء. ولا مخالفة بين كونه وقع على الأرض مقبوضة أصابع يده ووقوعه على كفيه، لجواز أن يكون قبض أصابعه ما عدا السبابة بعد ذلك. ولا ينافيه قوله مقبوضة المنصوب على الحال لقرب زمنها من الوقوع على الأرض، والاقتصار على الركبتين لا ينافي الجمع بينهما وبين الكفين.
ورأيت في كلام بعضهم أنه ولد واضعاً إحدى يديه على عينيه والأخرى على سوءتيه فليتأمل، والله أعلم.

وإلى رفع رأسه وشخص بصره إلى السماء يشير صاحب الهمزية بقوله:
رافعاً رأسه وفي ذلك الرف
ع إلي كل سودد إيماء
رامقاً طرفه السماء ومرمى
عين من شأنه العلو العلاء

أي وضعته حال كونه رافعاً رأسه إلى السماء، وفي ذلك الرفع الذي هو أول فعل وقع منه بعد بروزه إلى هذا العالم إشارة إلى حصول كل رفعة وسيادة ووضعته حالة كونه رامقاً ببصره إلى السماء، وسر ذلك الإشارة إلى علو مرماه، إذ مرمى عين الذي قصده ارتفاع مكانه الرفعة والشرف. قال: وقد

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

روى «أنه قبض قبضة من تراب، وأهوى ساجداً، فبلغ ذلك رجلاً من بني لهب، فقال لصاحبه: لئن صدق هذا الفأل ليغلبن هذا المولود أهل الأرض»: أي لأنه قبض عليها وصارت في يده. والفأل بالهمز وبدونه، يقال فيما يسر والتطير فيما يسوء فالفأل ضد التطير بكسر الطاء. وقد جاء «إني أتفاءل ولا أتطير» وقيل له «ما الفأل؟ قال: الكلمة الصالحة يسميها أحدكم» وقال: «لا عدوى ولا طيرة ويعجبني الفأل الكلمة الحسنة والكلمة الطيبة» وفي رواية «وأحب الفأل الصالح».

وفرق بعضهم بين الفأل والتفأل بأن الأول يكون في سماع الآدميين. والثاني يكون في الطير بأسمائها وأصواتها وممرها. وقوله: لا عدوى معارض لما جاء أنه كان في وفد ثقيف رجل مجذوم، فأرسل إليه النبي «إنا قد بايعناك فارجع فرجع ولم يصفحه» وجاء «لا تديموا النظر للمجذومين» وسيأتي الجواب عنه بما يحصل به الجمع بينه وبين ما جاء «أنه أخذ بيد مجذوم فوضعها معه في القصعة وقال: كل بسم الله عز وجل وتوكلا عليه» وبنو لهب بكسر اللام وسكون الهاء: حي من الأزدي أعلم الناس بالزجر: أي زجر الطير والتفأل بها وبغيرها.

فقد كان في الجاهلية إذا أراد الشخص أن يخرج لحاجة جاء إلى الطير وأزعجها عن أوكارها، فإن مر الطائر على اليمين سمي سانحاً واستبشر مريد الحاجة بقضائها، وإن مر على اليسار سمي بارحاً بالموحدة والراء والحاء المهملة، وقعد مريد الحاجة عنها تفأؤلاً بعدم قضائها: أي وهذا ما فسر به إمامنا الشافعي الحديث الآتي: «أقروا الطير في مكائنها» فعن سفيان بن عيينة قال: قلت للشافعي رضي الله تعالى عنه: يا أبا عبد الله ما معنى هذا الحديث؟ فقال: علم العرب كان في زجر الطير، كان الرجل منهم إذ أراد سفراً جاء إلى الطير في مكائنها فطيرها الحديث.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

ويحكى عن وائل بن حجر وكان زاجراً حسن الزجر أنه خرج يوماً من عند زياد بالكوفة، وهو الذي أحقه معاوية بأبيه أبي سفيان، وهو والد عبيد الله بن زياد الذي قاتل الحسين، وكان أميرها المغيرة بن شعبة قرأى غراباً ينغق بالغين العجمة: أي يصيح فرجع إلى زياد وقال له هذا غراب يرحلك من ههنا إلى خير، فقدم رسول معاوية إلى زياد من يومه بولاية البصرة.

وقد ذكر أن أبا ذؤيب الهذلي الشاعر كان مسلماً على عهد رسول الله، ولم يجتمع به قال: بلغنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عليل، ولما كان وقت السحر هتف بي هاتف وأنا نائم وهو يقول:

قبض النبي محمد فعيوننا

تذري الدموع عليه بالتسجام

قال: فقممت من نومي فرعاً، فنظرت إلى السماء فلم أر إلا سعد الذابح، فتفاءلت به وعلمت أن النبي صلى الله عليه وسلم قد قبض، فركبت ناقتي وحثتها حتى إذا كنت بالغابة زجرت الطير فأخبرني بوفاته، فلما قدمت المدينة فإذا فيها ضجيج بالبكاء كضجيج الحاج فسألت، فقيل لي: قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو مسجى وقد خلا به أهله، وأبو هذيل هذا هو القائل: أمن المنون وريبه تتوجع

والدهر ليس بمعتب من يجزع
وإذا المنية أنشبت أظفارها
ألفيت كل تميمة لا تنفع
وتجلدي للشامتين أريهم

أني لريب الدهر لا أتضعض
والنفس راغبة إذا رغبتها
وإذا ترد إلى قليل تنقع
ومن زجر الطير ما حكاه بعضهم قال: جاء أعرابي إلى دار القاضي أبي
الحسين الأزدي المالكي، فجاء غراب فقعد على نخلة في تلك الدار وصاح ثم
طار، فقال الأعرابي هذا الغراب يقول إن صاحب هذه الدار يموت بعد سبعة
أيام، فصاح الناس عليه وزجروه فقام وانصرف، ففي سابع يوم مات هذا
القاضي.

وقد جاء النهي عن ذلك: أي عن الزجر والطيبة في قوله «أقروا الطير على
مكامنهما» أي لا تزجروها. وجاء «الطير شرك» وجاء «من أرجته الطيرة عن
حاجته فقد أشرك» أي حيث اعتقد أنها تؤثر. وجاء «إذا رأى أحدكم من الطيرة
ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا
حول ولا قوة إلا بك» وفي رواية «اللهم لا طير إلا طيرك، ولا خير إلا خيرك، ولا
إله غيرك ثم يمضي لحاجته» وقد جاء «لا عدوى ولا طيرة ولا هام» وفي لفظ
«ولا هامة» بالتخفيف زاد في رواية «ولا صفر» والهامة هو أنه كان أهل
الجاهلية يزعمون أنه إذا قتل القتل ولم يؤخذ بثاره يخرج له طائر يقول عند
قبره اسقوني من دم قاتلي، اسقوني من دم قاتلي، ولا يزال يقول ذلك حتى
يؤخذ بثار القتل، كانت العرب تسميه الهامة بالتخفيف. وأما الهامة بالتشديد
فواحدة الهوام، وهي الحيات والعقارب وما شاكلها، ومن ثم كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم يقول في تعويذه للحسن والحسين «أعيذكما بكلمات
الله التامة من كل شيطان وهامة، ومن كل عين لامة ثم يقول: هكذا إبراهيم
عليه الصلاة والسلام كان يعوذ إسماعيل وإسحاق»، وقوله «ولا صفر» ذكر
الإمام النووي أن المراد به حية صفراء تكون في جوف الإنسان إذا جاع تؤذيه،
كذا كانت العرب تزعم ذلك قال: وهذا التفسير هو الصحيح الذي عليه عامة
العلماء، وقد ذكره مسلم عن جابر راوي الحديث، فتعين اعتماده.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وروى ابن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «رأت أمي حين
وضعتني سطع منها نور أضاءت له قصور بصرى» وفي رواية «أنها قالت لما
وضعتني خرج معه نور أضاء له ما بين المشرق والمغرب، فأضأت له قصور
الشام وأسواقها حتى رأيت أعناق الإبل ببصرى». وفي الخصاص الصغرى «ورأت أمه عند ولادته نوراً خرج منها أضاء له قصور
الشام» وكذلك أمهات الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يربن اه، ولعل المراد
يربن مطلق النور لا الذي تضيء منه قصور الشام. وقوله «قصور الشام» الخ

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

ظاهر في أن امل راد جميع الإقليم لا خصوص بصرى، ولعل الاقتصار على بصرى في الروايات لكون النور كان بها أتمّ، ومن ثم قالت «حتى رأيت أعناق الإبل ببصرى» أو رأت مرة وصول النور إلى بصرى خاصة ومرة جاوزها تأمل، وإلى هذا النور يشير عمه العباس رضي الله تعالى عنه بقوله في قصيدته التي امتدح بها رسول الله صلى الله عليه وسلم عند رجوعه من غزوة تبوك، وقد قال له في مرجعه من تلك الغزوة «يا رسول الله إني أريد أن أمتدحك، فقال له رسول الله: قل، لا يفضض الله فاك، فقال قصيدة منها:

وأنت لما ولدت أشرق الأبر
ض وضاءت بنورك الأفق
فنحن في ذلك الضياء وفي النور
سبل الرشاد نخرق»
وإلى ذلك يشير صاحب الهمزية رحمه الله بقوله:

وتراءت قصور قيصر بالرو
م يراها من داره البطحاء
أي رؤيت قصوره ملك الروم في بلاد الروم يبصرها الذي داره بمكة قال: وهذا ظاهر في أنها رأت ذلك النور يقظة، وتقدم في حديث شداد أنها رآته مناماً، وقد تقدم الجمع اهـ: أي وتقدم ما في ذلك الجمع.

وذكر أن أم إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه رأت وهي حامل به أن النجم المسمى بالمشتري خرج من فرجها فوق في مصر ثم وقع في كل بلدة منه شظية، فتأول ذلك أصحاب تأويل الرؤيا بأنها تلد عالماً يكون علمه بمصر أولاً ثم ينتشر إلى سائر البلدان.

وروى السهيلي على الواقدي «أنه لما ولد تكلم، فقال: جلال ربي الرفيع» وروي «أن أول ما تكلم به لما ولدته أمه حين خروجه من بطنها أكبر كبيراً والحمد لله كثيراً وسبحان الله بكرة وأصيلاً» ولا مانع من أنه تكلم بكل ذلك والأولوية في الرواية الثانية إضافية لما لا يخفى.

وقد وقع الاختلاف في وقت ولادته: أي هل كان ليلاً أو نهاراً وعلى الثاني في أي وقت من ذلك النهار وفي شهره وفي عامه وفي محله؟ فقيل ولد يوم الاثنين، قال بعضهم: لا خلاف فيه والله، بل أخطأ من قال ولد يوم الجمعة: أي فعن قتادة رضي الله تعالى عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن يوم الإثنين، فقال ذلك يوم ولدت فيه» وذكر الزبير بن بكار والحافظ ابن عساكر أن ذلك كان حين طلوع الفجر ويدل له قول جده عبد المطلب: ولد لي الليلة مع الصبح مولود. وعن سعيد بن المسيب «ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عند إبهار النهار» أي وسطه «وكان ذلك اليوم لمضي اثني عشرة ليلة مضت من شهر ربيع الأول» أي وكان ذلك في فصل الربيع، وقد أشار إلى ذلك بعضهم بقوله:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

يقول لنا لسان الحال منه
وقول الحق يعذب للسميع
فوجهي والزمان وشهر وضعي
ربيع في ربيع في ربيع

قال: وحكى الإجماع عليه وعليه العمل الآن، أي في الأمصار خصوصاً أهل مكة في زيارتهم موضع مولده، وقيل لعشر ليال مضت من ربيع وصحح اهـ أي صححه الحافظ الدمياطي: أي لأن الأول قال فيه ابن دحية: ذكره ابن إسحاق مقطوعاً دون إسناد، وذلك لا يصح أصلاً، ولو أسنده ابن إسحاق لم يقبل منه لتجريح أهل العلم له فقد قال كل من ابن المديني وابن معين أن ابن إسحاق ليس بحجة ووصفه مالك رضي الله تعالى عنه بالكذب. قيل وإنما طعن فيه مالك لأنه بلغه عنه أنه قال: هاتوا حديث مالك فأنا طيب بعله، فعند ذلك قال مالك: وما ابن إسحاق إنما هو رجل من الدجاجلة أخرجناه من المدينة. قال بعضهم: وابن إسحاق من جملة من يروي عنه شيخ مالك يحيى بن سعيد. وقال بعضهم: ابن إسحاق فقيه ثقة لكنه مدلس وقيل ولد لسبع عشرة ليلة خلت منه. وقيل لثمان مضت منه. قال ابن دحية: وهو الذي لا يصح غيره وعليه أجمع أهل التاريخ.

وقال القطب القسطلاني: وهو اختيار أكثر أهل الحديث: أي كالحميدي وشيخه ابن حزم. وقيل لليلتين خلتا منه، وبه جزم ابن عبد البر. وقيل لثمان عشرة ليلة خلت منه، رواه ابن أبي شيبة، وهو حديث معلول. وقيل لاثنتي عشرة بقين منه. وقيل لاثني عشرة. وقيل لثمان ليال خلت من رمضان وصححه كثير من العلماء، وهذا هو الموافق لما تقدم من أن أمه حملت به في أيام التشريق أو في يوم عاشوراء وأنه مكث في بطنها تسعة أشهر كوامل، لكن قال بعضهم، إن هذا القول غريب جداً ومستند قائله أنه أوحى إليه في رمضان فيكون مولده في رمضان، وعليها حملت به في أيام التشريق الذي لم يذكروا غيره يعلم ما في بقية الأقوال قال، وقيل ولد في صفر. وقيل في ربيع الآخر، وقيل في محرم، وقيل في عاشوراء أي كما ولد عيسى عليه السلام، وقيل لخمس بقين منه اهـ. أي وذكر الذهبي أن القول بأنه ولد في عاشوراء من الإفك: أي الكذب، وفيه إن كان ذلك لأنه لا يجمع أنها حملت به في أيام التشريق، وأنه مكث في بطنها تسعة أشهر كوامل لا يختص الإفك بهذا القول، بل يأتي فيما عدا القول بأنه ولد في رمضان، ثم رأيت بعضهم حكى أنه حمل في شهر رجب، وحينئذ يصح القول المشهور ولادته في ربيع الأول. وعن ابن عباس رضي الله عنهما: ولد يوم الإثنين في ربيع الأول، وأنزلت عليه النبوة يوم الاثنين في ربيع الأول، وهاجر إلى المدينة يوم الاثنين في ربيع الأول، وأنزلت عليه البقرة يوم الاثنين في ربيع الأول، وتوفي يوم الاثنين في ربيع الأول. قال بعضهم: وهذا غريب جداً.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وقيل لم يولد نهاراً، بل ولد ليلاً. فعن عثمان بن أبي العاص عن أمه رضي الله تعالى عنهما أنها شهدت ولادة النبي صلى الله عليه وسلم ليلاً، قالت: فما شيء أنظر إليه من البيت إلا نوراً، وإني لأنظر إلى النجوم تدنو حتى إنني لأقول

لتقعن علي. قال ابن دحية وهو حديث مقطوع. قال بعضهم: ولا يصح عندي بوجه أنه ولد ليلاً، لقوله الثابت عنه بنقل العدل عن العدل «أنه سئل عن صوم يوم الإثنين فقال: فيه ولدت» واليوم إنما هو النهار بنص القرآن. وأيضاً الصوم لا يكون إلا نهاراً.

وأفاد البدر الزركشي أن هذا الحديث: أي المتقدم عن أم عثمان بن أبي العاص على تقدير صحته لا دلالة فيه على أنه ولد ليلاً، قال: فإن زمان النبوة صالح للخوارق. ويجوز أن تسقط النجوم نهاراً: أي فضلاً عن أن تكاد تسقط سيما إن قلنا ولد عند الفجر لأن ذلك ملحق بالليل، وإلى التردد في وقت ولادته هل هو في الليل أو النهار أشار صاحب الهمزية بقوله:

ليلة المولد الذي كان للـ
بين سرور بيومه وازدهاء
فهنيئاً به لآمنة الفـ
ضل الذي شرفت به حواء
من لحواء أنها حملت أحـ
مد أو أنها به نفساء
يوم نالت بوضعه ابنة وهب
من فخار ما لم تنله النساء
أي ليلة المولد الذي وجد فيه الفرح والافتخار للدين بيومه، وقد أضاف كلاً من الليل واليوم للولادة مراعاة للخلاف في ذلك، فهنيئاً لآمنة الفضل الذي حصل لها بسبب ولادتها له: أي لا يشوب ذلك الفضل كدر ولا مشقة الذي شرفت بذلك الفضل حواء التي هي أم البشر، ومن يشفع لحواء في أنها حملت به وأنه أصابها نفاس به يوم أعطيت آمنة بنت وهب بسبب وضعه من الفخار، وهو ما يتمدح به من الخصال العلية، والشيم المرضية، ما لم يعطها غيرها من النساء.

أي وقد أقسم الله بليلة مولده قوله تعالى {والضحى والليل} وقيل أراد بالليل ليلة الإسرى، ولا مانع أن يكون الإقسام وقع بهما، أي استعمل الليل فيهما. ويدل لكون ولادته كانت ليلاً قول بعض اليهود ممن عنده علم الكتاب لقريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ قالوا: لا نعلم قال: ولد الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة، إلى آخر ما يأتي، وسيأتي ما يدل على ذلك، وهو وضعه تحت الجفنة. وولادته قيل كانت في عام الفيل، قيل في يومه. فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفيل. وعن قيس ابن مخرمة: ولدت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الفيل ضحاً فنحن لدتان، قال الحافظ ابن حجر المحفوظ لفظ العام: أي بدل لفظ اليوم، وقد يراد باليوم مطلق الوقت فيصدق بالعام، كما يقال يوم الفتح ويوم بدر، وعليه فلدان معناه متقاربان في السن بالموحدة، وعلى أن المراد باليوم حقيقته يكون بالنون.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وفي تاريخ ابن حبان: ولد عام الفيل في اليوم الذي بعث الله تعالى الطير الأبايل فيه على أصحاب الفيل.

وعند ابن سعد: ولد يوم الفيل يعني عام الفيل اهـ: أي لما تقدم عن ابن حجر،

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وعليه فيكون قول ابن حبان في اليوم تفسيراً للعام. على أن المراد باليوم مطلق الوقت الصادق للعام.

وقيل ولد بعد الفيل بخمسين يوماً، كما ذهب إليه جمع منهم السهيلي. قال بعضهم: وهو المشهور. قال: وقيل بخمسة وخمسين يوماً. وقيل بأربعين يوماً، وقيل بشهر، وقيل بعشر سنين، وقيل بثلاث وعشرين سنة، وقيل بثلاثين سنة، وقيل بأربعين سنة، وقيل بسبعين سنة اهـ: أي وعلى أنه بعد الفيل بخمسة وخمسين يوماً اقتصر الحافظ الدمياطي رحمه الله. وعبارة المواهب: حكاة الدمياطي في آخرين، وكونه في عام الفيل قال الحافظ ابن كثير: هو المشهور عند الجمهور. وقال إبراهيم بن المنذر شيخ البخاري رحمه الله لا يشك فيه أحد من العلماء، ونقل غير واحد فيه الإجماع. وقال: كل قول يخالفه وهم: أي وقيل قبل عام الفيل بخمس عشرة سنة. قال بعضهم: وهذا غريب منكر وضعيف أيضاً.

أقول: والقول بأنه ولد قبل عام الفيل أو فيه أو بعده بعشر سنين يقتضي تضعيف ما ذكره الحافظ أبو سعيد النيسابوري أن نور النبي صلى الله عليه وسلم كان يضيء في غرة جده عبد المطلب، وكانت قريش إذا أصابها قحط أخذت بيد عبد المطلب إلى جبل ثبير يستسقون به، فيسقيهم الله تعالى ببركة ذلك النور، وأنه لما قدم صاحب الفيل لهدم الكعبة لتكون كنيسته التي بناها. ويقال إنها القليس كجميز لارتفاع بنائها وعلوها ومنه القلانس لأنها في أعلى الرؤوس مكان الكعبة في الحج إليها.

وقد اجتهد أبرهة في زخرفتها، فجعل فيها الرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب، كان ينقل ذلك من قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام، وجعل فيها صلباناً من الذهب والفضة، ومنابر من العاج والآنوس، وشدد على عمالها بحيث إذا طلعت الشمس قبل أن يأخذ العامل في عمله قطع يده، فنام رجل منهم ذات يوم حتى طلعت الشمس، فجاءت معه أمه وهي امرأة عجوز، فتضرعت إليه في أن لا يقطع يده ولدها فأبى إلا قطع يده، فقالت له اضرب بمعولك اليوم، فالיום لك وغداً لغيرك، فقال لها: ويحك ما قلت؟ فقالت نعم كما صار هذا الملك من غيرك إليك فكذلك يصير منك إلى غيرك، فأخذته موعظتها فعفا عنه، ورجع عن هذا الأمر، فعند ذلك ركب عبد المطلب في قريش إلى جبل ثبير فاستدار ذلك النور، في وجه عبد المطلب كالهلال، وألقى شعاعه على البيت الحرام مثل السراج، فلما نظر عبد المطلب لذلك قال: يا معشر قريش ارجعوا فقد كفيتم هذا الأمر فوالله ما استدار هذا النور مني إلا أن يكون الظفر لنا فرجعوا فلما دخل رسول صاحب الفيل إلى مكة ونظر إلى وجه عبد المطلب خضع وتلجلج لسانه وخر مغشياً عليه فكان يخور كما يخور الثور عند ذبحه، فلما أفاق خر ساجداً لعبد المطلب: أي فإن صاحب الفيل أمره أن يقول لقريش: إن الملك إنما جاء لهدم البيت، فإن لم تحولوا بينه وبينه لم يزد على هدمه، وإن أحلتم بينه وبينه أتى عليكم، فقال له عبد المطلب؟ ما عندنا منعة ولا ندفع عن هذا البيت، وله رب إن شاء منعه: أي وفي لفظ قال

عبد المطلب، والله ما نريد حربته وما لنا منه بذلك طاقة، هذا بيت الله الحرام، وبيت إبراهيم خليل الله، فإن يمنعه منه فهو بيته وحرمة، وإن لم يحل بينه وبينه فوالله ما عندنا دفع عنه وأمر أبرهة رسوله أيضاً أن يأتي له بسيد القوم، فقال لعبد المطلب: قد أمرني أن أتيه بك، فقال عبد المطلب أفعل، فجاءه راعي إبله وخيله، وأخبره أن الحبشة أخذت الإبل والخيل التي كانت ترعى بذي المجاز.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وفي سيرة ابن هشام بل وفي غالب السير الاقتصار على الإبل، وأنها كانت مائتي بعير، وقيل أربعمئة ناقة. فركتب عبد المطلب صحبة رسول صاحب الفيل وركب معه ولده الحارث فاستؤذن له على أبرهة أي قيل له أيها الملك هذا سيد قريش ببابك يستأذن عليك، وهو صاحب عين مكة يعني زمزم، وهو يطعم الناس بالسهل والوحوش في رؤوس الجبال، فأذن له. فلما دخل وراه أبرهة أجله وأكرمه عن أن يجلسه تحته، وكره أن تراه الحبشة يجلسه على سرير ملكه، فنزل عن سريرته وأجلسه معه على البساط وقال لترجمانه أسأله عن حاجته، فذكر إبله وخيله، فذكر الترجمان له ذلك، فقال للترجمان بلسان الحبشة قل له كنت أعجبتني إذ رأيتك ثم قد زهدت فيك إذ سألتني إبلاً وخيلاً، وتركت أن تسأل عن البيت الذي هو عرك، فقال له الترجمان ذلك، فقال عبد المطلب أنا رب الإبل والخيل التي سألتها الملك، وأما البيت فله رب إن شاء أن يمنعه من الملك، فقال أبرهة ما كان ليمنعه مني، فرد عليه ما كان أخذ له وانصرف. وأبرهة بلسان الحبشة: الأبيض الوجه.

ثم إن الفيل لما نظر إلى وجه عبد المطلب برك كما يبرك البعير وخر ساجداً، وأنطق الله سبحانه وتعالى الفيل، فقال: السلام على النور الذي في ظهرك يا عبد المطلب.

وفي كلام بعضهم أن أبرهة لما بلغه مجيء عبد المطلب إليه أمر أن عبد المطلب قبل دخوله عليه أن يذهب به إلى الفيلة ليراها ويرى الفيل العظيم وكان أبيض اللون.

أقول: رأيت أن ملك الصين كان في مربطه ألف فيل أبيض، وكان مع الفرس في قتال أبي عبيد بن مسعود الثقفي أمير الجيش في خلافة الصديق أفيلة كثيرة عليها الجلاجل، وقدّموا بين أيديهم فيلاً عظيماً أبيض، وصارت خيول المسلمين كلما حملت وسمعت حس الجلاجل نفرت، فأمر أبو عبيد المسلمين أن يقتلوا الفيلة فقتلوا عن آخرها، وتقدم أبو عبيد لهذا الفيل العظيم الأبيض فضربه بالسيف فقطع زلومه، فصاح الفيل صيحة هائلة، وحمل على أبي عبيد فتخطه برجله ووقف فوقه فقتله، فحمل على الفيل شخص كان أبو عبيد أوصي أن يكون أميراً بعده فقتله، ثم آخر حتى قتل سبعة من ثقيف كان قد نص أبو عبيد عليهم واحداً بعد واحد، وهذا من أغرب الاتفاقيات والله أعلم. وإنما أرى عبد المطلب الفيلة إرهاباً لها وتخويفاً فإن العرب لم تكن تعرف الأفيال، وكانت الأفيال كلها ما عدا الفيل الأعظم تسجد لأبرهة.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وأما الفيل الأعظم فلم يسجد إلا للنجاشي، فلما رأت الفيلة عبد المطلب سجدت حتى الفيل الأعظم. وقيل أن أبرهة لم يخرج إلا بالفيل الأعظم، ولما بلغ أبرهة سجود الفيلة لعبد المطلب تطير ثم أمر بإدخال عبد المطلب عليه، فلما رآه ألقى له الهبة في قلبه، فنزل عن سريره تعظيماً لعبد المطلب. ثم رأيت العلامة ابن حجر في شرح الهمزية حاول الجواب عن هذا الذي تقدم عن الحافظ النيسابوري، من أن النور استدار في وجه عبد المطلب إلى آخره: أي وقول الفيل: السلام عليّ النور الذي في ظهرك يا عبد المطلب مع أن ولادته في ذلك الوقت، يلزمها أن يكون النور انتقل من عبد المطلب إلى عبد الله، ثم انتقل من عبد الله إلى أمته، بأن النور وإن انتقل من عبد المطلب، لكن الله سبحانه وتعالى أكرم عبد المطلب فأحدث ذلك النور في ظهره، وفي وجهه وأطلع الفيل عليه هذا كلامه فليتأمل.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وذكر بعضهم أن الفيل مع عظم خلقته صوته ضئيل أي ضعيف، ويفرق أي يخاف من السنور الذي هو القط ويفزع منه.
وفي المواهب: والمشهور أنه ولد بعد الفيل، لأن قصة الفيل كانت توطئة لنبوته ومقدمة لظهوره وبعثته، هذا كلامه. وفيه أنه قد يقال الإرهاصات إنما تكون بعد وجوده وقبل مبعثه الذي هو دعواه الرسالة، لا قبل وجوده بالكلية الذي هو المراد بظهوره. وحينئذ فقول القاضي البيضاوي: إنها من الإرهاصات، إذ روي أنها وقعت في السنة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي بعد وجوده. ومن ثم قال ابن القيم في الهدى: إن مما جرت به عادة الله تعالى أن يقدم بين يدي الأمور العظيمة مقدمات تكون كالمدخل لها، فمن ذلك قصة مبعثه تقدمها قصة الفيل، هذا كلامه.
قال: فلما شرع أبرهة في الذهاب إلى مكة وصل الفيل إلى أول الحرم، والمواهب أسقط هذا، وهو يوهم أنهم دخلوا مكة، وأن الفيل برك دون البيت فليتأمل، وعند وصوله إلى أول الحرم برك، فصاروا يضربون رأسه ويدخلون الكلاب في مراق بطنه فلا يقوم، فوجهوا وجهه إلى جهة اليمين، فقام يهرول، وكذا إلى جهة الشام فعل ذلك مراراً فأمر أبرهة أن يسقي الفيل الخمر ليذهب تمييزه فسقوه فثبت على أمره.
ويقال إنما برك لأن نفيل بن حبيب الخثعمي قام إلى جنب الفيل فعرك أذنه وقال: أبرك محموداً وارجع راشداً من حيث جئت، فإنك في بلد الله الحرام، ثم أرسل أذنه فبرك.
قال السهيلي رحمه الله: الفيل لا يبرك، فيحتمل أن يكون بروكه سقوطه على الأرض لما جاءه من أمر الله سبحانه. ويحتمل أن يكون فعل البرك وهو الذي يلزم موضعه ولا يبرح فعبر بالبروك عن ذلك.
قال: وقد سمعت من يقول إن في الفيلة صنفاً منها يبرك كما يبرك الجمل، وعند ذلك أرسل الله سبحانه وتعالى عليهم الطير الأبايل، خرجت من البحر أمثال الخطاطيف. ويقال إن حمام الحرم من نسل تلك الطير فأهلكتهم.

وقد يقال إن هذا اشتباه، لأن الذي قيل إنه من نسل الأبايل إنما هو شيء يشبه الزراير يكون باب إبراهيم من الحرم. وإلا فسيأتي أن حمام الحرم من نسل الحمام الذي عشش على فم الغار على ما سيأتي فيه. وفي حياة الحيوان أن الطير الأبايل تعشش وتفرخ بين السماء والأرض.

ولما هلك صاحب الفيل وقومه عزت قريش وهابتهم الناس كلهم، وقالوا: أهل الله لأن الله معهم. وفي لفظ: لأن الله سبحانه وتعالى قاتل عنهم، وكفاهم مؤونة عدوهم الذي لم يكن لسائر العرب بقتاله قدرة، وغنموا أموال أصحاب الفيل: أي ومن حينئذ مزقت الحبشة كل ممزق، وخرب ما حول تلك الكنيسة التي بناها أبرهة، فلم يعمرها أحد، وكثرت حولها السباع والحيات ومردة الجن، وكان كل من أراد أن يأخذ منها شيئاً أصابته الجن، واستمرت كذلك إلى زمن السفاح الذي هو أول خلفاء بني العباس، فذكر له أمرها، فبعث إليها عامله على اليمن فخرّ بها وأخذ خشبها المرصع بالذهب والآلات المفضضة التي تساوي قناطير من الذهب، فحصل له منها مال عظيم، وحينئذ عفا رسمها وانقطع خبرها، واندرست آثارها.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وقد كان عبد المطلب أمر قريشاً أن تخرج من مكة وتكون في رؤوس الجبال خوفاً عليهم من المعرة، وخرج هو وإياهم إلى ذلك بعد أن أخذ بحلقة باب الكعبة ومعه نفر من قريش، يدعون الله سبحانه وتعالى، ويستنصرونه على أبرهة وجنده، وقال:

لا هم إن العبد يحـ

مى رحله فامنع حلالك

لا يغلبنّ صليهم

ومحالهم غدوا محالك

أي فإنهم كانوا نصارى. ولا هم: أصله اللهم، فإن العرب تحذف الألف واللام، وتكتفي بما يبقى، وكذلك تقول: لاه أبوك، تريد لله أبوك، والحلال بكسر الحاء المهملة: جمع حلة، وهي البيوت المجتمعة. والمحال بكسر الميم: القوة والشدة، والغدو بالغين المعجمة أصله الغد: وهو اليوم الذي يأتي بعد يومك الذي أنت فيه. ويقال إن عبد المطلب جمع قومه وعقد راية وعسكر بمنى.

وجمع ابن ظفر بينه وبين ما تقدم من أنه خرج مع قومه إلى رؤوس الجبال، بأنه يحتمل أنه أمر أن تكون الذرية في رؤوس الجبال: أي وخرج معه تائبساً لهم ثم رجع وجمع إليه المقاتلة: أي ويؤيد ذلك قول المواهب: ثم إن أبرهة أمر رجلاً من قومه بهزم الجيش، فلما وصل مكة ونظر إلى وجه عبد المطلب خضع إلى آخر ما تقدم. فإسقاط المواهب كون قريش جيشت جيشاً مع قومه، ثم إن أبرهة أرسل رجلاً من قومه ليهزم الجيش لا يحسن. ثم ركب عبد المطلب لما استبطأ مجيء القوم إلى مكة ينظر ما الخبر فوجدهم قد هلكوا: أي غالبهم، وذهب غالب من بقي، فاحتمل ما شاء من صفراء وبيضاء، ثم أذن: أي أعلم أهل مكة بهلاك القوم فخرجوا فانتهبوا.

وفي كلام سبط ابن الجوزي: وسبب غنى عثمان بن عفان أن أباه عفان وعبد المطلب وأبا مسعود الثقفي لما هلك أبرهة وقومه كانوا أول من نزل مخيم الحبشة، فأخذوا من أموال أبرهة وأصحابه شيئاً كثيراً ودفنوه عن قريش،

فكانوا أغنى قريش وأكثرهم مالاً. ولما مات عفان ورثه عثمان رضي الله تعالى عنه.
 أي ومن جملة من سلم من قوم أبرهة ولم يذهب بل بقي بمكة سائس الفيل وقائده.
 فعن عائشة رضي الله عنها: أدركت قائد الفيل وسائسه بمكة أعميين مقعدين يستطعمان الناس.
 وأورد على هذا أن الحجاج خرب الكعبة بضرب المنجنيق ولم يصبه شيء؟
 ويجاب بأن الحجاج لم يجيء لهدم الكعبة ولا لتخريبها ولم يقصد ذلك، وإنما قصد التضييق على عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما ليسلم نفسه، وهذا أولى من جواب المواهب كما لا يخفى، والله أعلم.
 رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وكان بمكة في الدار التي صارت تدعى لمحمد بن يوسف أخي الحجاج: أي وكانت قبل ذلك لعقيل بن أبي طالب، ولم تنزل بيد أولاده بعد وفاته إلى أن باعوها لمحمد بن يوسف أخي الحجاج بمائة ألف دينار قاله الفاكهي: أي فأدخلها في داره وسماها البيضاء: أي لأنها بنيت بالجص ثم طليت به، فكانت كلها بيضاء، وصارت تعرف بدار ابن يوسف، لكن سيأتي في فتح مكة أنه قيل له «يا رسول الله تنزل في الدور؟ قال: هل ترك لنا عقيل من رباغ أو دور» فإن هذا السياق يدل على أن عقيلاً باع تلك الدار فلم يبق بيده ولا بيد أولاده بعده. إلا أن يقال المراد باع ما عدا هذه الدار التي هي مولده: أي لأنه كما سيأتي في الفتح باع دار أبيه أبي طالب، لأنه وطالباً أخاه ورثاً أبا طالب، لأنهما كانا كافرين عند موت أبي طالب، دون جعفر وعلي رضي الله تعالى عنهما فإنهما كانا مسلمين، وعقيل أسلم بعد دون طالب، فإن طالباً اختطفته الجن ولم يعلم به، وإن عقيلاً باع دار رسول الله صلى الله عليه وسلم التي هي دار خديجة: أي التي يقال لها مولد فاطمة رضي الله تعالى عنها، وهي الآن مسجد يصلى فيه، بناه معاوية رضي الله تعالى عنه أيام خلافته. قيل وهو أفضل موضع بمكة بعد المسجد الحرام: أي واشتهر بمولد فاطمة رضي الله تعالى عنها لشرفها، وإلا فهو مولد بقية إختها من خديجة، ولعل معاوية رضي الله تعالى عنه اشترى تلك الدار ممن اشترها من عقيل.
 وبدل لما قلناه قول بعضهم: لم يتعرض عند فتح مكة لتلك الدار التي أبقاها في يد عقيل: أي التي هي دار خديجة، فإنه لم يزل بها حتى هاجر فأخذها عقيل. وفي كلام بعضهم: لما فتح النبي صلى الله عليه وسلم مكة ضرب مخيمه بالحجون، فقيل له: ألا تنزل منزلك من الشعب فقال «وهل ترك لنا عقيل منزلاً» وكان عقيل قد باع منزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنزل إخوته حين هاجروا من مكة، ومنزل كل من هاجر من بني هاشم.

وفي كلام بعضهم: كان عقيل تخلف عنهم في الإسلام والهجرة، فإنه أسلم عام الحديبية التي هي السنة السادسة وباع دورهم، فلم يرجع النبي صلى الله عليه وسلم في شيء منها، وهي أي تلك الدار التي ولد بها عند الصفا، قد بنتها زبيدة

زوجة الرشيد أم الأمين مسجداً لما حجّت .
وفي كلام ابن دحية أن الخيزران أم هارون الرشيد لما حجت أخرجت تلك الدار
من دار ابن يوسف وجعلتها مسجداً . ويجوز أن تكون زبيدة جدت ذلك المسجد
الذي بنته الخيزران فنسب لكل منهما، وسيأتي أن الخيزران بنت دار الأرقم
مسجداً، وهي عند الصفا أيضاً، ولعل الأمر التبس على بعض الرواة لأن كلا
منهما عند الصفا. وقيل ولد في شعب بني هاشم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86
أقول: قد يقال لا مخالفة، لأنه يجوز أن تكون تلك الدار من شعب بني هاشم،
ثم رأيت التصريح بذلك. ولا ينافيه ما تقدم في الكلام على الحمل من أن شعب
أبي طالب وهو من جملة بني هاشم كان عند الحجون، لأنه يجوز أن يكون أبو
طالب انفرد عنهم بذلك الشعب، والله أعلم.
قال: وقيل ولد في الردم: أي ردم بني جمح، وهم بطن من قريش، ونسب
لبني جمح لأنه ردم على من قتلوا في الجاهلية من بني الحارث، فقد وقع بين
بني جمح وبين بني الحارث في الجاهلية مقتلة، وكان الظفر فيها لبني جمح
على بني الحارث فقتلوا منهم جمعاً كثيراً، وردم على تلك القتلى بذلك المحل.
وقيل ولد بعسفان انتهى.

أقول: مما يردُّ القول بكونه ولد بعسفان ما ذكره بعض فقهاءنا، أن من جملة ما
يجب على الولي أن يعلم موليه إذا ميز أنه ولد بمكة ودفن بالمدينة، إلا أن يقال
ذاك بناء على ما هو الأصح عندهم. والردم: هو المحل الذي كانت ترى منه
الكعبة قبل الآن، ويقال له الآن المدعي، لأنه يؤتى فيه بالدعاء الذي يقال عند
رؤية الكعبة، ولم أقف على أنه وقف به، ولعله لم يكن مرتفعاً في زمنه، لأنه
إنما رفعه وبناه سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في خلافته، لما جاء السيل
العظيم الذي يقال له سيل أم نهشل، وهي بنت عبيدة بن سعيد بن العاص،
فإنه أخذها وألقاها أسفل مكة فوجدت هناك ميتة، ونقل المقام إلى أن ألقاه
بأسفل مكة أيضاً فجيء به وجعل عند الكعبة، وكوتب عمر رضي الله عنه بذلك
فحضر وهو فزع مرعوب، ودخل مكة معتمراً فوجد محل المقام دثر، وصار لا
يعرف، فهاله ذلك ثم قال: أنشد الله عبداً عنده علم من محل هذا المقام،
فقال المطلب بن رفاعة رضي الله تعالى عنه: أنا يا أمير المؤمنين عندي علم
بذلك، فقد كنت أخشى عليه مثل ذلك، فأخذت قدره من موضعه إلى باب
الحجر، ومن موضعه إلى زمزم بحفاظ، فقال له اجلس عندي وأرسل، فأرسل
فجيء بذلك الحفاظ فقيس به ووضع المقام بمحله الآن، وأحكم ذلك واستمر
إلى الآن. فعند ذلك بني هذا المحل الذي يقال له الردم بالصخرات العظيمة
ورفعه فصار لا يعلوه السيل، وصارت الكعبة تشاهد منه، والآن قد حالت الأبنية
فصارت لا ترى، ومع ذلك لا بأس بالوقوف عنده والدعاء فيه تبركاً بمن سلف،
ولعل هذا محمل قول من قال: أول من نقل المقام إلى محله - وكان ملصقاً
بالكعبة - عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، فلا ينافي أن الناقل له هو كما
سيأتي، لكن رأيت ابن كثير قال: وقد كان هذا الحجر أي الذي هو المقام
ملصقاً بباب الكعبة على ما كان عليه من قديم الزمان إلى أيام عمر بن
الخطاب رضي الله تعالى عنه فأخره عنه لئلا يشغل المصلين عنده الطائفون
بالبيت هذا

كلامه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وقوله من قديم الزمان ظاهره من عهد إبراهيم على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام فليتأمل.

وعن كعب الأحبار: إني أجد في التوراة: عبدي أحمد المختار، مولده بمكة: أي وهو ظاهر في أن كعب الأحبار كان قبل الإسلام على دين اليهودية.

قال وعن عبد الرحمن بن عوف رضي الله تعالى عنه عن أمه الشفاء: أي بكسر الشين المعجمة وتخفيف الفاء، وقيل بفتحها وتشديد الفاء مقصوراً قالت: لما ولدت أمانة رسول الله صلى الله عليه وسلم وقع على يدي: أي فهي دايته . ووقع في كلام ابن دحية أن أم أيمن دايته .

وقد يقال إطلاق الداية على أم أيمن، لأنها قامت بخدمته ، ومن ثم قيل لها حاضنته، وللشفاء قابله.

وقد قيل: في اسم الوالدة والقابلة الأمن والشفاء، وفي اسم الحاضنة البركة والنماء، وفي اسم مرضعته أولاً التي هي ثوبية الثواب، وفي اسم مرضعته

المستقلة برضاعه التي هي حليلة السعدية الحلم والسعد. قالت أم عبد الرحمن: فاستهل، فسمعت قائلاً يقول: يرحمك الله تعالى، أو رحمك ربك: أي أو يرحمك ربك، ولهذا القول الذي لا يقال إلا عند العطاس: أي الذي هو

التشميت بالشين المعجمة والمهملة، حمل بعضهم الاستهلال الذي هو في المشهور صياح المولود أول ما يولد: يقال استهل المولود: إذا رفع صوته على

العطاس مع الاعتراف بأنه لم يجيء في شيء من الأحاديث تصريح بأنه لما ولد عطس انتهى: أي فقد قال الحافظ السيوطي: لم أقف في شيء من الأحاديث

يدل على أنه لما ولد عطس بعد مراجعة أحاديث المولد من مظانها: أي وعطس بفتح الطاء يعطس بالكسر والضم وحكي بالفتح، ولعله من تداخل

اللغتين، لكن في الجامع الصغير «استهلال الصبي العطاس» وحينئذ يكون استهلال المولود له معنيان: هما مجرد رفع الصوت والعطاس، وحمل هنا على

العطاس بقريئة الجواب الذي لا يقال إلا عند العطاس، وقد أشار إلى التشميت صاحب الهمزية رحمه الله بقوله:

شمته الأملاك إذ وضعته

وشفتنا بقولها الشفاء

أي قالت له الأملاك: رحمك الله، أو رحمك ربك وقت وضع أمه له، وفرحتنا

بقولها المذكور الشفاء التي هي أم عبد الرحمن بن عوف.

أقول: قال بعضهم: ولعله حمد الله بعد عطاسه لما استقر من شرعه الشريف أنه لا يسن التشميت: إلا لمن حمد الله تعالى، هذا كلامه. ويدل لما ترجاه ما

تقدم أنه حين خروجه من بطن أمه قال «الحمد لله كثيراً».

وفي كلام بعض شراح الهمزية: ويجوز أن يكون شمت من غير حمد، تعظيماً

لقدره . وقد جاء «العاطس إن حمد الله تعالى فشمتوه، وإن لم يحمد فلا

تشمته» وجاء «إذا عطس فحمد الله تعالى فحق على كل من سمعه أن

يشمته» وفي الصحيح «أن رجلاً عطس عند النبي صلى الله عليه وسلم وحمد

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

الله فشتمته. وعطس آخر فلم يحمده الله فلم يشتمته» وفي حديث حسن «إذا عطس أحدكم فليشتمته جليسه، فإذا زاد على ثلاث فهو مزكوم فلا يشتمت بعد ثلاث» وتمسك بذلك: أي بالأمر بالتشميت بصيغة الفعل التي الأصل فيها الوجوب، ويقول حتى أهل الظاهر على وجوب التشميت على كل من سمع. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وذهب بعض الأئمة إلى وجوبه على الكفاية، وهو منقول عن مشهور مذهب مالك رضي الله تعالى عنه: أي وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: ليس على إبليس أشد من تشميت العاطس. وعن سالم بن عبيد الله الأشجعي وكان من أهل الصفة قال: قال رسول الله: «إذا عطس أحدكم فليحمد الله عز وجل، وليقل من عنده يرحمك الله، وليردّ عليه بقوله: يغفر الله لي ولكم».

ومن لطيف ما اتفق أن الخليفة المنصور وشي عنده ببعض عماله، فلما حضر عنده عطس المنصور فلم يشتمه ذلك العامل، فقال له المنصور: ما منعك من التشميت؟ فقال إنك لم تحمد الله، فقال حمدت في نفسي، فقال قد شمتك في نفسي، فقال له ارجع إلى عملك فإنك إذا لم تحابني لا تحابي غيري.

قال بعضهم: والحكمة في قول العاطس ما ذكر أنه ربما كان العطاس سبباً للتواء عنقه فيحمد الله على معافاته من ذلك. وقال غيره: لأن الأذى وهي الأبخرة المحتقنة تندفع به عن الدماغ الذي فيه قوة التذكر والتفكير: أي فهو بحران الرأس، كما أن العرق بحران بدن المريض، وذلك نعمة جليلة، وفائدة عظيمة، ينبغي أن يحمده الله تعالى عليها: أي ولأن الأطباء كما زعمه بعضهم نصوا على أن العطاس من أنواع الصرع، أعادنا الله تعالى من الصرع. وقد ينازع فيه ما تقدم، وما ذكره بعض الأطباء أن العطاس للدماغ كالسعال للرئة. قال: والعطاس أنفع الأشياء لتخفيف الرأس، وهو مما يعين على نقص المواد المحتبسة ويسكن ثقل الرأس فيحصل منه النشاط والخفة. وفي نوادر الأصول للترمذي قال «هذا جبريل يخبركم عن الله تعالى: ما من مؤمن يعطس ثلاث عطسات متواليات إلا كان الإيمان في قلبه ثابتاً». وفي الجامع الصغير «إن الله تعالى يحب العطاس، ويكره التثاؤب» والعطسة الشديدة من الشيطان. وفي الحديث «العطاس شاهد عدل» وفي حديث حسن «أصدق الحديث ما عطس عنده».

وقد جاء أن روح آدم عليه السلام لما نزلت إلى خياشيمه عطس، فلما نزلت إلى فمه ولسانه قال الله تعالى له قل {الحمد لله رب العالمين} فقالها آدم عليه السلام، فقال الحق يرحمك الله يا آدم، ولذلك خلقتك» وفي رواية «وللرحمة خلقتك» أي للموت.

وقد روى الترمذي مرفوعاً بسند ضعيف «العطاس والنعاس والتثاؤب في الصلاة من الشيطان» وروى ابن أبي شيبة موقوفاً بسند ضعيف أيضاً «إن الله يكره التثاؤب، ويحب العطاس في الصلاة» أي فمع كون كل واحد من العطاس والتثاؤب في الصلاة من الشيطان العطاس فيها أحب إلى الله تعالى من التثاؤب فيها، والتثاؤب فيها أكره إلى الله تعالى من العطاس فيها، لأن الكراهة مقولة بالتشكيك.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

ويمكن حمل كون العطاس من الشيطان على شدته ورفع الصوت به كما تقدم التقييد بذلك في الرواية السابقة، ومن ثم جاء «إذا عطس أحدكم» أي هم بالعطاس «فليضع كفيه على وجهه، وليخفض صوته» أي ولا ينافي وجود الشفاء ووجود أم عثمان بن العاص عند أمه عند ولادته ما روي عنها أنها قالت «لما أخذني ما يأخذ النساء» أي عند الولادة «وإني لوحيدة في المنزل رأيت نسوة كالنخل طولاً كأنهن من بنات عبد مناف يحدقن بي» وفي كلام ابن المحدث «ودخل عليّ نساء طوال كأنهن من بنات عبد المطلب ما رأيت أضواً منهن وجوهاً، وكانّ واحدة من النساء تقدمت إليّ فاستندت إليها، وأخذني المخاض، واشتد عليّ الطلق، وكانّ واحدة منهن تقدمت إليّ وناولتني شربة من الماء أشد بياضاً من اللبن وأبرد من الثلج وأحلى من الشهد، فقالت لي اشربي فشربت، ثم قالت الثالثة: ازدادي فازددت، ثم مسحت بيدها على بطني وقالت: بسم الله اخرج باذن الله تعالى، فقلن لي: أي تلك النسوة: ونحن آسية امرأة فرعون، ومريم بنت عمران، وهؤلاء من الحور العين» لجواز وجود الشفاء وأم عثمان عندها بعد ذلك، وتأخر خروجه عن القول المذكور حتى نزل على يد الشفاء، لما تقدم من قولها «وقع على يدي» ولعل حكمة شهود آسية ومريم لولادته كونهما تصيران زوجتين له في الجنة مع كلثم أخت موسى.

ففي الجامع الصغير: «إن الله تعالى زوجني في الجنة مريم بنت عمران، وامرأة فرعون وأخت موسى» وسياأتي عند موت خديجة أنه قال لها: «أشعرت أن الله تعالى قد أعلمني أنه سيزوجني» وفي رواية «أما علمت أن الله تعالى قد زوجني معك في الجنة مريم بنت عمران وكلثم أخت موسى. وآسية امرأة فرعون؟ فقالت: أله أعلمك بهذا؟ قال نعم. قالت بالرفاء والبنين» وقد حمى الله هؤلاء النسوة عن أن يطأهن أحد.

فقد ذكر أن آسية لما ذكرت لفرعون أحب أن يتزوجها فتزوجها على كره منها ومن أبيها مع بذله لها الأموال الجلييلة، فلما زفت له وهم بها أخذه الله عنها وكان ذلك حاله معها، وكان قد رضي منها بالنظر إليها. وأما مريم فقيل إنها تزوجت بابن عمها يوسف النجار ولم يقربها، وإنما تزوجها ليرفقاها إلى مصر لما أرادت الذهاب إلى مصر بولدها عيسى عليه السلام، وأقاموا بها اثنتي عشرة سنة، ثم عادت مريم وولدها إلى الشام ونزلا الناصرة. وأخت موسى عليه الصلاة والسلام لم يذكر أنها تزوجت، وهذا يفيد أن بنات عبد مناف أو بنات عبد المطلب على ما تقدم كنّ متميزات عن غيرهن من النساء في إفراط الطول.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وقد رأيت أن علي بن عبد الله بن عباس وهو جد الخليفيتين السفاح والمنصور أول خلفاء بني العباس أبو أبيهما محمد كان مفراطاً في الطول، كان إذا طاف كان الناس حوله وهو راكب، وكان مع هذا الطول إلى منكب أبيه عبد الله بن عباس، وكان عبد الله بن عباس إلى منكب أبيه العباس، وكان العباس إلى منكب أبيه عبد المطلب.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

لكن ابن الجوزي اقتصر في ذكر الطوال على عمر بن الخطاب، والزيبر بن العوام، وقيس بن سعد، وحبیب بن سلمة، وعلي بن عبد الله بن العباس. وسكت عن عبد الله بن عباس، وعن أبيه العباس، وعن أبيه عبد المطلب. وفي المواهب أن العباس كان معتدلاً، وقيل كان طوالاً. ورأيت أن علياً هذا جد الخلفاء العباسيين كان على غاية من العبادة والزهادة والعلم والعمل وحسن الشكل، حتى قيل: إنه كان أجمل شريف على وجه الأرض، وكان يصلي في كل ليلة ألف ركعة ولذلك كان يدعى السجاد، وأن سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه هو الذي سماه علياً وكناه أبا الحسن.

فقد روي أن علياً رضي الله تعالى عنه افتقد عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما في وقت صلاة الظهر، فقال لأصحابه ما بال أبي العباس يعني عبد الله لم يحضر؟ فقالوا ولد له مولود، فلما صلى علي كرم الله وجهه قال امضوا بنا إليه، فأتاه فهناه، فقال: شكرت الواهب، وبورك لك في الموهوب. زاد بعضهم. ورزقت بره، وبلغ أشده، ما سميت؟ قال: أو يجوز لي أن أسميه حتى تسميه؟ فأمر به فأخرج إليه فأخذه فحنكه، ودعا له ثم رده إليه وقال: خذ إليك أبا الأملاك، قد سميت علياً، وكنيته أبا الحسن، فلما ولي معاوية الخلافة قال لابن عباس: ليس لكم اسمه ولا كنيته يعني علي بن أبي طالب كرم الله وجهه كراهة في ذلك، وقد كنيته أبا محمد فحرت عليه. وقد يخالف ذلك ما ذكر بعضهم أن علياً المذكور لما قدم على عبد الملك بن مروان قال له غير اسمك وكنيتك، فلا صبر لي على اسمك وهو علي وكنيتك وهي أبو الحسن، قال: أما الاسم فلا أغیره. وأما الكنية فأكتني بأبي محمد، وإنما قال عبد الملك ذلك كراهة في اسم علي بن أبي طالب وكنيته. وعليّ هذا دخل هو وولدا ولده محمد وهما السفاح والمنصور وهما صغيران يوماً على هشام بن عبد الملك بن مروان وهو خليفة، فأكرمه هشام، فصار يوصيه عليهما ويقول له: سيليان هذا الأمر يعني الخلافة، فصار هشام يتعجب من سلامة باطنه وينسبه في ذلك إلى الحمق. ويقال إن الوليد بن عبد الملك: أي لما ولي الخلافة وبلغه عنه أنه يقول ذلك ضربه بالسياط على قوله المذكور، وأركبه بعيراً، وجعل وجهه مما يلي ذنب البعير، وصائح يصيح عليه: هذا علي بن عبد الله بن عباس الكذاب، قال بعضهم: فأتيت وقلت له ما هذا الذي يسنده إليك من الكذب؟ قال: بلغهم عني أنني أقول إن هذا الأمر يعني الخلافة ستكون في ولدي، والله لتكون فيهم، فكان الأمر على ما ذكر فقد ولي السفاح الخلافة ثم المنصور.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وفي دلائل النبوة للبيهقي أن عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما قدم على معاوية رضي الله تعالى عنه، فأجاره وأحسن جائزته، ثم قال: يا أبا العباس هل تكون لكم دولة؟ قال اعفني يا أمير المؤمنين، قال لتخبرني، قال نعم، قال فمن أنصاركم؟ قال: أهل خراسان: أي وهو أبو مسلم الخراساني، يجيء بجيشه معه رايات سود يسلب دولة بني أمية، ويجعل الدولة لبني

العباس. ويقال إن أبا مسلم هذا قتل ستمائة ألف رجل صبراً غير الذي قتله في الحروب، وهذه الرايات السود غير التي عنها بقوله: «إذا رأيت الرايات السود قد جاءت من قبل خراسان فاتوها، فإن فيها خليفة الله المهدي» فإن تلك الرايات تأتي قبيل قيام الساعة. ثم صارت الخلافة في أولاد المنصور. وقول عليّ في ولدي واضح، لأن ولد الولد ولد. وقد حكى في مرآة الزمان عن المأمون، أنه قال: حدثني أبي يعني هارون الرشيد، عن أبيه المهدي، عن أبيه المنصور، عن أبيه محمد بن علي، عن أبيه عليّ، عن أبيه عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سيد القوم خادمهم» وذكر أنه مما يؤثر عن المأمون أنه كان يقول: استخدام الرجل ضيفه لؤم. وكان يقول: لو عرف الناس حبي للعفو لتقربوا إليّ بالجرائم، وإنني أخاف إنني لا أوجر على العفو، أي لأنه صار لي طبيعة وسجية. قالت أمه: ورأيت ثلاثة أعلام مضروباً: علماً بالمشرق، وعلماً بالمغرب، وعلماً على ظهر الكعبة، والله أعلم.

ولما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعت عليه جفنة بفتح الجيم، فانفلقت عنه فلقتين قال: وهذا مما يؤيد أنه ولد ليلاً. فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: كان في عهد الجاهلية إذا ولد لهم مولود من تحت الليل وضعوه تحت الإناء لا ينظرون إليه حتى يصبحوا، فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم وضعوه تحت برمة. زاد في لفظ ضخمة. والبرمة: القدر، فلما أصبحوا أتوا البرمة، فإذا هي قد انفلقت ثنتين وعيناه إلى السماء، فتعجبوا من ذلك.

وعن أمه أنها قالت: فوضعت عليه الإناء فوجدته قد تفلق الإناء عنه وهو يمص إبهامه يشخب أي يسيل لبناً أه. أي وفي العرائس أن فرعون لما أمر بذيح أبناء بني إسرائيل جعلت المرأة: أي بعض النساء كما لا يخفى إذا ولدت الغلام انطلقت به سرا إلى واد أو غار فأخفته فيه، فيقيض الله سبحانه وتعالى له ملكاً من الملائكة يطعمه ويسقيه حتى يختلط بالناس، وكان الذي أتى السامري لما جعلته أمه في غار من الملائكة جبريل عليه الصلاة والسلام، فكان أي السامري يمص من إحدى إبهاميه سمناً ومن الأخرى عسلاً، ومن ثم إذا جاع المرضع يمص إبهامه فيروي من المص، قد جعل الله له فيه رزقاً. والسامري هذا كان منافقاً يظهر الإسلام لموسى عليه الصلاة والسلام ويخفي الكفر. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86 وفي رواية أن عبد المطلب هو الذي دفعه للنسوة ليضعوه تحت الإناء.

أقول: هذا هو الموافق لما سيأتي عن ابن إسحاق من أن أمه لما ولدته أرسلت إلى جده: أي وكان يطوف بالبيت تلك الليلة فجاء إليها: أي فقالت له يا أبا الحارث ولد لك مولود له أمر عجيب، فذعر عبد المطلب وقال: أليس بشراً سوياً؟ فقالت نعم، ولكن سقط ساجداً، ثم رفع رأسه وأصبعه إلى السماء،

فأخرجته له ونظر إليه. وأخذه ودخل به الكعبة ثم خرج فدفعه إليها، وبه يظهر التوقف في قول ابن دريد: أكفئت عليه جفنة لئلا يراه أحد قبل جده، فجاء جده والجفنة قد انفلقت عنه، إلا أن يقال يجوز أن يكون جده أخذه بعد انفلاق الجفنة ثم دخل به الكعبة، ثم بعد خروجه به من الكعبة دفعه لها وللنسوة ليضعوه تحت جفنة أخرى إلى أن يصبح، فانفلقت تلك الجفنة الأخرى حتى لا ينافي ذلك ما تقدم عن أمه: فوجدت الإناء قد تفلق وهو يمص إبهامه. وعن إياس الذي يضرب به المثل في الذكاء قال: أذكر الليلة التي وضعت فيها وضعت أمي على رأسي جفنة وقال لأمه ما شيء سمعته لما ولدت؟ قالت يا بني طست سقط من فوق الدار إلى أسفل ففزعت فولدتك تلك الساعة. وقال بعضهم: يولد في كل مائة سنة رجل تام العقل، وإن إياساً منهم ولعل هذا هو المراد بما جاء في الحديث «بيعث الله على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها» والمراد برأسها آخرها بأن يدرك أوائل المائة التي تليها بأن تنقضي تلك المائة وهو حي، إلا أنني لم أقف على أن إياساً هذا كان من المجددين والله أعلم.

وفي تفسير ابن مخلد الذي قال في حقه ابن حزم. ما صنف مثله أصلاً: أن إبليس رن أي صوّت بحزن وكآبة أربع رنات: رنة حين لعن، ورنة حين أهبط، ورنة حين ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي وهو المراد بقول بعضهم يوم بعثه، ورنة حين أنزلت عليه فاتحة الكتاب، وإلى رنته حين ولادته أشار صاحب الأصل بقوله.

لمولده قد رنَّ إبليس رنة
فسحقا له ماذا يفيد رنينه

وعن عطاء الخراساني لما نزل قوله تعالى: {ومن يعمل سوءاً أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً رحيماً} صرخ إبليس صرخة عظيمة اجتمع إليه فيها جنوده من أقطار الأرض قائلين: ما هذه الصرخة التي أفرغتنا؟ قال: أمر نزل بي لمن ينزل قط أعظم منه، قالوا: وما هو؟ فتلا عليهم الآية وقال لهم: فهل عندكم من حيلة؟ قالوا ما عندنا من حيلة، فقال: اطلبوا فإني سأطلب، قال: فليثوا ما شاء الله، ثم صرخ أخرى فاجتمعوا إليه وقالوا: ما هذه الصرخة التي لم نسمع منك مثلها إلا التي قبلها؟ قال: هل وجدتم شيئاً؟ قالوا: لا، قال: لكني قد وجدت؛ قالوا: وما الذي وجدت؟ قال أزين لهم البدع التي يتخذونها ديناً ثم لا يستغفرون: أي لأن صاحب البدعة يراها بجهله حقاً وصواباً ولا يراها ذنباً حتى يستغفر الله منها.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وقد جاء في الحديث «أبى الله أن يقبل عمل صاحب بدعة حتى يدع بدعته» أي لا يثيبه على عمله ما دام متلبساً بتلك البدعة. وعن الحسن قال: بلغني أن إبليس قال: سؤلت لامة محمد المعاصي فقطعوا ظهري بالاستغفار، فسولت لهم ذنباً لا يستغفرون الله منها وهي الأهواء أي البدع.

وقد جاء في الحديث «أخاف على أمتي بعدي ثلاثاً: ضلالة الأهواء» الحديث، وأهل الأهواء هم أهل البدع.

وعن عكرمة أن إبليس لما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأى تساقط النجوم قال أي لجنوده؟ لقد ولد الليلة ولد يفسد علينا أمرنا، وهذا يدل على أن تساقط النجوم كان عند إبليس علامة على وجود نبينا، فقال له جنوده: لو ذهبت إليه فخبلته، فلما دنا من رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث الله جبريل عليه الصلاة والسلام فركضه برجله ركضة وقع بعدن. وكوت تساقط النجوم كان عند إبليس علامة على وجود نبينا، مشكل مع قول بعضهم، لما رجمت الشياطين ومنعت من مقاعدها في السماء لاستراق السمع شكوا ذلك لإبليس، فقال لهم: هذا أمر حدث في الأرض، وأمرهم أن يأتوه بتربة من كل أرض، فصار يشمها إلى أن أتى بتربة من أرض تهامة، فلما شمها قال: من ههنا الحدث، هكذا ساقه بعضهم عند ولادته. إلا أن يقال: لا إشكال لأن تساقط النجوم وإن كان علامة وجود نبينا لكن في أي أرض! على أن بعضهم أنكروا ما ذكر كان عند الولادة. وقد تقدم أن المذكور في كلام غيره إنما هو عند مبعثه كما سيأتي، ولعله من خلط بعض الرواة.

وعبارة بعضهم: روي أن الشياطين كانت تصعد إلى السماء ثم تجاوز سماء الدنيا إلى غيرها، فلما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام، منعوا من مجاوزة سماء الدنيا وصاروا يسترقون السمع في سماء الدنيا حتى ولد نبينا محمد، فمنعوا من التردد إلى السماء إلا قليلاً: أي فصاروا يسترقون السمع في سماء الدنيا في بعض الأحيان، وفي أكثر الأحيان يسترقون دونها حتى بعث النبي صلى الله عليه وسلم فمنعوا أصلاً فصاروا لا يسترقون السمع إلا دون سماء الدنيا، ثم رأيتني نقلت في (الكوكب المنير في مولد البشير النذير) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن الشياطين كانوا لا يحجبون عن السموات، وكانوا يدخلونها ويأتون بأخبارها مما سيقع في الأرض فيلقونها على الكهنة، فلما ولد عيسى عليه الصلاة والسلام حجبوا عن ثلاث سموات. وعن وهب عن أربع سموات، ولما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم حجبوا عن الكل، وحرصت بالشهب فما يريد أحد منهم استراق السمع إلا رمي بشهاب، وسيأتي عند المبعث إيضاح هذا المحل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وقد أخبرت الأخبار والرهبان بليلة ولادته. فعن حسان بن ثابت رضي الله عنه قال: إني لغلام يفعة، أي غلام مرتفع ابن سبع سنين أو ثمان، أعقل ما رأيت وسمعت، إذ بيهودي بيثرب يصبح ذات يوم غداة على أظمة: أي محل مرتفع: يا معشر يهود فاجتمعوا إليه وأنا أسمع وقالوا وبلك، ما لك؟ قال: طلع نجم أحمد الذي ولد به في هذه الليلة: أي الذي طلوعه علامة على ولادته في تلك الليلة في بعض الكتب القديمة، وحسان هذا سيأتي أنه ممن عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الإسلام مثلها، وكذا عاش هذا القدر وهو مائة وعشرون سنة أبوه وجده ووالد جده. قال بعضهم: ولا يعرف أربعة تناسلوا وتساوت أعمارهم سواهم. وكان حسان رضي الله عنه يضرب بلسانه أرنبة أنفه وكذا ابنه وأبوه وجده.

وعن كعب الأحبار رضي الله عنه: رأيت في التوراة أن الله تعالى أخبر موسى عن وقت خروج محمد أي من بطن أمه، وموسى عليه الصلاة والسلام أخبر قومه أن الكوكب المعروف عندكم اسمه كذا إذا تحرك وسار عن موضعه فهو وقت خروج محمد: أي وصار ذلك مما يتوارثه العلماء من بني إسرائيل. وعن عائشة رضي الله عنها قالت: كان يهودي يسكن مكة، فلما كانت الليلة التي ولد فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم قال في مجلس من مجالس قريش: هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقال القوم: والله ما نعلمه، قال: احفظوا ما أقول لكم، ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة الأخيرة: أي وهو منكم معاشر قريش، علي كتفه أي عند كتفه علامة: أي شامة فيها شعرات متواترات، أي متتابعات كأنهن عرف فرس: أي وتلك العلامة هي خاتم النبوة أي علامتها، والدليل عليها لا يرضع لليلتين، وذلك في الكتب القديمة من دلائل نبوته، أي وعدم رضاعه لعله لتوعك يصيبه. وفي كلام الحافظ ابن حجر وأقره تعليلاً لعدم رضاعه: لأن عفريتاً من الجن وضع يده على فيه. وعند قول اليهودي ما ذكر تفرق القوم من مجالسهم وهم متعجبون من قوله، فلما صاروا إلى منازلهم أخبر كل إنسان منهم آله وفي لفظ أهله، فقالوا: لقد ولد الليلة، لعبد الله بن عبد المطلب غلام سموه محمداً، فالتقى القوم حتى جاؤوا لليهودي وأخبروه الخبر: أي قالوا له أعلمت، ولد فينا مولود؟ قال: اذهبوا معي حتى أنظر إليه، فخرجوا حتى أدخلوه على أمه، فقال أخرجي إلينا ابنك، فأخرجته وكشفوا على ظهره فرأى تلك الشامة فخر مغشياً عليه، فلما أفاق قالوا ويلك ما لك؟ قال: والله ذهبت النبوة من بني إسرائيل أفرحتم به يا معشر قريش؟ أما والله ليسطون عليكم سطوة يخرج خبرها من المشرق إلى المغرب.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

أي وعن الواقدي رحمه الله أنه كان بمكة يهودي يقال له يوسف، لما كان اليوم أي الوقت الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يعلم به أحد من قريش قال: يا معشر قريش قد ولد نبي هذه الأمة الليلة في بحرتمكم، أي ناحيتكم هذه، وجعل يطوف في أنديتهم فلا يجد خبراً، حتى انتهى إلى مجلس عبد المطلب فسأل، فقيل له: قد ولد لابن عبد المطلب: أي لعبد الله غلام، فقال، هو نبي والتوراة.

وكان بمصر الظهران راهب من أهل الشام يدعى عيصاً، وقد كان آتاه الله علماً كثيراً وكان يلزم صومعة له، ويدخل مكة فيلقى الناس ويقول: يوشك أي يقرب أن يولد فيكم مولود يا أهل مكة تدين له العرب، أي تذلل وتخضع، ويملك العجم: أي أرضها وبلادها هذا زمانه، فمن أدركه أي أدرك بعثته واتبه أصاب حاجته: أي ما يؤمله من الخير، ومن أدركه وخالفه أخطأ حاجته، فكان لا يولد بمكة مولود إلا ويسأل عنه ويقول ما جاء بعد أي الآن، فلما كان صبيحة اليوم أي الوقت الذي ولد فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج عبد المطلب حتى أتى عيصاً فوقف على أصل صومعته فناداه، فقال: من هذا؟ فقال: أنا عبد المطلب: أي وقيل الجائي له عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم بناء

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

على أنه لم يمت وأمه حامل به: أي ولعل قائله أخذ ذلك من قول الراهب لما قيل له ما ترى عليه، أي على ذلك المولود، فقال: كن أباه فقد ولد ذلك المولود الذي كنت أحدثكم عنه وأن نجمه أي الذي طلوعه علامة على وجوده طلع البارحة، وعلامة ذلك أي أيضاً أنه الآن وجع فيشتكي ثلاثاً ثم يعافى.

أقول: أي ولا يرضع في تلك الثلاث ليلتين، فلا يخالف ما سبق من قول الآخر لا يرضع ليلتين، ولا دلالة في قوله كن أباه على أن الجائي للراهب عبد الله، لأن عبد المطلب كان يقال له أبو النبي، ويقال للنبي ابن عبد المطلب، وقال النبي: «أنا ابن عبد المطلب» كما تقدم والله أعلم ثم قال له فاحفظ لسانك: أي لا تذكر ما قلته لك لأحد من قومك، فإنه لم يحسد حسده أحد، ولم يبع على أحد كما يبغى عليه. قال فما عمره؟ قال: إن طال عمره لم يبلغ السبعين يموت في وتر دونها في إحدى وستين أو ثلاث وستين، زاد في رواية وذلك جل أعمار أمته.

وعند ولادته تنكست الأصنام أي أصنام الدنيا، وتقدم أيضاً أنها تنكست عند الحمل به، وتقدم أنه لا مانع من تعدد ذلك. وجاء أن عيسى عليه السلام لما وضعت أمه خر كل شيء يعبد من دون الله في مشارق الأرض ومغاربها ساجداً لوجهه وقرع إبليس. فعن وهب بن منبه: لما كانت الليلة التي ولد فيها عيسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم أصبحت الأصنام في جميع الأرض منكسة على رؤوسهم، وكلما ردوها على قوائمها، انقلبت، فحارت الشياطين لذلك ولم تعلم السبب فشكت إلى إبليس، فطاف إبليس في الأرض ثم عاد إليهم، فقال: رأيت مولوداً والملائكة قد حفت به فلم أستطع أن أدنو إليه، وما كان نبي قبله أشد علي وعليكم منه، وإني لأرجو أن أضل به أكثر ممن يهتدي به.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

أقول: قد علمت أن تنكيس الأصنام تكرر لنبينا محمد عند الحمل وعند الولادة، فالخاص به ما كان عند الحمل لا ما كان عند الولادة، لمشاركة عيسى عليه السلام في ذلك، وبهذا يعلم ما في قول الجلال السيوطي في خصائصه الصغرى إن من خصائصه تنكيس الأصنام لمولده.

وعن عبد المطلب قال: كنت في الكعبة فرأيت الأصنام سقطت من أماكنها وخرت سجداً، وسمعت صوتاً من جدار الكعبة يقول: ولد المصطفى المختار الذي تهلك بيده الكفار، ويطهر من عبادة الأصنام، ويأمر بعبادة الملك العلام. ولا يقال: قال إبليس في حق عيسى عليه السلام لا أستطيع أن أدنو إليه، وتقدم في حق نبينا أن إبليس دنا منه فركضه جبريل عليه السلام. لأننا نقول يجوز أن يكون الدنو في حق نبينا دنوا إلى محله الذي هو فيه لا إلى جسده، والدنو المنفي في حق عيسى عليه السلام دنو إلى جسده.

فإن قيل: جاء في الحديث «ما من مولود إلا يمسه الشيطان حين يولد فيستهل صارخاً إلا مريم وابنها» رواه الشيخان: أي لقول أم مريم {إنني أعيدنها بك وذريتها من الشيطان الرجيم} وفي رواية «كل ابن آدم يطعن

الشیطان في جنبه بأصبعه حين يولد غير عيسى ابن مريم، ذهب يطعن فطعن الحجاب» وهي المشيمة التي يكون فيها الولد، ولعل المراد بجنبه جنبه الأيسر. وعن قتادة: «كل مولود يمسه الشيطان بأصبعه في جنبه فيستهل صارخاً إلا عيسى ابن مريم وأمه مريم ضرب الله عليهما حجاباً، فأصابت الطعنة الحجاب فلم ينفذ إليهما من شيء» ولعل هذا الحجاب هو المشيمة. ويحتمل أن يكون غيرها.

قلت: وجاء عن مجاهد: «أن مثل عيسى في عدم طعن الشيطان في جسده حين يولد سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام» وذلك لا يقال من قبل الرأي. وعلى تقدير صحة ذلك يكون تخصيص عيسى وأمه بالذكر كان قبل أن يعلم بأن سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كعيسى وأمه.

وهذا الكلام يرد بيان القاضي عياض للضرر المنفي في قوله: «من قال إذا أراد أن يأتي أهله بسم الله، اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فإنه إن قدر بينهما في ذلك الوقت ولد من ذلك الجماع لم يضره الشيطان أبداً» بأن المراد أنه لا يطعن فيه عند ولادته، بخلاف غيره، وهذا: أي عدم قرب من نبينا يجوز أن يكون في حق خصوص إبليس، فلا ينافي ما تقدم عن الحافظ ابن حجر أن عدم ارتضاعه في ليلتين بوضع عفريت من الجن يده في فيه على تسليم صحته.

وصاحب الكشف أخرج المس ومثله الطعن عن حقيقته وقال: المراد به طمع الشيطان إغوائه، وتبعه القاضي على ذلك، وسيأتي في شق صدره كلام يتعلق بذلك.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وفي كلام الشيخ محيي الدين بن العربي: اعلم أنه لا بد لجميع بني آدم من العقوبة والألم شيئاً بعد شيء إلى دخولهم الجنة، لأنه إذا نقل إلى البرزخ فلا بد له من الألم، أدناه سؤال منكر ونكير، فإذا بعث فلا بد له من ألم الخوف على نفسه أو غيره، وأول الألم في الدنيا استهلال المولود حين ولادته صارخاً، لما يجده من مفارقة الرحم وسخونته، فيضربه الهواء عند خروجه من الرحم، فيحس بالبرد فيكي، فإن مات فقد أخذ حظه من البلاء. وقال بعد ذلك في قوله تعالى حكاية عن عيسى عليه الصلاة والسلام (والسلام علي يوم ولدت): معناه السلامة من إبليس الموكل بطعن الأطفال عند الولادة حين يصرخ الولد إذا خرج من طعنته، فلم يصرخ عيسى عليه السلام بل وقع ساجداً لله حين خرج، فليتأمل هذا مع قوله إن استهلال المولود وصراخه حين يولد لحسه ألم البرد الذي يجده بعد مفارقة سخونة الرحم. وقوله: بل وقع ساجداً يدل على أن سجود نبينا حين ولد ليس من خصائصه والله أعلم.

وذكر أن نفرأً من قريش منهم ورقة بن نوفل وزيد بن عمرو بن نفيل وعبد الله بن جحش كانوا يجتمعون إلى صنم، فدخلوا عليه ليلة ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم فراوه منكساً على وجهه، فأنكروا ذلك، فأخذه فردوه إلى حاله، فانقلب انقلاباً عنيماً فردوه فانقلب كذلك الثالثة، فقالوا: إن هذا الأمر حدث،

ثم أنشد بعضهم أبياتاً يخاطب بها الصنم ويتعجب من أمره: ويسأله فيها عن سبب تنكسه، فسمع هاتفاً من جوف الصنم بصوت جهير أي مرتفع يقول:
تردى لمولود أضاءت بنوره
جميع فجاج الأرض بالشرق والغرب
الأبيات.

وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله:

وتوالت بشرى الهواتف أن قد
ولد المصطفى وحق الهناء

أي تتابعت بشارة الهواتف جمع هاتف، وهو ما يسمع صوته، ولا يرى شخصه، بأن قد ولد المصطفى المختار على الخلق كلهم، وثبت لهم الفرح والسرور. وليلة ولادته تزلزلت الكعبة، ولم تسكن ثلاثة أيام ولياليهن وكان ذلك أول علامة رأت قريش من مولد النبي، وارتجس: أي اضطرب وانشق إيوان كسرى أنو شروان. ومعنى أنو شروان: مجدد الملك: أي وكان بناءً محكمًا مبنياً بالحجارة الكبار والجص بحيث لا تعمل فيه الفؤوس؟ مكث في بنائه نيفاً وعشرين سنة: أي وسمع لشقه صوت هائل، وسقط من ذلك الإيوان أربع عشرة شرفة بضم الشين المعجمة وسكون الراء، أي وليس ذلك لخلل في بنائه، وإنما أراد الله تعالى أن يكون ذلك آيةً لنبيه باقية على وجه الأرض.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

أي وقد ذكر أن الرشيد أمر وزيره يحيى بن خالد البرمكي: أي والد جعفر والفضل بهدم إيوان كسرى، فقال له يحيى: لا تهدم بناءً دل على فخامة شأن بانيه، قال: بلى يا مجوسي، ثم أمر بنقضه، فقدر له نفقة على هدمه، فاستكثرها الرشيد، فقال له يحيى ليس يحسن بك أن تعجز عن هدم شيء بناه غيرك.

هذا والذي رأيته في بعض المجاميع أن المنصور لما بنى بغداد أحب أن ينقض إيوان كسرى. فإن بينه وبينها مرحلة وبينه به، فاستشار خالد بن برمك، فنهاه وقال: هو آية الإسلام ومن رآه علم أن من هذا بناؤه لا يزول أمره، وهو مصلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه والمثونة في نقضه أكثر من الإنفاق عليه، ولا مانع من تكرار طلب نقضه من المنصور ومن ولد ولده الرشيد. وإنما قال الرشيد ليحيى بن خالد يا مجوسي، لأن جده والد خالد البرمكي وهو برمك كان من خراسان، وكان أولاً مجوسياً ثم أسلم، وكان كاتباً عارفاً محصلاً لعلوم كثيرة، جاء إلى الشام في دولة بني أمية، فاتصل بعبد الملك بن مروان، فحسن موقعه عنده وعلا قدره. ثم لما أن زالت دولة بني أمية وجاءت دولة بني العباس صار وزيراً للسفاح، ثم لأخيه المنصور من بني العباس، ورأيت عن برمك هذا حكاية عجيبة، وهي أنه سار إلى زيارة ملك الهند، فأكرمه وأنس به وأحضر له طعاماً وقال كل، فأكلت حتى انتهيت، فقال لي كل، فقلت لا أقدر والله أيها الملك، فأمر بإحضار قضيب فأخذه الملك وأمر به على صدري فكأنني لم أكل شيئاً قط، ثم أكلت أكلاً كثيراً حتى انتهيت، فقال لي كل، فقلت لا والله لا أقدر أيها الملك، فأمر بالقضيب على صدري فكأنني لم أكل شيئاً قط، فأكلت حتى انتهيت، فقال لي كل، فقلت والله ما أقدر على ذلك، فأراد أن يمر بالقضيب على صدري، فقلت أيها الملك إن الذي دخل يحتاج إلى أن يخرج،

فقال: صدقت، وأمسك عني، فسألته عن القضيب، فقال: تحفة من تحف الملوك.

ومما يحفظ عن يحيى بن خالد هذا زيادة علي ما تقدم عنه: إذا أحببت إنساناً من غير سبب فارح خيره، وإذا أبغضت إنساناً من غير سبب فتوق شره.

ومما يحفظ عنه أيضاً وقد قال له ولده وأظنه الفضل، وقد كان معه مقيداً في حبس الرشيد بعد قتله لولده جعفر وصلبه ونهبه أموال البرامكة ومن يلوذ بهم: يا أبت بعد العز ونفوذ الكلمة صرنا إلى هذه الحالة، فقال: يا ولدي دعوة مظلوم سرت ليلاً غفلنا عنها وما غفل الله عنها: أي فقد قال أبو الدرداء: إياكم ودمعة اليتيم ودعوة المظلوم، فإنها تسري بالليل والناس نيام.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86
أي ولأن الله تعالى يقول: «أنا أظلم الظالمين إن غفلت عن ظلم الظالم» وقد قال: «اتق دعوة المظلوم فإنما يسأل الله حقه، وإن الله تعالى لن يمنع ذا حق حقه» وجاء «اتق دعوة المظلوم فإنها ليس بينها وبين الله حجاب» وجاء «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تحمل على الغمام، يقول الله: وعزتي وجلالي لأنصرك ولو بعد حين» والمراد بالغمام: الغمام الأبيض الذي فوق السماء السابعة، المعني بقوله تعالى: {ويوم تشقق السماء بالغمام} أي لا تقوى على حمله إذا سقط. ونصر دعوة المظلوم: استجابتها ولو بعد زمن طويل، فهو سبحانه وتعالى وإن أمهل الظالم لا يهمله، وجاء «اتقوا دعوة المظلوم فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرارة» أي تصعد إلى السماء السابعة فما فوقها وجاء «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافراً فإنه ليس دونها حجاب».

وقد قال القائل:

تنام عينك والمظلوم منتبه

يدعو عليك وعين الله لم تنم

ومما قيل في يحيى بن خالد هذا من المدح البليغ:

سألت الندى هل أنت حر فقال لا

ولكنني عبد ليحيى بن خالد

فقلت شراء؟ قال لا بل وراثة

توارثني من والد بعد والد

ومما يحفظ عن والده خالد: التهئة بعد ثلاث استخفاف بالمولود، ومما يحفظ

عن جعفر ولد يحيى قوله: شر المال ما لزمك الإثم في كسبه، وحرمت الأجر

في إنفاقه، وقوله: المسىء لا يظن في الناس إلا سوءاً لأنه يراهم بعين طبعه.

ومما قيل في جعفر من المدح قول الشاعر:

تروم الملوك ندى جعفر

ولا يصنعون كما يصنع

وليس بأوسعهم في الغني

ولكن معروفه أوسع

وخمدت نار فارس أي مع إيقاد خدامها لها: أي كتب له صاحب فارس: إن بيوت

النار خمدت تلك الليلة ولم تخمد قبل ذلك بألف عام. وغاضت أي غارت بحيرة ساوة أي بحيث صارت يابسة كأن لم يكن بها شيء من الماء مع شدة اتساعها: أي كتب له بذلك عامه باليمن، وإلى هذا يشير صاحب الأصل بقوله:

لمولده إيوان كسرى تشققت
مبانيه وانحطت عليه شؤونه
لمولده خرت على شرفاته
فلا شرف للفرس يبقى حصينه
لمولده نيران فارس أخدمت
فنورهم إخماده كان حينه
لمولده غاضت بحيرة ساوة
وأعقب ذاك المدّ جور يشينه
كأن لم يكن بالأمس ربا لناهل
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

ووردت لعين المستهام معينه
وإلى ذلك أيضاً يشير صاحب الهمزية رحمه الله بقوله:

وتداعى إيوان كسرى ولولا
أية منك ما تداعى البناء
وغدا كل بيت نار وفيه
كربة من خمودها وبلاء
وعيون للفرس غارت فهل كا
ن لنيرانهم بها إطفاء

أي ومن العجائب التي ظهرت ليلة ولادته انهدام إيوان كسرى أنو شروان الذي كان يجلس به مع أرباب مملكته، وكان من أعاجيب الدنيا سعة وبناء وإحكام، ولولا وجود علامة صادرة عنك إلى الوجود ما تهدم هذا البناء العجيب الإحكام. ومن ذلك أيضاً أنه صار تلك الليلة كل واحد من بيوت نار فارس التي كانوا يعبدونها خامدة نيرانه والحال أن في ذلك البيت غماً وبلاء عظيماً من أجل سكون لهب تلك النيران التي كانوا يعبدونها في وقت واحد. ومن ذلك أيضاً غور ماء عيون الفرس في الأرض حتى لم يبق منها قطرة. وحينئذ يستفهم توبيخاً وتقريعاً لهم، فيقال: هل تلك المياه التي غارت كان بها إطفاء لتلك النيران؟ ويقال في جوابه، لا بل إطفأؤها إنما هو لوجود هذا النبي العظيم وظهوره.

ورأى الموبدان: أي القاضي الكبير. وفي كلام ابن المحدث، هو خادم النار الكبير ورئيس حكامهم، وعنه يأخذون مسائل شرائعهم، ورأى في نومه إبلاً صعباً تقود خيلاً عرباباً: أي وهي خلاف البرادين، قد قطعت دجلة، أي وهي نهر بغداد، وانتشرت في بلادها، أي والإبل كناية عن الناس، ورأى كسرى ما هاله وأفزعه أي الذي هو ارتجاس الإيوان وسقوط شرافاته، فلما أصبح تصبر: أي لم يظهر الانزعاج لهذا الأمر الذي رآه تشجعاً، ثم رأى أنه لا يدخر ذلك: أي هذا الأمر الذي هاله وأفزعه عن مرابته بضم الزاي: أي فرسانه وشجعانه، فجمعهم ولبس تاجه وجلس على سريره، ثم بعث إليهم، فلما اجتمعوا عنده قال: أتدرون فيما بعثت إليكم؟ قالوا لا إلا أن يخبرنا الملك، فبينما هم كذلك إذ

ورد عليهم كتاب بخمود النيران، أي وورد عليه كتاب من صاحب إيليا يخبره أن بحيرة ساوة غاصت تلك الليلة. وورد عليه كتاب صاحب الشام يخبره أن وادي السماوة انقطع تلك الليلة. وورد عليه كتاب صاحب طبرية يخبره أن الماء لم يجر في بحيرة طبرية، فازداد غمًا إلى غمه، ثم أخبرهم بما رأي وما هاله: أي وهو ارتجاس الإيوان وسقوط شرافاته، فقال الموبذان، فانا - أصلح الله الملك - قد رأيت في هذه الليلة رؤيا ثم قص عليه رؤياه في الإبل، فقال أي شيء يكون هذا يا موبذان؟ قال: حدث يكون في ناحية العرب، فابعث إلى عاملك بالبحيرة يوجه إليك رجلاً من علمائهم، فإنهم أصحاب علم بالحدثان. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

فكتب كسرى عند ذلك: من كسرى ملك الملوك إلى النعمان بن المنذر، أما بعد: فوجه إليّ رجل عالم بما أريد أن أسأله عنه، فوجه إليه بعبد المسيح الغساني: أي وهو معدود من المعمرين، عاش مائة وخمسين سنة فلما ورد عليه قال: ألك علم بما أريد أن أسألك عنه، قال ليسألني الملك عما أحب، فإن كان عندي علم منه، وإلا أخبرته بمن يعلمه، فأخبره بالذي وجه إليه فيه، قال علم ذلك عند خالي يسكن مشارف الشام بالفاء: أي أعاليها: أي وهي الجابية المدينة المعروفة، يقال له سطيح، قال فآته فأسأله عما سألتك عنه، ثم اتتني بتفسيره، فخرج عبد المسيح حتى انتهى إلى سطيح وقد أشفى أي أشرف على الضريح. أي الموت: أي احتضر، وعمره إذ ذاك ثلثمائة سنة، وقيل سبعمائة سنة: أي ولم يذكره ابن الجوزي في المعمرين، وكان جسداً ملقى لا جوارح له، وكان لا يقدر على الجلوس إلا إذا غضب فإنه ينتفخ فيجلس، وكان وجهه في صدره، ولم يكن له رأس ولا عنق. وفي كلام غير واحد: لم يكن له عظم سوى عظم رأسه وفي لفظ لم يكن له عظم ولا عصب إلا الجمجمة والكفين، ولم يتحرك منه إلا اللسان، قيل لكونه مخلوقاً من ماء امرأة لأن ماء الرجل يكون منه العظم والعصب: أي كما سيأتي عنه من قوله: «نطفة الرجل يخلق منها العظم والعصب، ونطفة المرأة يخلق منها اللحم والدم». قال ذلك لما سأله اليهود فقالوا له: مم يخلق الولد؟ فلما قال لهم ما ذكر، قالوا له: هكذا كان يقول من قبلك: أي من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وفيه أن عيسى عليه الصلاة والسلام على تسليم أنه خلق من نطفة وهي نطفة أمه كان فيه العظم والعصب.

فقد قيل: تمثل لها الملك في صفة شاب أمرّد حتى انحدرت شهوتها إلى أقصى رحمها، وقيل لم يخلق من نطفة أصلاً. وقد صرح بالأول الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله حيث قال: أنكر الطبيعيون وجود ولد من ماء أحد الزوجين دون الآخر، وذلك مردود عليهم بعيسى عليه السلام فإنه خلق من ماء أمه فقط، وذلك أن الملك لما تمثل لها بشراً سوياً لشدة اللذة بالنظر إليه، فنزل الماء منها إلى الرحم، فتكون عيسى عليه السلام من ذلك الماء المتولد عن النفخ الموجب للذة منها، فهو من ماء أمه فقط هذا كلامه. أي وكون سطيح كان وجهه في صدره لم يختص سطيح بهذا الوصف. فقد

رأيت أن عمراً ذا الأذعار إنما قيل له ذلك لأنه سبى أمة وجوهها في صدورهم
فذعرت الناس منهم وعمرو هذا كان في زمن سليمان بن داود عليهما السلام،
وقيل قبله بقليل، وملكت بعده بلقيس بعد قتلها له.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وكان لسطيح سرير من الجريد والخوص إذا أريد نقله إلى مكان يطوي من
رجليه إلى ترقوته. وفي لفظ إلى جمجمته كما يطوى الثوب، فيوضع على ذلك
السرير فيذهب إلى حيث يشاء، وإذا أريد استخباره ليخبر عن المغيبات يحرك
كما يحرك وطب المخيض: أي سقاء اللبن الذي يخض ليخرج زبده، فينتفخ
ويمتلئ ويعلوه النفس، فيسال فيخبر عما يسأل عنه، وكانت جمجمته إذا
لمست أثر اللمس فيها للينها.

قيل وهو أول كاهن كان في العرب، وهذا يدل على أنه سابق على شق. وقد
تقدم في حفر زمزم أن الكاهنة التي ذهب إليها عبد المطلب وقريش
ليتحاكموا عندها تفلت في فم سطيح وفم شق، وذكرت أن سطيحاً يخلفها،
ومن ثم قال بعضهم: لم يكن أحد أشرف في الكهانة، ولا أعلم بها ولا أبعدها
صيناً من سطيح وكان في غسان.

وذكر بعضهم أن سطيحاً كان في زمن نزار بن معد بن عدنان، وهو الذي قسم
الميراث بين بني نزار وهم مضر وإخوته، وهو يؤيد ما تقدم من أنه عمر
سبعمئة سنة، ثم شق وعبد المسيح، وهؤلاء كانوا رؤوس الكهنة وأهل العلم
الغامض منهم بالكهانة: أي وإلا فمنهم أي من أهل العلم الغامض: مسيلمة
الكذاب في بني حنيفة، وسجاح كانت في بني تميم، وسجاح أخرى كانت في
بني سعد. والكهانة: هي الإخبار عن الغيب، والكهانة من خواص النفس
الإنسانية، لأن لها استعداداً للانسلاخ من البشرية إلى الروحانية التي فوقها.
فسلم عبد المسيح على سطيح وكلمه، فلم يرد عليه سطيح جواباً، فأنشأ عبد
المسيح يقول: أصم أم يسمع عطريف اليمن: أي سيدهم إلى آخر أبيات
ذكرها، فلما سمع سطيح شعر عبد المسيح رفع رأسه.

أقول: قد يقال لا منافاة بين إثبات الرأس هنا، ونفيه في قوله: ولم يكن له
رأس، لأنه يجوز أن يكون المراد بالرأس المثبت الوجه، لكن قد تقدم أنه لم
يكن له عظم سوى ما في رأسه أو الجمجمة، ففي ذلك إثبات الرأس.
وقد يقال: لما كان رأسه وتلك الجمجمة يؤثر فيها اللمس لئيهما لمخالفتها
لرأس غيره ساغ إثبات الرأس له ونفيه عنه والله أعلم. وعند رفع رأسه قال:
عبد المسيح، على جمل مشيح: أي سريع إلى سطيح، وقد وافى على الضريح:
أي القبر، والمراد به الموت كما تقدم. بعثك ملك ساسان، لارتجاس الإيوان،
وخمود النيران، ورؤيا الموبدان. رأى إبلاً صعباً، تقود خيلاً عراباً، قد قطعت
دجلة وانتشرت في بلادها يا عبد المسيح إذا كثرت التلاوة، أي تلاوة القرآن،
وظهر صاحب الهراوة، وغاصت بحيرة ساوة، وخدمت نار فارس، فليست بابل
للفرس مقاماً، ولا الشام لسطيح شاماً يملك منهم ملوك وملكات، على عدد
الشرفات، وكل ما هو آت آت. ثم قضى سطيح مكانه: أي مات من ساعته.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

والهراوة بكسر الهاء: وهي العصا الضخمة: أي وهو النبي ، لأنه كان يمسك العصا كثيراً عند مشيه. وكان يمشي بالعصا بين يديه وتغرّز له فيصلي إليها التي هي العنزة. وفي الحديث «حمل العصا علامة المؤمن، وسنة الأنبياء» وفي الحديث «من بلغ أربعين سنة ولم يأخذ العصا عدله» أي عدم أخذ العصا «من الكبر والعجب».

وقد يقال: مراد سطيح بالعصا العنزة التي تغرّز ويصلي إليها في غير المسجد، لأنه لم يحفظ أن ذلك كان لمن قبله من الأنبياء.

وذكر الطبري أن أبرويز بن هرمز جاء له جاء في المنام فقبل له: سلم ما في يدك إلى صاحب الهراوة، فلم يزل مدعوراً من ذلك حتى كتب إليه النعمان بظهور النبي صلى الله عليه وسلم بهتامة، فعلم أن الأمر سيصير إليه. وعند موت سطيح نهض عبد المسيح إلى راحلته وهو يقول شعراً منه:

شمر فإنك ماضي العزم شمير

ولا يغرنك تفريق وتغيير

والناس أولاد علات فمن علموا

أن قد أقل فمحقور ومهجور

وهم بنو الأم أما إن رأوا نشبا

فذاك بالغيب محفوظ ومنصور

والخير والشر مقرونان في قرن

فالحير متبع والشر محذور

فلما قدم عبد المسيح على كسري وأخبره بما قاله سطيح، قال له كسري: إلى أن يملك منا أربعة عشر ملكاً كانت أمور وأمور، فملك منهم عشرة في أربع سنين، وملك الباقون إلى خلافة عثمان رضي الله عنه: أي فقد ذكر أن آخر من هلك منهم كان في أول خلافة عثمان رضي الله عنه (). أي وكانت مدة ملكهم ثلاثة آلاف سنة ومائة سنة وأربعاً وستين سنة.

ومن ملوك بني ساسان سابورد والأكتاف، قيل له ذلك، لأنه كان يخلع أكتاف من ظفر به من العرب. ولما جاء لمنازل بني تميم وجددهم فروا منه ومن جيشه، ووجد بها عمير بن تميم وهو ابن ثلاثمائة سنة، وكان معلقاً في قفة لعدم قدرته على الجلوس، فأخذ وجيء به إليه، فاستنطقه فوجد عنده أدباً ومعرفة، فقال للملك: أيها الملك لم تفعل فعلك هذا بالعرب؟ فقال: يزعمون أن ملكنا يصير إليهم على يد نبي يبعث في آخر الزمان فقال له عمير: فأين حلم الملوك وعقلهم؟ إن يكن هذا الأمر باطلاً فلن يضرّك، وإن يكن حقاً ألفوك ولم تتخذ عندهم يداً يكافئونك عليها ويعظمونك بها في دولتك، فانصرف سابورد وترك تعرضه للعرب، وأحسن إليهم بعد ذلك.

وقول سطيح يملك منهم ملوك وملكات، لم أقف على أنه ملك منهم من النساء إلا واحدة وهي بوران ولما بلغه ذلك قال: «لا يفلح قوم ملكتهم امرأة» فملك سنة ثم هلك.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وذكر ابن إسحاق رحمه الله أن أمه لما ولدته أرسلت خلف جده عبد المطلب إنه قد ولد لك غلام فانظر إليه، فأناه ونظر إليه وحدثته بما رأته، فأخذه عبد المطلب ودخل به الكعبة: أي وقام يدعو الله: أي وأهله يؤمنون ويشكر له ما

أعطاه. ثم خرج به إلى أمه فدفعه إليها، وقد تقدم الوعد بذلك وتقدم ما فيه. قال وتكلم في المهد في أوائل ولادته. وأول كلام تكلم به أن قال: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً أه.
أقول: وتقدم أنه قال حين ولد: جلال ربي الرفيع، كما أورده السهيلي عن الواقدي وروي أنه تكلم حين خروجه من بطن أمه، فقال: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً.
ولا مانع من تكرار ذلك حين خروجه وحين وضعه في المهد وأنه زاد في المرة الثالثة وسبحان الله بكرة وأصيلاً، وحينئذ يكون تكلمه حين خروجه من بطن أمه لم يشاركه فيه غيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إلا الخليل وإلا نوح كما سيأتي، بخلاف تكلمه في المهد.

على أنه سيأتي أنه يجوز أن يكون المراد بالتكلم في المهد التكلم في غير أوان الكلام ويقال: إنه قال ذلك عند فطامه، وتقدم أنه قال: الحمد لله لما عطس على الاحتمال الذي أبداه بعضهم كما تقدم بما فيه.
ولا مانع من وجود هذه الأمور الثلاثة التي هي: جلال ربي الرفيع، والله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً حين ولادته، وعلم ترتيبها يتوقف على نقل، وحينئذ تكون الأولية في الواقعة في بعض ذلك إما حقيقية أو إضافية.
وقد منا أن الأولية في قوله جلال ربي الرفيع بالنسبة لقوله: الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً إضافية.
قال وقد تكلم جماعة في المهد نظمهم الجلال السيوطي رحمه الله تعالى في قوله:

تكلم في المهد النبي محمد
ويحيى وعيسى والخليل ومريم
ومبري جريج ثم شاهد يوسف
وطفل لدى الأخدود يرويه مسلم
وطفل عليه مر بالامة التي
يقال لها تزني ولا تتكلم
وماشطة في عهد فرعون طفلاً
وفي زمن الهادي المبارك يختم
أه.

قال بعضهم لكن هو حصر من تكلم في المهد في ثلاثة ولم يذكر نفسه، أي فقد روي عن أبي هريرة مرفوعاً «لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة: عيسى وصاحب جريج، وابن المرأة التي مر عليها بامرأة يقال لها إنها زنت» وقد يقال: هذا الحصر إضافي أي ثلاثة من بني إسرائيل، أو أن ذلك كان قبل أن يعلم مما زاد.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وذكر أن عيسى عليه الصلاة والسلام تكلم في المهد وهو ابن ليلة. وقيل وهو ابن أربعين يوماً أشار بسبابته وقال بصوت رفيع إني عبد الله لما مر بنو إسرائيل على مريم عليها السلام وهي حاملة له وأنكروا عليها ذلك، وأشارت

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

إليهم أن كلموه وضربوا بأيديهم على وجوههم تعجباً و{قالوا كيف نكلم من كان في المهد صبيّاً} قال لهم ما قصة الله سبحانه وتعالى، ثم رأيتني في الكلام على قصة الإسراء والمعراج ذكرت ذلك، وأن عيسى تكلم يوم ولادته، قال لابن خال أمه يوسف النجار وقد خرج في طلب أمه وقد خرجت لما أخذها ما يأخذ النساء من الطلق عند الولادة خارج بيت المقدس، وجلست تحت نخلة يابسة، فاحضرت النخلة من ساعتها وتدلت عراجينها وجرت من تحتها عين ماء ووضعت تحتها: أبشريا يوسف وطب نفساً وقر عيناً، فقد أخرجني ربي من ظلمة الأرحام إلى ضوء الدنيا، وسأتي بني إسرائيل وأدعوهم إلى طاعة الله، فانصرف يوسف إلى زكريا عليه الصلاة والسلام وأخبره بولادة مريم وقول ولدها ما ذكر.

وفي النطق المفهوم أن عيسى عليه الصلاة والسلام كلم يوسف المذكور وهو في بطن أمه.

فقد قيل: إنه أول من علم بحمل مريم عليها السلام، فقال لها مفرعاً لها: يا مريم هل تنبت الأرض زرعها من غير بذر؟ وهل يكون ولد من غير فحل؟ فقال له عيسى عليه الصلاة والسلام وهو في بطن أمه: قم فانطلق إلى صلاتك، واستغفر الله مما وقع في قلبك.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن عيسى عليه الصلاة والسلام تكلم في المهد ثلاث مرات ثم لم يتكلم حتى بلغ المدة التي يتكلم فيها الصبيان عادة: أي ولعل المرة الثالثة هي التي حمد الله فيها بحمد لم تسمع الأذان مثله، فقال: اللهم أنت القريب في علوك المتعالي في دنوك، الرفيع على كل شيء من خلقك، حارت الأبصار دون النظر إليك.

ومبري جريح تكلم كذلك أي في بطن أمه، قيل له: من أبوك، فقال الراعي عبد بني فلان، وتكلم بعد خروجه من بطن أمه، فقد تكلم مرتين مرة في بطن أمه ومرة وهو طفل كذا في (النطق المفهوم) ولم أقف على وقت كلامه، ولا على ما تكلم به حينئذ.

وأما يحيى عليه الصلاة والسلام فتكلم وهو ابن ثلاث سنين، قال لعيسى: أشهد أنك عبد الله ورسوله.

والخليل تكلم وقت ولادته، وسيأتي ما تكلم به، وفي كون ابن ثلاث سنين وفي كون من تكلم وقت ولادته يكون في المهد نظر، إلا أن يكون المراد بالتكلم في المهد التكلم في غير أوان الكلام.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

ولم أقف على سن من تكلم في المهد حين تكلم غير من ذكر وغير الطفل الذي لذي الأخدود، فإنه لما جاءه بأمه لتلقي في نار الأخدود لتكفر وهو معها مرضع: فتقاعست قال لها: يا أماه اصبري فإنك على الحق: قال ابن قتيبة: كان سنه سبعة أشهر. وفي (النطق المفهوم) أن شاهد يوسف الصديق عليه الصلاة والسلام كان عمره شهرين وكان ابن داية زليخا.

وفي الخصائص الصغرى: وخص بكلام الصبيان في المراضع، وشهادتهم له بالنبوة، ذكر ذلك البدر الدماميني رحمه الله، هذا كلامه، وفيه نظر، لأنه لم يشهد له بالنبوة من هؤلاء إلا مبارك اليمامة حسبما وقفت عليه.

ورأيت في الأجوبة المسكتة لابن عون رحمه الله «أن اليهود قالوا للنبي :

ألمت لم تزل نبياً؟ قال نعم، قالوا: فلم لم تنطق في المهد كما نطق عيسى؟ قال: إن الله خلق عيسى من غير فحل، فلولا أنه نطق في المهد لما كان لمريم عذر وأخذت بما يؤخذ به مثلها، وأنا ولدت بين أبوين» هذا كلامه، وهو يخالف ما تقدم من أنه تكلم في المهد إلا أن يقال مرادهم لِمَ لَمْ تنطق في المهد بمثل الذي نطق به عيسى، أو أن ذلك منه إرخاء للعنان فليتأمل.

ثم رأيت أن إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لما سقط على الأرض استوى قائماً على قدميه وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، الحمد لله الذي هدانا لهذا.

قال في (النطق المفهوم) ولد بالغار الذي ولد به نوح وإدريس عليهما الصلاة والسلام ويقال لهذا الغار في التوراة غار النور، ويضم لهؤلاء ما ذكره الشيخ محيي الدين بن العربي رحمه الله قال: قلت لبنتي زينب مرة وهي في سن الرضاعة قريباً عمرها من سنة ما تقولين في الرجل بجامع حليلته ولم ينزل؟ فقالت يجب عليه الغسل فتعجب الحاضرون من ذلك، ثم إنني فارقت تلك البنت وغيت عنها سنة في مكة وكنت أذنت لوالدتها في الحج، فجاءت مع الحج الشامى، فلما خرجت لملاقاتها رأيتني من فوق الجمل وهي ترضع، فقالت بصوت فصيح قبل أن تراني أمها هذا أبي، وضحكت وأرمت نفسها إلي. قال: وقد رأيت أي علمت من أجاب أمه بالتشميت وهو في بطنها حين عطست وسمع الحاضرون كلهم صوته من جوفها شهد عندي الثقات بذلك، قال: وهذا واحد يخصه الله بعلمه وهو في بطن أمه ولا يحجبك قوله تعالى: {والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً} لأنه لا يلزم من العالم حضوره مع علمه دائماً.

و(في النطق المفهوم) أن يوسف صلوات الله وسلامه عليه تكلم في بطن أمه فقال: أنا المفقود والمغيب عن وجه أبي زمنًا طويلاً، فأخبرت أمه والده بذلك، فقال لها: اكتمي أمرك.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

وفيه أن نوحاً عليه الصلاة والسلام تكلم عقب ولادته، فإن أمه ولدتها في غار خوفاً على نفسها وعليه فلما وضعته وأرادت الانصراف قالت وانوحاه، فقال لها لا تخافي أحداً علي يا أمه، فإن الذي خلقني يحفظني. وفيه أن أم موسى عليه الصلاة والسلام لما وضعت موسى استوى قاعداً وقال: يا أمه لا تخافي، أي من فرعون، إن الله معنا.

ومبارك اليمامة قال بعض الصحابة، دخلت داراً بمكة فرأيت فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمعت فيها عجباً: جاءه رجل بصبي يوم ولد وقد لفه في خرقة فقال له النبي، يا غلام من أنا؟ قال الغلام بلسان طلق: أنت رسول الله، قال صدقت بارك الله فيك. ثم إن الغلام لم يتكلم بشيء فكنا نسلمه مبارك اليمامة. وكانت هذه القصة في حجة الوداع، وكان يناغي القمر وهو في مهده: أي يحدثه يقال ناغت المرأة الصبي إذا كلمته بما يسره ويعجبه، وعد ذلك من خصائصه. ففي حديث فيه مجهول، وقيل فيه إنه غريب المتن

والإسناد، عن عمه العباس رضي الله عنه أنه قال يا رسول الله دعاني إلى الدخول في دينك إشارة أي علامة نبوتك، رأيتك في المهدي تناغي القمر: أي تحدثه، فتشير إليه بأصبعك، فحيثما أشرت إليه مال قال: كنت أحدثه ويحدثني، ويلهيني عن البكاء، وأسمع وجبته: أي سقطته حين يسجد تحت العرش أي ولم أقف على سنه حين ذلك، وكان مهده يتحرك بتحريك الملائكة، وعده ابن سميع رحمه الله تعالى من خصائصه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 86

باب: تسميته محمداً وأحمد

لا يخفى أن جميع أسمائه مشتقة من صفات قامت به توجب له المدح والكمال، فله من كل وصف اسم. قال: وكما أن لله عز وجل ألف اسم للنبي ألف اسم. عن أبي جعفر محمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه وهو الباقر، من بقر العلم، أتقنه قال: أمرت أمينة أي في المنام وهي حامل برسول الله صلى الله عليه وسلم أن تسميه أحمد وعن ابن إسحاق رحمه الله أن تسميه محمداً وقد تقدم قال: والثاني هو المشهور في الروايات أي وعلى الأول اقتصر الحافظ الدمياطي رحمه الله.

والمسمي له بمحمد جده عبد المطلب. فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم عوق عنه: أي يوم سابع ولادته جده بكبش وسماه محمداً؟ ف قيل له: يا أبا الحرث ما حملك على أن تسميه محمداً ولم تسمه باسم آباءه. وفي لفظ: وليس من أسماء آباءك ولا قومك؟ قال: أردت أن يحمد الله في السماء وتحمده الناس في الأرض» اهـ. أقول: وهذا هو الموافق لما اشتهر أن جده سماه محمداً بإلهام من الله تعالى تفاؤلاً بأن يكثر حمد الخلق له، لكثرة خصاله الحميدة التي يحمدها عليها، ولذلك كان أبلغ من محمود وإلى ذلك يشير حسان رضي الله عنه بقول:

فشق له من اسمه ليجله

فدو العرش محمود وهذا محمد

وهذا الإلهام لا ينافي أن تكون أمه قالت له إنها أمرت أن تسميه بذلك، وقد

حقق الله رجاءه بأنه تكاملت فيه الخصال المحمودة والخلال المحبوبة

فتكاملت له المحبة من الخالق والخليقة، فظهر معنى اسمه على الحقيقة.

وفي الخصائص الصغرى: وخص باشتقاق اسمه من اسم الله تعالى وبأنه

سمي أحمد ولم يسم به أحد قبله، وإفادته الكثرة في معناه، لأنه لا يقال إلا

لمن حمد المرة بعد المرة، لما يوجد فيه من المحاسن والمناقب.

ادعى بعضهم أنه من صيغ المبالغة: أي الصيغ المفيدة للمبالغة بالمعنى

المذكور استعمالاً لا وضعاً لأن الصيغ الموضوعية لإفادة المبالغة منحصرة في

الصيغ الخمسة وليس هذا منها.

وهذا السياق يدل على أن تسميته بذلك كانت في يوم العقيقة، وأن العقيقة

كانت في اليوم السابع من ولادته، وتقدم: ولد الليلة لعبد الله بن عبد المطلب

غلام سموه محمداً، وهو يدل على أن تسميته بذلك كانت في ليلة ولادته أو

يومها.

وقد يقال: لا منافاة، لأنه يجوز أن يكون قوله هنا: وسماه محمداً، معناه أظهر تسميته بذلك لعموم الناس، وهذا التعليل للتسمية بهذا الاسم يرشد إلى ما قيل: اقتضت الحكمة أن يكون بين الاسم والمسمى تناسب في الحسن والقيح واللطافة والكثافة، ومن ثم غير الاسم القبيح بالحسن وهو كثير، وربما غير الاسم الحسن بالقبيح للمعنى المذكور كتسميته لأبي الحكم بأبي جهل، وتسميته لأبي عامر الراهب بالفاسق.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 128
وجاء «أنه قال لبعض أصحابه ادع لي إنساناً يحلب ناقتي، فجاءه بإنسان، فقال له ما اسمك؟ فقال له حرب، فقال اذهب. فجاءه بأخر فقال: ما اسمك؟ فقال يعيش، فقال احلبها».

ويروى «أنه طلب شخصاً يحفر له بئراً، فجاءه رجل، فقال له ما اسمك؟ قال مرة، قال اذهب» وليس هذا من الطيرة التي كرهها ونهى عنها، وإنما هو من كراهة الاسم القبيح، ومن ثم كان يكتب لأمرائه «إذا أبردتم لي بريداً فأبردوه» أي إذا أرسلتم لي رسولاً فأرسلوه «حسن الاسم حسن الوجه» ومن ثم لما قال له سيدنا عمر رضي الله عنه لما قال لمن أراد أن يحلب له ناقتة أو يحفر له البئر ما تقدم «لا أدري أقول أم أسكت، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم قل، قال:

قد كنت نهيتنا عن التطير، فقال له: ما تطيرت ولكن آثرت الاسم الحسن» وللجلال السيوطي كتاب فيمن غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه، ولم أقف عليه.

ورأيت في كلام بعضهم «أن حزن بن أبي وهب أسلم يوم الفتح وهو جد سعيد بن المسيب أراد النبي صلى الله عليه وسلم تغيير اسمه وتسميته سهلاً فامتنع وقال لا أغير اسماً سمانيه أبواي، قال سعيد: فلم تزل الحزونة فينا» والله أعلم.

أي وفي حديث «أنه عوّ عن نفسه بعد ما جاءته النبوة» قال الإمام أحمد، هذا منكر: أي حديث منكر، والحديث المنكر من أقسام الضعيف لأنه باطل كما قد يتوهم، والحافظ السيوطي لم يتعرض لذلك وجعله أصلاً لعمل المولد، قال لأن العقيقة لا تعاد مرة ثانية، فيحمل ذلك على أن هذا الذي فعله النبي صلى الله عليه وسلم إظهاراً للشكر على إيجاد الله تعالى إياه رحمة للعالمين، وتشريعاً لأمته، كما كان يصلي على نفسه لذلك. قال: فيستحب لنا إظهار الشكر بمولده هذا كلامه.

ويروى أن عبد المطلب إنما سماه محمداً لرؤيا رآها: أي في منامه، رأى كأن سلسلة خرجت من ظهره لها طرف في السماء وطرف في الأرض وطرف في المشرق وطرف في المغرب، ثم عادت كأنها شجرة على كل ورقة منها نور، وإذا أهل المشرق وأهل المغرب يتعلقون بها فقصها فعبرت له بمولود يكون من صلبه، يتبعه أهل المشرق والمغرب، ويحمده أهل السماء والأرض، فلذلك سماه محمداً: أي مع ما حدثته به أمه بما رآته على ما تقدم.

وعن أبي نعيم عن عبد المطلب قال: بينما أنا نائم في الحجر، إذ رأيت رؤيا هالتي ففزعت منها فرعاً شديداً، فأتيت كاهنة قريش، فلما نظرت إليّ عرفت في وجهي التغير فقالت: ما بال سيدهم قد أتى متغير اللون؟ هل رابه من حدثان الدهر شيء؟ فقلت لها بلي، فقلت لها، إني رأيت الليلة وأنا نائم في الحجر كأن شجرة نبتت قد نال رأسها السماء وضربت بأغصانها المشرق والمغرب، وما رأيت نوراً أزهر منها، ورأيت العرب والعجم ساجدين لها وهي تزدد كل ساعة عظماً ونوراً وارتفاعاً، ورأيت رهطاً من قريش قد تعلقوا بأغصانها، ورأيت قوماً من قريش يريدون قطعها، فإذا دنوا منها أخرجهم شاب لم أر قط أحسن منه وجهاً ولا أطيب منه ربحاً، فيكسر أظهرهم، ويقلع أعينهم، فرفعت يدي لأتناول منها نصيباً فلم أنله، فانتبهت مذعوراً فرعاً، فرأيت وجه الكاهنة قد تغير، ثم قالت: لئن صدقت رؤياك، ليخرجن من صلبك رجل يملك المشرق والمغرب، وتدين له الناس، وعند ذلك قال عبد المطلب لابنه أبي طالب: لعلك أن تكون هذا المولود، فكان أبو طالب يحدث بهذا الحديث بعد ما ولد ويقول: كانت الشجرة هي محمد .

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 128

وفي الإمتاع: لما مات قثم بن عبد المطلب قبل مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم بثلاث سنين وهو ابن تسع سنين وجد عليه وجداً شديداً، فلما ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سماه قثم حتى أخبرته أمه آمنة أنها أمرت في منامها أن تسميه محمداً، فسماه محمداً: أي ولا مخالفة بين هذه الروايات على تقدير صحتها كما لا يخفى، لأنه يجوز أن يكون نسي تلك الرؤية ثم تذكرها، ويكون معنى سؤاله: ما حملك على أن تسميه محمداً وليس من أسماء قومك؟ أي لم استقر أمرك على أن تسميه محمداً؟

وذكر بعضهم أنه لا يعرف في العرب من تسمى بهذا الاسم: يعني محمداً قبله إلا ثلاثة طمع أبائهم حين وفدوا على بعض الملوك وكان عنده علم من الكتاب الأول، وأخبرهم بمبعث النبي صلى الله عليه وسلم: أي بالحجاز وبقره زمنه وباسمه المذكور الذي هو محمد، وهو يدل على أن اسمه في بعض الكتب القديمة محمد، وكان كل واحد منهم قد خلف زوجته حاملاً فنذر كل واحد منهم إن ولد له ذكر أن يسميه محمداً، ففعلوا ذلك.

وفي الشفاء أن في هذين الاسمين محمداً وأحمد من بدائع آياته: أي المصطفى وعجائب خصائصه أن الله تعالى حماهما عن أن يسمى بهما أحد قبل زمانه: أي قبل شيوع وجوده. أما أحمد الذي أتى في الكتب القديمة وبشرت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فمنع الله تعالى بحكمته أن يتسمى به أحد غيره، ولا يدعى به مدعو قبله منذ خلقت الدنيا وفي حياته. زاد الزين العراقي: ولا في زمن أصحابه رضي الله تعالى عنهم حتى لا يدخل لبس أو شك على ضعيف القلب: أي فالتسمية به من خصائصه على جميع الناس ممن تقدمه، خلافاً لما يوهمه كلام الجلال السيوطي في الخصائص الصغرى أنه من خصائصه على الأنبياء فقط.

ومن ثم ذهب بعضهم إلى أفضليته على محمد. وقال الصلاح الصفدي: إنَّ أحمد أبلغ من محمد، كما أن أحمر وأصفر أبلغ من محمر ومصفر، ولعله لكونه

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

منقولاً عن أفعل التفضيل، لأنه أحمد الحامدين لرب العالمين، لأنه يفتح عليه في المقام المحمود بمحامد لم تفتح على أحد قبله.

وفي الهدى: لو كان اسمه أحمد باعتبار حمده لرب له لكان الأولى أن يسمى الحماد كما سميت بذلك أمته، وأما هذا فهو الذي يحمده أهل السماء والأرض وأهل الدنيا والآخرة، لكثرة خصاله المحمودة التي تزيد على عد العادين وإحصاء المحصين: أي أحق الناس وأولاهم بأن يحمد، فهو كمحمد في المعنى، فهو مأخوذ من الفعل الواقع على المفعول لا الواقع من الفاعل. وحينئذ فالفرق بين محمد وأحمد أن محمداً من كثر حمد الناس له، وأحمد من يكون حمد الناس له أفضل من حمد غيره، وسيأتي عن الشفاء أنه أحمد المحمودين، وأحمد الحامدين، فيجوز أن يكون أحمد مأخوذاً من الفعل الواقع عن المفعول، كما يجوز أن يكون مأخوذاً من الفعل الواقع من الفاعل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 128

وفي كلام السهيلي: ثم إنه لم يكن محمداً حتى كان قبل أحمد، فبأحمد دُكر قبل أن يذكر بمحمد، لأن حمده لربه كان قبل حمد الناس له، وأطال في بيان ذلك.

وفي كلام بعض فقهاءنا معاشر الشافعية: أنه ليس في أحمد من التعظيم ما في محمد، لأنه أشهر أسمائه الشريفة وأفضلها فلذلك لا يكفي الإتيان به في التشهد بدل محمد. وقد جاء «أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن» قال بعضهم: وعبد الله أحب من عبد الرحمن لإضافة العبد إلى الله المختص به تعالى اتفاقاً والرحمن مختص به على الأصح ومن ثم سمي نبينا في القرآن بعبد الله في قوله تعالى: {وإنه لما قام عبد الله يدعوه} وعلى ما ذكر هنا يكون بعد عبد الرحمن المذكور في القرآن في قوله تعالى: {وعباد الرحمن} أحمد ثم محمد: أي وبعدهما إبراهيم خلفاً لمن جعله بعد عبد الرحمن.

وذكر بعضهم أن أول من تسمى بأحمد بعد نبينا ولد لجعفر بن أبي طالب، وعليه يشكل ما تقدم عن الزين العراقي. وقيل والد الخليل: أي ولعل المراد به الخليل بن أحمد صاحب العروض. ثم رأيت الزين العراقي صرح بذلك حيث قال: وأول من تسمى في الإسلام أحمد والد الخليل بن أحمد العروضي. ويشكل على ذلك وعلى قوله لم يسم به أحد في زمن الصحابة تسمية ولد جعفر بن أبي طالب بذلك، إلا أن يقال لم يصرح ذلك عند العراقي، أو يقال مراد العراقي أصحابه الذين خلفوا عنه بعد وفاته، فلا يرد جعفر لأنه مات في حياته وهو خامس خمسة كل يسمي الخليل بن أحمد، وزاد بعضهم سادساً، وكذلك محمد أيضاً لم يتسم به أحد قبل وجوده وميلاده إلا بعد أن شاع أن نبياً يبعث اسمه محمد بالحجاز وقرب زمنه، فسمى قوم قليل من العرب أبناءهم بذلك، وحمى الله تعالى هؤلاء أن يدعى أحد منهم النبوة أو يدعيها أحد له، أو يظهر عليه شيء من سماتها، أي علاماتها حتى تحققت له.

وفي دعوى أن الذي في الكتب القديمة إنما هو أحمد مخالفة لما سبق، وما يأتي عن التوراة والإنجيل: أي فالمراد بالكتب القديمة غالبها، فلا ينافي أن في

بعضها اسمه محمد، وفي بعضها اسمه أحمد، وفي بعضها الجمع بين محمد وأحمد.

قال بعضهم: سمعت محمد بن عدي وقد قيل له: كيف سماك أبوك في الجاهلية محمداً؟ قال: سألت أبي، أي عما سألتني عنه، قال: خرجت رابع أربعة من تميم نريد الشام، فنزلنا عند غدير عند دير، فأشرف علينا الديراني وقال: إن هذه للغة قوم ما هي لغة أهل هذه البلد، فقلنا له: نحن قوم من مضر، فقال: من أيّ المضار؟ فقلنا: من خندف، فقال لنا: إن الله سيبعث فيكم نبياً وشيكاً: أي سريعاً فسارعوا إليه، وخذوا حظكم ترشدوا، فإنه خاتم النبيين، فقلنا له: ما اسمه؟ قال محمد، ثم دخل ديره، فوالله ما بقي أحد منا إلا زرع قوله في قلبه، فأضمر كل واحد منا إن رزقه الله غلاماً سماه محمداً، رغبة فيما قاله: أي فنذر كل واحد منا ذلك، فلا يخالف ما سق. قال: فلما انصرفنا ولد لكل واحد منا غلام فسماه محمداً رجاء أن يكون أحدهم هو، والله أعلم حيث يجعل رسالاته.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 128

أقول: يجوز أن يكون هؤلاء الأربعة منهم الثلاثة الذين وفدوا على بعض الملوك. وحينئذ تكرر لهم هذا القول من الملك ومن صاحب الدير، وإضمار ذلك لا ينافي نذره المتقدم، فالمراد باضماره نذره كما قدمناه. ويجوز أن يكونوا غيرهم فيكونوا سبعة.

وذكر ابن ظفر أن سفيان بن مجاشع نزل على حيٍّ من تميم فوجدهم مجتمعين على كاهنتهم وهي تقول: العزيز من والاه، والذليل من خاله، فقال لها سفيان: من تذكركين لله أبوك؟ فقالت: صاحب هدي وعلم وحرب وسلم، فقال سفيان: من هو لله أبوك؟ فقالت نبي مؤيد، قد آن حين يوجد، ودنا أو أن يولد، يبعث للأحمر والأسود اسمه محمد، فقال سفيان: أعربي أم عجمي؟ فقالت: أما والسماء ذات العنان والشجر ذوات الأفنان، إنه لمن معدّ بن عدنان، حسبك فقد أكثرت يا سفيان، فأمسك عن سؤالها ومضى إلى أهله وكانت امرأته حاملاً فولدت له ولداً فسماه محمداً، رجاء منه أن يكون هو النبي الموصوف، والله أعلم.

وقد عدّ بعضهم ممن سمي بمحمد ستة عشر، ونظمهم في قوله:

إن الذين سموا باسم محمد
من قبل خير الخلق ضعف ثمان
ابن البراء مجاشع بن ربيعة
ثم ابن مسلم يحمدي حرماني
ليثي السليمي وابن أسامة
سعدي وابن سواة همداني
وابن الجلاح مع الأسدي يا فتى
ثم الفقيمي هكذا الحراني
قال بعضهم: وفاته آخران لم يذكرهما، وهما: محمد بن الحارث، ومحمد بن

عمر بن مغفل بضم أوله وسكون المعجمة وكسر الفاء ثم لام. ووقع النزاع الكثير والخلاف الشهير في أول من سمي بذلك الاسم منهم. أقول: وفي شرح الكفاية لابن الهائم. ويمكن أن يكون من زاد علي أولئك الأربعة أو السبعة سمع ذلك من بعضهم فاقتدى به في ذلك، طمعاً فيما طمع فيه.

ومثل ذلك وقع لبني إسرائيل، فإن يوسف صلوات الله وسلامه عليه لما حضرته الوفاة أعلم بني إسرائيل بحضور أجله، وكان أول أنبيائهم، فقالوا له: يا نبي الله إنا نحب أن تعلمنا بما يؤمل إليه أمرنا بعد خروجك من بين أظهرنا في أمر ديننا فقال لهم: إن أموركم لم تزل مستقيمة حتى يظهر فيكم رجل جبار من القبط، يدعي الربوبية، يذبح أبناءكم ويستحيي نساءكم، ثم يخرج من بني إسرائيل رجل اسمه موسى بن عمران فينجيكم الله به من أيدي القبط، فجعل كل واحد من بني إسرائيل إذا جاء له ولد يسميه عمران رجاء أن يكون ذلك النبي منه. ولا يخفى أن بين عمران أبي موسى وعمران أبي مريم أم عيسى - وهو آخر أنبياء بني إسرائيل - ألف وثمانمائة سنة، والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 128

والذي أدرك الإسلام ممن تسمى باسمه عليه الصلاة والسلام محمد بن ربيعة ومحمد بن الحارث، ومحمد بن مسلمة. وادعى بعضهم أن محمد بن مسلمة ولد بعد مولد النبي صلى الله عليه وسلم بأكثر من خمسة عشر سنة. أي وقد ذكر ابن الجوزي أن أول من تسمى في الإسلام بمحمد بن حاطب. وعن ابن عباس «اسمي في القرآن أي كالتوراة محمد، وفي الإنجيل أحمد».

وأما فضل التسمية بهذا الاسم: أعني محمداً، فقد جاء في أحاديث كثيرة، وأخبار شهيرة: أي منها أنه قال: قال الله تعالى: «وعزتي وجلالي لا أعذب أحداً تسمى باسمك في النار» أي باسمك المشهور وهو محمد أو أحمد. ومنها «ما من مائدة وضعت فحضر عليها من اسمه أحمد أو محمد» أي وفي رواية: «فيها اسمي إلا قدس الله ذلك المنزل كل يوم مرتين» ومنها قال: «يوقف عبدان أي اسم أحدهما أحمد والآخر محمد بين يدي الله تعالى فيؤمر بهما إلى الجنة، فيقولان ربنا بما استأهلنا الجنة ولم نعمل عملاً تجازينا به الجنة؟ فيقول الله تعالى: ادخلا الجنة، فإني آليت على نفسي أن لا يدخل النار من اسمه أحمد أو محمد» لكن قال بعضهم: ولم يصح في فضل التسمية بمحمد حديث، وكل ما ورد فيه فهو موضوع، قال بعض الحفاظ: وأصحها أي أقر بهما للصحة «من ولد له مولود فسماه محمداً حباً لي وتبركاً باسمي كان هو ومولوده في الجنة».

وعن أبي رافع عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا سميتوه محمداً فلا تضربوه ولا تحرموه» وفي رواية طعن فيها بأن بعض رواياتهم بالوضع «فلا تسبوه، ولا تجبهوه، ولا تعنفوه، وشرفوه، وعظموه، وأكرموه، وبروا قسمه، وأوسعوا له في المجلس، ولا تقبحوا له وجهاً، بورك في محمد، وفي بيت فيه محمد، وفي مجلس فيه محمد» وفي رواية «تسمونه محمداً ثم تسبونوه» وفي رواية طعن فيها «أما يستحيي أحدكم أن يقول يا محمد ثم يضربه» وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «من ولد له ثلاثة

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

أولاد فلم يسم أحدهم محمداً فقد جهل» أي وفي رواية «فهو من الجفاء» وفي أخرى «فقد جفاني». وذكر بعضهم وإن لم يرد في المرفوع «من أراد أن يكون حمل زوجته ذكراً فليضع يده على بطنها وليقل إن كان هذا الحمل ذكراً فقد سميت محمدًا فإنه يكون ذكراً».

وجاء عن عطاء قال: «ما سمي مولود في بطن أمه محمداً إلا كان ذكراً» قال ابن الجوزي في الموضوعات: وقد رفع هذا بعضهم: أي وروي «ما اجتمع قوم قط في مشورة فيهم رجل اسمه محمد لم يدخلوه في مشورتهم إلا لم يبارك فيه» أي في الأمر الذي اجتمعوا له، وفي رواية: «فيهم رجل اسمه محمد أو أحمد فتشاوروه إلا خير لهم: أي إلا حصل لهم الخير فيما تشاوروا فيه: «وما كان اسم محمد في بيت إلا جعل الله في ذلك البيت بركة» وأتهم راوي ذلك بأنه مجروح.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 128
وروي «ما قعد قوم قط على طعام حلال فيهم رجل اسمه اسمي إلا تضاعفت فيهم البركة» أي اسمه المشهور وهو أحمد أو محمد كما تقدم. وفي الشفاء: «إن لله ملائكة سياحين في الأرض عبادتهم» أي بالباء الموحدة «كل دار فيها اسم محمد» أي حراسة أهل كل دار فيها اسم محمد. وقد ذكر الحافظ السيوطي أن هذا الحديث غير ثابت.
وعن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما قال: «من كان له حمل فنوى أن يسميه محمداً حوَّله الله تعالى ذكراً وإن كان أنثى» قال بعض رواة الحديث فنويت سبعة كلهم سميتهم محمداً. وعنه «من كان له ذو بطن فأجمع أن يسميه محمداً رزقه الله تعالى غلاماً». وشكت إليه امرأة بأنها لا يعيش لها ولد، فقال لها: «اجعلي لله عليك أن تسميه - أي الولد الذي ترزقينه - محمداً، ففعلت فعاش ولدها». وعن علي رضي الله تعالى عنه مرفوعاً «ليس أحد من أهل الجنة إلا يدعى باسمه - أي ولا يكنى - إلا آدم فإنه يدعى أبا محمد تعظيماً له وتوقيراً للنبي» أي لأن العرب إذا عظمت إنساناً كنته، ويكنى الإنسان بأجل ولده قاله الحافظ الدمياطي. وفي رواية «ليس أحد - أي من أهل الجنة - يكنى إلا آدم فإنه يكنى أبا محمد» أي وفي حديث معضل «إذا كان يوم القيامة نادى مناد يا محمد قم فادخل الجنة بغير حساب، فيقوم كل من اسمه محمد يتوهم أن النداء له، فلكرامة محمد لا يمنعون».

وفي الحلية لأبي نعيم عن وهب بن منبه قال: كان رجل عصى الله مائة سنة - أي في بني إسرائيل - ثم مات فأخذه وألقوه في مزبلة، فأوحى الله تعالى إلى موسى عليه الصلاة والسلام أن أخرجه فصل عليه، قال: يا رب إن بني إسرائيل شهدوا أنه عصاك مائة سنة، فأوحى الله إليه: هكذا، إلا أنه كان كلما نشر التوراة ونظر إلى اسم محمد قبله ووضع على عينيه، فشكرت له ذلك وغفرت له وزوجته سبعين حوراء».

ومن الفوائد أنه جرت عادة كثير من الناس إذا سمعوا بذكر وضعه أن يقوموا تعظيماً له ، وهذا القيام بدعة لا أصل لها؛ أي لكن هي بدعة حسنة، لأنه ليس كل بدعة مذمومة. وقد قال سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه في اجتماع الناس لصلاة التراويح: نعمت البدعة. وقد قال العز بن عبد السلام: إن البدعة تعتربها الأحكام الخمسة، وذكر من أمثلة كل ما يطول ذكره.

ولا ينافي ذلك قوله: «إياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة» وقوله: «من أحدث في أمرنا - أي شرعنا - ما ليس منه فهو رد عليه» لأن هذا عام أريد به خاص. فقد قال: إيماننا الشافعي قدس الله سره: ما أحدث وخالف كتاباً أو سنة أو إجماعاً أو أثراً فهو البدعة الضلالة، وما أحدث من الخير ولم يخالف شيئاً من ذلك فهو البدعة المحمودة. وقد وجد القيام عند ذكر اسمه من عالم الأمة ومقتدي الأئمة ديناً وورعاً الإمام تقي الدين السبكي، وتابعه على ذلك مشايخ الإسلام في عصره، فقد حكى بعضهم أن الإمام السبكي اجتمع عنده جمع كثير من علماء عصره فأنشد منشد قول الصرصري في مدحه:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 128

قليل لمدح المصطفى الخط بالذهب

على ورق من خط أحسن من كتب

وأن تنهض الأشراف عند سماعه

قياماً صفوفاً أو جثياً على الركب

فعند ذلك قام الإمام السبكي رحمه الله وجميع من في المجلس، فحصل أنس كبير بذلك المجلس، ويكفي مثل ذلك في الاقتداء.

وقد قال ابن حجر الهيتمي: والحاصل أن البدعة الحسنة متفق على نديها، وعمل المولد واجتماع الناس له كذلك أي بدعة حسنة، ومن ثم قال الإمام أبو شامة شيخ الإمام النووي: ومن أحسن ما ابتدع في زماننا ما يفعل كل عام في اليوم الموافق ليوم مولده من الصدقات والمعروف وإظهار الزينة والسرور، فإن ذلك مع ما فيه من الإحسان للفقراء مشعر بمحبته وتعظيمه في قلب فاعل ذلك، وشكر الله على ما من به من إيجاد رسوله الله الذي أرسله رحمة للعالمين، هذا كلامه.

قال السخاوي: لم يفعله أحد من السلف في القرون الثلاثة، وإنما حدث بعد، ثم لا زال أهل الإسلام من سائر الأقطار والمدن الكبار يعملون المولد، ويتصدقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويعتنون بقراءة مولده الكريم، ويظهر عليهم من بركاته كل فضل عميم. قال ابن الجوزي: من خواصه أنه أمان في ذلك العام، وبشرى عاجلة بنيل البغية والمرام.

وأول من أحدثه من الملوك صاحب أربل وصنف له ابن دحية كتاباً في المولد سماه (التنوير بمولد البشير النذير) فأجازه بألف دينار، وقد استخرج له الحافظ ابن حجر أصلاً من السنة، وكذا الحافظ السيوطي، ورداً على الفاكهاني المالكي في قوله إن عمل المولود بدعة مذمومة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 128

باب ذكر رضاعه وما اتصل به

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

يقال إنه ارتضع من ثمانية من النساء، وقيل من عشرة بزيادة: خولة بنت المنذر، وأم أيمن عزيزة قالت: أول من أَرْضَع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبية: أي بعد إرضاع أمه له كما سيأتي، قال: وثوبية هي جارية عمه أبي لهب، وقد أعتقها حين بشرته بولادته: أي فإنها قالت له: أما شعرت أن أمنة ولدت ولداً. وفي لفظ غلاماً لأخيك عبد الله، فقال لها: أنت حرة، فجوزي بتخفيف العذاب عنه يوم الاثنين، بأن يسقى ماء في جهنم في تلك الليلة: أي ليلة الاثنين، في مثل النقرة التي بين السبابة والإبهام اهـ: أي أن سبب تخفيف العذاب عنه يوم الاثنين ما يسقاه تلك الليلة في تلك النقرة. ويذكر أن بعض أهل أبي لهب: أي وهو أخوه العباس رضي الله تعالى عنه رآه في النوم في حالة سيئة، فعن العباس رضي الله تعالى عنه قال: مكثت حولا بعد موت أبي لهب لا أراه في نوم، ثم رأيته في شرّ حال: فقلت له: ماذا لقيت. فقال له أبو لهب: لم أذق بعدكم رءاء. وفي لفظ: فقال له بشر خيبة، بفتح الخاء المعجمة، وقيل بكسر الخاء: وهي سوء الحال، غير أنني سقيت في هذه وأشار إلى النقرة المذكور بعناقتي ثوبية، ذكره الحافظ الدمياطي. والذي في المواهب: وقد رؤي أبو لهب بعد موته في النوم: فقيل له: ما حالك؟ فقال في النار، إلا أنه يخفف عني كل ليلة اثنين، وأمصّ من بين أصبعي هاتين ماء، وأشار برأس أصبعيه، وأن ذلك بإعتاقي لثوبية عند ما بشرتني بولادة النبي صلى الله عليه وسلم وإرضاعها له فليتأمل. وقيل إنه إنما أعتقها لما هاجر إلى المدينة: أي فإن خديجة رضي الله تعالى عنها كانت تكرمها وطلبت من أبي لهب أن يتباعها منه لتعتقها فأبى أبو لهب، فلما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة أعتقها أبو لهب.

أقول: قد يقال: لا منافاة لجواز أن يكون لما أعتقها لم يظهر عتقها وإباؤه بيعها لكونها كانت معتوقة ثم أظهر عتقها بعد الهجرة والله أعلم. وإرضاعها له كان أياماً قلائل قبل أن تقدم حليلة، وكان بلبن ابن لها يقال له مسروح، وهو بضم الميم وسين مهملة ساكنة ثم راء مضمومة ثم حاء مهملة، كذا في النور. وفي السيرة الشامية بفتح الميم، وكانت قد أرضعت قبله أبا سفيان ابن عمه الحارث.

وفي كلام بعضهم كان ترباً له، وكان يشبهه، وكان يألفه إلفاً شديداً قبل النبوة فلما بعث عاداه وهجره وهجا أصحابه رضي الله تعالى عنهم، فإنه كان شاعراً مجيداً وسيأتي إسلامه رضي الله تعالى عنه عند توجهه لفتح مكة وأرضعت ثوبية رضي الله تعالى عنها قبلهما عمه حمزة بن عبد المطلب، وكان أسنّ منه بسنتين، وقيل بأربع سنين.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

أقول: هذا يخالف ما تقدم من أن عبد المطلب تزوج من بني زهرة هالة وأتى منها بحمزة، وأن عبد الله تزوج من بني زهرة أمنة وذلك في مجلس واحد، وأن أمنة حملت برسول عند دخول عبد الله بها، وأنه دخل بها حين أملك عليها فكيف يكون حمزة أسنّ منه بسنتين، إلا أن يقال ليس فيما تقدم تصريح بأن عبد المطلب وعبد الله دخلا على زوجتيهما في وقت واحد.

وعبارة السهيلي: هالة بنت وهيب عبد بن مناف بن زهرة عم أمنة بنت وهب أم النبي صلى الله عليه وسلم تزوجها عبد المطلب، وتزوج ابنه عبد الله أمنة في

ساعة واحدة، فولدت هالة لعبد المطلب حمزة، وولدت أمّنة لعبد الله رسول الله، ثم أرضعتها ثوية، هذا كلامه، وليس فيه كقول (أسد الغابة) المتقدم أن عبد المطلب تزوج هو وعبد الله في مجلس واحد تصرّح بأنهما دخلا بزواجهما في وقت واحد، لإمكان حمل التزوج على الخطبة المصرح بها فيما تقدم عن ابن المحدث: أن عبد المطلب خطب هالة في مجلس خطبة عبد الله لأمّنة، والله أعلم.

ثم رأيت في الاستيعاب قال: كان أي حمزة أسراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأربع سنين، وهذا لا يصح عندي لأن الحديث الثابت أن حمزة أرضعته ثوية مع رسول الله، إلا أن تكون أرضعتها في زمانين، هذا لفظه، وفيه ما علمت، وفيه أيضاً على تسليم أنها أرضعتها في زمانين، لكن بلبن ابنها مسروح كما سيأتي.

ويبعد بقاء لبن ابنها مسروح أربع سنين ثم أرضعت به رسول الله، وسيأتي الجواب عنه.

وأرضعت ثوية رضي الله تعالى عنها بعده أبا سلمة بن عبد الأسد أي ابن عمته الذي كان زوجاً لأم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها. فقد أرضعت ثوية حمزة ثم أبا سفيان ابن عمه الحارث ثم رسول الله، ثم أبا سلمة، وهو مخالف بظاهره لقول المحب الطبري. وأرضعته ثوية جارية أبي لهب وأرضعت معه حمزة بن عبد المطلب وأبا سلمة عبد الله بن عبد الأسد بلبن ابنها مسروح، هذا كلامه، وفيه ما علمت.

وقد يجاب بأنه ممكن بأن تكون لم تحمل على ولدها مسروح في المدة المذكورة فاستمر لبنها.

وأيضاً هي أرضعت بين حمزة ورسول الله صلى الله عليه وسلم ابن عمه أبا سفيان الحارث كما علمت.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

وذكر بعضهم أن أبا سلمة أول من يدعى للحساب اليسير، وقد روي عن النبي صلى الله عليه وسلم حديثاً واحداً، فعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها قالت: أتاني أبو سلمة يوماً من عند رسول الله، فقال: فقد سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم قولاً سررت به قال: «لا تصيب أحداً من المسلمين مصيبة فيسترّج عند مصيبته ثم يقول: اللهم أجرني في مصيبتني واخلف عليّ خيراً منها إلا فعل به» قال الترمذي حسن غريب. وبدل لكون أبي سلمة أخاه من الرضاعة ما جاء عن أم حبيبة قالت: «دخل عليّ رسول الله، فقلت له: هل لك في أختي بنت أبي سفيان» أي وهي عزة بعين مهملة ثم زاي: أي وفي رواية «هل لك في أختي حمّنة بنت أبي سفيان» والذي في مسلم «أنكح أختي عزة» أي وفي البخاري «أنكح أختي بنت أبي سفيان، قال: أو تحبين ذلك؟ قالت نعم، لست لك بمخلية» بضم الميم وسكون الخاء وكسر اللام وبالتحتية: أي لست لك بتاركة عدم أخذها، وأحب من شاركني في خير أختي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: فإن ذلك لا يحل لي، قالت: فوالله إني أنبتت» أي وفي

لفظ «إنا لتحدث أنك تخطب درة» أي وفي لفظ «تريد أن تنكح درة بنت أبي سلمة» أي بضم الدال المهملة، وأما ضبطه بفتح الذال المعجمة قال بعضهم: هو تصحيف لا شك فيه، تعني بدرة بنتها من أبي سلمة «قال: ابنة أبي سلمة؟ قلت نعم، فقال: والله لو لم تكن ربيتي في حجري ما حلت لي، إنها لابنة أخي من الرضاعة: أرضعتني وإياه ثوية» أي وفي رواية «لولا أنني لم أنكح أم سلمة يعني أم حبيبة التي هي أمها لم تحل لي، إن أباهما أخي من الرضاعة» أي وأختك على فرض أن لا تكون بنت أخي من الرضاعة لا يحل لي أن أجمعها معك «فلا تعرضن علي بناتكن ولا أخواتكن» قيل وفي هذا: أي وفي قوله «لو لم تكن ربيتي في حجري» وفي قوله: تعالي: {وربائبكم اللاتي في حجوركم} حجة لداود الظاهري أن الربيبة لا تحرم إلا إذا كانت في حجر زوج أمها، فإن لم تكن في حجره فهي حلال له: أي وقيل

لها ربيبة لأنها مأخوذة من الرب وهو الإصلاح، لأن زوج أمها يقوم بإصلاح أحوالها. قال: ولك أن تقول: كان الظاهر الاقتصار على الأخوات، لأن أم حبيبة هي التي عرضت أختها ولم تعرض بنتها التي هي درة. وقد يجاب بأنه جعل خطاب أم حبيبة خطاباً لجميع زوجاته، لأن هذا الحكم لا يختص بواحدة دون أخرى أهـ. أقول: فيه أن هذا واضح لو كان في زوجاته من عرض عليه بنته، إلا أن يقال المراد فلا تعرضن لا ينبغي لكن أن تعرضن، وذلك لا يستلزم وقوع العرض بالفعل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

ثم رأيت الإمام النووي رحمه الله ذكر أن هذا من أم حبيبة: أي من عرض أختها محمول على أنها لم تكن تعلم تحريم الجمع بين الأختين عليه. قال: وكذا لم تعلم من عرض بنت أم سلمة تحريم الربيبة، هذا كلامه، وهو يقتضي أن بعض الناس عرض عليه بنت أم سلمة. وإذا كان من عرضها عليه إحدى نسائه اتجه قوله: «فلا تعرضن علي بناتكن» تأمل. وبهذا الحديث استدل من قال: إنه لا يجوز له أن يجمع بين المرأة وأختها، وهو الراجح من وجهين.

ومقابلته يقول: خص بجواز ذلك له، ولا يجمع بين المرأة وبنتها، خلافاً لوجه حكاة الرافعي، وهذا الحديث وهو قوله: «لو لم أنكح أم سلمة لم تحل لي» يرد هذا الوجه.

وعبارة الخصائص الصغرى: وله الجمع بين المرأة وأختها وعمتها وخالتها في أحد الوجهين، وبين المرأة وابنتها في وجه حكاة الرافعي وتبعه في الروضة. وجزموا بأنه غلط، والله أعلم.

ومما يدل أيضاً على أن عمه حمزة أخوه من الرضاعة ما جاء عن علي رضي الله تعالى عنه قال: «قلت: يا رسول الله ما لك لا تتوَّق في قريش» أي بمثنائين فوق مفتوحتين ثم واو مشددة ثم قاف: أي لا تتشوق إليهم، مأخوذ من التوق الذي هو الشوق. وفي رواية بالتاء والنون: أي لا تختار ولا تتزوج منهم.

قال: أو عندك؟ قلت نعم ابنة حمزة: أي عمه، وهي أمانة وهي أحسن فتاة في قريش، قال: «تلك ابنة أخي من الرضاعة» أي وهذا، من علي رضي الله تعالى عنه محمول على أنه لم يكن يعلم بتحريم بنت الأخ من الرضاعة عليه، أو أنه لم يكن يعلم أن عمه حمزة أخ له من الرضاعة.

وفيه أنه جاء رواية «أليس قد علمت أنه أخي من الرضاعة، وأن الله قد حرم من الرضاعة ما حرم من النسب» إلا أن يراد بقوله: «قد علمت» أي أعلم.

قال: ولعله لم يقل أرضعتني وإياه ثوبية كما قال ذلك في أبي سلمة، لأن ثوبية أرضعت حمزة، ثم رسول الله، ثم أبا سلمة لأن حمزة رضيعه أيضاً من امرأة من بني سعد غير حليلة، كان حمزة رضي الله تعالى عنه مسترضعاً عندها في بني سعد، أرضعته يوماً وهي عند حليلة: أي فهو رضيعه من جهة ثوبية، ومن جهة تلك المرأة السعدية، ولم أقف على اسم تلك المرأة أه: أي ولو اقتصر على ثوبية لأوهم أنه لم يرتضع معه على غيرها. وذكر في الأصل أن بعضهم ذكر من مرضعه خولة بنت المنذر.

أقول: وتقدم ذلك، ونسب هذا البعض في ذلك للوهم، وأن خولة بنت المنذر التي هي أم بردة إنما كانت مرضعة لولده إبراهيم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

وقد يجاب عنه بأنه يجوز أن تكون خولة بنت المنذر اثنتان: واحدة أرضعته، وواحدة أرضعت ولده إبراهيم، وأن خولة التي أرضعته هي السعدية التي كانت ترضع حمزة التي قال فيها الشمس الشامي: لم أقف على اسم تلك المرأة، والله أعلم، ولم يذكر إسلام ثوبية إلا ابن منده.

قال الحافظ ابن حجر: وفي طبقات ابن سعد ما تدل على أنها لم تسلم، ولكن لا يدفع نقل ابن منده به. وفي الخصائص الصغرى: لم ترضعه مرضعة إلا أسلمت ولم أقف على إسلام ابنها مسروح.

أقول: ومما يدل على عدم إسلامه ما جاء بسند ضعيف «إذا كان يوم القيامة أشفع لأخ لي في الجاهلية» قال الحافظ السيوطي: يعني أخاه من الرضاعة لأنه لم يدرك الإسلام.

لا يقال: من أين أنه مسروح جاز أن يكون ابن حليلة، وهو عبد الله الذي كان يرضع معه، بناء على أنه لم تدرك الإسلام، لأنه لم يعرف له إسلام.

لأننا نقول: سيأتي عن شرح الهمزية لابن حجر أن عبد الله ولد حليلة أسلم، والله أعلم.

أي وقد يدل على عدم إسلام ثوبية وابنها المذكور الذي هو مسروح ما جاء «أنه كان يبعث لها بصلة وكسوة وهي بمكة، حتى جاءه خبر وفاتها مرجعه من خيبر سنة سبع، فقال: ما فعل ابنها مسروح، فقيل مات قبلها» أي ولو كانا أسلما لهاجرا إلى المدينة.

أقول: وهذا بظاهره يدل على أن مسروحاً أدرك الإسلام. وقد ينافي علم وفاتهما مرجعه من خيبر ما ذكر السهيلي أنه عليه الصلاة والسلام كان يصلها من المدينة، فلما افتتح مكة سأل عنها وعن ابنها مسروح، فأخبر أنهما ماتا.

وقد يقال: لا منافاة، لأنه يجوز أن يكون سؤاله الثاني للتثبت لوصوله محل إقامتهما.

والقول بأنهما لو كانا أسلما لهاجرا إلى المدينة. يقال عليه: يجوز أن تكون

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

الهجرة تعذرت عليهما لعرض عرض لهما، والله أعلم. قال: وجاء أن أمه أرضعته تسعة أيام.
أقول: وعن عيون المعارف للقضاعي سبعة أيام. وفي الإمتاع أنها أرضعته سبعة أشهر، ثم أرضعته ثوبية أياماً قلائل، هذا كلامه، وقوله ثم أرضعته ثوبية يخالف ما تقدم، من أن أول من أرضعه ثوبية، إلا أن يقال المراد أول من أرضعه غير أمه ثوبية فلا مخالفة.

وبهذا يرد نقل ابن المحدث عن الأصل أن أول لبن نزل جوفه لبن ثوبية، فإنه فهم ذلك من قول الأصل: أول من أرضعه ثوبية، لما علمت أن الأولية إضافية لا حقيقة، إلا أن يدعى ذلك في نقل ابن المحدث أيضاً: أي أول لبن نزل جوفه بعد لبن أمه والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138
قال: وأرضعه ثلاث نسوة: أي أبكار من بني سليم، أخرجن ثديهن فوضعنها في فمه فدرت في فيه فرضع منهن، وأرضعته أم فروة اهـ. أي وهؤلاء النسوة الأبكار كل واحدة منهن تسمى عاتكة، وهن اللاتي عناهن بقوله: «أنا ابن العواتك من سليم» على ما تقدم.
وما تقدم من أن أم أيمن أرضعته ذكره في الخصائص الصغرى، ردّ بأنها حاضنته لا مرضعته.

وعلى تقدير صحته ينظر بلبن أي ولد لها كان، فإنه لا يعرف لها ولد إلا أيمن وأسامة، إلا أن يقال جاز أن لبنها در له من غير وجود ولد كما تقدم في النسوة الأبكار.

وأرضعته حليلة بنت أبي ذؤيب، وتكنى أم كبشة: أي باسم بنت لها اسمها كبشة، ويكنى بها أيضاً والدها الذي هو زوج حليلة: أي وكانت من هوازن من بني سعد بن بكر بن هوازن، وسيأتي الكلام على إسلامها.
وعنها أنها كانت تحدّث أنها خرجت من بلدها معها ابن لها ترضعه اسمه عبد الله، ومعها زوجها. قال: وهو الحارث بن عبد العزى، ويكنى أبا ذؤيب: أي كما يكنى أبا كبشة أدرك الإسلام وأسلم.

فقد روى أبو داود بسند صحيح عن عمرو بن السائب أنه بلغه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً يوماً فأقبل أبوه من الرضاعة، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وأجلسه بين يديه». وعن ابن إسحاق: بلغني أن الحارث إنما أسلم بعد وفاة النبي، وهو يؤيد قول بعضهم: لم يذكر الحارث كثير ممن ألف في الصحابة اهـ.

أقول: يدل للأول ظاهر ما روي «أن الحارث هذا قدم على رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة بعد نزول القرآن عليه» فقالت له قريش: أو تسمع يا حارث ما يقول ابنك؟ فقال: وما يقول؟ قالوا: يزعم أن الله يبعث من في القبور، وأن لله دارين يعذب فيهما من عصاه، ويكرم فيهما من أطاعه: أي يعذب في إحداهما من عصاه وهي النار، ويكرم في الأخرى من أطاعه وهي الجنة، فقد شئت أمرنا، وفرق جماعتنا، فاتاه فقال: أي بني، ما لك ولقومك،

يشكونك ويزعمون أنك تقول كذا: أي أن الناس يبعثون، بعد الموت ثم يصيرون إلى جنة ونار» فقال له رسول الله ، نعم أنا أقول ذلك» وفي لفظ «أنا أزعم ذلك، ولو قد كان ذلك اليوم يا أبت فلاخذنّ بيدك حتى أعرفك حديثك اليوم» فأسلم الحارث بعد ذلك وحسن إسلامه: أي وقد كان يقول حين أسلم: لو أخذ ابني بيدي فعرفني ما قال لم يرسلني حتى يدخلني الجنة، وإنما قلنا ظاهر، لأنه قد يقال قوله بعد ذلك يصدق بما بعد وفاته ، فلا دلالة في ذلك على أنه أسلم في حياته .

وفي شرح الهمزية لابن حجر: ومن سعادتها يعني حليلة توفيقها للإسلام هي وزوجها وبنوها، وهم: عبد الله، والشيماء، وأنيسة، هذا كلامه.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

وفي الإصابة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالساً - أي على ثوب - فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له بعض ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من الجانب الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس بين يديه «ورجاله ثقات، ولعل المراد بجلوسه بين يديه جلوسه مقابله، وحينئذ ففاعل جلس النبي ، وضمير يديه راجع لأخيه: أي قام عن محل جلوسه على الثوب، وأجلس أخاه على الثوب مكانه وجلس قبالة أخيه، فعل ذلك ليكون أخوه هو وأبواه جميعاً على الثوب، والله أعلم.

قالت: وخرجت في نسوة من بني سعد: أي ابن بكر بن هوازن عشرة يطلبن الرضعاء في سنة شهباء: أي ذات جدب وقحط لم تبق شيئاً، على أتان قمراء بفتح القاف والمد: أي شديد البياض، ومعنى شارف أي ناقة مسنة، ما تبض بالضاد المعجمة، وربما روي بالمهملة: أي ما ترشح بقطرة لبن، قالت: وما كنا ننام ليلتنا أجمع من صبينا الذي معنا من بكائه من الجوع، ما في ثديي. وفي رواية ثديي ما يغنيه، وما في شارفنا ما يغذيه بمعجمتين، وقيل بمعجمة ثم مهمل، وقيل بإسكان العين المهملية وكسر الذال المعجمة وضم الباء الموحدة: أي ما يكفيه بحيث يرفع رأسه وينقطع عن الرضاعة. قالت حليلة: ولكننا نرجو الغيث والفرج، فخرجت على أتاني تلك، فلقد أدمت بالذال المهملية وتشديد الميم بالركب: أي حبسته بتأخرها عنه لشدة عنائها وتعبها لضعفها وهزالها، حتى شق ذلك عليهم، حتى قدمنا مكة نلتمس: أي نطلب الرضعاء جمع رضيع، وأدم مأخوذ من الماء الدائم، يقال أدم بالركب: إذا أبطأ حتى حبسهم، ويروى بالمعجمة: أي جاء بما يذم عليه وهو هنا الإبطاء.
أقول: لأنه كان من شيم العرب وأخلاقهم إذا ولد لهم ولد يلتمسون له مرضعة في غير قبيلتهم، ليكون أنجب للولد، وأفصح له. وقيل لأنهم كانوا يرون أنه عار على المرأة أن ترضع ولدها انتهى: أي تستقل برضاعه.
ويدل للأول ما جاء أنه كان يقول لأصحابه «أنا أعربكم» أي أفصحكم عربية «أنا قرشي، واسترضعت في بني سعد» وجاء «أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه لما قال له: ما رأيت أفصح منك يا رسول الله، فقال له: ما يمنني وأنا من قريش، وأرضعت في بني سعد؟» فهذا كان يحملهم على دفع الرضعاء إلى المراضع الأعرايات.
ومن نقل عن عبد الملك بن مروان أنه كان يقول: أضربناحِب الوليد، يعني

ولده، لأنه لمحبته له أبقاه مع أمه في المصر ولم يسترضعه في البادية مع الأعراب، فصار لحاناً لا عربية له. وأخوه سليمان استرضع في البادية مع الأعراب فصار عربياً غير لحن.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

قالت حليلة: فما منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه إذا قيل لها يتيم، وذلك أنا إنما نرجو المعروف من أبي الصبي، فكنا نقول: يتيم ما عسى أن تصنع أمه ووجهه، فكنا نكرهه لذلك، فما بقيت امرأة معي إلا أخذت رضيعاً غيري، فلما أجمعنا الإنطلاق: أي عزمنا عليه، قلت لصاحبي: والله إنني لأكره أن أرجع من بين صواحيبي ولم آخذ رضيعاً، والله لأذهبن إلى ذلك الرضيع فلاأخذنه، قال: لا عليك: أي لا بأس عليك أن تفعلي، عسى الله أن يجعل لنا فيه بركة، فذهبت إليه فأخذته.

أقول: وهذا السياق قد يخالف قول بعضهم: إن عبد المطلب خرج يلتمس له المراضع فجاءت له حليلة ابنة أبي ذؤيب، إلا أن يقال: جاز أن يكون التماسه للمراضع غير حليلة كان عند قديمهم، وأبين أن يقبلن، ثم طلب من حليلة ذلك بعد أن لم يجد رضيعاً. ويدل لذلك قول صاحب (شفاء الصدور) إن حليلة قالت: استقبلني عبد المطلب فقال: من أنت؟ فقلت: أنا امرأة من بني سعد قال: ما اسمك؟ قلت حليلة، فتبسم عبد المطلب وقال: بخ بخ، سعد وحلم، خصلتان فيهما خير الدهر وعز الأبد، يا حليلة إن عندي غلاماً يتيماً، وقد عرضته على نساء بني سعد فأبين أن يقبلن وقلن: ما عند اليتيم من الخير، إنما نلتمس الكرامة من الآباء، فهل لك أن ترضعيه، فعسى أن تسعدي به؟ فقلت: ألا تذرني حتى أشتاور صاحبي، فانصرفت إلى صاحبي فأخبرته، فكأن الله قذف في قلبه فرحاً وسروراً، فقال لي: يا حليلة خذي، فرجعت إلى عبد المطلب فوجدته قاعداً ينتظرني، فقلت: هلم الصبي، فاستهل وجهه فرحاً، فأخذني وأدخلني بيت أمنة، فقالت لي أهلاً وسهلاً، وأدخلتني في البيت الذي فيه محمد ، فإذا هو مدرج في ثوب صوف أبيض من اللبن، وتحتة حريرة خضراء، راقدة على قفاه يغط، يفوح منه رائحة المسك، فأشفقت: أي خفت أن أوقظه من نومه لحسنه وجماله، فوضعت يدي على صدره فتبسم ضاحكاً وفتح عينيه إليّ، فخرج من عينيه نور حتى دخل خلال السماء وأنا أنظر، فقبلته بين عينيه وأخذته، وما حملني على أخذه: أي أكد أخذه إلا أنني لم أجد غيره، وإلا فما ذكرته من أوصافه مقتض لأخذه: أي وهذه الرواية ربما تدل على أنها لم تره قبل ذلك، وأن إباءها كان قبل رؤيتها له، قالت: فلما أخذته رجعت به إلى رحلي، فلما وضعته في حجري أقبل ثدياي بما شاء الله من لبن فشرب حتى روي: أي من الثدي الأيمن، وعرضت عليه الأيسر فأباه. قالت حليلة: وكانت تلك حالته بعد: أي بعد ذلك: لا يقبل إلا ثدياً واحداً وهو الأيمن.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

وفي السبعيات للهمداني: أن أحد ثديي حليلة كان لا يدر اللبن منه، فلما وضعته في فم رسول الله صلى الله عليه وسلم در اللبن منه. قالت: وشرب معه أخوه حتى روي ثم نام، وما كنا ننام معه قبل ذلك: أي فعدم نومه من الجوع، فقام زوجي إلى شارفنا تلك فإذا هي حافل: أي ممتلئة الصرع من اللبن، فجلب منها ما شرب وشربت حتى انتهينا رباً وشبعاً، فبتنا بخير ليلة، يقول صاحبي حين أصبحنا: تعلمي والله يا حليلة لقد أخذت نسمة مباركة، قلت: والله إنني لأرجو ذلك، ثم خرجنا وركبت أتاني وحملته معي عليها فوالله لقطعت بالركب: أي صيرته خلفها ما يقدر عليها: أي على مرافقتها ومصاحبتها شيء من حمهن، حتى أن صواحي يقرن لي: يا بنت أبي ذؤيب، ويحك، اربعي: أي اعطفي علينا بالرفق وعدم الشدة في السير، أليس هذا أتانك التي كنت خرجت عليها تخفضك طوراً وترفعك أخرى؟ فأقول لهن: بلى والله إنها لهي، فيقرن: والله إن لها لشأناً: أي وقالت حليلة فكنت أسمع أتاني تنطق وتقول: والله إن لي لشأناً ثم شأناً، شأنني بعثني الله بعد موتي، ورد لي سمني بعد هزالي، ويحك يا نساء بني سعد إنكن لفي غفلة، وهل تدرين من على ظهري؟ على ظهري خير النيين، وسيد المرسلين، وخير الأولين والآخرين، وحبیب رب العالمين، ذكره في النطق المفهوم.

وذكرت أنها لما أرادت فراق مكة رأت تلك الأتان سجدت: أي خفصت رأسها نحو الكعبة ثلاث سجديات ورفعت رأسها إلى السماء ثم مشت. قالت: ثم قدمنا منازل بني سعد ولا أعلم أرضاً من أراضى الله أجذب منها، فكانت غنمي تروح على حين قدمنا به شباعاً لبناً: أي غزيرات اللبن، فنحلب ونشرب. ولفظ: فنحلب، ما شئنا والله ما يحلب إنسان قطرة لبن ولا يجدها في صرع، حتى كان الحاضر: أي المقيم في المنازل من قومنا يقول لرعاتهم: ويلكم اسرحوا حيث يسرح راعي بنت أبي ذؤيب يعنونني، فتروح أغنامهم جياعاً ما تبض بقطرة لبن، وتروح غنمي شباعاً لبناً، فلم نزل نعرف من الله تعالى الزيادة والخير حتى مضت سنتاه وفصلته، وكان يشب شياً لا يشبه الغلمان، فلم يقطع سنتيه حتى كان غلاماً جفراً: أي غليظاً شديداً. وعن حليلة رضي الله تعالى عنها أنه لما بلغ شهرين كان يجيء إلى كل جانب: أي وهذا يضعف ما تقدم عن الامتناع من أن أمه أرضعته سبعة أشهر. قالت حليلة: فلما بلغ ثمانية أشهر كان يتكلم بحيث يسمع كلامه، ولما بلغ تسعة أشهر كان يتكلم الكلام الفصيح، ولما بلغ عشرة أشهر كان يرمي السهام مع الصبيان.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

وعنها رضي الله تعالى عنها أنها قالت، إنه لفي حجري ذات يوم إذ مرت به غنماتي، فأقبلت واحدة منهن حتى سجدت له وقبلت رأسه ثم ذهبت إلى صواحبها.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

أقول: وقد سجدت له الغنم، وكذا الجمل بعد بعثته والهجرة، فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل حائطاً: أي بستاناً للأنصار ومعه أبو بكر وعمر ورجال من الأنصار وفي الحائط غنم، فسجدت له، فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: يا رسول الله كنا أحق بالسجود لك من هذه الغنم؟ فقال: إنه لا ينبغي في أمتي أن يسجد أحد لأحد، ولو كان ينبغي لأحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» زاد في رواية «ولو أن رجلاً أمر زوجته أن تنقل من جبل إلى جبل لكان نولها: أي حقها أن تفعل» «وحرِبَ جمل بكسر الراء: أي اشتد غضبه، فصار لا يقدر أحد يدخل عليه، فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال لأصحابه: افتحوا عنه، فقالوا: إنا نخشى عليك يا رسول الله، فقالوا: افتحوا عنه ففتحو عنه فلما رآه الجمل خرّ ساجداً: أي فأخذ بناصيته ثم دفعه لصاحبه وقال استعمله وأحسن علفه، فقال القوم: يا رسول الله كنا أحق أن نسجد لك من هذه البهيمة، فقال كلا» الحديث. وفي هذا دلالة على عظيم حق الزوج على زوجته.

وجاء مما يدل على ذلك أيضاً ما روي «أن أسماء بنت يزيد الأنصارية أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسول الله إن الله بعثك إلى الرجال والنساء فأمننا بك واتبعناك، ونحن معاشر النساء، مقصورات مخدرات، قواعد بيوت، ومواضع شهوات الرجال، وحاملات أولادهم، وإن الرجال فضلوا بالجماعات، وشهود الجنائز والجهاد، وإذا خرجوا للجهاد حفظنا لهم أموالهم، وربينا لهم أولادهم، أفنشاركهم في الأجر يا رسول الله؟ فالتفت رسول الله صلى الله عليه وسلم بوجهه إلى أصحابه وقال: هل سمعتم مقالة امرأة أحسن سؤالاً عن دينها من هذه؟ قالوا: بلى يا رسول الله، فقال: انصرفي يا أسماء، واعلمي بأنك من النساء، إن حسن تبعل إحداكن لزوجها، وطلبها لمرضاته، واتباعها لموافقته يعدل كل ما ذكرت للرجال» أي من حضور الجماعات وشهود الجنائز والجهاد، فانصرفت أسماء وهي تهلل وتكبر استبشاراً بما قال لها رسول الله . والتبعل: ملاعبة المرأة لزوجها، والله أعلم.

قالت حليلة: وكان ينزل عليه كل يوم نور كنور الشمس ثم ينجلي عنه، وإلى قصة رضاعه يشير صاحب الهمزية بقوله:

وبدت في رضاعه معجزات
ليس فيها عن العيون خفاء
إذ أتته ليتمه مرضعات
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138
قلن ما في اليتيم عنا غناء
فأنته من آل سعد فتاة
قد أبتها لفقرها الرضعا
أرضعته لبانها فسقتها
وبنيها ألبانهن الشاء
أصبحت شؤلاً عجافاً وأمست
ما بها شائل ولا عجفاء
أخصب العيش عندها بعد محل
إذ غدا للنبي منها غذاء

يا لها منة لقد ضوعف الأجر
عليها من جنسها والجزاء
وإذا سخر الإله أناساً
لسعيد فإنهم سعداء
أي وظهرت في رضاعه؟ وفي زمن رضاعه أمور خارقة للعادة لوضوحها لا
تخفى على العيون.

فمن ذلك أن المراضع أبين أن يأخذنه لأجل يتمه، فبعد أن تركته أتت فتاة من آل سعد قد أبتها أهل الرضعاء لفقرها فسقته لبنها فسقتها وبنيتها الشاء ألبانها، وكانت تلك الشياه لا لبن بها بل هزيلات، فصارت ذات ألبان وسمن. ومن ذلك أن العيش كثر عندها بعد شدة المحل لأجل حصول غذاء النبي صلى الله عليه وسلم: يا لها أي لتلك الخصلة الصادرة من حليلة وهي سقيها له لبنها نعمة منها عليه، لقد كرر الثواب والجزاء على تلك النعمة من جنس تلك النعمة، لأن الجزاء من جنس العمل فلما سقت اللبن سقيته، ولا بدع فإن الله تعالى إذا سخر أناساً لمحبة سعيد والقيام بخدمته فإنهم بسبب ذلك سعداء. أقول: لم أقف على رواية فيها أن حليلة أبتها أهل الرضعاء لفقرها وكان الناظم أخذ ذلك من قولها: فما بقيت امرأة قدمت معي إلا أخذت رضيعاً غيري، وما حملني على أخذه إلا أنني لم أجد غيره ولا دلالة في ذلك. واستفتي الحافظ ابن حجر عن بعض الوعاظ يذكر عند اجتماع الناس للمولد حادثات أي وقائع تتعلق به جاءت بها الأخبار هي مخللة بالتعظيم حتى يظهر من السامعين لها حزن، فيبقى في حيز من يرحم لا في حيز من يعظم. من ذلك أنهم يقولون إن المراضع حضرن ولم يأخذنه لعدم ماله ونحو ذلك، فما قولكم في ذلك؟

فأجاب بما نصه: ينبغي لمن يكون فطناً أن يحذف من الخبر: أي الحديث ما يوهم في المخبر عنه نقصاً ولا يضره ذلك، بل يجب كما وقع لإمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه حيث قال في بعض نصوصه «وقطع رسول الله صلى الله عليه وسلم امرأة لها شرف فكلم فيه، فقال: لو سرقت فلانة لامرأة شريفة لقطعتها، يعني فاطمة بنت النبي» فلم يصرح باسمها تأديباً معها أن تذكر في هذا المعرض - وإن كان ذكرها - لأن ذلك منه حسن دل على أن الخلق عنده في الشرع سواء، فهذا من كمال أدب الإمام رضي الله تعالى عنه وأرضاه، ونفعنا ببركاته: أي فإذا جاز حذف بعض الحديث الموهم نقصاً في بعض أهل بيته، فما بالك بما يوهم النقص فيه، وهذا من الحافظ يدل على أن إباء المراضع له وارد حيث أقره ولم ينكره، والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

قال: وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «كان أول كلام تكلم به حين فطمته حليلة رضي الله تعالى عنها، الله أكبر كبيراً، والحمد لله كثيراً، وسبحان الله بكرة وأصيلاً» أي وقد تقدم أنه تكلم بهذا عند خروجه من بطن أمه. وفي رواية «أول كلام تكلم به في بعض الليالي: أي وهو عند حليلة: لا إله إلا الله

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

قدوساً قدوساً نامت العيون والرحمن لا تأخذه سنة ولا نوم» وكان لا يمس شيئاً إلا قال بسم الله.

وعن حليلة رضي الله عنها «لما دخلت به إلى منزلي لم يبق منزل من منازل بني سعد إلا شممنا منه ريح المسك، وألقيت محبته : أي واعتقاد بركته في قلوب الناس، حتى إن أحدهم كان إذا نزل به أذى في جسده أخذ كفه فيضعها على موضع الأذى فيبرأ بإذن الله تعالى سريعاً. وكذلك إذا اعتل لهم بغير أو شاة انتهى.

قالت حليلة: فقدمنا مكة على أمه : أي بعد أن بلغ سنتين ونحن أحرص شيء على مكته فينا لما نرى من بركته ، فكلمنا أمه وقلت لها: لو تركتني بني عندي حتى يغلظ.

وفي كلام ابن الأثير: قلنا لها دعينا نرجع به هذه السنة الأخرى فإني أخشى عليه وباء مكة: أي مرضها ووخمها فلم نزل بها حتى رُدَّته معنا. وقيل إن أمه أمنة قالت لحليلة: ارجعي بابني، فإني أخاف عليه وباء مكة، فوالله ليكون له شأن أي ولا مخالفة بينهما لجواز أن حليلة لما قالت لها ما تقدم قالت لحليلة ارجعي بابني على الفور فإني أخاف عليه وباء مكة: أي كما تخافين عليه ذلك. قالت حليلة: فرجعنا به فوالله إنه بعد مقدمنا به بأشهر. عبارة ابن الأثير: بعد مقدمنا بشهرين أو ثلاثة مع أخيه يعني من الرضاعة، لفي بهم لنا، ولعل هذا لا ينافيه قول المحب الطبري: فلما شب وبلغ سنتين لأنه ألغى أي ذلك الكسر، فبينما هو وأخوه في بهم لنا خلف بيوتنا. والبهيم: أولاد الضأن، إذ أتى أخوه يشند. أي يعدو، فقال لي ولأبيه ذاك أخي القرشي قد أخذه رجلان عليهما ثياب بيض فأضجعا، فشقا بطنه فهما يسوطانه: أي يدخلان يديهما في بطنه، قالت: فخرجت أنا وأبوه نحوه فوجدناه قائماً منتقعاً وجهه. وفي لفظ لونه أي متغير أي صار لونه كلون النقع الذي هو الغبار وهو صفة ألوان الموتى، وذلك لما ناله من الفزع أي من رؤية الملائكة، لا من مشقة نشأت عن ذلك الشق، لما يأتي في بعض الروايات: فلم أجد لذلك حساً ولا ألماً، ومن ثم قال ابن الجوزي: فشقة وما شق عليه، وإطلاقه شامل لهذه المرة التي هي الأولى، وقد قال بعضهم: إنه لم ينتقع لونه إلا وهو صغير في بني سعد.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

قالت: فالتزمته والتزمه أبوه فقلنا له: ما لك يا بني؟ فقال : جاءني رجلان عليها ثياب بيض أي وهما جبريل وميكائيل: أي وهما المراد بقوله في رواية: فأقبل إليّ طيران أبيضان كأنهما نسران، فقال أحدهما لصاحبه: أهو هو؟ قال نعم، فأقبلا يتدراني، فأخذاني فأضجعاني فشقا بطني فالتمسا فيه شيئاً أي طلباه، فوجداه فأخذه وطرحاه ولا أدري ما هو: أي وسيأتي أن هذا الذي قال فيه وما أدري ما هو أنه علقه سوداء استخرجها من قلبه بعد شق بطنه، ففي هذه الرواية طي ذكر القلب وشقه، وسيأتي ذكر ذلك في بعض الروايات. وفي رواية غريبة: نزل عليه كركيان، فشق أحدهما بمنقاره جوفه، ومخ الآخر

فيه بمنقاره ثلجاً أو برداً. وقد يقال إن الطيرين تارة شبيها بالنسرين وتارة شبيها بالكركيين. وفي كون مجيء جبريل وميكائيل على صورة النسر لطيفة لأن النسر سيد الطيور. فقد جاء في الحديث «هبط عليّ جبريل فقال: يا محمد إن لكل شيء سيد، فسيد البشر آدم وأنت سيد ولد آدم وسيد الروم صهيب، وسيد فارس سلمان، وسيد الحبش بلال، وسيد الشجر السدر، وسيد الطير النسر» وفي بحر العلوم «وسيد الملائكة إسرافيل، وسيد الشهداء هايل، وسيد الجبال جبل موسى، وسيد الأنعام الثور، وسيد الوجوش الفيل، وسيد السباع الأسد» زاد بعضهم وسيد الشهور رمضان، وسيد الأيام يوم الجمعة، وسيد الكلام العربية، وسيد العربية القرآن، وسيد القرآن سورة البقرة».

قالت حليلة: فرجعنا به إلى خباتنا: أي محل الإقامة وقال لي أبوه يا حليلة لقد خشيت أن يكون هذا الغلام قد أصيب، فألحقه بأهله قبل أن يظهر به ذلك. وفي رواية: قال الناس يا حليلة رديه على جده واخرجي من أمانتك. وفي رواية وقال: زوجي أرى أن ترديه على أمه لتعالجه، والله إن أصابه ما أصابه إلا حسد من آل فلان لما يرون من عظيم بركته. قالت: فحملناه فقدمنا به مكة على أمه. قال الواقدي وكان ابن عباس يقول: رجع إلى أمه وهو ابن خمس سنين أي وزاد في الاستيعاب ويومين من مولده، وكان غيره أي غير ابن عباس يقول: رجع إلى أمه وهو ابن أربع سنين. وذكر الأموي أنه رجع إلى أمه وهو ابن ست سنين انتهى.

أقول سياق ما قبله يدل على أن قدوم حليلة به على أمه كان عقب الواقعة المذكورة، وتقدم أن سنه حينئذ كان سنتين وأشهر، وسيأتي ما فيه والله أعلم. وعن ابن عباس أن حليلة كانت تحدث أنه لما ترعرع كان يخرج فينظر إلى الصبيان يلعبون فيجتنبهم، فقال لي يوماً: يا أماه ما لي لا أرى إخوتي بالنهار يعني إخوته من الرضاة وهم أخوه عبد الله وأخته أنيسة والشيماء بفتح المعجمة وسكون التحتية أولاد الحارث، قلت فدتك نفسي، إنهم يرعون غنماً لنا فيروحون من ليل إلى ليل، قال ابعتيني معهم، فكان عليه الصلاة والسلام يخرج مسروراً ويعود مسروراً: أي وهذا لا يخالف قولها السابق كان مع أخيه في بهم لنا خلف بيوتنا، ولا قوله الآتي «فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهما لنا» ولا قوله «فبينما أنا ذات يوم منتبذاً من أهلي في بطن وادٍ مع أتراب لي من الفتيان» كما لا يخفى.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

قالت حليلة: فلما كان يوماً من ذلك خرجوا، فلما انتصف إليها أتاني أخوه، أي وفي رواية إذ أتني ابني ضمرة يعدو فزعاً وجبينه يرشح باكياً ينادي يا أبت وبأ أمه الحقا أخي محمداً فما تلحقانه إلا ميتاً. قلت: وما قضيته، قال: بينا نحن قيام إذ أتاه رجل فاخطفه من وسطنا وعلاه به ذروة الجبل ونحن ننظر إليه حتى شق صدره إلى عاتقه ولا أدري ما فعل به. أقول: ولعل ضمرة هذا هو أخوه عبد الله المتقدم ذكره، لقب بذلك لخفة جسمه، ولا يخالف ذلك قوله الآتي إن أترابه الذين كانوا معه انطلقوا هرباً

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

مسرعين إلى الحي يؤذونهم ويستصرخونهم ولأنه يجوز أن يكون ضمرة سبقهم، والله أعلم.

قالت حليلة: فانطلقت أنا وأبوه نسعى سعياً فإذا نحن به قاعداً على ذروة الجبل شاخصاً ببصره إلى السماء يتبسم ويضحك فأكبت عليه وقبلته بين عينيه، وقلت له: فدتك نفسي، ما الذي دهاك؟ قال خيراً كذا بالنصب يا أمه، بينا أنا الساعة قائم إذ أتاني رهط ثلاثة بيد أحدهم إبريق فضة، وفي يد الآخر طلست من زمردة خضراء والزمردة بالضم والزاي المعجمة. الزبرجد، وهو معرب، فأخذوني وانطلقوا بي إلى ذروة الجبل فأضجعوني على الجبل إضجاعاً لطيفاً، وفيه أن هذا يخالف قوله الآتي: «فأخذوني حتى أتوا شفير الوادي، فعمد أحدهم فأضجني إلى الأرض ثم شق من صدري إلى عانتي» وسيأتي الجمع بينهما. وقوله: «ثم شق من صدري إلى عانتي» هو المراد ببطنه ف فيما تقدم وما يأتي. قال: «وأنا أنظر إليه فلم أجد لذلك حساً ولا ألماً» الحديث وفي هذه الرواية طي ذكر القلب وشقه أيضاً.

أقول: ولا منافاة في تلك الرواية بين قولها فوجدناه قائماً وبين قولها في هذه الرواية:

فإذا نحن به قاعداً على ذروة الجبل، لجواز أن تكون أرادت بقولها قائماً كونه حياً وبكونه قاعداً كونه ماكناً، كما لا منافاة بين قولها في تلك الرواية منتقياً وجهه، وبين قولها في هذه الرواية يتبسم ويضحك، لأن ذلك لا ينافي الفرع: أو لجواز أن يكون تبسمه وضحكه تعجباً لما رأى من الحالة التي عليها أمه من التعب والشدة والله أعلم.

قال: وذكر ابن إسحاق أن حليلة لما قدمت به مكة لترده على أمه أي بعد شق صدره وقد بلغ أربع سنين أو خمسا أو ستاً على ما تقدم أضلته في أعالي مكة فأنت جده عبد المطلب، فقالت: إني قدمت بمحمد هذه الليلة، فلما كنت بأعالي مكة أضلني، فوالله ما أدري، أين هو؟ فقام عبد المطلب عند الكعبة يدعو الله أن يرده عليه. وفي مرآة الزمان أنه أنشد:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

يا رب رد لي ولدي محمدا
أرده ربي واصطنع عندي يدا
وسياتي أن هذا البيت أنشده عبد المطلب حين بعث النبي صلى الله عليه وسلم ليرد إبلاً له ضلت.

وقد يقال: لا مانع من تكرار ذلك منه فسمع هاتفاً من السماء يقول: أيها الناس لا تضجوا إن لمحمد رباً لن يخذله ولا يضيعه، فقال عبد المطلب: من لنا به، فقال: إنه بوادي تهامة عند الشجرة اليمنى، فركب عبد المطلب نحوه، وتبعه ورقة بن نوفل، وسياتي بعض ترجمة ورقة، فوجداه قائماً تحت شجرة يجذب غصناً من أغصانها، فقال له جده: من أنت يا غلام؟ فقال أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فقال وأنا عبد المطلب جدك فدتك نفسي، واحتمله وعانقه وهو يبكي، ثم رجع إلى مكة وهو قدامه على قربوس فرسه، ونحر الشياه والبقر، وأطعم أهل مكة.

أقول: وقول جده له من أنت يا غلام؟ لعله لكونه وجده على حالة لا توجد لمن

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

يكون في سنه عادة كما تقدم عن حليلة من قولها: كان يشب شباباً لا يشبه الغلمان.

وفي السيرة الهاشمية أن الذي وجدته هو ورقة بن نوفل ورجل آخر من قريش، فأتيا به عبد المطلب: أي ويقال إن عمرو بن نفيل راه وهو لا يعرفه، فقال له: من أنت يا غلام؟ فقال: أنا محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم، فاحتمله بين يديه على الراحلة حتى أتى به عبد المطلب. وفي كلام بعض المفسرين في تفسير قوله تعالى: {ووجدك ضالاً فهدى} روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «ضللت عن جدي عبد المطلب وأنا صبي وصار ينشد وهو متعلق بأستار الكعبة يا رب رد ولدي محمداً البيت، فجاء أبو جهل بين يديه على ناقه وقال لجدي ألا تدري ما وقع من ابنك؟ فسأله فقال: أنخت الناقة وأركبته من خلفي، فأبت أن تقوم، فأركبته من أمامي فقامت» ويحتاج إلى جمع على تقدير صحة كل مما ذكر.

وقد يقال: لا مانع من تعدد ذلك، ويدل لذلك أن بعض المفسرين قال في تفسير قوله تعالى: {ووجدك ضالاً فهدى} قيل ضل عن حليلة مرضعته. وقيل ضل عن جده عبد المطلب وهو صغير. قالت حليلة: فقالت أمه: ما أقدمك به يا ظئر، أي يا مرضعة؟ ولقد كنت حريصة عليه وعلى مكثه عندك. قلت: قد بلغ والله، وقضيت الذي عليّ وتخوفت عليه الأحداث فأديته إليك كما تحبين، فقالت: ما هذا شأنك فأصدقيني خبرك؟ قالت: فلم تدعني حتى أخبرتها، قالت: أفتخوفت عليه الشيطان؟ قلت نعم، قالت: كلا والله ما للشيطان عليه سبيل، وإن لابني شأنًا، أفلا أخبرك خبره؟ قلت بلى، قالت: رأيت حين حملت به أنه خرج مني نور أضاء له قصور بصرى من أرض الشام، ثم حملت به فوالله ما رأيت: أي ما علمت من حمل قط كان أخف علي ولا أيسر منه، ووقع حين ولدته إنه لواضع يده بالأرض رافع رأسه إلى السماء، دعيه عنك وانطلق راشدة. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

قال: وعن حليلة أنه مر عليها جماعة من اليهود فقالت: ألا تحدثوني عن ابني هذا، حملته كذا ووضعته كذا، ورأيت كذا كما وصفت لها أمه: أي فإنها ذكرت لها ذلك مرتين عند دفعه لها وعند أخذه منها انتهى. أقول: ولا ينافي ذلك قول أمنة لحليلة: أولاً أخبرك خبره، وقول حليلة لها بلى، لجواز أن تكون أمه لم تكن متذكرة أنها أخبرتها بذلك قبل ذلك، وأن حليلة كذلك، أو جوّزت حليلة أنها تخبرها بزيادة عما أخبرتها به أولاً، بناء على اتحاد ما أخبرتها به أولاً وثانياً، والله أعلم. قالت: ولما أخبرت أولئك اليهود بذلك قال بعضهم لبعض اقتلوه، فقالوا: أيتيم هو؟ فقالت لا، هذا أبوه وأنا أمه، فقالوا لو كان يتيماً قتلناه. أقول: وهذا يدل على أن ما ذكرته أمه لحليلة من أنها حملت به خرج منها نور إلى آخر ما تقدم، وأن يكون لا أب له مذكوراً في بعض الكتب القديمة أنه

من علامة نبوة النبي المنتظر، والله أعلم.
قال: وعنها أنها نزلت به سوق عكاظ: أي وكان سوقاً للجاهلية بين الطائف
ونخلة المحل المعروف، كانت العرب إذا حجت أقامت بهذا السوق شهر
شوال، فكانوا يتفاخرون فيه، وللمفاخرة فيه سمي عكاظ، يقال: عكظ الرجل
صاحبه إذا فاخره وغلبه في المفاخرة.
وفي كلام بعضهم كان سوق عكاظ لثقيف وقيس غيلان، فرآه كاهن من الكهان
فقال يا أهل سوق عكاظ اقتلوا هذا الغلام فإن له ملكاً، فزاغت: أي مالت به
وحادت عن الطريق، فأنجاه الله تعالى: أي وفي الوفاء: لما قامت سوق عكاظ
انطلقت حليلة برسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عرّاف من هذيل يريه
الناس صبيانهم، فلما نظر إليه صاح: يا معشر هذيل، يا معشر العرب، فاجتمع
إليه الناس من أهل الموسم، فقال اقتلوا هذا الصبي، فانسلت حليلة به،
فجعل الناس يقولون: أي صبي، فيقول هذا الصبي، فلا يرون شيئاً، فيقال له ما
هو؟ فيقول: رأيت غلاماً والآلهة ليقتلن أهل دينكم، وليكسرن آلهتكم، وليظهرن
أمره عليكم فلم يوجد.

وعنها رضي الله عنها أنها لما رجعت به مرت بذي المجاز: وهو سوق للجاهلية
على فرسخ من عرفة: أي وهذا السوق قبله سوق يقال له سوق مجنة، كانت
العرب تنتقل إليه بعد انفضاضهم من سوق عكاظ فتقيم فيه عشرين يوماً من
ذي القعدة، ثم تنتقل إلى هذا السوق الذي هو سوق ذي المجاز فتقيم به إلى
أيام الحج، وكان بهذا السوق عراف: أي منجم يؤتى إليه بالصبيان ينظر إليهم،
فلما نظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أي نظر إلى خاتم النبوة وإلى
الحمرة في عينيه صاح: يا معشر العرب اقتلوا هذا الصبي، فليقتلن أهل دينكم،
وليكسرن أصنامكم، وليظهرن أمره عليكم، إن هذا لينظر أمراً من السماء،
وجعل يغري بالنبي، فلم يلبث أن وله فذهب عقله حتى مات اهـ.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

أي وفي السيرة الهاشمية أن نفرأ نصاري من الحبشة رأوه مع أمه السعدية
حين رجعت به إلى أمه بعد فطامه، فنظروا إليه وقلوبه: أي رأوا خاتم النبوة
بين كتفيه وحمرة في عينيه، وقالوا لها هل يشتكي عينيه؟ قالت، لا ولكن هذه
الحمرة لا تفارقه، ثم قالوا لها: لناخذن هذا الغلام، فلنذهبن به إلى ملكنا وبلدنا،
فإن هذا الغلام كائن لنا وله شأن، نحن نعرف أمره، فلم تكذب تنفلت به منهم
وأنت به إلى أمه.

وعنه «واسترضعت في بني سعد، فبينما أنا مع أخ لي خلف بيوتنا نرعى بهماً
لنا، أتاني رجلان عليهما ثياب بيض بيد أحدهما طلست من ذهب مملوءة ثلجاً
فأخذاني فشقاً بطني ثم استخرجا قلبي فشقاها فاستخرجا منه علقة سوداء
فطرحاها، أي وقيل هذا حظ الشيطان منك يا حبيب الله» وفي رواية
«فاستخرجا منه علقتين سوداوين» أي ولا مخالفة، لجواز أن تكون تلك العلقة
انفلقت نصفين. وفي رواية «فاستخرجا منه مغمز الشيطان» أي وهو المعبر
عنه في الرواية قبلها بحظ الشيطان.

ولا ينافي ذلك قوله في الرواية السابقة «ولا أدري ما هو» لجواز أن يكون إخباره بهذا بعد أن علمه، والمراد بمغمز الشيطان محل غمزه: أي محل ما يلقيه من الأمور التي لا تنبغي، لأن تلك العلقة خلقها الله تعالى في قلوب البشر قابلة لما يلقيه الشيطان فيها فأزيلت من قلبه فلم يبق فيه مكان لأن يلقي الشيطان فيه شيئاً فلم يكن للشيطان فيه حظ، وليست هي محل غمزه عند ولادته كما يوهمه كلام غير واحد.

وفيه أن هذا يقتضي أن يكون قبل إزالة ذلك كان للشيطان عليه سبيل. أجاب السبكي بأنه لا يلزم من وجود القابل لما يلقيه الشيطان حصول الإلقاء، أي بالفعل فليتأمل.

وسئل السبكي رحمه الله تعالى: فلم خلق الله ذلك القابل في الذات الشريفة وكان من الممكن أن لا يخلقه الله فيها؟ وأجاب بأنه من جملة الأجزاء الإنسانية فخلقت تكملة للخلق الإنساني، ثم نزع تكرمه له: أي وليظهر للخلق بذلك التكرمة ليتحققوا كمال باطنه كما تحققوا كمال ظاهره: أي لأنه لو خلق خالياً عنها لم تظهر تلك الكرامة.

وفيه أنه يرد على ذلك ولادته من غير قلفة. وأجيب بالفرق بينهما بأن القلفة لما كانت تزال ولا بد من كل أحد مع ما يلزم على إزالتها من كشف العورة كان نقص الخلقة الإنسانية عنها عين الكمال، وقد تقدم كل ذلك.

وذكر السهيلي رحمه الله ما يفيد أن هذه العلقة هي محل مغمز الشيطان عند الولادة حيث قال: إن عيسى عليه الصلاة والسلام لما لم يخلق من مني الرجال وإنما خلق من نفخة روح القدس أعيد من مغمز الشيطان.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

قال: ولا يدل هذا على فضل عيسى عليه الصلاة والسلام على محمد، لأن محمداً قد نزع منه ذلك الغمز هذا كلامه، وقد علمت أنه إنما هو محل ما يلقيه الشيطان من الأمور التي لا تنبغي، وأن ذلك مخلوق في كل واحد من الأنبياء عيسى عليه الصلاة والسلام وغيره، ولم تنزع إلا من نبينا محمد. قال: «ثم غسل قلبي بذلك الثلج» أي الذي في ذلك الطست «حتى أنقياه أي وملاّه حكمة وإيماناً» كما في بعض الروايات: أي وفي رواية «ثم قال أحدهما لصاحبه اتنني بالسكينة، فأتى بها فذراها في قلبي» وهذه السكينة يحتمل أن تكون هي الحكمة والإيمان. ويحتمل أن تكون غيرهما وهذه الرواية فيها أن الطست كان من ذهب، وكذا في الرواية الآتية. وفي الرواية قبل هذه «كانت من زمردة خضراء» ويحتاج إلى الجمع وسنذكره في هذه الرواية وكذا الرواية الآتية أن الثلج كان في الطست. وفي الرواية قبل هذه «كان في يد أحدهما إبريق فضة» ويحتاج إلى الجمع لأن الواقعة لم تتعدد، وهو عند حليلة، وفي غسله بالثلج إشعار بثلج اليقين وبرده على الفؤاد، ذكره السهيلي رحمه الله. وذكر في حكمة كون الطست من ذهب كلاماً طويلاً قال: «وجعل الخاتم بين كتفي كما هو الآن» وفي الروايات السابقة طي ذكر الخاتم.

وتتمة الجواب الذي أجاب به أخا بني عامر التي وعدنا بذكرها هنا هو قوله :
«وكنت مسترضعاً في بني سعد، فبينما أنا ذات يوم منتبذاً أي منفرداً «من أهلي
في بطن واد مع أتراب لي» أي المقاربين بالموحدة أو النون «لي في السن
من الصبيان، إذ أتى رهط ثلاثة معهم طلست من ذهب ملآن ثلجاً فأخذوني من
بين أصحابي، فخرج أصحابي هراباً حتى أتوا على شفير الوادي، ثم أقبلوا على
الرهط فقالوا، ما أرىكم؟ أي ما حاجتكم إلى هذا الغلام؟ فإنه ليس منا، هذا ابن
سيد قريش، وهو مرتضع فينا، يتيم ليس له أب، فما يرد عليكم أن يفيدكم قتله،
وماذا تصيبون من ذلك؟ فإن كنتم لا بد قاتلوه أي إن كان لا بد لكم من قتل
واحد فاختراروا منا من شئتم فلياتكم مكانه، فاقتلوه ودعوا هذا الغلام فإنه يتيم،
فلما رأى الصبيان أن القوم لا يجيبون جواباً انطلقوا هراباً مسرعين إلى الحيِّ
يؤذنونهم» أي يعلمونهم «ويستصرخونهم على القوم، فعمد أحدهم إليَّ
فأضجني على الأرض إضجاعاً لطيفاً، ثم شق بطني ما بين مفرق صدري إلى
منتهى عانتي وأنا أنظر إليه، فلم أجد لذلك مساً» أي أدنى مشقة «واستخرج
أحشاء بطني ثم غسلها بذلك الثلج فأنعم غسلها» أي بالغ في غسلها «ثم
أعادها مكانها» أي وقد طوى ذكر استخراج الأحشاء وغسلها في الروايات
السابقة. ولا يخفى أن من جملة الأحشاء ظاهر القلب «ثم قال الثاني منهم
لصاحبه تنح عنه، فنحاه عني، ثم أدخل يده في جوفي، فأخرج قلبي وأنا أنظر
إليه فصدعه ثم أخرج منه مضغة سوداء» تقدم التعيير عنها بالعلقة السوداء
«ثم رمى بها، ثم قال بيده يمنة منه كأنه يتناول شيئاً، وإذا بخاتم في يده من
نور يحار الناظرون دونه فختم به قلبي» أي بعد التثام شقه «فامتلاً نوراً وذلك
نور النبوة والحكمة» وقد تقدم «وملاه حكمة وإيماناً» وإن السكينة ذرت فيه
ثم أعاده مكانه فوجدت برد الخاتم في قلبي دهرأ، وفي رواية «فأنا الساعة
أجد برد الخاتم في عروقي ومفاصلي».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

أقول: نقل شيخ بعض مشايخنا الشيخ نجم الدين الغيطي عن مغازي بن عائذ
في حديثه لأخي بني عامر «وأقبل أي الملك وفي يده خاتم له شعاع فوضعه
بين كتفيه وثدييه» فليتأمل، وقوله «فصدعه» يدل بظاهره على أن صدعه كان
بيد الملك، فلم يشقه بألة، وحينئذ يكون المراد بالشق الصدع بلا آلة. وقد طوى
في هذه الرواية ذكر ملء قلبه حكمة وإيماناً، وأنه ذرّ فيه السكينة. وذكر في
هذه الرواية أن الختم كان لقلبه، وفي الرواية قبلها «أنه كان بين كتفيه» وفي
رواية ابن عائذ «وبين ثدييه» ويحتاج إلى الجمع. والظاهر أن متعاطي الختم
جبريل، ويدل عليه قول صاحب الهمزية رحمه الله في هذه القصة * ختمته
يمنى الأمين. وسيأتي التصريح بذلك لكن في غير هذه القصة والله أعلم. قال :
«ثم قال الثالث لصاحبه تنح عنه فنحاه عني فأمرّ يده ما بين مفرق صدري إلى
منتهى عانتي، فالتأم ذلك الشق بإذن الله تعالى، وختم عليه» وفي رواية «قال
أحدهما للآخر خطه فخاطه وختم عليه».

أقول: وقد يقال معنى خطه لحمه، فخاطه «أي لحمه» أي مرّ بيده عليه
فالتحم أي فلا يخالف ما سبق، ولا ينافيه ما في الحديث الصحيح أنهم كانوا
يرون أثر المخيط في صدره، لجواز أن يكون المراد يرون أثراً كأثر المخيط
في صدره وهو أثر مرور يد جبريل عليه الصلاة والسلام، وهذا طوى ذكره في

الروايات السابقة، وقوله ختم عليه يقتضي أن الختم كان في صدره وهو الموافق لما تقدم عن ابن عائذ أنه بين ثدييه لكنه زاد بين كتفيه، وتقدم أن الختم كان بقلبه.

وقد يقال في الجمع، لا مانع من تعدد الختم في المحال المذكورة أي في قلبه وصدره وبين كتفيه، فختم القلب لحفظ ما فيه، وختم الصدر وبين الكتفين مبالغة في حفظ ذلك لأن الصدر وعاؤه القريب، وجسده وعاؤه البعيد، وخص بين الكتفين لأنه أقرب إلى القلب من بقية الجسد، ولعله أولى من جواب القاضي عياض رحمه الله بأن الذي بين كتفيه هو أثر ذلك الختم الذي كان في صدره، إذ هو خلاف الظاهر من قوله: «وجعل الخاتم بين كتفي» وفيه السكوت عن ختم قلبه، ولا يحسن أن يراد بالصدر القلب من باب تسمية الحال باسم محله، لأنه يصير ساكتاً عن ختم الصدر.

وأولى من جواب الحافظ ابن حجر رحمه الله أيضاً بأنه يجوز أن يكون الختم لقلبه ظهر من وراء ظهره عند كتفه الأيسر، لأن القلب في ذلك الجانب لما علمت، وفيهما أن الذي عند الأيسر خاتم النبوة: أي الذي هو علامة على النبوة الذي ولد به على ما هو الصحيح.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

وفي الخصائص الصغرى: وخص بجعل خاتم النبوة بظهره بإزاء قلبه حيث يدخل الشيطان لغيره وسائر الأنبياء كلهم كان الخاتم في يمينهم. أي فقد أخرج الحاكم في المستدرک عن وهب بن منبه قال: «لم يبعث الله نبياً إلا وقد كان عليه شامات النبوة في يده اليمنى إلا نبينا فإن شامة النبوة كانت بين كتفيه» هذا كلامه، ولم أقف على بيان تلك الشامات التي كانت للأنبياء ما هي.

وكتب الشهاب القسطلاني على هامش الخصائص قوله: «وجعل خاتم النبوة بظهره الخ» مشكل إذ مفهومه أن موضع الدخول لقلوب الأنبياء غير نبينا لم يختم، ولا يخفى ما فيه من المحذور، فما أشنعها من عبارة وأخطأها من إشارة، هذا كلامه.

ولك أن تقول: المراد بغيره في قوله حيث يدخل الشيطان لغيره من غير الأنبياء، لما علم وتقرر في النفوس من عصمة الأنبياء من الشيطان واختص نبينا من بين سائر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بالختم في المحل المذكور مبالغة في حفظه من الشيطان وقطع أطماعه فليتأمل.

لا يقال: كل من جواب القاضي والحافظ ابن حجر يجوز أن يكون مبنياً على أن خاتم النبوة هو أثر هذا الختم، وهو موافق لما تمسك به القائل بأن خاتم النبوة لم يولد به، وإنما حدث بعد الولادة.

لأننا نقول: على تسليم أنه حدث بعد الولادة فقد وجد عقبها، فعن أبي نعيم في الدلائل أنه لما ولد ذكرت أمه أن الملك غمسه في الماء الذي أنبعه ثلاث غمسات، ثم أخرج صرة من حرير أبيض فإذا فيها خاتم فضرب على كتفه كالبيضة المكنونة، وبذلك يعلم أن خاتم النبوة ليس أثراً لهذا الخاتم.

وكلام السهيلي يقتضي أنه هو حيث قال: إن هذا الحديث الذي في شق صدره في الرضاة فيه فائدة من تبين العلم، وذلك أن خاتم النبوة لم يدر أنه خلق به أو وضع فيه بعد ما ولد، أو حين نبىء، فبين في هذا الحديث متى وضع وكيف وضع ومن وضعه زادنا الله تعالى علماً، وأوزعنا شكر ما علم هذا كلامه. ثم رأيت عن الحافظ ابن حجر ما يوافق فيه حيث قال: ومقتضى الأحاديث التي فيها شق الصدر ووضع الخاتم أنه لم يكن موجوداً حين ولادته، وإنما كان أول وضعه لما شق صدره عند حليلة، خلافاً لمن قال ولد به أو حين وضع هذا كلامه.

ولا يخفى أن ما قلناه من أن هذا الخاتم غير خاتم النبوة أولى، لأن به يجتمع القولان، وتندفع المخالفة. والجمع أولى من التضعيف، لما صح من أنه ولد به، وعلى أنه هو يلزم أن يكون خاتم النبوة تعدد محله، فوجد بين كتفيه وفي صدره وفي قلبه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

لا يقال: قد أشير إلى الجواب عن ذلك بأن الموجود بين كتفيه إنما هو أثر ما في صدره وقلبه.

لأننا نقول يبطله ما تقدم عن الدلائل لأبي نعيم، وما تقدم عن بعض الروايات «فأقبل الملك وفي يده خاتم فوضعه بين كتفيه وثديه» وأيضاً يلزم عليه أن يكون خاتم النبوة تكرر الإتيان به ثانياً في قصة المبعث، وثالثاً في قصة الإسراء. ففي قصة المبعث «فأكفاني كما يكفأ الإناء ثم ختم في ظهري» وفي قصة الإسراء «ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوة» وكل منهما يبطل كون ما في ظهره أو بين كتفيه أثراً لذلك الختم الذي وجد في صدره أو قلبه. إلا أن يقال ما في قصة المبعث وقصة الإسراء غير خاتم النبوة وإن خاتم النبوة إنما هو الأثر الحاصل من ختم صدره وقلبه وفي قصة الرضاة، وإنه تكرر الختم على ذلك الأثر في المبعث وفي قصة الإسراء، وفيه أنه لا معنى لتكرر الختم في محل واحد.

ولا يقال: الغرض منه المبالغة في الحفظ، لأن ذلك إنما يكون عند تعدد محل الختم لا عند إعادته ثانياً وثالثاً في محل واحد. وأيضاً هو خلاف ظاهر كلامهم من أنه في المحال الثلاثة خاتم النبوة، ويؤيده أن المتبادر من القول في قصة الإسراء «ثم ختم بين كتفيه بخاتم النبوة» أنه جعل خاتم النبوة بين كتفيه، وإلا فما معنى كون الخاتم بمعنى الطابع: أي خاتم النبوة.

فإن قلت: على دعوى الغيرية يحتاج إلى الجواب عن قوله بخاتم النبوة. قلت: قد يقال هذا ليس برواية عن الشارع، وإنما وقعت تلك العبارة عن بعضهم. ويجوز أن يكون الباء في كلامهم بمعنى مع: أي مع خاتم النبوة فتأمل، والله أعلم.

قال: «ثم أخذ بيدي فأنهضني من مكاني إنهاضاً لطيفاً، ثم قال الأول للذي شق صدري زنه بعشرين من أمته فوزني فرجحتهم، ثم قال زنه بمائة من أمته فوزني فرجحتهم، ثم قال زنه بألف من أمته فوزني فرجحتهم، ثم قال دعه فلو وزنتموه بأمته كلهم لرجحهم كلهم، ثم ضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني ثم قالوا يا حبيب الله لم ترع، إنك لو تدري ما يراد بك من الخير لقرت عيناك».

أقول في بعض الروايات «زنه بعشرة ثم قال زنه بمائة» ففي هذه الرواية طي ذكر وزنه بعشرين، وفي تلك الرواية طي ذكر وزنه بعشرة والله أعلم. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

قال: قال رسول الله: «وبينا نحن كذلك إذا بالحي قد أقبلوا بحذافيرهم - أي بأجمعهم - وإذا بظئري - أي مرضعتي - أمام الحي تهتف - أي تصيح بأعلى صوتها - وتقول: واضعيفاه، فأكبوا عليّ - يعني الملائكة الذين هم أولئك الرهط الثلاثة - وضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني، وقالوا حبذا أنت من ضعيف، ثم قالت ظئري يا وحيداه، فأكبوا عليّ فضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني، وقالوا حبذا أنت من وحيد وما أنت بوحيد، إن الله معك وملائكته والمؤمنين من أهل الأرض، ثم قالت ظئري يا يتيماه استضعفت من بين أصحابك فقتلت لضعفك، فأكبوا عليّ وضموني إلى صدورهم وقبلوا رأسي وما بين عيني وقالوا حبذا أنت من يتيم ما أكرمك على الله لو تعلم ما أريد بك من الخير لقرت عينك، فوصلوا يعني الحي إلى شفير الوادي: فلما أبصرتني أمي وهي ظئري قالت: لا أراك إلا حياً بعد، فجاءت حتى أكبت عليّ ثم ضممتني إلى صدرها فوالذي نفسي بيده إنني لفي حجرها قد ضممتني إليها ويدي في أيديهم يعني الملائكة، وجعل القوم لا يعرفونهم - أي لا يبصرونهم - فأقبل بعض القوم يقول إن هذا الغلام قد أصابه للمم: أي طرف من الجنون أو طائف من الجن أي وهي اللمة فانطلقوا به إلى كاهن حتى ينظر إليه ويداويه، فقلت يا هذا ما بي مما تذكر، إن أرابي أي أعصابي سليمة وفؤادي صحيح ليس بي قلبة أي علة يقلب بها إلى من ينظر فيها، فقال أبي وهو زوج ظئري: ألا ترون كلامه صحيحاً إنني لأرجو أن لا يكون بابني بأس، واتفقوا على أن يذهبوا بي إليه: أي إلى الكاهن، فلما انصرفوا بي إليه فقصوا عليه قصتي، فقال اسكتوا حتى أسمع من الغلام فإنه أعلم بأمره منكم، فسألني فقصصت عليه أمري من أوله إلى آخره فوثب قائماً

إلي وضممتني إلى صدره ثم نادى بأعلى صوته: يا للعرب يا للعرب من شرّ قد اقترب، اقتلوا هذا الغلام واقتلوني معه، فواللات والعزى لئن تركتموه فأدرك مدرك الرجال لبيدكن دينكم وليسفهن عقولكم وعقول آبائكم وليخالفن أمركم وليأتينكم بدين لم تسمعوا بمثله» وفي رواية «ليسفهن أحلامكم أي عقولكم وليكذبن أوثانكم وليدعونكم إلى رب لم تعرفونه ودين تنكرونه فعمدت ظئري وانتزعنتني من حجره وقالت لأنبت أعتة وأجن ولو علمت أن هذا قولك ما أتيتك به، فاطلب لنفسك من يقتلك فأنا غير قاتلي هذا الغلام ثم احتملوني إلى أهلهم وأصبحت مفزعاً مما فعلوا، يعني الملائكة بي» أي من حملي من بين أترابي وإلقائي إلى الأرض، لا من خصوص الشق لما تقدم «وأصبح أثر الشق ما بين صدري إلى منتهى عانتي أي» أثر التئام الشق الناشء عن إمرار يد الملك كأنه الشراك اهـ.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

أقول: الشراك أحد سيور النعل الذي هو المداس الذي يكون على وجهها، ولعل حكمة بقائه ليدل على وجود الشق.

واعلم أنه حيث كانت قصة شق صدره الشريف في زمن الرضاع عند حليلة واحدة يكون هذه الروايات المراد منها واحد، وأن بعضها وقع فيها الاختصار عما وقعت به الإطالة في بعضها، وأن إخباره بأن الملائكة كانوا ثلاثة لا ينافي إخباره بأنهم كانوا اثنين، ونسبة الأخذ والإضجاع والشق للبطن أو الصدر إلى الثلاثة أو إلى الاثنين، لا ينافي أن متعاطي ذلك واحد منهم كما أخبر به أخوه، وجاء التصريح به في بعض الروايات، وأن التعبير في بعضها بشق البطن هو المراد بشق الصدر إلى منتهى العانة في بعضها، وأنه ليس المراد بشق البطن أو شق الصدر شق القلب، لما تقدم في الرواية «واستخرج أحشاء بطني ثم غسلها ثم أعادها مكانها، ثم قال لصاحبه تنح عنه، فنجاه عني، ثم أدخل يده في جوفي فأخرج قلبي فصدعه الحديث» وأنه يجوز أن يكون الطسيت كان متعدداً واحداً من زمردة خضراء وواحداً من ذهب، وأن الأول كان فارغاً معداً لأن يلقى فيه ماء يغسل به باطنه أي مع أحشائه ومنها أي من جملة الأحشاء ظاهر قلبه من الإبريق الفضة وأن الثاني كان مملوءاً ثلجاً معداً لأن يغسل به قلبه: أي داخل قلبه.

وحينئذ يكون في بعض الروايات اقتصر على القلب، وفي بعضها جمع بينه وبين الأحشاء في ذلك ويحتاج إلى الجمع بين كون الشق في ذروة الجبل وكونه في شفير الوادي، وكون المخرج علقه وكونه مضغعة. وقد يقال جاز أن تكون ذروة الجبل قريبة من شفير الوادي، وأنه عبر عن الذي أخرجه وألقاه تارة بالعلقة وتارة بالمضغعة، ولعل تلك المضغعة كانت قريبة من العلقه ولا يخفى أن هذه العلقه يحتمل أنها غير حبة القلب التي أخذت منها المحبة وهي علقه سوداء في صميمه المسماة بسويداء القلب.

ويحتمل أنها هي والله أعلم، وقد أشار إلى هذه القصة صاحب الهمزية بقوله:
وأنت جده وقد فصلته
وبها من فصاله البرحاء
إذ أحاطت به ملائكة الله
فظنت بأنهم قرناء
ورأى وجدها به ومن الوجـ
د لهيب تصلى به الأحشاء
فارقته كرهاً وكان لديها

ثاوباً لا يمل منه الثواء
شق عن قلبه وأخرج منه
مضغعة عند غسله سوداء
ختمته يمنى الأمين وقد أو
دع ما لم يذع له أنباء
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138
صان أسرار الختام فلا الفـ
ض ملّم به ولا الإفضاء
أي وأنت حليلة به جده والحال أنها فطمته والحال أنه لحق بها من أجل

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

فطامه، وردّه التآلم الزائد، وردّها له لأجل أنه أهدقت به ملائكة الله فظنتهم شياطين، ورأى شدة محبتها له وتعلقها به، وقد حصل لها من الوجد الذي بها لهب تحترق الأحشاء به، وهي ما تحويه الضلوع، وفارقت بعد ردّه هاله كارهة لفراقه والحال أنه كان مقيماً عندها لا تملّ ذلك منه، وقد شق عن قلبه وأخرج من ذلك القلب عند غسله مضغة سوداء ختمت على ذلك القلب يمين الأمين جبريل بخاتم، والحال أن ذلك القلب الشريف قد أودع من الأسرار الإلهية ما لم تنشره أخبار، لأن تلك الأسرار لا يعلمها إلا الله سبحانه وتعالى، حفظ ذلك الختام أسراره التي أودعت فيه، فلا الكسر واقع بذلك الختم ولا الإشاعة واقعة لتلك الأسرار.

أقول: قد علمت أن صدره الشريف شق مرّتين غير هذه المرة: مرّة عند مجيء الوحي، ومرّة عند المعراج؛ وزاد بعضهم أنه شق عند بلوغه عشر سنين كما في مسلم.

ولما بلغ عمره عشرين سنة: أي ولعلها هي المعنية بقول صاحب المواهب وروي خامسة ولم تثبت وستأتي تلك الخامسة عن الدرّ المنثور، وسيأتي ما فيها والله أعلم.

قال: وفي المرة التي كان ابن عشر سنين: أي وأشهر قال: «جاءني رجلان، فقال أحدهما لصاحبه أضجعه فأضجعتني لحلاوة القفا، ثم شقا بطني فكان أحدهما يختلف بالماء في طست من ذهب، والآخر يغسل جوفي، ثم شق قلبي فقال أخرج الغل والحسد منه، فأخرج منه العلقه».

والمتبادر أن آل في العلقه للعهد، وهي العلقه السوداء، التي تقدم أنها حظ الشيطان وأنها مغمزة فهي محل الغل والحسد.

وفيه أنه تقدم أيضاً أن تلك العلقه أخرجت وألقيت قبل هذه المرة وتكرر نبذها مستحيل إلا أن تحمل العلقه على جزء بقي من أجزائها بناء على جواز أنها تجزأت أكثر من جزئين، المعبر عنهما فيما تقدم عن بعض الروايات علقتين سوداوين، إلا أن يقال المراد بقوله فأخرج منه العلقه أي أخرج ما هو كالعلقه: أي شيئاً يشبه العلقه كما سيأتي التصريح بذلك في بعض الروايات «فأدخل شيئاً كهينة الفضة، ثم أخرج ذروراً كان معه فذره عليه أي على شق القلب ليلتحم به ثم نقر إبهامي ثم قال اغد واسلم».

أقول: لم يذكر في هذه المرة الختم. وظاهر هذه الرواية أن الصدر التحم بمجرد ذر الذرور. وتقدم في قصة الرضاع أن ذلك كان من إمرار يد الملك واستمر أثر التمام الشق يشاهد كالشراك.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

وفي الدر المنثور عن زوائد مسند الإمام أحمد عن أبي بن كعب، عن أبي هريرة قال: «يا رسول الله ما أول ما رأيت من أمر النبوة؟ فاستوى رسول الله صلى الله عليه وسلم جالساً وقال: لقد سألت يا أبا هريرة إني لفي صحراء ابن عشرين سنة وأشهر، إذا بكلام فوق رأسي، وإذا برجل يقول لرجل أهو هو، فاستقبلاني بوجهه لم أرها لخلق قط، وثياب لم أرها على أحد قط،

فأقبلا إليّ يمشيان حتى أخذ كل واحد منهما بعضدي، لا أجد لأحدهما مساً فقال أحدهما لصاحبه أضجعه، فأضجعاني بلا قصر ولا هصر» أي من غير إتعاب «فقال أحدهما لصاحبه: اقلق صدره، ففلقه فيما أرى بلا دم ولا وجع، فقال له: أخرج الغلّ والحسد فأخرج شيئاً كههيئة العلقة ثم نبذها فطرحها فقال له أدخل الرأفة والرحمة فإذا مثل الذي أخرج» أي ليدخله بشبه الفضة «ثم نقر إبهام رجلي اليمنى وقال اغد واسلم فرجعت أغدو بها رأفة على الصغير ورحمة على الكبير» ولم يذكر في هذه المرة الغسل فضلاً عما يغسل به، ولم يذكر الختم، ولكن قول الرجل للآخر أهو هو يدل على أن الرجلين ليسا جبريل وميكائيل لأنهما يعرفانه، وقد فعلا به ذلك في قصة الرضاع. وقد يدعي أن هذه الرواية هي عين الرواية قبلها، وذكر عشرين سنة غلط من الراوي، وإنما هي عشر سنين.

ثم رأيت ما يصرح بذلك وهو كان سنة عشر حجج، وقد تحمل هذه المرة أي كونه ابن عشرين سنة، على أن ذلك كان في المنام وإن كان خلاف ظاهر السياق.

وقال في المرة التي هي عند ابتداء الوحي: «جاءني جبريل وميكائيل فأخذني جبريل وألقاني لحلاوة القفا، ثم شق عن قلبي فاستخرجه، ثم استخرج منه ما شاء الله أن يستخرج» ولم يبين ذلك ما هو «ثم غسله في طست من ماء زمزم ثم أعاده مكانه ثم لأمه: أي بذلك الذرور: أي بإمرار يده أو بهما جميعاً ثم أكفاني كما يكفى الإناء ثم ختم في ظهري».

يحتمل أن يكون المراد في غير المحل الذي ختمه في قصة الرضاع وهو بين كتفيه. ويحتمل أن المراد بظهره المحل الذي ختمه في قصة الرضاع. وفيه أنه لا معنى لوضع الختم على الختم كما تقدم ويمكن أن تكون الحكمة في الجمع بين جبريل وميكائيل أن ميكائيل ملك الرزق الذي به حياة الأجساد والأشباح، وجبريل ملك الوحي الذي به حياة القلوب والأرواح، والمرة التي هي عند المعراج سيأتي الكلام عليها. وفيها أن الختم وقع بين كتفيه وفيه ما علمت. وقد علمت أن شق الصدر والبطن غير شق القلب، وأن شق القلب وإخراج العلقة السوداء التي هي حظ الشيطان ومغمزه مما اختص به عن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

وما في بعض الآثار أن التابوت أي تابوت بني إسرائيل كان فيه الطست الذي غسلت فيه قلوب الأنبياء المراد ظاهر قلوبهم، لأن القلب من جملة الأحشاء التي غسلت بغسل الصدر أو البطن كما تقدم على أن ابن دحية ذكر أنه أثر باطل.

وقد يطلق الصدر على القلب من باب تسمية الحال باسم محل. ومنه ما وقع في قصة المعراج «ثم أتى بطست ممتلئ حكمة وإيماناً فأفرغ في صدره» ومنه قول الجلال السيوطي في الخصائص الصغرى: إن شق صدره الشريف من خصائصه على الأصح من القولين: أي شق قلبه. وسيأتي الكلام على ذلك في الكلام على المعراج بما هو أبسط مما هنا. وعن حليلة رضي الله تعالى عنها: أنها كانت بعد رجوعها به من مكة لا تدعه أن يذهب مكاناً بعيداً: أي عنها، فغفلت عنه يوماً في الظهيرة فخرجت تطلبه

فوجدته مع أخته أي من الرضاة وهي الشيماء، وكانت تحضنه مع أمها أي
ولذلك تدعى أم النبي أيضاً () أي وكانت ترقصه بقولها:
هذا أخ لي لم تلده أُمِّي
وليس من نسل أبي وعمي

أنمه اللهم فيما تنمي فقالت في هذا الحر: أي لا ينبغي أن يكون في هذا الحر،
فقالت أخته: يا أمه ما وجد أخي حراً، رأيت غمامة تظلُّ عليه، إذا وقف وقفت،
وإذا سار سارت حتى انتهى إلى هذا الموضع، فجعلت تقول: أحقاً يا بنية؟
قالت: إي والله، فجعلت تقول: أعود بالله من شرِّ ما يحذر على ابني: أي وفي
كلام بعضهم: ورأت يعني حليلة الغمامة تظله، إذا وقف وقفت، وإذا سار
سارت.

وقد يقال الرؤية في حق حليلة علمية، وفي حق أخته بصرية فلا مخالفة، أو
أنها أبصرتها بعد الإخبار بها كما يدل على ذلك القول بأنه أفزعها ذلك من أمره
أي وفي كونها فزعت من ذلك بعد إخبار أخته لها بذلك شيء، فقدمت به على
أمه.

أقول: عن الواقدي أن حليلة لما قدمت به إلى مكة لترده لأمه رأت غمامة
تظله في الطريق، إن سار سارت، وإن وقف وقفت. وسياق هذه الرواية
يقتضي أنها ردت به إلى أمه عقب مجيئها به من مكة، وأن ذلك كان قبل شقِّ
صدره عندها.

وحينئذ تكون هذهقدمة ثانية لحليلة إلى مكة كانت قبل شق صدره، ففي
القدمة الأولى كان سنه سنتين، وفي هذه المقدمة كان سنه سنتين وأشهرًا
وتكون هذه المرة الثانية محمل قول حليلة: فوالله إنه بعد مقدمنا بأشهر.
وقول ابن الأثير بشهرين أو ثلاثة.

وأما في المقدمة الثالثة وهي التي بعد شق صدره وتركها له عند أمه كان سنه
أربع سنين، وفيها كانت وفاتها على ما يأتي، وقيل خمس سنين قاله ابن عباس،
وقيل ست سنين، ويكون بعض الرواة اشتبه عليه الأمر، وظن أن هذه المقدمة
الثانية التي قبل شق صدره هي الثالثة التي بعد شق صدره فلزم الإشكال،
فتأمل ذلك تأملاً حميداً، ولا تكن ممن يفهم تقليداً، والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

ووفدت عليه حليلة بعد تزوجه خديجة تشكو إليه ضيق العيش، فكلّم لها خديجة
فأعطتها عشرين رأساً من غنم وبكرات، جمع بكرة: وهي الثنية من الإبل: أي
وفي رواية أربعين شاة وبعيراً أهـ.

ووفدت عليه يوم حنين فبسط لها رداءه فجلست عليه، أي فقد قال بعضهم:
لم تره بعد أن ردت به إلا مرتين: إحداهما بعد تزوجه خديجة: أي وعليه تكون هذه
المرة هي التي قدمت فيها مع زوجها وولدها وأجلسهم على رداءه أي ثوبه
الذي كان جالساً عليه كما تقدم، والمرة الثانية يوم حنين.
وفي كلام القاضي عياض: ثم جاءت أبا بكر ففعل ذلك: أي بسط لها رداءه، ثم
جاءت عمر ففعل كذلك (.)

وفي كلام ابن كثير أن حديث مجيء أمه إليه في حنين غريب وإن كان محفوظاً، فقد عمرت دهرًا طويلاً لأن من وقت أرضعت رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى وقت الجعرانة: أي بعد رجوعه من حنين أزيد من ستين سنة. وأقل ما كان عمرها حين أرضعته عليه الصلاة والسلام ثلاثين سنة وكونها وفدت على أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما تزيد المدة على المائة. وعن أبي الطفيل قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم لحماً بالجرعانة: أي بعد رجوعه من حنين، كما تقدم، والطائف وأنا غلام شاب فأقبلت امرأة، فلما رآها رسول الله صلى الله عليه وسلم بسط لها رداءه، فقيل: من هذه؟ قيل: أمه التي أرضعته» وفي رواية «استأذنت امرأة على النبي صلى الله عليه وسلم قد كانت ترضعه، فلما دخلت عليه قال: أمي أمي وعمد إلى رداءه فبسطه لها فقعدت عليه» اهـ. وتقدم عن شرح الهمزية لابن حجر أن من سعادة حليلة توفيقها للإسلام هي وزوجها وبنوها.

وفي الأصل ومن الناس من ينكر إسلامها، وأشار بذلك إلى شيخه الحافظ الدمياطي فإنه من جملة المنكرين حيث قال: أي في سيرته: حليلة لا يعرف لها صحبة ولا إسلام، وقد وهم غير واحد فذكروها في الصحابة وليس بشيء، وكان الأنسب أن يقول ذكروا إسلامها وليس بشيء ويوافقه قول الحافظ ابن كثير الظاهر أن حليلة لم تدرك البعثة. ورده بعضهم فقال: إسلامها لا شك فيه عند جماهير العلماء، ولا يعول على قول بعض المتأخرين إنه لم يثبت. فقد روى ابن حبان حديثاً صحيحاً دل على إسلامها، وأنكر الحافظ الدمياطي وفودها عليها في حنين وقال: الوافدة عليه في ذلك إنما هي أخته من الرضاعة وهي الشيماء.

أقول: وعلى صحة ما قاله الحافظ الدمياطي لا ينافيه قوله: «أمي أمي» لأنه كان يقال لأخته الشيماء أم النبي، لأنها كانت تحضنه مع أمها كما تقدم، ولا قول بعض الصحابة أمه التي أرضعته، لأنه يجوز أنه لما قبل أمه حملها على المرضعة له لتيقن موت أمه من النسب. وعلى كون الوافدة عليه في حنين أخته اقتصر في الهدى والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

أقول: قال الحافظ ابن حجر بعد أن أورد عدة آثار في مجيء أمه من الرضاعة إليه في حنين، وفي تعدد هذه الطرق ما يقتضي أن لها أصلاً أصيلاً، وفي اتفاق الطرق على أنها أمه رد على من زعم أن التي قدمت عليه أخته اهـ. أقول: لا رد في ذلك، لأنه علم أن أخته المذكورة كان يقال لها أم النبي، ووصف بعض الصحابة لها بأنها أمه من الرضاعة تقدم أنه يجوز أن يكون بحسب ما فهم.

ومما يعين أنها أخته ما سيأتي أنها لما أخذت في حنين من جملة سبي هوازن قالت للمسلمين: أنا أخت صاحبكم، فلما قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت له: يا رسول الله أنا أختك، قال: وما علامة ذلك، قالت عضه عضيتيها في ظهري وأنا متوركتك فعرف رسول الله صلى الله عليه وسلم

العلامة، فقام لها قائماً وبسط لها رداءه وأجلسها عليه، ودمعت عيناه إلى آخر ما يأتي.

وكلام المواهب يقتضي أنهما قضيتان: واحدة كانت فيها أخته، والأخرى كانت فيها أمه من الرضاعة حيث قال: «وقد روي أن خيلاً له أغارت على هوازن، فأخذوها يعني أخته من الرضاعة التي هي الشيماء، فقالت أنا أخت صاحبكم إلى أن قال فبسط لها رداءه وأجلسها عليه فأسلمت» ثم قال: وجاءته يعني أمه من الرضاعة التي هي حليلة يوم حنين فقام إليها وبسط رداءه لها وجلست عليه.

وهذا كما ترى يوهم أن الخيل التي أغارت على هوازن التي كانت فيها أخته لم تكن في حنين، وأن أمه لم تكن يوم حنين في سبي هوازن مع أن القصة واحدة، وأن سبي هوازن كان يوم حنين. فيلزم أن يكون جاء إليه يوم حنين كل من أمه وأخته من الرضاعة الأولى في غير السبي والثانية في السبي. وأنه فرش لكل رداءه، وهو تابع في ذلك لابن عبد البر حيث قال في الاستيعاب: حليلة السعدية أم النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة جاءت إليه يوم حنين، فقام لها وبسط لها رداءه فجلست عليه وروت عنه: وروي عنها عبد الله بن جعفر، ثم قال حذافة أخت النبي صلى الله عليه وسلم من الرضاعة يقال لها الشيماء، أغارت خيل رسول الله صلى الله عليه وسلم على هوازن، فأخذوها فيما أخذوا من السبي الحديث، وكون عبد الله بن جعفر روى عن حليلة.

قال الحافظ ابن حجر: لا يتهيأ له السماع منها إلا بعد الهجرة بسبع سنين فأكثر، لأنه قدم من الحبشة مع أبيه الذي هو جعفر بن أبي طالب في خبير سنة سبع، وتبعد حياتها وبقاؤها إلى ذلك الزمن.

وفيه أن حيناً بعد خبير، وأبعد من ذلك وقوفها على أبي بكر وعمر، وقد تقدم ما يشعر باستبعاد ذلك عن ابن كثير. والذي يتجه أن الوافدة عليه في حنين أخته لا أمه كما يقول الحافظ الدمياطي، والله أعلم. قال أبو الفرج بن الجوزي: ثم قدمت، أي حليلة، عليه بعد النبوة فأسلمت وبايعت أي فلا يقال: سلمنا أن حليلة هي القادمة عليه: أي بعد النبوة، فما الدليل على إسلامها اهـ.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138

أقول: كان من حقه أن يقول بدل هذه العبارة التي ذكرها وإنما قال يعني ابن الجوزي فأسلمت بعد قوله قدمت عليه بعد النبوة لأنه لا يلزم من قدمها عليه بعد النبوة إسلامها. وفي كون قول ابن الجوزي فأسلمت دليلاً على إسلامها نظر، بل هي دعوى تحتاج إلى دليل، إلا أن يقال: قول ابن الجوزي فأسلمت دليل لنا على إسلامها: والله أعلم.

وذكر الذهبي أن التي وفدت عليه في الجعرانة يجوز أن تكون ثوبية، ونظر فيه بأن ثوبية توفت سنة سبع: أي من الهجرة أي مرجعه من خبير على ما تقدم. أقول ذكر في النور أن الحافظ مغلطاي له مؤلف في إسلام حليلة سماه: التحفة الجسيمية في إسلام حليلة.

وذكر بعضهم أنه لم ترضعه مرضعة إلا وأسلمت، لكن هذا البعض قال: ومرضعاته أربع: أمه وحليلة السعدية وثوبية وأم أيمن أيضاً.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وهو يؤيد ما تقدم عن ابن منده من إسلام ثوية: وأما إسلام أمنة فسندكره،
وكون أم أيمن أَرْضَعَتْه تقدم ما فيه، والله سبحانه وتعالى أعلم.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 138
باب: وفاة أمه وحضانة أم أيمن لهوكفالة جده عبد المطلب إياه
أي اختصاصه بذلك.

ذكر ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ماتت أمه لما بلغ ست
سنين. وقيل كان سنه أربع سنين، وبه صدر في المواهب: أي وهو يرد القول
بأن حليلة لما رده إلى أمه كان عمره خمس أو ست سنين: قال: وقيل كان
سنه سبع سنين، وقيل ثمان، وقيل تسع، وقيل اثنتي عشرة وشهراً وعشرة
أيام أهـ.
ووفاتها كانت بالأبواء، وهو محل بين مكة والمدينة: أي وهو إلى المدينة أقرب.
وسمي بذلك لأن السيول تتبوأه: أي تحل فيه ودفنت به. فقد جاء أنه لما مر
بالأبواء في عمرة الحديبية قال: إن الله أذن لمحمد في زيارة قبر أمه، فأتاه
وأصلحه، وبكى عنده، وبكى المسلمون لبكائه وقيل له في ذلك، فقال:
أدركنني رحمتها فبكيت وكان موتها وهي راجعة به من المدينة من زيارة
أخواله: أي أخوال جده عبد المطلب، لأن أم عبد المطلب من بني عدي بن
النجار كما تقدم، بعد أن مكثت عندهم شهراً ومرضت في الطريق ومعها أم
أيمن بركة الحبشية التي ورثها من أبيه عبد الله على ما تقدم، فحضنته وجاءت
به إلى جده عبد المطلب: أي بعد خمسة أيام من موت أمه، فضمه إليه ورق
عليه رقة لم يرقها على ولده.
هذا وفي كلام بعضهم: وبقي النبي صلى الله عليه وسلم بعد موت أمه بالأبواء
حتى أتاه الخبر إلى مكة: وجاءت أم أيمن مولاة أبيه عبد الله فاحتملته، وذلك
لخامسة من موت أمه فليتأمل.
وكون موت أمه كان في حياة عبد المطلب هو المشهور الذي لا يكاد يعرف
غيره، وبه يرد قول من قال إن موت عبد المطلب كان قبل موت أمه بستين.
أي وكان يقول لأم أيمن: «أنت أمي بعد أمي» ويقول: «أم أيمن أمي بعد
أمي» وفي القاموس: دار رابعة - بالغين المعجمة - بمكة فيها مدفن أمه، ولم
أقف على محل تلك الدار من مكة قال: وقيل توفيت: أي دفنت بالحجون
بشعب أبي ذؤيب، وغلط قائله.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «حج بنا رسول الله صلى الله عليه
وسلم حجة الوداع، فمر على عقبة الحجون وهو باك حزين مغتم، فبكيت
لبكائه، ثم إنه طفق» أي شرع يقول: «يا حميراء استمسكي، فاستندت إلى
جنب البعير، فمكثت عني طويلاً ثم عاد إلي وهو فرح متبسم، فقلت له: بأبي
أنت وأمي يا رسول الله، نزلت من عندي وأنت باك حزين مغتم فبكيت لبكائك،
ثم إنك عدت إلي وأنت فرح متبسم فمم ذاك؟ قال ذهبت لقبر أمي فسألت
ربي أن يحييها، فأحيها فأمنت وردها الله تعالى».
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 172

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وهذا الحديث قد حكم بضعفه جماعة، منهم الحافظ أبو الفضل بن ناصر الدين، والجوزقاني وابن الجوزي، والذهبي في الميزان، وأقره علي ذلك الحافظ ابن حجر في لسان الميزان جعله ابن شاهين ومن تبعه ناسخاً لأحاديث النهي عن الاستغفار: أي لها.

منها ما جاء «أنه لما قدم مكة» أي ولعله في عمرة القضاء، لأنه لم يقدم مكة نهراً «مع أصحابه قبل حجة الوداع إلا في ذلك أتى رسم قبر أمه فجلس إليه فواجه طويلاً ثم بكى، قال ابن مسعود فبكينا لبكائه، ثم قام ثم دعانا، فقال: ما أبكاكم؟ قلنا بكينا لبكائك، فقال: إن القبر الذي جلست عنده قبر آمنة» الحديث.

وفي رواية «أتى قبر أمه فجلس إليه، فجعل يخاطبه، ثم قام مستعبراً، فقال بعض الصحابة: يا رسول الله قد رأينا ما صنعت، قال: إني استأذنت ربي في زيارة قبر أمي فأذن لي، واستأذنته في الاستغفار لها فلم يأذن لي» وفي رواية «إن جيريل عليه الصلاة والسلام ضرب في صدره وقال: لا تستغفر لمن مات مشركاً، فما رئي باكياً أكثر منه يومئذ» وفي رواية «استأذنته في الدعاء لها: أي بالاستغفار، فلم يأذن لي وأنزل علي {ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى} فأخذني ما يأخذ الولد للوالد» قال القاضي عياض: بكاؤه على ما فاتها من إدراك أبيه والإيمان به أي النافع إجماعاً، وكونه ناسخاً لذلك غير جيد، لأن أحاديث النهي عن الاستغفار بعض طرقها صحيح رواه مسلم وابن حبان في صحيحيهما. ونص مسلم «استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي، واستأذنته في أن أزور قبرها فأذن لي، فزوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة» وفي لفظ «تذكركم الموت» وهذا الحديث: أي حديث عائشة رضي الله تعالى عنها على تسليم ضعفه أي دون وضعه لا يكون ناسخاً للأحاديث الصحيحة.

أقول: ذكر الواحدي في أسباب النزول أن آيتي {ما كان للنبي والذين آمنوا} - {وما كان استغفار إبراهيم لأبيه} نزلتا لما استغفر لعمه أبي طالب بعد موته فقال المسلمون: ما يمنعنا أن نستغفر لأبائنا ولذي قرابتنا؟ هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستغفر لعمه، وقد استغفر إبراهيم لأبيه: أي فنزولهما كان عقب موت أبي طالب.

لا يقال جاز أن تكون آية {ما كان للنبي} تكرر نزولها لما استغفر لعمه ولما استغفر لأمه، لأننا نقول كونه يعود للاستغفار بعد أن نهى عنه فيه ما فيه، أو المراد بالنسخ المعارضة، يعني قول ابن شاهين إنه ناسخ أحاديث النهي عن الاستغفار: أي معارض لها، إذ لا معنى للنسخ هنا، على أنه لا معارضة، لأن النهي عن الاستغفار لها كان قبل أن تؤمن.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 172

وإذا ثبت ما تقدم عن عائشة رضي الله تعالى عنها وما بعده كان دليلاً لمن يقول قبر أمه بمكة. وعلى كونها دفنت بالأبواء اقتصر الحافظ الدمياطي في سيرته، وكذا ابن هشام في سيرته. وفي الوفاء عن ابن سعد: أن كون قبرها

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

بمكة غلط وإنما قبرها بالأبواء.
وقد يقال: على تقدير صحة الحديثين: أي أنها دفنت بالأبواء وأنها دفنت بمكة
يجوز أنها تكون دفنت أولاً بالأبواء ثم نقلت من ذلك المحل إلى مكة، فعلم أن
بكاءه كان قبل أن يحييها الله له وتؤمن به. ومن ثم قال الحافظ السيوطي إن
هذا الحديث: أي حديث عائشة قيل إنه موضوع، لكن الصواب ضعفه لا وضعه
هذا كلامه.

ويجوز أن يكون قوله لشخصين: «أمي وأمكما في النار» على تقدير صحته
التي ادعاها الحاكم في المستدرک كان قبل إحيائها وإيمانها به كما تقدم نظير
ذلك في أبيه .

وقولنا على تقدير صحة الحديث إشارة لما تقرر في علوم الحديث أنه لا يقبل
تفرد الحاكم بالتصحيح في المستدرک، لما عرف من تساهله فيه في التصحيح.
وقد بين الذهبي ضعف هذا الحديث، وحلف على عدم صحته يميناً. وتقدم
الجواب عما يقال كيف ينفع الإيمان بعد الموت، وتقدم ما فيه. على أن هذا: أي
منع الاستغفار لها إنما يأتي على القول أن من بدّل أو غير أو عبد الأصنام من
أهل الفترة معذب، وهو قول ضعيف مبني على وجوب الإيمان والتوحيد
بالعقل.

والذي عليه أكثر أهل السنة والجماعة أنه لا يجب ذلك إلا بإرسال الرسل. ومن
المقرر أن العرب لم يرسل إليهم رسول بعد إسماعيل، وأن إسماعيل انتهت
رسالته بموته كبقية الرسل، لأن ثبوت الرسالة بعد الموت من خصائص نبينا
محمد، فعليه أهل الفترة من العرب لا تعذيب عليهم وإن غيروا أو بدلوا أو عبدوا
الأصنام، والأحاديث الواردة بتعذيب من ذكر أي من غير أو بدّل أو عبد الأصنام
مؤولة، أو خرجت مخرج الزجر للحمل على الإسلام.

ثم رأيت بعضهم رجح أن التكليف بوجوب الإيمان بالله تعالى وتوحيده: أي
بعدم عبادة الأصنام يكفي فيه وجود رسول دعا إلى ذلك وإن لم يكن ذلك
الرسول مرسلًا لذلك الشخص بأن لم يدرك زمنه حيث بلغه أنه دعا إلى ذلك أو
أمكنه علم ذلك، وأن التكليف بغير ذلك من الفروع لا بد فيه من أن يكون ذلك
الرسول مرسلًا لذلك الشخص وقد بلغته دعوته.

وعلى هذا فمن لم يدرك زمن نبينا ولا زمن من قبله من الرسل معذب على
الاشراك بالله بعبادة الأصنام لأنه على فرض أن لا تبلغه دعوة أحد من الرسل
السابقين إلى الإيمان بالله وتوحيده، لكنه كان متمكناً من علم ذلك فهو تعذيب
بعد بعث الرسل لا قبله.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 172

وحينئذ لا يشك ما أخرجه الطبراني في الأوسط بسند صحيح عن ابن عباس
رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:
«ما بعث الله نبياً إلى قوم ثم قبضه إلا جعل بعده فترة يملأ من تلك الفترة
جهنم» ولعل المراد المبالغة في الكثرة، وإلا فقد أخرج الشيخان عن أنس عن
النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول (هل من
مزيد) حتى يضع رب العزة فيها قدمه فيرتد بعضها إلى بعض وتقول قط قط»
أي حسبي بعزتك وكرمك، وأما بالنسبة لغير الإيمان والتوحيد من الفروع فلا
تعذيب على تلك الفروع، لعدم بعثة رسول إليهم فأهل الفترة وإن كانوا مقرين

بالله إلا أنهم أشركوا بعبادة الأصنام. فقد حكى الله تعالى عنهم: { ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى } وقد جاء النهي عن ذلك على ألسنة الرسل السابقين. ووجه التفرقة بين الإيمان والتوحيد وغير ذلك: أن الشرائع بالنسبة للإيمان بالله وتوحيده كالشريعة الواحدة لاتفاق جميع الشرائع عليه.

قيل وهو المراد من قوله تعالى: { شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً } فقد قال بعضهم: المراد من الآية استواء الشرائع كلها في أصل التوحيد: أي ومن ثم قال في تمام الآية { ولا تفرقوا فيه } وقال: { لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره } وقال { وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره } ومن ثم قاتل بعض الأنبياء غير قومه على الشرك بعبادة الأصنام، ولو لم يكن الإيمان والتوحيد لازماً لهم لم يقاتلهم، بخلاف غيره من الفروع فإن الشرائع فيها مختلفة. قال بعضهم: سبب اختلاف الشرائع اختلاف الأمم في الاستعداد والقبالية. والدليل على أن الأنبياء متفقون على الإيمان والتوحيد ما جاء أنه قال: «الأنبياء أولاد علات» أي أصل دينهم واحد وهو التوحيد وإن اختلفت فروع شرائعهم، لأن العلات الضرائر، فأولادهم أخوة من الأب وأماتهم مختلفة. وقد جاء هذا التفسير في نفس الحديث. ففي بعض الروايات «الأنبياء إخوة من علات، أمهاتهم شتى، ودينهم واحد» وبه يعلم ما في كلام العلامة ابن حجر الهيتمي حيث ذكر أن الحق الواضح الذي لا غبار عليه أن أهل الفترة جميعهم ناجون، وهم من لم يرسل لهم رسول يكلفهم بالإيمان بالله عز وجل، فالعرب حتى في زمن أنبياء بني إسرائيل أهل فترة لأن تلك الرسل لم يؤمروا بدعائهم إلى الله تعالى وتعليمهم الإيمان قال: نعم، من ورد فيه حديث صحيح من أهل الفترة بأنه من أهل النار، فإن أمكن تأويله فذاك، وإلا لزمنا أن نؤمن بهذا الفرد بخصوصه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 172

قال: وأما قول الفخر الرازي: لم تنزل دعوة الرسل إلى التوحيد معلومة، فجوابه أن كل رسول إنما أرسل إلى قوم مخصوصين، فمن لم يرسل إليه لا يعذب. وجواب ما صح من تعذيب أهل الفترة أنها أخبار آحاد، فلا تعارض القطع، أو يقصر التعذيب على ذلك الفرد بخصوصه: أي حيث لا يقبل التأويل، كما تقدم، هذا كلامه.

هذا وقد جاء أنهم: أي أهل الفترة يمتحنون يوم القيامة. فقد أخرج البزار عن ثوبان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا كان يوم القيامة جاء أهل الجاهلية يحملون أوثانهم على ظهورهم، فيسألهم ربهم فيقولون: ربنا لم ترسل لنا رسولا ولم يأتنا لك أمر، ولو أرسلت إلينا رسولاً لكننا أطوع عبادك، فيقول لهم ربهم: أرايتم إن أمرتكم بأن تطيعوني؟ فيأخذ على ذلك مواعيقهم، فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، فينطلقون حتى إذا رأوها فرقوا فرجعوا فقالوا: ربنا فرقنا منها ولا نستطيع أن ندخلها، فيقول: ادخلوها داخرين، فقال النبي

صلى الله عليه وسلم: لو دخلوها أول مرة كانت عليهم برداً وسلاماً». قال الحافظ ابن حجر: فالظن بأنه، يعني الذين ماتوا قبل البعثة أنهم يطيعون عند الامتحان إكراماً له لتقر عينه ويرجو أن يدخل عبد المطلب الجنة في جماعة من يدخلها طائعاً إلا أبا طالب فإنه أدرك البعثة ولم يؤمن به أي بعد أن طلب منه الإيمان.

ومما استدل به الحافظ السيوطي على أن أبويه ليسا في النار قال: لأنهما لو كانا في النار لكانا أهون عذاباً من أبي طالب، لأنهما أقرب منه وأبسط عذراً لأنهما لم يدركا البعثة، ولا عرض عليهما الإسلام فامتنعا بخلاف أبي طالب. وقد أخبر الصادق أنه أهون أهل النار عذاباً، فليسا أبواه من أهلها. قال: وهذا يسمى عند أهل الأصول دلالة الإشارة.

وكان يوضع لعبد المطلب فراش في ظل الكعبة لا يجلس عليه أحد من أهل بيته: أي ولا أحد من أشرف قريش إجلالاً له، فكان بنوه وسادات قريش يحدقون به، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأتي وهو غلام جفر: أي شديد قوي حتى يجلس عليه، فيأخذه أعمامه ليؤخروه عنه، فيقول عبد المطلب: إذا رأى: أي علم ذلك منهم دعوا ابني، فوالله إن له لشأناً، ثم يجلسه عليه معه، ويمسح ظهره ويسرّه ما يراه يصنع.

قال: وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: دعوا ابني يجلس، فإنه يحس من نفسه بشيء: أي بشرف، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه به عربي قبله ولا بعده. وفي رواية: دعوا ابني إنه ليؤنس ملكاً: أي يعلم من نفسه أن له ملكاً. وفي لفظ: ردوا ابني إلى مجلسي، فإنه تحدّثه نفسه بملك عظيم وسيكون له شأن.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 172

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سمعت، أبي يقول: كان لعبد المطلب مفروش في الحجر لا يجلس عليه غيره، وكان حرب بن أمية فمن دونه من عظماء قريش يجلسون حوله دون المفروش، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً وهو غلام لم يبلغ الحلم فجلس على المفروش، فجدبه رجل فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عبد المطلب وذلك بعد ما كف بصره ما لابني يبكي، قالوا له: أراد أن يجلس على المفروش فمنعه، فقال عبد المطلب: دعوا ابني يجلس عليه فإنه يحس من نفسه بشرف: أي يتيقن في نفسه شرفاً، وأرجو أن يبلغ من الشرف ما لم يبلغه عربي قبله ولا بعده: أي فكانوا بعد ذلك لا يردونه عنه حضر عبد المطلب أو غاب: أي ولعل هذا كان في آخر الأمر، فلا ينافي ما تقدم الدال ظاهراً على تكرار ذلك منه، من اختلاف قول عبد المطلب، وإلا فيحتمل أن اختلاف قول عبد المطلب جاء من اختلاف الرواة.

وقال لعبد المطلب قوم من بني مدلج: أي وهم القافة العارفون بالآثار والعلامات: احتفظ به، فإننا لم نر قط ما أشبهه بالقدم التي في المقام منه: أي وهي قدم إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

أقول: أي فإن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، أثرت قدماه في المقام: وهو الحجر الذي كان يقوم عليه عند بناء البيت كما سيأتي، وهو الذي يزار الآن بالمكان الذي يقال له مقام إبراهيم: أي وقد أشار إلى ذلك عمه أبو طالب في

قصيدته بقوله مقسماً:
وبالحجر المسود إذ يلثمونه
إذا اكتنفوه في الضحى والأصائل
وموطىء إبراهيم في الصخر رطبة

على قدميه حافياً غير ناعل
قال الحافظ ابن كثير: يعني أن رجله الكريمة غاصت في الصخرة فصارت
على قدر قدمه حافية لا منتعلة.
وعن أنس رضي الله تعالى عنه: رأيت في القام أثر أصابع إبراهيم وعقبه
وأخمص قدميه غير أن مسح الناس بأيديهم أذهب ذلك: أي ومشابهة قدمه
لقدم سيدنا إبراهيم تدل على أن تلك الأقدام بعضها من بعض كما تقدم في
قول مجزز المدلجي في زيد بن أسامة رضي الله عنهما وقد ناما وغطيا
رؤوسهما وبدت أقدامهما: إن هذه الأقدام بعضها من بعض، فسرى بذلك لأن في
ذلك رد على من كان يطعن في نسب أسامة بن زيد كما تقدم.
وذكر بعضهم أن نبينا أثر قدمه في الحجر أيضاً، فقد أثر في صخرة بيت
المقدس ليلة الإسراء، وإن ذلك الأثر موجود إلى الآن.
وذكر الجلال السيوطي أنه لم يقف لذلك: أي لتأثير قدمه في الحجر على أصل
ولا سند. قال: ولا رأيت من خرج في شيء من كتب الحديث. وقال مثل ذلك
فيما اشتهر على الألسنة من أن مرفقه الشريف لما ألصقه بالحائط غاص في
الحجر وأثر فيه وبه يسمى ذلك المحل بمكة بزقاق المرفق.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 172

ومن العجب أن الجلال السيوطي مع قوله المذكور قال في الخصائص
الصغرى: ولا وطىء على صخر إلا وأثر فيه هذا كلامه، ولعله ظهر له صحة ذلك
بعد إنكاره. ودعوى أنه ما وطىء على صخر إلا وأثر فيه قد يتوقف فيه. ثم
رأيت الإمام السبكي ذكر تأثير قدمه الشريف في الأحجار حيث قال في تأييده:
وأثر في الأحجار مشيك ثم لم
يؤثر برمل أو ببطحاء رطبة
قال شارحها: ولعل عدم تأثير قدمه الشريف في الرمل كان ليلة ذهابه إلى
الغار: أي فليس كان هذا شأنه في كل رمل مشى عليه «وكان إذا رفع قدمه
عن الرمل يقول لأبي بكر ضع قدمك موضع قدمي فإن الرمل لا ينم» أراد به
إخفاء أثر سيره ليتحير المشركون في طلبه.

وفيه أن هذا التعليل مقتض لتأثير قدمه الشريف في الرمل لا لعدم تأثيره في
ذلك. ويؤيد ذلك أنه سيأتي أنهم قصوا أثره إلى أن انقطع الأثر عند الغار: أي
وقال لهم القاص هذا أثر قدم ابن أبي قحافة، وأما القدم الآخر فلا أعرفه إلا أنه
يشبه القدم الذي في المقام يعني مقام إبراهيم، فقالت قريش: ما وراء هذا
شيء أي محل كما سيأتي.
وفيه أن هذا أي تميز قدمه الشريف من قدم سيدنا أبي بكر ربما ينافيه قوله
لأبي بكر: «ضع قدمك موضع قدمي فإن الرمل لا ينم».

وقد يقال: لا منافاة لأنه يجوز أن يكون قدم أبي بكر لم يكن مساوياً لقدمه ولا يضر في ذلك قوله: «فإن الرمل لا ينم» لجواز أن يكون المراد لا يظهر فيه قدمي ظهور أبينا فصح قول القائل هذا أثر قدم ابن أبي قحافة، وأما القدم الآخر إلى آخره، ولم يعترض هذا الشارح على تأثير قدمه في الحجارة بل أبدى لذلك حكماً لا بأس بها فلتراجع.

وقوله في الأحجار يدل على أنه تكرر تأثير قدمه الشريف في الأحجار ولكن لم يكن ذلك شأنه في كل حجر مشى عليه كما دلت عليه عبارة الجلال السيوطي، والله أعلم.

قال: وبينما عبد المطلب يوماً في الحجر وعنده أسقف نجران. والأسقف: رئيس النصارى في دينهم اشتق من السقف بالتحريك وهو طول الانحناء لأنه يتخاشع: أي يظهر الخشوع وذلك الأسقف يحدثه ويقول له إنا نجد صفة نبي بقي من ولد إسماعيل وهذا البلد مولده، ومن صفته كذا وكذا، وأتى برسول فنظر إليه الأسقف إلى عينيه وإلى ظهره وإلى قدمه، وقال: هو هذا ما هذا منك قال: هذا ابني، قال: ما نجد أباه حياً، قال: هو ابن ابني، وقد مات أبوه وأمه حبلى به. قال: صدقت، فقال عبد المطلب لبنيه تحفظوا بابن أخيكم، ألا تسمعون ما يقال فيه؟ انتهى.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 172

وعن أم أيمن «كنت أحضن النبي صلى الله عليه وسلم أي أقوم بتربيته فغفلت، عنه يوماً فلم أدر إلا بعبد المطلب قائماً على رأسي يقول يا بركة. قلت لبيك، قال: أتدرين أين وجدت ابني؟ قلت لا أدري، قال: وجدته مغ غلمان قريباً من السدرة لا تغفلي عن ابني فإن أهل الكتاب أي ومنهم سيف بن ذي يزن كما سيأتي يزعمون أنه نبي هذه الأمة، وأنا لا آمن عليه منهم، وكان لا يأكل يعني عبد المطلب طعاماً إلا يقول عليّ بابني أي أحضروه، قال: وكان عبد المطلب إذا أتى بطعام أجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنبه وربما أقعده على فخذه فيؤثره بأطيب طعامه انتهى.

وعن بعضهم أي وهو حيدة بن معاوية العامري كان من المعمرين، وقد على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلم. قال بعضهم: مات وهو عم ألف رجل وامرأة، قال: حججت في الجاهلية، فبينما أنا أطوف بالبيت إذا رجل. وفي رواية: إذا شيخ طويل يطوف بالبيت وهو يقول: رد إلى راكبي محمداً، وفي رواية:

يا رب رد راكبي محمداً

أردده ربي واصطنع عندي يداً
فقلت من هذا؟ قالوا: عبد المطلب بن هاشم، بعث ابن ابنه في طلب إبل له ضلت وما بعثه في شيء إلا جاء به، قال وفي رواية هذا سيد قريش عبد المطلب له إبل كثيرة فإذا ضل منها شيء بعث فيه بنيه يطلبونها، فإذا غابوا بعث ابن ابنه ولم يبعثه في حاجة إلا أنجح فيها، وقد بعثه في حاجة أعيا عنها بنوه وقد أبطأ عليه انتهى، فما برحت: أي ما زلت عن مكاني حتى جاء بالإبل معه، فقال له: يا بني حزنت عليك حزناً لا يفارقني بعده أبداً، وتقدم عن بعض المفسرين ما لا يحتاج إلى إعادته هنا.

وعن رقيقة بنت أبي صيفي: أي ابن هاشم بن عبد مناف زوجة عبد المطلب، ذكرها ابن سعد في المسلمات المهاجرات أقول: وقال أبو نعيم: لا أراها أدركت الإسلام. وقال ابن حبان: يقال إن لها صحة والله أعلم. قالت تتابعت على قريش سنون: أي أزمنة قحط وجذب ذهبت بالأموال، وأشفين: أي أشرفن على الأنفس، قالت فسمعت قائلاً يقول في المنام: يا معشر قريش إن هذا النبي المبعوث منكم هذا إيان أي وقت خروجه وبه يأتيكم الحيا أي بالقصر المطر العام والخصب، فانظروا رجلاً من أوساطكم: أي أشرافكم نسياً طولاً عظاماً أي طويلاً عظيماً أبيض مقرون الحاجبين أهدب الأشفار أي طويل شعر الأجنان، أسيل الخدين: أي لا تتو بها رقيق العرنين أي الأنف. وقيل أوله فليخرج هو وجميع ولده وليخرج منكم من كل بطن رجل فيتطهروا ويتطيّبوا، ثم استلموا الركن، ثم ارقوا إلى رأس أبي قبيس، ثم يتقدم هذا الرجل فيستسقي وتؤمنون، فإنكم تسقون، فأصبحت وقصت رؤياها عليهم، فنظروا فوجدوا هذه الصفة صفة عبد المطلب فاجتمعوا عليه، وأخرجوا من كل بطن رجلاً ففعلوا ما أمرتهم به، ثم علوا على أبي قبيس ومعهم النبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام، فتقدم عبد المطلب فقال: لاهم هؤلاء عبيدك وبنو عبيدك وإماؤك وبنو إمائك، وقد نزل بنا ما ترى، وتتابعنا علينا هذه السنون فذهبت بالظلف والخف والحافر: أي الإبل والبقر والخيول والبغال والحمير، فأشفت على الأنفس: أي أشرفت على ذهابها فأذهب عنا الجذب، وائتنا بالحيا والخصب فما برحوا حتى سالت الأودية.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 172

قال: وفي رواية أخرى عن رقيقة قالت: تتابعت على قريش سنون جدبة أقحلت، أي أيبست الجلد، وأدقت العظم، فبينما أنا نائمة أو مهوومة أي بين اليقظة والنائمة إذ هاتف هو الذي يسمع صوته ولا يرى شخصه كما تقدم يصرخ بصوت صحل: أي فيه بحوحة وهي خشونة الصوت وغلظه يقول: يا معشر قريش إن هذا النبي المبعوث منكم قد أظلتكم أيامه: أي قربت منكم، وهذا إيان مخرجه فحيعلا بالحيا والخصب، ألا فانظروا رجلاً منكم وسطاً عظاماً أبيض بضاً أي شديد البياض، أوطف الأهداب أي كثير شعر العينين أسهل الخدين، أشم العرنين أي مرتفع الأنف، له فخر يكظم عليه أي يسكت عليه ولا يظهره وسنن يهتدى إليها أي يرشد إليها، فليخلص هو وولده وولد ولده وليدلف أي يتقدم إليه من كل بطن رجل فليسنوا من الماء: أي يفرغوه على أجسادهم أي يغتسلوا به، وليمسوا من الطيب، ثم يلتمسوا الركن وليطوفوا بالبيت العتيق سبعا، ثم ليرقوا أبا قبيس فليستسق الرجل وليؤمن القوم ألا وفيهم الطيب الطاهر فغتمم إذا ما شئتم أي جاءكم الغيث على ما تريدون. قالت: فأصبحت مذعورة قد اقشعر جلدي ووله أي ذهب عقلي، واقتصيت رؤياي أي ذكرتها على وجهها فنمت أي فشت وكثرت في شعاب مكة، فما بقي أبطحي إلا قال هذا شبيهة الحمد يعني عبد المطلب وقامت عنده قريش وانفض إليه من كل بطن رجل فسنوا من الماء، ومسوا من الطيب واستلموا وطافوا.

ثم ارتقوا أباً قبيس، فطفق القوم يدنون حوله ما إن يدركه بعضهم مهلة وهي التؤدة والثاني ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أيفع أي ارتفع أو كرب أي قرب من ذلك، فقام عبد المطلب فقال اللهم ساد الخلة وكاشف الكربة أنت عالم غير معلم مسؤول غير مبخل، وهذه عبيدك وإماؤك بغدرات جرمك أي أفنيته يشكون إليك سنتهم التي أقحلت أي أيبست الظلف والخف: أي الإبل والبقر فأمطرن، اللهم غيثاً سريعاً مغدقاً فما برحوا حتى انفجرت السماء بمائها وكظ الوادي: أي ضاق بشجيجه أي بسيله فلسمعت شيخان قريش وهي تقول لعبد المطلب: هنيئاً لك يا أبا البطحاء، بك عاش أهل البطحاء انتهى: أي والظاهر أن القصة واحدة فليتأمل الجمع. وقد يدعى أن الاختلاف من الرواة منهم من عبر بالمعنى.

وفي سقيا الناس بعبد المطلب وأن ذلك ببركته تقول رقيقة:

بشبية الحمد أسقى الله بلدتنا

وقد عدنا الحيا واجلوذ المطر

أي امتد زمن تأخره. * فجاد بالماء جوني له سبل دان * أي أمطرها ظل كثير الهطل قريب، فعاشت به الأنعام والشجر * منا من الله بالميمون طائرته * أي المبارك حظه * وخير من بشرت يوماً به مضر V

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 172

مبارك الاسم يستسقى الغمام به

ما في الأنام له عدل ولا خطر

أي لا معادل ولا مماثل له.

ولما سقوا لم يصل المطر إلى بلاد قيس ومضر فاجتمع عظاماؤهم وقالوا قد أصبحنا في جهد وجدب وقد سقى الله الناس بعبد المطلب، فاقصدوه لعله يسأل الله تعالى فيكم فقدموا مكة ودخلوا على عبد المطلب فحيوه بالسلام. فقال لهم: أفلحت الوجوه وقام خطيبهم، فقال: قد أصابتنا سنون مجذبات، وقد بان لنا أثرك، وصح عندنا خبرك، فاشفع لنا عند من شفحك وأجرى الغمام لك، فقال عبد المطلب: سمعاً وطاعة، موعدكم غداً عرفات، ثم أصبح غادياً إليها وخرج معه الناس وولده ومعه رسول الله، فنصب لعبد المطلب كرسي فجلس عليه وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعه في حجره ثم قام عبد المطلب ورفع يديه، ثم قال: اللهم رب البرق الخاطف، والرعد القاصف، رب الأرباب، وملين الصعاب، هذه قيس ومضر، من خير البشر، قد شعنت رؤوسها، وحدثت ظهورها تشكو إليك شدة الهزال وذهاب النفوس والأموال. اللهم فأتح لهم سحابة خوارة وسمااء خراة لتضحك أرضهم ويزول ضرهم، فما استتم كلامه حتى نشأت سحابة دكناء لها دويي وقصدت نحو عبد المطلب، ثم قصدت نحو بلادهم، فقال عبد المطلب: يا معشر قيس ومضر انصرفوا فقد سقيتم فرجعوا وقد سقوا.

وذكر بعضهم أنهم كانوا في الجاهلية يستسقون إذا أجدبوا فإذا أرادوا ذلك أخذوا من ثلاثة أشجار، وهي سلع وعشر وشبرق، من كل شجرة شيئاً من عيدانها وجعلوا ذلك حزمة وربطوا بها على ظهر ثور صعب وأضرموا فيها النار ويرسلون ذلك الثور، فإذا أحس بالنار عدا حتى يحترق ما على ظهره ويتساقط، وقد يهلك ذلك الثور فيسقون.

وفي حياة الحيوان كانت العرب إذا أرادت الاستسقاء جعلت النيران في أذنان البقر وأطلقوها فتمطر السماء، فإن الله يرحمها بسبب ذلك. قال: وذكر ابن الجوزي أنه في سنة سبع من مولده أصابه رمد شديد، فعولج بمكة فلم يغب، فقبل لعبد المطلب إن في ناحية عكاظ راهباً يعالج الأعين فركب إليه ومعه رسول الله، فناده وديره مغلق فلم يجبه، فتزلزل ديره حتى خاف أن يسقط عليه، فخرج مبادراً. فقال: يا عبد المطلب إن هذا الغلام نبي هذه الأمة ولو لم أخرج إليك لخر علي ديري، فارجع به واحفظه لا يقتله بعض أهل الكتاب، ثم عاجه وأعطاه ما يعالجه به.

هذا ورأيت في كتاب سماه مؤلفه (كريم الندماء ونديم الكرماء) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رمد وهو صغير، فمكث أياماً يشكو، فقال قائل لجده عبد المطلب: إن بين مكة والمدينة راهباً يرقى من الرمد، وقد شفى على يديه خلق كثير، فأخذه جده وذهب به إلى ذلك الراهب، فلما رآه الراهب دخل إلى صومعته فاغتسل ولبس ثيابه ثم أخرج صحيفة فجعل ينظر إلى الصحيفة وإليه، ثم قال: هو والله خاتم النبيين، ثم قال: يا عبد المطلب هو أرمد؟ قال نعم، قال: إن داؤه معه، يا عبد المطلب خذ من ريقه وضعه على عينيه فأخذ عبد المطلب من ريقه ووضع على عينيه فبريء لوقته ثم قال الراهب يا عبد المطلب وتالله هذا هو الذي أقسم على الله به فأبرأ المرضى وأشفى الأعين من الرمد فليتأمل، فإن تعدد الواقعة لا يخلو عن بعد، والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 172

باب: وفاة عبد المطلب وكفالة عمه أبي طالب له

ثم لما كان سنه ثمان سنين: أي بناء على الراجح من الأقوال المتكاثرة، ويرجحه ما يأتي: توفي عبد المطلب وله من العمر خمس وتسعون سنة، وقيل مائة وعشرون، وقيل وأربعون: أي ولعل ضعف هذا القول اقتضى عدم ذكر ابن الجوزي لعبد المطلب في المعمرين. قال: وقيل اثنان وثمانون: أي وعليه اقتصر الحافظ الدمياطي، قال: وقيل مائة وأربعة وأربعون أهـ. وقد قيل له: «يا رسول الله أتذكر موت عبد المطلب؟ قال نعم وأنا يومئذ ابن ثمان سنين». وعن أم أيمن أنها كانت تحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يبكي خلف سرير عبد المطلب وهو ابن ثمان سنين. ودفن بالحجون عند جده قصي. وجاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله: «بيعت جدي عبد المطلب في زي الملوك، وأبهة الأشراف».

ولما حضرته الوفاة أوصى به إلى عمه شقيق أبيه أبي طالب: أي وكان أبو طالب ممن حرم الخمر على نفسه في الجاهلية كأبيه عبد المطلب كما تقدم، واسمه على الصحيح عبد مناف. وزعمت الروافض أن اسمه عمران، وأنه المراد من قوله تعالى: {إن الله اصطفى آدم ونوحاً وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين} قال الحافظ ابن كثير وقد أخطوا في ذلك خطأ كبيراً، ولم يتأملوا القرآن قبل أن يقولوا هذا البهتان، فقد ذكر بعد هذه قوله تعالى: {إذ قالت امرأة عمران رب إنني نذرت لك ما في بطني محرراً} وحين أوصى به جده لأبي طالب أحبه حباً شديداً لا يحبه لأحد من ولده، فكان لا ينام إلا إلى

جنبه، وكان يخصه بأحسن الطعام: أي وقيل اقترح أبو طالب هو والزيبر شقيقه فيمن يكفله منهما، فخرجت القرعة لأبي طالب، وقيل بل هو اختار أبا طالب لما كان يراه من شفقتة عليه وموالاته له قبل موت عبد المطلب، فسيأتي أنه كان مشاركاً له في كفاله.

وقيل كفله الزيبر حين مات عبد المطلب، ثم كفله أبو طالب: أي بعد موت الزيبر، وغلط قائله بأن الزيبر شهد حلف الفضول ورسول الله صلى الله عليه وسلم من العمر نيف وعشرون سنة كذا في (أسد الغابة) مقدماً للاقتراع على ما قبله. وفي كون عمره في حلف الفضول كان نيفاً وعشرين سنة نظر، لما سيأتي أن عمره إذا ذلك كان أربع عشرة سنة. وفي كلام بعضهم: فلما مات عبد المطلب كفله عمه شقيقاً أبيه الزيبر وأبو طالب، ثم مات عمه الزيبر وله من العمر أربع عشرة سنة فانفرد به أبو طالب، وكفالة جده وعمه له بعد موت أبيه وأمه مذكورة في الكتب القديمة من علامات نبوته .

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 184

ففي خبر سيف بن ذي يزن: يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه: أي وفي سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق أن عبد المطلب لما حضرته الوفاة وعرف أنه ميت جمع بناته وكن ست نسوة: صفية، وهي أم الزيبر بن العوام وبرة وعاتكة، وأم حكيم البيضاء: أي وهي جدة عثمان بن عفان لأمه، وأميمة وأروى، فقال لهن: ابكين عليّ حتى أسمع ما تقلن فيّ قبل أن أموت، فقالت كل واحدة منهن شعراً في وصفه مذكور في تلك السيرة، ولما سمع جميع ذلك أشار برأسه أن هكذا فابكينني. ويقال إنه إنما أشار بذلك لما سمع قول أميمة وقد أمسك لسانه وكان من قولها:

أعينيّ جوداً بدمع درر
على ماجد الخيم والمعتصر
على ماجد الجد واري الزناد
جميل المحيا عظيم الخطر
على شبية الحمد ذي المكرمات
وذي المجد والعز والمفتخر
وذي الحلم والفضل في النائبات
كثير المفاخر جمّ الفخر
له فضل مجد على قومه
متين يلوح كضوء القمر

قال ابن هشام رحمه الله: لم أر أحداً من أهل العلم بالشعر يعرف هذا الشعر إلا أنه: أي ابن إسحاق لما رآه عن ابن المسيب كتبه. قال بعضهم: ولم يبك أحد بعد موته ما بكى عبد المطلب بعد موته، ولم يقم لموته بمكة سوق أياماً كثيرة.

وروى أبو نعيم والبيهقي: أن سيف بن ذي يزن الحميري لما ولي على الحبشة، وذلك بعد مولد رسول بسنتين أتاه وفود العرب وأشرافها وشعراؤها لتهنئه: أي بهلاك ملوك الحبشة وبولايته عليهم: أي لأن ملك اليمن كان لحمير، فانتزعته الحبشة منهم، واستمر في يد الحبشة سبعين سنة ثم إن سيف بن ذي يزن الحميري استنفذ ملك اليمن من الحبشة، واستقر فيه على عادة آبائه، وجاءت العرب تهنئه من كل جانب، وكان من جملتهم وفد قريش وفيهم عبد المطلب وأمية بن عبد شمس، وغالب وجهائهم أي كعبد الله بن جدعان بضم الجيم وإسكان الدال المهملة وبالعين المهملة التيمي، وهو ابن عم عائشة رضي الله تعالى عنها، وكأسيد بن عبد العزى، ووهب بن عبد مناف، وقصي ابن عبد الدار، فأخبر بمكانهم: أي وكان في قصره بصنعاء وهو مضمخ بالمسك، وعليه بردان، والتاج على رأسه وسيفه بين يديه، وملوك حمير عن يمينه وشماله، فأذن لهم فدخلوا عليه، ودنا منه عبد المطلب.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 184

وفي الوفاء وجدوه جالسا على سرير من الذهب، وحوله أشراف اليمن على كراسي من الذهب، فوضعت لهم كراسي من الذهب فجلسوا عليها إلا عبد المطلب فإنه قام بين يديه واستأذنه في الكلام، فقال: إن كنت ممن يتكلم بين يدي الملوك فقد أذنا لك، فقال: إن الله عز وجل أحلك أيها الملك محلاً رفيعاً شامخاً: أي مرتفعاً باذخاً: أي عالياً منيعاً، وأنتك نباتاً طالت أرومته، وعظمت جرثومته: أي والأرومة والجرثومة هما الأصل، وثبت أصله ويسق: أي طال فرع في أطيب موضع وأكرم معدن، وأنت أبيت اللعن أي أبيت أن تأتي من الأمور ما يعلن عليه، ملك العرب الذي له تنقاد، وعمودها الذي عليه العماد، وكهفها الذي تلجأ إليه العباد سلفك خير سلف. وأنت لنا فيهم خير خلف، فلن يهلك ذكر من أنت خلفه، ولن يخمل ذكر من أنت سلفه، نحن أهل حرم الله وسدنة بيته، أشخصنا: أي أحضرنا إليك الذي أبهجتنا من كشف الكرب الذي فدحنا أي أثقلنا، فنحن وقد التهنئة لا وفد الترزئة أي التعزية، فعند ذلك قال له الملك من أنت أيها المتكلم؟ قال عبد المطلب بن هاشم، قال: ابن أختنا بالتاء المثناة فوق، لأن أم عبد المطلب من الخزرج وهم من اليمن، قال نعم، قال ادنه، ثم أقبل عليه وعلى القوم، فقال: مرحباً وأهلاً وناقاً ورحلاً، ومستنخاً سهلاً وملكاً ربحلاً: أي كثير العطاش، يعطى عطاءً جزلاً. قد سمع الملك مقالكم، وعرف قرابتكم، وقبل وسيلتكم، فإنكم أهل الليل والنهار، ولكم الكرامة ما أقمتم، والحباء: أي العطاء إذا طعنتم، ثم انهضوا إلى دار الضيافة والوفود، وأجرى عليهم الأنزال، فأقاموا بذلك شهراً لا يصلون إليه، ولا يؤذن لهم بالانصراف، ثم انتبه لهم انتباهة، فأرسل إلى عبد المطلب فأدناه، ثم قال له: يا عبد المطلب إني مفض إليك من سر علمي أمراً لو غيرك يكون لم أبح له به، ولكن رأيتك معدنه فأطلعتك طلعه أي عليه، فليكن عندك مخبأ حتى يأذن الله عز وجل فيه، إني أجد في الكتاب المكنون، والعلم المخزون

الذي إدرناه لأنفسنا واحتجنا: أي كتماننا دون غيرنا خبراً عظيماً، وخطراً جسيماً فيه شرف الحياة، وفضيلة الوفاة للناس عامة ولرهطك كافة ولك خاصة، فقال له عبد المطلب: مثلك أيها الملك سرّ وبرّ، فما هو فداك أهل الوبر زمراً بعد زمير؟ قال إذا ولد بتهامة غلام بين كتفيه شامة، كانت له الإمامة ولكن به الزعامة أي السيادة إلى يوم القيامة، فقال له عبد المطلب: أيها الملك أبت، أي رجعت بخير ما أب بمثله وافد قوم، ولولا هيبة الملك وإجلاله وإعظامه لسألته من مساره: أي من مساررتة إياي بما ازداد به سروراً، فقال له الملك: هذا حينه الذي يولد فيه أو قد ولد اسمه محمد، يموت أبوه وأمه، ويكفله جده وعمه قد ولدناه مراراً، والله باعته جهاراً: وجاعل له منا أنصاراً يعزبهم أولياءه، ويذل بهم أعداءه، ويضرب بهم الناس عن عرض أي جميعاً، ويستفتح بهم كرائم الأرض، يعبد الرحمن، ويدحض: أي يزجر الشيطان، ويخمد النيران، ويكسر الأوثان. قوله فصل، وحكمه عدل، ويأمر بالمعروف ويفعله، وينهي عن المنكر ويبطله: قال له عبد المطلب: جد جدك، ودام ملكك، وعلا كعبك، فهل الملك ساريّ بإفصاح، فقد وضح لي بعض الإيضاح، قال: والبيت ذي الحجب، والعلامات على النقب: أي الطرق، إنك لجدّه يا عبد المطلب غير كذب، قال: فخرّ عبد المطلب ساجداً، فقال له ارفع رأسك، ثلج صدرك، وعلا كعبك، فهل أحسست بشيء مما ذكرت لك؟ قال، نعم أيها الملك، إنه كان لي ابن، وكنت به معجباً وعليه رقيقاً، وإني زوجته كريمة من كرائم قومي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهرة، فجاءت بغلام فسميته محمداً، مات أبوه وأمه، وكفلته أنا وعمه: يعني أبا طالب، وهذا يدل على أن وفود عبد المطلب على سيف بن ذي يزن كان بعد موت أمه .

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 184

وحيئنذ لا ينافي ذلك ما تقدم أن عمره كان سنتين، لأن ذلك كان سنه حين ولي سيف بن ذي يزن على الحبشة، وتأخر وفود عبد المطلب عليه بعد موت أمه . ويدل على أن أبا طالب كان مشاركاً لعبد المطلب في كفالتة في حياة عبد المطلب، ثم اختص هو بذلك بعد موته: أي وعبارة سيف بن ذي يزن صادقة بالحالين. فقال له: إن الذي قلت لك كما قلت، فاحتفظ على ابنك، واحذر عليه من اليهود فإنهم له أعداء، ولن يجعل الله لهم عليه سبيلاً: أي، فحفظه والخوف عليه منهم من باب الاحتياط والإعلام بقدره.

قال واطوما ذكرته لك عن هؤلاء الرهط الذين معك، فإني لست آمن أن تداخلهم النفاسة من أن تكون له الرياسة، فينصبون له الجبائل، ويبغون له الغوائل، وهم فاعلون ذلك، أو أبناؤهم من غير شك. ولولا أعلم أن الموت مجتاحي: أي مهلكي قبل مبعثه، لسرت بخيلي ورجلي حتى أصير بيثرب دار ملكه. فإني أجد في الكتاب الناطق، والعلم السابق أن يثرب دار ملكه، واستحكام أمره، وأجل نصرته، وموضع قبره. ولولا أنني أقيد الآفات، وأحذر عليه العاهات، لأعلنت على حادثة سنه أمره، وأعليت على أسنان العرب كعبه، ولكن سأصرف ذلك إليك من غير تقصير بمن معك.

ثم دعا بالقوم، وأمر لكل واحد منهم بعشرة أعبد سود، وعشرة إماء سود، وحلتين من حلل البرود، وعشرة أرطال ذهباً، وعشرة أرطال فضة، ومائة من الإبل، وكرش مملوء عنبراً. وأمر لعبد المطلب بعشرة أضعاف ذلك، وقال: إذا

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

جاء الحول فأنتني بخبره وما يكون من أمره، فمات الملك قبل أن يحول عليه الحول، وكان عبد المطلب كثيراً ما يقول لمن معه: لا يغبطني رجل منكم بجزير عطاء الملك، ولكن يغبطني بما يبقى لي ولعقبى ذكره وفخره، فإذا قيل له ما هو؟ قال سيعلم ما أقول ولو بعد حين اهـ.

وهذا القصر الذي كان فيه الملك سيف بن ذي يزن يقال له بيت عمدان، يقال إنه كان هيكلاً للزهرة تعبد فيه الزهرة. وكان سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه يقول لا أفلحت العرب ما دام فيها عمدانها، فلما ولي عثمان رضي الله تعالى عنه الخلافة هدمه.

وكان أبو طالب مقلداً من المال، فكان عياله إذا أكلوا جميعاً أو فرادى لم يشبعوا، وإذا أكل معهم النبي صلى الله عليه وسلم بشبعوا، فكان أبو طالب إذا أراد أن يغديهم أو يعشيهم يقول لهم، كما أنتم حتى يأتي ابني، فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل معهم، فيفضلون من طعامهم، وإن كان لبناً شرب رسول الله صلى الله عليه وسلم أولهم، ثم تتناول العيال القعب: أي القدح الذي من الخشب فيشربون منه فيروون من عند آخرهم: أي جميعهم من القعب الواحد وإن كان أحدهم ليشرب قعباً واحداً. فيقول أبو طالب: إنك لمبارك.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 184

أقول: وفي الإمتاع وكان أي أبو طالب يقرب إلى الصبيان يصبغهم أول البكرة فيجلسون وينتهيون فيكف رسول الله صلى الله عليه وسلم يده لا ينتهب معهم. فلما رأى ذلك أبو طالب عزل له طعامه على حدة، هذا كلامه: ولا ينافي ما قبله، لأنه يجوز أن يكون ذلك خاصاً بما يحضر في البكرة الذي يقال له الفطور دون الغداء والعشاء، فإنه كان يأكل معهم وهو المقدم، والله أعلم. وكان الصبيان يصبغون شعثاً رُمصاً بضم الراء وإسكان الميم ثم صاد مهملة ويصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم دهنياً كحياً.

قالت أم أيمن: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكو جوعاً قط ولا عطشاً لا في صغره ولا في كبره.

وكان يغدو إذا أصبح فيشرب من ماء زمزم شربة فربما عرضنا عليه الغداء فيقول أنا شبعان: أي في بعض الأوقات، فلا ينافي ما سبق.

وكان يوضع لأبي طالب وسادة يجلس عليها فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فجلس عليها، فقال: إن ابن أخي ليخبر بنعيم: أي بشرف عظيم.

قال: واستسقى أبو طالب برسول الله . قال جلهمة بن عرفطة: قدمت مكة وقريش في قحط فقائل منهم يقول اعتمدوا اللات والعزى. وقائل منهم يقول اعتمدوا مائة الثالثة الأخرى، فقال شيخ وسيم حسن الوجه جيد الرأي أنى تؤفكون: أي كيف تصرفون عن الحق وفيكم باقية إبراهيم، وسلالة إسماعيل عليهما السلام؟ أي فكيف تعدلون عنه إلى ما لا يجدي. قالوا: كأنك عنيت أبا طالب، قال: إيها، فقاموا بأجمعهم وقمت معهم، فدققنا عليه بابه فخرج إلينا رجل حسن الوجه، عليه إزار قد اتشح به فثاروا أي قاموا إليه، فقالوا، يا أبا

طالب، أفضط الوادي، وأجذب العيال، فهلم فاستسق لنا، فخرج أبو طالب ومعه غلام كأنه شمس دجنة بدال مهملة فجيم مضمومتين أي ظلمة. وفي رواية كأنه شمس دجن: أي ظلام تجلت عنه سحابة قتماء أي من القتام بالفتح وهو الغبار وحوله أغيلمة جمع غلام، فأخذه أبو طالب فألصق ظهره بالكعبة ولاذ أي طاف بأصبعه الغلام، زاد في بعض الروايات، وبصبصت الأغيلمة حوله: أي فتحت أعينها، وما في السماء قزعة: أي قطعة من سحاب، فأقبل السحاب من ههنا ومن ههنا واغدودق: أي كثر مطره، وانفجر له الوادي، وأخصب النادي والبادي.

وفي ذلك يقول أبو طالب من قصيدة يمدح بها النبي صلى الله عليه وسلم وشرف وكرم أكثر من ثمانين بيتاً:

وأبيض يستسقى الغمام بوجهه

تمال اليتامى عصمة للأرامل

أي ملجأً وغيثاً لليتامى، ومانع الأرامل من الضياع. والأرامل: المساكين من النساء والرجال، وهو بالنساء أخص وأكثر استعمالاً.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 184

أقول: وأخذت الشيعة من هذه القصيدة القول بإسلام أبي طالب: أي لأنه صنفها بعد البعثة وسيأتي الكلام في إسلامه.

وأما ما نقله الدميري في شرح المنهاج عن الطبراني وابن سعد أن هذه القصيدة التي منها هذا البيت من إنشاء عبد المطلب فهو وهم، لما درج عليه أئمة السير أن المنشئ لها هو أبو طالب، واحتمال توارده كل من أبي طالب وعبد المطلب على هذه القصيدة بعيداً جداً.

ومما يصرح بالوهم ما يأتي عن النبي صلى الله عليه وسلم من نسبة هذا البيت لأبي طالب، والله أعلم.

قال: وعن أبي طالب قال: كنت بذي المجاز: أي وهو موضع على فرسخ من عرفة كان سوقاً للجاهلية كما تقدم مع ابن أخي يعني النبي صلى الله عليه وسلم فأدركني العطش فشكوت إليه فقلت يا ابن أخي قد عطشت وما قلت له ذلك وأنا أرى عنده شيئاً إلا الجزع: أي لم يحملني على ذلك إلا الجزع: وعدم الصبر. قال: فتنى وركه: أي نزل عن دابته. ثم قال: يا عم عطشت. قلت نعم فأهوى بعقبه إلى الأرض. وفي رواية: إلى صخرة فركضها برجله وقال شيئاً، فإذا أنا بالماء لم أر مثله، فقال اشرب، فشربت حتى رويت، فقال أرويت؟ قلت نعم، فركضها ثانية فعادت كما كانت وسافر: أي وقد أتت عليه بضع عشرة سنة مع عمه الزبير بن عبد المطلب شقيق أبيه كما تقدم إلى اليمن، فمروا بواد فيه فحل من الإبل يمنع من يجتاز، فلما رآه البعير برك وحك الأرض بكللكه: أي صدره فنزل عن بعيره وركب ذلك الفحل، وسار حتى جاوز الوادي ثم خلى عنه فلما رجعوا من سفرهم مروا بواد مملوء ماء يتدفق، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أتبعوني ثم أقتحمه فاتبعوه فأيبس الله عز وجل الماء فلما وصلوا إلى مكة تحدثوا بذلك، فقال الناس: إن لهذا الغلام شأنًا أهـ.

أي وفي السيرة الهشامية أن رجلاً من لهب كان قائفاً. وكان إذا قدم مكة أتاه رجال من قريش بغلمانهم ينظر إليهم ويقتاف لهم فيهم، فأتى أبو طالب بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو غلام مع من يأتيه فنظر إليه، ثم شغل عنه بشيء، فلما فرغ قال عليّ بالغلام، وجعل يقول ويلكم ردوا عليّ الغلام الذي رأيت آنفاً فوالله ليكوننّ له شأن، فلما رأى أبو طالب حرصه عليه غيبه عنه وانطلق به، والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 184

باب: ذكر سفره مع عمه أبي طالب إلى الشام
عن ابن إسحق لما تهيأ أبو طالب للرحيل صبّ به رسول الله صلى الله عليه وسلم بفتح الصاد المهملة وتشديد الباء الموحدة. والصبابة: رقة الشوق، قاله في الأصل.

قال: وعند بعض الرواة: فضبت به أي بفتح الصاد المعجمة والباء الموحدة والثاء المثناة كضرب لزمه وقبض عليه، يقال ضبثت على الشيء: إذا قبضت عليه.

فقد جاء: أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام: قل للملأ من بني إسرائيل لا يدعوني والخطايا بين أضيائهم: أي قبضاتهم: أي وهم يحملون الأوزار غير مقلعين عنها: أي وعلى ما عند بعض الرواة اقتصر الحافظ الدمياطي، فلفظه: لما تهيأ يعني أبا طالب للرحيل ضبث به رسول الله صلى الله عليه وسلم فرق له أبو طالب وقال: والله لأخرجنّ به معي ولا يفارقني ولا أفارقه أبداً.

أقول: رأيت بعضهم نقل عن سيرة الدمياطي: وضبت به أبو طالب ضبابة لم يضبت مثلها لشيء قط وإنه ضبث بالصاد المعجمة والباء الموحدة والثاء المثناة. قال وهو القبض على الشيء، وهذا لا يناسب قوله ضبابة لم يضبت مثلها لشيء قط، لأن ذلك إنما يناسب صب بالصاد المهملة: أي الذي هو الرقة كما لا يخفى. على أن مصدر ضبث إنما هو الضبث، ومن ثم لم أجد ذلك في السيرة المذكورة. والذي رأته فيها ما قدمته عنها، وفي رواية أنه مسك بزمام ناقة أبي طالب، وقال: يا عم إلى من تكلمي؟ لا أب لي ولا أم. وكان سنه تسع سنين على الراجح. وقيل اثنتي عشرة سنة وشهرين وعشرة أيام: أي وهذا القيل صدر به في الإمتاع وقال إنه أثبت: أي ومن ثم اقتصر عليه المحب الطبري.

وذكر أنه لما سار به أردفه خلفه فنزلوا على صاحب دير، فقال صاحب الدير ما هذا الغلام منك؟ قال ابني، قال: ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون له أب حي هذا نبي: أي لأن من كانت هذه الصفة صفته فهو نبي: أي النبي المنتظر. ومن علامة ذلك النبي في الكتب القديمة أن يموت أبوه وأمه حامل به كما تقدم وسيأتي أو بعد وضعه بقليل من الزمن: أي ومن علامته أيضاً في تلك الكتب موت أمه وهو صغير كما تقدم في خبر سيف بن ذي يزن. ولا ينافي ذلك الاقتصار من بعض أهل الكتب القديمة على الأول الذي هو موت أبيه وهو حمل.

قال أبو طالب لصاحب الدير وما النبي؟ قال: الذي يأتي إليه الخبر من السماء فينبىء أهل الأرض. قال أبو طالب الله أجل مما تقول، قال: فاتق عليه اليهود، ثم خرج حتى نزل براهب أيضاً صاحب دير، فقال له: ما هذا الغلام منك، قال ابني، قال: ما هو بابنك، وما ينبغي أن يكون له أب حي. قال ولم؟ قال لأن وجهه وجه نبي وعينه عين نبي: أي النبي الذي يبعث لهذه الأمة الأخيرة، لأن ما ذكر علامته في الكتب القديمة. قال أبو طالب: سبحان الله! الله أجل مما تقول. ثم قال أبو طالب للنبي: يا ابن أخي ألا تسمع ما يقول؟ قال: أي عم لا تنكر لله قدرة، والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 191

فلما نزل الراكب بصرى وبها راهب يقال له بحيرا، بفتح الموحدة وكسر الحاء المهملة وسكون المثناة التحتية آخره راء مقصورة، واسمه جرجيس، وقيل سر جيس. وحينئذ يكون بحيرا لقبه في صومعة له. وكان انتهى إليه علم النصرانية: أي لأن تلك الصومعة كانت تكون لمن ينتهي إليه علم النصرانية، يتوارثونها كابراً عن كابر، وعن أوصياء عيسى عليه الصلاة والسلام. وفي تلك المدة انتهى علم النصرانية إلى بحيراً، وقيل كان بحيراً من أبحار اليهود يهود تيمما (.)

أقول: لا منافاة لأنه يجوز أن يكون تنصر بعد أن كان يهودياً كما وقع لورقة بن نوفل كما سيأتي.

هذا وقال ابن عساكر: إن بحيراً كان يسكن قرية يقال لها الكفو، بينها وبين بصرى ستة أميال. وقيل كان يسكن البلقاء من أرض الشام بقرية، يقال لها ميفة، ويحتاج إلى الجمع.

وقد يقال يجوز: أنه كان يسكن في كلٍّ من القريتين كل واحد يسكن فيها زمناً، وكان في بعض الأحيان يأتي لتلك الصومعة فليتأمل. وقد سمع مناد قبل وجوده ينادي ويقول: ألا إن خير أهل الأرض ثلاثة: رباب بن البراء، وبحيرا الراهب، وآخر لم يأت بعد. وفي لفظ: والثالث المنتظر يعني النبي صلى الله عليه وسلم ذكره ابن قتيبة.

قال ابن قتيبة: وكان قبر رباب وقبر ولده من بعده لا يزال يرى عندهما طش: وهو المطر الخفيف، والله أعلم.

وكانت قريش كثيراً ما تمر على بحيرا فلا يكلمهم حتى كان ذلك العام صنع لهم طعاماً كثيراً، وقد كان رأى وهو بصومعته رسول الله صلى الله عليه وسلم في الراكب حين أقبلوا وغمامة تظله من بين القوم، ثم لما نزلوا في ظل شجرة نظر إلى الغمامة قد أظلت الشجرة وتهصرت: أي مالت () أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي رواية وأخضلت: أي كثرت أغصان الشجرة على رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استظل تحتها: أي وقد كان وجدهم سبقوه إلى فيء الشجرة، فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، ثم أرسل إليهم: إني قد صنعت لكم طعاماً يا معشر قريش، وأحب أن تحضروا كلكم صغيركم وكبيركم وعبدكم وحركم، فقال له رجل منهم لم أقف على اسم هذا الرجل: يا بحيراً إن لك اليوم لشأناً ما كنت تصنع هذا بنا وكنا نمر عليك كثيراً فما شأنك اليوم؟ فقال له بحيراً صدقت، قد كان ما تقول ولكنكم ضيف وقد أحببت أن أكرمكم وأصنع لكم طعاماً فتأكلون منه كلكم فاجتمعوا

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

إليه وتخلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من بين القوم لحدثة سنة في رجال القوم: أي تحت الشجرة، فلما نظر بحيراً في القوم ولم ير الصفة: أي لم ير في أحد منهم الصفة التي هي علامة للنبي المبعوث آخر الزمان التي يجدها عنده: أي ولم ير العمامة على أحد من القوم، ورأها متخلفة على رأس رسول الله، فقال: يا معشر قريش لا يتخلف أحد منكم عن طعامي. فقالوا: يا بحيراً ما تخلف عن طعامك أحد ينبغي له أن يأتيك إلا غلام وهو أحدث القوم سناً. قال: لا تفعلوا، ادعوه فليحضر هذا الغلام معكم أي وقال: فما أقبح أن تحضروا ويتخلف رجل واحد مع أني أراه من أنفسكم فقال القوم: هو والله أوسطنا نسباً، وهو ابن أخي هذا الرجل، يعنون أبا طالب، وهو من ولد عبد المطلب، فقال رجل من قريش: واللات والعزى إن كان للؤمنا بنا أن يتخلف ابن عبد

الله بن عبد المطلب عن طعام من بيننا، ثم قام إليه فاحتضنه: أي وجاء به () وأجلسه مع القوم: أي وذلك الرجل هو عمه الحارث بن عبد المطلب، ولعله لم يقل هو ابن أخي مع كونه أسن من أبي طالب، لأن أبا طالب كان شقيقاً لأبيه عبد الله كما تقدم دون الحارث مع كون أبي طالب هو المقدم في الركب. وقيل الذي جاء به أبو بكر رضي الله تعالى عنه وقدمه ابن المحدث على ما قبله فليتامل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 191

ولما سار به من احتضنه لم تزل العمامة تسير على رأسه، فلما رآه بحيراً جعل يلحظه لحظاً شديداً وينظر إلى أشياء من جسده قد كان يجدها عنده من صفته، حتى إذا فرغ القوم من طعامهم وتفرقوا قام إليه بحيراً، فقال له: أسألك بحق اللات والعزى إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه وإنما قال له بحيراً ذلك لأنه سمع قومه يحلفون بهما: أي وفي الشفاء أنه اختبره بذلك، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا تسألني باللات والعزى شيئاً، فوالله ما أبغض شيئاً قط بغضهما، فقال بحيراً: فبالله إلا ما أخبرتني عما أسألك عنه، فقال له سلني عما بدا لك. فجعل يسأله عن أشياء من حاله من نومه وهيئته وأموره ويخبره رسول الله، فيوافق ذلك ما عند بحيراً من صفته: أي صفة النبي المبعوث آخر الزمان التي عنده: أي ثم كشف عن ظهره فرأى خاتم النبوة على الصفة التي عنده فقبل موضع الخاتم، فقالت قريش: إن لمحمد عند هذا الراهب لقدراً. فلما فرغ أقبل على عمه أبي طالب، فقال له: ما هذا الغلام منك؟ قال ابني، قال: ما هو ابنك وما ينبغي لهذا الغلام أن يكون أبوه حياً، فإنه ابن أخي، قال: فما فعل أبوه؟ قال مات وأمه حبلى به، قال صدقت: أي ثم قال ما فعلت أمه؟ قال: توفيت قريباً، قال صدقت، فارجع بابن أخيك إلى يلاذه واحذر عليه اليهود، فوالله لئن رأوه وعرفوا منه ما عرفت لتبغينه شراً فإنه كائن لابن أخيك هذا شأن عظيم أي نجده في كتبنا وروينا عن آبائنا.

واعلم أني قد أدبت إليك النصيحة فاسرع به إلى بلده. وفي لفظ لما قال له

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

ابن أخي قال له بحيراً أشفيق عليه أنت؟ قال نعم، قال: فوالله لئن قدمت به إلى الشام أي جاوزت هذا المحل ووصلت إلى داخل الشام الذي هو محل اليهود لتقتلنه اليهود، فرجع به إلى مكة. ويقال إنه قال لذلك الراهب: إن كان الأمر كما وصفت فهو في حصن من الله عز وجل.

وقد يقال: لا مخالفة لأن ما صدر من بحيراً كان على ما جرت به العادة من طلب التوقي، فخرج به عمه أبو طالب حتى أقدمه مكة حين فرغ من تجارته بالشام. وفي الهدى فبعثه عمه مع بعض غلمانه إلى المدينة، فليتأمل. وذكر أن نفرأ من أهل الكتاب قد كانوا رأوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما رأى بحيراً وأرادوا به سوءاً فردداهم عنه بحيراً، وذكرهم الله وما يجدونه في الكتاب من ذكره وصفاته، وأنهم إن أجمعوا لما أرادوا لا يخلصون إليه، فعند ذلك تركوه وانصرفوا عنه. وفي رواية أخرى: خرج أبو طالب إلى الشام، وخرج معه النبي صلى الله عليه وسلم في أشياخ من قريش، فلما أشرفوا على الراهب بحيراً، وكانوا قبل ذلك يمرون عليه فلا يخرج إليهم ولا يلتفت إليهم، فجعل وهم يحلون رجالهم يتخللهم حتى جاء فأخذ بيد النبي، ثم قال: هذا سيد العالمين، هذا رسول رب العالمين، هذا يبعثه الله رحمة للعالمين، فقال الأشياخ من قريش: ما أعلمك؟ فقال: إنكم حين أشرفتم على العقبة لم يبق حجر ولا شجر إلا خر ساجداً، ولا يسجد إلا لنبي: أي وإن الغمامة صارت تظلمه دونهم، وإني لأعرفه بخاتم النبوة أسفل من غضروف كتفه مثل التفاحة. أي والغضروف تقدم أنه رأس لوح الكتف، ثم رجع وصنع لهم طعاماً، فلما أتاهم به كان النبي صلى الله عليه وسلم في رعية الإبل، فأرسلوا إليه، فأقبل وعليه غمامة تظله، فلما دنا من القوم وجدهم قد سبقوه إلى فيء الشجرة: فلما جلس مال فيء الشجرة عليه، فقال الراهب: انظروا إلى فيء هذه الشجرة مال عليه.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 191

فبينما هو قائم عليهم وهو يعاهدهم أن لا يذهبوا به إلى أرض الروم: أي داخل الشام، فإنهم إن عرفوه قتلوه، فالتفت فإذا سبعة من الروم قد أقبلوا، فاستقبلهم، فقال: ما جاء بكم؟ قالوا جئنا إلى هذا النبي الذي هو خارج في هذا الشهر: أي مسافر فيه، فلم يبق طريق إلا بعث إليه باناس وإنا قد أخبرنا خبره بطريقك هذا. قال: أفرايتم أمراً أراد الله أن يقضيه هل يستطيع أحد من الناس رده؟ قالوا لا، فبايعوه: أي بايعوا بحيراً على مسالمة النبي، وعدم أخذه وأذيته على حسب ما أرسلوا فيه، وأقاموا عند ذلك الراهب خوفاً على أنفسهم ممن أرسلهم إذا رجعوا بدونه. قال بحيراً لقريش: أنشدكم الله: أي أسألکم بالله أيكم وليه؟ قالوا: أبو طالب. فلم يزل يناشده حتى رده أبو طالب وبعث معه بلالاً. وفي لفظ: وبعث معه أبو بكر رضي الله تعالى عنه بلالاً، وزوده بحيراً من الكعك والزيت: أي وإذا كانت القصة واحدة فالاختلاف في إيرادها من الرواة كما تقدم نظيره. فبعض الرواة قدم في هذه الرواية وأخر. على أنه في الهدى قال: وقع في كتاب الترمذي وغيره أن عمه: أي وأبا بكر

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

رضي الله تعالى عنه بعث معه بلالاً، وهو من الغلط الواضح، فإن بلالاً إذ ذاك لعله لم يكن موجوداً، وإن كان فلم يكن مع عمه ولا مع أبي بكر.

وذكر في الأصل أن في هذه الرواية أموراً منكراً حيث قال: قلت ليس في إسناده هذا الحديث إلا من خرّج له في الصحيح، ومع ذلك: أي مع صحة سنده، ففي متنه نكارة: أي أمور منكورة: وهي إرسال أبي بكر مع النبي صلى الله عليه وسلم بلالاً، فإن بلالاً لم ينقل لأبي بكر إلا بعد هذه السفارة بأكثر من ثلاثين عاماً، ولأن أبا بكر لم يبلغ العشر سنين حينئذ، لأنه أسن منه بأزيد من عامين بقليل: أي بشهر. ولا ينافي ما يأتي: وتقدم أن سنه حينئذ تسع سنين على الراجح أي فيكون سن أبي بكر نحو سبع سنين وكان بلال أصغر من أبي بكر رضي الله عنهما، فلا يتجه هذا بحال: أي لأن أبا بكر حينئذ لم يكن أهلاً للإرسال عادة، وكذا بلال لم يكن أهلاً لأن يرسل.

وكون النبي صلى الله عليه وسلم أسن من أبي بكر هو ما عليه الجمهور من أهل العلم بالأخبار والسر والآثار.

وما روي أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل أبا بكر فقال له: من الأكبر أنا أو أنت؟ فقال له أبو بكر: أنت أكرم وأكبر وأنا أسن. قيل فيه إنه وهم وإن ذلك إنما يعرف عن عمه العباس رضي الله تعالى عنه، وكون بلال أصغر من أبي بكر ينازعه قول ابن حبان: بلال كان ترباً لأبي بكر: أي قرينه في السن، وبه يردّ قول الذهبي: بلال لم يكن خلق.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 191

قال: وذكر الحافظ ابن حجر أن إرسال أبي بكر معه بلال وهم من بعض الرواة، وهو مقتطع من حديث آخر أدرجه ذلك الراوي في هذا الحديث انتهى.

أقول: ولأجل هذا الوهم قال الذهبي في الحديث أظنه موضوعاً بعضه باطل: أي لم يوافق الواقع: أي فمع كون الحديث موضوعاً، بعضه موافق للواقع، وبعضه لم يوافق الواقع. وحينئذ فمراد الأصل بالنكارة في قوله في متنه نكارة البطلان كما أشرت إليه، وليس هذا من قبيل قولهم: هذا حديث منكر، الذي هو من أقسام الضعيف وهو يرجع إلى الفردية ولا يلزم من الفردية ضعف متن الحديث فضلاً عن بطلانه.

وقال الحافظ الدميّاطي: في هذا الحديث وهما أحدهما قوله فبايعوه وأقاموا معه والوهم الثاني قوله وبعث معه أبو بكر بلالاً، ولم يكونا معه، ولم يكن بلال أسلم ولا ملكه أبو بكر.

وفيه أن الحافظ الدميّاطي فهم أن الضمير في بايعوه للنبي، وقد علمت أنه لبحيرا فلا وهم فيه.

وتوجيه الوهم الثاني بعدم وجود أبي بكر وبلال مع النبي صلى الله عليه وسلم واضح إن ثبت ذلك، وإلا فمجرد النفي لا يرد به الإثبات. وحينئذ لا حاجة معه إلى ذكر ما بعده من أن بلالاً لم يكن أسلم ولا ملكه أبو بكر، إلا أن يقال هو على تسليم وجود أبي بكر وبلال مع النبي .

وقد يقال على تسليم ذلك: إرسال أبي بكر لبلال لا يتوقف على إسلام بلال ولا

على ملك أبي بكر له، جاز أن يكون سيد بلال وهو أمية بن خلف أرسله في ذلك العير لأمر، فأذن أبو بكر لبلال في العود مع النبي صلى الله عليه وسلم ليكون خادماً، ويستأنس ويأمن به، اعتماداً على رضا سيده بذلك، إذ ليس من لازم إرساله أن يكون مملوكاً له. وكون أبي بكر لم يكن في سن من يرسل عادة تقدم ما فيه، والله أعلم.

قال: وروى ابن منده بسند ضعيف عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه صحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو ابن ثمان عشرة سنة والنبي صلى الله عليه وسلم ابن عشرين سنة: أي فالنبي صلى الله عليه وسلم أسن من أبي بكر بعامين: أي وشهر كما تقدم. ولقلة هذه الزيادة على العامين التي هي الشهر الواردة مبهمة في الرواية السابقة لم يذكرها ابن منده، وهم يريدون الشام في تجارتهم، حتى إذا نزل منزلاً وهو سوق بصرى من أرض الشام، وفي ذلك المحل سدرة فقع في ظلها ومضى أبو بكر إلى راهب يقال له بحيرا يسأله عن شيء، فقال: من الرجل الذي في ظل السدرة؟ قال له: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، فقال له: والله هذا نبي هذه الأمة، ما استظل تحتها بعد عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إلا محمد عليه الصلاة والسلام: أي وقد قال عيسى: لا يستظل تحتها بعدي إلا النبي الأمي الهاشمي كما سيأتي في بعض الروايات.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 191

قال الحافظ ابن حجر: يحتمل أن يكون أي سفر أبي بكر معه في سفرة أخرى بعد سفرة أبي طالب انتهى.

أقول: وهي سفرتة مع ميسرة غلام خديجة، فإنه لم يثبت أنه سافر إلى الشام أكثر من مرتين. ويؤيده ما تقدم من قول الراوي وهم يريدون الشام في تجارتهم، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يخرج تاجراً إلا في تلك السفرة، وسيأتي أن هذا القول قاله الراهب نسطوراً لا بحيراً، قاله لميسرة لا لأبي بكر. إلا أن يقال: لا مانع أن يكون قال ذلك لميسرة ولأبي بكر، لكن ربما يبعده ما سيأتي أن سنه حين سافر مع ميسرة كان خمسا وعشرين سنة على الراجح لا عشر سنين. وعلى هذا فالشجرة لم تكن إلا عند صومعة الراهب نسطوراً لا عند صومعة الراهب بحيرا، وذكر بحيرا موضع نسطورا، وهو ما وقع في شرف المصطفى للنيسابوري وهم من بعض الرواة سرى إليه من اتحاد محلها وهو سوق بصرى. إلا أن يقال: يجوز أن يكون الراهب نسطورا خلف بحيرا في ذلك الصومعة لموته مثلاً، وهو أقرب من دعوى تعدد الشجرة، فتكون واحدة عند صومعة بحيرا، وواحدة عند صومعة نسطورا، وكلاهما قال فيها عيسى ما ذكرنا. ومن دعوى اتحادها وأنها بين صومعة بحيرا وصومعة نسطورا وأن العير الذي كان فيه أبو طالب نزل جهة صومعة بحيرا، والعير الذي كان فيه أبو بكر وميسرة نزل جهة صومعة نسطورا، وسيأتي أن بحيرا ونسطورا ونحوهما ممن صدق بأنه نبي هذه الأمة من أهل الفترة لا من أهل الإسلام، لأنهما لم يدركا البعثة: أي الرسالة بناء على اقترانها بالنبوة، أو أن المراد بها النبوة: أي لم

يدركا النبوة فضلاً عن الرسالة بناء على تأخرها عن النبوة. ثم رأيت الحافظ ابن حجر قال في بحيرا: ما أدري أدرك البعثة أم لا؟ هذا كلامه في الإصابة، وليس هذا بحيرا الراهب الصحابي الذي هو أحد الثمانية الذين قدموا مع جعفر بن أبي طالب من الحبشة.

فعنه رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إذا شرب الرجل كأساً من خمر» الحديث، ومن قال: إن هذا الحديث منكر ظن أن بحيراً هذا هو بحيرا المذكور هنا الذي لقي النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 191

باب: ما حفظه الله تعالى به في صغرهم من أمر الجاهلية أي من أقدارهم ومعاييبهم: أي بحسب ما آل إليه شرعه، لما يريد الله تعالى به من كرامته، حتى صار أحسنهم خلقاً، وأصدقهم حديثاً، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم من الفحش والأخلاق التي تدينس الرجال تنزيهاً وتكريماً: أي حتى كان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأكرمهم مخالطة، وخيرهم جواراً، وأعظمهم حلاً وأمانة، وأصدقهم حديثاً فسموه الأمين، لما جمع الله عز وجل فيه من الأمور الصالحة الحميدة، والفعال السديدة، من الحلم والصبر، والشكر والعدل، والزهد والتواضع والعفة والجود، والشجاعة والحياء والمروءة. فمن ذلك ما ذكر ابن إسحاق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لقد رأيتني - أي رأيت نفسي - في غلمان من قريش ننقل الحجارة لبعض ما يلعب به الغلمان، كلنا قد تعزى وأخذ إزاره وجعله على رقبته يحمل عليها الحجارة، فإني لأقبل معهم كذلك وأدبر، إذ لكمني لاكم: أي من الملائكة ما أراها لكمة وجيعة» وفي لفظ «لكمني لكمة شديدة».

وقد يقال: لا منافاة، لأنها مع شدتها لم تكن وجيعة له: «ثم قال شد عليك إزارك، فأخذه فشددته عليّ، ثم جعلت أحمل الحجارة على رقبتي وإزاري عليّ من بين أصحابي» أي وقد وقع له مثل ذلك: أي نقل الحجارة عارياً عند إصلاح أبي طالب لزمزم.

فعن ابن إسحاق وصححه أبو نعيم قال: «كان أبو طالب يعالج زمزم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم ينقل الحجارة وهو غلام، فأخذ إزاره واتقى به الحجارة فغشي عليه، فلما أفاق سأله أبو طالب، فقال أتاني أت عليه ثياب بيض، فقال لي استتر» فما رؤيت عورته من يومئذ. وفي الخصائص الصغرى: ونهى عن التعري وكشف العورة من قبل أن يبعث بخمس سنين. وقد وقع له مثل ذلك: أي نهيه عن التعري عند بنيان الكعبة كما سيأتي، وسيأتي ما فيه.

ومن ذلك ما جاء عن علي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما هممت بقبيح مما هم به أهل الجاهلية» أي ويفعلونه «إلا مرتين من الدهر، كلتاهما عصمني الله عز وجل منهما» أي من فعلهما «قلت لفتى كان معي من قريش بأعلى مكة في غنم لأهله يرعاها» أي وفي

لفظ «قلت ليلة لبعض فتیان مكة ونحن في رعاية غنم أهلها» لم أقف على اسم هذا الفتى «أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتیان قال نعم» وأصل السمر: الحديث ليلاً «فخرجت، فلما جئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف ومزامير، فقلت: ما هذا؟ فقالوا: فلان قد تزوج بفلانة» لرجل من قريش تزوج من امرأة من قريش «فلهوت بذلك الصوت حتى غلبتني عيناى فنمت، فما أيقظني إلا مس الشمس» أي وفي لفظ «فجلست أنظر - أي أسمع - وضرب الله على أذني، فوالله ما أيقظني إلا حر الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال: ما فعلت؟ فأخبرته، ثم فعلت اللية الأخرى مثل ذلك».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 199

أقول: المناسبة لقوله عصمني الله ما في الرواية الثانية لا ما ذكر في الرواية الأولى، إلا أن يحمل قوله في الرواية الأولى فلهوت على أردت أن ألهو، والله أعلم، فقال: «والله ما هممت بغيرهما بسوء مما عمله أهل الجاهلية»: أي ما هممت بسوء مما يعمله أهل الجاهلية غيرهما، وفي لفظ «فوالله ما هممت ولا عدت بعدهما لشيء من ذلك» أي مما يعمله أهل الجاهلية «ولا هممت به حتى أكرمني الله تعالى بنبوته».

ومن ذلك ما جاء عن أم أيمن رضي الله عنها أنها قالت، كان بوانة بضم الموحدة ويفتح الواو مخففة بعدها ألف ونون، صنماً تحضره قريش وتعظمه وتنسك - أي تذبح له - وتحلق عنده، وتعكف عليه يوماً إلى الليل في كل سنة، فكان أبو طالب يحضر مع قومه ويكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يحضر ذلك العيد معه فيأبى ذلك، حتى قالت رأيت أبا طالب غضب عليه، ورأيت عماته غضبن عليه يومئذ أشد الغضب، وجعلن يقلن إنا لنخاف عليك مما تصنع من اجتناب الهتنا، ويقلن ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً ولا تكثر لهم جمعاً، فلم يزالوا به حتى ذهب، فغاب عنهم ما شاء الله، ثم رجع مرعوباً فزعاً، فقلن: ما دهاك؟ قال إني أخشى أن يكون بي لمم: أي لمة وهي المس من الشيطان، فقلن: ما كان الله عز وجل ليبتليك بالشيطان وفيك من خصال الخير ما فيك فما الذي رأيت؟ قال: إني كلما دنوت من صنم منها: أي من تلك الأصنام التي عند ذلك الصنم الكبير الذي هو بوانة تمثل لي رجل أبيض طويل، أي وذلك من الملائكة يصيح بي: وراءك يا محمد لا تمسه، قالت: فما عاد إلى عيد لهم حتى تنبأ.

أقول: ظاهر هذا السياق أن اللمم يكون من الشيطان، وحينئذ يكون بمعنى اللمة: وهي المس من الشيطان كما قدمناه، فقد أطلق اللمم على اللمة، وإلا فاللمم نوع من الجنون كما تقدم في قصة الرضاع: قد أصابه لمم أو طائف من الجن، إذ هو يدل على أن اللمم يكون من غير الشيطان كمرض. وعبارة الصحاح: اللمم طرف من الجنون، وأصاب فلاناً من الجن لمة: وهي المس أي فقد غاير بينهما، والله أعلم.

ومن ذلك ما روته عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: سمعت رسول الله صلى

الله عليه وسلم يقول: «سمعت زيد بن عمرو بن نفيل يعيب كل ما ذبح لغير الله تعالى: أي فكان يقول لقريش: الشاة خلقها الله عز وجل، وأنزل لها من السماء الماء وأنبت لها من الأرض الكلاً ثم تذبحونها على غير اسم الله، فما ذقت شيئاً ذبح على النصب - أي الأصنام - حتى أكرمني الله تعالى برسالته» أي وزيد بن عمرو كان قبل النبوة زمن الفترة على دين إبراهيم عليه السلام، فإنه لم يدخل في يهودية ولا نصرانية، واعتزل الأوثان والذبائح التي تذبح للأوثان، ونهى عن الواد، وتقدم أنه كان يحييها إذا أراد أحد ذلك، أخذ المؤمنة من أبيها وتكفلها، وكان إذا دخل الكعبة يقول: ليك حقاً، تعبداً وصدقاً. وقيل: ورقاً عذت بما عاذ به إبراهيم، ويسجد للكعبة، قال: «إنه يبعث أمة وحده» أي يقوم مقام جماعة انتهى: أي فإن ولده سعيداً قال: «يا رسول الله إن زيدا كان كما قد رأيت وبلغك فاستغفر له، قال نعم أستغفر له فإنه يبعث يوم القيامة أمة وحده».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 199

وفي البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: «أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي زيد بن عمرو بن نفيل قبل أن ينزل على النبي صلى الله عليه وسلم الوحي وقد قدمت إلى النبي صلى الله عليه وسلم سفرة - أي فيها شاة ذبحت لغير الله عز وجل أو قدمها النبي صلى الله عليه وسلم إليه - فأبى أن يأكل منها وقال: إني لست أكل ما تذبحون على أنصابكم ولا أكل إلا ما ذكر اسم الله عليه» ولعل هذا كان قبل ما تقدم عنه، وأن ذلك كان هو السبب في ذلك.

قال الإمام السهيلي: وفيه سؤال كيف وفق الله عز وجل زيد إلى ترك ما ذبح على النصب وما لم يذكر اسم الله عليه، ورسوله كان أولى بهذه الفضيلة في الجاهلية، لما ثبت من عصمة الله تعالى له؟ أي فكان يترك ذلك من عند نفسه لا تبعاً لزيد بن عمرو. وحينئذ لا يحسن الجواب الذي أشرنا إليه بقولنا. وأجاب أي السهيلي بأنه لم يثبت أنه أكل من تلك السفرة: أي ولا من غيرها. سلمنا أنه أكل قبل ذلك مما ذبح على النصب، فتحريم ذلك لم يكن من شرع إبراهيم وإنما كان تحريم ذلك في الإسلام والأصل في الأشياء قبل ورود الشرع على الإباحة، هذا كلامه.

وفيه أن هذا التسليم يبطل عدّ الشمس الشامي ذلك من أمر الجاهلية التي حفظه الله تعالى منه في صغره، ويخالف ما ذكره بعضهم من أن زيد بن عمرو هذا هو رابع أربعة من قريش فارقوا قومهم، فتركوا الأوثان والميتة وما يذبح للأوثان. كانوا يوماً في عيد لصنم من أصنامهم ينحرون عنده، ويعكفون عليه، ويطوفون به في ذلك اليوم، فقال بعضهم لبعض: تعلمون والله ما قومكم على شيء، لقد أخطؤوا دين أبيهم إبراهيم، فما حجر تطوف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، ثم تفرقوا في البلاد يلتمسون الحنيفة دين إبراهيم، وظاهر هذا السياق أن تركهم للأوثان كان بعد عبادتهم لها، وسيأتي عن ابن الجوزي أنهم لم يعبدوها.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وهؤلاء الثلاثة الذين زيد بن عمرو رابعهم: ورقة بن نوفل، وعبيد الله بن جحش ابن عمته أميمة، وعثمان بن الحويرث. وزاد ابن الجوزي علي هؤلاء الأربعة جماعة آخرين سيأتي الكلام عليهم عند الكلام على أول من أسلم. وزيد بن عمرو بن نفيل هذا كان ابن أخي الخطاب والد سيدنا عمر أخاه لأمه. فأما ورقة فلم يدرك البعثة علي ما سيأتي. وكان ممن دخل في النصرانية: أي بعد دخوله في اليهودية كما سيأتي. وأما عبيد الله بن جحش، فأدرك البعثة وأسلم وهاجر إلى الحبشة مع من هاجر من المسلمين ثم تنصر هناك كما سيأتي، وكان يمر على المسلمين ويقول لهم: فتحنا وصأصأتم: أي أبصرنا وأنتم تلتمسون البصر ولم تبصروا ومات على النصرانية.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 199
وأما عثمان بن الحويرث، فلم يدرك البعثة، وقدم على قيصر ملك الروم وتنصر عنده.

وأما زيد بن عمرو بن نفيل هذا، كان يوبخ قريشاً ويقول لهم: والذي نفس زيد بن عمرو بيده ما أصبح أحد منكم على دين إبراهيم غيري، حتى إن عمه الخطاب أخرجه من مكة وأسكنه بحراء، ووكل به من يمنعه من دخول مكة كراهة أن يفسد عليهم دينهم، ثم خرج يطلب الحنيفية دين إبراهيم، وبسأل الأحبار والرهبان عن ذلك حتى بلغ الموصل، ثم أقبل إلى الشام فجاء إلى راهب به كان انتهى إليه علم أهل النصرانية فسأله عن ذلك، فقال له: إنك لتطلب ديناً ما أنت بواجد من يحملك عليه اليوم، ولكن قد أظلك زمان نبي يخرج من بلادك التي خرجت منها: يبعث بدين إبراهيم الحنيفية، فالحق بها فإنه مبعوث الآن هذا زمانه، فخرج سريعاً يريد مكة، حتى إذا توسط بلاد لخم عدوا عليه وقتلوه ودفن بمكان يقال له ميفعة. وقيل دفن بأصل جبل حراء.

هذا وفي كلام الواقدي عن زيد بن عمرو أنه قال لعامر بن ربيعة وأنا أنتظر نبياً من ولد إسماعيل. ولا أرى أدركه، وأن أدين به وأصدقه، وأشهد أنه نبي، فإن طالت بك مدة فرأيتك فسلم مني عليه، قال عامر: فلما أسلمت بلغته عن زيد السلام قال: فرد عليه السلام وترجم عليه. وتقدم أن ولده سعيداً سأل النبي صلى الله عليه وسلم أن يستغفر لأبيه زيد، فقال نعم أستغفر له الحديث. قال: وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله: «دخلت الجنة فوجدت لزيد بن عمرو دوحتين» أي شجرتين عظيمتين. قال الحافظ ابن كثير إسناده جيد قوي: أي وقال إلا أنه ليس في شيء من الكتب. وفي رواية «رأيتك في الجنة يسحب ذيولاً» وعن الزهري «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أكل ما يذبح للجن وعلى اسمهم» وأما ما قيل عند ذبحه بسم الله واسم محمد فحلال أكله وإن كان القول المذكور حراماً لإيهامه التشريك، وهذا من جملة المحال المستثناة من قوله تعالى له: {لا أذكر إلا وتذكر معي} فقد جاء «أتاني جبريل فقال: إن ربي وربك يقول لك: أتدري كيف رفعت ذكرك؟» أي على كل حال أي جعلت ذكرك مرفوعاً مشرفاً المذكور ذلك في قوله تعالى: {ألم نشرح لك صدرك} إلى قوله: {ورفعنا لك ذكرك} «قلت الله أعلم، قال: لا أذكر إلا وتذكر معي» أي في غالب المواطن وجوباً أو ندباً. ومن ذلك ما روي عن علي رضي الله تعالى عنه قال: «قيل للنبي هل عبدت

وثناً قط؟ قال لا، قالوا: هل شربت خمراً قط؟ قال لا، وما زلت أعرف أن الذي هم عليه كفر، وما كنت أدري ما الكتاب ولا الإيمان» انتهى.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 199

أقول: تحريم شرب الخمر في الجاهلية ليس من خصائصه، بل حرّمها على نفسه في الجاهلية جماعة كثيرون سيأتي ذكر بعضهم، وتقدم ذكر بعض منهم وكون شرب الخمر من الكفر على ما هو ظاهر السياق بمعنى ينبغي أن يجتنب كما يجتنب الكفر، ولعل صدور هذا منه كان بعد تحريم الخمر، وكيون الإتيان بذلك للمبالغة في الزجر عنها، والتباعد منه لأنها أم الخبائث، وقد كانت نفوس غالبهم ألفتها، وهذا محمل ما جاء «أتاني جبريل فقال: بشر أمتك أنه من مات لا يشرك بالله شيئاً» أي مصداقاً بما جئت به «دخل الجنة» أي لا بد وأن يدخل الجنة وإن دخل النار «قلت: يا جبريل وإن زنى وإن سرق؟ قال نعم، قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال نعم قلت: وإن سرق وإن زنى؟ قال نعم، وإن شرب الخمر» والمراد بتحريمها تحريمها على الناس، وإلا ففي الخصائص الصغرى للسيوطي: وحرمت عليه الخمر من قبل ما يبعث قبل أن تحرم على الناس بعشرين سنة، والله أعلم.

قال: وأما ما رواه جابر بن عبد الله «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يشهد مع المشركين مشاهدتهم، فسمع ملكين خلفه، واحد يقول لصاحبه اذهب بنا نقوم خلف رسول الله، فقال: كيف نقوم خلفه وإنما عهده باستلام الأصنام قبل فلم يعد بعد ذلك يشهد مع المشركين مشاهدتهم» قال الحافظ ابن حجر: أنكره الناس أي فقد قال الإمام أحمد كما في الشفاء إنه موضوع أو يشبه الموضوع. وقال الدارقطني: إن ابن أبي شيبه وهم في إسناده، والحديث بالجملة منكر فلا يلتفت إليه، والمنكر فيه قول الملك عهده باستلام الأصنام قبل، فإن ظاهره أنه باشر الاستلام، وليس ذلك مراداً أبداً، بل المراد أنه شاهد بمباشرة المشركين استلام أصنامهم: أي لشهوده بعض مشاهدتهم التي تكون عند الأصنام.

وقال غيره: والمراد بالمشاهد التي شهدها: أي التي كان يشهدها مشاهد الحلف ونحوها كالضيافات الآتي بيانها لا مشاهدة استلام الأصنام، فإنه يرد ما تقدم عن أم أيمن انتهى: أي من قولها إن بوانة كان صنماً لقريش تعظمه وتعتكف عليه يوماً إلى الليل في كل سنة إلى آخره: أي ويرده أيضاً ما تقدم من قوله ليجيراً لما حلفه باللات والعزى: لا تسألني بهما؟ فإني والله ما أبغضت شيئاً قط بغضهما، لأن مثل اللات والعزى غيرهما من الأصنام في ذلك، وما سيأتي من قوله لخديجة رضي الله تعالى عنها: «والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئاً قط» وما جاء أنه قال: «لما نشأت بغضت إليّ الأوثان، وبغض إليّ الشعر» والله سبحانه وتعالى أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 199

باب: رعيته الغنم

قال: رعيته بكسر الراء، المراد الهيئة انتهى.

أقول: الممين في هذا الباب إنما هو فعله الذي هو رعيه للغنم، لا بيان هيئة رعيه للغنم، فرعيته بفتح الراء لا بكسرهما، والله أعلم.
عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم، قال له أصحابه: وأنت يا رسول الله؟ قال: وأنا رعيته لأهل مكة بالقراريط» أي وهي أجزاء من الدراهم والدنانير يشتري بها الحوائج الحفيرة.
قال سويد بن سعيد: يعني كل شاة بقيراط، وقيل القراريط موضع بمكة.
فقد قال إبراهيم الحربي: قراريط موضع، ولم يرد بذلك القراريط من الفضة أي والذهب، قال: وأيد هذا الثاني بأن العرب لم تكن تعرف القراريط التي هي قطع الذهب والفضة بدليل أنه جاء في الصحيح «ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط» ولأنه جاء في بعض الروايات «لأهلي» ولا يرعى لأهله بأجرة: أي كما قضت بذلك العادة. وأيضاً جاء في بعض الروايات بدل بالقراريط «بأجيات» فدل ذلك على أن القراريط اسم محل، عبر عنه تارة بالقراريط وتارة بأجيات.

وردّ بأن أهل مكة لا يعرفون بها محلاً يقال له القراريط، وحينئذ يكون أراد بأهله أهل مكة لا أقاربه الذين تقضي العادة بأنه لا يرعى لهم بالأجرة، والإضافة تأتي لأدنى ملابسة، وبذل لذلك ما جاء في رواية البخاري «كنت أرهاها» أي الغنم «على قراريط لأهل مكة» وذكره البخاري كذلك في باب الإجارة، وذلك يبعد أن المراد بالقراريط المحل، وجعل على بمعنى الباء.
ويردّ القول بأن العرب لم تكن تعرف القراريط التي هي قطع الدراهم والدنانير: أي ويمنع دلالة قوله «ستفتحون أرضاً يذكر فيها القيراط» على ذلك لجواز أن يكون المراد يذكر فيها القيراط كثيراً لكثرة التعامل به فيها، أو أن المراد بالقيراط ما يذكر في المساحة.
وجمع الحافظ ابن حجر بأنه رعى لأهله أي أقاربه بغير أجرة، ولغيرهم بأجرة، والمراد بقوله «أهلي» أهل مكة: أي الشامل لأقاربه ولغيرهم. قال: فيتجه الخبران ويكون في أحد الحديثين بين الأجرة أي التي هي القراريط، وفي الآخر بين المكان: أي الذي هو أجيات، فلا تنافي في ذلك، هذا كلامه ملخصاً. وعبارته تقتضي وقوع الأمرين منه، وهو مما يتوقف على النقل في ذلك.
قال ابن الجوزي: كان موسى ومحمد صلى الله عليهما وسلم رعاة غنم. وهذا يرد قول بعضهم لم يرد ابن إسحاق برعايته الغنم إلا رعايته لها في بني سعد مع أخيه من الرضاع: أي وقد يتوقف في كون قول ابن الجوزي هذا بمجرده يردّ قول هذا البعض، نعم برده ما تقدم وما يأتي. وفي الهدى أنه أجر نفسه قبل النبوة في رعيه الغنم.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 205

ومن حكمة الله عز وجل في ذلك أن الرجل إذا استرعى الغنم التي هي أضعف البهائم سكن قلبه الرأفة واللطف تعطفاً، فإذا انتقل من ذلك إلى رعاية الخلق كان قد هذب أولاً من الحدة الطبيعية والظلم الغريزي، فيكون في عدل الأحوال. ووقع الافتخار بين أصحاب الإبل وأصحاب الغنم: أي عند النبي، فاستطال أصحاب الإبل، فقال رسول الله: «بعث موسى وهو راعي غنم،

وبعث داود وهو راعي غنم وبعثت أنا وأنا راعي غنم أهلي بأجساد» أي وهو موضع بأسفل مكة من شعابها، ويقال له جباد بغير همزة، ولعل المراد بقوله: «راعي غنم» أي وكذا قوله: «وأنا راعي غنم» أي وقد رعى الغنم، وقد رعى الغنم، إذ الأخذ بظاهر الحالية بعيد، ولتنظر حكمة الاقتصار على من ذكر من الأنبياء مع قوله السابق: «ما بعث الله نبياً إلا رعى الغنم» وما يأتي من قوله «وما من نبي إلا وقد رعاها» وقد قال: «الغنم بركة والإبل عز لأهلها» وقال في الغنم «سمنها معاشنا، وصوفها رباشنا، ودفؤها كساؤنا» وفي رواية «سمنها معاش، وصوفها رباش» أي وفي الحديث «الفخر والخيل في أصحاب الإبل، والسكينة والوقار في أهل الغنم» ولعل هذا لا ينافي ما جاء في الأمثال قالوا: أحقق. وفي لفظ: أجهل من راعي ضأن لما بين، لأن الضأن تنفر من كل شيء فيحتاج راعيها إلى جمعها: أي وذلك سبب لحمقه فليأمل. وفي رواية «الفخر والخيل» وفي لفظ «والرباء في أهل الخيل والوبر» قال: وفيما تقدم في الباب من أمر السمر دليل على ذلك: أي على رعايته للغنم أيضاً، وما رواه جابر رضي الله تعالى عنه قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم نجني الكبات» بكاف فباء موحدة مفتوحتين فثاء مثلثة: أي وهو النضيج من ثمر الأراك، وفي الحديث «عليكم بالأسود من ثمر الأراك فإنه أطيبه، فإني كنت أجتنيه إذ كنت أرى الغنم. قلنا: وكيف ترعى الغنم يا رسول الله؟ قال: نعم، وما من نبي إلا وقد رعاها» اهـ.

أقول: وحينئذ لا ينبغي لأحد غير برعاية الغنم أن يقول كان النبي صلى الله عليه وسلم يرضع الغنم، فإن قال ذلك أدب، لأن ذلك كما علمت كمال في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام دون غيرهم، فلا ينبغي الاحتجاج به، ويجرى ذلك في كل ما يكون كمالاً في حق النبي صلى الله عليه وسلم دون غيره كالأمية، فمن قيل له أنت أمي فقال كان النبي صلى الله عليه وسلم أمياً يؤدب، والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 205

باب: حضوره حرب الفجار
أي بكسر الفاء بمعنى المفاجرة كالقتال بمعنى المقاتلة، وهو فجار البرّاض بفتح الباء الموحدة وتشديد الراء وضاد معجمة عن ابن سعد قال: قال رسول الله «قد حضرته» يعني الحرب المذكورة «مع عمومتي، ورميت فيه بأسهم، وما أحب أني لم أكن فعلت» وكان له من العمر أربع عشرة سنة: أي وهذا الفجار الرابع.

وأما الفجار الأول فكان عمره حينئذ عشر سنين. وسببه أي هذا الفجار الأول أن بدر بن معشر الغفاري كان له مجلس يجلس فيه بسوق عكاظ ويفتخر على الناس، فيسقط يوماً رجله وقال: أنا أعز العرب، فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف، فوثب عليه رجل فضربه بالسيف على ركبته فاندرها: أي أسقطها وأزالها، وقيل جرحه جرحاً يسيراً. قال بعضهم: وهو الأصح، فاقتتلوا. وسبب الفجار الثاني أن امرأة من بني عامر كانت جالسة بسوق عكاظ فأطاف بها شاب من قريش من بني كنانة فسألها أن تكشف وجهها فأبت فجلس خلفها وهي لا تشعر وعقد زيلها بشوكة، فلما قامت انكشف دبرها فضحك الناس منها فنادت المرأة يا آل عامر، فثاروا بالسلاح ونادى الشاب يا

بني كنانة، فاقتتلوا. وقوله: «فسألها أن تكشف وجهها فأبت» يدل على أن النساء في الجاهلية كنّ يابنين كشف وجوههن. وسبب الفجار الثالث أنه كان لرجل من بني عامر دين على رجل من بني كنانة فلواه به: أي مطلقه فجرت بينهما مخاصمة، فاقتتل الحيان.

وقد ذكر أن عبد الله بن جدعان تحمل ذلك الدين في ماله، وكان ذلك سبباً لانقضاء الحرب. وقيل لم يقاتل في فجار البراض، وعليه اقتصر في الوفاء: أي لم يرم فيه بأسهم، بل قال: «كنت أنبل على أعمامي» أي أرد عليهم نبل عدوهم إذا رموه.

وقد يقال: لا مخالفة، لأنه ليس في هذه العبارة أنه لم يرم، بل فيها أنه كان ينبل. ويجوز أن يكون أغلب أحواله ذلك أي أنه كان ينبل: أي يرد النبل، فلا ينافي أنه رمى في بعض الأوقات بأسهم: أي وفي كلام بعضهم: كان أبو طالب يحضر أيام الفجار: أي فجار البراض، وكانت أربعة أيام ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غلام، فإذا جاء هزمت قيس، ولعل المراد قيس هوازن، فلا ينافي ما يأتي من الاقتصار على هوازن. وإذا لم يحيى هو أي في يوم من تلك الأيام هزمت كنانة، فقالوا: لا أبا لك لا تغب عنا ففعل، ذكره في الإمتاع. وذكر فيه أنه طعن أبا براء ملاعب الأسنة في تلك الحروب: أي في بعض تلك الأيام، وأبو براء هذا كان رئيس بني قيس وحامل رأيهم في تلك الحرب، والظعن ظاهر في الرمح محتمل للنبل. وظاهر كلامهم أنه لم يقاتل فيه بغير الرمي للأسهم على تقدير صحة تلك الرواية بذلك. ولا يبعد أن يكون رمي ولم يصب أحداً، إذ لو أصاب أحداً لنقل لأنه مما توفر الدواعي على نقله إلا أن يقال بجواز أن يكون أصاب ثمرة لم تذكر فليتأمل. قال: وسميت الفجار، لأن العرب فجرت فيه لأنه وقع في الشهر الحرام اهـ.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 207

أقول: ظاهره حروب الفجار الأربعة: أي التي هي فجار البراض وغيرها. وظاهر كلامه أنه لم يحضر إلا في الفجار الرابع، الذي هو فجار البراض، ثم رأيت التصريح بذلك في الوفاء وسأذكره، وسيأتي في الباب الذي يلي هذا أن حرب الفجار لم يكن في شهر حرام، وسيأتي في هذا الباب ما يدل على ذلك.

أي أن القتال في ذلك لم يكن في الشهر الحرام وإنما سببه كان في الشهر الحرام وهو قتل البراض لعروة الرجال.

فقد قيل سبب القتال أن عروة الرجال بتشديد الحاء المهملة، وكان من أهل هوازن أجار لطيمة للنعمان بن المنذر ملك الحيرة. واللطيمة: العير التي تحمل الطيب والبز للتجارة: أي فإن المنذر كان يرسل تلك اللطيمة لتباع في سوق عكاظ ويشترى له بثمان ذلك آدم من آدم الطائف، ويرسل تلك اللطيمة في جوار رجل من أشراف العرب، فلما جهز اللطيمة كان عنده جماعة من العرب كان فيهم البراض وهو من بني كنانة، وعروة الرجال وهو من هوازن، فقال البراض: أنا أجيرها على بني كنانة يعني قومه، فقال له النعمان: ما أريد إلا من يجيرها على أهل نجد وتهامة، فقال له عروة الرجال: أنا أجيرها لك، فقال له

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

البراض أتجيرها على كنانة؟ فقال نعم وعلى أهل الشيخ والقيصوم، ونال من البراض، فخرج عروة الرحال مسافراً وخرج البراض خلفه يطلب غفلته، فلما استغفله وثب عليه فقتله: أي فإنه شرب الخمر وغتته القينات، فسكر ونام، فجاءه البراض وأيقظه، فقال له الرحال: ناشدتك الله لا تقتلني فإنها كانت مني زلة وهفوة، فلم يلتفت إليه وقتله وذلك في الشهر الحرام، فأتى أت كنانة وهم بعكاظ مع هوازن، فقال لكنانة: إن البراض قد قتل عروة الرحال وهو في الشهر الحرام، فانطلقوا وهوازن لا تشعر ثم بلغهم الخبر، فاتبعوهم فأدركوهم قبيل دخولهم الحرم، فأمسكت عنهم هوازن، ثم التقوا بعد هذا اليوم وعاونت قريش كنانة. ولا يخفى أن في هذا تصريحاً بأن القتال لم يكن في الشهر الحرام، لأنهم إذا كانوا في الشهر الحرام لا يقاتلون مطلقاً أي وإن لم يدخلوا الحرم، فكفهم عن قتالهم لمقاربتهم دخول الحرم، وقتالهم لهم في اليوم الثاني دليل على أن قتالهم لم يكن في الشهر الحرام، ومكث القتال بينهم أربعة أيام: أي كما تقدم.

أقول: قال السهيلي: الصواب ستة أيام، والله أعلم. قال: وشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بعض تلك الأيام، أخرجه أعمامه معهم: أي ويدل له ما تقدم من أنه كان إذا حضر غلبت كنانة وإذا لم يحضر هزمت، وفي بعض تلك الأيام وهو أشدها: أي وهو اليوم الثالث قيد أمية وحرب ابنا أمية بن عبد شمس وأبو سفيان بن حرب أنفسهم كيلا يفروا، فسموا العنابس: أي الأسود اه.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 207

أي وحرب والد أبي سفيان وأميه أخوه ماتا على الكفر، وأبو سفيان أسلم كما سيأتي، ثم تواعدوا للعام المقبل بعكاظ، فلما كان العام المقبل جاؤوا للوعد: أي وكان أمر قريش وكنانة إلى عبد الله بن جدعان. وقيل كان إلى حرب بن أمية والد أبي سفيان، لأنه كان رئيس قريش وكنانة يومئذ، وكان عتبة ابن أخيه ربيعة بن عبد شمس يتيماً في حجره، فضنّ أي بخل به حرب، وأشفق: أي خاف من خروجه معه، فخرج عتبة بغير إذنه، فلم يشعر أي يعلم به إلا وهو على بغير بين الصفين ينادي: يا معشر مضر علام تفانون؟ فقالت له هوازن: ما تدعو إليه؟ قال: الصلح على أن ندفع لكم دية قتلاكم وتفعوا عن دماننا: أي فإن قريشاً وكنانة كان لهم الظفر على هوازن يقتلونهم قتلاً ذريعاً: أي وذلك لا ينافي انهزامهم بعض الأيام، قالوا: وكيف؟ قال: ندفع لكم رهناً منا إلى أن نوفي لكم ذلك، قالوا: ومن لنا بهذا؟ قال أنا، قالوا: ومن أنت؟ قال: أنا عتبة بن ربيعة بن عبد شمس، فرضيت به هوازن وكنانة وقريش، ودفعوا إلى هوازن أربعين رجلاً فيهم حكيم بن حزام، وهو ابن أخي خديجة بنت خويلد زوج النبي صلى الله عليه وسلم كما تقدم، فلما رأت هوازن الرهن في أيديهم عفوا عن الدماء وأطلقوهم، وانقضت حرب الفجار. وفي رواية: وودت قريش قتلى هوازن، ووضعت الحرب أوزارها.

وقد يقال: على تقدير صحة هذه الرواية دماء بردت التزمت أن تديها فكان انقضاؤها على يد عتبة بن ربيعة وهو ممن قتل كافراً بيدر، وهو أبو هند زوج أبي

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

سفيان أم معاوية رضي الله عنها وعن زوجها وولدها المذكور.
وكان يقال لم يسد مملق: أي فقير إلا عتبة بن ربيعة وأبو طالب، فإنهما سادا
بغير مال: أي وفي كلام بعضهم: ساد عتبة بن ربيعة، وأبو طالب وكانا أفلس
من أبي المزلق وهو رجل من بني عبد شمس لم يكن يجد مؤنة ليلته وكذا أبوه
وجده وأبو جده وجد جده كلهم يعرفون بالإفلاس.
هذا والذي في الوفاء الاقتصار على أن حرب الفجار كان مرتين: المرة الأولى
كانت المحاربة فيه ثلاث مرات. المرة الأولى سببها قضية بدر بن معشر
الغفاري. والمرة الثانية كان سببها قضية المرأة، والثالثة سببها قضية الدين
ولم يحضر رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك المرات، وأما المرأة الثانية
فكانت بين هوازن وكنانة، وقد حضرها، وقد يقال لا خلاف في المعنى.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 207
باب: شهوده حلف الفضول

وهو أشرف حلف في العرب. والحلف في الأصل: اليمين والعهد؟ وسمي
العهد حلفاً لأنهم يحلفون عند عقده، وكان عند منصور قريش من حرب
الفجار، لأن حرب الفجار كان في شوال: أي وقيل في شعبان لا في الشهر
الحرام: أي وإن كان سببه وهو قتل البراض لعروة الرحال كان في الشهر
الحرام كما تقدم. وكون هذا الحلف كان منصور قريش من حرب الفجار
ظاهر في أنه كان بعد انقضاء الحرب وقبل مجيء الفريقين للموعد من قابل،
لأن عند مجيئهم من قابل للموعد لم يقع حرب، إلا أن يقال: أطلق عليه حرب
باعتبار أنهم كانوا عازمين على المحاربة، وهذا الحلف كان في ذي القعدة.
وأول من دعا إليه الزبير بن عبد المطلب: أي عم رسول الله صلى الله عليه
وسلم شقيق أبيه كما تقدم () فاجتمع إليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسد بن عبد
العزى، وذلك في دار عبد الله بن جدعان التيمي، كان بنو تيم في حياته كاهل
بيت واحد يقوتهم، وكان يذبح في داره كل يوم جزوراً، وينادي مناديه: من أراد
الشحم واللحم فعليه بدار ابن جدعان، وكان يطبخ عنده الفالودج فيطعمه
قريشاً.

أي وسبب ذلك أنه كان أولاً يطعم التمر والسويق، ويسقي اللبن، فاتفق أن
أمية بن أبي الصلت مر على بني عبد المدان، فرأى طعامهم لباب البر والشهد،
فقال أمية:

ولقد رأيت الفاعلين وفعالهم
فرايت أكرمهم بني المدان
البر يليك بالشهاب طعامهم
لا ما يعللنا بنو جدعان

فبلغ شعره عبد الله بن جدعان، فأرسل إلى بصرى الشام يحمل إليه البر
والشهد والسمن، وجعل ينادي مناد: ألا هلموا إلى جفنة عبد الله بن جدعان.
ومن مدح أمية بن أبي الصلت في ابن جدعان قوله:

أذكر حاجتي أم قد كفاني
حياؤك إن سيمتك الحياء
إذا أتى عليك المرء يوماً
كفاه من تعرضك الثناء

كريم لا يغيره صباح
عن الخلق الجميل ولا مساء
يباري الريح مكرمة وجوداً
إذا ما الصب أجره الشتاء

وكان عبد الله بن جدعان ذا شرف وسن، وإنه من جملة من حرم الخمر على نفسه في الجاهلية () أي بعد أن كان بها مغرمًا. وسبب ذلك أنه سكر ليلة فصار يمد يده ويقبض على ضوء القمر ليمسكه، فضحك منه جلساؤه ثم أخبروه بذلك حين صحا، فحلف أن لا يشربها أبداً. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 211

وممن حرمها على نفسه في الجاهلية عثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنه، وقال: لا أشرب شيئاً يذهب عقلي، ويضحك بي من هو أدنى مني، ويحملني على أن أنكح كريمتي من لا أريد.

فصنع لهم عبد الله بن جدعان طعاماً، وتعاهدوا وتعاهدوا بالله ليكون مع المظلوم حتى يؤدي إليه حقه ما بلّ بحر صوفة: أي الأبد.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها: «أنا قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: إن ابن جدعان كان يطعم الطعام، ويقري الضيف، ويفعل المعروف، فهل ينفعه ذلك يوم القيامة؟ فقال: لا، لأنه لم يقل يوماً، وفي رواية: أنه لم يقل ساعة من ليل أو نهار رب اغفر لي خطيئتي يوم الدين» رواه مسلم: أي لم يكن مسلماً، لأن القول المذكور لا يصدر إلا عن مسلم، فلا يقال مقتضى الحديث أنه لو قال ذلك لنفعه ما ذكر يوم القيامة مع كونه كان كافراً، لأنه ممن أدرك البعثة ولم يؤمن، وحينئذ يسأل عن الحكمة عن عدوله إلى ذلك عن قوله لأنه لم يؤمن بي، أو لم يكن مسلماً: أي وكان يكنى أبا زهير، وقد قال في أسرى بدر: «لو كان أبو زهير أو مطعم بن عدي حياً فاستوهبهم لوهبتهم له». وقد ذكر أن جفنة ابن جدعان كان يأكل منها الراكب على البعير: أي وسبأتي في غزوة بدر «أنه ذكر أنه ازدحم هو وأبو جهل وهما غلامان على مائدة لابن جدعان، وأنه دفع أبا جهل لعنه الله فوقه على ركبته فجرحت جرحاً أثر فيها» وقد جاء أنه قال: «كنت أستظل بجفنة عبد الله بن جدعان في صكة عمي» أي في الهاجرة، وسميت الهاجرة بذلك، لأن عمى تصغير أعمى على الترخيم: رجل من العماليق أوقع بالعدو والقتل في مثل ذلك الوقت.

وقيل هو رجل من عدوان كان فقيه العرب في الجاهلية، فقدم في قومه معتمراً، فلما كان على مرحلتين من مكة قال لقومه وهم في نحر الظهرية: من أتى مكة غداً في مثل هذا الوقت كان له أجر عمرتين، فصكوا الإبل صكة شديدة حتى أتوا مكة من الغد في وقت الظهرية، ولعل هذا لا يخالفه قول ابن عباس رضي الله عنهما: عجلنا الرواح للمسجد صكة الأعمى، فقيل ما صكة الأعمى؟ قال: إنه لا يبالي أية ساعة خرج.

وكان عبد الله بن جدعان في ابتداء أمره صعلوكاً، وكان مع ذلك شريراً فتاكاً لا يزال يجني الجنایات، فيعقل عنه أبوه وقومه حتى أبغضته عشيرته، وطرده

أبوه، وحلف لا يأويه أبداً، فخرج هائماً في شعاب مكة يتمنى الموت، فرأى شقاً في جبل فدخل فإذا ثعبان، عظيم له عينان تتقدان كالسراج، فلما قرب منه حمل عليه الثعبان فلما تأخر أنساب: أي رجع عنه، فلا زال كذلك حتى غلب على ظنه أن هذا مصنوع، فقرب منه ومسكه بيده فإذا هو من ذهب وعيناه ياقوتتان، فكسره ثم دخل المحل الذي كان هذا الثعبان على بابه، فوجد فيه رجالاً من الملوك، ووجد في ذلك المحل أموالاً كثيرة من الذهب والفضة، وجواهر كثيرة من الياقوت واللؤلؤ والزبرجد، فأخذ منه ما أخذ، ثم علم ذلك الشق بعلامة وصار ينقل منه ذلك شيئاً فشيئاً، ووجد في ذلك الكنز لوحاً من رخام فيه: أنا نفيلة بن جرهم بن قحطان بن هود نبي الله، عشت خمسمائة عام، وقطعت غور الأرض باطنها وظاهرها في طلب الثروة والمجد والملك، فلم يكن ذلك ينجلي من الموت، ثم بعث عبد الله بن جدعان إلى أبيه بالمال الذي دفعه في جنائته، ووصل عشيرته كلهم فسادهم، وجعل ينفق من ذلك الكنز ويطعم الناس، ويفعل المعروف.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 211

قال: وفي رواية: تحالفوا على أن يردوا الفضول على أهلها، ولا يقر ظالم على مظلوم: أي وحينئذ فالمراد بالفضول ما يؤخذ ظلماً.

وقيل: إن هذا أي رد الفضول مدرج من بعض الرواة. زاد بعضهم: على ما بلّ بحرصوفة، وما رسا حراء وثبير مكانيهما اه: أي والمراد الأبد كما تقدم، وكان معهم في ذلك الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما أحب أن لي بحلف حضرته في دار بني جدعان حمر النعم» أي الإبل «وأني أغدر به» بالغين المعجمة والبدال المهملة: أي لا أحب الغدر به وإن أعطيت حمر النعم في ذلك. قال: وفي رواية «لقد شهدت في دار عبد الله بن جدعان حلفاً ما أحب أن لي به حمر النعم» أي بفواته «ولو دعي به في الإسلام لأجبت» أي لو قال قائل من المظلومين يا آل حلف الفضول لأجبت، لأن الإسلام إنما جاء بإقامة الحق ونصرة المظلوم.

وفيه إن الإسلام قد رفع ما كان من دعوى الجاهلية من قولهم، يا لفلان عند الحرب والتعصب.

وأجيب بأن هذا مستثنى، فالدعوى به جائزة. وفي أخرى «ما شهدت حلفاً لقريش إلا حلف المطيبين، شهدت مع عمومتي، وما أحب أن لي به حمر النعم، وأني كنت نقضته» أي لا أحب نقضه وإن دفع لي حمر الإبل في مقابلة نقضه. والمطيبون: هم هاشم وزهرة: أي بنو زهرة بن كلاب وأمية ومخزوم. قال البيهقي كذا روي هذا التفسير: أي أن المطيبين هاشم وزهرة وأمية ومخزوم مدرجا، ولا أدري من قاله.

وعبارته في السنن الكبرى: لا أدري هذا التفسير من قول أبي هريرة، أو من دونه؟ هذا كلامه، فإن النبي صلى الله عليه وسلم لم يدرك حلف المطيبين: أي لأنه كما تقدم وقع بين بني عبد مناف بن قصي، وهم هاشم، وإخوته عبد شمس والمطلب ونوفل، وبنو زهرة، وبنو أسد بن عبد العزى، وبنو تميم، وبنو الحرث

بن فهر، وهم المطيبون. وبين بني عمهم عبد الدار بن قصي وأحلافهم بني مخزوم وغيرهم، ويقال لهم الأحلاف كما تقدم، وذلك قبل أن يولد رسول الله، وحيث لم يدرك حلف المطيبين يصير المدرج لفظ المطيبين مع تفسيره بمن ذكر، لا أن المدرج تفسيره فقط بمن ذكر كما يقتضيه كلام البيهقي. وحيث تكون الرواية «ما شهدت حلفاً لقريش إلا حلفاً مع عمومتي إلى آخره» ظن الراوي أن حلف الفضول هو حلف المطيبين، فذكر لفظ المطيبين وبنيتهم. وقد يقال: ذكر ابن إسحاق أنه لما قام عبد الله بن جدعان هو والزيبر بن عبد المطلب في الدعوى للتحالف، أجابهما بنو هاشم، وبنو المطلب، وبنو أسد، وبنو زهرة، وبنو تميم، هذا كلامه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 211

ولا يخفى أن هؤلاء أجل المطيبين، أطلق على هذا الحلف والذي هو حلف الفضول حلف المطيبين، لأنهم العاقدون له، فليتأمل. وسمي بالفضول، قيل لما تقدم من أنهم تحالفوا على أن يردوا الفضول على أهلها، وقيل لأنه يشبه حلفاً وقع لثلاثة من جرهم كل واحد يقال له الفضل. وعبارة بعضهم: لأن الداعي إليه كان ثلاثة من أشرفهم اسم كل واحد منهم فضل وهم: الفضل بن فضالة، والفضل بن وداعة، والفضل بن الحارث، والضمير في أشرفهم يتبادر رجوعه إلى قريش، وهؤلاء الثلاثة تحالفوا على نصره المظلوم على ظالمه، فالفضول جمع الفضل. وقيل لأنهم أي هؤلاء الذين تحالفوا كانوا أخرجوا فضول أموالهم للأضياف، وقيل لأن قريشاً قالوا عن هؤلاء الذين تحالفوا لقد دخل هؤلاء في فضول من الأمر.

والسبب في هذا الحلف والحامل عليه أن رجلاً من زبيد قدم مكة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، وكان من أهل الشرف والقدر بمكة، فحسب عنه حقه، فاستدعى عليه الزبيدي الأحلاف عبد الدار ومخزوماً وجمحاً وسهماً وعدي بن كعب، فأبوا أن يعينوا على العاص، وانتهروه أي الزبيدي، فلما رأى الزبيدي الشرّ رقي عليّ أبي قبيس عند طلوع الشمس وقريش في أنديةهم حول الكعبة، فقال بأعلى صوته:

يا آل فهر لمظلوم بضاعته

بيطن مكة نائي الدار والقفر

ومحرم أشعث لم يقض عمرته

يا للرجال وبين الحجر والحجر

إن الحرام لمن تمت مكارمه

ولا حرام لثوب الفاجر الغدر

والحرام بمعنى الاحترام، فقام في ذلك الزيبر بن عبد المطلب: أي مع عبد الله بن جدعان كما تقدم، واجتمع إليه من تقدم.

وقيل قام فيه العباس وأبو سفيان، وتعاقدوا وتعاهدوا ليكونن يداً واحدة مع

المظلوم على الظالم حتى يؤدي إليه حقه شريفاً أو ضيعاً، ثم مشوا إلى

العاص بن وائل فانتزعوا منه سلعة الزبيدي فدفعوها إليه اهـ.

أقول: ذكر السهيلي أن رجلاً من خثعم قدم مكة معتمراً أو حاجاً ومعه بنت له من أضواء نساء العالمين، فاغتصبها منه نبيه بن الحجاج، فقيل له: عليك بحلف

الفضول، فوقف عند الكعبة ونادي: يا لحلف الفضول، فإذا هم يعنقون إليه من كل جانب، وقد انتصوا أسيافهم: أي جردوها، يقولون: جاءك الغوث فما لك؟ فقال: إن نبيها ظلمني في بنتي، فانتزعها مني قسراً فساروا إليه حتى وقفوا على باب داره، فخرج إليهم، فقالوا له: أخرج الجارية ويحك، فقد علمت من نحن وما تعاهدنا عليه، فقال: أفعل، ولكن متعوني بها الليلة. فقالوا: لا والله ولا شخب لقحة: أي مقدار زمن ذلك، فأخرجها إليهم.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 211

وفي سيرة الحافظ الدمياطي: أنه كان بين الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهما، وبين الوليد بن عتبة بن أبي سفيان منازعة في مال متعلق بالحسين. فقال الحسين للوليد: احلف بالله لتنصفني من حقي، أو لأخذن سيفي: ثم لأقومن في مسجد رسول الله، ثم لأدعون لحلف الفضول: أي لحلف كحلف الفضول وهو نصره المظلوم علي ظالمه، ووافقه على ذلك جماعة منهم عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما لأنه كان إذا ذك في المدينة، فلما بلغ ذلك الوليد بن عتبة أنصف الحسين من حقه حتى رضي، والله أعلم.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 211
باب: سفره إلى الشام ثانياً

وذلك مع ميسرة غلام خديجة بنت خويلد رضي الله تعالى عنها لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وعشرين سنة أي على الراجح من أقوال ستة، وعليه جمهور العلماء، وتلك أقوال ضعيفة لم تقم لها حجة على ساق، وليس له اسم مكة إلا الأمين، لما تكامل فيه من خصال الخير كما تقدم.

وسبب ذلك أن عمه أبا طالب قال له: يا بن أخي أنا رجل لا مال لي وقد اشتد الزمان: أي القحط () وألحت علينا: أي أقبلت ودامت () سنون منكرة: أي شديدة الجذب، وليس لنا مادة: أي ما يمدنا وما يقوّمنا ولا تجارة، وهذه غير قومك وتقدم أنها الإبل التي تحمل الميرة. وفي رواية. غيرات، جمع غير () قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك في غيراتها، فيتجرون لها في مالها وبصبيون منافع، فلو جئتها فوضعت نفسك عليها لأسرعت إليك وفضلتك على غيرك، لما يبلغها عنك من طهارتك وإن كنت لأكره أن تأتي الشام وأخاف عليك من يهودها ولكن لا تجد لك من ذلك بداً، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم فلعلها أن ترسل إليّ في ذلك. فقال أبو طالب: إني أخاف أن تولي غيرك، فتطلب أمراً مديراً فافترقا، فبلغ خديجة رضي الله تعالى عنها ما كان من محاورة عمه أبي طالب له. فقالت: ما علمت أنه يريد هذا، ثم أرسلت إليه فقالت: إني دعاني إلى البعثة إليك ما بلغني من صدق حديثك، وعظم أمانتك، وكرم أخلاقك. وأنا أعطيك ضعف ما أعطيت رجلاً من قومك، ففعل رسول الله، ولقي عمه أبا طالب فذكر له ذلك. فقال: إن هذا لرزق ساقه الله إليك، فخرج مع غلامها ميسرة: أي يريد الشام وقالت خديجة لميسرة: لا تعص له أمراً ولا تخالف له رأياً، وجعل عمومته يوصون به أهل العير: أي ومن حين سيره أظلمته الغمامة ().

فلما قدم الشام نزل في سوق بصرى في ظل شجرة قريبة من صومعة راهب يقال له نسطورا: أي بالقصر، فاطلع الراهب إلى ميسرة وكان يعرفه. فقال: يا ميسرة من هذا الذي نزل تحت الشجرة؟ فقال ميسرة: رجل من قريش من أهل الحرم. فقال له الراهب: ما نزل تحت هذه الشجرة قط إلا نبي: أي صانها الله تعالى أن يزل تحتها غير نبي. ثم قال له: أفي عينه حمرة؟ قال ميسرة نعم لا تفارقه فقال الراهب: هو هو، وهو آخر الأنبياء، ويا ليت أني أدركه حين يؤمر بالخروج: أي يبعث، فوعى ذلك ميسرة: أي والحمرة كانت في بياض عينيه وهي الشكلة. ومن ثم قيل في وصفه: أشكل العينين، فهذه الشكلة من علامات نبوته في الكتب القديمة، أي وقد تقدم ذلك.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 216

قال: وفي الشرف للنيسابوري: فلما رأى الراهب الغمامة تظله فزع وقال: ما أنتم عليه: أي أي شيء أنتم عليه؟ قال: ميسرة غلام خديجة رضي الله تعالى عنها، فدنا إلى النبي صلى الله عليه وسلم سرا من ميسرة وقبل رأسه وقدمه وقال: أمنت بك، وأنا أشهد أنك الذي ذكره الله في التوراة، ثم قال: يا محمد قد عرفت فيك العلامات كلها: أي العلامات الدالة على نبوتك المذكورة في الكتب القديمة، خلا خصلة واحدة، فأوضح لي عن كتفك، فأوضح له فإذا هو بخاتم النبوة يتلأ، فأقبل عليه يقبله ويقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله النبي الأمي الذي بشر بك عيسى ابن مريم، فإنه قال: لا ينزل بعدي تحت هذه الشجرة إلا النبي الأمي الهاشمي العربي المكي، صاحب الحوض والشفاعة، وصاحب لواء الحمد انتهى.

أقول: قال في النور: ولم أجد أحداً عدّ هذا الراهب الذي هو نسطورا في الصحابة رضي الله تعالى عنهم كما عدّ بعضهم فيها بحيرا الراهب، وينبغي أن يكون هذا مثله هذا كلامه.

وقد قدمنا أنه سيأتي أن بحيراً ونسطوراً ونحوهما ممن صدّق بأنه نبي هذه الأمة من أهل الفترة لا من أهل الإسلام فضلاً عن كونه صحابياً، لأن المسلم من أقرّ برسالته بعد وجودها إلى آخر ما يأتي.

ومن ثم ذكر الحافظ ابن حجر في الإصابة أن بحيراً ممن ذكر في كتب الصحابة غلطاً، قال: لأن تعريف الصحابي لا ينطبق عليه، وهو مسلم لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً به، ومات على ذلك قال: فقولي مسلم يخرج من لقيه مؤمناً به قبل أن يبعث كهذا الرجل يعني بحيراً، هذا كلامه، ومراده ما ذكرنا، ولعل نسطورا هذا هو الذي تنسب إليه النسطورية من النصارى، فإن النصارى افترقت ثلاث فرق، نسطورية قالوا عيسى ابن الله. وبعقوبية قالوا عيسى هو الله عز وجل هبط إلى الأرض ثم صعد إلى السماء. وملكانية قالوا عيسى عبدالله ونبيه. زاد بعضهم فرقة رابعة وهم إسرائيلية قالوا هو إله وأمه إله والله إله.

هذا وفي القاموس: النسطورية بالضم ويفتح: أمة من النصارى تخالف بقيةهم، وهم أصحاب نسطور الحكيم الذي ظهر في أيام المأمون وتصرف في الإنجيل برأيه وقال إن الله واحد ذو أقانيم ثلاثة، وهو بالرومية نسطورس، كما افترقت

اليهود ثلاث فرق، فإنها افرقت إلى قرائية وربانية وسامرية. ولا يخفى أن بقاء تلك الشجرة هذا الزمن الطويل قبل عيسى وبعده إلى زمن نبينا على خلاف العادة، وصرف غير الأنبياء عن النزول تحت تلك الشجرة وكذا صرف الأنبياء الذين وجدوا بعد عيسى على ما تقدم عن النزول تحت تلك الشجرة بعد عيسى الذي دلت عليه الرواية الأولى والرواية الثانية ممكن، وإن كانت الشجرة لا تبقى في العادة هذا الزمن الطويل، ويبعد في العادة أن تكون شجرة تخلو عن أن ينزل تحتها أحد غير الأنبياء، لأن هذا الأمر مع كونه خارقاً للعادة، والأنبياء لهم خرق العوائد سيما نبينا .
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 216

وبهذا يرّد قول السهيلي: يريد ما نزل تحت هذه الشجرة الساعة إلا نبي ولم يرد ما نزل تحتها قط إلا نبي لبعث العهد بالأنبياء عليهم السلام قبل ذلك وإن كان في لفظ الخبر «قط» أي كما تقدم، فقد تكلم بها على جهة التأكيد للنفي، والشجرة لا تعمر في العادة هذا العمر الطويل حتى يدري أنه لم ينزل تحتها إلا عيسى أو غيره من الأنبياء. ويبعد في العادة أيضاً أن تكون شجرة تخلو من أن ينزل تحتها أحد حتى يجيء نبي، هذا كلامه.
وقد يقال: يجوز أن تكون تلك الشجرة كانت شجرة زيتون. فقد ذكر أن شجرة الزيتون تعمر ثلاثة آلاف سنة، على أن في بعض الروايات: ونزل رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة يابسة نخر عودها، فلما اطمان تحتها اخضرت ونوّرت، واعشوشب ما حولها، وأينع ثمرها، ودلت أغصانها ترفرف على رسول الله .
قال بعضهم: المختار عند جمهور المحققين من أهل السنة أن كل ما جاز وقوعه للأنبياء عليهم الصلاة والسلام من المعجزات جاز للأولياء مثله من الكرامات بشرط عدم التحدي، لأن المعجزة يعتبر فيها التحدي وأن تكون بعد النبوة، وما قبل النبوة كما هنا يقال له إرهاب.
وحينئذ لا يستبعد ما ذكر عن الشيخ رسلان رحمه الله أنه كان إذا استند إلى شجرة يابسة قد ماتت تورق ويخرج ثمرها في الحال. على أنه سيأتي في الكلام على غزاة الخندق أن كرامات الأولياء معجزات لأنبيائهم.

ولما رأى الراهب ما ذكر لم يتمالك الراهب أن انحدر من صومعته، وقال له: باللات والعزى ما اسمك؟ فقال له: إليك عني، ثكلتك أمك، ومع ذلك الراهب رقّ مكتوب، فجعل ينظر في ذلك الرق، ثم قال هو هو ومنزل التوراة، فظن بعض القوم أن الراهب يريد بالنبي صلى الله عليه وسلم مكرراً، فانتضى سيفه وصاح: يا آل غالب يا آل غالب، فأقبل الناس يهرعون إليه من كل ناحية يقولون: ما الذي راعك؟ فلما نظر الراهب إلى ذلك أقبل يسعى إلى صومعته فدخلها وأغلق عليه بابها، ثم أشرف عليهم فقال: يا قوم ما الذي راعكم مني؟ فوالذي رفع السموات بغير عمد إنني لأجد في هذه الصحيفة أن النازل تحت هذه الشجرة هو رسول رب العالمين، يبعثه الله بالسيف المسلول، وبالريح الأكبر، وهو خاتم النبيين، فمن أطاعه نجا، ومن عصاه غوى، ثم حضر رسول

الله صلى الله عليه وسلم سوق بصرى، فباع سلعته التي خرج بها واشترى.
قال: ولم أقف على تعيين ما باعه وما اشتراه انتهى.
وكان بينه وبين رجل اختلاف في سلعة، فقال الرجل لرسول الله صلى الله عليه وسلم: احلف بالللات والعزى، فقال النبي: «ما حلفت بهما قط»، فقال الرجل القول قولك، ثم قال الرجل لميسرة وقد خلا به: يا ميسرة هذا نبي، والذي نفسي بيده إنه لهو الذي تجده أحبارنا منعتاً: أي في الكتب، فوعى ميسرة ذلك: أي وقبل أن يصلوا إلى بصرى عيبي بغيران لخديجة وتخلف معهما ميسرة، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الركب فخاف ميسرة على نفسه وعلى البعيرين، فانطلق يسعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك، فأقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى البعيرين، فوضع يده على أخفافهما وعودهما، فانطلقا في أول الركب ولهما رغاء.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 216

قال: وفي الشرف أنهم باعوا متاعهم، وربحوا ربحاً ما ربحوا مثله قط. قال ميسرة: يا محمد اتجرنا لخديجة أربعين سنة ما ربحنا ربحاً قط أكثر من هذا الريح على وجهك انتهى.
وأقول: لا يخفى ما في قول ميسرة: اتجرنا لخديجة أربعين سنة، ولعلها مصحفة عن سفرة، أو هو على المبالغة، والله أعلم.
ثم انصرف أهل العير جميعاً راجعين مكة، وكان ميسرة يرى ملكين يظللانه من الشمس وهو على بعيره إذا كانت الهاجرة واشتد الحر، وهذا هو المعنى بقول الخصائص الصغرى: وخص بإظلال الملائكة له في سفره.
ويحتمل أن المراد في كل سفر سافره، لكن لم أقف على إظلال الملائكة له في غير هذه السفرة. وقد ألقى الله تعالى محبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في قلب ميسرة، فكان كأنه عبده، فلما كانوا بمصر الظهران: أي وهو واد بين مكة وعسفان، وهو الذي تسميه العامة بطن مرو، وهو المعروف الآن بوادي فاطمة. قال ميسرة للنبي: هل لك أن تسبقني إلى خديجة فتخبرها بالذي جرى، لعلها تزيدك بكرة إلى بكرتيك: أي وفي رواية: تخبرها بما صنع الله تعالى لها على وجهك، فركب النبي صلى الله عليه وسلم وتقدم حتى دخل مكة في ساعة الظهرية وخديجة في عليّة: أي في غرفة مع نساء، فرأت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين دخل وهو راكب على بعيره وملكان يظللان عليه، فأرته نساءها فعجبن لذلك، ودخل عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فخبّرها بما ربحوا، وهو ضعف ما كانت تريح، فسرت بذلك وقالت: أين ميسرة؟ قال: «خلفته في البادية»، قالت: عجل إليه ليعجل بالإقبال وإنما أرادت أن تعلم أهو الذي رأت أم غيره؟ فركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرته على الحالة الأولى، فاستيقنت أنه هو.
فلما دخل عليها ميسرة أخبرته بما رأت، فقال لها ميسرة: قد رأيت هذا منذ خرجنا من الشام، وإلى ذلك أشار الإمام السبكي رحمه الله في تائيته بقوله:
وميسرة قد عاين الملكين إذ
أظلاك لما سرت ثاني سفرة

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وأخبرها ميسرة بقول الراهب نسطورا، وقول الآخر الذي حالفه: أي استخلفه في البيع: أي وقصة البعيرين. وحينئذ أعطت خديجة له ضعف ما سمته له: أي وما سمته له ضعف ما كانت تعطيه لرجل من قومه كما تقدم. وقول ميسرة له فيما تقدم: لعلها تزيدك بكرة إلى بكرتيك يدل على أنها سمته له بكرتين، وكانت تسمي لغيره بكرة. وفي كلام بعضهم: وفي الروض الباسم: استأجرته على أربع بكرات.

وفي الجامع الصغير ما نصه: آجرت نفسي من خديجة سفرتين بقلوصين. ثم رأيت في الإمتاع ما يوافق ذلك، ونصه: وأجر نفسه من خديجة سفرتين بقلوصين، وفي السفارة الأولى أرسلته مع عبدها ميسرة إلى سوق حباشة: أي وهو مكان بأرض اليمن بينه وبين مكة ست ليال كانوا يتناعون فيه ثلاثة أيام، من أول رجب في كل عام، فابتاعا منه بزا ورجعا إلى مكة، فربحا ربحا حسنا. وفي السفارة الثانية أرسلته مع عبدها ميسرة إلى الشام.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 216

وفيه أن سفره مع ميسرة إلى الشام سفرة ثالثة. فعن مستدرك الحاكم وصححه وأقره الذهبي عن جابر: أن خديجة استأجرته سفرتين إلى جرش بضم الجيم وفتح الراء: موضع باليمن كل سفرة بقلوص، وهي الشابة من الإبل، وهو يفيد أنه سافر لها ثلاث سفرات كما تقدم، ولعل سوق حباشة هو جرش، وإلا لزم أن يكون سافر لها خمس سفرات: أربعة إلى اليمن، وواحدة إلى الشام، وما تقدم عن الروض الباسم من أنها استأجرته في سفرة إلى الشام بأربع بكرات لا يناسب ما تقدم عن ميسرة.

قد جاء في بعض الروايات: أن أبا طالب جاء لخديجة، وقال لها: هل لك أن تستأجري محمدا؟ فقد بلغنا أنك استأجرت فلانا ببكرتين، وليس نرضي لمحمد دون أربع بكرات، فقالت خديجة: لو سألت لبعيد بغيض، فكيف وقد سألت لحبيب قريب؟.

ثم لا يخفى أن كون سفره مع ميسرة بسوق حباشة قبل سفره معه إلى الشام مخالف لظاهر ما تقدم من قول عمه أبي طالب، وهذه غير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، فلو جئتها فوضعت نفسك عليها، وقول خديجة ما علمت أنه يريد هذا. وإنما قلنا ظاهر، لأنه يجوز أن يكون بعد قول أبي طالب، وقولها المذكور أرسلته مع ميسرة إلى سوق حباشة لقرب مسافته وقصر زمنه، ثم أرسلته مع ميسرة إلى الشام، أو كانت خديجة لا تجوز أن أبا طالب يرضى بسفره إلى الشام، وأنه يوافق على ذلك فليتأمل.

وتقدم أنه من حين سيره: أي من مكة صارت الغمامة تظله، فإن كانت غير الملكين، فالغمامة كانت تظله في الذهاب والملكان يظلانه في العود، ولعل عدم ذكره ميسرة لخديجة تظليل الغمامة له في ذهابه أنه لم يظن لها مثلاً، ولكن سيأتي في كلام صاحب الهمزية ما يدل على أن الملكين هما الغمامة. وفيه وقوع رؤية البشر غير نبينا للملائكة غير جبريل، وسيأتي رؤية جمع من الصحابة لجبريل.

وفي المنقذ من الضلال للغزالي أن الصوفية يشاهدون الملائكة في يقظتهم: أي لحصول طهارة نفوسهم، وتركية قلوبهم، وقطعهم العلائق، وحسبهم مواد أسباب الدنيا من الجاه والمال، وإقبالهم على الله تعالى بالكلية علماً دائماً

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وعلماً مستمراً، والله أعلم. قال: ولم أقف على اسم الرجل الذي حالفه: أي استحلفه.

وقال الحافظ ابن حجر: لم أقف على رواية صحيحة صريحة فيه بأنه: أي ميسرة بقي إلى البعثة انتهى.

ثم إن خديجة ذكرت ما رآته من الآيات وما حدثها به غلامها ميسرة لابن عمها ورقة بن نوفل وكان نصرانياً: أي بعد أن كان يهودياً على ما يأتي، قد تتبع الكتب، فقال لها: إن كان هذا حقاً يا خديجة إن محمداً نبي هذه الأمة، وقد عرفت أنه كائن لهذه الأمة نبي منتظر هذا زمانه: أي وكان يتجر قبل النبوة قبل أن يتجر لخديجة، وكان شريكاً للسائب بن أبي السائب صيفي.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 216

ولما قدم عليه السائب يوم فتح مكة قال له: مرحبا بأخي وشريك، كان لا يداري: أي لا يبرائي، ولا يماري: أي يخاصم صاحبه، وهذا يدل على أن قوله كان لا يداري الخ من مقوله .

وقد قال فقهاؤنا: والأصل في الشركة خبر السائب بن يزيد أنه كان شريكاً للنبي قبل البعثة، وافتخر بشركته بعد المبعث: أي قال: كان نعم الشريك لا يداري ولا يماري ولا يشاري. والمشاركة: المشاحة في الأمر واللجاج فيه، وهو يدل على أن ذلك كان من مقول السائب. ولا مانع أن يكون كل من النبي صلى الله عليه وسلم والسائب قال في حق الآخر: كان لا يداري ولا يماري. وبهذا يندفع قول بعضهم: اختلفت الروايات في هذا الكلام الذي هو كان خير شريك، كان لا يشاري، ولا يماري، فمنهم من يجعله من قول النبي صلى الله عليه وسلم في السائب، ومنهم من يجعله من قول السائب في حق النبي .

ويمكن أن لا يكون مخالفة بين السائب بن أبي السائب صيفي وبين السائب بن يزيد، لأنه يجوز أن يكون صيفي لقباً لوالده اسمه يزيد. وفي الاستيعاب: وقع اضطراب هل الشريك كان أبا السائب، أو ولده السائب بن السائب، أو ولد السائب وهو قيس بن السائب بن أبي السائب لا أخ السائب، وهو عبد الله بن أبي السائب. قال: وهذا اضطراب لا يثبت به شيء، ولا تقوم به حجة.

والسائب بن أبي السائب من المؤلفة، أعطاه يوم الجعرانة من غنائم حنين. وبه يرد قول بعضهم إن السائب بن أبي السائب قتل يوم بدر كافراً. ومما يدل على أن الشركة كانت لقيس بن السائب قوله: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في الجاهلية شريك، فكان خير شريك: كان لا يشاريني، ولا يماريني.

ووجه الدلالة أنه سمع قوله: كان شريك وأقره عليه. وذكر في الإمتاع «إن حكيم بن حزام اشترى من رسول الله صلى الله عليه وسلم بزاً من بز تهامة بسوق حباشة وقدم به مكة فكان ذلك سبباً لإرسال خديجة له مع عبدها ميسرة إلى سوق حباشة ليشتريها لها بزاً».

وفي (سفر السعادة) أنه وقع منه أنه باع واشترى، إلا أنه بعد الوحي وقبل الهجرة كان شراؤه أكثر من البيع وبعد الهجرة لم يبع إلا ثلاث مرات. وأما شراؤه فكثير. وأجر واستأجر، والاستئجار أغلب، ووكل وتوكل، وكان توكله أكثر.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 216

باب: تزوجه خديجة بنت خويلد رضي الله عنها ابن أسد بن عبد العزى بن قصي فهي تجتمع معه في قصي. قال الحافظ ابن حجر: وهي من أقرب نسائه إليه في النسب، ولم يتزوج من ذرية قصي غيرها إلا أم حبيبة، هذا كلامه.

وعن نفيسة بنت منية رضي الله تعالى عنها: أي وهي أخت يعلى بن منية. ففي الإمتاع منية أخت يعلى بن منية، وعليه يكون ضمير وهي راجع لمنية لا لنفيسة. قالت: كانت خديجة بنت خويلد امرأة حازمة: أي ضابطة جلدة: أي قوية شريفة: أي مع ما أراد الله تعالى لها من الكرامة والخير، وهي يومئذ أوسط نساء قريش نسباً، وأعظمهم شرفاً، وأكثرهم مالاً: أي وأحسنهم جمالاً، وكانت تدعى في الجاهلية بالطاهرة. وفي لفظ: كان يقال لها سيدة قريش، لأن الوسط في ذكر النسب من أوصاف المدح والتفضيل، يقال: فلان أوسط القبيلة: أعرقها في نسبها، وكل قومها كان حريصاً على نكاحها لو قدر على ذلك، قد طلبوها وذكروا لها الأموال فلم تقبل، فأرسلتني دسيساً: أي خفية إلى محمد بعد أن رجع في غيرها من الشام، فقلت: يا محمد ما يمنعك أن تتزوج؟ فقال: ما بيدي ما أتزوج به. قلت: فإن كفيت ذلك ودعيت إلى المال والجمال والشرف والكفاية ألا تجيب؟ قال: فمن هي؟ قلت خديجة، قال: وكيف لي بذلك؟ بكسر الكاف لأنه خطاب لنفيسة. قلت: بلي وأنا أفعل، فذهبت فأخبرتها، فأرسلت إليه أن أئت لساعة كذا وكذا، فأرسلت إلى عمها عمرو بن أسد ليزوجها، فحضر ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم في عمومته فزوجه أحدهم: أي وهو أبو طالب على ما يأتي. وقال في خطبته: وابن أخي له في خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك، فقال عمرو بن أسد: هذا الفحل لا يقدر أنفه: أي بالقاف والبدال المهملة: أي لا يضرب أنفه لكونه كريماً، لأن غير الكريم إذا أراد ركوب الناقة الكريمة يضرب أنفه ليرتدع، بخلاف الكريم، وكون المزوج لها عمها عمرو بن أسد قال بعضهم هو المجمع عليه. وقيل المزوج لها أخوها عمرو بن خويلد.

وعن الزهري أن المزوج لها أبوها خويلد بن أسد وكان سكران من الخمر، فألقت عليه خديجة حلة وهي ثوب فوق ثوب، لأن الأعلى يحل فوق الأسفل، وضمخته بخلوق: أي لطخته بطيب مخلوط بزعفران () فلما صحا من سكره قال: ما هذه الحلة والطيب؟ فقيل له: لأنك أنكحت محمداً خديجة وقد ابنتي بها فأنكر ذلك، ثم رضيه وأمضاه: أي لأن خديجة استشعرت من أبيها أنه يرغب عن أن يزوجه لها، فصنعت له طعاماً وشرباً، ودعت أباهاً ونفراً من قريش فطعموا وشربوا، فلما سكر أبوها قالت له: إن محمد بن عبد الله يخطبني فزوجني إياه، فزوجها، فخلقته وألبسته، لأن ذلك: أي إلباس الحلة وجعل

الخلوق به كان عادتهم أن الأب يفعل به ذلك إذا زوّج بنته، فلما صحا من سكره قال: ما هذا؟ قالت له خديجة: زوجتني من محمد بن عبد الله، قال: أنا أزوّج يتيم أبي طالب؟ لا لعمرى، فقالت له خديجة: ألا تستحيي، تريد أن تسفه نفسك عند قريش، تخبرهم أنك كنت سكران؟ فلم تزل به حتى رضي: أي وهذا مما يدل على أن شرب الخمر كان عندهم مما ينتزه عنه. ويدل له أن جماعة حرّموها على أنفسهم في الجاهلية، منهم من تقدم، ومنهم من يأتي. وفي رواية أنها عرضت نفسها عليه فقالت: يا ابن عم إني قد رغبت فيك لقرابتك، وأمانتك وحسن خلقك، وصدق حديثك، فذكر ذلك لأعمامه، فخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه فزوّجها.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 223
أقول: قال في النور ولعل الثلاثة: أي أباه وأخاه وعمها حضروا ذلك فنسب الفعل إلى كل واحد منهم، هذا كلامه.
وفي كون المزوج لها أبوها خويلد أو كونه حضر تزويجها نظر ظاهر، لأن المحفوظ عن أهل العلم أن خويلد بن أسد مات قبل حرب الفجار المتقدم ذكرها.

قال بعضهم: وهو الذي نازع تبعاً: أي حين أراد أخذ الحجر الأسود إلى اليمن، فقام في ذلك خويلد، وقام معه جماعة من قريش، ثم رأى تبع في منامه ما رده عن ذلك، فترك الحجر الأسود مكانه.
وعلى كون المزوّج له عمه حمزة اقتصر ابن هشام في سيرته. وذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أصدقها عشرين بكرة.
وعبارة المحب الطبري: فلما ذكر ذلك لأعمامه خرج معه منهم حمزة بن عبد المطلب حتى دخل على خويلد بن أسد فخطبها إليه ففعل، وحضره أبو طالب ورؤساء مضر فخطب أبو طالب فقال: الحمد لله القصة، والله أعلم.
قال: وعن ابن إسحاق أنها قالت له: يا محمد ألا تتزوج؟ قال: ومن؟ قالت: أنا، قال: ومن لي بك؟ أنت أيمّ قريش وأنا يتيم قريش؟ قالت: اخطبني الحديث: أي وفيه إطلاق اليتيم على البالغ، وذلك بحسب ما كان، والمراد به المحتاج، وإلا فالعرف أي الشرعي واللغوي خصه بغير البالغ ممن مات أبوه الحقيقي. وعن بعضهم قال: مررت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم على أخت خديجة فنادتني فانصرفت إليها، وقف لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: أما لصاحبك هذا من حاجة في تزويج خديجة؟ فأخبرته، فقال: بلى لعمرى، فذكرت ذلك لها، فقالت اغدوا علينا إذا أصبحنا، فغدونا عليهم فوجدناهم قد ذبحوا بقرة وألبسوا خديجة حلة، الحديث.
وفي الإمتاع بعد أن ذكر أن السفير بينهما نفيسة بنت منية، ذكر أنه قيل: كان السفير بينهما غلامها، وقيل مولاة مولدة. وقد يقال: لا منافاة لجواز أن يكون كل ممن ذكر كان سفيراً.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وفي الشرف أن خديجة رضي الله تعالى عنها قالت للنبي : اذهب إلى عمك فقل له تعجل إلينا بالغداة، فلما جاءها ومعه رسول الله صلى الله عليه وسلم قالت له: يا أبا طالب تدخل على عمي فكلمه يزوجني من ابن أخيك محمد بن عبد الله فقال أبو طالب: يا خديجة لا تستهزئي، فقالت: هذا صنع الله، فقام فذهب وجاء مع عشرة من قومه إلى عمها، الحديث: أي وفي رواية ومعه بنو هاشم ورؤساء مضر. ولا مخالفة لجواز أن يكون المراد بنو هاشم أولئك العشرة، وأنهم كانوا هم المراد برؤساء مضر في ذلك الوقت. وذكر أبو الحسين بن فارس وغيره أن أبا طالب خطب يومئذ فقال: الحمد لله الذي جعلنا من ذرية إبراهيم، وزرع إسماعيل، وضئضيء معدّ: أي معدنه، وعنصر مضر: أي أصله، وجعلنا حضنة بيته: أي المتكفلين بشأنه، وسؤاس حرمة: أي القائمين بخدمته، وجعله لنا بيتاً محجوجاً، وحرماً آمناً، وجعلنا حكام الناس. ثم إن ابن أخي هذا محمد بن عبد الله لا يوزن به رجل إلا رجع به شرفاً ونبلًا وفضلًا وعقلًا، وإن كان في المال قل، فإن المال ظل زائل، وأمر حائل، وعارية مسترجعة، وهو والله بعد هذا له نبأ عظيم، وخطر جليل، وقد خطب إليكم رغبة في كريمتكم خديجة، وقد بذل لها من الصداق ما عاجله وأجله اثنتي عشرة أوقية ونشا: أي وهو عشرون درهماً والأوقية: أربعون درهماً، أي وكانت الأواقي والنش من ذهب كما قال المحب الطبري: أي فيكون جملة الصداق خمسمائة درهم شرعي. وقيل أصدقها عشرين بكرة، أي كما تقدم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 223

أقول: لا منافاة لجواز أن تكون البكرات عوضاً عن الصداق المذكور. وقال بعضهم: يجوز أن يكون أبو طالب أصدقها ما ذكر وزاد من عنده تلك البكرات في صداقها فكان الكل صداقاً، والله أعلم.

قال: وما قيل إن علياً رضي الله تعالى عنه ضمن المهر فهو غلط، لأن علياً لم يكن ولد على جميع الأقوال في مقدار عمره، وبه يردّ قول بعضهم: وكون عليّ ضمن المهر غلط، لأن علياً كان صغيراً لم يبلغ سبع سنين: أي لأنه ولد في الكعبة وعمره ثلاثون سنة فأكثر، وسنه حين تزوج خديجة كان خمساً وعشرين سنة على ما تقدم أو زيادة بشهرين وعشرة أيام. وقيل خمسة عشر يوماً على ما يأتي قيل الذي ولد في الكعبة حكيم بن حزام. قال بعضهم: لا مانع من ولادة كليهما في الكعبة، لكن في النور: حكيم بن حزام ولد في جوف الكعبة، ولا يعرف ذلك لغيره. وأما ما روي أن علياً ولد فيها فضعيف عند العلماء.

قال النووي: وعند ذلك قال عمها عمرو بن أسد: هو الفحل لا يقدر أنفه وأنكحها منه. وقيل قائل ذلك ورقة بن نوفل: أي فإنه بعد أن خطب أبو طالب بما تقدم خطب ورقة، فقال: الحمد لله الذي جعلنا كما ذكرت، وفضلنا على ما عدت، فنحن سادة العرب وقادتها، وأنتم أهل ذلك كله لا ينكر العرب فضلكم، ولا يردّ أحد من الناس فخركم وشرفكم ورغبتنا في الاتصال بحبلكم وشرفكم، فاشهدوا عليّ معاشر قريش إنني قد زوجت خديجة بنت خويلد من محمد بن عبد الله وذكر المهر، فقال أبو طالب: قد أحببت أن يشركك عمها، فقال عمها: اشهدوا عليّ معاشر قريش إنني قد أنكحت محمد بن عبد الله خديجة بنت خويلد، وأولم عليها: نحر جزوراً، وقيل جزورين، وأطعم الناس، وأمرت خديجة

جواربها أن يرقصن ويضربن الدفوف، وفرح أبو طالب فرحاً شديداً، وقال:
الحمد لله الذي أذهب عنا الكرب، ودفع عنا الغموم، وهي أول وليمة أولمها
رسول الله .

أقول: ولا ينافي هذا ما تقدم من قوله: فوجدناهم قد ذبحوا بقرة، وألسوا
خديجة حلة، لجواز أن يكون ذلك كان عند العقد، وهذا عند إرادة الدخول. ولا
ينافي ذلك ما تقدم من قوله، وقد ابتنى بها، لأن تلك الرواية غير صحيحة، ولا
ينافي كون المزوج له عمه أبو طالب ما تقدم أن المزوج له عمه حمزة، لجواز
أن يكون حضر مع أبي طالب فنسب التزويج إليه أيضاً، والله أعلم.
والسبب في ذلك: أي في عرض خديجة رضي الله تعالى عنها نفسها عليه أيضاً
مع ما أراد الله تعالى بها من الخير، ما ذكره ابن إسحاق. قال: كان لنساء
قريش عيد يجتمعن فيه في المسجد، فاجتمعن يوماً فيه، فجاءهن يهودي وقال
أبا معشر نساء قريش إنه يوشك فيكنّ نبي قُرب وجوده، فأيتكن استطاعت أن
تكون فراشاً له فلتفعل، فحصبته النساء: أي رمينه بالحصياء، وقبحنه وأغلظن
له، وأغضت خديجة على قوله، ووقع ذلك في نفسها، فلما أخبرها ميسرة بما
رأه من الآيات وما رأته هي: أي وما قاله لها ورقة لما حدثته بما حدثها به
ميسرة مما تقدم قالت: إن كان ما قاله اليهودي حقاً ما ذاك إلا هذا.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 223

وذكر الفاكهي عن أنس رضي الله تعالى عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم
كان عند أبي طالب، فاستأذن أبا طالب في أن يتوجه إلى خديجة: أي ولعله بعد
أن طلبت منه الحضور إليها وذلك قبل أن يتزوجها، فأذن له وبعث بعده جارية
له يقال لها نبعة، فقال: انظري ما تقول له خديجة، فخرجت خلفه، فلما جاء
إلى خديجة أخذت بيده فضمتها إلى صدرها ونحرتها، ثم قالت: بأبي أنت وأمي،
والله ما أفعل هذا الشيء، ولكنني أرجو أن تكون أنت النبي الذي سيعث، فإن
تكن هو فاعرف حقي ومنزلتي، وادع الإله الذي سيعثك لي، فقال لها والله
لئن كنت أنا هو لقد اصطنعت عندي ما لا أضيعه أبداً، وإن كان غيري فإن الإله
الذي تصنعين هذا لأجله لا يضيعك أبداً، فرجعت نبعة وأخبرت أبا طالب بذلك،
وكان تزويجه بخديجة رضي الله تعالى عنها بعد مجيئه من الشام بشهرين أو
خمسة عشر يوماً، وعمره إذ ذاك خمس وعشرون سنة على ما هو الصحيح
الذي عليه الجمهور كما تقدم. زاد بعضهم على الخمسة والعشرين سنة
شهرين وعشرة أيام، وقد أشار إلى ما تقدم صاحب الهمزية بقوله:

ورأته خديجة والتقى والزهر
د فيه سجية والحياء
وأتاها أن الغمامة والسر
ح أظلتها منهما أفياء
وأحاديث أن وعد رسول الله
بالبعث حان منه الوفاء
فدعته إلى الزواج وما أحـ

حسن ما يبلغ المنى الأذكيا
أي وعلمته خديجة رضي الله تعالى عنها، ذات الشرف الطاهر، والمال الوافر
الظاهر، والحسب الفاخر، والحال أن التقى والزهد والحياء فيه سجية وطبيعة،
وأناها الخبر بأن الغمامة والشجر أظلتها: أفياء: أي أظلال حالة كون تلك الأفياء
من الغمامة والشجر.
وفيه أن هذا يدل على أن الملكين هما الغمامة.

قال بعضهم: وتظليل الغمامة له كان قبل النبوة تأسيساً لها، وانقطع ذلك بعد
النبوة، وأتى خديجة الأحاديث والأخبار من بعض الأخبار بأن وعد الله لرسوله
بالبعث والإرسال إلى الخلق قرب الوفاء به منه تعالى لرسوله، فيسبب ذلك
خطبته إلى أن يتزوج بها وعرضت نفسها عليه. وما أحسن بلوغ الأذكيا ما
يتمنونه.

وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي يومئذ بنت أربعين سنة. قال:
وقيل خمس وأربعين سنة، وقيل ثلاثين، وقيل ثمان وعشرين اهـ: أي وقيل
خمس وثلاثين وقيل خمس وعشرين.

وتزوجت قبله برجلين. أولهما عتيق بن عابد: أي بالموحدة والمهملة، وقيل
بالمثناة تحت والمعجمة () فولدت له بنتاً اسمها هند، وهي أم محمد بن صيفي
المخزومي. وثانيهما أبو هالة، واسمه هند، فولدت له ولداً اسمه هالة، وولداً
اسمه هند أيضاً فهو هند بن هند: أي وكان يقول: أنا أكرم الناس أباً وأماً وأخاً
وأختاً، أبي رسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه زوج أمه، وأمي خديجة، وأخي
القاسم، وأختي فاطمة، قتل هند هذا مع عليّ يوم الجمل رضي الله تعالى عنه.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 223

وفي كلام السهيلي أنه مات بالطاعون بالبصرة، وكان قد مات في ذلك اليوم
نحو من سبعين ألفاً فشغل الناس بجنائزهم عن جنازته، فلم يوجد من يحملها،
فصاحت نادبته: واهنداه بن هنداه، واريب رسول الله، فلم تبق جنازة إلا تركت
واحتملت جنازته على أطراف الأصابع إعظاماً لربي رسول الله صلى الله
عليه وسلم هذا.

هذا وفي المواهب أنها كانت تحت أبي هالة أولاً، ثم كانت تحت عتيق ثانياً،
وستأتي بقية ترجمتها رضي الله عنها في أزواجه .

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 223

باب: بنيان قريش الكعبة شرفها الله تعالى

لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين سنة على ما هو
الصحيح جاء سيل حتى أتى من فوق الردم الذي صنعه لمنعه السيل فأخربه:
أي ودخلها وصدّ جدرانها بعد توهينها من الحريق الذي أصابها.
وذلك أن امرأة بخرتها فطارت شرارة في ثياب الكعبة فاحترقت جدرانها،
فخافوا أن تفسدها السيول: أي تذهبها بالمرّة. وقيل تبخير المرأة كان لها في
زمن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما. ولا مانع من التعدد، وكان
ارتفاعها تسعة أذرع من عهد إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ولم يكن لها سقف:

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

أي وكان الناس يلقون الحلبيّ والمتاع كالطيب أي الذي يهدى إليها في بئر داخلها عند بابها على يمين الداخل منه أعدت لذلك، يقال لها خزانة الكعبة كما سيأتي ذلك. فأراد شخص في أيام جرهم أن يسرق من ذلك شيئاً فوقع على رأسه وانهار البئر عليه فهلك.
وفي كلام بعضهم: فسقط عليه حجر فحبسه في تلك البئر حتى أخرج منها وانتزع المال منه، فليتأمل الجمع.
وقد يقال على بعد: جاز أن يكون هذا الرجل تكرر منه السرقة، وكان هلاكه في المرة الثانية، فعند ذلك بعث الله حية بيضاء سوداء الرأس والذنب رأسها ك رأس الجدي، فأسكنها تلك البئر لحفظ تلك الأمتعة، وكانت قد تخرج منها إلى ظاهر البيت فتشرق بالقاف أي تبرز للشمس على جدار الكعبة، فيبرق لونها، وربما التفت عليه فتصير رأسها عند ذنباها، فلا يدنو منها أحد إلا كشت: أي صوّت وفتحت فاهاً معطوف على كشت.

ففي حياة الحيوان قال الجوهري: كشييش الأفعى صوتها من جلدها لا من فيها، فحرس بئر وخزانة البيت خمسمائة عام، لا يقربه أحد: أي لا يقرب بئر وخزانتها إلا أهلكته: أي ولعل المراد لو قرب منه أحد أهلكته، إذ لو أهلكت أحداً قرب من تلك البئر لنقل، فلم تزل كذلك حتى كان زمن قريش ووجد هذا السيل والحريق، أرادوا هدمها وإعادة بنائها، وأن يشيدوا بنيانها: أي يرفعوه ويرفعوا بابها، حتى لا يدخلها إلا من شأؤوا واجتمعت القبائل من قريش تجمع الحجارة كل قبيلة تجمع على حدة، وأعدوا لذلك نفقة أي طيبة، ليس فيها مهر بغيّ، ولا بيع ربا، ولا مظلمة أحد من الناس () أي بعد أن قام أبو وهب عمرو بن عابد، فتناول منها حجراً فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه، فقال عند ذلك: يا معشر قريش لا تدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيباً، الحديث: أي وفي لفظ أنه قال لهم: لا تدخلوا في نفقة هذا البيت مهر بغيّ: أي زانية ولا بيع ربا وفي لفظ: لا تجعلوا في نفقة هذا البيت شيئاً أصبتموه غصباً ولا قطعتم فيه رحماً، ولا انتهكتم فيه حرمة أو ذمة بينكم وبين أحد من الناس. وأبو وهب هذا خال عبد الله أبي النبي، وكان شريفاً في قومه، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ينقل معهم الحجارة.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

روى الشيخان عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنهما قال: لما بنيت الكعبة ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم والعباس رضي الله تعالى عنه ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي: اجعل إزارك على رقبتك يقيك الحجارة: أي كبقية القوم، فإنهم كانوا يضعون أزهرهم على عواتقهم، ويحملون الحجارة، ففعل فخّر إلي الأرض، فطمحت عيناه إلى السماء: أي وندوي: عورتك، فقال إزاري إزاري: أي شدوا عليّ إزاري، فشدد عليه. وفي رواية: سقط فغشي عليه، فضمه العباس إلى نفسه، وسأله عن شأنه، فأخبره أنه نودي من السماء أن شد عليك إزارك، وهذا يبعد ما جاء في رواية قال له العباس أي بعد أن أمر بستر عورته وسترها: يا ابن أخي اجعل إزارك على رأسك، فقال: ما أصابني ما

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

أصابني إلا من التعرّي.
وفي رواية: بينا النبي صلى الله عليه وسلم يحمل الحجارة من أجياد وعليه نمرة فضاقت عليه النمرة فذهب يضعها علي عاتقه فبدت عورته، فنودي يا محمد خمر عورتك: أي غطها، فلم ير عرباناً أي مكشوف العورة بعد ذلك. أي وقد يقال: هذا لا يخالف ما تقدم عن العباس رضي الله تعالى عنه، لأنه يجوز أن يكون ذلك صدر من العباس حينئذ، وغايته أنه سمي النمرة إزاراً له. قال: واستبعد بعض الحفاظ ذلك: أي وقوع هذا مع ما تقدم من نهيه عن ذلك: أي الذي تضمنه الأمر بالستر عند إصلاح عمه أي طالب لزمزم قبل هذا، قال لأنه إذا نهى عن شيء مرة لا يعود إليه ثانياً بوجه من الوجوه اهـ: أي وقد عاد إلى ذلك.
أقول: يجوز أن يكون لم يفهم أن أمره بستر عورته أولاً عزيمة، بل جواز الترك، وفي الثانية علم أنه عزيمة.
لا يقال: تقدم «من كرامتي على ربي أن أحداً لم ير عورتي» وتقدم أن ذلك من خصائصه .

ففي الخصائص الصغرى «أنه لم تر عورته قط، ولو رآها أحد طمست عيناه» لأنه لا يلزم من كشف عورته رؤيتها كما لم يلزم من حضائته وتربيته ومجامعة زوجاته ذلك. فعن عائشة رضي الله تعالى عنها «ما رأيت منه/» والظاهر أن بقية زوجاته كذلك، والله أعلم.
ثم عمدوا إليها ليهدموها على شفق وحذر: أي خوف من أن يمنعهم الله تعالى ما أرادوا: أي بأن يوقع بهم البلاء قبل ذلك، سيما وقد شاهدوا ما وقع لعمر بن عائذ.
أي قال: وعند ابن إسحاق أن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه أي خافوا من أنه يحصل لهم بسببه بلاء، فقال الوليد بن المغيرة لهم، أتريدون بهدمها الإصلاح أم الإساءة؟ قالوا: بل نريد الإصلاح، قال: فإن الله لا يهلك المصلحين، قالوا من الذي يعلوها فيهدمها، قال أنا أعلوها وأنا أبدوكم في هدمها، فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول: اللهم لم ترع أي بالراء والعين المهملتين، والضمير في ترع للكعبة: أي لا تفزع الكعبة لا نريد إلا الخير: أي وفي رواية لم نزع بالنون والزاي والمعجمة: أي لمن نحل عن دينك ثم هدم من ناحية الركنين، فتربص الناس تلك الليلة، وقالوا ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئاً ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء هدمناها فقد رضي الله ما صنعنا فأصبح الوليد من ليلته غادياً إلى عمله فهدم وهدم الناس معه حتى انتهى الهدم بهم إلى الأساس أساس إبراهيم، أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة: أي أسنة الإبل. وفي لفظ كالأسنة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229
قال السهيلي: وهو وهم من بعض النقلة عن ابن إسحاق، هذا كلامه: أي وقد يقال: هي كالأسنة في الخضرة وكالأسنة في العظم.

لا يقال: الأسنه زرق. لأننا نقول شديد الزرقه يرى أخضر، أخذ بعضها ببعض، فأدخل رجل ممن كان يهدم عتلته بين حجرين منهما ليقلع بها بعضها فلما تحرك الحجر تنفضت مكة: أي تحركت بأسرها، وأبصر القوم برقة خرجت من تحت الحجر كادت تخطف بصر الرجل، فانتهوا عن ذلك الأساس. ووجدت قريش في الركن كتاباً بالسريانية فلم يدر ما هو حتى قرأه لهم رجل من اليهود فإذا هو: أنا الله ذو بكة، خلقتها يوم خلقت السموات والأرض، وصورت الشمس والقمر وحففتها بسبعة أملاك حنفاء، لا يزول أخشباها أي جبلها، وهما أبو قبيس وهو جبل مشرف على الصفا. وقعيقان: وهو جبل مشرف على مكة وجهه إلى أبي قبيس يبارك لأهلها في الماء واللبن، ووجدوا في المقام: أي محله، كتاباً آخر مكتوب فيه: مكة بلد الله الحرام، يأتيها رزقها من ثلاث سبل. ووجدوا كتاباً آخر مكتوب فيه: من يزرع خيراً يحصد غبطة: أي ما يغبط أي يحسد حسداً محموداً عليه، ومن يزرع شراً يحصد ندامة: أي ما يندم عليه. تعملون السيئات، وتجزون الحسنات، أجل: أي نعم، كما يجنى من الشوك العنب أي الثمر.

أي وفي السيرة الشامية أن ذلك وجد مكتوباً في حجر في الكعبة. وفي كلام بعضهم: وجدوا حجراً فيه ثلاثة أسطر: الأول أنا الله ذو بكة، صنعتها يوم صنعت الشمس والقمر إلى آخره. وفي الثاني: أنا الله ذو بكة خلقت الرحم وشيقت لها اسماً من اسمي، فمن وصلها وصلته ومن قطعها بتته. وفي الثالث: أنا الله ذو بكة خلقت الخير والشر، فطوبى لمن كان الخير علي يديه، وويل لمن كان الشر على يديه. قال ابن المحدث: ورأيت في مجموع أنه وجد بها حجر مكتوب عليه: أنا الله ذو بكة، مفقر الزناة، ومعري تارك الصلاة، أرخصها والأقوات فارغة، وأغليها والأقوات ملانة: أي فارغ محلها وملآن محلها، هذا كلامه.

وقد يقال: لا مانع من أن يكون ذلك حجراً آخر، أو يكون هو ذلك الحجر، وما ذكر مكتوب في محل آخر منه: أي وفي الإصابة عن الأسود بن عبد يغوث عن أبيه أنهم وجدوا كتاباً بأسفل المقام، فدعت قريش رجلاً من حمير، فقال: إن فيه لحرفاً لو حدثكموه لقتلتموني قال: وطننا أن فيه ذكر محمد فكتمناه، وكان البحر قد رمى بسفينة إلى ساحل جدة: أي الذي به جدة الآن، وكان ساحل مكة قبل ذلك الذي يرمي به السفن يقال له الشعيبية بضم الشين، فلا يخالف قول غير واحد، فلما كانت السفينة بالشعيبية ساحل مكة انكسرت. وفي لفظ حبسها الريح، وتلك السفينة كانت لرجل من تجار الروم اسمه باقوم وكان بانياً.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وقيل كانت تلك السفينة لقيصر ملك الروم يحمل له فيها الرخام والخشب والحديد، سرحها مع باقوم إلى الكنيسة التي حرقها الفرس بالحبشة، فلما بلغت مرساها من جدة، وقيل من الشعيبية بعث الله تعالى عليها ريحاً فحطمها: أي كسرها.

فخرج الوليد بن المغيرة في نفر من قريش إلى السفينة فابتاعوا خشبها، فأعدوه لسقف الكعبة. وقيل هابوا هدمها من أجل تلك الحية العظيمة، فكانوا كلما أرادوا القرب منه أي البيت ليهدموه بدت لهم تلك الحية فاتحةً فاهاً، فبينما هي ذات يوم تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله طائراً أعظم

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

من النسر، فاخطفها وألقاها في الحجون فالتقمتها الأرض، قيل وهي الدابة التي تكلم الناس يوم القيامة. وقد جاء أن الدابة تخرج من شعب أجياد. وفي حديث «أن موسى عليه السلام سأل ربه أن يريه الدابة التي تكلم الناس فأخرجها له من الأرض، فرأى منظراً هاله وأفرعه، فقال: أي رب ردها فردها».

فقال قريش عند ذلك: إنا لنرجو أن يكون الله تعالى قد رضي ما أردنا: أي بعد أن اجتمعوا عند المقام، وعجوا إلى الله تعالى: ربنا لن نراع، أردنا تشريف بيتك وتزيينه، فإن كنت ترضى بذلك فأتهم واشغل عنا هذا الثعبان يعنون الحية، وإلا فما بدا لك فافعل، فسمعوا في السماء صوتاً ووجية وإذا بالطائر المذكور أخذها وذهب بها إلى أجياد، فقالوا ما ذكر، وقالوا: عندنا عامل رفيق وعندنا أخشاب، وقد كفانا الله الحية وذلك العامل هو باقوم الرومي الذي كان بالسفينة وكان بانياً كما تقدم، فإنهم جاؤوا به معهم إلى مكة، أو هو باقوم مولى سعيد بن العاص وكان نجاراً، وتلك الأخشاب هي التي اشتروها من تلك السفينة التي كسرت.

أقول: ومع أخذ الطائر لتلك الحية يجوز أن يقال هابوا هدمها حتى قدم عليه الوليد بن المغيرة، فلا مخالفة بين ما تقدم عن ابن إسحاق وبين هذا الظاهر في أنهم هدموها عند أخذ الطائر لتلك الحية ولم يهابوا هدمها حتى فعل الوليد ما تقدم، والله أعلم.

أي ثم لما أرادوا بنائها تجزأتها قريش: أي بعد أن أشار عليهم بذلك أو وهب عمرو بن عائذ، فقال لهم: إني أرى أن تقسموا أربعة أرباع، فكان شق الباب لعبد مناف وزهرة، وكان ما بين الركنين الأسود واليماني لبني مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم وكان ظهر الكعبة لبني جمح وبني سهم ابني عمرو، وكان شق الحجر أي الجانب الذي فيه الحجر الآن لبني عبد الدار ولبني أسد ولبني عدي.

والذي في كلام المقرئ: كان لبني عبد مناف ما بين الحجر الأسود إلى ركن الحجر أي وهو شق الباب، وصار لأسد وعبد الدار وزهرة الحجر كله: أي الجانب الذي فيه الحجر وصار لمخزوم دبر البيت، وصار لسائر قريش ما بين الركن اليماني إلى الركن الأسود هذا كلامه فليتامل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وفي كلام بعضهم: وسمي الركن اليماني باليماني، لأن رجلاً من اليمن بناه وكان الباني لها باقوم النجار: أي الذي هو مولى سعيد بن العاص. أقول: وكان المناسب أن يكون الذي بناها باقوم الرومي الذي كان صحبة السفينة التي كسرت، لأنه كما تقدم كان بانياً، وسيأتي التصريح بذلك. وأما باقوم مولى سعيد بن العاص فتقدم أنه كان نجاراً، إلا أن يقال باقوم مولى سعيد كان نجاراً بناءً، واشتهر بالوصف الأول، فكان الباني لها. وفيه يحتمل أن يكون باقوم الرومي البناء كان نجاراً، أيضاً، واشتهر بالوصف الأول. ثم رأيت في كلام بعضهم التصريح بذلك، فقال: وكان أي باقوم الرومي نجاراً

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

بناء. فقول القائل: وكان الباني لها باقوم النجار مراده باقوم الرومي لا مولى سعيد.

ثم رأيت في بعض الروايات ما يؤيد ذلك، وهو وصف باقوم الرومي بأنه كان نجاراً. ونصها: فخرجت قريش لتأخذ خشبها: أي السفينة التي كسرت، فوجدوا الرومي الذي فيها نجاراً، فقدموا به وبالخشب. فقد دلت الروايتان على أنه موصوف بالوصفين. ويحتمل أن يكون أحدهما بناها والآخر عمل سقفها، أو أنهما اشتركا فيها لما علمت أن كلاً منهما كان بانياً نجاراً. ثم رأيت عن ابن إسحاق: وكان بمكة قبطي يعرف نجر الخشب وتسويته، فوافقهم على أن يعمل لهم سقف الكعبة ويساعده باقوم، أي الرومي، فالقبطي هو مولى سعيد بن العاص. وحينئذ ففي هذه الرواية وصف باقوم الرومي بأنه كان نجاراً كالرواية التي قبلها، وسيأتي في الرواية التي تلي هذه أنه الذي بناها. وهي في الإصابة اسم الرجل الذي بنى الكعبة لقريش باقوم. وكان رومياً، وكان في سفينة حبستها الريح فخرجت إليها قريش فأخذوا خشبها وقالوا له: ابنها على بنيان الكنائس، وإن باقوم الرومي أسلم ثم مات فلم يدع وارثاً فدفع النبي صلى الله عليه وسلم ميراثه لسهيل بن عمرو.

ثم لما بنوها جعلوها مدمكاً من خشب الساج، ومدمكاً من الحجارة من أسفلها إلى أعلاها، وزادوا فيها تسعة أذرع، فكان ارتفاعها ثمانية عشر ذراعاً، ورفعوا بابها من الأرض، فكان لا يصعد إليها إلا في درج، وضاق بهم النفقة عن بنيانها على تلك القواعد فأخرجوا منها الحجر، وفي لفظ: أخرجوا من عرضها أذرعاً من الحجر وبنوا عليه جداراً قصيراً علامة على أنه من الكعبة. ولما بلغ البنيان موضع الحجر الأسود اختصموا، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى أعدوا للقتال، فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دماً ثم تعاقدوا هم وبنو عدي: أي تحالفوا على الموت، وأدخلوا أيديهم في ذلك الدم في تلك الجفنة، فسموا لعقة الدم، وقد تقدم في حلف المطيبين، ومكث النزاع بينهم أربع أو خمس ليال ثم اجتمعوا في المسجد الحرام. وكان أبو أمية بن المغيرة، واسمه حذيفة أسن قريش كلها يومئذ: أي وهو والد أم سلمة أم المؤمنين رضي الله عنها، وهو أحد أجواد قريش المشهورين بالكرم، وكان يعرف بزاد الراكب، لأنه كان إذا سافر لا يتزود معه أحد، بل يكفي كل من سافر معه الزاد.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

أي وذكر بعضهم أن أزواد الراكب من قريش ثلاثة: زمعة بن الأسود بن المطلب بن عبد مناف، قتل يوم بدر كافراً، ومسافر بن أبي عمرو بن أمية، وأبو أمية بن المغيرة وهو أشهرهم بذلك.

وفي كلام بعضهم: لا تعرف قريش زاد الراكب إلا أبا أمية بن المغيرة وحده، يحتمل أن المراد لا تكاد تعرف قريش غيره بهذا الوصف لشهرته فلا مخالفة، وأبو أمية هذا مات على دينه، ولعله لم يدرك الإسلام، فقال: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضي

بينكم: أي وهو باب بني شيبه، وكان يقال له في الجاهلية باب بني عبد شمس الذي يقال له الآن باب السلام. وفي لفظ أول من يدخل من باب الصفا: أي وهو المقابل لما بين الركنين اليماني والأسود ففعلوا أي وفي كلام البلاذري أن الذي أشار على قريش بأن يضع الركن أول من يدخل من باب بني شيبه مهشم بن المغيرة ويكنى أبا حذيفة.

وقد يقال: لا مخالفة، لأنه يجوز أن يكون اسمه حذيفة، ويكنى بأبي حذيفة كما يكنى بأبي أمية ومهشم لقبه، وأن الراوي عنه اختلف كلامه، فتارة قيل عنه يقضي بينكم، وتارة قيل عنه يضع الركن، والمشهور الأول، ويدل له ما يأتي، فكان أول داخل منه رسول الله، فلما رأوه قالوا هذا الأمين رضينا، هذا محمد: أي لأنهم كانوا يتحاكمون إليه في الجاهلية، لأنه كان لا يداري ولا يماري، فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر قال: هلم إليّ ثوباً فأتي به: أي وفي رواية: فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم إزاره وبسطه في الأرض أي ويقال إنه كساء أبيض من متاع الشام. ويقال إن ذلك الثوب كان للوليد بن المغيرة، فأخذ الحجر الأسود فوضعه فيه بيده الشريفة، ثم قال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب: أي بزواية من زواياه ثم ارفعه جميعاً ففعلوا، فكان في ريع عبد مناف عتبة بن ربيعة، وكان في الربع الثاني زمعة، وكان في الربع الثالث أبو حذيفة بن المغيرة، وكان في الربع الرابع قيس بن عدي، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو: أي ولما مات أبو أمية بن المغيرة رثاه أبو طالب بقصيدة طويلة، ورثاه أبو حذيفة بقوله:

ألا هلك الماجد الرافد
وكل قريش له جامد
ومن هو عصمة أيتامنا

وغيث إذا فقد الراعد

قال: وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لما وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم الركن: أي الحجر ذهب رجل من أهل نجد ليناول النبي صلى الله عليه وسلم حجراً يشد به الركن، فقال العباس لا، وناول العباس رسول الله صلى الله عليه وسلم ما شد به الركن، فغضب النجدي وقال: وأعجباً لقوم أهل شرف وعقول وأموال عمدوا إلى رجل أصغرهم سناً وأقلهم مالاً فرأسوه عليهم في مكرمتهم وحريزهم كأنهم خدم له، أما والله ليفرقنهم شيعاً، وليقسمن بينهم حظوظاً، فكاد يثير شراً فيما بينهم، ولعل هذا النجدي هو إبليس.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

فقد ذكر السهيلي أن إبليس تمثل في صورة شيخ نجدي حين حكموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في أمر الركن من يرفعه، وصاح: يا معشر قريش أرضيتهم أن يلي هذا الغلام دون أشرافكم وذوي أنسابكم؟ انتهى. وإنما تصوّر بصورة نجدي، لأن في الحديث، نجد طلع منها قرن الشيطان. ولما قال: «اللهم بارك لنا في شامنا وفي يمننا، قالوا وفي نجدنا، فأعاد الأول، والثاني قال: هناك الزلازل والفتن، وفيها يطلع قرن الشيطان». أقول: سيأتي أنه تصور بهذه الصورة أيضاً عند دخول قريش دار الندوة ليتشاوروا في كيفية قتله ودخل معهم، وسيأتي. ثم في حكمة تصوره بذلك غير

ما ذكر. ولا مانع أن يكونا حكمة لما هنا ولما يأتي.
وأعادوا الصور التي كانت في حيطانها، لأنه كان في حيطانها صور الأنبياء بأنواع
الأصباغ، ومن جملتهم صورة إبراهيم وفي يده الأزام: أي وإسماعيل وفي يده
الأزام، وصورة الملائكة وصورة مريم كما سيأتي في فتح مكة، وكساها
زعماءهم أرديتهم وكانت من الوصائل، ولم يكسها أحد بعد ذلك حتى كساها
رسول الله صلى الله عليه وسلم الحبرات في حجة الوداع، والله أعلم. وهذه
المررة الرابعة أي من بناء الكعبة بناء على أن أول من بناها الملائكة.

ففي بعض الآثار أن الله سبحانه وتعالى قبل أن يخلق السموات والأرض كان
عرشه على الماء أي العذب، فلما اضطرب العرش كتب عليه: لا إله إلا الله
محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم فسكن، فلما أراد أن يخلق السموات
والأرض أرسل الريح على ذلك الماء فتموج فعلاه دخان، فخلق من ذلك الدخان
السموات، ثم أزال ذلك الماء عن موضع الكعبة فيبس» وفي لفظ «أرسل
على الماء ريحاً هفافة فصفق الريح الماء» أي ضرب بعضه بعضاً «فأبرز عنه
خشفة» الحديث، وبسط الله سبحانه وتعالى من ذلك الموضع جميع الأرض
طولها والعرض، فهي أصل الأرض وسرتها. وقد يخالفه ما في (أنس الجليل)
كذا روي عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أنه قال: وسط الدنيا
بيت المقدس وأرفع الأرضين كلها إلى السماء بيت المقدس.
وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ومعاذ بن جبل أنه أقرب إلى السماء
بأثني عشر ميلاً ثم بين ذلك في أنس الجليل.
ولما ماجت الأرض وضع عليها الجبال، فكان أول جبل وضع عليها أبو قبيس،
وحينئذ كان ينبغي أن يسمى أبا الجبال، وأن يكون أفضلها مع أن أفضلها كما
قال الجلال السيوطي استنباطاً: أحد، لقوله: «أحد يحبنا ونحبه» ولما ورد أنه
على باب من أبواب الجنة، قال: ولأنه من جملة أرض المدينة التي هي أفضل
البقاع: أي عنده تبعاً لجمع، ولأنه مذكور في القرآن باسمه في قراءة من قرأ
{إذ تصعدون ولا تلوون على أحد} أي بضم الهمزة والحاء، ثم فتق الأرض
فجعلها سبع أرضين. وقد جاء «بدأ الله خلق الأرض في يومين غير مدحوة ثم
خلق السموات فسواهن في يومين، ثم دحا الأرض بعد ذلك، وجعل فيها
الرواسي وغيرها في يومين».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وبهذا يظهر التوقف في قول مغلطاي: إن لفظه بعد في قوله تعالى: {والأرض
بعد ذلك دحاها} بمعنى قبل، لأن خلق الأرض قبل خلق السماء، لما علمت أن
الأرض خلقت قبل السماء غير مدحوة، ثم بعد خلق السماء دحا الأرض.

ثم رأيت بعضهم سأل ابن عباس عن ذلك، حيث قال له: يا إمام اختلف عليّ
من القرآن آيات، ثم ذكر منها أنه قال: قال الله تعالى: {أننكم لتكفرون بالذي
خلق الأرض في يومين} - حتى بلغ - {طائعين} ثم قال في الآية الأخرى: {أم
السماء بناها} ثم قال: {والأرض بعد ذلك دحاها} فأجابه ابن عباس رضي الله
تعالى عنهما. أما قوله: {خلق الأرض في يومين} فإن الأرض خلقت قبل

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

السماء، وكانت السماء دخاناً فسواهن سبع سموات في يومين بعد خلق الأرض. وأما قوله تعالى: {والأرض بعد ذلك دحاهما} يقول: جعل فيها جبلاً، وجعل فيها نهراً، وجعل فيها شجراً، وجعل فيها بحوراً. وبه يرد قول بعضهم: خلق السماء قبل الأرض، والظلمة قبل النور، والجنة قبل النار فليتأمل. وقد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: {ومن الأرض مثلهن} قال: سبع أرضين، وفي كل أرض نبي كنببكم، وأدم كأدمكم، ونوح كنوحكم، وإبراهيم كأبراهيمكم، وعيسى كعيسىكم، رواه الحاكم في المستدرک وقال صحيح الإسناد. وقال البيهقي: إسناده صحيح لكنه شاذ بالمرّة: أي لأنه لا يلزم من صحة الإسناد صحة المتن، فقد يكون فيه مع صحة إسناده ما يمنع صحته فهو ضعيف.

قال الحافظ السيوطي: ويمن أن يؤول على أن المراد بهم النذر الذين كانوا يبلغون الجن عن أنبياء البشر.

ولا يبعد أن يسمى كل منهم باسم النبي الذي يبلغ عنه هذا كلامه: أي وحينئذ كان لنبينا رسول من الجن اسمه كاسمه، ولعل المراد اسمه المشهور وهو محمد فليتأمل.

ولما خاطب الله السموات والأرض بقوله: {اتتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين} كان المجيب من الأرض موضع الكعبة، ومن السماء ما حادها، الذي هو محل البيت المعمور.

وعن كعب الأحبار رضي الله عنه: لما أراد الله تعالى أن يخلق محمداً أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض وبهاؤها ونورها، فقبض قبضة رسول الله صلى الله عليه وسلم من موضع قبره الشريف، وهي بيضاء منيرة لها شعاع عظيم.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أصل طينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سرّة الأرض بمكة. قال بعض العلماء: هذا يشعر بأن ما أجاب من الأرض إلا تلك الطينة: أي وقد ذكر الشيخ أبو العباس المرسي رحمه الله تعالى «أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوماً لأبي بكر الصديق رضي الله عنه: أتعرف يوم يوم؟ فقال أبو بكر نعم والذي بعثك بالحق نبياً، يا رسول الله سألتني عن يوم المقادير، يعني يوم - {ألست بربكم} - ولقد سمعتك تقول حينئذ: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» وقد سئل الشيخ علي الخواص نفعا الله تعالى ببركاته لم تتكلم الأنبياء بلسان الباطن الذي تكلم به الصوفية.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

فأجاب بأنه إنما لم تتكلم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم بذلك لأجل عموم خطابهم للأمة، ولا يعتبر بالأصالة إلا فهم العامة دون فهم الخاصة إلا بعض تلويحات، ومنه قوله للصديق رضي الله تعالى عنه: «أتعرف يوم يوم؟ فقال نعم يا رسول الله» الحديث، وتلك الطينة لما تموّج الماء رمى بها من مكة إلى محل تربته ومدفنه بالمدينة.

وبهذا يندفع ما يقال: مقتضى كون أصل طينته بمكة أن يكون مدفنه بها، لأن تربة الشخص تكون في محل مدفنه ثم عجنها بطينة آدم، ولعل هذه الطينة هي المعبر عنها بالنور في قوله وقد قال له جابر: «يا رسول الله أخبرني عن أول

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء؟ قال: يا جابر إن الله خلق قبل الأشياء نور نبيك من نوره، ولم يكن في ذلك الوقت لا سماء ولا أرض ولا شمس ولا قمر ولا لوح ولا قلم» الحديث.

وجاء «أول ما خلق الله نوري» وفي رواية: «أول ما خلق الله العقل» قال الشيخ علي الخواص: ومعناها واحد، لأن حقيقته يعبر عنها بالعقل الأول وتارة بالنور. فأرواح الأنبياء والأولياء مستمدة من روح محمد هذا كلامه، وهذا هو المعنى بقول بعضهم: لما تعلق إرادة الحق بإيجاد خلقه أبرز الحقيقة المحمدية من الأنوار الصمدية في الحضرة الأحدية، ثم سلخ منها العوالم كلها علوها وسفلها. وفيه أن هذا لا يناسبه قوله: «ولم يكن في ذلك الوقت لا سماء ولا أرض» إذ كيف يأتي ذلك مع قول كعب الأحبار، أمر جبريل أن يأتيه بالطينة التي هي قلب الأرض إلى آخره؟ ومع قول ابن عباس: أصل طينة رسول الله صلى الله عليه وسلم من سررة الأرض. إلا أن يقال إن ذلك النور بعد إيجاده أودع تلك الطينة التي هي قلب الأرض وسررتها. وحينئذ لا يخالف ذلك ما جاء أن الله خلق آدم من طين العزة من نور محمد، فهو الجنس العالي لجميع الأجناس والأب الأكبر لجميع الموجودات والناس.

هذا وقد جاء في حديث بعض رواة متروك الحديث «خلق الله آدم من تراب الجابية، وعجنه بماء الجنة» وجاء «خلق الله آدم من تربة دحنا ومسح ظهره بنعمان الأراك» ودحنا: محل قريب من الطائف، وتقدم أنه يحتاج إلى بيان وجه كون آدم خلق من نوره وجعل نوره في ظهر آدم. ولما خلق الله آدم وقبل نفخ الروح فيه، استخرج ذلك النور من ظهره وأخذ عليه العهد {ألسنت بربكم} فقد خص بذلك عن بقية خلقه من بني آدم فإن بني آدم ما أخرجوا من ظهر آدم وأخذ عليهم الميثاق إلا بعد نفخ الروح في آدم.

ونقل بعضهم أن الله تعالى لما أخرج الذرية وأعادته في صلب آدم، أمسك روح عيسى إلى أن أتى وقت خلقه. ولا يخفى أن هذا يفيد أن أخذ العهد على الصديق كان بعد نفخ الروح في آدم، وأخذ العهد عليه كان سابقاً على ذلك، وحينئذ فيكون المراد بقول الصديق حينئذ لما قال له: «أتعرف يوم يوم، وقال نعم» إلى قوله: «ولقد سمعتك تقول حينئذ أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله» أي حين أخذ العهد على بني آدم، لا حين أخذ العهد عليه كما قد يتبادر فليتأمل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

ثم لما نفخت الروح في آدم صار ذلك النور في ظهر آدم فصارت الملائكة تقف صفوفاً خلف آدم يتعجبون من ظهور ذلك النور، فقال آدم يا رب: ما بال هؤلاء ينظرون إلى ظهري؟ قال: ينظرون إلى نور محمد خاتم الأنبياء الذي أخرج من ظهرك فسأل الله تعالى أن يجعله في مقدمه لتستقبله الملائكة، فجعله الله في جبهته، ثم سأل الله تعالى أن يجعله في محل يراه، فكان في سبابته، فلما أهبط آدم إلى الأرض، انتقل ذلك النور إلى ظهره، فكان يلمع في جبهته، وفي رواية: لما انتقل النور إلى سبابته قال: يا رب هل بقي في ظهري من هذا

النور شيء؟ قال: نعم، نور أخصاء أصحابه، فقال: يا رب اجعله في بقية أصابعي، فكان نور أبي بكر في الوسطى، ونور عمر في البنصر ونور عثمان في الخنصر، ونور عليّ في الإبهام، فلما أكل من الشجرة عاد ذلك النور إلى ظهره كذا في بحر العلوم عن ابن عباس.

ثم انتقل ذلك النور من آدم إلى ولده شيث، ولما قال تعالى للملائكة: {إني جاعل في الأرض خليفة} و{قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها} يعنون الجن الذين أفسدوا فيها وسفكوا الدماء، غضب عليهم.

وفي لفظ: ظنت الملائكة: أي علمت أن ما قالوا رداً على ربهم، وأنه قد غضب عليهم من فوقهم، فلاذوا بالعرش وطافوا به سبعة أطواف يسترضون ربهم فرضي عليهم.

وفي لفظ: فنظر الله إليهم، ونزلت الرحمة عليهم، فعند ذلك قال لهم ابنوا لي بيتاً في الأرض يعوذ به من سخطت عليه من بني آدم: أي الذي هو الخليفة، فيطوفون حوله كما فعلتم بعرشي فأرضى عنهم، فبنوا الكعبة.

وفي هذه الرواية اختصار، بدليل ما قيل: وضع الله تحت العرش البيت المعمور على أربع أساطين من زبرجد يغشاهن ياقوتة حمراء، وقال للملائكة: طوفوا بهذا البيت: أي لأرضى عنكم، ثم قال لهم: ابنوا لي بيتاً في الأرض بمثاله وقدره: أي ففعلوا، وقدره عطف تفسير على مثاله، فالمراد بالمثل القدر.

وفي لفظ لما قال تعالى للملائكة: {إني جاعل في الأرض خليفة} و{قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها} الآية خافوا أن يكون الله تعالى عابها عليهم لا اعتراضهم في علمه، فطافوا بالعرش سبعة أطواف يسترضون ربهم، ويتضرعون إليه، فأمرهم أن يبنوا البيت المعمور في السماء السابعة، وأن يجعلوا طوافهم به فكان ذلك أهون عليهم من الطواف بالعرش، ثم أمرهم أن يبنوا في كل سماء بيتاً، وفي كل أرض بيتاً. قال مجاهد: هي أربعة عشر بيتاً متقابلة، لو سقط بيت منها لسقط على مقابله، والبيت المعمور في السماء السابعة، وله حرمة كحرمة مكة في الأرض، واسم البيت الذي في السماء الدنيا بيت العزة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وفي كلام بعضهم: في كل سماء بيت تعمره الملائكة بالعبادة كما يعمر أهل الأرض البيت العتيق بالحج في كل عام. والاعتمار في كل وقت، والطواف في كل أوان، ولينظر ما معنى بناء الملائكة للبيوت في السموات. وإذا لم يصح أن الملائكة بنت الكعبة تكون هذه المرة من بناء قريش هي المرة الثالثة، بناء على أن أول من بناها آدم أي أو ولده شيث، فقد قال بعضهم: ما تقدم من الأثرين الدالين على أن أول من بناها الملائكة لم يصح واحد منها، وكانت قبل ذلك: أي وكان محلها قبل بناء آدم، لها خيمة من ياقوتة حمراء، أنزلت لآدم من الجنة: أي لها بابان من زمرد أخضر شرقي، وباب غربي من ذهب، منظومان من در الجنة، فكان آدم يطوف بها ويأنس إليها. وقد حج إليها من الهند ماشياً أربعين حجة ويجوز أن تكون تلك الخيمة هي البيت المعمور وعبر عنها بحمراء لأن سقف البيت المعمور كان ياقوتة حمراء.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

قال: وذكر أن آدم، لما أهبط إلى الأرض كان رجلاه بها، ورأسه في السماء. وفي لفظ: كان رأسه يمسح السحاب فصلع، فأورث ولده الصلع أي بعض ولده، فسمع تسبيح الملائكة ودعاءهم، فاستأنس بذلك، فهابته الملائكة: أي صارت تنفر منه فشكا إلى الله تعالى، فنقص إلى ستين ذراعاً بالذراع المتعارف. وقيل بذراع آدم، فلما فقد أصوات الملائكة حزن وشكا إلى الله تعالى، فقال: يا آدم إني قد أهبطت بيتاً يطاف به: أي تطوف به الملائكة كما يطاف حول عرشي، ويصلى عنده كما يصلى عند عرشي: أي كان ذلك أي الطواف بالعرش والصلاة عنده شأن الملائكة أولاً، فلا ينافي ما تقدم أنهم بعد ذلك صاروا يطوفون بالبيت المعمور كما تقدم، فاخرج إليه: أي طف به وصل عنده، وهذا البيت هو هذه الخيمة التي أنزلت لأجله. وقد علمت أنه يجوز أن تكون تلك الخيمة هي البيت المعمور.

قيل أهبط آدم وطوله ستون ذراعاً: أي على الصفة التي خلق عليها، وهو المراد بقوله: «خلق الله تعالى آدم على صورته وطوله ستون ذراعاً» أي أوجده الله تعالى على الهيئة التي خلقه عليها، لم ينتقل في النشأة أحوالاً، بل خلقه كاملاً سوياً من أول ما نفخ فيه الروح، فالضمير في صورته يرجع لآدم، وعلي رجوعه إلى الحق سبحانه وتعالى المراد على صفته: أي حياً عالماً قادراً مريداً متكلماً سميعاً بصيراً مدبراً حكيماً.

وقد يخالف هذا قول ابن خزيمة قوله: «إن الله خلق آدم على صورته» فخرج على سبب، وهو «أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يضرب وجه رجل فقال: لا تضربه على وجهه، فإن الله تعالى خلق آدم على صورته» أي صورة هذا الرجل، فهو ينتقل أطواراً. ولا يخفى أن هذا خلاف الظاهر، ومن ثم عبر بقوله أوجده، وهذا القيل المتقدم من أنه أهبط آدم وطوله ستون ذراعاً، يوافق ما جاء في الحديث المرفوع/ «كان طوله ستين ذراعاً في سبعة أذرع عرضاً» ومن ثم قال الحافظ ابن حجر: إنما روي أن آدم لما أهبط كانت رجلاه في الأرض، ورأسه في السماء فحطه الله تعالى إلى ستين ذراعاً: أي الذي تقدم ظاهر الخبر الصحيح يخالفه، وهو أنه خلق في ابتداء الأمر على طول ستين ذراعاً وهو الصحيح. وكان آدم أمرد. وفي الصحيحين «فكل من يدخل الجنة يكون على صورة آدم» وقد جاء في صفة أهل الجنة «جرد مرد على صورة آدم».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وفي بعض الأخبار أن آدم لما كثر بكاؤه على فراق الجنة نبتت لحيته، ولم يصح ولم تنبت اللحية إلا لولده، وكان مهبطه بأرض الهند بجبل عال يراه البحرانيون من مسافة أيام، وفيه أثر قدم آدم مغموسة في الحجر، ويرى على هذا الجبل كل ليلة كهية البرق من غير سحاب، ولا بد له في كل يوم من مطر يغسل قدمي آدم، وذروة هذا الجبل أقرب ذرا جبال الأرض إلى السماء، ولعل هذا وجه النظر الذي أبداه بعض الحفاظ في قول بعضهم: إن بيت المقدس أقرب الأرض إلى السماء بثمانية عشر ميلاً. قال بعض الحفاظ: وفيه نظر.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

قيل: ونزل معه من ورق الجنة فبثه هناك فمنه كان أصل الطيب بالهند. وعن عطاء بن أبي رباح: إن آدم هبط بأرض الهند ومعه أربعة أعواد من الجنة، فهي هذه التي يتطيب الناس بها. وجاء أنه نزل بنخلة العجوة. ثم لما أمر آدم بالخروج لتلك الخيمة خرج إليها ومدّ له في خطوه، قيل كانت خطوته مسيرة ثلاثة أيام. فقد قيل لمجاهد: هل كان آدم يركب؟ قال: وأي شيء كان يحمله، فوالله إن خطوته لمسيرة ثلاثة أيام.

وفيه أن هذا يقتضي أن آدم لم يكن يركب البراق، فقول بعضهم: إن الأنبياء كانت تركبه مراده مجموعهم لا جميعهم، وقبض الله تعالى له ما كان في الأرض من مخاض أو بحر، فلم يكن يضع قدمه في شيء من الأرض إلا صار عمراناً، وصار بين كل خطوة مفازة حتى انتهى إلى مكة، فإذا خيمة في موضع الكعبة: أي الموضع الذي به الكعبة الآن، وتلك الخيمة ياقوتة حمراء من يواقيت الجنة مجوفة: أي ولها أربعة أركان بيض، وفيها ثلاثة قناديل من ذهب، فيها نور يلهب من نور الجنة، طولها ما بين السماء والأرض، كذا في بعض الروايات، ولعل وصف الخيمة بما ذكر لا ينافي ما تقدم أنه يجوز أن تكون تلك الخيمة هي البيت المعمور، ووصف بأنه ياقوتة حمراء، لأن سقفه كان ياقوتة حمراء، لأن التعدد بعيد فليتأمل، ونزل مع تلك الخيمة الركن وهو الحجر الأسود ياقوتة بيضاء من أرض الجنة، وكان كرسيّاً لآدم يجلس عليه: أي ولعل المراد يجلس عليه في الجنة.

أقول: وهذا السياق يدل على أن آدم أهبط من الجنة إلى أرض الهند ابتداءً. وذكر في مثير الغرام عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «أن الله تعالى أهبط آدم إلى موضع الكعبة، وهو مثل الفلك من شدة رعدته، ثم قال: يا آدم تخط فتخطى فإذا هو بأرض الهند، فمكث هنالك ما شاء الله، ثم استوحش إلى البيت، فقيل له: حج يا آدم، فأقبل يتخطى فصار موضع كل قدم قرية، وما بين ذلك مفازة حتى قدم مكة» الحديث. والسياق المذكور أيضاً يدل على أن الخيمة والحجر الأسود نزلا بعد خروج آدم من الجنة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229
ويدل لكون الحجر الأسود نزل عليه ما في مثير الغرام «وأنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلأ لأنه لؤلؤة بيضاء، فأخذه آدم فضمه إليه استئناساً به» هذا كلامه.

وفي رواية عنه «أنزل الركن والمقام مع آدم ليلة نزل آدم من الجنة، فلما أصبح رأى الركن والمقام فعرفهما فضمهما إليه وأنس بهما» فليتأمل الجمع.

وفي رواية أن آدم نزل بتلك الياقوتة: أي فعن كعب: أنزل الله من السماء ياقوتة مجوّفة مع آدم فقال له: يا آدم هذا بيتي أنزلته معك، بطاف حوله كما يطاف حول عرشني ويصلى حوله كما يصلى حول عرشني: أي على ما تقدم، ونزل معه الملائكة فرفعوا قواعده من الحجارة، ثم وضع البيت: أي تلك الياقوتة عليها. وحينئذ يحتاج إلى الجمع بين هاتين الروايتين على تقدير صحتها.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وقد يقال في الجمع: يجوز أن تكون المعية ليست حقيقية، والمراد أنه نزل بعده قريباً من نزوله، فلقرب الزمن عبر بالمعية، فلا ينافي ما تقدم من قوله: «يا آدم إني قد أهبطت بيتاً يطاف به فأخرج إليه» وجاء «إن آدم نزل من الجنة ومعه الحجر الأسود متأبطه» أي تحت إبطه، وهو ياقوتة من يواقيت الجنة، ولولا أن الله تعالى طمس ضوءه ما استطاع أحد أن ينظر إليه». وكون آدم نزل بالحجر الأسود متأبطاً له يخالف الرواية المتقدمة أنه نزل مع تلك الخيمة التي هي الياقوتة بعد نزوله. وحينئذ يحتاج للجمع بين هاتين الروايتين على تقدير صحتهما.

وأيضاً يحتاج إلى الجمع بين ذلك وبين ما روي عن وهب بن منبه رحمه الله أن آدم لما أمره الله تعالى بالخروج من الجنة أخذ جوهرة من الجنة: أي التي هي الحجر الأسود مسح بها دموعه، فلما نزل إلى الأرض لم يزل يبكي ويستغفر الله ويمسح دموعه بتلك الجوهرة حتى اسودت من دموعه، ثم لما بنى البيت أمره جبريل عليه الصلاة والسلام أن يجعل تلك الجوهرة في الركن ففعل.

وفي (بهجة الأنوار) أن الحجر الأسود كما في الابتداء ملكاً صالحاً. ولما خلق الله تعالى آدم أباح له الجنة كلها إلا الشجرة التي نهاه عنها، ثم جعل ذلك الملك موكلاً على آدم أن لا يأكل من تلك الشجرة، فلما قدر الله تعالى أن آدم يأكل من تلك الشجرة غاب عنه ذلك الملك، فنظر الله تعالى إلى ذلك الملك بالهيبة فصار جوهراً. ألا ترى أنه جاء في الأحاديث «الحجر الأسود يأتي يوم القيامة وله يد ولسان وأذن وعين» لأنه كان في الابتداء ملكاً. أقول: ورأيت في ترجمة كلام الشيخ كمال الدين الأحميمي أنه لما جاور بمكة رأى الحجر الأسود وقد خرج من مكانه وصار له يدان ورجلان ووجه، ومشى ساعة ثم رجع إلى مكانه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وقد جاء «أكثرنا من استلام هذا الحجر، فإنكم توشكون أن تفقدوه، بينما الناس يطوفون به ذات ليلة إذ أصبحوا وقد فقدوه، إن الله عز وجل لا يترك شيئاً من الجنة في الأرض إلا أعاده فيها قبل يوم القيامة» أي فقد جاء «ليس في الأرض من الجنة إلا الحجر الأسود والمقام، فإنهما جوهرتان من جواهر الجنة، ما مسهما ذو عاهة إلا شفاه الله تعالى» وجاء «استكثرنا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع» وقد هدم مرتين ويرفع في الثالثة، والله أعلم. وجاء «أن آدم أتى ذلك، أي تلك الخيمة: أي التي هي البيت المعمور على ما تقدم ألف مرة من الهند ماشياً من ذلك ثلثمائة حجة وسبعمائة عمرة، وأول حجة حجها جاءه جبريل وهو واقف بعرفة فقال له: يا آدم برّ نسكك، أما إنا قد طفنا بهذا البيت قبل أن تخلق بخمسين ألف سنة. وفي رواية: لما حج آدم استقبلته الملائكة بالردم: أي ردم بين جمح الذي هو محل المدعي، فقالوا: بر حجك يا آدم، قد حجنا هذا البيت قبلك بألف عام.

أقول: وفي تاريخ مكة للأزرقي أن آدم عليه الصلاة والسلام حج على رجليه سبعين حجة ماشياً، وأن الملائكة لقيته بالمأزمين فقالوا: بر حجك يا آدم، لقد

حجنا هذا البيت قبلك بألفي عام، والمأزمان: موضع بين عرفة والمزدلفة. قال الطبري: ودون منى أيضاً مأزمان، والله أعلم بالمراد منهما هذا كلامه. وجاء «أنه وجد الملائكة بذى طوى وقالوا له: يا آدم ما زلنا ننتظرك ههنا منذ ألفي سنة» وكان بعد ذلك إذا وصل إلى المحل المذكور خلع نعليه، ويحتاج للجمع بين كون الملائكة استقبلته بالردم، وكونها لقيته بالمأزمين، وكونه وجدهم بذى طوى، وبين كونهم حجوا البيت قبله بألف عام، وكونهم حجوا قبله بألفي عام، وبخمسسين ألف عام، وهل الملائكة خلقوا دفعة واحدة أم خلقوا جيلاً بعد جيل.

ومما يدل على أنهم جيلاً بعد جيل ما جاء من نحو «من قال سبحان الله وبحمده، خلق الله ملكاً له عينان وجناحان وشفطان ولسان يطير مع الملائكة ويستغفر لقائلها إلى يوم القيامة» وما جاء «إن جبريل في كل غداة يدخل بحر النور فينغمس فيه» الحديث، لكن في (سفر السعادة) الحديث المنسوب إلى أبي هريرة أنه قال: «يأمر الله تعالى جبريل كل غداة أن يدخل بحر النور ينغمس فيه انغماسة، ثم يخرج فينتفض انتفاضة يخرج منه سبعون ألف قطرة، يخلق الله عز وجل من كل قطرة منها ملكاً» لهذا الحديث طرق كثيرة ولم يصح منها شيء؟ ولم يثبت في هذا المعنى حديث هذا لفظه، والله أعلم.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وعند ذلك قال آدم للملائكة: فما كنتم تقولون حوله؟ قالوا: كنا نقول: سبحان الله والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر. قال آدم: زيدوا فيها: ولا حول ولا قوة إلا بالله فكان آدم إذا طاف يقولها، وكان طوافه سبعة أسابيع بالليل وخمسة أسابيع بالنهار: أي ولما فرغ من الطواف صلى ركعتين تجاه باب الكعبة، ثم أتى الملتزم أي محله فقال: اللهم إنك تعلم سريرتي وعلانيتي فأقبل معذرتي، وتعلم ما في نفسي وما عندي فأعفر لي ذنبي، وتعلم حاجتي فأعطني سؤلي» الحديث.

أقول: قول الملائكة قد طفنا بهذا البيت لا يحسن أن يعنوا به تلك الخيمة المذكورة المعنية بقوله تعالى لآدم: قد أهبطت بيتاً إلى آخر ما تقدم، أو كونها أهبطت مع آدم، بل المراد محل ذلك البيت الذي هو الخيمة قبل أن تنزل. ويجوز أن يكون المراد تلك الخيمة أو نفس تلك الخيمة، بناء على أنها البيت المعمور، وأن الملائكة طافوا بها قبل نزولها إلى الأرض كما تقدم. قال: وعن وهب بن منبه: قرأت في كتاب من كتب الأول: ليس من ملك بعثه الله إلى الأرض إلا أمره بزيارة البيت فينقض من تحت العرش محرماً ملبياً حتى يستلم الحجر، ثم يطوف سبعا بالبيت، ويصلي في جوفه ركعتين، ثم يصعد. أقول: يجوز أن يكون المراد بإحرامه بنية الطواف بالبيت لا إحرامه بالعمرة بدليل قوله «ثم يطوف سبعا بالبيت» إلى آخره. ويجوز أن يكون المراد بالبيت في كلام وهب محل تلك الخيمة ما يعم من وجد من الملائكة وبمن بعث بعد ذلك. ولا يخفى أن الأول يبعده قوله حتى يستلم الحجر.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وعلى الثاني يكون فيه دلالة على أن الحجر الأسود كان في تلك الخيمة يبتدأ الطواف بها منه. وجاء عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهما «إن الله عز وجل أوحى إلى آدم أن اهبط إلى الأرض، ابن لي بيتاً، ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف بيّتي الذي في السماء» وفي رواية «وطف به واذكرني عنده كما رأيت الملائكة تصنع حول عرشي» أي على ما تقدم، وهذا السياق بظاهره يوافق ما تقدم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن هبوط آدم كان من الجنة إلى موضع الكعبة ابتداءً، والله أعلم. قال «وجاء أن جبريل عليه الصلاة والسلام بعثه الله تعالى إلى آدم وحواء، فقال لهما: انبيا» أي قال لهما إن الله تعالى يقول لكما انبيا لي بيتاً. فخط لهما جبريل، فجعل آدم يحفر وحواء تنقل التراب حتى أجابه الماء ونودي من تحته: حسبك يا آدم» وفي رواية «حتى إذا بلغ الأرض السابعة. فقذفت فيها الملائكة الصخر، ما يطبق الصخرة ثلاثون رجلاً» اهـ.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وفيه أنه كان أمر آدم ببناء البيت بعد مجيئه إلى تلك الخيمة من الهند ماشياً خالف ظاهر ما تقدم عن عطاء وسعيد بن المسيب «أوحى الله تعالى إلى آدم أن اهبط إلى الأرض ابن لي بيتاً» إذ ظاهره أنه أوحى إليه بذلك وهو في الجنة، إلا أن يقال المراد بالأرض في قوله اهبط إلى الأرض أرض الحرم: أي اذهب إلى أرض الحرم ابن لي بيتاً.

ثم لا يخفى أن قوله فقذفت فيه الملائكة الصخر، يقتضي أن إلقاء الملائكة للصخر كان بعد حفر آدم، وهو لا يخالف ما تقدم عن كعب. «أنزل الله من السماء ياقوتة مجوفة مع آدم، فقال له: يا آدم هذا بيتي أنزلته معك، ونزل معه الملائكة، فرفعوا قواعده من الحجارة ثم وضع البيت عليها» فيكون إلقاء الملائكة للصخر بعد حفر آدم «فلما تم ذلك الأس جعل ذلك البيت فوق تلك الصخور» ويكون المراد بقوله ونزل معه الملائكة: أي صحبوه من أرض الهند إلى أرض الحرم.

وجاء في بعض الروايات إن آدم وحواء لما أسسناه نزل البيت من السماء من ذهب أحمر وكل به من الملائكة سبعون ألف ملك فوضعه على أس آدم، ونزل الركن فوضع موضعه اليوم من البيت فطاف به آدم» أي كما كان يطوف به قبل ذلك، وبهذا تجتمع الروايات. وحينئذ لا مانع أن ينسب بناء هذا الأساس الذي وضعت الملائكة عليه تلك الخيمة لآدم وأن ينسب للملائكة. أما نسبته للملائكة فواضح. وأما نسبته لآدم فلأنه السبب فيه، أو لأنه كان إذا ألقت الملائكة الصخر يضع آدم بعضه على بعض، وعلى نسبة بناء ذلك الأس للملائكة ولآدم يحتمل القول بأن أول من بنى الكعبة الملائكة. والقول بأن أول من بنى الكعبة آدم فلي تأمل.

وقد جاء أن آدم بناه من لبنان جبل بالشام، ومن طور زيتا جبل من جبال القدس، ومن طور سينا جبل بين مصر وإيليا. وفي كلام بعضهم أنه جبل بالشام، وهو الذي نودي منه موسى عليه الصلاة والسلام، ومن الجودي وهو جبل بالجزيرة، ومن حرا حتى استوى على وجه الأرض.

أقول: وفي رواية بناه من ستة أجيل: من أبي قيس ومن رضوى ومن أحد

فالمتمحصل من الروایتين أنه بناء من ثمانية أجبل، ولا مانع من ذلك، واستمر ذلك البيت الذي هو الخيمة إلى زمن نوح عليه الصلاة والسلام، فلما كان الغرق بعث الله تعالى سبعين ألف ملك فرفعوه إلى السماء الرابعة فهو البيت المعمور كما في الكشف، وكان رفعه لئلا يصيبه الماء النجس، وبقيت قواعده التي هي الأس. وفي العرائس: ثم طافت السفينة بأهلها الأرض كلها في ستة أشهر لا تستقر على شيء، حتى أتت الحرم: فلم تدخله ودارت بالحرم أسبوعاً.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وقد رفع الله البيت الذي كان يحجه آدم صيانة له من الغرق، وهو البيت المعمور أي وكان حواء أسست البيت مع آدم يخالف ما جاء أن حواء أهبطت بجدة، وحرم الله عليها دخول الحرم والنظر إلى خيمة آدم وإلى شيء من مكة لأجل خطيئتها، وأنها أرادت أن تدخل مع آدم إلى مكة فقال لها: إليك عني، قد خرجت من الجنة بسببك فتريدين أن أحرم هذا، فكان آدم إذا أراد أن يلقاها ليلم بها خرج من الحرم كله حتى يلقاها بالحل.

وذكر محمد بن جرير أن الله أهبط آدم على جبل سرنديب بالهند: أي وتقدم ما فيه وحواء بجدة بالحاء المهملة. وقيل بالجيم. فجاء آدم في طلبها فتعارفا بالمحل الذي قيل له بسبب ذلك عرفة، فاجتمعا بالمحل الذي قيل له بسبب ذلك جمع، وزلفت إليه في المحل الذي قيل له بسبب ذلك مزدلفة، وهذا يدل على أن جمع غير مزدلفة، وهو خلاف المشهور من أن جمع هو مزدلفة، إلا أن يقال كل من المحليين من جملة البقعة، وأطلق كل من الاسمين على جميع تلك البقعة.

وقيل اسمي المحل عرفة، لأن جبريل عليه الصلاة والسلام لما علم إبراهيم عليه الصلاة والسلام المناسك وانتهى إلى عرفة وقال له أعرفت مناسك؟ قال نعم. فسمى عرفة: أي والمراد مناسكه التي قبل عرفة، وإلا فعظم المناسك بعد عرفة، فليتأمل.

وفي الخصائص الصغرى عن رزين أنه روي «أن آدم عليه الصلاة والسلام. قال: إن الله أعطى أمة محمد أربع كرامات لم يعطنيها: كانت توبتي بمكة وأحدهم يتوب في كل مكان» الحديث، وهو يدل على أن توبته كانت بسبب طوافه بالبيت. ويذكر أن حواء عاشت بعد آدم سنة.

وجاء «أن آدم لما فرغ من بناء البيت أمره الله تعالى بالمسير إلى أن يبني بيت المقدس، فسار وبناه ونسك فيه» وحينئذ لا يشك قوله وقد قيل له: «أي مسجد وضع في الأرض أولاً المسجد الحرام، قيل ثم أي؟ قال بيت المقدس، قيل: كم كان بينهما؟ قال أربعون سنة» وحينئذ لا حاجة لجواب الإمام البلقيني إن المراد أن المدة المذكورة بين أرضيهما في الدحو أي دحيت أرض المسجد الحرام، ثم بعد مضي مقدار أربعين سنة دحيت أرض بيت المقدس». وفيه أن الإمام البلقيني إنما أجاب بذلك بناء على أن سيدنا إبراهيم عليه الصلاة والسلام هو الباني للمسجد الحرام، والباني لمسجد بيت المقدس سيدنا

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

سليمان عليه الصلاة والسلام، فإن بينهما كما قيل أكثر من ألف عام. وكذا لا إشكال إذ كان الباني للمسجد الحرام آدم، والباني لمسجد بيت المقدس أحد أولاده كما قيل بذلك، ومن ثم أجاب بعضهم بأن سليمان إنما كان مجدداً لبناء بيت المقدس: وأما المؤسس له فسيدنا يعقوب بن إسحاق بعد بناء جده إبراهيم للمسجد الحرام بالمدة المذكورة، وأما على أن الباني لهما آدم فلا إشكال. وفي رواية أن أول من بنى الكعبة أي كلها بعد أن رفعت تلك الخيمة بعد موت آدم شيث ولد آدم بناها بالطين والحجارة: أي فهي أولية إضافية، ثم لما جاء الطوفان انهدم وبقي محله. وقيل إنه استمر ولم يبنه أحد إلى زمن إبراهيم عليه الصلاة والسلام.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

ففي رواية «أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لما أراد بناء الكعبة جاء جبريل فضرب بجناحه الأرض، فأبرز عن أس ثابت على الأرض السابعة ثم بناها إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام على ذلك الأس» ويقال له القواعد: أي كما تقدم، وهذا الأس كما علمت لآدم أو للملائكة أولهما، وإنما قيل له أساس إبراهيم وقواعد إبراهيم لأنه بنى على ذلك ولم ينقضه.

ومما يدل للقليل المذكور ما جاء في بعض الروايات عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت دثر مكان البيت أي بسبب الطوفان، بدليل ما جاء في رواية «قد درس مكان البيت بين نوح وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام، وكان موضعه أكمة حمراء، وكان يأتيه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض وما دعا عنده أحد إلا استجيب له».

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها «لم يحجه هود ولا صالح عليهما الصلاة والسلام، لتشاغل هود بقومه عاد، وتشاغل صالح بقومه ثمود». وجاء «إن بين المقام والركن وزمزم قبر تسعة وتسعين نبياً»، وجاء «إن حول الكعبة لقبور ثلثمائة نبي، وإن ما بين الركن اليماني إلى الركن الأسود لقبور سبعين نبياً، وكل نبي من الأنبياء إذا كذبه قومه خرج من بين أظهرهم وأتى مكة يعبد الله عز وجل بها حتى يموت» وجاء «ما بين الركن اليماني والحجر الأسود روضة من رياض الجنة، وإن قبر هود وصالح وشعيب وإسماعيل في تلك البقعة».

أقول: ويوافق ذلك قول بعضهم: إن إسماعيل دفن حيال الموضع الذي فيه الحجر الأسود، لكن جاء «إن قبر إسماعيل في الحجر» وذكر المحب الطبري أن البلاطة الخضراء التي بالحجر قبر إسماعيل عليه الصلاة والسلام. وقد يقال: لا منافاة بين كون هود وصالح لم يحجا البيت، وبين كونهما دفنا في تلك البقعة، لأنه يجوز أن يكونا ماتا قبل وصولهما إلى البيت، فجيء بهما ودفنا في تلك البقعة. على أن بعضهم ضعف كونهما لم يحجا: أي ويدل له أنه قد جاء «حجه هود وصالح ومن آمن معهما» وفي بعض الروايات «لم يحجه بين نوح وإبراهيم أحد من الأنبياء» ويحتاج إلى الجمع بينه وبين ما تقدم من أن كل نبي إذا كذبه قومه إلى آخره على تقدير صحتها.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وقد يقال: لا يحتاج إلى الجمع إلا أن يثبت أن بين نوح وإبراهيم أحد من الأنبياء كذبه قومه، على أنه لم يكن بين نوح وإبراهيم أحد من الأنبياء كذبه قومه، إلا هود وصالح، وهو يؤيد القول بأنهما لم يحجا، وتقدم ضعفه. وجاء في حديث، راويه متروك «إن نوحاً حجت به السفينة، فوقفت بعرفات، وبابت بمزدلفة، وطافت به أي بالحرم» كما تقدم أن السفينة لم تجاوز الحرم، وهذا لا يناسبه قوله «وسعت» لأن السعي بين الصفا والمروة، إلا أن يراد بالسعي نفس الطواف، فهو من عطف التفسير. وفي أنس الجليل ورد حديث شريف «إن السفينة طافت بيت المقدس أسبوعاً، واستوت على الجودي» أي وجاء «إن نوحاً قال لأهل السفينة وهي تطوف بالبيت العتيق، إنكم في حرم الله وحول بيته، لا يمسه أحد امرأة، وجعل بينهم وبين النساء حاجزاً» ويذكر أن ولده حاماً تعدي ووطيء زوجته، فدعا عليه بأن يسود الله لون بنيه، فأجاب الله دعاءه في أولاده، فجاء ولده أسود، وهو أبو السودان.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وقيل في سبب دعوة نوح وسوادهم غير ذلك. وقد بينت ذلك في كتابي (إعلام الطراز المنقوش في فضائل الحبوش) والله أعلم. وقبر آدم وإبراهيم وإسحاق ويعقوب ويوسف في بيت المقدس: أي بعد نقل يوسف من بحر النيل كما سنذكره.

قال: «قد جاء «إن الله سبحانه وتعالى أوحى إلى إبراهيم: أن ابن لي بيتاً، فقال إبراهيم: أي رب ابن أبنيه؟ فأوحى الله تعالى إليه أن اتبع السكينة: أي وهي ريح لها وجه كوجه الإنسان: أي وقيل كوجه الهر وجناحان، ولها لسان تتكلم به: أي وفي الكشف في تفسير السكينة التي كانت في التابوت الذي هو صندوق التوراة، قيل هو صورة من زبرجد أو ياقوت، لها رأس كراس الهر، وذنب كذنبه».

وعن علي رضي الله تعالى عنه «كان لها وجه كوجه الإنسان» هذا كلام الكشف. وفي رواية «بعث الله ريحاً يقال لها الخجوج لها جناحان، ورأس في صورة حية، فكشف لإبراهيم وإسماعيل ما حول البيت من أساس البيت الأول».

وفي رواية «أرسل الله سحابة فيها رأس، فقال الرأس: يا إبراهيم إن ربك يأمرك أن تأخذ بقدر هذه السحابة، فجعل ينظر إليها ويخط قدرها، ثم قال الرأس له: قد فعلت قال نعم، فارتفعت» فليتأمل الجمع بين هذه الروايات وبينها وبين ما تقدم أن جبريل ضرب بجناحه الأرض فأبرز عن أس إلى آخره. وجاء «إن السكينة جعلت تسير ودليله الصرد» وهو الطائر المعروف: أي وهو طائر فوق العصفور يصيد العصافير وغيرها، لأن له صغيراً مختلفاً يصفر لكل طائر يريد صيده بلغته فيدعوه إلى القرب منه فإذا قرب منه قصمه من ساعته وأكله. ويقال له الصوام، لأنه ورد أنه أول طائر صام عاشوراء. فعن بعض الصحابة رضي الله تعالى عنه «رأني رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى يدي صرد فقال: هذا أول طير صام عاشوراء» لكن قال الذهبي هو حديث منكر. وقال الحاكم: حديث باطل.

ويذكر أن خالد بن الوليد لما قتل طليحة الكذاب الذي ادعى النبوة في زمنه، وقوي أمره بعد موته قال خالد لبعض أصحابه ممن أسلم: ما كان يقول لكم

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

طليحة من الوحي؟ فقال: كان يقول: والحمام واليمام، والصدر الصوم، ليلغن ملكنا العراق والشام. وقد سمع نبي الله سليمان عليه الصلاة والسلام الصرد يصوت فقال: يقول: استغفروا الله يا مذبون. وفي الكشاف أن ذلك صياح الهدهد، ولا مانع أن يكون ذلك صياحهما. وسمع طاوساً يصوت فقال: يقول كما تدين تدان. وسمع هدهداً يصوت فقال: يقول: من لا يرحم لا يرحم.

ويجمع بينه وبين ما تقدم بأنه يجوز أن الهدهد تارة يقول استغفروا الله يا مذبون، وتارة يقول من لا يرحم لا يرحم. وسمع خطافاً يصوت، فقال: يقول قدموا خيراً تجدوه. وسمع ديكاً يصوت فقال: يقول: اذكروا الله يا غافلون. وسمع بلبلاً يصوت فقال: يقول: إذا أكلت نصف ثمرة فعلى الدنيا العفاء. وصاحت فاختة، فقال: إنها تقول: ليت الخلق لم يخلقوا. وسمع رخمة تصوت فقال: تقول: سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه. وقال: الحدأة تقول كل شيء هالك إلا الله. والقطة تقول: من سكت سلم. والبغا تقول: ويل لمن الدنيا همه. والنسر يقول: يا ابن آدم عش ما شئت أخرج الموت. والعقاب يقول: في البعد عن الناس أنس. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وعن سيدنا سليمان صلوات الله وسلامه عليه: ليس من الطيور أنصح لبيني آدم وأشفق عليهم من البومة، تقول إذا وقفت عند خربة: أين الذين كانوا يتنعمون بالدنيا، ويسعون فيها؟ ويل لبيني آدم، وكيف ينامون وأمامهم الشدائد، تزودوا، يا غافلون، وتهيؤوا لسفركم.

وعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه قال: «خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأينا طيراً أعمى يضرب بمنقاره على شجرة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: أتدري ما يقول: فقلت: الله ورسوله أعلم، فقال: إنه يقول: اللهم أنت العدل وقد حجت عني بصري وقد جعت، فأقبلت جرادة فدخلت في فمه، ثم ضرب بمنقاره الشجرة، فقال عليه الصلاة والسلام: أتدري ما يقول: قلت: لا، قال إنه يقول: من توكل على الله كفاه».

ويقال لما قال سليمان للهدهد، لأعذبنك عذاباً شديداً، قال له الهدهد: اذكر يا نبي الله وقوفك بين يدي الله، فلما سمع سليمان صلوات الله وسلامه عليه ذلك ارتعد فرقاً وعفا عنه: أي فإن الهدهد كان دليلاً له على الماء، فإن الهدهد يرى الماء تحت الأرض كما يرى الماء في الزجاج، فلما فقد سليمان الماء تفقد الهدهد فلم يجده، فأرسل خلفه العقاب، فرآه الهدهد مقبلاً من جهة اليمن، فلما رآه الهدهد منقضاً عليه قال له بحق من أقدرك عليّ إلا ما رحمتني.

قيل لابن عباس: يا سبحان الله! الهدهد يرى الماء تحت الأرض ولا يرى الفخ؟ فقال: إذا وقع القضاء عمي البصر. قيل عني سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام بالعذاب الشديد الذي يعذبه به الهدهد التفرقة بينه وبين إلفه، وقيل إلزامه خدمة أقرانه، وقيل صحبة الأضداد وقد قيل: أضيق السجون عشرة

الأضداد. وقيل الزوجة العجوز. قال تعالى حكاية عنه {علمنا منطق الطير}. قال بعضهم: عبر عن أصواتها بالمنطق، لما يتخيل منها من المعاني التي تدرك من النطق، فسليمان صلوات الله وسلامه عليه مهما سمع من صوت طائر علم بقوته القدسية الغرض الذي أراده ذلك الطائر، وهذا في طائر لم يفصح بالعبارة، وإلا فقد يسمع من بعض الطيور الإفصاح بالعبارة. فنوع من الغربان يفصح بقوله: الله حق.

وعن بعضهم قال: شاهدت غراباً يقرأ سورة السجدة، وإذا وصل إلى محل السجود سجد وقال: سجد لك سوادي، وأمن بك فؤادي، والدرة تنطق بالعبارة الفصيحة.

وقد وقع لي أني دخلت منزلاً لبعض أصحابنا وفيه درة لم أرها، فإذا هي تقول لي: مرحباً بالشيخ البكري وتكرر ذلك، فعجبت من فصاحة عبارتها.

وكان عليه السلام يعرف نطق الحيوان غير الطير، فقد جاء أن سليمان عليه السلام سمع النملة وقد أحست بصوت جنود سليمان، تقول للنمل {ادخلوا مساكنكم لا يحطمنكم سليمان وجنوده وهم لا يشعرون} فعند ذلك أمر سليمان الريح فوقفت حتى دخل النمل مساكنها، ثم جاء سليمان إلى تلك النملة وقال لها: حذرت النمل ظلمي، قالت: أما سمعت قولي {وهم لا يشعرون} على أني لم أرد حطم النفوس أي إهلاكها، إنما أردت حطم القلوب خشية أن يشتغلن بالنظر إليك عن التسبيح: أي فيمتن.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

فقد جاء مرفوعاً «أجال البهائم كلها وخشاش الأرض في التسبيح، فإذا انقضى تسبيحها، قبض الله أرواحها» ويروى «ما من صيد يصاد ولا شجرة تقطع إلا بغفلتها عن ذكر الله تعالى» وفي الحديث «الثوب يسبح، فإذا اتسخ انقطع تسبيحه» وفي رواية «إن النملة قالت له إنما خشيت أن تنظر إلى ما أنعم الله به عليك فتكفر نعم الله عليها، فقال لها: عظيمي، قالت: هل تدري لم جعل ملكك في فص خاتمك؟ قال لا، قالت: أعلمك أن الدنيا لا تساوي قطعة من حجر».

ومن عجيب صنع الله تعالى أن النملة تغتذي بشم الطعام، لأنها لا جوف لها يكون به الطعام. ويذكر أن هذه النملة التي خاطبت سيدنا سليمان أهدت له نيقة فوضعها في كفه.

ويحكى عنها لطيفة لا نطيل بذكرها. وفي فتاوى الجلال السيوطي. قال الثعالبي في زهرة الرياض: لما تولى سليمان عليه الصلاة والسلام الملك جاءه جميع الحيوانات يهنئونه إلا نملة واحدة فجاءت تعزیه، فعاتبها النمل في ذلك، فقالت: كيف أهنيه وقد علمت أن الله تعالى إذا أحب عبداً زوى عنه الدنيا وحبب إليه الآخرة. وقد شغل سليمان بأمر لا يدري ما عاقبته، فهو بالتعزية أولى من التهنة.

وجاء في بعض الأيام شراب من الجنة، فقيل له: إن شربته لم تمت، فشاور جنده، فكل أشار بشربه إلا القنفذ فإنه قال له: لا تشربه، فإن الموت في عز

خير من البقاء في سجن الدنيا، قال صدقت، فأراق الشراب في البحر. قال: وصار إبراهيم وإسماعيل صلوات الله وسلامه عليهما يتبعان الصرد حتى وصلا إلى محل البيت صارت السكنينة سحابة، وقالت: يا إبراهيم خذ قدر ظلي فابن عليه: أي وفي لفظ «لما أمر إبراهيم ببناء البيت ضاق به ذرعاً فأرسل إليه السكنينة وهي ريح خجوج ملتوية في هبوبها لها رأس» الحديث فحفر إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام فأبرزوا أي الحفر عن أس ثابت في الأرض. فبنى إبراهيم وإسماعيل يناول الحجارة: أي التي تأتي بها الملائكة، كما سيأتي حتى ارتفع البناء اهـ.

أقول: يحتمل أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام، لما أوحى الله إليه بذلك كان في مكة عند إسماعيل وإنهما كانا بمحل بعيد عن محل البيت. ويحتمل أنهما كانا بغيرها ثم جاء.

وقد قيل في قوله تعالى: {إن إبراهيم كان أمة قانتا لله} الآية: أي قائماً مقام الأمة لانفراده بعبادة الله تعالى في أرضه، لأنه لم يمكن على وجه الأرض من يعبد الله سواه، والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

قال: ثم لما ارتفع البناء جاء المقام أي وهو الحجر المعروف، فقام عليه وهو يبني وهما يقولان {ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم} وصار كلما ارتفع البناء ارتفع به المقام في الهواء، فأثر قدم إبراهيم في ذلك الحجر. وقيل إنما أثر في صخرة اعتمد عليها وهو قائم حين غسلت زوجة إسماعيل له رأسه، لأن سارة كانت أخذت عليه عهداً حين استأذنها في الذهاب إلى مكة لينظر كيف حال إسماعيل وهاجر، فحلف لها إنه لا ينزل عن دابته: أي التي هي البراق ولا يزيد على السلام واستطلاع الحال، غيرة من سارة عليه من هاجر، فحين اعتمد على الصخرة ألقى الله تعالى فيها أثر قدمه آية، وفيه كيف يعتمد بقدمه على الصخرة وهو راكب دابته؟ إلا أن يقال لما مال بشقه اعتمد عليها بإحدى رجليه مع ركوبه، وهذا يدل على أن الموجود في المقام أثر قدمه لا قدميه، ووقوفه عليه في حال البناء يدل على أن الموجود فيه أثر قدميه فليُنظر، وجعل ارتفاع البيت تسعة أذرع، قيل وعرضه ثلاثين ذراعاً. قال بعضهم: وهو خلاف المعروف، ولم يجعل له سقفاً ولا بناه بمدر، وإنما رصه رصاً وجعل له باباً: أي منفذاً لاصقاً بالأرض، غير مرتفع عنها، ولم ينصب عليه باباً: أي يقفل، وإنما جعله تبع الحميري بعد ذلك، وحفر له بئراً داخله عند بابه: أي على يمين الداخل منه يلقي فيها ما يهدى إليه، وكان يقال لها خزانة الكعبة كما تقدم.

ولما أراد أن يجعل حجراً يجعله علماً للناس: أي يتدئون الطواف منه ويختمون به، ذهب إسماعيل عليه الصلاة والسلام إلى الوادي يطلب حجراً، فنزل جبريل عليه الصلاة والسلام بالحجر الأسود يتلأأ نوراً: أي فكان نوره يضيء إلى منتهى أبواب الحرم من كل ناحية. وفي الكشاف: إنه أسودٌ لما لمستته الحيض في الجاهلية، وتقدم أنه أسودٌ من مسح آدم به دموعه. وجاء «إن خطايا بني آدم سودته» وأما شدة سواده فبسبب إصابة الحريق له أولاً في زمن قريش،

وثانياً في زمن عبدالله بن الزبير، وقد كان رفع إلى السماء حين غرقت الأرض زمن نوح، بناء على أنه كان موجوداً في تلك الخيمة كما تقدم. وفي رواية: إن إبراهيم عليه الصلاة لما قال لإسماعيل: يا بني اطلب لي حجراً حسناً أضعه ههنا، قال: يا أبتى إنني كسلان لغب أي تعب، قال: عليّ بذلك، فانطلق يأتيه بحجر، فجاءه جبريل بالحجر من الهند وهو الحجر الذي خرج به آدم من الجنة: أي كما تقدم فوضعه إبراهيم موضعه، وقيل وضعه جبريل وبنى عليه إبراهيم، وجاء إسماعيل بحجر من الوادي فوجد إبراهيم قد وضع ذلك الحجر: أي أو بنى عليه فقال: من أين هذا الحجر؟ من جاءك به؟ قال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: من لا يكلني إليك ولا إلى حجرك: أي وفي لفظ «جاءني به من هو أنشط منك» وفي لفظ «إن إسماعيل جاءه بحجر من الجبل، قال: غير هذا، فرده مراراً لا يرضى ما يأتيه به» وجاء «إن الله تعالى استودع الحجر أبا قبيس حين أغرق الله الأرض زمن نوح عليه الصلاة والسلام، وقال: إذا رأيت خليلي يبني بيتي فأخرجه له: أي فلما انتهى إبراهيم عليه الصلاة والسلام لمحل الحجر نادى أبو قبيس إبراهيم، فقال: يا إبراهيم هذا الركن فجاء فحفر عنه فجعله في البيت» وقيل تمحض أبو قبيس فانشق عنه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

أقول: وفي لفظ قال: «يا إبراهيم يا خليل الرحمن إن لك عندي وديعة فخذها، فإذا هو بحجر أبيض من يواقيت الجنة» ومن ثم كان أبو قبيس يسمى في الجاهلية الأمين لحفظه ما استودع، ويسمى أبا قبيس باسم رجل من جرهم اسمه قبيس هلك فيه. وقيل باسم رجل من مذحج بنى فيه يقال له أبو قبيس. وقيل لأنه اقتبس منه الحجر الأسود فسمي بذلك، ويحتاج إلى الجمع بين ما ذكر عليّ تقدير صحته، وما ذكر في ترجمة إلياس أحد أجداده أنه أول من وضع الركن: أي الحجر الأسود حين غرق البيت وانهدم زمن نوح، فكان أول من سقط عليه: أي أول من علم به، فوضعه في زاوية البيت فليتأمل ذلك، والله أعلم: أي وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه قال عند المقام: أشهد بالله يكررها لسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الركن والمقام ياقوتتان من ياقوت الجنة، طمس الله نورهما، ولولا أن نورهما طمس لأضاء ما بين المشرق والمغرب» أي من نورهما، ولعل طمس نور الحجر كان سببه ما تقدم فلا مخالفة.

وجاء «إنهما يقفان يوم القيامة وهما في العظم مثل أبي قبيس، يشهدان لمن وافاهما بالوفاء» وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «لولا ما مسهما من أهل الشرك، ما مسهما ذو عاهة إلا شفاه الله تعالى». وعن جعفر الصادق رضي الله تعالى عنه: لما خلق الله الخلق، قال لبيبي آدم: ألسنت بربكم؟ قالوا بلى، فكتب القلم إقرارهم، ثم ألقم ذلك الكتاب الحجر، فهذا الاستلام له إنما هو بيعة على إقرارهم الذي كانوا أقروا به. قال رضي الله تعالى عنه: وكان أبي عليّ يقول: إذا استلم الحجر يقول: اللهم أمانتي أديتها، وميثاقي وفيت به ليشهد لي عندك بالوفاء. وفي كلام السهيلي «إن العهد الذي أخذه الله تعالى على ذرية آدم حين مسح ظهره أن لا يشركوا به شيئاً كتبه في صكِّ وألقمه الحجر الأسود، ولذلك يقول المستلم اللهم إيماناً بك، ووفاء بعدك» وقد جاء «الحجر الأسود يمين الله في الأرض».

قال الإمام ابن فورك: وكان ذلك سبباً لاشتغالي بعلم الكلام، فإني لما سمعت ذلك سألت فقيهاً كنت أختلف إليه عن معناه فلم يجر جواباً، فقلت لي: سل عن ذلك فلاناً من المتكلمين، فسألته فأجاب بجواب شافي، فقلت لا بد لي من معرفة هذا العلم، فاشتغلت به، وهذا الذي قاله السهيلي يروي عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

فعن سيدنا عمر رضي الله عنه «أنه لما دخل المطاف قام عند الحجر وقال: والله إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أنني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبلك ما قبلتك. فقال له علي رضي الله تعالى عنه: بلي يا أمير المؤمنين، هو يضر وينفع. قال ولم؟ قلت: ذاك بكتاب الله، قال: وأين ذلك من كتاب الله؟ قلت: قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ﴾ الآية. وكتب ذلك في رق، وكان هذا الحجر له عينان ولسان، فقال له افتح فاك فألقمه ذلك الرق، وجعله في هذا الموضع، فقال: تشهد لمن وافاك بالموافاة يوم القيامة، فقال عمر رضي الله عنه: أعوذ بالله أن أعيش في قوم لست فيهم يا أبا الحسن».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وعن قتادة قال: ذكر لنا أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام بني البيت من خمسة أجبل من طور سيناء وطور زيتاء ولبنان والجودي وحراء. وذكر لنا أن قواعد من حراء التي وضعها آدم مع الملائكة. أقول: تقدم أن تلك القواعد كانت من جبل لبنان، ومن طور سيناء، ومن طور زيتا، ومن الجودي، ومن حراء، إلا أن يقال يجوز أن يكون معظم ذلك كان من حراء فليتأمل.

وذكر بعضهم أنه كان له ركنان، وهما اليمانيان: أي لم يجعل له إبراهيم عليه الصلاة والسلام إلا الركنين المذكورين، فجعلت له قریش حين بنته أربعة أركان.

وذكر الحافظ ابن حجر أن ذا القرنين الأول وهو المذكور في القرآن في قصة موسى عليه الصلاة والسلام وهو إسكندر الرومي، قدم مكة فوجد إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام بينان الكعبة فاستفهمهما عن ذلك، فقالا: نحن عبدان مأموران، فقال لهما: من يشهد لكما؟ فقامت خمسة أكبش شهدت: أي قلن نشهد أن إبراهيم وإسماعيل عبدان مأموران بالبناء، فقال: رضيت وسلمت وقال لهما صدقتما.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لما كان إبراهيم عليه الصلاة والسلام بمكة وأقبل ذو القرنين: عليهما فلما كان بالأبطح قيل له: في هذه البلدة إبراهيم خليل الرحمن. فقال ذو القرنين: ما ينبغي لي أن أركب في بلدة فيها إبراهيم خليل الرحمن، فنزل ذو القرنين ومشى إلى إبراهيم عليه الصلاة والسلام، فسلم عليه إبراهيم واعتنقه، فكان هو أول من عانق عند السلام. قال الفاكهي: وأظن أن الأكبش المذكورة: أي التي شهدت أحجاراً، ويحتمل أن تكون غنماً.

ووصف ذي القرنين الأكبر احترازاً من ذي القرنين الأصغر وهو الإسكندر

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

اليوناني فإنه كان قريباً من زمن عيسى عليه الصلاة والسلام، وبين عيسى وإبراهيم عليهما الصلاة والسلام أكثر من ألفي سنة وكان كافراً والله أعلم. وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لما فرغ إبراهيم من بناء البيت، قال: يا رب قد فرغت، قال: أذن في الناس بالحج، قال: أي رب ومن يبلغ صوتي؟ قال الله جل ثناؤه: أذن وعليّ البلاغ، قال: أي رب كيف أقول؟ قال قل: يا أيها الناس كتب عليكم الحج إلي البيت العتيق فأجيبوا ربكم عز وجل، فوقف على المقام وارتفع به حتى كان أطول الجبال، فنادى وأدخل أصبعيه في أذنيه، وأقبل بوجهه شرقاً وغرباً ينادي بذلك ثلاث مرات: أي وزويت الأرض له يومئذ سهلها وجبلها وبحرها وبرها وإنسها وجننها حتى أسمعهم جميعاً فقالوا؟ لبيك اللهم لبيك، وبدأ بشق اليمن، وحينئذ يكون أول من أجاب أهل اليمن، وسيأتي التصريح بذلك في بعض الروايات.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229
وعن ابن عباس رضي الله عنهما: كان أهل اليمن أكثر إجابة ومن ثم جاء في الحديث «الإيمان يمان» وقال في حق أهل اليمن «يريد أقوام أن يضعوهم ويأبى الله إلا أن يرفعهم».
وروى الطبراني بإسناده عن علي رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله: «من أحب أهل اليمن فقد أحبني، ومن أبغضهم فقد أبغضني».
ومما يؤثر عن إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه. من علم أن كلامه من عمله قل كلامه إلا فيما يعنيه. وقد ذكر في تفسير قوله تعالى: {فيه آيات بينات مقام إبراهيم} هو نداء إبراهيم على المقام بما ذكر.
وقيل له البيت العتيق لأنه أعتق من الجبابة لم يدعه: أي بحيث ينسب إليه جبار من الجبابة الذين كانوا بمكة مع العمالقة وجرهم.
وقال القاضي تبعاً للكشاف: لأنه أعتق من تسلط الجبابة، فكم من جبار سار إليه ليهدمه فمنعه الله تعالى. قال: وأما الحجاج فإنما كان قصده إخراج ابن الزبير عنه لما تحصن به دون التسلط عليه كذا قال.
قال بعضهم: وعن عبد الله بن عمر أنه قال: إنما سميت بكة أي بالموحدة، لأنها كانت تبك أعناق الجبابة، ولينظر من قصده ليهدمه من الجبابة غير أبرهة.

ثم رأيت في المشرف أن ثلاثة غيره قصدوا هدمه: اثنان قاتلتها خزاعة ومنعتها، والثالث كان في أول زمان قريش، أراد هدمه حسداً على شرف الذكر لقريش به وأن يبني عنده بيتاً يصرف حجاج العرب إليه، فلما قارب مكة أظلمت الأرض وأيقن بالهلاك، فأقلع عن تلك النية ونوى أن يكسو البيت وينحر عنده، فانجلت الظلمة ففعل ذلك.

وفيه أن هذا الذي حصلت له الظلمة إنما هو تبع الأول، فإنه لما عمد إلى البيت يريد تخريبه، أرسلت عليه ريح كتعت منه يديه ورجليه، وأصابته وقومه ظلمة شديدة. وفي رواية أصابه داء تمخض منه رأسه قيحاً وصديداً: أي يثج ثجاً حتى لا يستطيع أحد أن يدنو منه، فدعا بالأطباء فسألهم عن دائه فهاهم ما رأوا منه

ولم يجد عندهم فرجاً، فعند ذلك قال له الحبر: لعلك هممت بشيء في حق هذا البيت؟ فقال: نعم، أردت هدمه فقال له تب إلى الله مما نويت فإنه بيت الله وحرمه، وأمره بتعظيم حرمة ففعل فبريء من دائه.
وقيل لأنه أول بيت وضع في الأرض، وقيل لأنه أعتق من الغرق بسبب الطوفان في زمن نوح عليه الصلاة والسلام، كذا في الكشاف وغيره. وفيه نظر ظاهر، لما تقدم من دثوره بالطوفان، ولما ذكر في قصة نوح أنه لما بعث الحمامة من السفينة لتأتيه بخبر الأرض، فوقفت بوادي الحرم. فإذا الماء قد نضب من موضع الكعبة، وكانت طينتها حمراء فاخضبت رجلاها، إلا أن يقال إن معنى أعتق أنه لم يذهب بالمرة، بل بقي أثره.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وفي الخميس عن ابن هشام أن ماء الطوفان لم يصل للكعبة، ولكن قام حولها، وبقيت هي في هواء السماء: أي بناء على الكعبة هي الخيمة التي كانت على زمن آدم عليه الصلاة والسلام. وتقدم عن الكشاف أنها رفعت إلى السماء الرابعة، وأنها البيت المعمور. وهذا كما علمت يدل على أن المراد بالكعبة الخيمة التي كانت لآدم، وقوله قام حولها يريد أنه لم يعل محل تلك الخيمة، ولعله لا ينافيه ما تقدم في قصة نوح فليتأمل.

وفي رواية: أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام نادى: «يا أيها الناس إن الله كتب عليكم الحج» وفي لفظ «إن ربكم قد اتخذ بيتاً وطلب منكم أن تحجوه فأجيبوا ربكم كرر ذلك ثلاث مرات، فأسمع من في أصلاب الرجال وأرحام النساء، فأجابه من كان سبق فيعلم الله أنه يحج إلى يوم القيامة: لبيك اللهم لبيك، فليس حاج يحج إلى أن تقوم الساعة إلا ممن كان أجاب إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ومن لبي تلبية واحدة حج حجة واحدة ومن لبي مرتين حج حجتين وهكذا» وفي لفظ «لما نادى إبراهيم عليه الصلاة والسلام فما خلق الله من جبل ولا شجر ولا شيء من المطيعين له إلا أجاب: لبيك اللهم لبيك».
أقول: لا يخفى أنه يحتاج إلى الجمع بين هذه الروايات فيما نادى به إبراهيم عليه الصلاة والسلام، وسيأتي. ومعلوم أن إجابة غير العقلاء إجابة إجلال وتعظيم، ولعل المراد بالكتب مطلق الطلب لا خصوص الوجوب، لأنه لم يفرض الحج على هذه الأمة إلا بعد الهجرة في السنة السادسة، وقيل التاسعة، وقيل العاشرة كما سيأتي. وأما بقية الأمم من بعد إبراهيم فلم أقف على وجوب الحج عليها.

وقد ذكر بعض المتأخرين من أصحابنا أن الصحيح أنه لم يجب الحج إلا على هذه الأمة واستغرب. وفي الخصائص الصغرى: وافترض عليهم أي على هذه الأمة ما افترض على الأنبياء والرسل وهو الوضوء والغسل من الجنابة والحج والجهاد، وهو يفيد أنه كان واجباً على الأنبياء والرسل. وفيه أن الأصل أن ما وجب في حق نبي وجب في حق أمته إلا أن يقوم الدليل الصحيح على الخصوصية، وقوله وهو الوضوء سيأتي ما في الوضوء والله أعلم: أي ثم أمر بالمقام فوضعه قبله: أي ملصقاً بالبيت على يمين الداخل، فكان يصلي إليه مستقبل الباب: أي جهته، وأول من آخره عن ذلك المحل ووضعه موضعه الآن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أي وقد تقدم ذلك عن ابن كثير.

أقول: وقيل إن أول من وضعه موضعه الآن النبي صلى الله عليه وسلم في فتح مكة. وسيأتي الجمع بين هذين القولين ويأتي ما فيه. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229
وذكر الطبري أن محله أولاً المنخفض: أي الذي تسميه العامة المعجنة: أي محل عجن الطين للكعبة، وذلك المنخفض هو محل صلاة جبريل به الصلوات الخمس في اليومين كما سيأتي.
ونازع في ذلك العز بن جماعة، وقال: لو كان ذلك لشهر عليه بالكتابة في الحفرة. وردّ بأن ذلك ليس بلازم والناقل ثقة، وهو حجة على من لم ينقل. وذكر ابن حجر الهيثمي أن في رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام صعد أبا قبيس، وقيل صعد ثبيراً وأذن، وأن أول من أجابه أهل اليمن: أي لما تقدم أنه بدأ بشق اليمن. ولا مانع من تعدد ذلك: أي وقوفه على تلك الأماكن التي هي المقام وأبو قبيس وثبير. ويجوز أن يكون قال في بعض تلك الأماكن ما لم يقله في غيره مما تقدم، فلا مخالفة بين تلك الروايات فيما نادى به إبراهيم عليه الصلاة والسلام. وجاء إنه لما فرغ دعائه ذهب به جبريل، فأراه الصفا والمروة وحدود الحرم، وأمره أن ينصب عليها الحجارة، ففعل وعلمه المناسك: أي مع إسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

ففي العرائس: خرج جبريل بهما يوم التروية إلى منى، فصلى بهما الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة، ثم باتا بها حتى أصبحا، فصلى بهما صلاة الصبح، ثم غدا بهما إلى عرفة، فقام بهما هناك حتى زالت الشمس جمع بين الصلاتين الظهر والعصر، ثم رجع بهما إلى الموقف من عرفة، فوقف بهما على الموقف الذي يقف عليه الناس الآن، فلما غربت الشمس دفع بهما إلى مزدلفة، فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء الآخرة، ثم بات بهما حتى طلع الفجر، ثم صلى بهما صلاة الغداة، ثم وقف بهما على قزح حتى إذا أسفر أفاض بهما إلى منى، فأراهما كيف رمى الجمار، ثم أمرهما بالذبح، وأراهما المنحر من منى وأمرهما بالحلق، ثم أفاض بهما إلى البيت، فليتأمل ذلك فإن فيه التصريح بأن إبراهيم وإسماعيل صلياً مع جبريل جماعة الصلوات الخمس، وجمعا تقديماً بين الظهر والعصر، وتأخيراً بين المغرب والعشاء للنسك، وهو مخالف لقول أئمتنا لم تجمع الصلوات الخمس إلا لنبينا .
ففي الخصائص الصغرى: وخص بمجموع الصلوات الخمس، ولم تجتمع لأحد، وبالعشاء ولم يصلها أحد، وبالجماعة في الصلاة إلا أن يدعى أن المراد الجمع على جهة المداومة على ذلك لجواز أن يكون إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام لم يداوما على ذلك، وفيه ما لا يخفى.

وفي الوفاء عن وهب قال: أوحى الله تعالى إلى آدم عليه الصلاة والسلام «أنا الله ذو بكة، أهلها جيرتي، وزوارها وفدي وفي كنفني، أعمره بأهل السماء وأهل

الأرض، يأتونه أفواجاً شعثاً غبراً، يعجون بالتكبير عجاً، ويرجّون بالتلبية ترجيحاً، ويشجون بالكباء ثجاً. فمن اعتمره لا يريد غيره فقد زارني وضافني ووفد إليّ ونزل بي، وحق لي أن أتخفه بكرامتي، أجعل ذلك البيت وذكره وشرفه ومجده وثنائه لنبي من ولدك يقال له إبراهيم، أرفع له قواعده، وأقضي على يديه عمارته، وأنيط له سقايته، وأريه حله وحرمه، وأعلمه مشاعره، ثم يعمره الأمم والقرون حتى ينتهي إلى نبي من ولدك يقال له محمد خاتم النبيين، وأجعله من سكانه وولاته وحجابه وسقاته، فمن سأل عني يومئذ فأنا من الشعث الغبر، الموفين بنذورهم، المقبلين على ربهم».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

ولما دعا إبراهيم عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: {وارزقهم من الثمرات} أي دعا بذلك وهو على ثنية كداء بالمد. فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين قال: {فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات} كان على الثنية العليا ذكره السهيلي، وعند ذلك نقل له الطائف من فلسطين من أرض الشام: أي وببركة دعائه عليه الصلاة والسلام يوجد بمكة الفواكه المختلفة الأزمان من الربيعية والصيفية والخريفية في يوم واحد، ذكره في الكشف.

ثم لما فرغ: أي من بناء البيت وحج وطاف بالبيت لقيته الملائكة في الطواف فسلموا عليه، فقال لهم: ما تقولون في طوافكم؟ قالوا: كنا نقول قبل أهلك آدم: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، فأعلمناه بذلك، فقال: زيدوا ولا حول ولا قوة إلا بالله، فقال إبراهيم عليه الصلاة والسلام: زيدوا فيها العليّ العظيم. فقالت الملائكة ذلك.

وكان بناء إبراهيم للبيت بعد مضي من عمره مائة سنة، ثم بناه العماليق، ثم بنته جرهم، وقيل عكسه. وقد يتوقف في بناء العماليق له. أما في الأول فلأن أول من نزل مكة مع هاجر وولدها إسماعيل جرهم، وإنهم بعد إسماعيل وبعض ولده كانوا ولاة البيت. وأما في الثاني، فلأن ولاية البيت كانت لخزاعة بعد جرهم كما تقدم، وكيف يبنون البيت ولا ولاية لهم عليه، إلا أن يقال: لا مانع أن يكونوا حينئذ أهل ثروة، بخلاف جرهم وخزاعة.

ثم رأيت عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن العماليق كانوا في عرّ وكانت لهم أموال كثيرة، وأن الله سلبهم ذلك لما تظاهروا بالمعاصي، وسلط عليهم الذر حتى خرجوا من الحرم، وتفرقوا وهلكوا، والذر في النمل كالزنبور في النحل.

وفي تاريخ مكة للفاكهي أن العماليق قدموا مكة لما قدم وفد عاد للاستسقاء بالبيت. وقيل كانوا بعرفة. ولما أخرج الله تعالى زمزم لإسماعيل بواسطة جبريل. ففي (ربيع الأبرار) أن جبريل أخرج ماء زمزم مرتين: مرة لآدم، ومرة لإسماعيل، وعند ذلك تحولوا إلى مكة. قال المقرئ: لما علموا بذلك. وقيل كانوا بعد جرهم، ولا يصح ذلك. ثم رأيت المقرئ قال: وفي كتاب أخبار مكة للفاكهي ما يدل على تقدم بناء جرهم على بناء العمالقة، ولا يصح ذلك لاتفاقهم على أن ولاية العمالقة على مكة كانت قبل ولاية جرهم، وعلى أنه لم يل مكة بعد جرهم إلا خزاعة.

ولا يخفى أن هذا صريح في أن العمالقة بنته ولا بد، وأن بناءهم له كان قبل بناء جرحم له، والعماليق من ولد عملاق أو عمليق بن لاوذ بن سام بن نوح عليه الصلاة والسلام. قيل وهو أول من كتب بالعربية، وقيل من ولد العيص بن إسحاق بن إبراهيم عليهما الصلاة والسلام. ثم بناه قصي جده، وسقفه بخشب الروم وجريد النخل. ثم بنته قريش كما تقدم. ثم بناه بعد قريش عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما أي ويكنى أبا خبيب، يضم الخاء المعجمة وفتح الباء الموحدة، وكنى بأبي خبيب لأن خيباً كان رجلاً بالمدينة من النساء، طويل الصلاة، قليل الكلام: أي وعبد الله رضي الله تعالى عنه كان مشابهاً له في ذلك، فكنى به.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

هذا، وفي كلام ابن الجوزي أنه كان لعبد الله بن الزبير ولد يقال له خبيب حيث قال خبيب بن عبد الله بن الزبير ضربه عمر بن عبد العزيز بأمر الوليد مائة سوط فمات، لأنه لما حدث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: إذا بلغ بنو أبي العاص أربعين رجلاً، وفي رواية ثلاثين رجلاً، وفي رواية: إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلاً. وفي رواية إذا بلغ بنو أمية أربعين رجلاً اتخذوا عباد الله تعالى خولاً: أي عبيداً، ومال الله دولاً، ودين الله دغلاً. وفي رواية بدل دين الله كتاب الله. قال ابن كثير: وهذا الحديث أي ذكر بني أمية وذكر الأربعين منقطع. ولما بلغ الوليد ما ذكر خبيب كتب لابن عمه عمر بن عبد العزيز وهو والي المدينة أن يضرب خيباً هذا مائة سوط ففعل، ثم برّد ماء في جرة وصبه أي في يوم شات عليه وحبسه، فلما اشتد وجعه أخرجه وندم على ما فعل. فلما مات وسمع بموته سقط إلى الأرض واسترجع، واستعفى من ولاية المدينة، فكان عمر بن عبد العزيز إذا قيل له أبشر، قال: كيف أبشر وخيب على الطريق أي عائق لي.

وفي دلائل النبوة للبيهقي عن بعضهم قال: كنت عند معاوية بن أبي سفيان ومعه ابن عباس على السرير، فدخل عليه مروان بن الحكم، فكلمه في حاجته وقال: اقض حاجتي يا أمير المؤمنين، فوالله إن مؤنتي لعظيمة، فإني أبو عشرة، وعم عشرة، وأخو عشرة، فلما أدير مروان قال معاوية لابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أشهدك بالله يا ابن عباس أما تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا بلغ بنو الحكم ثلاثين رجلاً اتخذوا مال الله بينهم دولاً، وعباد الله تعالى خولاً، وكتاب الله دغلاً، فإذا بلغوا تسعة وتسعين وأربعمائة كان هلاكهم أسرع من لوك تمر؟ فقال ابن عباس: اللهم نعم» ثم ذكر مروان حاجة فردّ مروان ولده عبد الملك إلى معاوية فكلمه فيها، فلما أدير عبد الملك قال معاوية: أنشدك الله يا ابن عباس أما تعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر هذا؟ فقال: أبو الجبابرة الأربعة، فقال ابن عباس: اللهم نعم، فإن أربعة من ولدة ولوا الخلافة، فليتأمل هذا فإنه ربما يدل على أن عبد الملك صحابي، إلا أن يقال ذكره قبل وجوده فهو من أعلام نبوته وفي كلام ابن كثير: هذا الحديث فيه غرابة ونكارة شديدة. هذا، وقد رأيت عن بعض حواشي الكشاف أن أعداء عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما هم الذين كانوا

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

يكنونه بأبي خبيب، لأن خبيباً كان من أحسن أولاده، ويرده قول بعضهم: يغلب للشرف كالخبيبين لخبيب بن عبد الله بن الزبير وأخيه مصعب.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229
وذكر ابن الجوزي أيضاً فيمن ضرب بالسياط من العلماء سعيد بن المسيب، ضربه عبد الملك بن مروان مائة سوطاً، لأنه بعث ببيعة الوليد إلى المدينة فلم يبايع سعيد، فكتب أن يضرب مائة سوطاً ويصب عليه جرة ماء في يوم شات ويلبس جبة صوف ففعل به ذلك، أي كما فعل بخبيب.

ثم رأيت في تاريخ الحافظ ابن كثير لما عهد عبد الملك لولده الوليد في حياته وانتهت البيعة إلى المدينة امتنع سعيد بن المسيب أن يبايع، فضربه نائب المدينة ستين سوطاً، وألبسه ثياباً من شعر، وأركبه جملاً وطاف به في المدينة، ثم أودع السجن، فلما بلغ ذلك عبد الملك أرسل يعنف والي المدينة على ذلك ويأمره بإخراجه من الحبس، هذا كلامه.
وفي كلام البلاذري، وكان جابر بن الأسود عاملاً لابن الزبير على المدينة وهو الذي ضرب سعيد بن المسيب ستين سوطاً، إذ لم يبايع لابن الزبير، هذا كلامه. إلا أن يقال: لا مانع أن يكون سعيد فعل به الأمران لأن ولاية ابن الزبير سابقة على ولاية عبد الملك والد الوليد.
ثم رأيت الحافظ ابن كثير صرح بذلك حيث ذكر أن سعيد بن المسيب ضرب بالسياط المذكورة، وفعل به ما تقدم لما امتنع من المبايع لابن الزبير، وفعل به ذلك أيضاً لما امتنع من البيعة للوليد.
وفي طبقات الشيخ عبد الوهاب الشعراني رحمه الله تعالى في ترجمة سعيد بن المسيب: وضربه عبد الملك بن مروان حيث امتنع من مبايعته، وألبسه المسوح، ونهى الناس عن مجالسته، فكان كل من جلس إليه يقول له: قم لا تجالسني فإنهم قد جلدوني ومنعوا الناس عن مجالستي هذا كلامه، إلا أن يقال، المراد امتنع من قبول مبايعة عبد الملك لولده الوليد فلا مخالفة، وإنما امتنع سعيد بن المسيب من المبايع للوليد، لأنه روي عن النبي: «إنه سيكون في هذه الأمة رجل يقال له الوليد فهو شر لأمتي من فرعون لقومه» وفي رواية «هو أضر على أمتي من فرعون على قومه» زاد في رواية «يسد به ركن من أركان جهنم» وفي لفظ «زاوية من زوايا جهنم» فكان الناس يرون أنه الوليد بن عبد الملك. قال ابن كثير: وهو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، لا الوليد بن عبد الملك الذي هو عمه.

وكان سعيد بن المسيب أعبر الناس للرؤيا قال له رجل: رأيت كأنني أبول في يدي، فقال: تحتك ذات محرم، فنظر فإذا بينه وبين امرأته رضاعة. وأخذ سعيد تعبير الرؤيا عن أسماء بنت أبي بكر وهي أخذت ذلك عن والدها أبي بكر رضي الله تعالى عنهما. وعن سعيد أخذ ابن سيرين ذلك.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229
وعن ابن سيرين، كان أبو بكر أعبر هذه الأمة بعد النبي، وكان يعبر الرؤيا في زمنه وفي حضرته. وعن الزهري «رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم رؤيا

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

فقصها على أبي بكر. فقال: رأيت كأني استبقت أنا وأنت درجة فسبقتك بمرفقتين ونصف. قال: يا رسول الله يقبضك الله إلى مغفرة ورحمة، وأعيش بعدك سنتين ونصفاً» فكان كما عبر فقد عاش بعده سنتين وسبعة أشهر وقال له: «رأيتني أردفت غنماً سوداً ثم أردفتها غنماً بيضاً حتى ما ترى السود فيها، فقال أبو بكر: يا رسول الله أما الغنم السود فإن العرب يسلمون ويكثرون، والغنم البيض الأعاجم يسلمون حتى لا ترى العرب فيهم من كثرتهم. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كذلك عبرها الملك سحيراً». وسبب بناء عبد الله بن الزبير للكعبة أن يزيد بن معاوية لما وجه الجيش عشرين ألف فارس وسبعة آلاف راجل وأميرهم مسلم بن قتيبة لقتال أهل المدينة، لما علم أنهم خرجوا عن طاعته: أي وأظهروا شتمه وأعلنوا بأنه ليس له دين، لأنه اشتهر عنه نكاح المحارم وإدمان شرب الخمر وترك الصلاة وأنه يلعب بالكلاب: أي فقد ذكر بعض ثقات المؤرخين أنه كان له قرد يحضره مجلس شرابه ويطرح له وسادة ويسقيه فضلة كأسه، واتخذ له أتاناً وحشية قد ربيعت له وصنع لها سرجاً من ذهب يركب عليها ويسابق بها الخيل في بعض الأيام، وكان يلبس عليه قباء وقلنسوة من الحرير الأحمر.

وقد استفتى الكيا الهراسي من أكابر أئمتنا معاشر الشافعية، كان من رؤوس تلامذة إمام الحرميين نظير الغزالي عن يزيد هذا هل هو من الصحابة؟ وهل يجوز لعنه؟ فأجاب بأنه ليس من الصحابة لأنه ولد في أيام عمر بن الخطاب. وللإمام أحمد قولان: أي في لعنه تلويح وتصريح، وكذلك الإمام مالك وكذا لأبي حنيفة.

ولنا قول واحد التصريح دون التلويح، وكيف لا يكون كذلك، وهو اللاعب بالنرد والمصيد بالفهود ومدمن الخمر وشعره في الخمر معلوم، هذا كلامه. وسئل الغزالي هل من صرح بلعن يزيد يكون فاسقاً؟ وهل يجوز الترحم عليه؟ فأجاب بأن من لعنه يكون فاسقاً عاصياً، لأنه لا يجوز لعن المسلم، ولا يجوز لعن البهائم، فقد ورد النهي عن ذلك، وجرمة المسلم أعظم من حرمة الكعبة بنص النبي، ويزيد صح إسلامه وما صح أمره بقتل الحسين ولا رضاه بقتله، وما لم يصح منه ذلك لا يجوز أن يظن به ذلك، فإن إساءة الظن بالمسلم حرام، وإذا لم يعرف حقيقة الأمر وجب إحسان الظن به، ومع هذا فالقتل ليس بكفر بل هو معصية، وأما الترحم عليه فهو جائز بل هو مستحب، لأنه داخل في المؤمنين في قولنا في كل صلاة: اللهم اغفر للمؤمنين والمؤمنات، هذا كلامه. وكان على ما أفتى به الكيا الهراسي من جواز التصريح بلعنه استاذنا الأعظم الشيخ محمد البكري تبعاً لوالده الاستاذ الشيخ أبي الحسن.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وقد رأيت في كلام بعض أتباع أستاذنا المذكور في حق يزيد ما لفظه: زاده الله خزيماً وضعه، وفي أسفل سجين وضعه.

وفي كلام ابن الجوزي: أجاز العلماء الورعون لعنه، وصنف في إباحة لعنه مصنفاً.

وقال السعد التفتازاني: إنني لأشك في إسلامه، بل في إيمانه، فلعنة الله عليه وعلى أنصاره وأعوانه، وعلى هذا يكون مستثنى من عدم جواز لعن الكافر المعين بالشخص.

ولما خلعوا: أي أهل المدينة بيعة يزيد ولوا عليهم عبد الله بن حنظلة غسيل الملائكة وأخرجوا والي يزيد من المدينة وهو مروان بن الحكم وبنو أمية حتى قال بعضهم: ما خرجنا عليه حتى خفنا أن نرمى بحجارة من السماء، فكانت وقعة الحرة المشهورة التي كادت تبعد أهل المدينة عن آخرهم، قتل فيها الجم الكثير من الصحابة والتابعين. وقيل المقتول فيها من الصحابة ثلاثة: منهم عبد الله بن حنظلة، ونهبت المدينة، واقتض فيها ألف عذراء: أي ولم تقم الجماعة ولا الأذان في المسجد النبوي مدة المقاتلة وهي ثلاثة أيام.

وفي كلام بعضهم: ووقع من ذلك الجيش الذي وجهه يزيد للمدينة، من القتل، والفساد العظيم، والسبي، وإباحة المدينة، وقتل من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ومن التابعين خلق كثيرون. وكانت عدة المقتولين من قريش والأنصار ثلثمائة وستة رجال، ومن قراء القرآن نحو سبعمائة نفس.

وفي التنوير لابن دحية: وقتل من وجوه المهاجرين والأنصار ألف وسبعمائة، ومن حملة القرآن سبعمائة، وجالت الخيل في مسجد رسول الله، وراثت بين القبر الشريف والمنبر، واختفت أهل المدينة حتى دخلت الكلاب المسجد وبالت على منبره، ولم يرض أمير ذلك الجيش من أهل المدينة إلا بأن يباعوه ليزيد على أنهم خول: أي عبيد له إن شاء باع وإن شاء أعتق، حتى قال له بعض أهل المدينة: البيعة على كتاب الله وسنة رسوله فضرب عنقه.

وروى البخاري «أن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما لما أرفج أهل المدينة يزيد دعا بنيه ومواليه وقال لهم: إنا باعنا هذا الرجل على بيعة الله وبيعة رسوله، وإنه والله لا يبلغني عن أحد منكم أنه خلع يداً من طاعته إلا كان التنصل بيني وبينه ثم لزم بيته» ولزم أبو سعيد الخدري رضي الله تعالى عنه بيته أيضاً، فدخل عليه جمع من الجيش بيته، فقالوا: له: من أنت أيها الشيخ؟ فقال: أنا أبو سعيد الخدري صاحب رسول الله، فقالوا: سمعنا خبرك، ولنعم ما فعلت حين كفت يدك ولزمت بيتك، ولكن هات المال، فقال: قد أخذته الذين دخلوا قبلكم عليّ وما عندي شيء، فقالوا كذبت واتفوا لحيته.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وأما جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه، فخرج في يوم من تلك الأيام وهو أعمى يمشي في بعض أزقة المدينة، وصار يعثر في القتلى ويقول: تعس من أخاف رسول الله، فقال له قائل من الجيش: من أخاف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من أخاف المدينة فقد أخاف ما بين جنبي»، فحمل عليه جماعة من الجيش ليقتلوه، فأجاره منهم مروان وأدخله بيته.

قال السهيلي: وقتل في ذلك اليوم من وجوه المهاجرين والأنصار رضي الله تعالى عنهم ألف وسبعمائة، وقتل من أخلاط الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان.

فقد ذكر أن امرأة من الأنصار دخل عليها رجل من الجيش وهي ترضع صبيها وقد أخذ ما وجده عندها، ثم قال لها، هات الذهب وإلا قتلتك وقتلت ولدك، فقالت له: ويحك إن قتلته فأبوه أبو كبشة صاحب رسول الله صلى الله عليه

وسلم وأنا من النسوة اللاتي بايعن رسول الله ، فأخذ الصبي من حجرها وثديها في فمه وضرب به الحائط حتى انتثر دماغه في الأرض، فما خرج من البيت حتى اسودّ نصف وجهه وصار مثله في الناس.

قال السهيلي، وأحسب هذه المرأة جدة للصبي لا أمّاً له، إذ يبعد في العادة أن تباع امرأة وتكون يوم الحرة في سن من ترضع، أي ولداً صغيراً لها. ووقعة الحرة هذه من أعلام نبوته .
ففي الحديث «أنه وقف بهذه الحرة وقال: ليقتلنّ بهذا المكان رجال هم خيار أمتي بعد أصحابي».

وعن عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه أنه قال: لقد وجدت قصة هذه الوقعة في كتاب يهودا بن يعقوب الذي لم يدخله تبديل، وأنه يقتل فيها رجال صالحون، يحيئون يوم القيامة وسلاحهم على عواتقهم، وهذه الوقعة كانت سنة ثلاث وستين، ويقال كان يزيد أعذر أهل المدينة قبل هذه الوقعة فيما ذكره، وبذل لهم من العطاء أضعاف ما يعطي الناس، رغبة في استمالتهم إلى الطاعة، وتحذيرهم من الخلاف، ولكن يأبى الله إلا ما أراد.

وفي التنوير أن الله ابتلى أمير هذا الجيش الذي هو مسلم بن قتيبة بعد ثلاثة أيام من أخذه البيعة بمرض صار ينج منه كالكلب إلى أن مات، وولي أمر الجيش بعده الحصين بن نمير بأمر يزيد، فإنه وصى مسلم بن قتيبة لما ولاه إمرة الجيش وقال له: إذا أشرفت على الموت أي لأنه كان مريضاً بالاستسقاء فولّ أمر الجيش للحصين، وهذا الذي وقع من يزيد فيه تصديق لقوله: «لا يزال أمر أمتي قائماً بالقسط حتى يثلمه رجل من بني أمية يقال له يزيد».

وقد جاء عن سعيد بن المسيب رضي الله تعالى عنه: لقد رأيتني ليالي الحرة وما في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم غيري، وما يأتي وقت صلاة إلا سمعت الأذان والإقامة من القبر الشريف.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

ومما يؤثر عن سعيد بن المسيب: الدنيا نذلة تميل إلى الأندال، ومن استغنى بالله افتقر إليه الناس.

ومن جملة من خلع يزيد وقتل من الصحابة في تلك الوقعة مغفل بن سنان الأشجعي رضي الله تعالى عنه. روى علقمة عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه سئل عن رجل تزوج امرأة ولم يسم لها صداقاً ولم يدخل بها حتى مات، فقال ابن مسعود: لها مثل مهر نساءها لا وكس ولا شطط، وعليها العدة، ولها الميراث، فقام مغفل بن سنان وقال: «قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم في بروع بنت واشق امرأة منا مثل ما قضيت» ففرح ابن مسعود. وسبب مقاتلة عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما، لأنه امتنع من المبايعة ليزيد أيضاً هو والحسين رضي الله تعالى عنهما لما أرسل إليهما يطلب منهما المبايعة له، فامتنعا من ذلك وفرّا من المدينة إلى مكة.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

ثم لما قتل الحسين رضي الله تعالى عنه: أي لأن الحسين أرسل إليه أهل الكوفة أن يأتيهم لبياعوه، فأراد الذهاب إليهم فناه ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وبين له غدرهم، وقتلهم لأبيه، وخذلانهم لأخيه الحسن رضي الله تعالى عنه. ونهاه ابن عمر وابن الزبير رضي الله تعالى عنهم، فأبى إلا أن يذهب، فبكى ابن عباس رضي الله تعالى عنهما وقال: واحبيباه. وقال له ابن عمر: أستودعك الله من قتيل. وكان أخوه الحسن قال له: إياك وسفهاء الكوفة أن يستخفوك فيخرجوك ويسلموك فتندم ولات حين مناص، وقد تذكر ذلك ليلة قتله، فترحم على أخيه الحسن، ولم يبق بمكة إلا من حزن على مسيره، وقدم أمامه إلى الكوفة مسلم بن عقيل، فبايعه من أهل الكوفة للحسين اثنا عشر ألفاً، وقيل أكثر من ذلك. ولما شارف الكوفة جهز إليه أميرها من جانب يزيد وهو عبد الله بن زياد عشرين ألف مقاتل، وكان أكثرهم ممن بايع له لأجل السحت العاجل على الخير الآجل، فلما وصلوا إليه ورأى كثرة الجيش طلب منهم إحدى ثلاث، إما أن يرجع من حيث جاء، أو يذهب إلى بعض الثغور، أو يذهب إلى يزيد يفعل فيه ما أراد، فأبوا وطلبوا منه نزوله على حكم ابن زياد وبيعتة ليزيد فأبى، فقاتلوه إلى أن أثخنته الجراحة فسقط إلى الأرض، فحزوا رأسه وذلك يوم عاشوراء عام إحدى وستين، ووضع ذلك الرأس بين يدي عبد الله بن زياد، ولما جاء خبر قتل الحسين رضي الله تعالى عنه قام ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما في الناس يعظم قتل الحسين وجعل يظاهر يعيب يزيد، ويذكر شربه الخمر وغير ذلك، ويشط الناس عن بيعته. ويذكر مساوي بني أمية، وبطنب في ذلك. ولما بلغ يزيد ذلك أقسم أن لا يؤتى به إلا مغلولاً، فجاء إليه رجل من أهل الشام في خيل من خيل الشام، وتكلم مع ابن الزبير وعظم على ابن الزبير الفتنة وقال: لا يستحل الحرم بسببك، فإن يزيد غير تاركك ولا تقوى عليه، وأقسم أن لا يؤتى بك إلا مغلولاً، وقد عملت لك غلاً من فضة وتلبس فوقه

التياب وتبر قسم أمير المؤمنين، فالصلح خير عاقبة، وأجمل بك وبه، فقال له: أنظر في أمري، ثم دخل على أمه أسماء رضي الله تعالى عنها واستشارها فقالت: يا بني عش كريماً ومت كريماً ولا تمكن بني أمية من نفسك فتلعب بك، فامتنع وصار يبايع الناس سرّاً، ثم أظهر المبايعة، فاجتمع عليه أهل الحجاز ولحق به من انهزم من وقعة الحرة، فلما جاء الجيش إلى مكة حاصر عبد الله وضرب بالمنجنيق، نصبه على أبي قبيس قيل وعلى الأقرم وهم أخشبا بمكة فأصاب الكعبة من ناره ما حرق ثيابها وسقفها فإن الكعبة كانت في زمن قريش مبنية، مدماك من خشب الساج، ومدماك من حجارة كما تقدم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وذكر في الشرف أن الله تعالى بعث عليهم صاعقة بعد العصر، فأحرقت المنجنيق، وأحرقت تحته ثمانية عشر رجلاً من أهل الشام، ثم عملوا منجنيقاً آخر فنصبوه على أبي قبيس.

ويذكر أن النار لما أصابت الكعبة أتت بحيث يسمع أنينها كأنين المريض آه آه، وهذا من أعلام نبوته، فقد جاء إنذاره بتحريق الكعبة فعن ميمونة رضي الله تعالى عنها زوج النبي صلى الله عليه وسلم قالت: قال رسول الله: «كيف أنتم إذا مرج الدين، فظهرت الرغبة والرغبة، وحرقت البيت العتيق» وفي

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

العرائس: إن أول يوم تكلم الناس في القدر ذلك اليوم، فقيل إحراق الكعبة من قدر الله، وقيل ليس من قدر الله، والمتكلم بذلك حينئذ قيل أبو معبد الجهني، وقيل أبو الأسود الدؤلي، وقيل غير ذلك. وقوله أول يوم تكلم الناس في القدر، لعل المراد أول يوم اشتهر واستفيض فيه الكلام من الناس في القدر، فلا يخالف ما حكى أن شخصاً قال لعلي رضي الله تعالى عنه وهو بصفين: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن مسيرنا هذا؟ أكان بقضاء الله وقدره؟ فقال: نعم والذي خلق الحبة وبرأ النسمة، ما وطننا موطناً، ولا قطعنا وادياً، ولا علونا شرفاً إلا بقضائه وقدره.

والتكلم في القدر ليس من خصائص هذه الأمة، فقد تكلمت فيه الأمم قبلها، وفي الحديث «ما بعث الله نبياً إلا في أمته ذرية يشوشون عليه أمر أمته، ألا وإن الله تعالى قد لعن القدرية على لسان سبعين نبياً» وقد جاء في دم القدرية زيادة على ما تقدم منها «القدرية مجوس هذه الأمة، إن مرضوا فلا تعودوهم، وإن ماتوا فلا تشهدوهم» وجاء «اتقوا القدر فإنه شعبة من النصرانية» وجاء «أخاف على أمتي التكذيب بالقدر». وإنما كانت القدرية مجوس هذه الأمة، لأن طائفة من القدرية تقول يأتي الخير من الله والشر من العبد، وهؤلاء الطائفة أشبه بالمجوس القائلين بالأصلين النور والظلمة وأن الخير من النور والشر من الظلمة وهم المانوية، وإنما كان القدر شعبة من النصرانية، لأن أكثر القدرية على أنه ليس من أفعال العبد من خير أو شر ناشئاً عن إقدار الله تعالى له على ذلك، بل هو ناشيء عن قدرة العبد واختياره، فقد أثبتوا لله تعالى شريكاً، كما أن النصارى أثبتوا الشريك لله تعالى، فهذه الفرقة من القدرية أشبهت النصارى، فكان القدر شعبة من النصرانية بهذا الاعتبار، وقد أوضحت ذلك في تعليقي المسمى بـ (المصباح المنير على الجامع الصغير) وفيه «آخر الكلام على القدر لشرار أمتي في آخر الزمان» فإن الحق إسناد الفعل إلى الله تعالى إيجاداً وللعبد اكتساباً.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وقيل إن سبب بناء عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما للكعبة أن امرأة بخريتها قطارت شرارة فعلقت بثيابها فحصل ذلك، ولا مانع من التعدد. وقد وقع أيضاً احتراقها بتبخير المرأة في زمن قريش، ولا مانع من تعدد ذلك كما تقدم.

وعدّ بعضهم أن من البدع تجمير المسجد وأن مالكاً كرهه. وقد روي أن مولى عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه كان يجمر المسجد النبوي إذا جلس عمر رضي الله عنه على المنبر يخطب، ومع حرق الكعبة حرق قرنا الكبش الذي فدي به إسماعيل فإنهما كانا معلقين بالسقف. أقول: ولعل تعليقهما في السقف كان بعد تعليقهما في الميزاب. فقد ذكر بعضهم جاء الإسلام ورأس الكبش معلق بقرنه في ميزاب الكعبة، وبدل لتعليقهما في السقف ما جاء عن صفية بنت شيبة قالت لعثمان بن طلحة «لم دعاك النبي صلى الله عليه وسلم بعد خروجه من البيت؟ قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: إني رأيت قرني الكبش في البيت فنسيت أن أمرك

أن تخمرهما فخرهما فإنه لا ينبغي أن يكون في البيت شيء يشغل مصلياً». وذكر الجلال المحلي في قطعة التفسير أن الكبش المذكور هو الذي قرّبه هاويل جاء به جبريل، فذبحه السيد إبراهيم عليه الصلاة والسلام مكبراً: أي وحينئذ تكون النار التي أنزلت في زمن هاويل لم تأكله، بل رفعت إلى السماء، وحينئذ يكون قول بعضهم: فنزلت النار فأكلته على التسمح، ويدل لما ذكر الجلال ما جاء أنه قال لجبريل عليه الصلاة والسلام: «ما كان ذبح إبراهيم؟ أي مذبوحه، قال: الذي قرّب ابن آدم» قال بعضهم: وهذا الحديث لم يثبت. قيل ووصف بأنه عظيم، لأنه رعى في الجنة أربعين عاماً، وقيل كان الكبش اختراعاً اخترعه الله هناك في ذلك الوقت قال بعضهم: فقد فدي من الموت بصورة الموت وهذا كله بناء على أن الذي قرّبه هاويل كان كبشاً. وقيل كان جملاً سميناً، وعليه اقتصر القاضي. فليُنظر الجمع على تقدير صحة كل، وانصدع الحجر من تلك النار من ثلاثة أماكن، وعند محاصرة الجيش لعبد الله جاء الخبر بموت يزيد.

ويقال إن ابن الزبير علم بموت يزيد قبل أن يعلم الجيش وهم أهل الشام، فنادى فيهم يا أهل الشام قد أهلك الله طاعتكم يعني يزيد، فمن أحب منكم أن يدخل فيما دخل فيه الناس فعل، ومن أحب أن يرجع إلى شأنه فليفعل، فانفلج الجيش، وباع عبد الله بن الزبير جماعة بالخلافة، ودخلوا في طاعته ظاهراً.

ويقال إن أمير الجيش طلب من ابن الزبير أن يحدثه فخرج من الصفيين حتى اختلفت رؤوس فرسيهما وجعل فرس أمير الجيش ينفر ويكفها فقال له ابن الزبير: ما لك؟ فقال: إن حمام الحرم تحت رجليها فأكره أن أطأ حمام الحرم، فقال تفعل هذا، وأنت تقتل المسلمين فقال له: تأذن لنا أن نطوف بالكعبة ثم نرجع إلى بلادنا، فأذن لهم فطافوا، وقال له: إن كان هذا الرجل قد هلك فأنت أحق الناس بهذا الأمر يعني الخلافة فارحل معي إلى الشام، فوالله لا يختلف عليك اثنان، فلم يثق به ابن الزبير وأغلظ عليه القول، فكّر راجعاً وهو يقول: أعده بالملك وهو يعدني بالقتل. ومن ثم قيل: كان في ابن الزبير خلال لا تصلح معها الخلافة: منها سوء الخلق، وكثرة الخلاف. ودخل في طاعة ابن الزبير جميع أهل البلدان إلا الشام ومصر، فإن مروان بن الحكم تغلب عليهما بعد موت معاوية بن يزيد بن معاوية. فإن معاوية هذا مكث في الخلافة أربعين يوماً، وقيل عشرين يوماً بعد أن كان مروان عزم على أن يبايع لابن الزبير بدمشق.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وقد كان ابن الزبير لما ولي أخاه نائباً عنه بالمدينة أمره بإجلاء بني أمية وفيهم مروان وابنه عبد الملك إلى الشام، فلما أراد مروان أن يبايع ابن الزبير بدمشق ثنى عزمه عن ذلك جماعة، وقالوا له: أنت شيخ قريش وسيدها، وقد فعل معكم ابن الزبير ما فعل فأنت أحق بهذا الأمر، فوافقهم ومكث تسعة أشهر في الخلافة وهو الرابع من خلفاء بني أمية. وقام بالأمر بعده ولده عبد الملك،

وهو أول من سمي عبد الملك في الإسلام، ثم عهد عبد الملك لأولاده الأربعة من بعده: الوليد، ثم سليمان، ثم يزيد، ثم هشام. وادعى عمرو بن سعيد أن مروان عهد إليه بعد ابنه عبد الملك، فضايق عبد الملك بذلك ذرعاً، واستعجل أمر عمرو بدمشق، فلم يزل به عبد الملك حتى قتله. وفي كلام ابن ظفر أن عبد الملك لما خرج لمقاتلة عبد الله بن الزبير خرج معه عمرو بن سعيد، وقد انطوى علي دغل نية وفساد طوية وطماعيته في نقل الخلافة، فلما ساروا عن دمشق أياماً تمارض عمرو بن سعيد واستأذن عبد الملك في العودة إلى دمشق، فأذن له، فلما عاد ودخل دمشق صعّد المنبر وخطب خطبة نال فيها من عبد الملك، ودعا الناس إلى خلعه، فأجابوه إلى ذلك وبايعوه، فاستولى على دمشق وحصن سورها، وبذل الرغائب، وبلغ ذلك عبد الملك وهو متوجه إلى ابن الزبير، فأشير على عبد الملك أن يرجع إلى دمشق ويترك ابن الزبير، لأن ابن الزبير لم يعطه طاعة ولا وثب له على مملكة، فهو في صورة ظالم له، وقصده لعمرو بن سعيد في صورة مظلوم، لأنه نكث بيعته وخان أمانته، وأفسد رعيته، فرجع إلى دمشق فظفر بعمرو بن سعيد.

ويقال إن سبب بناء عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنه للكعبة أنه جاء سيل فطبقها فكان عبد الله رضي الله تعالى عنه يطوف سباحة: أي ولا مانع من وجود الأمرين الحرق والسيل، فلما رأى عبد الله ما وقع في الكعبة شاور من حضر ومن جملتهم عبد الله ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في هدمها، فهابوا هدمها وقالوا: نرى أن يصلح ما وهى ولا تهدم، فقال: لو أن بيت أحدكم أحرق لم يرض له إلا بأكمل إصلاح، ولا يكمل إصلاحها إلا بهدمها. وقد حدثته خالته عائشة رضي الله تعالى عنها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لها: «ألم تري قومك يعني قريشاً حين بنوا الكعبة اقتصروا عن قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين عجزت بهم النفقة، لولا حدثان قومك بالجاهلية - أي قرب عهدهم - بها» أي وفي لفظ «لولا الناس حديثو عهد بالجاهلية» أي قريب عهدهم بها. أي وفي لفظ «لولا الناس حديثو عهد بكفر وليس عندي من النفقة ما يقوى على بنائها لهدمتها وجعلت لها خلفاً» أي باباً «من خلفها» أي وفي لفظ «لجعلت لها باباً يدخل منه وياباً بحياته يخرج الناس منه» وفي لفظ «وجعلت لها بابين باباً شرقياً وباباً غربياً، وألصقت بابها بالأرض» أي كما كان عليه في زمن إبراهيم «ولأدخلت الحجر فيها» أي وفي رواية: «ولأدخلت نحو ستة أذرع» وفي رواية «سته أذرع وشيئاً» وفي رواية «وشبراً» وفي رواية «قريباً من سبعة أذرع» فقد اضطربت الروايات في القدر الذي أخرجته قريش. وفي لفظ «لأدخلت فيها ما أخرج منها» وفي لفظ «لجعلتها على أساس إبراهيم وأزيد» أي بأن أزيد في الكعبة من الحجر: أي ذلك ما أخرجته قريش خشية أن تنكر قلوبهم هدم بنائهم الذي يعدونه من أكمل شرفهم، فربما حصل لهم الارتداد عن الإسلام.

وقد ذكر بعضهم أن كل من بنى الكعبة بعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يبنها إلا على قواعد إبراهيم، غير أن قريشاً ضاقت بهم النفقة: أي الحلال الحديث، وهذا بناء على أن من بعد إبراهيم وقبل قريش بناها كلها وليس كذلك، بل الحاصل منهم إنما هو ترميم لها فقله لم يبنها إلا على قواعد إبراهيم ليس على ظاهره، بل المراد أنه أبقاها على ذلك.

قال: وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال لعبد الله: دع بناء وأحجاراً أسلم عليها المسلمون وبعث عليها النبي صلى الله عليه وسلم: أي فإنه يوشك أن يأتي بعدك من يهدمها فلا يزال يهدم ويبني، فيتهاون الناس بحرماتها ولكن ارفعها: أي رمها فقال عبد الله: إنني مستخير ربي ثلاثاً، ثم عازم على أمري، فلما مضى الثلاث أجمع أمره على أن ينقضها، فتحامها الناس وخشوا أن ينزل بأول الناس يقصدها أمر من السماء، حتى صعدها رجل فألقى منها حجارة فلم ير الناس أصابه شيء فتابعوه اهـ.

أي وقيل أول فاعل لذلك عبد الله بن الزبير نفسه رضي الله تعالى عنه وخرج ناس كثير من مكة إلى منى ومنهم ابن عباس رضي الله تعالى عنهما فأقاموا بها ثلاثاً مخافة أن يصيبهم عذاب شديد بسبب هدمها، وأمر ابن الزبير جماعة من الحبشة بهدمها رجاء أن يكون فيهم الذي أخبر به أنه يهدمها.

وفيه أن الذي أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأنه يهدمها ذكر صفته حيث قال: «كأنني أنظر إليه أسود أفحج ينقضها حجراً حجراً» وجاء في وصفه أنه مع كونه أفحج الساقين أزرق العينين، أفطس الأنف، كبير البطن، ووصف أيضاً «بأنه أصلع» وفي لفظ «أجلح» وهو من ذهب شعر مقدم رأسه، ووصف «بأنه أصعل» أي صغير الرأس/ «وبأنه أصمع» أي صغير الأذنين «معه أصحابه ينقضونها حجراً حجراً، ويتناولونها حتى يرموا بها إلى البحر».

أي وقوله «ويتناولونها حتى يرموا بها إلى البحر» لعله لم يثبت عند ابن الزبير وكذا تلك الأوصاف، وهدم الحبشة لها يكون بعد موت عيسى عليه الصلاة والسلام، ورفع القرآن من الصدور والمصاحف: أي وورد أن أول ما يرفع رؤيته في المنام والقرآن. وأول نعمة ترفع من الأرض العسل، وقيل يكون هدمها في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام.

وجمع بأنه يهدم بعضها في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام، فإذا جاءهم الصريخ هربوا فإذا مات عيسى عادوا وكملوا هدمها.

فهدمها عبد الله إلى أن انتهى الهدم إلى القواعد: أي التي هي الأساس. قال وفي رواية: كشف له عن أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام فوجده داخلًا في الحجر ستة أذرع وشيئاً، وأحجار ذلك الأساس كأنها أعناق الإبل، حجارة حمراء، أخذ بعضها في بعض مشبكة كتشبك الأصابع، وأصاب فيه قبر أم إسماعيل عليه الصلاة والسلام، وهذا ربما يدل على أنه لم يصب فيه قبر إسماعيل، وهو يؤيد القول بأن قبره في حيال الموضع الذي فيه الحجر الأسود، لا في الحجر كما ذكره الطبري، وأنه تحت البلاطة الخضراء التي بالحجر كما تقدم، فدعا عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما خمسين رجلاً من وجوه الناس وأشرفهم، وأشهدهم على ذلك الأساس، وأدخل عبد الله بن المطيع العدوي عتلة كانت بيده في ركن من أركان البيت فتزعزت الأركان كلها، فارتج جوانب البيت، ورجفت مكة بأسرها رجفة شديدة وطارت منه برقة فلم

يقع دار من دور مكة إلا دخلت فيها ففرعوا اهـ.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

أقول: تقدم في بناء قريش أنهم أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنمة آخذ بعضها ببعض وأن رجلاً أدخل عتلته بين حجرين منها فحصل نحو ما ذكر.

ويقال: لا مخالفة بين كون تلك الأحجار كانت خضراء وبين كونها حمراء، لأنه يجوز أن تكون حمرة تلك الأحجار ليست صافية، بل هي قريبة من السواد، ومن ثم وصفت: بأنها زرق كما تقدم والأسود يقال له أخضر، كما أن الأخضر غير الصافي يقال له أسود، والصافي يقال له أزرق والله أعلم.

وجعل عبد الله على تلك القواعد ستوراً فطاف الناس بتلك الستور حتى بني عليها، وارتفع البناء وزاد في ارتفاعها على ما كانت عليه في بناء قريش تسعة أذرع، فكانت سبعة وعشرين ذراعاً. زاد بعضهم وربع ذراع، وبنائها على مقتضى ما حدثته به خالته عائشة رضي الله تعالى عنها، فأدخل فيه الحجر: أي لأنه يجوز أن يكون إدخال الحجر هو الذي سمعه من عائشة فعمل به دون غير ذلك من الروايات المتقدمة الدال على أن الحجر ليس من البيت، وإنما منه ستة أذرع وشبر أو قريب من سبعة أذرع.

وفيه أن هذا أي قوله فأدخل فيه الحجر هو الموافق لما تقدم من أن قريشاً أخرجت منها الحجر، وهو واضح إن كان وجد الأساس خارجاً عن جميع الحجر. وأما إذا لم يكن خارجاً عن جميع الحجر كيف يتعداه ولا يبني عليه اعتماداً على ما حدثته به خالته عائشة رضي الله تعالى عنها. على أنه سيأتي عن نص حديث عائشة رضي الله تعالى عنها أنه قال لها: «فإن بدا لقومك من بعد أن بينوا فهلمي لأريك ما تركوا منه، فأراها قريباً من ستة أذرع» فليتأمل، وجعل لها خلفاً: أي باباً من خلفها وألصقه بالأس كالمقابل له.

قال: ولما ارتفع البناء إلى مكان الحجر الأسود وكان في وقت الهدم وجد مصدعاً بسبب الحريق كما تقدم، فشده بالفضة، ثم جعله في ديباجة، وأدخله في تابوت وأقبل عليه، وأدخله دار الندوة، فحين وصل البناء إلى محله أمر ابنه حمزة وشخصاً آخر أن يحمله ويضعاه محله وقال: إذا وضعتماه وفرغتما فكبرا حتى أسمعكما فأخفف صلاتي، فإنه صلى بالناس بالمسجد اغتناماً لشغلهم عن وضعه لما أحس منهم بالتناقض في ذلك: أي أن كل واحد يريد أن يضعه وخاف الخلاف، فلما كبر تسامع الناس بذلك، فغضب جماعة من قريش حيث لم يحضرهم.

وكون الحجر وجد مصدعاً بسبب الحريق، وكون ابن الزبير شده كذلك بالفضة لا ينافي ما وقع بعد ذلك من أن أبا سعيد كبير القرامطة وهم طائفة ملاحدة ظهروا بالكوفة سنة سبعين ومائتين، يزعمون أن لا غسل من الجنابة، وحل الخمر، وأنه لا صوم في السنة إلا يوم النيروز والمهرجان، ويزيدون في أذانهم، وأن محمد ابن الحنفية رسول الله وأن الحج والعمرة إلى بيت المقدس وافتنن بهم جماعة من الجهال وأهل البرازي، وقويت بشوكتهم حتى انقطع الحج من بغداد بسببه وسبب ولده أبي طاهر، فإن ولده أبا طاهر بنى داراً بالكوفة

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وسماها دار الهجرة، وكثر فسادها، واستيلاؤه على البلاد وقتله المسلمين وتمكنت هيبتة من القلوب، وكثرت أتباعه، وذهب إليه جيش الخليفة المقتدر بالله السادس عشر من خلفاء بني العباس غير ما مرة وهو يهزمهم.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

ثم إن المقتدر سير ركب الحاج إلى مكة فوافاهم أبو طاهر يوم التروية فقتل الحجيج بالمسجد الحرام وفي جوف الكعبة قتلاً ذريعاً، وألقى القتلى في بئر زمزم، وضرب الحجر الأسود بدبوسه فكسره، ثم اقتلعه وأخذه معه، وقلع باب الكعبة، ونزع كسوتها وشققها بين أصحابه، وهدم قبة زمزم وارتحل عن مكة بعد أن أقام بها أحد عشر يوماً ومعه الحجر الأسود، وبقي عند القرامطة أكثر من عشرين سنة: أي والناس يضعون أيديهم محله للتبرك، ودفع لهم فيه خمسون ألف دينار فأبوا حتى أعيد في خلافة المطيع، وهو الرابع والعشرون من خلفاء بني العباس، فأعيد الحجر إلى موضعه، وجعل له طوق فضة شدد زنته ثلاثة آلاف وسبعمائة وتسعون درهماً ونصف.
قال بعضهم: تأملت الحجر وهو مقلوع فإذا السواد في رأسه فقط وسائره أبيض، وطوله قدر عظم الذراع.
وبعد القرامطة في سنة ثلاث عشرة وأربعمائة قام رجل من الملاحدة وضرب الحجر الأسود ثلاث ضربات بدبوس فتشقق وجه الحجر من تلك الضربات، وتساقطت منه شظيات مثل الأظفار، وخرج مكسره أسمر يضرب إلى الصفرة محبباً مثل حب الخشخاش فجمع بنو شيبه ذلك الفتات وعجنوه بالمسك واللح وحنشوه في تلك الشقوق وطلوه بطلاء من ذلك، وجعل طول الباب أحد عشر ذراعاً والباب الآخر بإزائه كذلك.
فلما فرغ من بنائها خلقها من داخلها وخارجها بالخلوق أي الطيب والزعفران، وكساها القباطي: أي وهي ثياب بيض رقاق من كتان تتخذ بمصر.
وفي كلام بعضهم أول من كسا الكعبة الديباج عبد الله بن الزبير.
وأقول: وبناء عبد الله للكعبة من جملة أعلام النبوة لأنه من الإخبار بالمغيبات. ففي نص حديث عائشة رضي الله تعالى عنها «فإن بدا لقومك من بعدي أن يبنوه فهلمي لأريك ما تركوا منه، فأراها قريباً من ستة أذرع» وتقدم أن هذا يرد قول بعضهم: أن ابن الزبير أدخل في بنائه جميع الحجر.
قال بعضهم: وهذا منه تصريح بالإذن في أن يفعل ذلك بعده عند القدرة عليه والتمكن منه.

وقد قال المحب الطبري: وهذا الحديث يعني حديث عائشة رضي الله تعالى عنها يدل تصريحاً وتلويحاً على جواز التغيير في البيت إذا كان لمصلحة ضرورية أو حاجية أو مستحسنة.

قال الشهاب ابن حجر الهيتمي: ومن الواضح البين أن ما وهى وتشقق منها في حكم المنهدم أو المشرف على الانهدام فيجوز إصلاحه، بل يندب بل يجب هذا كلامه.

وفي شعبان سنة تسع وثلاثين وألف جاء سيل عظيم بعد صلاة العصر يوم

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

الخميس لعشرين من الشهر المذكور هدم معظم الكعبة، سقط به الجدار الشامي بوجهيه، وانحدر معه في الجدار الشرقي إلى حد الباب، ومن الجدار الغربي من الوجهين نحو السدس، وهدم أكثر بيوت مكة، وأغرق في المسجد جملة من الناس خصوصاً الأطفال، فإن الماء ارتفع إلى أن سد الأبواب.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وعند مجيء الخبر بذلك إلى مصر جمع متوليها الوزير محمد باشاه وهو الوزير الأعظم الآن: أي في سنة ثلاثة وأربعين وألف جمعاً من العلماء كنت من جملتهم، ووقعت الإشارة بالمبادرة للعمارة، وقد جعلت للوزير المذكور في ذلك رسالة لطيفة وقعت منه موقعاً كبيراً، وأعجب بها كثيراً، حتى أنه دفعها لمن عبر عنها باللغة التركية، وأرسل بها لحضرة مولانا السلطان مراد أعز الله أنصاره، وذكرت فيها أن الحق أن الكعبة لم تبني جميعها إلا ثلاث مرات المرة الأولى: بناء إبراهيم عليه الصلاة والسلام. والثانية: بناء قريش، وكان بينهما ألفاً سنة وسبعمئة سنة وخمس وسبعون سنة. والثالثة: بناء عبد الله بن الزبير: أي وكان بينهما نحو اثنتين وثمانين سنة: أي وأما بناء الملائكة وبناء آدم وبناء شيث لم يصح. وأما بناء جرهم والعمالقة وقصي فإنما كان ترميماً. ولم تبني بعد هدمها جميعها إلا مرتين: مرة زمن قريش، ومرة زمن عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنه.

وحينئذ يكون ما جاء في الحديث «استكثروا من الطواف بهذا البيت قبل أن يرفع، وقد هدم مرتين ويرفع في الثالثة» معناه قد يهدم مرتين ويرفع في الهدم الثالث من الدنيا.

وذكر الإمام البلقيني أن كون ابن الزبير أول من كسا الكعبة الديباج أشهر من القول بأن أول من كساها الديباج أم العباس بن عبد المطلب كما سيأتي. وجاز أن يكون عبد الله بن الزبير كساها أولاً القباطي ثم كساها الديباج، والله أعلم. وكان كسوتها: أي في زمن الجاهلية المسوح والأنطاع، فإن أول من كساها تبع الحميري، كساها الأنطاع ثم كساها الثياب الحميرية: أي وفي رواية كساها الوصائل: وهي برود حمر فيها خطوط خضر تعمل باليمن.

وفي كلام الإمام البلقيني: وبروي أن تبعاً اليماني لما كساها الخسف انتفضت فزال ذلك عنها فكساها المسوح والأنطاع فانتفضت، فزال ذلك عنها، فكساها الوصائل فقبلتها قال: والوصائل ثياب موصلة من ثياب اليمن. وفي الكشف: كان تبع الحميري مؤمناً، وكان قومه كافرين، ولذلك ذم الله قومه ولم يذمه.

وعن النبي: «لا تسبوا تبعاً فإنه كان قد أسلم» وعنه عليه الصلاة والسلام «ما أدري أكان تبع نبياً أو غير نبي».

هذا: وقد نقل الشمس الحموي في كتابه (المناهج الزهية، والمباهج المرضية) عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه كان نبياً. وقيل أول من كساها عدنان بن أدد، وكانت قريش تشترك في كسوة الكعبة حتى نشأ أبو ربيعة بن المغيرة فقال لقريش: أنا أكسو الكعبة سنة وحدي. وجميع قريش سنة: أي وقيل كان يخرج نصف كسوة الكعبة في كل سنة، ففعل ذلك إلى أن مات فسمته قريش العدل، لأنه عدل قريشاً وحده في كسوة الكعبة. ويقال لبنيه بنو العدل، وكانت كسوتها لا تنزع فكان كلما تجدد كسوة تجعل فوق، واستمر ذلك إلى زمنه، ثم

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

كساها النبي صلى الله عليه وسلم الثياب اليمانية.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وفي كلام بعضهم: أول من كسا الكعبة القباطي النبي ، وكساها أبو بكر وعمر
وعثمان القباطي.
وكساها معاوية الديباج والقباطي والحبرات، فكانت تكسى الديباج يوم
عاشوراء والقباطي في آخر رمضان، والاختصار على ذلك ربما يفيد أن عطف
الحبرات على القباطي من عطف التفسير، فليأمل.
وكساها المأمون الديباج الأحمر والديباج الأبيض والقباطي، فكانت تكسى
الأحمر يوم التروية، والقباطي يوم هلال رجب، والديباج الأبيض يوم سبع
وعشرين من رمضان قال بعضهم: وهكذا كانت تكسى في زمن المتوكل
العباسي، ثم في زمن الناصر العباسي كسيت السواد من الحرير، واستمر ذلك
إلى الآن في كل سنة، وكسوتها من غلة قرنتين يقال لهما بيسوس وسنديس
من قرى القاهرة، وقفهما على ذلك الملك الصالح إسماعيل بن الناصر محمد
بن قلاوون في سنة نيف وخمسين وسبعمئة: أي والآن زادت القرى على هاتين
القرتين.
والحاصل أن أول من كساها على الإطلاق تبع الحميري كما تقدم على الراجح،
وذلك قبل الإسلام بتسعمائة سنة.
قيل وسبب كسوة أم عمه لها الديباج أن العباس ضل وهو صبي فنذرت إن
وجدته لتكسون الكعبة فوجدته، فكست الكعبة الديباج: أي وكانت من بيت
مملكة.
وقيل أول من كساها الديباج عبد الملك بن مروان: أي وهو المراد بقول ابن
إسحاق أول من كساها الديباج الحجاج، لأن الحجاج كان من أمراء عبد الملك.
وقد سئل الإمام البلقيني هل تجوز كسوة الكعبة بالحرير المنسوج بالذهب،
ويجوز إظهارها في دوران المحمل الشريف؟ فأجاب بجواز ذلك. قال: لما فيه
من التعظيم لكسوتها الفاخرة التي ترجى بكسوتها الخلع السنينة في الدنيا
والآخرة. ويجوز إظهارها في دوران المحمل الشريف، فإن في ذلك المناسبة
للحال المنيف، هذا كلامه.
أي وأول من حلّى بابها بالذهب جده عبد المطلب، فإنه لما حفر بئر زمزم وجد
فيها الأسياف والغزالتين من الذهب، فضرب الأسياف باباً لها، وجعل في ذلك
الباب الغزالتين، فكان أول ذهب حلّيته الكعبة على ما تقدم.

وأول من ذهب الكعبة في الإسلام عبد الملك بن مروان. وقيل عبد الله بن
الزبير جعل على أساطينها صفائح الذهب، وجعل مفاتيحها من الذهب، وجعل
الوليد بن عبد الملك الذهب على الميزاب.
يقال إنه أرسل لعامله على مكة ستة وثلاثين ألف دينار يضرب منها على باب
الكعبة وعلى الميزاب وعلى الأساطين التي داخلها وعلى أركانها من داخل.
وذكر أن الأمين بن هارون الرشيد أرسل إلى عامله بمكة بثمانية عشر ألف
دينار ليضرب بها صفائح الذهب على بابي الكعبة، فقطع ما كان على الباب من

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

الصفائح وزاد عليها ذلك، وجعل مساميرها وحلقتي الباب والعتب من الذهب وإن أمّ المقتدر الخليفة العباسي أمرت غلامها لؤلؤاً أن يلبس جميع أسطوانات البيت ذهباً ففعل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وقال عبد الله بن الزبير لما فرغ من بنائها: من كان لي عليه طاعة فليخرج فليعتمر من التنعيم، ومن قدر أن ينحر بدنة فليفعل، فإن لم يقدر فشاة، ومن لم يقدر فليصدق بما تيسر وأخرج مائة بدنة، فلما طاف استلم الأركان الأربعة جميعاً، فلم تزل الكعبة على بناء عبد الله بن الزبير تستلم أركانها الأربعة: أي لأنها على قواعد إبراهيم عليه الصلاة والسلام، ويدخل إليها من باب ويخرج من باب، حتى قتل: أي قتله شخص من جيش الحجاج بحجر رماه به فوق بين عينيه فقتل وهو بالمسجد، لأن الحجاج كان أميراً على الجيش الذي أرسله عبد الملك بن مروان لقتاله.

وكتب عبد الملك بن مروان إلى الحجاج: أن اهدم ما زاده ابن الزبير فيها، أي يهدم البناء الذي جعله على آخر الزيادة التي أدخلها في الكعبة، وكانت قريش أخرجتها بدليل قوله وردّها إلى ما كانت عليه، وسد الباب الذي فتح: أي وأن يرفع الباب الأصلي إلى ما كان عليه زمن قريش، وأترك سائرها: أي لأنه اعتقد أن ابن الزبير فعل ذلك من تلقاء نفسه: فكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره بأن عبد الله بن الزبير وضع البناء على أسسٍ قد نظر إليه العدول من أهل مكة: أي وهم خمسون رجلاً من وجوه الناس وأشرفهم كما تقدم. فكتب إليه عبد الملك: لسنا من تخييط ابن الزبير في شيء، فنقض الحجاج ما أدخل من الحجر وسد الباب الثاني، أي الذي في ظهر الكعبة عند الركن اليماني، ونقص من الباب الأول خمسة أذرع: أي ورفعها إلى ما كان عليه في زمن قريش، فبنى تحته أربعة أذرع وشبراً، وبنى داخلها الدرجة الموجودة اليوم.

وفي لفظ أن الحجاج لما ظفر بابن الزبير كتب إلى عبد الملك بن مروان يخبره أن ابن الزبير زاد في الكعبة ما ليس فيها وأحدث فيها باباً آخر، واستأذن في ردّ ذلك على ما كانت عليه في الجاهلية. فكتب إليه عبد الملك أن يسد بابها الغربي ويهدم ما زاد فيها من الحجر، ففعل ذلك الحجاج، فسأثرها قبل وقوع هذا الهدم بالسيل الواقع في سنة تسع وثلاثين بعد الألف، وبنائه على بنيان ابن الزبير إلا الحجاب الذي يلي الحجر، فإنه من بنيان الحجاج: أي والبناء الذي تحت العتبة وهو أربعة أذرع وشبر، فإن باب الكعبة كان على عهد العماليق وجرهم وإبراهيم عليه الصلاة والسلام لاصقاً بالأرض حتى رفعته قريش كما تقدم، وما سد به الباب الغربي والردم كان بالحجارة التي كانت داخل أرض الكعبة، أي التي وضعها عبد الله بن الزبير: أي ولعله إنما وضع في ذلك المحل الحجارة التي تصلح للبناء، فلا ينافي ما أخبرني به بعض الثقات أن بعض بيوت مكة كان فيها بعض الحجارة التي أخرجت من الكعبة زمن عبد الله بن الزبير.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

ويقال إن ذلك البيت الذي كان فيه تلك الحجارة كان بيتاً لعبد الله بن الزبير

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

رضي الله تعالى عنه، وبناء الحجاج كان في السنة التي قتل فيها عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنه وهي سنة ثلاث وسبعين.

قيل ولما دخل عبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنه وهو محاصر، حاصره الحجاج خمسة أشهر وقيل سبعة أشهر وسبع عشرة ليلة على أمه أسماء رضي الله تعالى عنهما قبل قتله بعشرة أيام وهي شاكية: أي مريضة فقال لها: كيف تجدنيك يا أمه؟ قالت: ما أجدني إلا شاكية، فقال لها: إن في الموت لراحة فقالت: لعلك تبغيه لي ما أحب أن أموت حتى يأتي على أحد طرفيك: إما قتلت، وإما ظفرت بعدوك فقرت عيني. ولما كان اليوم الذي قتل فيه دخل عليها في المسجد، فقالت له: يا بني لا تقبلنّ منهم حطة تخاف فيها على نفسك، الذي تخافه القتل، فوالله لضربة بالسيف في عزّ خير من ضربة سوط في ذلك.

ويقال إن الناس لا زالوا ينتقلون عن ابن الزبير إلى الحجاج لطلب الأمان وهو يؤمنهم، حتى خرج إليه قريب من عشرة آلاف حتى كان من جملة من خرج إليه حمزة وخبیب ابنا عبد الله بن الزبير وأخذ لأنفسهما أماناً من الحجاج فأمنهما.

ودخل عبد الله على أمه فشكا إليها خذلان الناس له وخروجهم إلى الحجاج حتى أولاده وأهله، وأنه لم يبق معه إلا اليسير، والقوم يعطونني ما شئت من الدنيا، فما رأيك؟ فقالت: يا بني أنت أعلم بنفسك، إن كنت تعلم أنك على حق وتدعو إلى حق فاصبر عليه فقد قتل أصحابك عليه، ولا تمكن من رقيتك تلعب بها غلمان بني أمية، وإن كنت إنما أردت الدنيا فلبئس العبد أنت، أهلكك نفسك وأهلكك من قتل معك كم خلودك في الدنيا، فدنا منها وقبل رأسها وقال: والله ما ركنت إلى الدنيا، ولا أحببت الحياة فيها، وما دعاني إلى الخروج إلا الغضب لله أن تستحل حرمة.

وبعد أن قتل وصلب على الجذع فوق الثنية ومضت ثلاثة أيام جاءت أمه أسماء رضي الله تعالى عنها تقاد، لأن بصرها كان قد كف حتى وقفت عليه، فدعت له طويلاً ولم يقطر من عينها دمعة، وقالت للحجاج: أما إن لهذا الراكب أن ينزل، فقال لها الحجاج المنافق: رأيت كيف نصر الله الحق وأظهر أن ابنك ألد في هذا البيت، وقد قال تعالى: {ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم} وقد أذاقه الله ذلك العذاب الأليم.

وفي كلام سبط ابن الجوزي أن ابن الزبير لما قال لعثمان رضي الله تعالى عنه وهو محاصر إن عندي نجائب أعدتها لك فهل لك أن تنجو إلى مكة فإنهم لا يستحلونك بها، قال له عثمان: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يلحد رجل في الحرم من قريش أو بمكة يكون عليه نصف عذاب العالم، فلن أكون أنا».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وفي رواية قال له، لا لأنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يلحد بمكة كبش من قريش اسمه عبد الله عليه مثل نصف أوزار الناس» هذا

كلامه.

وعندي أن المراد بعبد الله الحجاج لا ابن الزبير. ولا مانع أن يكون الحجاج من قريش على أن الذي في الصواعق لابن حجر الهيثمي رحمه الله تعالى أن القائل لعثمان ذلك المغيرة بن شعبة.

ولما سمعت سيدتنا أسماء رضي الله تعالى عنها الحجاج يقول في ولدها المنافق، قالت له: كذبت، والله ما كان منافقاً، ولكنه كان صوّاماً قوّاماً براً كان أول مولود ولد في الإسلام بالمدينة، وسر به رسول الله صلى الله عليه وسلم وحنكه بيده، وكبر المسلمون يومئذ حتى ارتجت المدينة فرحاً به، كان عاملاً بكتاب الله، حافظاً لحرم الله، يبغض أن يعصى الله عز وجل، قال: انصرفي فإنك عجوز قد خرفت، قالت: والله ما خرفت ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يخرج من ثقيف كذاب ومبير» أما الكذاب فقد رأيناه تعني المختار بن أبي عبيد الثقفي والي العراق، فإنه لما قتل الحسين رضي الله تعالى عنه اتفق مع طائفة من الشيعة ممن كان خذل الحسين، ولما قتل ندموا على ذلك، فوافقوا المختار على مقاتلة من قتل الحسين من أهل الكوفة، فتوجهوا إليه وقتلوا جميع من قاتل الحسين وملكوا الكوفة وشكر الناس للمختار ذلك، ثم قالت: وأما المبير فانت المبير. ولما بلغ عبد الملك ما قاله الحجاج لأسماء كتب إليه يلومه على ذلك: أي ومن ثم أرسل إليها الحجاج، فأبت أن تأتيه، فأعاد إليها الرسول وقال: إما أن تأتيني أو لأبعثنَّ إليك من يسحبك بقرونك، فأبت وقالت: والله لا أتيك حتى تبعث إليّ من يسحبني بقروني فعند ذلك أخذ نعليه ومشى حتى دخل عليها، فقال: يا أمه إن أمير المؤمنين أوصاني بك، فهل لك من حاجة؟ فقالت: لست لك بأم ولكني أم المصلوب على رأس الثنية، وما لي من حاجة، ولكن انتظر حتى أحدثك ما سمعت من رسول الله، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يخرج من ثقيف كذاب ومبير» فأما الكذاب فقد رأيناه، وأما المبير فانت، فقال الحاج: مبير للمنافقين. ومن كذب المختار أنه ادعى النبوة وأنه يأتيه الوحي ويسر ذلك لأحبابه.

وفي دلائل النبوة للبيهقي عن بعضهم قال: كنت أقوم بالسيف على رأس المختار ابن أبي عبيد، فسمعت يوماً يقول: قام جبريل عن هذه النمرقة، وفي رواية من على هذا الكرسي، فأردت أن أضرب عنقه، فتذكرت حديثاً حدثته أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أمن الرجل الرجل على دمه ثم قتله رفع له لواء الغدر يوم القيامة» فكففت عنه، ولعل هذا مستند ما نقل عن كتاب الإملاء لإمامنا الشافعي رضي الله عنه من القول بأن المسلم يقتل بالمستأمن.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وقد كتب المختار للأحنف بن قيس وجماعته: وقد بلغني أنكم تسموني الكذاب وقد كذب الأنبياء من قبلي ولست بخير منهم. وقد كان يقع منه أمور تشبه الكهانة، منها أنه لما جهز جيشاً لقتال عبيد الله بن

زياد المجهز لمقاتلة الحسين رضي الله تعالى عنه كما تقدم قال لأصحابه في غد يأتي إليكم خبر النفير. وقتل ابن زياد فكان كما أخبر، وجيء برأس ابن زياد وألقيت بين يدي المختار وكان قتله يوم عاشوراء اليوم الذي قتل فيه الحسين. ثم قتل المختار، وكان قتل المختار على يد مصعب بن الزبير، جيء برأس المختار بين يدي مصعب لما ولي العراق من جانب أخيه لأبيه عبد الله بن الزبير.

ومما يؤثر عن مصعب: العجب من ابن آدم كيف يتكبر وقد جرى في مجرى البول مرتين، ثم قتل مصعب وقطعت رأسه ووضعت بين يدي عبد الملك بن مروان.

وعن بعضهم أنه حدّث عبد الملك فقال له: يا أمير المؤمنين دخلت القصر قصر الإمارة بالكوفة فإذا رأس الحسين على ترس بين يديه عبيد الله بن زياد وعبيد الله بن زياد على السرير. ثم دخلت القصر بعد ذلك بحين فرأيت رأس عبيد الله بن زياد على ترس بين يدي المختار والمختار على السرير. ثم دخلت القصر بعد ذلك بحين فرأيت رأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير ومصعب بن الزبير على السرير. ثم دخلت بعد ذلك بحين فرأيت رأس مصعب بن الزبير بين يديك وأنت على السرير، فقال عبد الملك لا أراك الله الخامسة ثم أمر بهدم ذلك القصر.

وعن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه أن أبا الحجاج لما دخل بأمر الحجاج وأقعها، فنام فرأى قائلاً يقول له في المنام: ما أسرع ما أنجيت بالمير. وفي كلام سبط ابن الجوزي أن أم الحجاج كانت قبل أبيه مع المغيرة بن شعبة فطلقها بسبب أنه دخل عليها يوماً فوجدها تتخلل حين انقلبت من صلاة الصبح، فقال لها: إن كنت تتخللين من طعام البارحة إنك لقدرة، وإن كان من طعام اليوم إنك لنهمة، كنت فبنت، قالت: والله ما فرحنا إذ كنا، ولا أسفنا إذ بنا، ولا هو شيء مما ظننت، ولكنني استكتت فأردت أن أتخلل من السواك، فندم المغيرة على طلاقها، فخرج فلقى يوسف بن أبي عقيل والد الحجاج، فقال له: هل لك إلى شيء أدعوك إليه؟ قال: وما ذاك؟ قال: إني نزلت عن سيدة نساء ثقيف وهي الفارعة، فتزوجها تنجب لك، فتزوجها فولدت له الحجاج. وفي حياة الحيوان إنها كانت قبل أبي الحجاج عند أمية بن أبي الصلت، هذا كلامه.

وقد يقال لا مانع أنها تزوجت الثلاثة وإن تزوجها لأمية كان قبل المغيرة، وكونها سيدة نساء ثقيف يبعد القول بأنها المتمنية التي مر بها سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه وهي تنشد:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

هل من سبيل إلى خمر فأشربها الأبيات وأنه كان يعير بها فيقال له ابن المتمنية.

وفي مدة صلب عبد الله بن الزبير صارت أمه تقول: اللهم لا تمنني حتى تفر عيني بجثته. وذهب أخوه عروة بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان يسأل في

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

إنزاله عن الخشبة فأجابه وأنزله، قال غاسله: كنا لا نتناول عضواً من أعضائه إلا جاء معنا، فكنا نغسل العضو ونضعه في أكفانه، وقامت فصلت عليه أمه وماتت بعده بجمعة، ذكر ذلك في الاستيعاب، وقيل بعده بمائة يوم. قال الحافظ ابن كثير وهو المشهور. وبلغت من العمر مائة سنة، ولم يسقط لها سنٌّ، ولم ينكر لها عقل. وقتل مع ابن الزبير مائتان وأربعون رجلاً، منهم من سال دمه في جوف الكعبة. وكان من جملة من قتل عبد الله بن صفوان بن أمية الجمحي. قتل يوم قتل ابن الزبير وقطع رأسه، وبعث الحجاج برأسه ورأس ابن الزبير إلى المدينة فنصبوهما وصاروا يقربون رأس عبد الله بن صفوان إلى رأس ابن الزبير كأنه يساره يلعبون بذلك، ثم بعثوا بهما إلى عبد الملك بن مروان.

ولما وضعت رأس عبد الله بن الزبير بين يدي عبد الملك سجد وقال: واللّه كان أحبّ الناس إليّ وأشدهم إليّ إلغاً ومودة، ولكن الملك عقيم: أي فإن الرجل يقتل ابنه أو أخاه على الملك فإذا فعل ذلك انقطعت بينهما الرحم، وستأتي مدحة عبد الملك لعبد الله بن الزبير، وتويخ أمير الجيش الذي أرسله يزيد لمقاتلته.

وقد كان ابن الزبير قال لعبد الله بن صفوان: إني قد أقتك بيعتي، فاذهب حيث شئت، فقال: إنما أقاتل عن ديني، وكان سيداً شريفاً مطاعاً حليماً كريماً قتل وهو متعلق بأستار الكعبة. وحينئذ يشكل كونه حرماً آمناً.

ومما يدل لما تقدم من أن عبد الله بن الزبير كان عنده سوء خلق، ما حكى أنه جاء إليه شخص فقال له: إن الناس على باب عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما يطلبون العلم وإن الناس على باب أخيه عبيد الله يطلبون الطعام، فأحدهما يفقه الناس، والآخر يطعم الناس، فما أبقيا لك مكرمة، فدعا شخصاً وقال له: انطلق إلى ابني العباس رضي الله تعالى عنهم وقل لهما: يقول لكما أمير المؤمنين اخرجني وإلا فعلت وفعلت، فخرجا إلى الطائف: أي وقيل ما خرج عبد الله من مكة إلى الطائف إلا لأن الله تعالى يقول: {ومن يرد فيه بالحاد بظلم نذقه من عذاب أليم}.}

فقد قال الشيخ محيي الدين بن العربي: اعلم أن الله تعالى قد عفا عن جميع الخواطر التي لا تستقر عندنا إلا بمكة، لأن الشرع قد ورد أن الله يؤاخذ فيه من يرد فيه بالحاد بظلم، وكان هذا سبب سكنى عبد الله بن عباس بالطائف احتياطاً لنفسه، لأنه ليس في قدرة الإنسان أن يدفع عن قلبه الخواطر.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

قال بعضهم: كان يقال من أراد الفقه والجمال والسخاء فليأت دار العباس، الجمال للفضل، والسخاء لعبيد الله، والفقه لعبد الله.

قال: ولما حج عبد الملك: أي وذلك في سنة خمس وسبعين قال له الحارث: أنا أشهد لابن الزبير بالحديث الذي سمعه من خالته عائشة رضي الله تعالى عنها قال: أنت سمعته منها؟ قال نعم، فجعل ينكت، بالمثناة فوق، بقضيب كان في يده الأرض ساعة، ثم قال: وددت أني كنت تركته يعني ابن الزبير وما تحمل.

وفي رواية أن عبد الملك كتب إلى الحجاج وددت أنك تركت ابن الزبير وما تحمل وهذا هو الموافق لما في تاريخ الأزرقى أن الحرث وفد على عبد الملك بن مروان في خلافته فقال له عبد الملك: ما أظن أبا خبيب يعني ابن الزبير سمع من عائشة رضي الله تعالى عنها ما كان يزعم أنه سمع منها في بناء الكعبة. قال الحرث: أنا سمعته منها، قال عبد الملك: أنت سمعته منها؟ الحديث وكون عائشة حدثت ابن الزبير بما ذكر لا ينافي ما في تاريخ ابن كثير عن بعضهم.

قال سمعت ابن الزبير رضي الله تعالى عنهما يقول: حدثتني أمي أسماء بنت أبي بكر رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعائشة: «لولا قرب عهد قومك بالكفر لرددت الكعبة على أساس إبراهيم عليه الصلاة والسلام» الحديث، وفي رواية «أن عائشة رضي الله تعالى عنها نذرت إن فتح الله مكة على رسول الله صلى الله عليه وسلم تصلي في البيت ركعتين، فلما فتحت مكة، أي وحج رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع فسألت النبي صلى الله عليه وسلم أن يفتح لها باب الكعبة ليلاً، ف جاء عثمان بن طلحة بالمفتاح إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله إنها لم تفتح ليلاً قط، قال فلا تفتحها ثم أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بيدها وأدخلها الحجر وقال: صلي ههنا، فإن الحطيم» أي الحجر «من البيت إلا أن قومك قصرت بهم النفقة» أي الحلال «فأخرجوه من البيت، ولولا حدثان قومك بالجاهلية لنقضت بناء الكعبة، وأظهرت قواعد الخليل، وأدخلت الحطيم في البيت وألصقت العتبة على الأرض، ولئن عشت إلى قابل لأفعلن ذلك» ولم يعيش عليه الصلاة والسلام ولم تتفرغ الخلفاء لذلك. وبما ذكر يعلم ما في قول الأصل فهدمها: أي عبد الملك وبنائها على ما كانت عليه في عهد رسول الله . وقد علمت أن الحجاج لم يبن إلا الحجاب الذي يليه الحجر، والبناء الذي تحت العتبة والدرجة التي في باطنها.

وأما التراب الذي جعل في باطنها، فيحتمل أن يكون هو التراب الذي أخرجه عبد الله بن الزبير استمر باقياً فأعادته الحجاج، ويحتمل أنه غيره، ولم أف على بيان ذلك في كلام أحد.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

والشاذروان الذي أخرجه عبد الله بن الزبير من عرض الأساس الذي بنته قريش لأجل مصلحة استمساك البناء وثباته. ومن العجب ما حدث به بعضهم قال: كنت أميراً على الجيش الذي بعث به يزيد ابن معاوية إلى عبد الله بن الزبير بمكة، فدخلت مسجد المدينة، فجلست بجانب عبد الملك بن مروان، فقال لي عبد الملك: أنت أمير هذا الجيش؟ قلت نعم، قال ثكلتك أمك، أتدري إلى من تسير؟ تسير إلى أول مولود ولد في الإسلام: أي بالمدينة من أولاد المهاجرين، وإلى ابن حواري رسول الله ، وإلى ابن ذات النطاقين يعني أسماء، وإلى من حنكه رسول الله ، أما والله إن جنته نهاراً وجدته صائماً، وإن جنته ليلاً وجدته قائماً، فلو أن أهل الأرض أطبقوا على قتله لأكبهم الله في النار جميعاً، فلما صارت الخلافة إلى عبد الملك وجهنا مع الحجاج حتى قتلناه.

وذكر بعضهم أن عبد الملك بن مروان لما رأى جيش يزيد متوجهاً إلى مكة قال: أعوذ بالله أبعث الجيش إلى حرم الله، فضرب منكبه شخص كان يهودياً وأسلم وكان يقرأ الكتب وقال له: جيشك إليه أعظم. ويقال إن هذا اليهودي مرّ على دار مروان والد عبد الملك هذا، فقال: ويل لأمة محمد من أهل هذه الدار: أي لأن مروان كان سبباً لقتل عثمان، وعبد الملك ابنه كان سبباً لقتل عبد الله بن الزبير، ووقع من الوليد بن يزيد بن عبد الملك الأمور الفظيعة.

وسبب ولاية الحجاج على الجيش أنه قال لعبد الملك بن مروان: رأيت في منامي أني أخذت عبد الله بن الزبير فسلخته فولني قتاله فولاه، فأرسله في جيش كثيف من أهل الشام، فحضر ابن الزبير ورمى الكعبة بالمنجنيق. ولما رمي به أرعدت السماء وأبرقت فخاف أهل الشام، فصاح الحجاج: هذه صواعق تهامة وأنا ابنها، ثم قام ورمى المنجنيق بنفسه فزاد ذلك، ولم تزل صاعقة تتبعها أخرى حتى قتلت اثني عشر رجلاً فخاف أهل الشام زيادة. قال بعضهم: ولا زال الحجاج يحضهم على الرمي بالمنجنيق، ولم تزل الكعبة ترمى بالمنجنيق حتى هدمت وحرقت أستارها حتى صارت كالفحم. أي وفيه أنه لو كانت هدمت أو حرقت لأعيد بناؤها أو أصلحت بالترميم، ولو وقع ذلك لنقل، لأنه مما تتوفر الدواعي على نقله، ولعل هذا اشتبه على بعض الرواة، ظن أن الذي وقع من جيش يزيد واقع من الحجاج. فإن قيل هلا أهلك الله من نصب المنجنيق على الكعبة كما أهلك أبرهة؟ قلنا لأن من نصب المنجنيق لم يرد هدم الكعبة، بخلاف أبرهة كما تقدم. وفيه أنه قد يشكل كونه حرماً آمناً.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه قال حين وقع بينه وبين ابن الزبير: أي وأمره بأن يخرج إلى الطائف ويهدده على ما تقدم، قلت أبوه الزبير، وأمه أسماء، وخالته عائشة، وجده أبو بكر، وجدته صفية. وفي رواية عنه أنه قال: أما أبوه فحواري رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الزبير، وأما جده فصاحب الغار يريد أبا بكر، وأما أمه فذات النطاقين يريد أسماء، وأما خالته فأم المؤمنين يريد عائشة، وأما عمته فزوج النبي صلى الله عليه وسلم يريد خديجة، وأما عمه النبي صلى الله عليه وسلم فجدته يريد صفية، ثم عفيف في الإسلام، وقارىء للقرآن.

ولما قتل عبد الله بن الزبير ارتجت مكة باليكاء، فجمع الحجاج الناس وخطبهم وقال في خطبته: ألا إن ابن الزبير كان من أ خيار هذه الأمة إلا أنه نازع الحق أهله، إن الله خلق آدم بيده ونفخ فيه من روحه وأسكنه جنته، فلما أخطأ أخرجه من الجنة بخطيئته وادم أكرم على الله من ابن الزبير، والجنة أعظم حرمة من الكعبة اذكروا الله يذكركم.

ومن أعلام نبوته ما روي «أن عبد الله بن الزبير لما ولد نظر إليه رسول الله ، فقال: هو هو، فلما سمعت بذلك أمه أمسكت عن إرضاعه، فقال لها النبي

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

صلى الله عليه وسلم أرضعته ولو بماء عينيك، كبش بين ذئب وذئاب عليها ثياب، ليمنعن البيت أو ليقتلن دونه». وفي حياة الحيوان: العرب إذا أرادوا مدح الإنسان قالوا كبش، وإذا أرادوا ذمه قالوا تيس، ومن ثم قال في المحلل: «التيس المستعار». ويقال إن الحجاج بعد قتل ابن الزبير ذهب إلى المدينة وعلى وجهه لثام، فرأى شيخاً خارجاً من المدينة فسأله عن حال أهل المدينة، فقال شرّ حال، قتل ابن حواري رسول الله، قال: من قتله؟ قال: الفاجر اللعين الحجاج عليه لعائن الله ورسله، من قليل المراقبة لله، فغضب الحجاج غضباً شديداً، ثم قال: أيها الشيخ أتعرف الحجاج إذا رأيته؟ قال نعم ولا عرّفه الله خيراً، ولا وقاه ضيراً، فكشف الحجاج اللثام عن وجهه وقال: ستعلم الآن إذا سال دمك الساعة، فلما تحقق الشيخ أنه الحجاج قال: إن هذا لهو العجب يا حجاج، أنا فلان أصرع من الجنون في كل يوم خمس مرات، فقال الحجاج: اذهب لا شفى الله الأبعد من جنونه ولا عافاه، وخلوص هذا من يد الحجاج من العجب، لأن إقدامه على القتل ومبادرته إليه أمر لم ينقل مثله عن أحد.

وكان يخبر عن نفسه ويقول: إن أكبر لذاته سفك الدماء. قال بعضهم: والأصل في ذلك أنه لما ولد لم يقبل ثدياً فتصوّر لهم إبليس في صورة الحرث بن كلدة طبيب العرب، وقال: اذبحوا له تيساً أسود، وألقوه من دمه، واطلوا به وجهه، ففعلوا به ذلك فقبل ثدي أمه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وذكر أنه أتى إليه بامرأة من الخوارج، فجعل يكلمها وهي لا تنظر إليه ولا ترد عليه كلاماً، فقال لها بعض أعوانه: يكلمك الأمير وأنت معرضة، فقالت: إني أستحيي أن أنظر إلى من لا ينظر الله إليه، فأمر بها فقتلت. وقد أحصي الذي قتل بين يديه صبراً فبلغ مائة ألف وعشرين ألفاً. ولما عزي سيدتنا أسماء عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهم، وأمرها بالصبر قالت: وما يمنعني من الصبر وقد أهدي رأس يحيى بن زكريا إلى بغي من بغايا بني إسرائيل، وقد جاء أن هذه البغي أول من يدخل النار. ويقال إن عبد الله بن الزبير قال لأمه يوم قتل: يا أمه إني مقتول من يومي هذا، فلا يشدد حزنك، وسلمي الأمر لله، فإن ابنك لم يعمد لإتيان منكرو ولا عمل فاحشة.

وفي كون عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما تأخر موته عن ابن الزبير نظر، فقد قيل: إن عبد الله بن عمر مات قبل ابن الزبير بثلاثة أشهر. وسبب موته أن الحجاج سفه عليه، فقال له عبد الله: إنك سفيه مسلط فغيره ذلك عليه، فأمر الحجاج شخصاً أن يسمّ زجّ رمحه ويضعه على رجل عبد الله، ففعل به ذلك في الطواف، فمرض من ذلك أياماً ومات. ويذكر أن الحجاج دخل ليعوده فسأله عمّن فعل به ذلك وقال له: قتلني الله إن لم أقتله، فقال له عبد الله: لست بقاتل له، قال ولم؟ قال: لأنك الذي أمرته.

وقول عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما للحجاج إنك سفيه مسلط، يشير إلى قول أبيه عمر رضي الله تعالى عنهما، فإنه لما بلغه أن أهل العراق حصبوا أميرهم: أي رجموه بالحجارة خرج غضبان فصلى فسها في صلاته، فلما سلم قال: اللهم إنهم قد لبسوا عليّ، فألبس عليهم، وعجل عليهم بالغلام الثقفي يحكم فيهم بحكم الجاهلية، لا يقبل من محسنهم، ولا يتجاوز عن مسيئهم، وكان ذلك قبل أن يولد الحجاج.

ثم رأيت في تاريخ ابن كثير: لما مات ابن الزبير واستقر الأمر لعبد الملك بن مروان بايعه عبد الله بن عمر. ويوافق ما في الدلائل للبيهقي أن ابن عمر وقف على ابن الزبير وهو مصلوب وقال: السلام عليك أبا خبيب، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله لقد كنت أنهاك عن هذا، أما والله إن كنت ما علمت صواماً قواماً وصولاً للرحم.

ويذكر أنه كان لعبد الله بن الزبير رضي الله تعالى عنهما مائة غلام لكل غلام منهم لغة لا يشاركه غيره فيها، وكان يكلم كل واحد منهم بلغته، وهذا أغرب مما استغرب، وهو أن ترجمان الواثق بالله من خلفاء بني العباس كان عارفاً باللسن كثيرة، حتى قيل إنه يعرف أربعين لغة، ويماري فيها.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وقد قال الحجاج لعروة بن الزبير يوماً في كلام جرى بينهما: لا أم لك، فقال: إليّ تقول هذا وأنا ابن عجائز الجنة؟ يعني جدته صفة وعمته خديجة وخالته عائشة وأمه أسماء.

وقال الحجاج يوماً لشخص: ما تقول في عبد الملك بن مروان؟ فقال الرجل: ما أقول في رجل أنت سيئة من سيئاته.

وقد أطلق سليمان بن عبد الملك لما ولي الخلافة من سجن الحجاج سبعين ألفاً قد حبسهم للقتل ليس لواحد منهم ذنب يستوجب به الحبس فضلاً عن القتل.

وذكر أنه كان يحبس الرجال مع النساء، ولم يكن لحبسه بيوت أخلية، فكان الرجل يبول بجانب المرأة والمرأة تبول بجانب الرجل، فتبدو العورات، وكان كل عشرة في سلسلة، ويطعمهم خبز الدخن مخلوطاً بالملح والرماد. ومر يوم جمعة فسمع استغاثة، فقال: ما هذا؟ فقيل له أهل السجن يقولون قتلنا الحر، فقال: قولوا لهم اخسؤوا فيها ولا تكلمون، فما عاش بعد ذلك إلا أقل من جمعة.

وآخر من قتله الحجاج من التابعين سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه، ولم يقتل بعد ابن جبير إلا رجلاً واحداً.

وقال عمر بن عبد العزيز: لو جاءت كل أمة بفرعونها وجناتها بالحجاج لغلبناهم. وقال سليمان بن عبد الملك لرجل من أخصاء الحجاج بعد موت الحجاج: أبلغ الحجاج قعر جهنم؟ فقال: يا أمير المؤمنين يجيء الحجاج يوم القيامة بين أبيك عبد الملك، وبين أخيك الوليد بن عبد الملك، فضعه في النار حيث شئت.

ومن غريب الاتفاق ما حكاه بعضهم، قال: مات رجل، فلما وضع على مغتسله استوى قاعداً وقال: نظرت بعيني هاتين - وأهوى بيديه إلى عينيه - الحجاج وعبد الملك في النار يسحبان بأمعائهما ثم عاد ميتاً كما كان.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

والحجاج متأصل في الظلم. فقد رأيت بعضهم حكى أنه يقال في المثل: أظلم من ابن الجليدي، وهو المشار إليه بقوله تعالى: {وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصبا} وإنه من أجداد الحجاج، بينه وبينه سبعون جداً. واستحلف الحجاج رجلاً في أمر فقال: لا والذي أنت في يديه غداً أذل مني بين يديك اليوم، فقال: والله إنني يومئذ لذليل. وأول من ضرب الدراهم في الإسلام الحجاج بأمر عبد الملك بن مروان، وكتب عليها: {قل هو الله أحد الله الصمد} أي على أحد وجهي الدراهم {قل هو الله أحد} وعلى وجهه الثاني {الله الصمد}.

ولم توجد الدراهم الإسلامية إلا في زمن عبد الملك بن مروان، وكانت الدراهم قبل ذلك رومية وكسروية. وفي زمن الخليفة المستنصر بالله وهو السابع والثلاثون من خلفاء بني العباس ضرب دراهم وسماها النقرة، وكانت كل عشرة دينار، وذلك في سنة أربع وعشرين وستمائة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229
ولما دخل سليمان بن عبد الملك المدينة سأل هل بالمدينة أحد أدرك أحداً من أصحاب رسول الله؟ فقالوا: أبو حازم، فأرسل إليه، فلما دخل عليه سأله فقال: يا أبا حازم ما لنا نكره الموت؟ فقال: لأنكم أخرجتم أخرجتم وعمرتم دنياكم، فكرهتم أن تنقلوا من عمران إلى خراب، فقال له: وكيف القدوم على الله؟ قال: أما المحسن فكغائب يقدم على أهله، وأما المسيء فكأبى يقدم على مولاه، فبكى سليمان وقال: يا ليت شعري، ما لنا عند الله؟ قال: اعرض عملك على كتاب الله تعالى، فقال: في أي مكان أجده؟ فقال: في قوله تعالى: {إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم} قال سليمان: فإين رحمة الله؟ قال: قريب من المحسنين، قال: فأين عباد الله أكرم؟ قال: أولوا المروءة.

وجاء أعرابي إلى سليمان بن عبد الملك هذا، فقال: يا أمير المؤمنين إنني أكلمك بكلام فاحتمله، فإن وراءه إن قبلته ما تحب. فقال سليمان: هاته يا أعرابي، فقال الأعرابي: إنني طلق لساني بما خرست عنه الألسن تأدية لحق الله. إنه قد اكتنفتك رجال قد أساؤوا الاختيار لأنفسهم، وابتاعوا دنياك بدنيهم، ورضاك بسخط ربهم، وخافوك في الله، ولم يخافوا الله فيك، فهم حرب للآخرة وسلم للدنيا، فلا تأمنهم على ما استخلفك الله عليه، فإنهم لن يبالوا بالأمانة، وأنت مسؤول عما اجترموا فلا تصلح دنياهم بفساد آخرتك، فإن أعظم الناس عند الله عيباً من باع آخرته بدنيا غيره، فقال له سليمان: أنت ما أنت بأعرابي، فقد سللت لسانك وهو سيفك، قال: أجل يا أمير المؤمنين لك لا عليك.

ولما حج بالناس قال لولد عمه وولى عهده عمر بن عبد العزيز: ألا ترى هذا الخلق، الذي لا يحصي عددهم إلا الله تعالى، ولا يسع رزقهم غيره؟ فقال: يا أمير المؤمنين هؤلاء رعيتك اليوم، وهم غداً خصماؤك عند الله، فبكى سليمان بكاء شديداً، ثم قال: بالله أستعين، وقال يوماً لعمر بن عبد العزيز رضي الله

تعالى عنه حين أعجبه ما صار إليه من الملك: يا عمر كيف ترى ما نحن فيه؟ فقال: يا أمير المؤمنين هذا سرور لولا أنه غرور، ونعيم لولا أنه عديم، ومملك لولا أنه هلك، وفرح لو لم يعقبه ترح، ولذات لو لم تقترن ياقات، وكرامة لو صحبتها سلامة، فبكى سليمان رحمه الله حتى أخضلت دموعه لحيته.

وولاية عمر بن عبد العزيز بشر بها جده لأمه عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه. فعنه رضي الله تعالى عنه أنه قال: إن من ولدي رجلاً بوجهه شين. وفي رواية: علامة، يملأ الأرض عدلاً، فكان ولده عبد الله يقول كثيراً: ليت شعري من هذا الذي من ولد عمر بن الخطاب في وجهه علامة يملأ الأرض عدلاً. وفي رواية عنه كان يقول: يا عجباً يزعم الناس أن الدنيا لا تنقضي حتى يلي رجل من آل عمر يعمل بمثل عمل عمر. قال بعضهم: فإذا هو عمر بن عبد العزيز، لأن أمه ابنة عاصم بن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

ومما يؤثر عن سليمان رحمه الله تعالى أنه لما ولي الخلافة وقام خطيباً قال: الحمد لله الذي ما شاء صنع، وما شاء رفع، ومن شاء وضع، ومن شاء أعطى، ومن شاء منع، إن الدنيا دار غرور، تضحك باكياً وتبكي ضاحكاً، وتخيف آمناً، وتؤمن خائفاً.

وقال في خطبة من خطبه أيضاً: أيها الناس أين الوليد وأبو الوليد وجد الوليد؟ أسمعهم الداعي، واستردّ العواري، واضمحل ما كان كائن، لم يكن أذهب عنهم ثابت الحياة، وفارقوا القصور، واستبدلوا يلين الوطىء خشن التراب، فهم رهناء فيه إلى يوم المآب، فرحم الله عبداً مهد لنفسه: {يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضراً}.

ولما ولي الخلافة أبو جعفر المنصور أراد أن يبني الكعبة على ما بناها ابن الزبير وشاور الناس في ذلك، فقال له الإمام مالك بن أنس: أنشدك الله: أي بفتح الهمزة وضم الشين المعجمة: أي أسألك بالله يا أمير المؤمنين أن لا تجعل هذا البيت ملعبة للملوك، لا يشاء أحد منهم أن يغيره إلا غيره، فتذهب هيئته من قلوب الناس، فصرفه عن رأيه فيه. قال: وذكر الطبري في مناسكه أن الذي أراد ذلك ونهاه مالك هو الرشيد اهـ.

أقول: وكونه الرشيد هو الذي ذكره المقرئ. واقتصر عليه، ولأن المنصور مات محرماً ببئر ميمونة لستة أيام خلون من ذي الحجة فلم يدخل مكة.

وقد يقال: يجوز أن يكون دخل المدينة قبل سيره إلى مكة، واستشار الناس في المدينة فقال له الإمام مالك ما تقدم، وأن الرشيد أيضاً أراد ذلك، واستشار الإمام مالكا فأشار عليه بما ذكر.

ثم رأيت في تاريخ ابن كثير: لما كان في زمن المهدي بن المنصور استشار الإمام مالكا في ردها: أي الكعبة على الصفة التي بناها ابن الزبير، فقال له: إنني أخشى أن تتخذها الملوك لعبة.

ورأيت في كلام بعضهم أن المنصور حج، وأنه لما قضى الحج والزيارة توجه إلى زيارة بيت المقدس، ولعل هذا كان في حجة غير هذه التي مات فيها.

ثم رأيت في تاريخ ابن كثير أن المنصور حج وهو خليفة أربع حجات غير الحجة التي مات فيها. وكذا في (القرى لقاصد أم القرى) للطبري. وذكر أنه مات في الحجة الخامسة قبل يوم التروية بيومين، وأنه أحرم في بعض حججه من بغداد.

وقد ذكر الشيخ الصفوي أن المنصور بلغه أن سفيان الثوري ينقم عليه في عدم إقامة الحق، فلم توجه المنصور إلى الحج وبلغه أن سفيان بمكة أرسل جماعة أمامه، وقال لهم: حيثما وجدتم سفيان خذوه وأصلبوه، فنصبوا الخشب ليصلبوا سفيان عليه، وكان سفيان بالمسجد الحرام، رأسه في حجر الفضيل بن عياض، ورجلاه في حجر سفيان ابن عيينة، ف قيل له خوفاً عليه: بالله لا تشمت بنا الأعداء، قم فاخطف، فقام ومشى حتى وقف بالملتزم وقال: ورب هذه الكعبة لا يدخلها يعني مكة المنصور، وكان وصل إلى الحجون فزلقت به راحلته فوقع عن ظهرها ومات من فوره، فخرج سفيان وصلى عليه، هذا كلامه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

وقد يقال: لا مخالفة بين هذا وبين ما تقدم أنه مات ببئر ميمونة، لأنه يجوز أن يكون المراد بوصوله إلى الحجون وصول خيله وركبه فلي تأمل. ثم رأيت في تاريخ ابن كثير أن المنصور لما خرج للحج وجاوز الكوفة بمراحل، أخذه وجعه الذي مات فيه، وأفرط به الإسهال، ودخل مكة فنزل بها وتوفي، ولعل هذا لا يخالف ما سبق، لأنه يجوز أنه أطلق مكة على المحل القريب منها، وأنه مع انطلاق بطنه زلقت به فرسه. قيل وآخر ما تكلم به المنصور: اللهم بارك لي في لقائك. ومما يؤثر عنه: أولى الناس بالعفو أقدرهم على العقوبة، وأنقص الناس عقلاً من ظلم من هو دونه، والله أعلم.

وتقدم أن قصياً لما أمر قريشاً أن تبني حول الكعبة بيوتها، فبنيت بيوتها من جهاتها الأربع وتركوا قدر المطاف، واستمر الأمر على ذلك زمنه وزمن أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فلما ولي عمر رضي الله تعالى عنه رأى أن يوسع حول الكعبة، فاشترى دوراً وهدمها ووسع حول الكعبة، وبنى جداراً قصيراً على ذلك، وجعل فيه أبواباً، ثم وسعه عثمان، ثم عبد الله بن الزبير.

ثم إن عبد الملك بن مروان رفع الجدران وسقفه بالساج، ثم إن الوليد بن عبد الملك نقض ذلك، ونقل إليه الأساطين الرخام، وسقفه بالساج المزخرف، وأزر المسجد بالرخام، ثم زاد فيه المنصور ورخم الحجر، ثم زاد فيه المهدي أولاً وثانياً حتى صارت الكعبة في وسط المسجد.

وفي أيام المعتضد أدخلت دار الندوة في المسجد، وتسمى مكة فاران، وتسمى قرية النمل لكثرة نملها، أو لأن الله سلط فيها النمل على العماليق لما أظهروا فيها الظلم حتى أخرجهم من الحرم كما تقدم، ولها أسماء كثيرة قد أفردتها صاحب القاموس بمؤلف.

أقول: وسيأتي عن الإمام النووي أنه قال: ليس في البلاد أكثر أسماء من مكة والمدينة، والله أعلم.

قال: وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «خلقت الكعبة أي موضعها قبل الأرض بألفي سنة، كانت حشفة على الماء، عليها ملكان يسبحان، فلما أراد الله تعالى أن يخلق الأرض دحاها منها، فجعلها في وسط الأرض» انتهى. وسئل الجلال السيوطي رضي الله تعالى عنه عن قوله تعالى: {إن ربكم الله

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام { هل كانت أيام ثم موجودة قبل خلق السموات والأرض؟.
فأجاب: بأن خلق السموات والأرض وخلق الأيام كان دفعة واحدة من غير تقديم لأحدهما على الآخر، واستند في ذلك لمأثور التفسير.
وفي الحديث «إن الله حرم مكة قبل أن يخلق السموات والأرض» الحديث.
وحينئذ فقلوه: «إن إبراهيم عليه الصلاة والسلام حرم مكة» معناه أظهر حرمتها.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 229

باب: ما جاء من أمر رسول الله عن أخبار اليهود وعن الرهبان من النصارى وعن الكهان من العريلى السنة الجان وعلى غير ألسنتهم، وما سمع من الهواتف ومن بعضالوحوش ومن بعض الأشجار، وطرد الشياطين من استراق السمععند مبعثه بكثرة تساقط النجوم، وما وجد من ذكره وذكر صفته في الكتب القديمة؛ وما وجد فيه اسمهمكتوباً من النبات والأحجار وغيرهما

قال ابن إسحاق: وكانت الأخبار من يهود والرهبان من النصارى والكهان من العرب قد تحدثوا بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مبعثه لما تقارب زمانه. أما الأخبار من يهود والرهبان من النصارى، فلما وجدوا في كتبهم من صفته وصفة زمانه. وأما الكهان من العرب، فجاءهم به الشياطين فيما تسترق به من السمع، إذ كانت لا تحجب عن ذلك كما حجبت عند الولادة والمبعث، وكان الكاهن والكاهنة لا يزال يقع منهما ذكر بعض أموره، ولا تلقي العرب لذلك بالاً حتى بعثه الله تعالى، ووقعت تلك الأمور التي كانوا يذكرونها فعرّفوها. وهذا فيه تصريح بأن الملائكة كانت تذكره في السماء قبل وجوده. فأما أخبار الأخبار من اليهود فمنها ما تقدم ذكره. ومنها ما جاء عن سلمة بن سلامة وكان من أصحاب بدر قال: كان لنا جار من يهود بني عبد الأشهل، فذكر أي عند قوم أصحاب أوثان () القيامة والبعث والحساب والميزان والجنة والنار، فقالوا له: ويحك يا فلان، أو ترى هذا كائناً أن الناس يبعثون بعد موتهم إلى دار فيها جنة ونار يجزون فيها بأعمالهم؟ قال نعم، والذي يحلف به، وليؤد أي الشخص أن له بحظه من تلك النار أعظم تنور يحمونه ثم يدخلونه إياه فيطبقونه عليه، بأن ينجو من تلك النار غداً، فقالوا له: ويحك وما آية ذلك؟ قال: نبي يبعث من نحو هذه البلاد، وأشار بيده إلى مكة واليمن، قالوا ومن يراه؟ فنظر إليّ وأنا من أحدثهم سناً، فقال: إن يستنفذ: أي يستكمل هذا الغلام عمره يدركه، قال سلمة: والله ما ذهب الليل والنهار حتى بعث الله محمداً وهو: أي ذلك اليهودي بين أظهرنا، فأما به وكفر بغياً وحسداً فقلنا له: ويحك يا فلان، ألسنت الذي قلت لنا فيه ما قلت؟ قال: بلى، ولكن ليس به.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

ومن ذلك ما جاء عن عمرو بن عمرو بن عنبسة السلمى رضي الله تعالى عنه قال: رغبت عن آلهة قومي في الجاهلية: أي ترك عبادتها، قال: فلقيت رجلاً من أهل الكتاب من أهل تيماء: أي وهي قرية بين المدينة والشام () فقلت: إني

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

مكتبة مشكاة

أمرؤ ممن يعبد الحجارة، فينزل الحي ليس معهم إله فيخرج الرجل منهم فيأتي بأربعة أحجار، فيعين ثلاثة لقره أي يستنجي بها، ويجعل أحسنها إلهاً يعبد، ثم لعله يجد ما هو أحسن منه تركه وأخذ ذلك الأحسن، فرأيت أنه إله باطل لا ينفع ولا يضر، فدلني على خير من هذا، قال: يخرج من مكة رجل يرغب عن آلهة قومه، ويدعو إلى غيرها. فإذا رأيت ذلك فاتبعه، فإنه يأتي بأفضل الدين، فلم يكن لي همة منذ قال لي ذلك إلا مكة، أتني فأسأل هل حدث حدث؟ فيقال لا، ثم قدمت مرة فسألت، فقيل لي: حدث، رجل يرغب عن آلهة قومه ويدعو إلى غيرها، فشددت راحلتي ثم قدمت منزلي الذي كنت أنزله بمكة، فسألت عنه فوجدته مستخفياً، ووجدت قريشاً عليه أشداء، فتلطفت له حتى دخلت عليه، فسألته: أي شيء أنت؟ قال نبي. قلت: من نباك؟ قال الله. قلت: وبم أرسلك؟ قال «بعبادة الله وحده لا شريك له، وبحقن الدماء، وبكسر الأوثان، وصلة الرحم، وأمان السبيل» فقلت: نعم ما أرسلت به، قد آمنت بك وصدقتك، أتأمرني أن أمكث معك أو أنصرف؟ فقال: ألا ترى كراهة الناس ما جئت به، فلا تستطيع أن تمكث، كن في أهلك، فإذا سمعت بي قد خرجت مخرجاً فاتبعني، فكنت في أهلي حتى خرج إلى المدينة، فسرت إليه، فقدمت المدينة، فقلت يا نبي الله أتعرفني؟ قال: «نعم أنت السلمي الذي أتيتني بمكة».

ومن ذلك ما حدث به عاصم بن عمرو بن قتادة عن رجال من قومه قالوا: إنما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى لنا وهداه ما كنا نسمع من أخبار يهود. كنا أهل شرك أصحاب أوثان وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا، وكانت لا تزال بيننا وبينهم شرور، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا: قد تقارب زمان نبي يبعث الآن يقتلكم قتل عاد وإرم: أي يستأصلكم بالقتل () فكان كثيراً ما نسمع ذلك منهم. فلما بعث الله رسوله محمداً آجينا حين دعانا إلى الله عز وجل وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به فبادرناهم إليه فأما به وكفروا ففي ذلك نزلت هذه الآيات في البقرة {ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين}.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

ومن ذلك ما حدث به شيخ من بني قريظة قال: إن رجلاً من يهود من أهل الشام يقال له ابن الهيبان أي الجبان، قدم إلينا قبل الإسلام بسنين، فحل بين أظهرنا، والله ما رأينا رجلاً قط لا يصلح الخمس أفضل منه: أي لا أظن أحداً من غير المسلمين، لأن المسلمين يصلون الخمس فلا أصلية لأزادة، فأقام عندنا فكنا إذا قحط المطر: أي احتبس قلنا له اخرج يا ابن الهيبان فاستسق لنا، فيقول لا والله حتى تقدموا بين يدي نجواكم صدقة، فنقول له: كم؟ فيقول صاعاً من تمر ومدين من شعير فنخرجها، ثم يخرج بنا إلى ظاهر حرتنا فيستسقي لنا فوالله ما يبرح من محله حتى يمر السحاب ونسقى، قد فعل ذلك غير مرة: أي لا مرة ولا مرتين ولا ثلاثاً بل أكثر من ذلك، ثم حضرته الوفاة

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

عندنا، فلما عرف أنه ميت، قال: يا معشر يهود ما ترينه أخرجني من أهل
الخمير - بالتحريك ويا سكان الميم: الشجر الملتف والخمير - إلى أرض البؤس
والجوع؟ قلنا: أنت أعلم، قال: فإنما قدمت هذه الأرض أتوكف: أي أتوقع
خروج نبي قد أظل زمانه: أي أقبل وقرب كأنه لقربه أظلمهم: أي ألقى عليهم
ظله وهذا البلد مهاجرة، وكنت أرجو أن يبعث فاتبعه، فقد أظلمكم زمانه، فلا
تسبقن إليه يا معشر يهود، فإنه يبعث بسفك الدماء، ويسبي الذراري والنساء
ممن خالفه، فلا يمنعكم ذلك منه، فلما بعث الله رسوله محمداً وحاصر بني
قريظة، قال لهم نفر من هَدَل - بفتح الهاء وفتح الدال المهملة - وقيل بسكونها
إخوة بني قريظة، وهم ثعلبة بن سعية وأسد بن سعية، ويقال أسيد بالتصغير
وأسد بن عبيد وكانوا شباناً أحداثاً، يا بني قريظة والله إنه لهو بصفته، فنزلوا
وأسلموا فأحرزوا دماءهم وأموالهم وأهلهم كما سيأتي.

قال: ومن ذلك خبر العباس بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه قال: خرجت
في تجارة إلى اليمن في ركب فيه أبو سفيان بن حرب، فورد كتاب حنظلة بن
أبي سفيان: إن محمداً قائم في أطح مكة يقول: أنا رسول الله أدعوكم إلي
الله، ففشنا ذلك في مجالس أهل اليمن فجاءنا خبر من اليهود فقال: بلغني أن
فيكم عم هذا الرجل الذي قال ما قال. قال العباس: فقلت نعم، قال نشدتك
الله هل كان لابن أخيك صبوة؟ قلت: لا والله ولا كذب ولا خان، وما كان اسمه
عند قريش إلا الأمين. قال: هل كتب بيده؟ فأردت أن أقول نعم، فخشيت من
أبي سفيان أن يكذبني ويرد عليّ، فقلت: لا يكتب، فوثب الخبر وترك رداءه
وقال: ذبحت يهود وقتلت يهود، قال العباس: فلما رجعنا إلى منزلنا قال أبو
سفيان يا أبا الفضل إن يهود تفرع من ابن أخيك فقلت: قد رأيت لعلك أن تؤمن
به، قال: لا أومن به حتى أرى الخيل في كداء: أي بالمد. قلت ما تقول: قال
كلمة جاءت على فمي، إلا أنني أعلم أن الله لا يترك خيلاً تطلع على كداء، قال
العباس: فلما فتح رسول الله صلى الله عليه وسلم مكة ونظر أبو سفيان إلى
الخيال قد طلعت من كداء. قلت: يا أبا سفيان تذكر تلك الكلمة قال: إي والله
إنني لأذكرها انتهى.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

أي ومن ذلك ما جاء عن أمية بن أبي الصلت الثقفي قال لأبي سفيان: إنني لأجد
في الكتب صفة نبي يبعث في بلادنا فكنت أظن أنني هو، وكنت أتحدث بذلك،
ثم ظهري لي أنه من بني عبد مناف، فنظرت فلم أجد فيهم من هو منتصف
بأخلاقه إلا عتبة بن ربيعة، إلا أنه قد جاوز الأربعين ولم يوح إليه، فعرفت أنه
غيره. قال أبو سفيان: فلما بعث محمد قلت لأمية، فقال أمية: أما إنه حق
فاتبعه. فقلت له: فأنت ما يمنعك قال: الحياء من نساء ثقيف، إنني كنت
أخبرهن أنني هو، ثم أصير تبعاً لفتى من بني عبد مناف، وسيأتي ذلك بأبسط
مما هنا.

وأما أخبار الرهبان من النصارى، فمنها ما تقدم ذكره. قال: ومنها خبر طلحة
بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: حضرت سوق بصرى، فإذا راهب في

صومعته يقول: سلوا أهل هذا الموسم هل فيكم أحد من أهل الحرم؟ فقلت نعم أنا، قال هل ظهر أحمد؟ قلت: ومن أحمد؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، أي الذي يبعث فيه، وهو آخر الأنبياء، مخرجه من الحرم، ومهاجره إلى نخلة وحره وسباخ، فإياك أن تسبق إليه. قال طلحة، فوقع في قلبي ما قال الراهب، فلما قدمت مكة حدثت أبا بكر بذلك، فخرج أبو بكر حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره، فسر بذلك وأسلم طلحة. فأخذ نوفل بن العديوية أبا بكر وطلحة رضي الله تعالى عنهما فشدهما في حبل واحد، فلذلك سميا القرينين اهـ.

أقول: يحتمل أن هذا الراهب هو بحيراً، ويحتمل أن يكون نسطورا، لأن كلاهما كان ببصرى كما تقدم في سفره. ويحتمل أن يكون غيرهما، وهو أولى، لما تقدم أن كلا من بحيراً ونسطورا لم يدرك البعثة والله أعلم.

أي ومنها ما حدث به سعيد بن العاص بن سعيد، قال: لما قتل أبي العاص يوم بدر كنت في حجر عمي أبان بن سعيد، وكان يكثر السب لرسول الله، فخرج تاجراً إلى الشام فمكث سنة ثم قدم، فأول شيء سأله عنه قال: ما فعل محمد؟ قال له عمي عبد الله بن سعيد: هو والله أعز ما كان وأعلى، فسكت ولم يسبه كما كان يسبه، ثم صنع طعاماً وأرسل إلى سراة بني أمية أي أشرفهم، فقال لهم: إني كنت بقربة فرأيت بها راهباً يقال له بكاء لمن ينزل إلى الأرض منذ أربعين سنة: أي من صومعته، فنزل يوماً، فاجتمعوا ينظرون إليه، فجئت فقلت: إن لي حاجة، فقال: ممن الرجل؟ فقلت: إني من قريش، وإن رجلاً هناك خرج يزعم أن الله أرسله، قال: ما اسمه؟ فقلت محمد، قال: منذ كم خرج؟ فقلت عشرين سنة، قال: ألا أصفه لك؟ قلت بلى فوصفه، فما أخطأ في صفته شيئاً، ثم قال لي: هو والله نبي هذه الأمة، والله ليظهرن، ثم دخل صومعته وقال لي اقرأ عليه السلام، وكان ذلك في زمن الحديدية: أي والحديدية سيأتي أنها كانت سنة ست والعشرون تقريب.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

أي ومنها ما حدث به حكيم بن حزام بالزاي رضي الله تعالى عنه قال: دخلنا الشام لتجارة قبل أن أسلم ورسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة، فأرسل إلينا ملك الروم فجننا، فقال: من أي العرب أنتم؟ من هذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال حكيم: فقلت يجمعني وإياه الأب الخامس، فقال: هل أنتم صادقِّي فيما أسألکم عنه؟ فقلنا نعم، فقال: أنتم ممن اتبعه أم ممن رد عليه؟ فقلنا: ممن رد عليه وعاداه، فسألنا عن أشياء مما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرناه، ثم نهض واستنهضنا معه، فأتى محلاً في قصره وأمر بفتحه، وجاء إلى ستر فامر بكشفه فإذا صورة رجل، فقال أتعرفون من هذه صورته؟ قلنا لا، قال: هذه صورة آدم، ثم تتبع أبوابها ففتحتها ويكشف عن صور الأنبياء ويقول: أما هذا صاحبكم؟ فنقول لا، فيقول لنا هذه صورة فلان، حتى فتح باباً وكشف عن صورة، فقال: أتعرفون هذا؟ قلنا نعم، هذا صورة محمد بن عبد الله صاحبنا، قال: أتدرون متى صورت هذه الصور؟ قلنا لا، قال: منذ أكثر

من ألف سنة، وإن صاحبكم لنبي مرسل فاتبعوه، ولوددت أني عبده فأشرب ما يغسل من قدميه.
ووقع نظير ذلك لجبير بن مطعم رضي الله تعالى عنه، وأنه رأى صورة أبي بكر أخذة بعقب تلك الصورة، وإذا صورة عمر أخذة بعقب صورة أبي بكر، فقال: من ذا الذي أخذ بعقبه؟ قلنا نعم هو ابن أبي قحافة، قال: فهل تعرف الذي أخذ بعقبه؟ قلت نعم هو عمر بن الخطاب. قال: أشهد أن هذا رسول الله، وأن هذا هو الخليفة بعده، وأن هذا هو الخليفة من بعد هذا.

ومنها ما حدّث به سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه قال: كنت رجلاً فارسياً من أهل أصبهان من قرية يقال لها جيّ بفتح الجيم وتشديد الياء: أي وفي لفظ: من قرية من قرى الأهواز يقال لها رامهرمز، وفي لفظ: ولدت برامهرمز وبها نشأت، وأما أبي فمن أصبهان، وكان أبي دهقان قرينته: أي كبير أهل قرينته: أي وفي لفظ: كنت من أبناء أساورة فارس، وكنت أحب خلق الله تعالى إلى أبي، لم يزل حبه إياي حتى حبسني في بيت كما تحبس الجارية، واجتهدت في المجوسية حتى كنت قطن النار بفتح القاف وكسر الطاء المهملة ويروى بفتحها بمعنى قاطن: أي خادمها الذي يوقدها، لا يتركها تخبا: أي تطفأ ساعة. وكانت لأبي ضيعة عظيمة فشغل في بنيان له يوماً فقال لي: يا بنيّ إني قد شغلت في بنيان هذا اليوم، فاذهب إليها وأمرني فيها ببعض ما يريد، ثم قال لي: ولا تحتبس عني، إن احتبست عني كنت أهما إليّ من ضيعتي، وشغلتنني عن كل شيء من أمري، فخرجت أريد ضيعة التي بعثني إليها، فمررت بكنيسة من كنائس النصارى، فسمعت أصواتهم فيها وهم يصلون، وكنت لا أدري ما أمر الناس لحبس أبي إياي في بيته، فلما سمعت أصواتهم دخلت عليهم أنظر ماذا يصنعون؟ فلما رأيتهم أعجبتني صلاتهم ورغبت في أمرهم، وقلت: والله هذا خير من الذي نحن عليه، فوالله ما برحتم حتى غربت الشمس وتركت ضيعة أبي فلم أتها، ثم قلت لهم: أين أهل هذا الدين؟ قالوا بالشام، فرجعت إلى أبي وقد بعث في طلبي وشغلته عن عمله كله، فلما جئته قال: أي بنيّ أين كنت؟ ألم أكن عهدت إليك ما عهدت؟ قلت: يا أبت مررت بالناس يصلون في كنيسة لهم فأعجبني ما رأيت من دينهم، فوالله ما زلت عندهم حتى غربت الشمس، قال: أي بنيّ ليس في ذلك الدين خير، دينك ودين آباءك خير منه، فقلت له: كلا، والله إنه

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

خير من ديننا، قال: فخافني أي خاف مني أن أهرب، فجعل في رجلي قيداً ثم حبسني في بيته، وبعثت إلى النصارى فقلت لهم: إذا قدم عليكم ركب من الشام فأخبروني بهم، فقدم عليهم تجار من النصارى فأخبروني، فقلت لهم: إذا قضا حوائجهم وأرادوا الرجعة فأخبروني بهم فألقيت الحديد من رجلي، ثم قدمت معهم إلى الشام، فلما قدمتها قلت من أجل هذا الدين علماً؟ قالوا: الأسقف في الكنيسة، والأسقف بتخفيف الفاء وتشديدها: هو عالم النصارى ورئيسهم في الدين، فجئته فقلت له: إني قد رغبت في هذا الدين، وأحبت أن

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

أكون معك، فأخدمك في كنيستك وأتعلم منك وأصلي معك، قال: ادخل، فدخلت معه، فكان رجل سوء يأمرهم بالصدقة ويرغبهم فيها، فإذا جمعوا إليه أشياء منها اكتنزها لنفسه ولم يعطه المساكين حتى جمع سبع قلال من ذهب وورق، فأبغضته بغضاً شديداً لما رأيته يصنع ثم مات، فاجتمعت النصارى ليدفنوه. فقلت لهم: إن هذا كان رجل سوء، يأمركم بالصدقة ويرغبكم فيها، فإذا جئتموه بها اكتنزها لنفسه ولم يعط المساكين منها شيئاً، فقالوا لي: وما أعلمك بذلك؟ فقلت: أنا أدلكم على كنزه، فأريتهم موضعه، فاستخرجوا سبع قلال مملوءة ذهباً وورقاً. وفي رواية: وجدوا ثلاثة قماقم فيها نحو نصف أردب فضة، فلما رأوها قالوا: والله لا ندفنه أبداً، فصلبوه ورموه بالحجارة: أي ولم يصلوا عليه صلاتهم مع أن هذا الراهب كان يصوم الدهر، وكان تقياً عن الشهوات. ومن ثم قال في الفتوحات المكية: أجمع أهل كل ملة على أن الزهد في الدنيا مطلوب. وقالوا: إن الفراغ من الدنيا أحب لكل عاقل خوفاً على نفسه من الفتنة التي حذرنا الله تعالى منها بقوله: {إنما أموالكم وأولادكم فتنة} هذا كلامه.

قال الشيخ عبد الوهاب الشعراني رضي الله تعالى عنه: ومن فوائد الرهبان أنهم لا يدخرون قوت الغد، ولا يكتزون فضة ولا ذهباً.

قال: ورأيت شخصاً قال لراهب: انظر لي هذا الدينار هو من ضرب أي الملوك؟ فلم يرض، وقال: النظر إلى الدنيا منهبي عنه عندنا.

قال: ورأيت الرهبان مرة، وهم يسحبون شخصاً ويخرجونه من الكنيسة، ويقولون له: أتلفت علينا الرهبان، فسألت عن ذلك، فقالوا رأوا على عاتقه نصفاً مربوطاً. فقلت لهم: ربط الدرهم مذموم؟ فقالوا: نعم عندنا وعند نبيكم، هذا كلامه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وعند ذلك جاؤوا برجل آخر فجعلوه مكانه، فما رأيت رجلاً لا يصلي الخمس أرى أنه أفضل منه: أي لا أظن أحداً غير المسلمين أفضل منه، ولا أزهدي في الدنيا ولا أرغب في الآخرة، ولا أدأب ليلاً ونهاراً منه، فأحبته حباً شديداً لم أحبه شيئاً قبله، فأقمت معه زمناً حتى حضرته الوفاة، فقلت له: يا فلان إني كنت معك وأحببتك حباً لم أحبه شيئاً قبلك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصني؟ قال: أي بني، والله ما أعلم أحداً على ما كنت عليه، لقد هلك الناس وبدلوا وتركوا أكثر ما كانوا عليه إلا رجلاً بالموصل وهو فلان، وهو على ما كنت عليه، فلما مات وغيب: أي دفن لحقت بصاحب الموصل فأخبرته خبري وما أمرني به صاحبي، فقال: أقم عندي، فأقمت عنده، فوجدته على أمر صاحبه، فأقمت مع خير رجل. فلما احتضر، قلت له: يا فلان إن فلاناً أوصى بي إليك وأمرني باللحوق بك، وقد حضرك من أمر الله ما ترى، فإلى من توصي بي وبم تأمرني؟ قال: يا بني والله ما أعلم رجلاً على مثل ما كنت عليه إلا رجلاً بنصيبين وهو فلان فالحق به. فلما مات وغيب لحقت بصاحب نصيبين، فأخبرته خبري، وما أمرني به صاحبي، فقال: أقم عندي، فأقمت عنده فوجدته على أمر صاحبيه، فأقمت مع خير رجل، فوالله ما لبث أن نزل به الموت، فلما احتضر: أي حضرته الملائكة لقبض روحه، قلت له: يا فلان إن فلاناً أوصى بي إلى فلان،

ثم إن فلاناً أوصى بي إليك، فإلى من توصي بي وإلى من تأمرني؟ قال: يا بنيّ
والله ما

أعلم بقي أحد على أمرنا أمرك أن تأتيه إلا رجلاً بعمورية من أرض الروم فإنه
على مثل ما نحن عليه، فإن أحببت فاته. فلما مات وغيب: أي دفن لحقت
بصاحب عمورية وأخبرته خبري، فقال: أقم عندي، فأقمت عند خير رجل على
هدى أصحابه وأمرهم، فاكتسبت حتى كانت لي بقرات وغنيمة ثم نزل به أمر
الله تعالى. فلما احتضر قلت له: يا فلان إني كنت مع فلان فأوصى بي إلى
فلان، ثم أوصى بي فلان إلى فلان، ثم أوصى بي فلان إليك، فإلى من توصي
بي وبم تأمرني؟ قال: أي بنيّ، والله ما أعلم أصبح ما كنا عليه أحد من الناس
أمرك أن تأتيه، ولكنه قد أظل: أي أقبل وقرب زمان نبي مبعوث بدين إبراهيم
يخرج بأرض العرب، مهاجره إلى أرض بين حرتين بينهما نخل به علامات. يأكل
الهدية، ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، فإن استطعت أن تلحق بتلك
البلاد فافعل ثم مات وغيب.

أقول: وهذا السياق يدل على أن الذين اجتمع بهم من النصارى على دين
عيسى أربعة. وفي كلام السهيلي أنهم ثلاثون، وفي النور أنهم بضعة عشر،
وأن هذا أظهر، والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

قال سلمان: ثم مر بي نفر من كلب تجار، فقلت لهم: احملوني إلى أرض
العرب، وأعطيكم بقراتي هذه وغنمي هذه، فقالوا نعم، فأعطيتهموها: أي
أعطيتهم إياها، وحملوني معهم حتى إذا بلغوا بي وادي القرى: وهو محل من
أعمال المدينة المنورة ظلموني، فباعوني إلى رجل يهودي. فمكثت عنده،
فرايت النخل، فرجوت أن تكون البلدة التي وصف لي صاحبي ولم يحق عندي:
أي لم أتحقق ذلك. فبينما أنا عنده إذ قدم عليه ابن عمّ له من بني قريظة من
المدينة، فابتاعني منه فحملني إلى المدينة. فوالله ما هو إلا أن رأيتها فعرفتها:
أي تحققتها بصفة صاحبي، فأقمت بها.

وبعث رسول الله ، وأقام بمكة ما أقام لا أسمع له بذكر مع ما أنا فيه من شغل
الرق. ثم هاجر إلى المدينة، فوالله إني لفي رأس عذق: أي نخل لسيدي أعمل
له فيه بعض العمل وسيدي جالس تحتي، إذ أقبل ابن عمّ له حتى وقف عليه.
فقال: يا فلان، قاتل الله بني قيلة: أي وهم الأوس والخزرج، لأن قيلة أمهما.
فقد جاء «إن الله أمّني بأشد العرب السنأ وأدرعاً، بابني قيلة الأوس
والخزرج» والله إنهم الآن لمجتمعون بقبا بالمد والقصر، وربما قيل قباة - بتاء
التأنيث والقصر - على رجل قدم من مكة اليوم يزعمون أنه نبي، فلما سمعتها
أخذتني الغرّواء: وهي الحمى النافض: أي الرعدة، والبرحاء: الحمى الصالب
حتى ظننت أنني ساقط على سيدي، فنزلت عن النخلة، فجعلت أقول لابن عمه
ذلك: ما تقول؟ فغضب سيدي ولكمني لكمة شديدة ثم قال: ما لك ولهذا؟
أقبل على عملك، فقلت: لا شيء، إنما أردت أن أثبتة فيما قال وقد كان عندي
شيء جمعته: أي وهو محتمل لأن يكون تمرأ، ولأن يكون رطباً. فلما أمسيت

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

أخذته، ثم ذهبت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقاء فدخلت عليه، فقلت له: إني قد بلغني أنك رجل صالح ومعك أصحاب لك غرباء ذوو حاجة وهذا شيء كان عندي للصدقة فأرأيتكم أحق به من غيركم فقررت به إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه كلوا وأمسك يده، فلم يأكل. فقلت في نفسي هذه واحدة: أي ومن ثم لما أخذ الحسن بن علي رضي الله تعالى عنهما وهو طفل تمر من تمر الصدقة ووضعها في فيه، قال له النبي: «كخ كخ، أما تعرف أنا لا نأكل الصدقة» رواه مسلم.

وروي أيضاً أنه قال: «إني لأنقلب إلى أهلي فأجد التمرة ساقطة على فراشي ثم أرفعها لأكلها، ثم أخشى أن تكون صدقة فألقيها» ووجد تمره فقال: «لولا أن تكون من الصدقة لأكلتها» وقال: «إن الصدقة لا تنبغي لآل محمد، إنما هي أوساخ الناس» وفي رواية «إن هذه الصدقات، إنما هي أوساخ الناس، وإنما لا تحل لمحمد ولا لآل محمد» والراجح من مذهبينا حرمة الصدقتين عليه وحرمة صدقة الفرض دون النفل على آله. وقال الثوري: لا تحل الصدقة لآل محمد لا فرضها ولا نفلها ولا لمواليهم، لأن مولى القوم منهم، بذلك جاء الحديث.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

قال سلمان: ثم انصرفت عنه فجمعت شيئاً هو أيضاً يحتمل أن يكون تمرًا ولأن يكون رطباً.

وتحوّل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ثم جئت فقلت: إني رأيتك لا تأكل الصدقة وهذه هدية أكرمتك بها، فأكل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر أصحابه فأكلوا معه، فقلت في نفسي: هاتان تبتان: أي ومن ثم روى مسلم «كان إذا أتى بطعام سأل عنه، فإن قيل هدية أكل منها، وإن قيل صدقة لم يأكل منها».

قال سلمان: ثم جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بقيق العرقد، وقد تبع جنازة رجل من أصحابه: أي وهو كلثوم بن الهدم الذي نزل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم بقاء لما قدم المدينة. وقيل هو أول من دفن به، وقيل أول من دفن به أسعد بن زرارة، وقيل أول من دفن به عثمان بن مظعون.

وجمع بأن أول من دفن به من المهاجرين عثمان: أي وقد مات في ذي الحجة من السنة الثانية من الهجرة. وأول من دفن به من الأنصار كلثوم أو أسعد: أي وفي الوفيات لابن زبير: مات كلثوم، ثم من بعده أبو أمامة أسعد بن زرارة في شوال من السنة الأولى من الهجرة، ودفن بالبقيع هذا كلامه، ولم يذكر الوقت الذي مات فيه كلثوم. وفي النور عن الطبري أنه مات بعد قدومه المدينة بأيام قليلة. وأول من مات من الأنصار البراء بن معرور، مات قبل قدومه صلى الله عليه وسلم المدينة مهاجراً بشهر. ولما حضره الموت أوصى بأن يدفن ويستقبل به الكعبة ففعلوا به ذلك، ولما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة صلى على قبره هو وأصحابه وكبر أربعاً، ولم أقف على محل دفنه. وقولهم إن أول من دفن بالبقيع كلثوم يدل على أن البراء لم يدفن بالبقيع إلا

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون

مكتبة مشكاة الإسلامية

أن يراد الأولية بعد قدومه المدينة. والظاهر أن هذه أول صلاة صليت على القبر.

قال سلمان: وكان عليه الصلاة والسلام عليه شملتان وهو جالس في أصحابه فسلمت عليه، ثم ابتدرت أنظر إلى ظهره هل أرى الخاتم الذي وصف لي؟ فألقى الرداء عن ظهره فنظرت إلى الخاتم فعرفته فأكبت عليه أقبله وأبكي، فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم تحول، فتحوّلت بين يديه فقصصت عليه حديثي. قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: فأعجب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يسمع ذلك أصحابه: أي وفي شواهد النبوة لما جاء سلمان إلى النبي صلى الله عليه وسلم لم يفهم النبي صلى الله عليه وسلم كلامه فطلب ترجماناً فأتى بتاجر من اليهود كان يعرف الفارسية والعربية، فمدح سلمان النبي صلى الله عليه وسلم وذم اليهود بالفارسية فغضب اليهودي وحرف الترجمة، فقال للنبي إن سلمان يشتمك، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هذا الفارسي جاء ليؤذينا فنزل جبريل وترجم عن كلام سلمان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم ذلك: أي الذي ترجمه له جبريل لليهودي، فقال اليهودي: يا محمد إن كنت تعرف الفارسية فما حاجتك إلي؟ فقال: ما كنت أعلمها من قبل والآن علمني جبريل أو كما قال. فقال اليهودي: يا محمد قد كنت قبل هذا أتهمك والآن تحقق عندي أنك رسول الله. فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله، ثم قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل: علم سلمان العربية. فقال: قل له ليغمض عينيه ويفتح فاه ففعل سلمان، فتفل جبريل في فيه فشرع سلمان يتكلم بالعربي الفصيح، وهذا السياق يدل على أن ذلك كان عند مجيئه في المرة الثالثة. وحينئذ يشكل مجيئه أولاً وثانياً وقوله ما تقدم بالعربية إلا أن يقال ذاك لقلته سهل عليه أن يعبر عنه بالعربية، بخلاف حكاية حاله لكثرت له لم يحسن أن يعبر عنه بالعربية.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

قال: وقد اختلفت الروايات عن سلمان في الشيء الذي جاء به للنبي أولاً وثانياً، فالرواية الأولى المتقدمة ظاهرها يقتضي أنه تمرأه: أي وفيه من أين أن ظاهرها ذلك: بل هي محتملة، وقد جاء التصريح بكونه تمرأ في الأولى والثانية. ففي بعض الروايات: فسألت سيدي أن يهب لي يوماً ففعل، فعملت في ذلك اليوم على صاع أو صاعين من تمر وجئت به النبي، فلم رأيت لا يأكل الصدقة سألت سيدي أن يهب لي يوماً آخر فعملت فيه على ذلك: أي على صاع أو صاعين من تمر، ثم جئت به النبي صلى الله عليه وسلم فقبله وأكله منه.

أي والذي في كلام السهيلي قال سلمان: كنت عبداً لامرأة فسألت سيدتي أن تهب لي يوماً، الحديث.

وقد يقال: لا مخالفة لأنه يجوز أن يكون عني بسيدته زوجة سيده، لأنه يقال لها سيدة في المتعارف بين الناس، أو أن المرأة هي التي اشتترته، ويؤيده ما يأتي، وزوج تلك المرأة يقال له في المتعارف بين الناس سيد. قال: وقيل إن الذي

جاء به أولاً وثانياً رطب. وفي رواية: احتطبت حطباً فبعته واشترت بذلك طعاماً والطعام خبز ولحم. وفي رواية جئت بمائدة عليها بط. وفي رواية عليها رطب. وجمع بأنه أولاً قدم الخبز واللحم الذي هو البط والتمر، ثم قدم الرطب فلم يتحد المقدم. وفي مسند الإمام أحمد أن المرث ثلاث، وأن المقدم فيها متحد اهـ. أقول: تقديم الرطب في المرة الثانية يخالفه ما تقدم أنه في المرة الثانية كان تمرًا، والله أعلم.

ثم شغل سلمان الرق حتى فاته مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بدر واحد، فكان أول مشاهدته الخندق كما سيأتي، وكان بعد ذلك يقال له سلمان الخير، وكان معدوداً من أخصائه. قال سلمان: ثم قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: كاتب يا سلمان، فكاتب صاحب علي ثلاثمائة نخلة أي ودية، على وزن فعيلة: وهي النخلة الصغيرة التي يقال لها الفسيلة أحبيها له، بالتفكير بالفاء ثم القاف: أي الحفر؟ أي ومن ثم قيل للبيئر الفقير: أي احفر لها واغرسها بتلك الحفرة وتصير حية بتلك الحفرة: أي وأتعهد لها إلى أن تثمر. والودية والفسيلة: هي النخلة الصغيرة التي جرت العادة بأن تنقل من المحل الذي تنبت فيه إلى محل آخر، لكن في كلام بعضهم: إذا خرجت النخلة من النواة قيل لها غريسة ثم يقال لها ودية، ثم فسيلة، ثم إنشاء، فإذا فاتت اليد فهي جبارة ويقال للنخلة الطويلة عوانة بلغة عمان.

وفي الحديث «إن قامت الساعة وبيد أحدكم فسيلة فاستطاع أن يغرسها قبل أن تقوم فليغرسها» وعلى أربعين أوقية أي من ذهب كما سيأتي، فقال رسول الله: «أعينوا أخاكم، فأعانوني بالنخل الرجل بستين، والرجل بعشرين ودية، والرجل بخمسة عشر، والرجل يعين بقدر ما عنده حتى اجتمعت لي ثلاثمائة ودية» قال: وفي رواية «أنه كوتب على أن يغرس لهم خمسمائة فسيلة»: أي يحفر لها ويغرسها أي ويتعهد لها إلى أن تثمر وعلى أربعين أوقية. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

قال سلمان: فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم اذهب يا سلمان فقفر: أي بالفاء. وفي رواية فنقر أي بالنون: أي احفر لها، فإذا فرغت فائتني أنا أضعها بيدي فقفرت. وفي رواية فنقرتها وأعانني أصحابي حتى إذا فرغت جئته فأخبرته، فخرج معي إليها، فجعلنا نقرب إليه الودي، فيضعه رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده ما مات منها ودية واحدة، فأدبت النخل وبقي علي المال، فأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم بمثل بيضة الدجاجة: أي وفي رواية مثل بيضة الحمامة من ذهب من بعض المعادن، ولعل هذه البيضة كانت مترددة بين بيضة الدجاجة وبين بيضة الحمامة: أي أكبر من بيضة الحمامة وأصغر من بيضة الدجاجة، فاختلف فيها التشبيه، فقال: «ما فعل الفارسي المكاتب؟» فدعيت له. فقال: «خذ هذه فأدها مما عليك يا سلمان: أي تكون بعضاً مما عليك». وحينئذ قد يتوقف في جواب سلمان بقوله قلت وأين تقع هذه يا رسول الله مما علي لأن النبي يؤدي بعضه وإن قل ذلك البعض. إلا أن يقال العادة قاضية

بأن ذلك البعض لا يقبل إلا إذا كان له وقع بالنسبة لكله. وقد أشار للرد على سلمان بأن هذا الذي قلت فيه إنه لا يحسن أن يكون بعضاً مما عليك يوفي به الله عنك جميع ما عليك، حيث قال: خذها فإن الله سيؤدي بها عنك، فأخذتها فوزنت لهم منها والذي نفس سلمان بيده أربعين أوقية، فأوفيتهم حقهم: أي وبقي عندي مثل ما أعطيتهم. قال: وهذا أي سؤال سلمان وجوابه كالصریح في أن الأواق التي كاتب عليها كانت ذهباً لا فضة. وقد جاء أي مما يدل على ذلك في بعض الروايات أن سلمان لما قال للنبي وأين تقع هذه مما عليّ؟ فقلبها على لسانه ثم قال: «خذها فأوفهم منها».

وأيضاً أي مما يدل على ذلك أيضاً أن المعلوم أن قدر بيضة الدجاجة من الذهب يعدل أكثر من أربعين أوقية من الفضة اهـ: أي فلا يحسن قول سلمان وأين تقع هذه مما عليّ وقد صرح بذلك أي بكونها ذهباً البلاذري والقاضي عياض في الشفاء، فقالا: على. أربعين أوقية من ذهب، وإلى القصة أشار صاحب الهمزية بقوله:

ووفى قدر بيضة من نضار
دين سلمان حين حان الوفاء
كان يدعى قنا فأعتق لما
أبنت من نخيله الأقاء
أفلا تعذرون سلمان لما
أن عرته من ذكره العرواء
أي ووفى قدر بيضة من بيض الدجاج أو الحمام من ذهب دين سلمان، وهو أربعون أوقية من ذهب حين قرب حلول الدين، وتقدم أنه وفي دينه منها وبقي عنده منها قدر ما أعطاهم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وسبب هذا الدين على سلمان أنه كان يدعى قنا، أي أرقّ بالباطل كما تقدم، فكوتب على ذلك وعلى أن يغرس تلك النخيل ويتعهدا إلى أن تثمر، وأعتق بأداء هذا الدين حين أبنت العرايين من نخيله التي غرسها: أي غرست له، أفلا ترون لسلمان عذراً يمنعكم من إيذائه حين أن غشيته قوة الحمى من أجل سماع ذكره. قال سلمان: وشهدت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الخندق ثم لم يفتني معه مشهد.

وعن بريدة «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اشترى سلمان أي كان سبياً لشرائه أي مكاتبته من قوم اليهود بكذا وكذا درهماً، وعلى أن يغرس لهم كذا وكذا من النخل يعمل فيها سلمان حتى تدرك فغرس رسول الله صلى الله عليه وسلم النخل كله إلا نخلة عمر رضي الله تعالى عنه، فأطعم النخل كله إلا تلك النخلة التي غرسها عمر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من غرسها؟ قالوا عمر، فقلعها وغرسها رسول الله صلى الله عليه وسلم بيده فأطعمت من عامها».

وذكر البخاري «أن سلمان رضي الله تعالى عنه غرس بيده ودية واحدة وغرس رسول الله صلى الله عليه وسلم سائرهما فعاشت كلها إلا التي غرسها سلمان» قال: ويجوز أن يكون كل من سلمان وعمر غرس هذه النخلة أحدهما قبل الآخر انتهى.

أقول: وهذا الحائط الذي غرس فيه سلمان من حوائط بني النضير وكان يقال له المنبت، وقد آل إليه كما سيأتي.

ولا يخفى أن قول صاحب الهمزية كان يدعى قنا أنه لم يرق حقيقة، وقد تقدم ذلك. وفيه أنه لو لم يرق حقيقة لما أقره على الرق، وأمره بالمكاتبة وأدى عنه وكونه فعل ذلك تطيباً لخاطر ساداته بعيد فليتأمل.

فإن قيل: إذ رُق حقيقة كيف جاز له أن يأمر أصحابه أن يأكلوا مما جاء به صدقة ويأكل هو وهم مما جاء به هدية والرقيق لا يملك وإن ملكه سيده على الأصح عندنا معاشر الشافعية، بل وعند باقي الأئمة؟

قلنا: يجوز أن يكون الرقيق كان في صدر الإسلام يملك ما ملكه له سيده ثم نسخ ذلك. على أن بعض أصحابنا ذهب إلى صحته، وفي كلام السهيلي: وذكر أبو عبيد أن حديث سلمان حجة على من قال إن العبد لا يملك هذا كلامه، وأنه لم يعلم رقه حينئذ، لأن الأصل في الناس الحرية، ولعدم تحقق رق سلمان وعدم مجيء مكاتبته على قواعد أئمتنا لم يستدلوا على مشروعية الكتابة بقصة سلمان.

وفي كلام السهيلي أن في خبر: سلمان من الفقه: قبول الهدية، وترك سؤال المهدي، وكذلك الصدقة. وفي الحديث «من قدم إليه الطعام فليأكل، ولا يسأل» والله أعلم.

وعن سلمان رضي الله تعالى عنه أنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين أخبره بالقصة المتقدمة: زاد أن صاحب عمورية قال له: ائت كذا وكذا من أرض الشام، فإن بها رجلاً بين غيظتين يخرج كل سنة من هذه الغيضة إلى هذه الغيضة مستجيزاً يعترضه ذوو الأسقام فلا يدعو لأحد منهم إلا شفي فأسأله عن هذا الدين فهو يخبرك به.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

قال سلمان: فخرجت حتى جئت حيث وصفه لي فوجدت الناس قد اجتمعوا بمرضاهم هناك حتى خرج لهم تلك الليلة مستجيزاً من إحدى الغيظتين إلى الأخرى، فغشيه الناس بمرضاهم لا يدعو لمريض إلا شفي، وغلبوني عليه فلم أخلص حتى دخل الغيضة التي يريد أن يدخلها إلا منكبه فتناولته، فقال: من هذا؟ والتفت إليّ فقلت: يرحمك الله أخبرني عن الحنيفة دين إبراهيم، فقال: إنك لتسأل عن شيء ما يسأل عنه الناس اليوم، قد أظلك نبي يبعث بهذا الدين من أهل الحرم فإنه يحملك عليه، ثم دخل. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لئن كنت صدقتني لقد لقيت عيسى ابن مريم. والغيضة: الشجر الملتف.

قال السهيلي: هذا الحديث مقطوع، وفيه رجل مجهول. ويقال إن الرجل هو الحسن بن عمارة وهو ضعيف بإجماع منهم، وإن صح هذا الحديث فلا نكارة في متنه.

فقد ذكر الطبري أن المسيح عليه الصلاة والسلام نزل بعد ما رفع وأمه وامرأة

أخرى أي كانت مجنونة فأبرأها المسيح عند الجذع الذي فيه الصليب يبكيان، فأهبط إليهما فكلهما وقال لهما علام تبكيان؟ فقالا عليك، فقال: إني لم أقتل ولم أصلب، ولكن الله رفعني وأكرمني، وأخبرهما أن الله أوقع شبهه على الذي صلب وأرسل إلى الحواريين: أي قال لأمه ولتلك المرأة أبلغا الحواريين أمري أن يلقوني في موضع كذا ليلاً، فجاء الحواريون ذلك الموضع فإذا الجبل قد اشتعل نوراً لنزوله فيه، ثم أمرهم أن يدعوا الناس إلى دينه وعبادة ربهم ووجههم إلى الأمم. وإذا جاز أن ينزل مرة جاز أن ينزل مراراً لكن لا نعلم أنه هو: أي حقيقة حتى ينزل النزول الظاهر «فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير» كما جاء في الصحيح هذا كلامه.

ويروى «أنه إذا نزل تزوج امرأة من جذام قبيلة باليمن. ويولد له ولدان يسمى أحدهما محمداً والآخر موسى، يمكث أربعين سنة، وقيل خمساً وأربعين، وقيل سبع سنين» كما في مسلم، وقيل ثمان سنين وقيل تسعاً، وقيل خمساً: أي وجمع بين كون مدة مكثه أربعين سنة أو خمساً وأربعين سنة وبين كونها سبع سنين: أي وما بعد ذلك بأن المراد بالأول مجموع لبثه في الأرض قبل الرفع وبعده والسبعة: أي وما بعدها من الأقوال يكون بعد نزوله ويدفن إذا مات في روضة النبي . قال: وقيل في حجرته : أي عند قبره الشريف، وقيل في بيت المقدس انتهى. أي وقيل يدفن معه في قبره، ويؤيده ما ورد «ويدفن معي في قبري، فأقوم أنا وعيسى من قبر واحد بين أبي بكر وعمر».

أقول: وكما يقتل عيسى عليه الصلاة والسلام الخنزير يقتل الدجال. فقد جاء «ينزل عيسى حكماً مقسطاً يحكم بشرعنا يقتل الدجال، ونزوله يكون عند صلاة الفجر، فيصلي خلف المهدي بعد أن يقول له المهدي تقدم يا روح الله، فيقول له تقدم فقد أقيمت لك» وفي رواية «ينزل بعد شروع المهدي في الصلاة، فيرجع المهدي القهقري ليتقدم عيسى فيضع يده بين كتفيه ويقول له تقدم، فإذا فرغ من الصلاة أخذ حربته وخرج خلف الدجال فيقتله عند باب لُدّ الشرقي» وورد أن المهدي يخرج مع عيسى فيساعده على قتل الدجال. وقد جاء أن المهدي من عترة النبي صلى الله عليه وسلم من ولد فاطمة. قيل من ولد الحسين، وقيل من ولد الحسن، وقيل من ولد عمه العباس.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «أن أمه أم الفضل مرت به ، فقال: إنك حامل بغلام فإذا ولدته فائتيني به قالت: فلما ولدته أتيتها به، فأذن في أذنه اليمنى وأقام في اليسرى وألباه - أي أسقاه اللبن من ريقه - وسماه عبد الله، وقال اذهبي بأبي الخلفاء، فأخبرت العباس، فأتاه فذكر له فقال: هو ما أخبرتك هذا أبو الخلفاء، حتى يكون منهم السفاح، حتى يكون منهم المهدي أي الخليفة» وهو أبو الرشيد بدليل قوله: «حتى يكون منهم من يصلي بعيسى ابن مريم: أي وهو المهدي الذي يأتي آخر الزمان اسمه محمد بن عبد الله، لو لم يبق من الدنيا إلا يوم واحد» وفي رواية «إلا ليلة واحدة يطول الله ذلك حتى يبعث، وظهوره يكون بعد أن يكسف القمر في أول ليلة من رمضان، وتكسف

الشمس في النصف منه مثل ذلك لم يوجد منذ خلق الله السموات والأرض عمره عشرون سنة، وقيل أربعون سنة، ووجهه كوكب دري على خده الأيمن خال أسود، يخرج في زمان الدجال، وينزل في زمانه عيسى ابن مريم» وأما ما ورد «لا مهدي إلا عيسى ابن مريم» فلا ينافي ذلك لجواز أن يكون المراد لا مهدي كاملاً معصوماً إلا عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام. فقد جاء «لن تهلك أمة أنا أولها وعيسى ابن مريم آخرها، والمهدي من أهل بيتي في وسطها» وعن العباس رضي الله تعالى عنه قال: «كنت عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال انظر هل ترى في السماء من شيء؟ قلت نعم، قال ما ترى؟ قلت الثريا، قال: أما إنه سيملك هذه الأمة بعددتها من صلبك» أي وقد اختلف الناس في عددها المرئي فقيل سبعة أنجم، وقيل تسعة. وجمعنا بينهما بأن الأول يكون هو المرئي لغالب الناس ولو غير حديد البصر والثاني لمن يكون حديد البصر منهم، وأما المرئي له، فقيل كان يرى أحد عشر نجماً. وقيل اثني عشر نجماً. وجمعنا بينهما بحمل الأول على ما إذا لم يعين النظر. والثاني على ما إذا أمعن النظر، وحينئذ يقتضي هذا أن تكون الخلفاء من بني العباس اثني عشر.

وعن سعيد بن جبير: سمعت ابن عباس رضي الله تعالى عنهما يقول: يكون منا ثلاثة أهل البيت السفاح والمنصور والمهدي. ورواه الضحاك عن ابن عباس مرفوعاً. والمهدي في هذه الرواية يحتمل أن المراد به أبو الرشيد، ويحتمل أن يكون المنتظر.

وروى أبو نعيم بسند ضعيف «أنه خرج فتلقيه العباس، فقال: ألا أسرك يا أبا الفضل؟ قال بلى يا رسول الله، قال: إن الله فتح بي هذا الأمر وبذريتك يختمه» وفي رواية «ويختمه بولدك».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وقد أفردت ترجمة المهدي المنتظر بالتأليف في مجلد حافل سماه مؤلفه (الفواصم عن الفتن القواصم).

وقد رويت قصة سلمان رضي الله تعالى عنه على غير هذا الوجه الذي تقدم. فعنه قال: كان لي أخ أكبر مني، وكان يتقنع بثوبه ويصعد الجبل يفعل ذلك غير ما مرة متنكراً، فقلت له: أما إنك تفعل كذا وكذا فلم لا تذهب بي معك؟ قال: أنت غلام وأخاف أن يظهر منك شيء. قلت: لا تخف، قال: إن في هذا الجبل قوماً لهم عبادة وصلاح يذكرون الله ويذكرون الآخرة» ويزعمون أنا على غير دين. قلت: فاذهب بي معك إليهم قال: حتى استأمرهم فاستأمرهم، فقالوا جيء به فذهبت معه فانتهيت إليهم فإذا هم ستة أو سبعة» وكان الروح قد خرجت منهم من العبادة يصومون النهار ويقومون الليل، يأكلون الشجر وما وجدوا فصعدنا إليهم، فحمدوا الله تعالى وأثنوا عليه، وذكروا من مضى من الرسل والأنبياء حتى خلصوا إلى عيسى ابن مريم. قالوا: ولد بغير ذكر، وبعثه الله رسولاً، وسخر له ما كان يفعل من إحياء الموتى، وخلق الطير، وإبراء الأعمى والأبرص؟ فكفر به قوم وتبعه قوم. ثم قالوا: يا غلام إن لك رباً وإن لك

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

معاداً، وإن بين ذلك جنة وناراً لهما تصير وإن هؤلاء القوم الذين يعبدون النيران أهل كفر وضلالة، لا يرضى الله بما يصنعون، وليسوا على دين، ثم انصرفنا ثم عدنا إليهم فقالوا مثل ذلك وأحسن، فلزمتهم ثم اطلع عليهم الملك فأمرهم بالخروج من بلاده، فقلت: ما أنا بمفارقكم فخرجت معهم حتى قدمنا الموصل، فلما دخلوا حفوا بهم، ثم أتاهم رجل من كهف جبل فسلم وجلس فحفوا به، فقال لهم: أين كنتم؟ فأخبروه، فقال: ما هذا الغلام معكم. فأثنوا عليّ خيراً وأخبروه باتباعي إياهم ولم أر مثل إعظامهم له، فحمد الله وأثنى عليه، ثم ذكر من أرسله الله من رسله وأنبيائه وما لقوا وما صنع بهم، حتى ذكر عيسى ابن مريم، ثم وعظهم. وقال: اتقوا الله والزموا ما جاء به عيسى، ولا تخالفوا يخالف بكم، ثم أراد أن يقوم. فقلت: ما أنا بمفارقك، فقال: يا غلام إنك لا تستطيع أن تكون معي، إني لا أخرج من كهفي هذا إلا كل يوم أحد.

قلت: ما أنا بمفارقك فتبعته حتى دخل الكهف فما رأيته نائماً ولا طاعماً إلا راکعاً وساجداً إلى الأحد الآخر، فلما أصبحنا خرجنا واجتمعوا إليه، فتكلم نحو المرة الأولى، ثم رجع إلى كهفه ورجعت معه، فليثت ما شاء الله أن يخرج في كل يوم أحد ويخرجون إليه ويعظهم ويوصيهم، فخرج في أحد. فقال مثل ما كان يقول. ثم قال: يا هؤلاء إني قد كبر سني ورق عظمي وقرب أجلي، وإني لا عهد لي بهذا البيت يعني بيت المقدس منذ كذا وكذا سنة فلا بد لي من إتيانه، فقلت: ما أنا بمفارقك، فخرج وخرجت معه حتى أتيت إلى بيت المقدس فدخل وجعل يصلي وكان فيما يقول لي: يا سلمان إن الله سوف يبعث رسولاً اسمه أحمد، يخرج من جبال تهامة، علامته أن يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة بين كتفيه خاتم النبوة وهذا زمانه الذي يخرج فيه قد تقارب، فأما أنا فشيخ كبير لا أحسبني أدركه، فإن أدركته أنت فصدقه واتبعه. فقلت: وإن أمرني بترك دينك وما أنت عليه. قال: وإن أمرك، ثم خرج من بيت المقدس وعلى بابه مقعد، فقال له ناولني يدك فناوله يده فقال له قم باسم الله فقام كأنما نشط من عقال، فقال لي المقعد: يا غلام احمل علي ثيابي حتى أنطلق، فحملت عليه ثيابه، فذهب الراهب وذهبت في أثره أطلبه كلما سألت عنه، قالوا أمامك حتى لقيني ركب من كلب فسألتهم، فلما سمعوا لغتي أناخ رجل بعيره وحملني عليه، فجعلني خلفه حتى أتوا بي بلادهم فباعوني، فاشتريتي امرأة من الأنصار فجعلتني في حائط لها: أي بستان، وقدم رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرت به فأخذت شيئاً من تمر حائط ثم أتيته، فوجدت عنده أناساً، فوضعت بين يديه، فقال: ما هذا؟ قلت صدقة قال للقوم كلوا ولم يأكل هو، ثم لبثت ما شاء الله، ثم أخذت مثل ذلك، ثم أتيته فوجدت عنده أناساً فوضعت بين يديه، فقال: ما هذا؟ فقلت هدية، قال: بسم الله وأكل وأكل القوم فقلت في نفسي هذه من آياته. ويحتاج للجمع بين هذه الرواية وما تقدم على تقدير صحتها.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298
وفي (الدر المنثور) «أن امرأة من جهينة اشترته وصار يرعى غنماً لها، بينما هو يوماً يرعى إذ أتاه صاحب له، فقال له: أشعرت أنه قد قدم اليوم المدينة رجل

يزعم أنه نبي؟ فقال له سلمان: أقم في الغنم حتى أتيتك، فهبط سلمان إلى المدينة فاشترى بدينار ببعضه شاة فشواها وبيعته خبزاً ثم أتاه به، فقال، ما هذا؟ قال سلمان: هذه صدقة، قال لا حاجة لي بها، فأخرجها فأكلها أصحابه، ثم انطلق فاشترى بدينار آخر خبزاً ولحمًا، فأتى به النبي صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا؟ قال: هذه هدية: قال فاقعد فكل، فقعد وأكلا جميعاً منها، فدرت خلفه ففطن بي فأرعى ثوبه، فإذا الخاتم في ناحية كتفه الأيسر فتبينته، ثم درت حتى جلست بين يديه، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله» وهذه الرواية تخالف ما تقدم فليتأمل، ولينظر كيف الجمع. ونقل بعضهم الإجماع على أن سلمان عاش مائتين وخمسين سنة، وكان حبراً عالمًا فاضلاً زاهداً متقشفاً، وكان يأخذ من بيت المال في كل سنة خمسة آلاف، وكان يتصدق بها ولا يأكل إلا من عمل يده، وكان له عبادة يفترش بعضها ويلبس بعضها.

قال بعضهم: دخلت عليه وهو أمير على المدائن، وهو يعمل الخوص، فقلت له لم تعمل هذا وأنت أمير وهو يجري عليك رزق؟ فقال: إني أحب أن أكل من عمل يدي وربما اشترى اللحم وطبخه ودعا المجذومين فأكلوا معه. وأول مشاهدته الخندق كما تقدم، قيل وشهد بدرًا وأحدًا قبل أن يعتق: أي وهو مكاتب، فيكون أول مشاهدته الخندق بعد عتقه، والله أعلم.

وأما أخبار الكهان لا عن السنة الجان فكثيرة، منها ما تقدم في ليلة ولادته وفي أيام رضاعه.

قال: ومنها أيضاً خبر عمرو بن معد يكرب رضي الله تعالى عنه قال: والله لقد علمت أن محمداً رسول الله قبل أن يبعث، فقلت له: وكيف ذلك؟ قال: فرعنا إلي كاهن لنا في أمر نزل بنا، فقال الكاهن: أقسم بالسماء ذات الأبراج، والأرض ذات الأدرج، والريح ذات العجاج، إن هذا لامراج، لعله من أجيح النار وهو التهابها ولقاح ذي نتاج، قالوا وما نتاجه؟ قال: نتاجه ظهور نبي صادق، بكتاب ناطق، وحسام فائق، قالوا: وأين يظهر؟ وإلى ماذا يدعو! قال: يظهر بصلاح، ويدعو إلى فلاح، ويعطل القداح، وينهى عن الراح والسفاح، وعن كل أمر قباح، قالوا ممن هو؟ قال: من ولد الشيخ الأكرم، حافر زمزم، وعزه سرمد، وخصمه مكمد، انتهى.

ومنها خبر قيس بن ساعدة الإيادي، وهو أول من قال: البينة على المدعي واليمين على من أنكر. وأول من اتكا على عصا أو قوس أو سيف عند الخطبة. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وقيل إن أول من تكلم بأن البينة على المدعي واليمين على من أنكر داود عليه الصلاة والسلام، وأن ذلك فصل الخطاب.

وردّ بأنه لم يثبت عنه أنه تكلم بغير لغته عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «قدم وفد عبد القيس على رسول الله، فقال: أيكم يعرف القيس بن ساعدة الإيادي؟ قالوا: كلنا يا رسول الله نعرفه، قال: فما فعل؟ قالوا: هلك، قال: ما أنساه بعكاظ على جمل أحمر وهو يقول: أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت، إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعيراً، مهّاد موضوع، وسقف مرفوع، ونجوم تمور، وبحار لا تغور، أقسم قس قسماً حاتماً لأن كان في الأمر رضا ليكونن سخطاً، إن لله

دينًا هو أحب إليه من دينكم الذي أنتم عليه، ما لي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون، أرضوا بالمقام فقاموا أم تركوا هناك فناموا؟ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيكم يروي شعره؟ فأنشدوه عليه الصلاة والسلام: في الذاهبين الأوليـ

من من القرون لنا بصابر
لما رأيت مواردًا
للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها
تسعى الأصغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلى
ولا من الباقي غابر
أيقنت أنني لا محا

لة حيث صار القوم صائر
وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «قدم الجارود بن عبد الله وكان سيداً في قومه، وقيل له الجارود لأنه أغار على قوم من بني بكر بن وائل فجردهم: أي أخذ جميع أموالهم، وإلى ذلك الإشارة بقول الشاعر:

ودسناهم بالخيل من كل جانب
كما جرد الجارود بكر بن وائل

فلما قدم على رسول الله ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا جارود هل في جماعة وفد عبد القيس من يعرف لنا قسماً؟ قالوا: كلنا نعرفه يا رسول الله» قال الجارود: وأنا بين يدي القوم كنت أقفو أي أتبع أثره، كان من أسباط العرب أي من ولد ولدهم، شيخاً عمر سبعمئة سنة: أي وقيل ستمائة سنة، أدرك من الحواريين سمعان، فهو أول من تأله: أي تعبد من العرب: أي ترك عبادة الأصنام، وأول من قال أما بعد: أي وقيل أول من قال ذلك كعب بن لؤي كما تقدم، وقيل سحبان بن وائل، وقيل يعقوب، وقيل يعرب بن قحطان، وقيل داود وهو فصل الخطاب.

وردد بأنه لم يثبت عنه أنه تكلم بغير لغته: أي وبعد لفظة عربية، وفصل الخطاب الذي أوتيه هو فصل الخصومة: أي وهذا يؤيد ما تقدم عنه أنه أول من قال: البيئة على المدعي واليمين على من أنكر وتقدم ما فيه. وجمع بأن الأولية بالنسبة لداود حقيقية، ولغيره إضافية، فلكعب بن لؤي بالنسبة للعرب ولغيره بالنسبة لقبيلته. وقس أول من كتب من فلان إلى فلان. قال الجارود: كآني أنظر إليه يقسم بالرب الذي هوله ليبلغن الكتاب أجله، وليوفين كل عامل عمله، ثم أنشأ يقول:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

هاج للقلب من جواه ادكار
وليال خلالهن نهار
وجبال شوامخ راسيات
وبحار مياهن غزار
ونجوم تلوح في ظلم الليل

تراها في كل يوم تدار
والذي قد ذكرت دل على

الله نفوساً لها هدى واعتبار
فقال النبي صلى الله عليه وسلم: على رسلك يا جارود، والرسول بكسر الراء:
التؤدة فليست أنساه بسوق عكاظ: أي وهو سوق بين بطن نخلة والطائف، كان
سوقاً لثقيف وقيس عيلان كما تقدم، على جمل أورك: أي يضرب لونه إلى
السواد، وهو يتكلم بكلام ما أظن أنني أحفظه» وفي لفظ «تكلم بكلام له حلاوة
لا أحفظه الآن، فقال أبو بكر: يا رسول الله فإني أحفظه كنت حاضرًا ذلك
اليوم بسوق عكاظ، فقال في خطبته: يا أيها الناس - اسمعوا وعوا، وإذا وعيتم
فانتفعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آتٍ، مطر ونبات،
وأرزاق وأقوات، وآباء وأمهات، وأحياء وأموات جمع وأشتات، وآيات بعد آيات،
إن في السماء لخبراً، وإن في الأرض لعبراً، ليل داخ: أي مظلم، وسماء ذات
أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ما لي أرى الناس يذهبون فلا
يرجعون أرضوا بالمقام فأقاموا أم تركوا هناك فناموا، أقسم قس قسماً جاتماً،
لا حثناً فيه ولا أتماً إن لله ديناً هو أحب إليهم من دينكم الذي أنتم عليه، ونبياً قد
حان حينه، وأظلكم زمانه؟ فطوبى لمن آمن به فهداه، وويل لمن خالفه
فعصاه، ثم قال: تبا لأرباب الغفلة من الأمم الخالية، والقرون الماضية. يا
معشر إياد: هي قبيلة من اليمن - أين الآباء والأجداد؟ وأين المريض والعمود؟
وأين الفراغنة الشداد؟ أين من بني وشيد. وزخرف ونجد؟ أي من زين وطول،
وغره المال والولد؟ أين من بغى وطغى؟ وجمع فأوعى؟ وقال أنا ربكم
الأعلى؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالاً، وأطول منكم أجالاً وأبعد منكم آمالاً،
طحنهم التراب بكلكته: أي بصدرة، ومزقهم بتطاوله، فتلك عظامهم بالية،
وبيوتهم خاوية، عمرتها الذئاب العاوية، كلا بل هو الله الواحد المعبود ليس
بوالد ولا مولود، ثم أنشأ يقول الأبيات المتقدمة».

أي وفي رواية: «لما قدم وفد إياد على النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يا
معشر وفد إياد، ما فعل قس بن ساعدة الإيادي؟ قالوا: هلك يا رسول الله،
قال: لقد شهدته يوماً بسوق عكاظ على جمل أحمر، يتكلم بكلام معجب
موفق، لا أجدني أحفظه الآن، فقام امرؤ أعرابي من أقاصي القوم، فقال: أنا
أحفظه يا رسول الله، فسرّ النبي صلى الله عليه وسلم بذلك. كان يقول: يا
معشر الناس اجتمعوا، فكل من مات فات، وكل شيء آتٍ، ليل داخ،
وسماء ذات أبراج، وبحر عجاج، نجوم تزهّر، وجبال مرسية، وأنهار مجرية»
الحديث.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وفي رواية «أين الصعب ذو القرنين؟ ملك الخافقين، وأذلّ الثقلين، وعمر
الفين، ثم كان ذلك كلمحة عين».

قال: وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: أن قس بن
ساعدة كان يخطب قومه بسوق عكاظ فقال: سيأتيكم حق من هذا الوجه؟

وأشار بيده إلى نحو مكة، قالوا له: وما هذا الحق؟ قال: رجل أبلغ أحور، من ولد لؤي بن غالب، يدعوكم إلى كلمة الإخلاص، وعيش ونعيم لا ينفدان، فإذا دعاكم فأجيبوه، ولو علمت أنني أعيش إلى مبعثه لكنت أول من يسعى إليه. وقد رويت هذه القصة من طرق متعددة.

قال الحافظ ابن كثير: هذه الطرق على ضعفها كالمتعاضدة على إثبات أصل القصة. وقال الحافظ ابن حجر: طرق هذا الحديث كلها ضعيفة، وهو يردُّ قول ابن الجوزي في موضوعاته: حديث قس بن ساعدة من جميع جهاته باطل اهـ. أقول: ذكر في (النور) أن في قصة قس ما يرشد إلى التعدد مرتين: مرة حفظ كلامه، وكان قس على جمل أحمر. والثانية التي لم يحفظ فيها كلامه كان قس على جمل أورق. قال: لكن لا أدري أي المرتين كانت أولاً، هذا كلامه.

وقد يقال: النسيان جائز عليه، فيجوز أن يكون نسي كلام قس بعد الإخبار به أولاً، ويبدل لذلك قوله: «لا أظن أنني أحفظه الآن» أو قبل الإخبار به، فيكون خبره متأخراً عن خبر أبي بكر، فلا دلالة في ذلك على التعدد، ووصف الجمل بأنه أحمر، ووصفه بأنه أورق لا يدل على التعدد، لأنه يجوز أن يكون شديد الحمرة وشدة الحمرة تميل إلى السواد وهو الأورق، فأخبر عنه مرة بأنه أحمر، ومرة بأنه أورق. وهذا السياق يدل على تعدد مجيء وفد عبد القيس، مرة جاؤوا وحدهم، ومرة جاؤوا مع سيدهم الجارود، وقد جاء «رحم الله قساً إنه كان على دين أبي إسماعيل بن إبراهيم» والله أعلم.

ومن ذلك خبر نافع الجرشي، نسبة إلى جریش بضم الجيم وفتح الراء وبالشين المعجمة قبيلة من حمير تسمى به بلدهم: أن بطناً من اليمن كان لهم كاهن في الجاهلية، فلما ذكر أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتشر في العرب، جاؤوا إلى كاهنهم واجتمعوا إليه في أسفل جبل، فنزل إليهم حين طلعت الشمس، فوقف لهم قائماً متكئاً على قوس، فرفع رأسه إلى السماء طويلاً. ثم قال: يا أيها الناس، إن الله أكرم محمداً واصطفاه وطهر قلبه وحشاه، ومكته فيكم أيها الناس قليل.

وأما أخبار الكهان على السنة الجان فكثيرة أيضاً:
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

منها خير سواد بن قارب رضي الله تعالى عنه، وكان يتكهن في الجاهلية، وكان شاعراً ثم أسلم. فعن محمد بن كعب القرظي قال: بينا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ذات يوم جالساً إذ مرَّ به رجل، فقيل له: يا أمير المؤمنين أتعرف هذا الما؟ قال: ومن هذا؟ قالوا سواد بن قارب الذي أتاه رثيه: أي تابعه من الجن، الذي يتراءى له، أتاه بظهور النبي صلى الله عليه وسلم أي بعد أن قال عمر رضي الله تعالى عنه على المنبر أي منبر النبي صلى الله عليه وسلم: أيها الناس أفياكم سواد بن قارب؟ فلم يجبه أحد، فلما كان السنة المقبلة ولعل ذلك كان في زمن المحيي للزيارة من الآفاق قال: أيها الناس أفياكم سواد بن قارب؟ قال بعضهم: يا أمير المؤمنين ما سواد بن قارب؟ قال: إن سواد بن قارب كان بدء إسلامه شيئاً عجيباً. قال البراء: فبينما نحن كذلك، إذ

طلع سواد بن قارب، فأرسل إليه عمر رضي الله تعالى عنه فقال له: أنت سواد بن قارب؟ قال نعم، قال: أنت الذي أتاك رثيك بظهور النبي؟ قال نعم، قال: فأنت علي ما كنت عليه من كهانتك، فغضب سواد بن قارب وقال: ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت يا أمير المؤمنين، فقال له: سبحان الله: ما كنا عليه من الشرك: أي من عبادة الأصنام أعظم مما كنت عليه من كهانتك: أي وفي رواية أن عمر رضي الله تعالى عنه قال: اللهم غفراً، قد كنا في الجاهلية على شر من هذا نعبد الأصنام والأوثان، حتى أكرمنا الله برسوله وبالإسلام. أقول: وفيه أن المتبادر أن غضب سواد إنما هو بسبب ما فهمه من نسبته إلى الكهانة بعد الإسلام لا قبلها، بدليل قوله ما استقبلني بهذا أحد منذ أسلمت. وجواب سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه يدل على أنه فهم أن غضب سواد بسبب نسبه للكهانة قبل الإسلام، فلذلك قال: سبحان الله متعجباً منه.

وفي كلام السهيلي أن عمر رضي الله تعالى عنه مزح سواداً رضي الله تعالى عنه فقال له: ما فعلت كهانتك يا سواد؟ فغضب وقال له سواد رضي الله تعالى عنه: قد كنت أنا وأنت على شر من هذا من عبادة الأصنام وأكل الميتات، أفتعبرني بأمر قد ثبت منه؟ فقال عمر رضي الله تعالى عنه: اللهم غفراً، فليتأمل والله أعلم. ثم قال لسواد: أخبرني ما نبأ رثيك بظهور رسول الله . وفي رواية قال: يا سواد حدثنا ببدء إسلامك كيف كان؟ قال نعم يا أمير المؤمنين. بينا أنا ذات ليلة بين النائم واليقظان: إذ أتاني رثيي، فضرمني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب، فاسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم من لؤي بن غالب يدعو إلى الله عز وجل وإلى عبادته، ثم أنشأ يقول:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

عجبت للجن وتطلابها

وشدها العيس بأقتابها

تهوي إلى مكة تبغي الهدى

ما صادق الجن ككذابها

فارحل إلى الصفوة من هاشم

ليس قدماها كأذنانها

فقلت: دعني أنام فإني أمسيت ناعساً، فلما كانت الليلة الثانية أتاني، فضرمني برجله وقال: قم يا سواد بن قارب، فاسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل، إنه قد بعث رسول من لؤي بن غالب يدعو إلى الله عز وجل وإلى عبادته، ثم أنشأ يقول:

عجبت للجن وتخبارها

وشدها العيس بأكوارها

تهوي إلى مكة تبغي الهدى

ما مؤمن الجن ككفارها

فارحل إلى الصفوة من هاشم

بين روايبها وأحجارها

فقلت: دعني أنام فإني أمسيت ناعساً، فلما كانت الليلة الثالثة أتاني فضرمني برجله، وقال: قم يا سواد بن قارب، فاسمع مقالتي، واعقل إن كنت تعقل، إنه

قد بعث رسول من لؤي بن غالب، يدعو إلى الله عز وجل وإلى عبادته ثم أنشأ يقول:

عجبت للجن وتحساسها
وشدها العيس بأحلاسها
تهوي إلى مكة تبغي الهدى
ما خير الجن كأنحاسها
فارحل إلى الصفوة من هاشم
وارم بعينك إلى رأسها

فقمت فقلت: قد امتحن الله قلبي، فرحلت ناقتي ثم أتيت المدينة. وفي رواية: حتى أتيت مكة وهي كما قال البيهقي أقرب إلى الصحة من الأولى: أي لأن الجن إنما جاءت إليه للإيمان به في مكة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه حوله. وفي لفظ: والناس حوله. وفي لفظ: والناس عليه كعرف الفرس، فلما رأني قال: مرحبا بك يا سواد بن قارب، قد علمنا ما جاء بك. قلت: يا رسول الله، قد قلت شعراً، فاسمع مقالتي يا رسول الله، فقال:

هات فأنشأت: أي ابتدأت أقول:

أتاني نجبي بعد هداء ورقدة وفي لفظ:

أتاني رئيي بعد ليل وهجعة

ولم يك فيما قد تلوت بكاذب

ثلاث ليال قوله كل ليلة

أتاك رسول من لؤي بن غالب

فشمرت من ذيل الإزار وفي لفظ:

عن ساقى الإزار

ووسطت بي الذعلب الوجناء بين السباب

فأشهد أن الله لا رب غيره

وأنت مأمون على كل غائب

وأنت أدنى المرسلين وسيلة

إلى الله يا بن الأكرمين الأطايب

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

فمرنا بما يأتيك يا خير مرسل

وإن كان فيما جاء شيب الذوائب

وكن لي شفيعاً يوم لا ذو شفاعه

سواك بمغن عن سواد بن قارب

وفي رواية:

وكن لي شفيعاً يوم لا ذو قرابه

بمغن فتيلاً عن سواد بن قارب

قال: ففرح النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه بمقالتي فرحاً شديداً حتى رؤى الفرخ في وجوههم: أي وضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى بدت نواجذه وقال: أفلحت يا سواد، فرأيت عمر رضي الله تعالى عنه التزمه وقال: لقد كنت أشتهي أن أسمع هذا الحديث منك، فهل يأتيك رثيك اليوم؟ قال: منذ قرأت القرآن فلا، ونعم العوض كتاب الله تعالى من الجن: أي وهذا

السياق يدل على أن سيدنا عمر لم يكن حاضراً عند النبي صلى الله عليه وسلم لما أخبره سواد.

ولما مات وخشي سواد على قومه الردة قام فيهم خطيباً فقال: يا معشر دوس، من سعادة القوم أن يتعظوا بغيرهم، ومن شقائهم أن لا يتعظوا إلا بأنفسهم. وإنه من لم تنفعه التجارب ضربه، ومن لم يسعه الحق لم يسعه الباطل، وإنما تسلمون اليوم بما أسلمتم به أمس. ولا ينبغي لأهل البلاء إلا أن يكونوا أذكر من أهل العافية للعافية، ولست أدري لعله يكون للناس جولة، فإن لم تكن فالسلامة منها الأناة، والله يحبها فأحبوها، فأجابه القوم بالسمع والطاعة.

أي ومن ذلك أن امرأة كانت كاهنة بالمدينة يقال لها حطيمة، كان لها تابع من الجن فجاءها يوماً فوقف على جدارها، فقالت له: ما لك لا تدخل تحدثنا ونحدثك؟ فقال: إنه قد بعث نبي بمكة يحرم الزنا، فحدثت بذلك، فكان أول خبر تحدث به بالمدينة عن رسول الله .
وأما ما سمع من جوف الأصنام فكثير أيضاً.
فمنها أي غير ما تقدم في ليلة ولادته خبر عباس بن مرداس قال: كان لمرداس السلمي وثن يعبده يقال له ضمارة بكسر الصاد المعجمة وميم مخففة بعدها ألف ثم راء مهملة، فلما حضرت مرداساً الوفاة قال للعباس ولده أي بني اعبد ضمارة فإنه ينفعلك ويضرك، فبينما عباس يوماً عند ضمارة إذ سمع من جوف ضمارة منادياً يقول:

من للقبائل من سليم كلها
أودي ضمارة وعاش أهل المسجد
إن الذي ورث النبوة والهدى
بعد ابن مريم من قريش مهتد
أودي ضمارة وكان يعبد مدة
قبل الكتاب إلى النبي محمد

فحرق عباس ضمارة ولحق بالنبي . وفي لفظ أن عباس بن مرداس كان في لقاح له نصف النهار، إذ طلع عليه راكب على نعامة بيضاء وعليه ثياب بيض فقال له: يا عباس ألم تر أن السماء قد تعب أحراسها، وأن الحرب قد حرقت أنفاسها، وأن الخيل وضعت أحلاسها، وأن الذي نزل عليه البر والتقوى صاحب الناقة القصواء؟ فقال عباس: فراغني ذلك، فجئت وثناً لنا يقال له الضمار كنا نعبده وتكلم من جوفه فكنست ما حوله ثم تمسحت به، فإذا صائح يصيح من جوفه:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298
قل للقبائل من قريش كلها
هلك الضمار وفاز أهل المسجد
هلك الضمار وكان يعبد مدة
قبل الصلاة على النبي محمد

إن الذي ورث النبوة والهدى
بعد ابن مريم من قريش مهتد
قال عباس: فخرجت مع قومي بني حارثة إلى رسول الله صلى الله عليه
وسلم بالمدينة، فدخلت المسجد، فلما رأني رسول الله صلى الله عليه وسلم
تبسم وقال: يا عباس كيف إسلامك، فقصصت عليه القصة، فقال: صدقت،
وأسلمت أنا وقومي.
ومن ذلك خبر مازن بن الغضوبة قال: كنت أسدن: أي أخدم صنماً بقرية
بعمان: أي بالتخفيف تدعى سمائل، وسمال يقال له بادر. وفي لفظ باحر
بالحاء المهملة، فعترنا ذات يوم عنده عتيرة وهي الذبيحة مطلقاً. وقيل في
رجب خاصة. فسمعنا صوتاً من جوف الصنم يقول: يا مازن اسمع تسرّ ظهر
خير وبطن شر، بعث نبي من مضر بدين الله الكبير، فدع نحيتاً من حجر، تسلم
من حرّ سقر. قال مازن: ففزعت لذلك وقلت: إن هذا لعجب، ثم عترت بعد
أيام عتيرة: أي ذبحت ذبيحة لذلك الصنم، فسمعت صوتاً من الصنم يقول:
أقبل إليّ أقبل
تسمع ما لا تجهل
هذا نبي مرسل
جاء بحق منزل
أمن به كي تعدل
عن حر نار تشعل
وقدها بالجندل فقلت: إن هذا لعجب، وإنه لخير يراد بي.
أقول: ورأيت في بعض السير تقديم هذه الأبيات على ما قبلها، وأن مازناً قال:
ثم سمعت صوتاً أبين من الأول، وهو يقول: يا مازن اسمع إلى آخره، والله
أعلم.
قال مازن: فبينما نحن كذلك، إذ قدم رجل من أهل الحجاز قلنا له: ما الخبر
وراءك؟ قال: قد ظهر رجل يقال له أحمد، يقول لمن أتاه أجيبوا داعي الله،
فقلت هذا نبأ ما سمعته، فنزلت إلى الصنم فكسرتة جذاذاً، وركبت راحلتي
وأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرح لي الإسلام وأسلمت، وقلت:
كسرت بادرأ جذاذاً وكان لنا
رباً نطيف به ضلاً بتضلال
بالهاشمي هدانا من ضلالتنا
ولم يكن دينه شيئاً على بالي
يا ركباً بلغن عمراً وإخوتها
أنى لما قال ربي بادر قالي

عني وعمرو وإخوتها بني خطامة، وهي بطن من طييء، وهذه الأبيات ساقطة
في (أسد الغابة) قال مازن. فقلت: يا رسول الله إنني مولع بالطرب: أي مغرم
به، وبشرب الخمر وبالهلوك: أي الفاجرة من النساء التي تتمايل وتتنشئ عند
جماعها: وقيل الساقطة على الرجال أي لشدة شبقها، وألحت: أي دامت علينا
سنون: أي أعوام القحط والجذب فذهبن بالأموال، وهزلن الذراري والعيال،
وليس لي ولد فادع الله أن يذهب عني ما أجد، ويأتيني بالحيا، ويهب لي ولداً،
فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم أبدله بالطرب قراءة القرآن، وبالحرّام

الحلال، وبالخمير ربا لا إثم فيه، وبالعهر أي الزنا عفة الفرج، وأته بالحيا: أي المطر، وهب له ولداً، قال مازن فأذهب الله عني ما كنت أجده، وتعلمت شطر القرآن، وحججت حجاً، وأخصبت عمان يعني قريته وما حولها من قرى عمان، وتزوجت أربع حرائر، ووهب الله لي حيان: يعني ولده وأنشأت أقول:
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298
إليك رسول الله حنت مطيتي
تجوب الفيافي من عُمان إلى العرج
لتشفع لي يا خير من وطئ الحصا
فيغفر لي ذنبي وأرجع بالفلج
أي بالفوز والظفر بالمطلوب:
إلى معشر خالفت في الله دينهم
ولا رأيهم رأيي ولا شرجهم شرجي
أي بالشين والجيم: أي لا شكهم شكلي، ولا طريقهم طريقي:
وكنت امرأ بالعهر والخمر مولعا
شبابي حتى أذن الجسم بالنهج
أي البلاء.
فبدلني بالخمير خوفاً وخشية
وبالعهر إحصانا فحصن لي فرجي
فأصبحت همي في الجهاد ونيتي
فله ما صومي ولله ما حجي
قال مازن: فلما رجعت إلى قومي أنبوني: أي عنفوني، ولاموني وشتمونني
وأمرؤا شاعرهم فهجاني، فقلت: إن هجوتهم فإنما أهجو نفسي، وتنحيت عنهم
وأبيت مسجداً أتعيد فيه، وكان لا يأتي هذا المسجد مظلوم فيتعيد فيه ثلاثاً
ويدعو على من ظلمه إلا استجيب له ولا دعا ذو عاهة من برص أو غيره إلا
عوفي. ثم إن القوم ندموا وطلبوا مني الرجوع إليهم فأسلموا كلهم، وضعف
هذا الحديث.

وأما ما سمع من أجواف الذبائح. فمنه ما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله
تعالى عنه قال: كنا يوماً في حي من قريش يقال لهم آل ذريح بالحاء المهملة،
وقد ذبحوا عجلًا لهم والجزار يعالجه، إذ سمعنا صوتاً من جوف العجل ولا نرى
شيئاً: يا آل ذريح، أمر نجيح، صائح يصيح، بلسان فصيح. يشهد أن لا إله إلا الله:
أي والمراد بالذريح: العجل الذي ذبح، لأنه ملطخ بالدم الأحمر، لقولهم: أحمر
ذريحي: أي شديد الحمرة. والذي في البخاري يقول: يا جليح، أمر نجيح، رجل
فصيح، يقول لا إله إلا الله، والمراد بالجليح: العجل المذبوح أيضاً، لأنه قد جلع:
أي كشف عنه جلده.

وأما ما سمع من الهواتف، ولم يجيء على ألسنة الكهان، ولا سمع من جوف
الأصنام، ولا من جوف الذبائح فكثير. من ذلك ما حدث به بعضهم وذكره النبي
صلى الله عليه وسلم قال: يا رسول الله، لقد رأيت من قس عجباً، خرجت
أطلب بغيراً لي حتى إذا عسعس الليل: أي أدبر، وكاد الصبح أن يتنفس، هتف
بي هاتف يقول:

يا أيها الراقد في الليل الأحم أي بالحاء المهملة يعني الأسود

قد بعث الله نبياً بالحرم
من هاشم أهل الوفاء والكرم
يجلو دجنات الليالي والبهم
أي الظلمات والأمور المشكلة، فأدرت طرفي فما رأيت شخصاً فأنشأت
أقول:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

يا أيها الهاتف في داجي الظلم
أهلاً وسهلاً بك من طيف ألم
بين هداك الله في لحن الكلم
من ذا الذي تدعو إليه يغتنم

فإذا أنا بنحنة وقائل يقول: ظهر النور، وبطل الزور، وبعث الله محمداً
بالجور: أي السرور، صاحب النجيب الأحمر: أي الكريم من الإبل، والتاج
والمغفر، والوجه الأزهر: أي الأبيض المشرب بالحمرة، والحاجب: أي الجبين
الأقمر: أي الأبيض، والطرف الأحور: أي شديد سواده، صاحب قول شهادة أن
لا إله إلا الله، فذاك محمد المبعوث إلى الأسود والأحمر، أهل المدر والوبر: أي
العجم والعرب، ثم أنشأ يقول:
الحمد لله الذي
لم يخلق الخلق عبث

أرسل فينا أحمدا
خير نبي قد بعث
صلى عليه الله ما
حج له ركب وحث
وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله:

وتغنت بمدحه الجن حتى
أطرب الإنس منه ذاك الغناء
أي أظهرت الجن أوصافه الجميلة في صورة الغناء الذي تألفه النفس، ولا تصبر
منها عند سماعه، فتسمع لغيره، حتى أطرب الإنس ذاك الغناء: الذي سمعوه
من الجن، قال: فلاح الصباح، وإذا بالفنيق يشقشق. والفنيق: بفتح الفاء وكسر
النون وسكون المثناة تحت ثم قاف: الفحل الكريم من الإبل، ويشقشق
بشنيين معجمتين وقافين: أي يهدر إلى النوق، فملك خطامه، وعلوت سنامه،
حتى إذا لغب بالغين المعجمة والموحدة: أي تعب، فنزل في روضة خضراء؟
فإذا أنا بقس بن ساعدة في ظل شجرة ويده قضيب من أراك ينكت به
الأرض. والنكت بالمتناة فوق، وهو يقول:

يا ناعي الموت والملحود في جدث
أي قبر

عليهم من بقايا بزهم خرق
أي والبز الثياب
دعهم فإن لهم يوماً يصاح به
فهم إذا انتبهوا من نومهم فرقوا
أي خافوا حتى يعودوا بحال غير حالهم

خلقاً جديداً كما من قبله خلقوا
منهم عراة ومنهم في ثيابهم
منها الجديد ومنها المنهج الخلق

والمنهج من الثياب: الذي أخذ في البلى، قال: فدنوت منه، فسلمت عليه فرد عليّ السلام، فإذا بعين حرارة: أي لمائها خريبر: أي صوت في الأرض، خوارة: أي ضعيفة، ومسجد بين قبرين وأسدين عظيمين يلوذان به، وإذا بأحدهما قد سبق الآخر إلى الماء فتبعه الآخر يطلب الماء، فضربه بالقضيب الذي في يده وقال: ارجع، ثكلتك أمك: أي فقدتك حتى يشرب الذي قبلك فرجع، ثم ورد بعده، فقلت له: ما هذان القبران؟ قال: هذان قبراً أخوين كانا لي يعبدان الله عز وجل معي في هذا المكان لا يشركان بالله شيئاً: أي اسم أحدهما سمعون والآخر سمعان، فأدركهما الموت فقبرتهما، وها أنا بين قبريهما حتى ألحق بهما، ثم نظر إليهما وأنشد أبياتاً، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رحم الله قساً، إني أرجو أن يبعثه الله أمة وحده: أي واحداً يقوم مقام جماعة كما تقدم، وقد أشار إلى ذلك صاحب الأصل بقوله:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وعنه أخبر قس قومه فلقد

حلى مسامعهم من ذكره شنفا

ولما مات قس قبر عندهما، وتلك القبور الثلاثة بقربة يقال لها روحين، من أعمال حلب، وعليها بناء والناس يزورونهم، وعليهم وقف ولهم خدام. ومن ذلك ما ذكره الواقدي بإسناد له قال: كان أبو هريرة رضي الله تعالى عنه يحدث أن قوماً من خثعم كانوا عند صنم لهم جلوساً، وكانوا يتحاكمون إلى أصنامهم، فبينما الخثعميون عند صنم لهم إذ سمعوا هاتفاً يهتف ويقول:

يا أيها الناس ذوو الأجسام

ومسندو الحكم إلى الأصنام

أما ترون ما أرى أمامي

من ساطع يجلو دجى الظلام

ذاك نبي سيد الأنام

من هاشم في ذروة السنام

مستعلن بالبلد الحرام

جاء يهد الكفر بالإسلام

أكرمه الرحمن من إمام قال أبو هريرة: فأمسكوا ساعة حتى حفظوا ذلك ثم تفرقوا، فلم يمض بهم ثالثهم حتى فجأهم خير رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قد ظهر بمكة، أي جاءهم ذلك بغتة، فما أسلم الخثعميون حتى استأخر إسلامهم ورأوا عبراً عند أصنامهم.

وأما خير زمل بن عمرو العذري قال: كان لبني عذرة، وهي قبيلة من اليمن صنم يقال له خمّام بالخاء المعجمة المضمومة وتخفيف الميم وكانوا يعظمونه، وكان في بني هند بن حرام بالخاء المهملة المفتوحة والراء، وكان سادته: أي

خادمه رجلاً يقال له طارق، قال في النور: لا أعلم له ترجمة ولا إسلاماً، وكانوا يعترفون، أي يذبحون الذبائح عتده، فلما ظهر النبي صلى الله عليه وسلم سمعنا صوتاً يقول: يا بني هند بن حرام، ظهر الحق وأودى خمام، أي هلك، ورفع الشرك الإسلام. قال زمل: ففزعنا لذلك، وهالنا أي أفزعنا فمكثنا أياماً ثم سمعنا صوتاً يقول: يا طارق يا طارق، بعث النبي الصادق، بوحى ناطق، صدع صدعة بأرض تهامة، لناصريه السلامة، ولخاذليه الندامة، هذا الوداع مني إلى يوم القيامة، فوقع الصنم لوجهه.

فإن كان ذلك الصوت من جوف الصنم وبرشد إليه قوله: هذا الوداع مني إلى يوم القيامة، فهو من غير هذا النوع، وإن لم يكن فهو من هذا النوع. قال زمل: فابتعت أي اشتريت راحلة، ورحلت حتى أتيت النبي صلى الله عليه وسلم مع نفر من قومي وأنشدته:

إليك رسول الله أعلمت نصها النص: هو الغاية في السير.
أكلفها حزناً وقوزاً من الرملوالحزن ما ارتفع من الأرض، والقوز بالقاف
والزاي: التل الصغير.

لأنصر خير الناس نصراً موزراً (أي قوباً).
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وأعقد جبلاً من حبالك في حبلوالحبل العهد والميثاق.
وأشهد أن الله لا شيء غيرها دين له (أي أخضع وأضيع)
ما أثقلت قدمي نعلي ومن هذا النوع خبر تميم الداري: أي ويكنى أبا رقية اسم ابنة له لم يولد له غيرها روى عنه قصة الجساسة مع الدجال على المنبر، فقال: حدثني تميم الداري، وذكر القصة، قال بعضهم: وهذا أولى ما يخترجه المحدثون في رواية الكبار عن الصغار.

وقد يكون من ذلك ما ذكر أبا بكر رضي الله تعالى عنه مر يوماً على ابنته عائشة رضي الله تعالى عنها، فقال: هل سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاء؟ فقالت سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم دعاء كان يعلمناه، وذكر أن عيسى ابن مريم كان يعلمه أصحابه ويقول: لو كان أحدكم جبل دين ذهباً قضاة الله عنه، قال نعم يقول: «اللهم فارح اللهم، كاشف الغم، مجيب دعوة المضطربين، رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما أنت ترحمني، فارحمني برحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك» وعن أبي بكر رضي الله تعالى عنه قال: «كان عليّ دين وكنت له كارهاً فقلته، فلم ألث إلا يسيراً حتى قضيته».

قال تميم الداري رضي الله تعالى عنه: كنت بالشام حين بعث رسول الله ، فخرجت إلى بعض حاجاتي فأدركني الليل، فقلت: أنا في جوار عظيم هذا الوادي، فلما أخذت مضجعي إذا مناد ينادي لا أراه، عذ بالله، فإن الجن لا تجير أحداً على الله، فقلت أيم تقوله؟ وأيم بتشديد الياء وبإسكانها وفتح الميم فيهما: أي أيما شيء تقول؟ فقال: «قد خرج رسول الأمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وصلينا خلفه بالحجون: أي وهو مقبرة مكة التي يقال لها المعلاة كما تقدم وأسلمنا واتبعناه، وذهب كيد الجن، ورميت بالشهب، فانطلق إلى محمد فأسلم، فلما أصبحت ذهبت إلى دير أيوب، فسألت راهبه وأخبرته، فقال: صدقوك نجده يخرج من الحرم أي مكة، ومهاجره الحرم: أي المدينة،

وهو خير الأنبياء فلا تسبق إليه، قال تميم: فطلبت الشخوص: أي الذهاب حتى جئت رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلمت.
أقول: وهذا يدل ظاهراً على أن تميم الداري أسلم بمكة قبل الهجرة، فهو مما الكلام فيه، بل رأيت في تنمة الخبر: فسرت إلى مكة، فلقيت النبي صلى الله عليه وسلم وكان مستخفياً فأمنت به.
ورأيت بعضهم قال: وهذه الرواية غلط، لأن تميم الداري إنما أسلم سنة تسع من الهجرة، والله أعلم.

قال: ومن ذلك ما حدث به سعيد بن جبير رضي الله تعالى عنه أن رجلاً من بني تميم حدث عن بدء إسلامه قال: إني لأسير برمل عالج ذات ليلة، إذ غلبني النوم، فنزلت عن راحلتي، وأختها ونمت وتعوذت قيل نومي، فقلت: أعوذ بعظيم هذا الوادي عن الجن، فرأيت في منامي رجلاً بيده حربة يريد أن يضعها في نحر ناقتي، فانتبهت فرعاً فنظرت يميناً وشمالاً فلم أر شيئاً، فقلت: هذا حلم، ثم عدت فتعوذت، فرأيت مثل ذلك وإذا بناقتي ترعد. ثم عفوت، فرأيت مثل ذلك، فانتبهت، فرأيت ناقتي تضطرب، فالتفت فإذا أنا برجل شاب كالذي رأيته في منامي بيده حربة ورجل شيخ يمسك بيده يرده عن ناقتي، وبينهما نزاع.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

فبينما هما يتنازعان إذ طلعت ثلاثة أثوار من الوحش، فقال الشيخ للفتى: قم فخذ أيها شئت فداء لناقة جاري الإنسي، فقام الفتى وأخذ منها ثوراً وانصرف، ثم التفت إلى الشيخ وقال: يا فتى إذا نزلت وادياً من الأودية فخفت هوله، فقل: أعوذ بالله رب محمد من هول هذا الوادي، ولا تعذ بأحد من الجن فقد بطل أمرها، فقلت له: ومن محمد؟ قال: نبي عربي لا شرقي ولا غربي، فقلت: أين مسكنه؟ قال: يثرب ذات النخل، فركبت ناقتي، وحثت السر حتى أتيت المدينة، فرأيت رسول الله، فحدثني قبل أن أذكر له منه شيئاً، ودعاني إلى الإسلام فأسلمت، وهذا السياق يدل على أن هذه القصة بعد الهجرة لا عند المبعث الذي الكلام فيه.

ونظير هذا ما حدث به بعض الصحابة قال: خرجت في طلب إبلى لي وكنا إذا نزلنا بواد قلنا نعوذ بعزير هذا الوادي، فتوسدت ناقتي، وقلت: أعوذ بعزير هذا الوادي فإذا هاتف يهتف بي ويقول:

ويحك عذ بالله ذي الجلال

منزل الحرام والحلال

ووجد الله ولا تبال

ما كيد ذي الجن من الأهوال

إذ يذكر الله على الأحوال

وفي سهول الأرض والجبال

وصار كيد الجن في سفال

إلا النبي وصالح الأعمال

فقلت له:

يا أيها القائل ما تقول

أرشد عندك أم تضليل
فقال:

هذا رسول الله ذو الخيرات
جاء ببس وحاميمات
وسور بعد مفصلات
يأمر بالصلاة والزكاة
ويزجر الأقوام عن هنات
قد كنّ في الإسلام منكرات
فقلت: أما لو كان لي من يؤدي إلي هذه إلى أهلي لأتيته حتى أسلم فقال: أنا
أوديتها فركبت بعيراً منها ثم قدمت فإذا النبي صلى الله عليه وسلم علي
المنبر. وفي رواية: فوافيت الناس يوم الجمعة وهم في الصلاة، فإني أنيخ
راحتي، إذ خرج إلي أبو ذر فقال لي: يقول لك رسول الله صلى الله عليه
وسلم أدخل، فدخلت، فلما رأيته قال: ما فعل الرجل. وفي لفظ: ما فعل
الشيخ الذي ضمن لك أن يؤدي إليك، أما إنه قد أداها سالمة، وقد قص الله
تعالى على نبيه ما كان عليه الناس قبل بعثته، من أن الإنسان إذا نزل منزلاً
مخوفاً قال أعوذ بسيد هذا الوادي من شر سفهائه بقوله سبحانه وتعالى:
{وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال} أي يستعيذون برجال (من الجن)
أي حين ينزلون في أسفارهم بمكان مخوف يقول كل رجل أعوذ بسيد هذا
المكان من شر سفهائه {فزادوهم رهقاً} أي زادوا الجن: أي ساداتهم
باستعادتهم بهم طغياناً، فيقولون: سدنا الإنس والجن.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

أي ومن ذلك ما حكاه وائل بن حجر الحضرمي، ويكنى أبا هنيذة، كان قبلاً من
أقيال حضرموت، وكان أبوه من ملوكهم. قال: «وفدت على رسول الله صلى
الله عليه وسلم وقد بشر أصحابه بقدومي، فقال: يأتكم وائل بن حجر من
أرض بعيدة من حضرموت راغباً في الله عز وجل وفي رسوله، وهو بقية أبناء
الملوك. قال وائل فما لقيني أحد من الصحابة إلا قال: بشرنا بك رسول الله
صلى الله عليه وسلم قبل قدومك بثلاث، فلما دخلت على رسول الله صلى
الله عليه وسلم رحب بي وأدنانني من نفسه وقرب مجلسي وبسط لي رداءه
فأجلسني عليه وقال: اللهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد ولده، ثم صعد
المنبر وأقامني بين يديه ثم قال: أيها الناس هذا وائل بن حجر أتاكم من أرض
بعيدة من حضرموت راغباً في الإسلام فقلت: يا رسول الله بلغني ظهورك وأنا
في ملك عظيم، فمن الله على أن رفضت ذلك كله، وأثرت دين الله قال
صدقت، اللهم بارك في وائل بن حجر وولده وولد ولده». قال:
قال: وسبب وفودي على رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان لي صنم
من العقيق فبينما أنا نائم في الظهيرة إذا سمعت صوتاً منكراً من المخدع
الذي به الصنم فأتيت الصنم وسجدت بين يديه، وإذا قائل يقول:
واعجباً لوائل بن حجر

يخال يدري وهو ليس يدري
 ماذا يرجي من نحيث صخري
 ليس بذي نفع ولا ذي ضرر
 لو كان ذا حجر أطاع أمري* قال: فقلت: أسمعنا أيها الهاتف الناصح، فماذا
 تأمرني؟ فقال:
 ارحل إلى يثرب ذات النخل
 تدين دين الصائم المصلي
 محمد النبي خير الرسل ثم خر الصنم لوجهه، فاندقت عنقه فقمتم إليه فجعلته
 رفاتا، ثم سرت مسرعاً، حتى أتيت المدينة فدخلت المسجد الحديث.
 وفيه أنه إن كان الصوت من جوف الصنم فهو من غير هذا النوع. ولوائل هذا
 حديث مع معاوية تركناه لطوله.

وأما ما سمع من بعض الوحوش، فمنه ما حدث به أبو سعيد الخدري رضي الله
 تعالى عنه قال: «بيننا راع يرعى بالجزيرة إذ عرض الذئب لشاة من شياهه
 فحال الراعي بين الذئب وبين الشاة فألقى الذئب على ذنبه فقال ألا تتقي الله
 تحول بيني وبين رزق ساقه الله إلي؟ فقال الراعي أعجب من ذئب يكلمني
 بكلام الإنس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب مني؟ رسول الله صلى الله عليه
 وسلم بين الحرتين».

وفي رواية يثرب يحدث الناس بأنباء ما قد سبق، وفي لفظ: يخبركم بما مضى
 وما هو كائن بعدكم، فساق الراعي شياهه فأتى المدينة فغدا لرسول الله ،
 فحدثه بما قال الذئب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: صدق الراعي،
 إن من أشراط الساعة كلام السباع للإنس، والذي نفس محمد بيده لا تقوم
 الساعة حتى يكلم الرجل شراك نعله أي وهو أحد سيورها الذي يكون على
 وجهها كما تقدم، وعذبة سوطه، أي طرفه وقيل أحد سيوره، ويخبره بما فعل
 أهله» أي وفي لفظ «فأمر رسول الله ، فنودي بالصلاة جامعة، ثم خرج فقال
 للأعرابي: أخبرهم فأخبرهم».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وفي رواية أن راعي الغنم كان يهودياً. وفي رواية أن الذئب قال له أنت أعجب
 مني واقفاً على غنمك وتركت نبياً لم يبعث الله قط أعظم منه قدراً وقد
 فتحت له أبواب الجنة وأشرف أهلها وأصحابه ينظرون قتالهم، وما بينك وبينه
 إلا هذا الشعب، فتصير في جنود الله تعالى، فقال له الراعي: من لي بغنمي،
 فقال الذئب: أنا أرهاها حتى ترجع، فأسلم إليه غنمه ومضى إليه ، وقال له
 رسول : «عد إلى غنمك تجدها بوفرها فوجدتها كذلك، وذبح للذئب شاة منها»
 وفيه أن هذا وما تقدم من خبر سعيد بن جبير كما علمت بعد الهجرة لا عند
 المبعث الذي الكلام فيه.

قال في النور هذا الراعي لا أعرف اسمه. قال وكلم الذئب غير واحد،
 فانظرهم في تعليقي على البخاري.

أقول: ذكر في حياة الحيوان عن ابن عبد البر: كلم الذئب من الصحابة رضي الله تعالى عنهم ثلاثة: رافع بن عميرة، وسلمة بن الأكوع، ووهبان بن أوس. وأما ما سمع من بعض الأشجار، فقد روي عن أبي بكر رضي الله تعالى عنه أنه قيل له: هل رأيت قبل الإسلام شيئاً من دلائل نبوة محمد؟ قال نعم، بينا أنا قاعد في ظل شجرة في الجاهلية، إذ تدلى علي غصن من أغصانها حتى صار على رأسي فجعلت أنظر إليه وأقول: ما هذا؟ فسمعت صوتاً من الشجرة: هذا النبي يخرج في وقت كذا وكذا فكن أنت من أسعد الناس به، والله أعلم. وأما تساقط النجوم، وطررد الجن بها عن استراق السمع. فقد قال ابن إسحاق لما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر مبعثه حجت الشياطين عن السمع، وحيل بينها وبين المقاعد التي كانت تقعد فيها فرموا بالنجوم فعرف الجن أن ذلك لأمر حدث من الله في العباد، يقول الله تعالى لنبه حين بعثه يقص عليه خبرهم إذ حجبوا {وأنا لمسنا السماء} أي طلبنا استراق السمع منها () {فوجدناها ملئت حرساً شديداً} أي ملائكة أقوياء يمنعون عنها {وشهباً وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع} لخلوها عن الحرس والشهب {فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً} أي أرصد له ليرمي به: أي ومن يخطف الخطفة منهم بخفة حركته يتبعه شهاب ثاقب يقتله: أي أو يحرق وجهه أو يخبله قبل أن يلقيها إلى الكاهن، وذلك لئلا يلتبس أمر الوحي بشيء من خبر الشياطين مدة نزوله وبعد انقضائه وموته، لئلا تدخل الشبهة على ضعفاء العقول، فربما توهموا عود الكهانة التي سببها استراق السمع، وأن أمر رسالته تم فاقتضت الحكمة حراسة السماء في حياته وبعد موته، ومن ثم قال «لا كهانة بعد اليوم».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وقد حدث بعضهم قال: إن أول العرب فزع للرمي بالنجوم حين رمى بها ثقيف، وإنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية، وكان أدهى العرب، وأنكرها رأياً: أي أدهاها رأياً، وكان ضريباً، وكان يخبرهم بالحوادث فقالوا له: يا عمرو ألم تر: أي تعلم ما حدث في السماء من الرمي بهذه النجوم، فقال: بلى فانظروا فإن كانت معالم النجوم أي النجوم المشهورة () التي يهتدي بها في البر والبحر وتعرف بها الأنواء من الصيف والشتاء هي التي يرمي بها فهو والله طي هذه الدنيا وهلاك هذا الخلق الذي فيها، وإن كانت نجوماً غيرها وهي ثابتة على حالها فهو لأمر أراد الله بهذا الخلق: أي والنوء بالنون والهمز هنا: ما يحصل عند سقوط نجم في المغرب وطلوع رقبه من المشرق يقابله من ساعته في كل ثلاثة عشر يوماً. وحقيقة النوء سقوط النجم وطلوع رقبه في المدة المذكورة.

وكانت العرب تضيف الأمطار والرياح والجر والبرد إلى الساقط منها أو إلى الطالع منها، فتقول: مطرنا بنوء كذا، وسيأتي الكلام على ذلك في غزوة الحديبية.

وفي لفظ: فأمر أراد الله ونبي يبعث في العرب فقد تحدث بذلك. لا يقال: قد رجمت الشياطين بالنجوم قبل ذلك، وذلك عند مولده. لأننا نقول: المراد رجمت الآن بأكثر مما كان قبل ذلك، أو صارت تصيب ولا تخطيء. ومن ثم حدث بعضهم، قال: لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم أي قرب زمن

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

بعثه رجمت الشياطين بنجوم لم تكن ترحم بها قبل، فأتوا عبد يا ليل بن عمرو وهو بمثنيتين تحتيتين وكسر اللام الأولى الثقفي وكان أعمى فقالوا: إن الناس قد فزعوا وقد أعتقوا رقيقهم وسيبوا أنعامهم، فقال لهم: لا تعجلوا وانظروا، فإن كانت النجوم التي تعرف أي وهي التي يهتدي بها في البر والبحر، وتعرف بها الأنواء فهي عند فناء الناس، وإن كانت لا تعرف فهي من حدث، فنظروا فإذا نجوم لا تعرف، فقالوا: هذا من حدث.

أي وقد روى مسلم أنه قال: «النجوم أمانة السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما يوعدون، وأن أمانة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمانة لأمتي، فإذا ذهبت أصحابي أتى أمتي ما يوعدون، فلم يلبثوا حتى سمعوا بالنبى.»

وفي لفظ: فما مكثوا إلا يسراً حتى قدم الطائف أبو سفيان بن حرب فقال: ظهر محمد بن عبد الله يدعي أنه نبي مرسل. وهذا قد يخالف ما يأتي عن ابن عمر «لما كان اليوم الذي تنبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم منعت الشياطين من خبر السماء بالشهب» ولا مانع من تكرر سؤال ثقيف مرة لعمر بن أمية ومرة لعبد يا ليل بن عمرو، وأن كلا منهما كان أعمى. ويحتمل اتحاد الواقعة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298
ووقع الاختلاف في اسم الذي سأله، فسماء بعضهم عمرو بن أمية، وبعضهم سماه عبد يا ليل بن عمرو، هذا كما ترى إنما كان عند المبعث، وبه يعلم ما في قول الماوردي الذي نقله عن شيخ بعض شيوخنا النجم الغيطي في معراجه وأقره.

وسببه أي رمي النجوم أن الله تعالى لما أراد بعثة محمد رسولاً كثر انقضاض الكواكب قبل مولده، ففزع أكثر العرب منها، وفزعوا إلى كاهن لهم ضيرير وكان يخبرهم بالحوادث فسأله عنها، فقال: انظروا البروج الاثني عشر، فإن انقض منها شيء فهو ذهاب الدنيا، وإن لم ينقض منها شيء فسيحدث في الدنيا أمر عظيم، فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم كان هو الأمر العظيم، فإنه يقتضي أن المراد ببعثه ولادته فكان يتعين إسقاط قوله قبل مولده، لما علمت أن هذا: أي كثرة تساقط النجوم إنما كان عند بعثه ونبوته لا عند ولادته. ومنه خبر أبي لهب أو لهيب بن مالك أي من بني لهب، فإن بني لهب فزعوا لفزع ثقيف. قال: «حضرت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت عنده الكهانة، فقلت: بأبي وأمي، نحن أول من عرف حراسة السماء ومنع الجن من استراق السمع، وذلك أنا اجتمعنا إلى كاهن يقال له خطر. بالخاء المعجمة والطاء المهملة والراء ابن مالك. قال في النور: لا أعرف له ترجمة إلا إسلاماً، وكان شيخاً كبيراً قد أتت عليه مائتا سنة وثمانون سنة، وكان من أعلم كهاننا، فقلنا له يا خطر هل عندك علم من هذه النجوم التي يرمي بها؟ فإننا قد فزعنا لها وخفنا سوء عاقبتها، فقال اتنوني بسحر أي قبيل الفجر أخبركم الخبر الخير، أم ضرر أم لأمن أو حذر. قال. فانصرفنا عنه يومنا فلما

كان من الغد في وجه السحر أتيناه، فإذا هو قائم على قدميه شاخص في السماء بعينيه، فناديناه: يا خطر يا خطر، فأوماً إلينا أن أمسكوا فأمسكنا فانقض نجم عظيم من السماء وصرخ الكاهن رافعاً صوته أصابه أصابه، جمع وصب كجمل وجمال، فالهمزة بدل من الواو، خامره عقابه، عاجله عذابه، أحرقه شهابه، زايه جوابه: أي زال عنه جوابه، يا وليه ما حاله، بلبله بلباله، البلبال الغم، عاوده خباله، تقطعت حباله، وغيرت أحواله، ثم أمسك طويلاً، ثم قال: يا معشر بني قحطان، أخبركم بالحق والبيان، أقسم بالكعبة والأركان، والبلد المؤمن

السدان أي الخدام، قد منع السمع عتاة الجان، بثاقب يكون ذا سلطان، من أجل مبعوث عظيم الشان، يبعث بالتنزيل والفرقان، وبالهدى وفاضل القرآن، تبطل به عبادة الأوثان، قال فقلنا له: ويا خطر إنك لتذكر أمراً عظيماً، فماذا ترى لقومك؟ فقال:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

أرى لقومي ما أرى لنفسي

أن يتبعوا خير نبي الإنس

برهانه مثل شعاع الشمس

يبعث في مكة دار الحمس

بمحكم التنزيل غير اللبس والحمس بضم الحاء المهملة وإسكان الميم والسين المهملة: هم قريش وما ولدت من غيرها فإنهم كانوا لا يزوجون بناتهم لأحد من أشرف العرب إلا على شرط أن يتحمس أولادهم، فإن قريشاً من بين قبائل العرب دانوا بالحمس، ولذلك تركوا الغزو، لما في ذلك من استحلال الأموال والفروج ومالوا للتجارة، ومن ثم يقال: قريش الحمس، سموا بذلك لتشددهم في دينهم، لأن الحماسة هي الشدة، فقلنا له: يا خطر ومن هو؟ فقال والحياة والعيش، إنه لمن قريش، ما في حكمه طيش. أي عدول عن الحق، من قولهم طاش السهم عن الهدف: إذا عدل عنه، ولا في خلقه هيش. أي ليس في طبيعته وسجيته قول قبيح، يكون في جيش، وأي جيش، من آل قحطان، وآل أيش، وآل قحطان هم الأنصار، قال: «رحى الإيمان دائرة في ولد قحطان» وآل أيش قبيلة من الجن المؤمنين، ينسبون إلى أبيهم أيش، شخص من كبير الجن. وقيل أراد بهم المهاجرين. أي ومن المهاجرين الذي يقال فيهم أيش، لأنه يقال في مقام المدح فلان أيش على معنى أي شيء هو؟ أي شيء عظيم لا يمكن أن يعبر عن عظمته وجلالته. وروي بدل أيش ريش. فقلنا له بين لنا من أي قريش؟ فقال: والبيت ذي الدعائم، يعني الكعبة، والركن يعني الحجر الأسود والأحائم، يعني بئر زمزم لأن الأحائم جمع أحوام والأحوام جمع أحوم وهو الماء في البئر؟ وأراد بئر زمزم أو أن الأصل الحوائم، ففيه قلب مكان الأصل فواعل فصار أفاعل، والحوائم: هي الطير التي تحوم على الماء، والمراد حمام

مكة لهو نجل أي نسل هاشم، من معشر أكارم، يبعث بالملاحم يعني الحروب وقتل كل ظالم، ثم قال هذا هو البيان: أخبرني به رئيس الجان، ثم قال الله أكبر، جاء الحق وظهر، وانقطع عن الجن الخبر، ثم سكن وأغمي عليه فما أفاق إلا بعد ثلاثة أيام، فقال لا إله إلا الله، فقال رسول الله: «سبحان الله لقد نطق عن مثل نبوة» أي وحي وإنه ليبعث يوم القيامة أمة وحده: أي مقام جماعة كما تقدم في نظيره.

قال: ومن ذلك ما رواه مسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن نفر من الأنصار قالوا: «بيننا نحن جلوس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم رمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما كنتم تقولون في هذا النجم الذي يرمى به في الجاهلية؟» أي قبل البعث قالوا: يا رسول الله كنا نقول إذا رأينا يرمى بها: مات ملك ولد مولود، مات مولود، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس ذلك كذلك، ولكن الله سبحانه وتعالى كان إذا قضى في خلقه أمراً سمعته حملة العرش فسبحوا فسبح من تحتهم بتسبيحهم فسبح من تحت ذلك، فلا يزال التسبيح يهبط حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فيسبحوا، ثم يقول بعضهم لبعض لم سبحتم؟ فيقولون: قضى الله في خلقه كذا وكذا له الأمر الذي كان» أي يكون في الأرض «فيهبط به من سماء إلى سماء» أي تقوله أهل كل سماء لمن يليهم «حتى ينتهي إلى السماء الدنيا فتسترقه الشياطين بالسمع على توهم واختلاس، ثم يأتون به إلى الكهان، فيحدثونهم فيخطئون بعضاً ويصيبون بعضاً».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

أي وفي البخاري «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كالسلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمى بها إلى صاحبه فيحرقه» الحديث. وقولهم قال الحق: أي ثم يذكرونه، لما تقدم من قولهم قضى الله في خلقه كذا وكذا، ولما يأتي. وقوله، يرمى بها في الجاهلية صريح في أنه كان يرمى بالنجوم للحراسة في زمن الفترة بينه وبين عيسى عليه الصلاة والسلام قبل مولده. وبخالفه ما يأتي عن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه «وقد سئل عن الكهان؟ فقال: إنهم ليسوا بشيء، فقالوا: يا رسول الله إنهم يحدثوننا أحياناً بالشيء يكون حقاً، قال: تلك الكلمة من الجن يخطفها الجن فيقذفها في أذن وليه فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة» ثم إن الله تعالى حجب الشياطين بهذه النجوم التي يقذفون بها فانقطعت الكهانة اليوم فلا كهانة.

أي وفي البخاري أنه قال: «إن الملائكة تتحدث في العنان - أي الغمام - بالأمر يكون في الأرض، فتسمع الشياطين الكلمة فتقرها في أذن الكاهن، فيزيدونها مائة كذبة».

وعن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه «لم يرم بنجم منذ رفع عيسى عليه الصلاة والسلام حتى تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى بها، فلما رأت قريش أمراً لم تكن تراه فزعوا لعبد يا ليل» الحديث.

أقول: وهذا يفيد أنه لم يرم بها قبل مبعثه: أي قبل قربه الشامل لزمن الولادة، فلا يخالف ما تقدم، وأن النجوم كان يرمى بها قبل أن يرفع عيسى عليه الصلاة والسلام وذلك صادق بزمن آدم فمن بعده من الرسل، وهو الموافق لقول الزهري: الحجب وتساقط النجوم كان موجوداً قبل البعث في سالف الأزمان: أي في زمن الرسل لا في زمن الفترات بين الرسل، لقول الكشاف: وقول بعضهم: ظاهر الأخبار يدل على أن الرجم للشياطين بالشهب كان في زمن غيره من الرسل وهو كذلك، وعليه أكثر المفسرين - حراسة لما ينزل من الوحي على الرسل. وأما في الزمن الذي ليس فيه رسول: أي وهو زمن الفترات بين الرسل، فكانوا يسترقون السمع في مقاعد لهم، ويلقون ما يسمعون للكهان: أي لأن الله تعالى ذكر فائتين في خلق النجوم، فقال تعالى: {ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين} وقال تعالى {إننا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظاً من كل شيطان مارد} وكونها إنما جعلت رجوماً وحفظاً ليس إلا عند قرب مبعثه، خاصة دون بقية الرسل من أبعد البعيد.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وحيث كان الغرض من الرمي بالنجوم منع الشياطين من استراق السمع اقتضى ذلك أنه لم يرم بها قبل مبعثه، ومنه زمن ولادته.

ويوافق ذلك قول ابن إسحاق: لما تقارب أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وحضر مبعثه حجت الشياطين، وقول ابن عمر رضي الله تعالى عنهما: «لما كان اليوم الذي تنبأ فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم منعت الشياطين من خير السماء، رموا بالشهب فذكروا ذلك لإبليس، فقال: بعث أي لعله بعث نبي، عليكم بالأرض المقدسة أي لأنها محل الأنبياء، وهذا يدل على أن عند إبليس أن الرمي بالنجوم علامة على بعث الأنبياء، فذهبوا ثم رجعوا، فقالوا ليس بها أحد، فخرج إبليس يطلبه بمكة: أي لأنها مظنة ذلك بعد محل الأنبياء، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم بحراء منحدرًا معه جبريل، فرجع إلي أصحابه، فقال: بعث أحمد ومعه جبريل». وفي رواية «إن إبليس قال لما أخبروه بأنهم منعوا من خير السماء: إن هذا الحدث حدث في الأرض، فأتوني من تربة كل أرض فاتوه بذلك، فجعل يشمها، فلما شم تربة مكة قال: من ههنا الحدث، فمضوا فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعث».

أقول: قد يقال لا منافاة بين الروايتين، لأنه يجوز أنهم لم يخبروه بمبعثه لما وجدوه، فذهب أو ذهب بعد إخبارهم له بذلك للاستيقان، وهذا يفيد أن الرمي بالنجوم إنما كان عند مبعثه: أي عند تقارب زمنه لا قبل ذلك الذي منه زمن ولادته. وحينئذ يشكل حصول مثل ذلك لإبليس وجنوده عند مولده. ومن ثم قدمنا أنه يجوز أن يكون من خلط بعض الرواة، وهذه الرواية تدل على أن إبليس لم يكن عنده علم بأن سقوط النجم على الشياطين علامة على مبعث النبي صلى الله عليه وسلم والرواية التي قبلها تدل على ذلك كما علمت. وكلتا الروايتين يدل على أنه لم يعلم عينه ولا محله والله أعلم، وقد أشار صاحب الهمزية إلى أن حجب الشياطين كان عند مبعثه بقوله:

بعث الله عند مبعثه الشهب
ب حراساً وضاق عنها الفضاء

تطرد الجن عن مقاعد للسم
ع كما يطرد الذئب الرعاء
محت آية الكهانة آيا
ت من الوحي ما لهن انمحاء

أي أرسل الله زمن إرساله الشعل من النار على الجن لأجل حراسة السماء منهم، ولكثرة تلك الشعل ضاقت عنها المفازات حال كون تلك الشهب تطرد الجن عن أمكنة قريبة يقعدون فيها لأجل أن يسمعوا شيئاً من الملائكة المتكلمين بما سيقع في الأرض من المغيبات، وطرد تلك الشهب لأولئك الشياطين في الشدة كطرد الرعاة للذئب عن الغنم إذا أرادت أن تعدو عليها، فبسبب ذلك الطرد البالغ للجن عن خبر السماء محت آيات من الوحي آية الكهانة التي هي الإخبار بالأمور المغيبة، ما لتلك الآيات من الوحي انمحاء: أي ذهاب، بل هي باقية إلى يوم القيامة. وفيه أنه لزم على كون الغرض من الرمي بالنجوم حفظ الوحي أن ذلك لا يكون إلا عند مبعثه ولا يكون قبل ذلك الذي قبل منه وقت ولادته. وأيضاً لو كان ذلك موجوداً قبل مبعثه واستمر إلى مبعثه لم تفزع العرب منه عند مبعثه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وأجيب عن الأول بأنه يجوز أن يكون الغرض الأصلي من الرمي بها حفظ الوحي، فلا ينافي وجود ذلك قبل ذلك عند ولادته إرهاباً وتخويفاً.

وكان هذا السؤال الثاني هو الحامل لأبي بن كعب علي دعوى أنه لم يرم بالنجوم منذ رفع عيسى عليه الصلاة والسلام حتى تنبأ رسول الله صلى الله عليه وسلم رمى بها، ومن ثم قال: فلما رأته قريش أمراً لم تكن تراه فزعوا لعبد يا ليل. ويجاب بأنه يجوز أن يكون الرمي بالنجوم عند المبعث مخالفاً للرمي بها قبله، إما لفرط كثرتها وإما لأن الرمي بها بعد المبعث كان من كل جانب. وقيل كان من جانب واحد، وإما لأن الرمي بها صار لا يخطيء أبداً، وقبل ذلك كان يخطيء تارة ويصيب أخرى، فمنهم من يقتله، ومنهم من يحرق وجهه، ومنهم من يخيله: أي يصيره غولاً يضل الناس في البراري، وكان ذلك سبب فزع العرب لأنه كان قبل ذلك لم يكن من كل جانب، ولم يكثر ويخطيء فيعود الشيطان إلى مكانه فيسترق السمع ويلقي ما يسترقه إلى كاهنه أي فلم تنقطع الكهانة قبل مبعثه بالمرّة، بل كانت موجودة إلى زمن مبعثه، وعند مبعثه انقطعت بالمرّة ومن ثم قال: «لا كهانة اليوم» وهذا كله على تسليم رواية ابن عباس أن النجوم رمى بها عند ولادته. وحفظ الوحي بالرمي بالشهب لا يخالف ما حكاه في الإتيان عن سعيد بن جبير «ما جاء جبريل بالقرآن إلى النبي صلى الله عليه وسلم إلا ومعه أربعة من الملائكة حفظة» وسيأتي عن النبي عن ابن جبريل «ما نزل جبريل بوحى قط إلا ونزل معه من الملائكة حفظة يحيطون به وبالنبي الذي يوحى إليه يطردون الشياطين عنهما، لئلا يسمعوا ما يبلغه جبريل إلى ذلك النبي من الغيب الذي يوحى إليه فيبلغوه إلى أوليائهم».

وعن بعضهم قال: سافرت عن زوجتي فخلفني عليها شيطان على صورتي وكلامي وسائر حالاتي التي تعرفها مني، فلما قدمت من السفر لم تفرح بي ولم تتهيا لي، وكانت إذا قدمت من سفر تتهيا لي كما تتهيا العروس فقلت لها في ذلك، فقالت: إنك لم تغب، فبينما أنا كذلك، وقد ظهر لي ذلك الشيطان وقال لي أنا رجل من الجن عشقت امرأتك وكنت آتيا في صورتك فلا تنكر ذلك، فاختر إما أن يكون لك الليل ولي النهار، أو لك النهار ولي الليل، فراعني ذلك ثم اخترت النهار، فلما كان في بعض الليالي جاني وقال: بت الليلة عند أهلك فقد حضرت نوبتي في استراق السمع من السماء فقلت: أنت تسترق السمع؟ فقال: نعم هل لك أن تكون معي؟ قلت: نعم، فلما جاء الليل أتاني، وقال حوّل وجهك فحولت وجهي، فإذا هو في صورة خنزير له جناحان فحملني على ظهره فإذا له معرفة كمعرفة الخنزير، فقال لي: استمسك بها فإنك ترى أموراً وأهوالاً فلا تفارقني تهلك، ثم صعد حتى لصق بالسماء فسمعت قائلاً يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن» فهوى بي ووقع من وراء العمران فحفظت الكلمات فلما أصبحت أتيت أهلي، فلما كان الليل جاء فقلتهن، فاضطرب، فلم أزل أقولهن حتى صار رماداً، وإن لم يحمل وقوع ذلك في زمن الجاهلية وإلا كان كذباً لأنهم أجابوا عن إيراد أن القول بقدره الجن على التصور يلزمه رفع الثقة بشيء، فإن من رأى نحو ولده وزوجته احتمل أنه جني فيشك بأن الله تكفل لهذه الأمة بعصمتها عن أن يقع فيها ما يؤدي إلى ما يترتب عليه ريبة في الدين فليتأمل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وقد جاء في فضل لا حول ولا قوة إلا بالله «من كثرت همومه وغمومه فليكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله، والذي نفسي بيده إن لا حول ولا قوة إلا بالله شفاء من سبعين داء أدناها الهمّ والغم والحزن» وفرق بين الغم والهم، بأن الغم يعرض منه السهر، والهم يعرض منه النوم.

وفي حكمة آل داود: العافية ملك خفي، وهم ساعة هرم سنة. وقال الأطباء: الهم يوهن القلب، وفيه ذهاب الحياة، كما أن في الحزن ذهاب البصر. وفي الحديث «من كثر همه سقم بدنه» فعلم أن النجوم على تسليم أنه كان يرمي بها قبل الولادة وبعدها إلى البعثة كانت قبل قرب زمن المبعث تصيب تارة ولا تصيب أخرى مع قلتها، وعند البعثة تصيب ولا بد مع كثرتها، وإن الكثرة هي سبب الفزع لا دوام الإصابة، وإلا فمجرد دوام الإصابة لا يكون حاملاً على الفزع لأنه لا يظهر لكل أحد، بخلاف الكثرة، ومجرد الكثرة لا يكون سبباً لقطع الكهانة، أو أنها قبل البعث كانت ترمي من جانب دون آخر، وبعد البعثة رميت من جميع الجوانب وإليه الإشارة بقوله تعالى: {ويقذفون من كل جانب دحوراً} فكان ذلك سبباً للفزع، والمراد وجود ذلك مع دوام الإصابة ليكون سبباً لقطع الكهانة، وإلا فمجرد الرمي من كل جانب مع قلة الإصابة لا يكون سبباً لقطع الكهانة، ولما انقطعت الكهانة بعدم إخبار الجن قالت العرب هلك من في السماء، فجعل صاحب الإبل ينحر كل يوم بعيراً، وصاحب البقر ينحر كل يوم بقرة، وصاحب الغنم ينحر كل يوم شاة حتى أسرعوا في أموالهم أي في

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

إتلافها، فقالت ثقيف وكانت أعقل العرب: أيها الناس أمسكوا على أموالكم، فإنه لم يمت من في السماء، أستم ترون معالمكم من النجوم كما هي، والشمس والقمر؟ كذا في كلام بعضهم، ولعله لا يخالف ما تقدم من أن أول العرب فزع للرمي بالنجوم ثقيف، وأنهم جاؤوا إلى رجل منهم يقال له عمرو بن أمية، ولرجل آخر يقال له عبد يا ليل، لجواز أن يكون ما ذكر هنا صدر من بعضهم لبعض، ثم اجتمعوا على عمرو وعبد ياليل والله أعلم.

وظاهر القرآن والأخبار أن الذي يرمي به الشياطين المسترقون نفس النجم، وإنه المعبر عنه بالكوكب والمصباح والشهاب. وقيل الشهاب عبارة عن شعلة نار تنفصل من النجم أي كما قدمنا فأطلق عليها لفظ النجم، ولفظ المصباح، ولفظ الكوكب، ويكون معني {وجعلناها رجوماً} جعلنا منها رجوماً وهي تلك الشهب، ومعنى كونها حفظاً باعتبار ما ينشأ عنها من تلك الشهب. وقالت الفلاسفة: إن الشهب إنما هي أجزاء نارية تحصل في الجو عند ارتفاع الأبخرة المتصاعدة واتصالها بالنار التي دون الفلك. وقيل السحاب إذا اصطكت أجرامه تخرج نار لطيفة حديدة لا تمر بشيء إلا أتت عليه، إلا أنها مع حدتها سريعة الخمود. فقد حكى أنها سقطت على نخلة فأحرقت نحو النصف ثم طفئت قاله في الكشف.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

ومما يؤيد أن الشعل منفصلة من النجوم، ما جاء عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه أن النجوم كلها كالقناديل معلقة في السماء الدنيا كتعليق القناديل بالمساجد مخلوقة من نور. وقيل إنها معلقة بأيدي ملائكة، وبعض هذا القول قوله تعالى: {إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت} إن انتشارها يكون بموت من كان يحملها من الملائكة. وقيل إن هذا ثقب في السماء، وقد وقع في سنة تسع وتسعين من القرن السادس أن النجوم ماجت وتطايرت تطاير الجراد، ودام ذلك إلى الفجر وأفزع الخلق، فلجؤوا إلى الله تعالى بالدعاء قال بعضهم: ولم يعهد ذلك إلا عند ظهور رسول الله . أقول: وقد وقع نظير ذلك في سنة إحدى وأربعين من القرن الثالث: ماجت النجوم في السماء، وتناثرت الكواكب كالجراد أكثر الليل، كان أمراً مزعجاً لم ير مثله. ووقع في سنة ثلثمائة تناثر النجوم تناثراً عجيباً إلى ناحية المشرق، والله أعلم.

وأما ما جاء من ذكره: أي ذكر اسمه وصفته وصفة أمته في الكتب القديمة: أي كالتوراة المنزلة على موسى عليه الصلاة والسلام لست ليال خلون من رمضان اتفاقاً. والإنجيل المنزل على عيسى عليه الصلاة والسلام لثنتي عشرة خلت من رمضان، وقيل لثلاث عشرة، وقيل لثمان عشرة. والزبور المنزل على داود عليه الصلاة والسلام لثنتي عشرة، وقيل لثلاث عشرة، وقيل لثمان عشرة، وقيل في ست خلت من رمضان، وصحف شعبياء، ويقال له أشعياء أو مزامير داود. وصحف بشيئ، فقد أنزلت عليه خمسون صحيفة، وقيل ستون. وصحف إبراهيم، فقد أنزل عليه عشرون صحيفة، وقيل ثلاثون أول ليلة من

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

رمضان اتفاقاً. وفي كتاب شعيب: ولم يذكر صحف إدريس، وقد أنزلت عليه ثلاثون صحيفة.

وذكر بعضهم أن موسى عليه الصلاة والسلام أنزل عليه قبل التوراة عشرون صحيفة، وقيل عشر صحائف، وهذا كما لا يخفى يزيد على ما اشتهر أن الكتب المنزلة مائة وأربعة كتب.

وفي كلام بعضهم اتفقوا على أن القرآن أنزل لأربع وعشرين ليلة خلت من رمضان. وعن أبي قلابة «أنزلت الكتب كاملة ليلة أربع وعشرين من رمضان» وحينئذ يكون من حكي الاتفاق في التوراة وصحف إبراهيم لم يطلع على هذا أو لم يعتد به، فقد أشار إلى ذكره في جميع الكتب المنزلة الإمام السبكي رحمه الله تعالى في تائيته بقوله:

وفي كل كتب الله نعتك قد أتى

يقص علينا ملة بعد ملة

وهذا كما لا يخفى أبلغ من قول بعضهم:

ومن قبل مبعثه جاءت مبشرة

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

به زبور وتوراة وإنجيل

وقد اعترض علي هذا القائل بعض الأغبياء بأن التوراة والإنجيل قد صحت بشارتهما به . وأما الزبور فلا ندري ولا نقول إلا ما نعلم. ويرده ما ذكره الإمام السبكي، وسنده قوله تعالى: { وإنه لفي زبر الأولين } أي كتبهم. فقد قال بعض المفسرين إن الضمير عائد إلى النبي ، لأن الإضافة حيث لا عهد تحمل على العموم، وسيأتي أيضاً التصريح بوجود اسمه في الزبور وقد جاء «إن اسمه في التوراة أحمد، بحمده أهل السماء والأرض» كما تقدم.

وقد قيل في سبب نزول قوله تعالى: { ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه } أن عبد الله بن سلام رضي الله تعالى عنه دعا ابني أخيه سلمة ومهاجر إلى الإسلام فقال لهما: قد علمتما أن الله تعالى قال في التوراة إنني باعث من ولد إسماعيل نبياً اسمه أحمد من آمن به فقد اهتدي ورشد، ومن لم يؤمن به فهو ملعون، فأسلم سلمة وأبي مهاجر، فأنزل الله الآية، وفيها أيضاً محمد واسمه فيها أيضاً حمياطاً، وقيل: أي يحمي الحرم من الحرام. واسمه في التوراة أيضاً قدمايا: أي الأول السابق، واسمه فيها أيضاً بيندين. واسمه أيضاً أحييد وقيل أحييد: أي يمنع نار جهنم عن أمته، واسمه فيها أيضاً طاب طاب: أي طيب. واسمه فيها أيضاً كما في الشفاء محمد حبيب الرحمن، ووصف فيها بالضحوك: أي طيب النفس. وفيها محمد بن عبد الله ولده بمكة، ومهاجره إلى طابة، وملكه بالشام. والتوراة أي على فرض أن تكون اسماً عربياً مأخوذة من التورية وهو كتمان السر بالتعريض، لأن أكثرها معاريف من غير تصريح. واسمه في الإنجيل المنحمن، والمنحمن بالسريانية: محمد.

أي وما جاء عن سهل مولى خيثة. قال: كنت يتيماً في حجر عمي فأخذت الإنجيل فقرأته حتى مرت لي ورقة ملصقة بغراء ففتقتها فوجدت فيها وصف محمد ، فجاء عمي، فلما رأى الورقة ضربني. وقال: ما لك وفتح هذه الورقة وقراءتها، فقلت فيها وصف النبي أحمد، فقال: إنه لم يأت بعد: أي الآن.

أي وفي الإنجيل أيضاً اسمه حبنطاً: أي يفرق بين الحق والباطل، ووصفه بأنه صاحب المدرعة وهي الدرع، وفيه أيضاً وصفه بأنه يركب الحمار والبعير، وسيأتي أن راكب الحمار عيسى عليه الصلاة والسلام، وراكب الجمل محمد، وسيأتي الجواب. وفي الإنجيل إن أحببتموني فاحفظوا وصيتي، وأنا أطلب إلى ربي فيعطيك بارقليط، والبارقليط لا يجئكم ما لم أذهب، فإذا جاء وبخ العالم على الخطيئة، ولا يقول من تلقاء نفسه، ولكنه ما يسمع بكلمهم به، ويسوسهم بالحق، ويخبرهم بالحوادث والغيوب: أي وما جاء بذلك وأخبر بالحوادث والغيوب إلا محمد رسول الله، والبارقليط أو الفارقليط: الحكيم والرسول. قيل والإنجيل: أي على فرض أن يكون اسماً عربياً، مأخوذ من النجل: وهو الخروج، ومن ثم سمي الولد نجلاً لخروجه، أو مشتق من النجل: وهو الأصل، يقال لعن الله أناجيله: أي أصوله، فسمى هذا الكتاب بهذا الاسم لأنه الأصل المرجوع إليه في ذلك الدين. وقيل من النجلة وهي سعة العين لأنه أنزل وسعة لهم: أي لأن فيه تحليل بعض ما حرم عليهم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

ومن ذلك ما جاء من عطاء بن يسار قال: «لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله تعالى عنهما، فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: {يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً}، وحرزاً للأمينين، أنت عدي ورسولي، سميتك بالمتوكل، ليس بفظ: أي سيء الخلق، ولا غليظ: أي شديد القول، ولا سخاب بالسين والصاد في الأسواق: أي لا يصيح فيها» وفي الحديث «أشد الناس عذاباً كل جعار نعار سخاب في الأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء - أي ملة إبراهيم التي غيرتها العرب وأخرجتها عن استقامتها، بأن يقول لا إله إلا الله، يفتح به أعينا عمياً، وأذانا صماً، وقلوباً غلفاً» أي لا تفهم كأنها في غلاف. قال عطاء: ثم لقيت كعب الأخبار رضي الله تعالى عنه فسألته فما أخطأ في حرف.

أقول: لكن في رواية كعب: وأعطى المفاتيح، ليبصر الله به أعيناً عوراً، وليسمع به أذاناً صماً، ويقوم به السنة معوجة، يعين المظلوم، ويمنعه من أن يستضعف. وفيها وصفه بأنه يسبق حلمه جهله، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلاًماً.

وعن بعض أخبار اليهود أنه قال: على جميع ما وصف به في التوراة وقفت إلا هذين الوصفين، وكنت أشتهي الوقوف عليها، فجاءه شخص يطلب منه ما يستعين به، وذكر له أنه لم يكن عنده ما يعينه به، فقلت: هذه دنائير ندفعها له، وتكون على كذا من التمر ليوم كذا ففعل، فجئته قبل الأجل بيومين أو ثلاثة، فأخذت بمجامع قميصه وردائه، ونظرت إليه بوجه غليظ وقلت: ألا تقصيني يا

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

محمد حقي؟ إنكم يا بني عبد المطلب مطل، فقال لي عمر: أي عدو الله: تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما أسمع وهم بي، فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم في سكون وتؤدة وتبسم، ثم قال: «أنا وهو أحوج إلى غير هذا منك يا عمر، أن تأمرني بحسن الأداء، وتأمره بحسن التباعة - أي المطالبة - اذهب وأوفه حقه، وزده عشرين صاعاً مكان ما روعته أي خفته فأسلم اليهودي» وذكر القصة.

وفي التوراة: لا يزال الملك في يهود إلى أن يجيء الذي إياه تنتظر الأمم: أي لا يزال أمرهم ظاهراً إلى أن يجيء الذي تنتظره الأمم. أي المرسل إليهم وهو محمد، لأنه المرسل لجميع الأمم.

وما زعمه اليهود بأنه يوشع رد بنص التوراة في محل آخر: إن الله ربكم يقيم نبياً من إخوانكم مثلي، وقد قال لي: إنه سوف يقيم نبياً مثلك من إخوانهم، وأجعل كلمتي في فيه، وأيما إنسان لم يطع كلامه أنتقم منه، لأن قوله مثلي: أي رسولاً بكتاب مشتمل على الأحكام والشرائع، وذكر المبدأ والمعاد، لأن يوشع لم يكن له كتاب، بل كان متابِعاً لسنة موسى عليه الصلاة والسلام في بني إسرائيل خاصة، وأيضاً يوشع منهم لا من إخوانهم، فلو كان يوشع لقال منكم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وما زعمه النصارى إنه المسيح ردّ عليهم بنصوص الإنجيل التي منها: إن الله يقيم لكم نبياً من إخوانكم، لأن المسيح ليس من إخوانهم بل منهم، لأنه من نسل داود. ففي زبور داود: سيولد لك ولد ادعى له أبا ويدعى لي ابناً، وإخوة بني إسرائيل إنما هم أولاد إسماعيل الذي هو أخو إسحق وبنو إسرائيل منه. وأيضاً لو كان المسيح لم يحسن أن يخاطب بهذا اللفظ.

وفي الإنجيل: جاء الله من طور سيناء، وظهر بساعير، وأعلن بفاران: أي عرف الله بإرساله موسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم، لأن ظهور نبوة موسى كان في طور سيناء، وتقدم أنه جبل بالشام. قيل هو الذي بين مصر وإيليا، وأنزلت التوراة عليه فيه. وظهر نبوة عيسى كان في ساعير وهو جبل القدس، لأن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يسكن بقرية بأرض الخليل يقال لها ناصرة، وباسمها سمي من اتبعه، وأنزل عليه الإنجيل بها. وظهر نبوة محمد كان في فاران وهي مكة، وأنزل عليه القرآن بها.

وفي التوراة أن إسماعيل أقام بقرية فاران، وإنما عبر في جانب موسى بالمجيء لأنه أول المشرعين، لأن كتابه الذي هو التوراة أول كتاب اشتمل على الأحكام والشرائع، بخلاف ما قبله من الكتب فإنها لم تشتمل على ذلك، وإنما كانت مشتملة على الإيمان بالله تعالى وتوحيده، ومن ثم قيل لها صحف، وإطلاق الكتب عليها مجاز. ولما حصل بعيسى وبكتابه الذي هو الإنجيل نوع ظهور عبر في جانبه بالظهور الذي هو أقوى من المجيء، ثم لما زاد الظهور بمجيء محمد عبر عنه بالإعلان الذي هو أقوى من مجرد الظهور.

وقد قيل في تفسير قوله تعالى: {الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل} إنهم يجدون نعتهم {بأمرهم بالمعروف} وهو مكارم الأخلاق وصلة الأرحام {وبنهاهم عن المنكر} وهو الشرك {ويحلّ لهم الطيبات} وهي الشحوم التي حرمت على بني إسرائيل، والبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام التي حرمتها الجاهلية {ويحرم عليهم الخبائث} التي كانت تستحلها الجاهلية من الميتة والدم ولحم الخنزير {ويضع عنهم إصرهم} من تحريم العمل يوم السبت، وعدم قبول دية المقتول، وأن يقطعوا ما أصابهم من البول والله أعلم. ومن ذلك ما جاء عن النعمان السبائي رضي الله تعالى عنه وكان من أحبار يهود باليمن قال: لما سمعت بذكر النبي صلى الله عليه وسلم قدمت عليه وسألته عن أشياء، ثم قلت له: إن أبي كان يختم على سفر ويقول لا تقرأه على يهود حتى تسمع بنبي قد خرج بيثرب فإذا سمعت به فافتحه. قال النعمان: فلما سمعت بك فتحت السفر، فإذا فيه صفتك كما أراك الساعة، وإذا فيه ما تجل وما تحرم، وإذا فيه أنت خير الأنبياء، وأمتك خير الأمم، واسمك أحمد، وأمتك الحمادون: أي يحمدون الله في السراء والضراء قربانهم دماؤهم: أي يتقربون إلى الله سبحانه وتعالى بإراقة دمائهم في الجهاد، وأنجيلهم في صدورهم: أي يحفظون كتابهم، لا يحضرون قتالاً إلا وجيرل معهم، يتحنن الله عليهم كتحنن الطير على فراخه، ثم قال لي: يعني أباه: إذا سمعت به فاخرج إليه وأمن به وصدقه، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع أصحابه حديثه، فاتاه يوماً فقال له النبي: «يا نعمان حدثنا، فابتدأ النعمان الحديث من أوله، فرؤى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسم، ثم قال: أشهد أني رسول الله».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وما زعمه النصارى إنه المسيح ردّ عليهم بنصوص الإنجيل التي منها: إن الله يقيم لكم نبياً من إخوتكم، لأن المسيح ليس من إخوتهم بل منهم، لأنه من نسل داود. ففي زبور داود: سيولد لك ولد ادعى له أباً ويدعى لي ابناً، وإخوة بني إسرائيل إنما هم أولاد إسماعيل الذي هو أخو إسحق وبنو إسرائيل منه. وأيضاً لو كان المسيح لم يحسن أن يخاطب بهذا اللفظ.

وفي الإنجيل: جاء الله من طور سيناء، وظهر بساعير، وأعلن بفاران: أي عرف الله بإرساله موسى وعيسى ومحمداً صلوات الله وسلامه عليهم، لأن ظهور نبوة موسى كان في طور سيناء، وتقدم أنه جبل بالشام. قيل هو الذي بين مصر وإيليا، وأنزلت التوراة عليه فيه. وظهر نبوة عيسى كان في ساعير وهو جبل القدس، لأن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يسكن بقرية بأرض الخليل يقال لها ناصرة، وباسمها سمي من اتبعه، وأنزل عليه الإنجيل بها. وظهر نبوة محمد كان في فاران وهي مكة، وأنزل عليه القرآن بها.

وفي التوراة أن إسماعيل أقام بقرية فاران، وإنما عبر في جانب موسى بالمجيء لأنه أول المشرعين، لأن كتابه الذي هو التوراة أول كتاب اشتمل على الأحكام والشرائع، بخلاف ما قبله من الكتب فإنها لم تشتمل على ذلك، وإنما كانت مشتملة على الإيمان بالله تعالى وتوحيده، ومن ثم قيل لها صحف، وإطلاق الكتب عليها مجاز. ولما حصل بعيسى وكتابه الذي هو الإنجيل نوع

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

ظهور عبر في جانبه بالظهور الذي هو أقوى من المجيء، ثم لما زاد الظهور بمجيء محمد عبر عنه بالإعلان الذي هو أقوى من مجرد الظهور.

وقد قيل في تفسير قوله تعالى: {الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل} إنهم يجدون نعتهم {بأمرهم بالمعروف} وهو مكارم الأخلاق وصلة الأرحام {وبينهاهم عن المنكر} وهو الشرك {ويحلّ لهم الطيبات} وهي الشحوم التي حرمت على بني إسرائيل، والبحيرة، والسائبة، والوصيلة، والحام التي حرمتها الجاهلية {ويحرم عليهم الخبائث} التي كانت تستحلها الجاهلية من الميتة والدم ولحم الخنزير {ويضع عنهم إصرهم} من تحريم العمل يوم السبت، وعدم قبول دية المقتول، وأن يقطعوا ما أصابهم من البول والله أعلم. ومن ذلك ما جاء عن النعمان السبائي رضي الله تعالى عنه وكان من أخبار يهود باليمن قال: لما سمعت بذكر النبي صلى الله عليه وسلم قدمت عليه وسألته عن أشياء، ثم قلت له: إن أبي كان يختم على سفر ويقول لا تقرأه على يهود حتى تسمع بنبي قد خرج بيثرب فإذا سمعت به فافتحه. قال النعمان: فلما سمعت بك فتحت السفر، فإذا فيه صفتك كما أراك الساعة، وإذا فيه ما تحل وما تحرم، وإذا فيه أنت خير الأنبياء، وأمتك خير الأمم، واسمك أحمد، وأمتك الحمادون: أي يحمدون الله في السراء والضراء قربانهم دماؤهم: أي يتقربون إلى الله سبحانه وتعالى بإراقة دمائهم في الجهاد، وأناجيلهم في صدورهم: أي يحفظون كتابهم، لا يحضرون قتالاً إلا وجبريل معهم، يتحنن الله عليهم كتحنن الطير على فراخه، ثم قال لي: يعني أباه: إذا سمعت به فاخرج إليه وأمن به وصدقه، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب أن يسمع أصحابه حديثه، فاتاه يوماً فقال له النبي: «يا نعمان حدثنا، فابتدأ النعمان الحديث من أوله، فرؤى رسول الله صلى الله عليه وسلم يتسم، ثم قال: أشهد أني رسول الله».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

أقول: والنعمان هذا قتله الأسود العنسي الذي ادعى النبوة، وقطعه عضواً عضواً وهو يقول: إن محمداً رسول الله، وإنك كذاب مفتر على الله، ثم حرقه بالنار: أي ولم يحترق كما وقع للخليل. وقيل الذي أحرقه الأسود العنسي بالنار ولم يحترق ذؤيب بن كليب أو ابن وهب، ولما بلغه ذلك قال لأصحابه، فقال عمر: الحمد لله الذي جعل في أمتنا مثل إبراهيم الخليل، وهذا السفر يحتمل أن يكون ملخصاً من التوراة، وقوله إلا وجبريل معهم يدل على أن جبريل يحضر كل قتال صدر من الصحابة رضي الله تعالى عنهم للكفار، بل ظاهره كل قتال صدر حتى من جميع الأمة. وفي رواية بعضهم نقلاً عن سفر من التوراة: لا يلقون أي أمتهم، عدواً إلا وبين أيديهم ملائكة معهم رماح. وفي التوراة في صفة أمتهم زيادة على ما سبق: يؤضؤون أطرافهم، ويتأزرون في أوساطهم، يصفون في صلاتهم كما يصفون في قتالهم. وقد جاء «أئتروا كما رأيت الملائكة» أي ليلة الإسراء «تأترز» أي مؤتزره عند

ربها إلى أنصاف سوقها.
وقد جاء «عليكم بالعمائم وأرخوها خلف ظهوركم فإنها سيما الملائكة»
وكلاهما أي الاتزار وإرخاء العذبة من خصائص هذه الأمة.
وقد جاء «إن العمائم تيجان المسلمين» وفي رواية «من سيما المسلمين» أي
علاماتهم المميزة لهم عن غيرهم.
ويؤخذ من وصفهم بأنهم يوضؤون أطرافهم أن الأمم السابقة كانوا لا
يتوضؤون، ويوافق قول الحافظ ابن حجر: إن الوضوء من خصائص الأنبياء
دون أممهم إلا هذه الأمة، ويوافق ما رواه ابن مسعود مرفوعاً «يقول الله
تبارك وتعالى: افترضت عليهم أن يتطهروا في كل صلاة كما افترضت على
الأنبياء» أي أن يكونوا طاهرين، أو أن هذا أي وجوب الطهر لكل صلاة كان في
صدر الإسلام ولم ينسخ إلا في فتح مكة كما سيأتي.

ويخالف كون الوضوء من خصائص هذه الأمة ما رواه الطبراني في الأوسط
بسند فيه ابن لهيعة عن بريدة قال: «دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم
بوضوء فتوضأ واحدة واحدة فقال: هذا الوضوء الذي لا يقبل الله الصلاة إلا به،
ثم توضأ ثنتين ثنتين فقال: هذا وضوء الأمم قبلكم، ثم توضأ ثلاثاً ثلاثاً ثم قال:
هذا وضوئي ووضوء الأنبياء من قبلي» فإن هذا يفيد أن الوضوء كان للأمم
السابقة، لكن مرتين ولأنبيائهم كان ثلاثاً، وعليه فالخاص بهذه الأمة التثليث
كوضوء الأنبياء: أي كما اختصت هذه الأمة عمن عداها بالغرة والتحجيل.
وعلى هذا يحمل قول ابن حجر الهيتمي إن الوضوء من خصائص هذه الأمة
بالنسبة لبقية الأمم لا لأنبيائهم.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298
وفي كلام ابن عبد البر قيل إن سائر الأمم كانوا يتوضؤون، ولا أعرفه من وجه
صحيح. وفي كلام ابن حجر: والذي من خصائصنا إما الكيفية المخصوصة أو
الغرة والتحجيل، هذا كلامه، وهو يفيد أن كون الكيفية المخصوصة ومنها
الترتيب من خصائصنا غير مقطوع به، بل الأمر فيه على الاحتمال.
ولا يخفى أن الإشارة في قوله: «هذا وضوء الأمم» يدل على الترتيب، فقد
استدل أئمتنا على وجوب الترتيب بأنه لم يتوضأ إلا مرتباً باتفاق أصحابه، ولو
كان جائزاً لتركه في بعض الأحيان. وما اعترض به على دعوى الاتفاق بأنه جاء
عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه وصف وضوءه «فتوضأ فغسل وجهه
ثم يديه ثم رجليه ثم مسح رأسه» أجيب عنه بضعف هذه الرواية.
وعلى تقدير صحتها يجوز أن يكون ابن عباس نسي مسح الرأس فذكره بعد
غسل رجليه فمسحه ثم أعاد غسل رجليه. والراوي عن ابن عباس لم يقف
على إعادة ابن عباس غسل رجليه.

وفي التوراة في صفة أمته: «دويهم في مساجدهم كدوي النحل» وفي رواية:
«أصواتهم بالليل في جو السماء كأصوات النحل، رهبان بالليل، ليوث بالنهار
وإذا هم أحدهم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة، وإن عملها كتبت له
عشر حسنة. وإذا هم أحدهم بسيئة فلم يعملها لم تكتب، وإن عملها كتبت

عليه سيئة واحدة، يأمرهم بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويؤمنون بالكتاب الأول: أي وهو التوراة أو جنس الكتب السابقة والكتاب الآخر: أي وهو القرآن. وروى الإمام أحمد وغيره بإسناد صحيح قال الله تعالى لعيسى: يا عيسى إني باعث من بعدك نبياً، أمته إن أصابهم ما يحبون حمدوا وشكروا وإن أصابهم ما يكرهون صبروا واحتسبوا ولا حلم ولا علم. قال: كيف يكون ذلك لهم ولا حلم ولا علم؟ قال: أعطيتهم من حلمي وعلمي. وحينئذ يكون المراد ولا حلم ولا علم لهم كامل، وأن الله تعالى يكمل علمهم وحلمهم من علمه وحلمه، ويدل لذلك ما ذكره بعضهم أن هذه الأمة آخر الأمم فكان العلم والحلم الذي قسم بين الأمم كما شهد به حديث «إن الله قسم بينكم أخلاقكم» قد دق جداً فلم يدرك هذه الأمة إلا يسير من ذلك مع قصر أعمارهم فأعطاهم الله من حلمه وعلمه. وجاء أنهم مسمون في التوراة: صفوة الرحمن. وفي الإنجيل: حلما علماء أبرار أتقياء كأنهم من الفقه أنبياء. وفي الطبراني أن عمر قال لكعب الأحبار: كيف تجدني يعني في التوراة؟ قال خليفة قرن من حديد، أمير شديد، لا تخاف في الله لومة لائم. وزاد عن جواب السؤال قوله: ثم الخليفة من بعدك يقتله أمة ظالمون له ثم يقع البلاء بعد. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وفي صحف شعبياء اسمه ركن المتواضعين. وفيها: إني باعث، نبياً أمياً أفتح به أذناً صماً، وقلوباً غلفاً، وأعيناً عمياً، مولده بمكة ومهاجرته بطيبة، ومملكه بالشام، رحيماً بالمؤمنين، يبكي للبهيمة المثقلة، ويبكي لليتيم في حجر الأرملة، لو يمر إلى جنب السراج لم يطفئه من سكينته ولو يمشي على القضيب الرعراع يعني اليابس لم يسمع من تحت قدميه، إلى آخر الرواية فإن فيها طويلاً، وقد ساقها الجلال السيوطي في الخصائص الكبرى. وشعبياء هذا كان بعد داود وسليمان، وقبل زكريا ويحيى عليهم الصلاة والسلام. ولما نهى بني إسرائيل عن ظلمهم وعتوهم طلبوه ليقتلوه فهرب منهم فمر بشجرة فانفلقت له ودخل فيها وأدركه الشيطان فأخذ بهدبة ثوبه فأبرزها، فلما رأوا ذلك جاؤوا بالمنشار فوضعوه على الشجرة فنشروها ونشروه معها. وكان من جملة الرسل الذي عناهم الله تعالى بقوله: {وقفينا من بعده} أي موسى {بالرسل} وهم سبعة، وهو ثالث تلك الرسل السبعة: أي وهو المبشر بعيسى ومحمداً، فقال يخاطب بيت المقدس لما شكاه الخراب وإلقاء الجيف فيه: أبشر يأتيك راكب الحمار، يعني عيسى، وبعده راكب الجمل يعني محمد، وتقدم في وصفه أنه يركب الحمار والبعير. وقد يقال: لا مخالفة، لأنه يجوز أن يكون عيسى اختص بركوب الحمار، بخلاف محمد فإنه كان يركبهما، هذا تارة وهذا أخرى، فليتأمل: ومن جملتهم أرمياء، قيل وهو الخضر، والله أعلم. واسمه في الزبور حاط حاط، والفلاح الذي يمحق الله به الباطل وفارق وفاروق. أي يفرق بين الحق والباطل، وهو كما تقدم معنى فارقليط أو بارقليط، بالفاء في الأول والموحدة في الثاني.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وقيل معناه الذي يعلم الأشياء الخفية، وفي (النبوع) ومن الألفاظ التي رضوها لأنفسهم، يعني النصاري وترجموها على اختيارهم أن المسيح عليه الصلاة والسلام قال: إني أسأل الله أن يبعث إليك بارقليط آخر يكون معكم إلى الأبد، وهو يعلمكم كل شيء، ويفسر لكم الأسرار، وهو يشهد لي كما شهدت له، ويكون خاتم النبيين، ولم يشهد له بالبراءة والصدق في النبوة بعده إلا محمد . وقد ذكر صاحب الدر المنظم بإسناده أن النبي ، قال لعمر رضي الله تعالى عنه: «يا عمر أتدري من أنا؟ أنا الذي بعثني الله في التوراة لموسى، وفي الإنجيل لعيسى، وفي الزبور لداود ولا فخر» أي لا أقول ذلك علي سبيل الافتخار، بل على سبيل التحدث بالنعمة «يا عمر أتدري من أنا؟ أنا اسمي في التوراة أحيد، وفي الإنجيل البارقليط، وفي الزبور حمياطا، وفي صحف إبراهيم طاب طاب ولا فخر».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وذكر صاحب كتاب (شفاء الصدور) في مختصره أن من فضائله ما رواه مقاتل بن سليمان قال: وجدت مكتوباً في زبور داود. إني أنا الله لا إله إلا أنا ومحمد رسولي، ووصف في مزامير داود بأنه يقوي الضعيف الذي لا ناصر له، ويرحم المساكين ويبارك عليه في كل وقت، ويدوم ذكره إلى الأبد. وبالجبارة، ففيها تقلد أيها الجبار سيفك.

فإن قيل: قال الله تعالى: {وما أنت عليهم بجبار}. أجيب بأن الأول هو الذي يجبر الخلق إلى الحق. والثاني هو المتكبر. وفيها: يا داود سيأتي من بعدك نبي اسمه أحمد ومحمد صادقاً لا أغضب عليه أبداً، ولا يعصيني أبداً، وقد غفرت له قبل أن يعصيني ما تقدم من ذنبه وما تأخر: أي على فرض وقوع ذلك الذنب، والمراد به خلاف الأولى من باب: حسنات الأبرار سيئات المقربين: أي ما يعد حسنة بالنسبة لمقام الأبرار قد يعدّ سيئة بالنسبة لمقام المقربين، لعلّ مقامهم وارتفاع شأنهم وأمتهم مرحومة، يأتون يوم القيامة ونورهم مثل نور الأنبياء.

وفي بعض مزامير داود: إن الله أظهر من صهيون إكليلاً محموداً، وصهيون: اسم مكة. والإكليل: الإمام الرئيس وهو محمد . وفي صحف شيث: أخونا، ومعناه صحيح الإسلام، وهذا يدل على أن مزامير داود نسخة مختلفة بالزيادة والنقص.

وفي صحف إبراهيم اسمه يوذمود. وقيل إن ذلك في التوراة، ولا مانع من وجوده فيهما. وتقدم أنه في صحف إبراهيم اسمه طاب طاب، ولا مانع من وجود الوصفين في تلك الصحف.

وفي كتاب شعيب عليه السلام: عبدي الذي يثبت شأنه، أنزل عليه وحيي فيظهر في الأمم عدلي، لا يضحك: أي مع رفع الصوت، ومن ثم قال: ولا يسمع صوته في الأصوات، لأن ضحكه كان التبسم، يفتح العيون العور والأذان الصم، ويحيي القلوب الغلف، وما أعطيته لا أعطيه أحداً. وفيه أيضاً مشقح بالشين المعجمة والقاف والحاء المهملة: أي زاهي، يحمد الله حمداً جديداً، أي مخترعاً لم يسبقه إليه أحد، يأتي من أقصى الأرض، لعل المراد به مكة، به تفرح البرية وسكانه، وهو ركن المتواضعين، وهو نور الله الذي لا يطفأ، سلطانه على كتفه. وذكر البرية وسكانها إشارة لدولة العرب، والمراد

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

بسلطانه على كتفه خاتم النبوة لأنه علامة وبرهان على نبوته.
أي وذكر ابن ظفر أن في بعض كتب الله المنزلة: إني باعث رسولاً من
الأميين، أسدده بكل جميل، وأهب له كل خلق كريم، وأجعل الحكمة منطقته،
والصدق والوفاء طبيعته، والعفو والمعروف خلقه، والحق شريعته، والعدل
سيرته، والإسلام ملته، أرفع به من الوضيعة، وأهدي به من الضلالة، وأؤلف به
بين قلوب متفرقة وأهواء مختلفة، وأجعل أمته خير الأمم.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298
وأما ما جاء مما يدل على وجود اسمه الشريف أعني لفظ محمد مكتوباً في
الأحجار والنبات والحيوان وغير ذلك بقلم القدرة فكثير.

من ذلك ما جاء عن جابر بن عبد الله رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول
الله: «كان نقش خاتم سليمان بن داود عليهما الصلاة والسلام: لا إله إلا الله
محمد رسول الله» قال: المراد فص خاتمه.
فعن عبادة بن الصامت رضي الله تعالى عنه مرفوعاً: «إن فص خاتم سليمان
بن داود كان سماوياً: أي من السماء، ألقي إليه فوضعه في خاتمه» أي وكان
به انتظام ملكه، وكان نقشه «أنا الله لا إله إلا أنا محمد عبدي ورسولي»
وحينئذ يكون ما تقدم عن جابر وما يأتي يجوز أن يكون روي بالمعنى. وكان
ينزعه إذا دخل الخلاء وإذا جامع، وكان عند نزعه يتنكر عليه أمر الناس ولم يجد
من نفسه ما كان يجده قبل نزعه.
وفي (أنس الجليل) «كان نقش خاتم سليمان لا إله إلا الله وحده لا شريك له
محمد عبده ورسوله» ووجد على بعض الحجارة القديمة مكتوب: محمد تقي
مصلح، وسيد أمين. وفي جامع مدينة قرطبة بالمغرب عمود أحمر مكتوب فيه
بقلم القدرة «محمد».

وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله: «لما
اقترب آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد إلا غفرت لي، قال وكيف
عرفت محمداً» وفي لفظ كما في (الوفاء) وما محمد ومن محمد؟ قال: لأنك
لما خلقتني بيدك ونفخت في من روحك رفعت رأسي فرأيت على قوائم
العرش مكتوباً لا إله إلا الله محمد رسول الله، فعلمت أنك لم تضيف إلى
اسمك إلا أحب الخلق إليك، قال: صدقت يا آدم، ولولا محمد لما خلقتك» أي
وفي لفظ كما في (الشفاء) «قال آدم لما خلقتني رفعت رأسي إلى عرشك،
فإذا فيه مكتوب: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، فعلمت أنه ليس أحد أعظم
قدراً عندك ممن جعلت اسمه مع اسمك، فأوحى الله تعالى إليه، وعزتي
وجلالتي إنه لآخر النبيين من ذريتك، ولولاه ما خلقتك».

وفي الوفاء، عن ميسرة «قلت: يا رسول الله متى كنت نبياً. قال: لما خلق
الله الأرض واستوى إلى السماء فسواهن سبع سموات، وخلق العرش، كتب
على ساق العرش: محمد رسول الله خاتم الأنبياء، وخلق الله الجنة التي
أسكنها آدم وحواء، وكتب اسمي، أي موصوفاً بالنبوة أو بما هو أخص منها وهو
الرسالة على ما هو المشهور، على الأبواب والأوراق والقباب والخيام، وأدم

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

بين الروح والجسد - أي قبل أن تدخل الروح جسده - فلما أحياه الله نظر إلى العرش فرأى اسمي فأخبره الله تعالى أنه سيد ولدك، فلما غرهما الشيطان تابا واستشفعا باسمي إليه» أي فقد وصف بالنبوة قبل وجود آدم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وفيه أيضاً عن سعيد بن جبير اختصم ولد آدم أي الخلق أكرم على الله تعالى؟ فقال بعضهم: آدم خلقه الله بيده وأسجد له ملائكته. وقال آخرون: بل الملائكة لأنهم لم يعصوا الله عز وجل، فذكروا ذلك لآدم، فقال: لما نفخ في الروح لم تبلغ قدمي حتى استويت جالساً فبرق إلى العرش فنظرت فيه محمد رسول الله فذاك أكرم الخلق على الله عز وجل. قيل وكان يكنى آدم بأبي محمد وبأبي البشر، وظاهره أنه كان يكنى بذلك في الدنيا، وتقدم أنه يكنى بأبي محمد في الجنة.

ومن ذلك ما جاء عن عمر بن الخطاب أيضاً رضي الله تعالى عنه، قال لكعب الأحبار رضي الله تعالى عنه: أخبرنا عن فضائل رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مولده، قال: نعم يا أمير المؤمنين. قرأت أن إبراهيم الخليل وجد حجراً مكتوباً عليه أربعة أسطر الأول: أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني. والثاني: أنا الله لا إله إلا أنا محمد رسولي، طوبى لمن آمن به وأتبعه. والثالث: أنا الله لا إله إلا أنا الحرم لي، والكعبة بيتي من دخل بيتي آمن من عذابي، ولينظر الرابع.

أي وذكر بعضهم أن في سنة أربع وخمسين وأربعمائة عصفت ريح شديدة بخراسان كريح عاد انقلب منها الجبال وفرت منها الوحوش، فظن الناس أن القيامة قد مات، وابتهلوا إلى الله تعالى، فنظروا فإذا نور عظيم قد نزل من السماء على جبل من تلك الجبال ثم تأملوا الوحوش؟ فإذا هي منصرفة إلى ذلك الجبل الذي سقط فيه ذلك النور، فساروا معها إليه فوجدوا به صخرة طولها ذراع في عرض ثلاثة أصابع وفيها ثلاثة أسطر. سطر فيه {لا إله إلا أنا فاعبدون}. وسطر فيه محمد رسول الله القرشي. وسطر ثالث، فيه احذروا وقعة المغرب فإنها تكون من سبعة أو تسعة. والقيامة قد أزفت أي قربت. وجاء أن آدم عليه الصلاة والسلام قال: طفت السموات فلم أر في السموات موضعاً إلا رأيت اسم محمد مكتوباً عليه، ولم أر في الجنة قصراً ولا غرفة إلا اسم محمد مكتوب عليه، ولقد رأيت اسمه على نحور الحور العين وورق آجام أي ورق قص آجام الجنة، وشجرة طوبى، وسدرة المنتهى والحجب، وبين أعين الملائكة، وهذا الحديث قد حكم بعض الحفاظ بوضعه.

أي وقد قيل: إن أول شيء كتب القلم في اللوح المحفوظ: بسم الله الرحمن الرحيم، إني أنا الله لا إله إلا أنا محمد رسولي، من استسلم لقضائي، وصبر على بلائي وشكر على نعمائي، ورضي بحكمي، كتبته صديقاً، وبعثته يوم القيامة من الصديقين. وفي رواية: مكتوب في صدر اللوح المحفوظ: لا إله إلا الله، دينه الإسلام محمد عبده ورسوله، فمن آمن بهذا أدخله الله الجنة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وفي رواية «لما أمر الله القلم أن يكتب ما كان وما يكون كتب على سرادق العرش: لا إله إلا الله محمد رسول الله» يتأمل هذا فإنه إن كان المراد كما هو المتبادر أن القلم لما أمر أن يكتب ما ذكر كان أول شيء كتبه على سرادق العرش ما ذكر ثم تمم كتابة ما أمر به على ذلك كما كتب أول ما ذكر البسملة في اللوح المحفوظ ثم تمم كتابة ما أمر به يلزم أن يكون القلم كتب ما كان وما يكون في اللوح وعلى سرادق العرش.

ومن ذلك ما جاء عن عمر بن الخطاب أيضاً رضي الله تعالى عنه عن النبي: «إن آدم عليه الصلاة والسلام قال: وجدت اسم محمد على ورق شجرة طوبى، وعلى ورق سدرة المنتهى: أي وعلى ورق قصب أجام الجنة، ومن ثم قال السيوطي في الخصائص الكبرى: من خصائصه كتابة اسمه الشريف مع اسم الله تعالى على العرش. وفيها: ولقد خلقت العرش على الماء فاضطرب فكتبت عليه لا إله إلا الله محمد رسول الله فسكن» ومكتوب اسمه على سائر ما في الملكوت: أي من السموات والجنان وما فيهن.

وفي (الخصائص الصغرى) له أيضاً: ومن خصائصه كتابة اسمه الشريف على العرش وكل سماء والجنان وما فيها وسائر ما في الملكوت.

أقول: ولا يخالف هذا: أي ما تقدم عن آدم ما جاء على تقدير صحته أن آدم لما نزل إلى الأرض استوحش فنزل جبريل عليه السلام فنأدى بالأذان: الله أكبر الله أكبر مرتين، أشهد أن لا إله إلا الله مرتين، أشهد أن محمداً رسول الله مرتين، قال آدم: من محمد؟ قال جبريل: هو آخر ولدك من الأنبياء لجواز أن يكون آدم عليه السلام أراد أن يستثبت هل هو محمد الذي رأى اسمه مكتوباً وأخبر بأنه آخر الأنبياء من ذريته، وأنه لولاه ما خلقه واستشفع به أو غيره فليتأمل. وإنما قلنا على تقدير صحته لأنه سيأتي في بدء الأذان أن في سند هذا الحديث مجاهيل.

وذكر صاحب كتاب (شفاء الصدور) في مختصره عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل أنه قال: «يا محمد وعزتي وجلالي لولاك ما خلقت أرضي ولا سمائي، ولا رفعت هذه الخضراء، ولا بسطت هذه الغبراء». وفي رواية عنه «ولا خلقت سماءً ولا أرضاً ولا طولاً ولا عرضاً».

وبهذا يرد على من رد على القائل في مدحه:

لولاه ما كان لا فلك ولا فلك

كلا ولا بان تحريم وتحليل

بأن قوله لولاه ما كان لا فلك ولا فلك مثل هذا يحتاج إلى دليل، ولم يرد في

الكتاب ولا في السنة ما يدل على ذلك، فيقال له: بل جاء في السنة ما يدل

على ذلك، والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

ومن ذلك ما حدث به بعضهم قال: غزونا الهند فوقع في غيضة فإذا فيها شجر عليه ورق أحمر مكتوب عليه بالبياض: لا إله إلا الله محمد رسول الله. وعن بعضهم: رأيت في جزيرة شجرة عظيمة لها ورق كبير طيب الرائحة، مكتوب عليه بالحمرة والبياض في الخضرة كتابة بينة واضحة خلقة ابتدعها الله تعالى بقدرته، في الورقة ثلاثة أسطر: الأول لا إله إلا الله، والثاني محمد

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

رسول الله، والثالث إن الدين عند الله الإسلام. وعن بعض آخر قال: دخلت بلاد الهند فرأيت في بعض قراها شجر ورد أسود ينفث عن وردة كبيرة سوداء طيبة الرائحة مكتوب عليها بخط أبيض: لا إله إلا الله محمد رسول الله أبو بكر الصديق. عمر الفاروق، فشككت في ذلك وقلت إنه معمول، فعمدت إلى وردة كبيرة لم تفتح فرأيت فيها كما رأيت في سائر الورق وفي البلد منها شيء كثير، وأهل تلك البلد يعبدون الحجارة. ونقل ابن مرزوق في شرح البردة عن بعضهم قال: عصفت بنا ريح ونحن في لبحر الهند فأرسينا في جزيرة، فرأينا فيها ورداً أحمر ذكي الرائحة مكتوب عليه بالأصفر: براءة من الرحمن الرحيم إلى جنات النعيم، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

أي ومن ذلك ما حكاه بعضهم قال: رأيت في بلاد الهند شجرة تحمل ثمرًا يشبه اللوز له قشران، فإذا كسر خرج منه ورقة خضراء مطوية، مكتوب عليها بالحمرة: لا إله إلا الله محمد رسول الله كتابة جلية، وهم يتبركون بتلك الشجرة، ويستسقون بها إذا منعوا الغيث. هذا وفي (مزيل الخفاء) الاقتصار على لا إله إلا الله: أي وحينئذ لا يكون شاهداً على ما ذكرنا. أي ومن ذلك ما حكاه الحافظ السلفي عن بعضهم أن شجرة ببعض البلاد لها أوراق خضراء، وعلى كل ورقة مكتوب بخط أشد خضرة من لون الورق: لا إله إلا الله محمد رسول الله، وكان أهل تلك البلاد أهل أوثان، وكانوا يقطعونها ويبقون أثرها فترجع إلى ما كانت عليه في أقرب وقت، فأذابوا الرصاص وجعلوه في أصلها. فخرج من حول الرصاص أربع فروع على كل فرع لا إله إلا الله محمد رسول الله، فصاروا يتبركون ويستشفون بها من المرض إذا اشتد ويخلقونها بالزعفران وأجل الطيب. ومن ذلك أنه وجد في سنة سبع أو تسع وثمانمائة حبة عنب، فيها بخط بارع، بلون أسود «محمد».

ومن ذلك ما ذكره بعضهم أنه اصطاد سمكة مكتوب على جنبها الأيمن: لا إله إلا الله، وعلى جنبها الأيسر: محمد رسول الله، قال: فلما رأيتها ألقيتها في النهر احتراماً لها.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وعن بعض آخر قال: ركبت بحر الغرب ومعنا غلام معه سنارة فأدلاها في البحر فاصطاد سمكة قدر شبر بيضاء، فنظرنا فإذا مكتوب بالأسود على أذنها الواحدة: لا إله إلا الله، وفي قفاها وخلف أذنها الأخرى: محمد رسول الله فقدفناها.

وعن بعضهم أنه ظهرت له سمكة بيضاء، وإذا على قفاها مكتوب بالأسود: لا إله إلا الله محمد رسول الله.

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا بطائر في فمه لوزة خضراء فألقاها فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم فوجد فيها دودة خضراء مكتوب عليها بالأصفر: لا إله إلا الله محمد

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

رسول الله». ومن ذلك ما حكاه بعضهم أنه كان بطبرستان قوم يقولون لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ولا يقرون لمحمد بالرسالة، وحصل منهم افتتان؟ ففي يوم شديد الحر ظهرت سحابة شديدة البياض، فلم تزل تنشأ حتى أخذت ما بين الخافقين، وأحالت بين السماء والبلد، فلما كان وقت الزوال ظهر في السحابة بخط واضح: لا إله إلا الله محمد رسول الله، فلم تزل كذلك إلى وقت العصر، فتاب كل من كان افتتن، وأسلم أكثر من كان بالبلد من اليهود والنصارى.

ومن ذلك ما جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قال: بلغني في قول الله تعالى: {وكان تحته كنز لهما} قال: كان لوحاً من ذهب. وقيل لوح من رخام مكتوب فيه: عجباً لمن أيقن بالموت: أي بأنه يموت كيف يفرح، عجباً لمن أيقن بالحساب: أي أنه يحاسب كيف يغفل، عجباً لمن أيقن بالقضاء: أي أن الأمور بالقضاء والقدر كيف يحزن، عجباً لمن يرى الدنيا وتقلبها بأهلها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله. وروى البيهقي وغيره عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه أن الكنز الذي ذكره الله تعالى في كتابة لوح من ذهب، فيه بسم الله الرحمن الرحيم: عجباً لمن أيقن بالقدر ثم ينصب أي يتعب. عجباً لمن ذكر النار ثم يضحك. عجباً لمن ذكر الموت ثم غفل، لا إله إلا الله محمد رسول الله، وفي لفظ: لا إله إلا أنا محمد عبدي ورسولي.

وفي تفسير القاضي البيضاوي: عجباً لمن يؤمن بالقدر كيف يحزن، وعجباً لمن يؤمن بالرزق: أي أن الله رازقه كيف ينصب أي يتعب، وعجباً لمن يؤمن بالموت كيف يفرح، وعجباً لمن يؤمن بالحساب كيف يغفل، وعجباً لمن يعرف الدنيا وتقلبها كيف يطمئن إليها، لا إله إلا الله محمد رسول الله.

أقول: قد يقال يجوز أن يكون ما ذكر أولاً في أحد وجهي ذلك اللوح، وما ذكر ثانياً في الوجه الثاني، أو أن بعض الرواة زاد، وبعضهم نقص، وبعضهم روى بالمعنى وحفظ ذلك الكنز لأجل صلاح أبيهما وكان تاسع أب لهما. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وقد قال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وبقعته التي هو فيها والدويرات حوله، فلا يزالون في حفظ الله وستره. ويذكر أن بعض العلوية هم هارون الرشيد بقتله، فلما دخل عليه أكرمه وخلق سبيله فقيل له: بماذا دعوت حتى نجاك الله؟ فقال قلت: يا من حفظ الكنز على الصبيين لصلاح أبيهما احفظني منه لصلاح آبائي، كذا في العرائس، والله أعلم.

ومن ذلك ما جاء عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: «مكتوب بين كتفي آدم محمد رسول الله خاتم النبيين». أي وذكر بعضهم أنه شاهد في بعض بلاد خراسان مولوداً، على أحد جنبيه مكتوب: لا إله إلا الله وعلى الآخر محمد رسول الله أي ومن ذلك ما حكاه بعضهم قال: ولد عندي في عام أربعة وسبعين وستمائة جدي أسود غرته بيبضاً على شكل الدائرة، وفيها مكتوب «محمد» بخط في غاية الحسن والبيان. وما حكاه بعضهم قال: شاهدت ببلدة من بلاد إفريقية بالمغرب رجلاً بيباض عينه اليمنى من أسفل، مكتوب بعرق أحمر كتابة مليحة «محمد رسول الله».

وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني نفعا الله تعالى ببركته في كتابه (لواقح الأنوار القدسية في قواعد السادة الصوفية)، وفي يوم كتابتي لهذا الموضوع رأيت علماً من أعلام النبوة، وذلك أن شخصاً أتاني برأس خروف شواها وأكلها وأراني فيها مكتوباً بخط إلهي على الجبين: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق، يهدي به من يشاء، يهدي به من يشاء. قال الشيخ عبد الوهاب: وتكرير ذلك لحكمة، فإن الله لا يسهو، هذا كلامه. وقد يقال: لعل الحكمة التأكيد لعلو مقام الهداية، كيف وهو المجانب لمقام الضلالة والغواية.

وعن الزهري قال: شخصت إلي هشام بن عبد الملك، فلما كنت بالبلقاء رأيت حجراً مكتوباً عليه بالعبرانية، فأرشدت إلى شيخ يقرؤه، فلما قرأه ضحك وقال: أمر عجيب، مكتوب عليه: باسمك اللهم، جاء الحق من ربك بلسان عربي مبين، لا إله إلا الله محمد رسول الله وكتبه موسى بن عمران. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

وقد قال محمد بن المنكدر: إن الله يحفظ بالرجل الصالح ولده وولد ولده وبقعته التي هو فيها والدويرات حوله، فلا يزالون في حفظ الله وستره. ويذكر أن بعض العلوية هم هارون الرشيد بقتله، فلما دخل عليه أكرمه وخلي سبيله فقيل له: بماذا دعوت حتى نجاك الله؟ فقال قلت: يا من حفظ الكنز على الصبيين لصلاح أبيهما احفظني منه لصلاح آبائي، كذا في العرائس، والله أعلم.

ومن ذلك ما جاء عن جابر رضي الله تعالى عنه قال: «مكتوب بين كتفي آدم محمد رسول الله خاتم النبيين».

أي وذكر بعضهم أنه شاهد في بعض بلاد خراسان مولوداً، على أحد جنبيه مكتوب: لا إله إلا الله وعلى الآخر محمد رسول الله أي ومن ذلك ما حكاه بعضهم قال: ولد عندي في عام أربعة وسبعين وستمائة جدي أسود غرته بيبض على شكل الدائرة، وفيها مكتوب «محمد» بخط في غاية الحسن والبيان. وما حكاه بعضهم قال: شاهدت ببلدة من بلاد إفريقية بالمغرب رجلاً بيباض عينه اليمنى من أسفل، مكتوب بعرق أحمر كتابة مليحة «محمد رسول الله».

وذكر الشيخ عبد الوهاب الشعراني نفعا الله تعالى ببركته في كتابه (لواقح الأنوار القدسية في قواعد السادة الصوفية)، وفي يوم كتابتي لهذا الموضوع رأيت علماً من أعلام النبوة، وذلك أن شخصاً أتاني برأس خروف شواها وأكلها وأراني فيها مكتوباً بخط إلهي على الجبين: لا إله إلا الله محمد رسول الله، أرسله بالهدى ودين الحق، يهدي به من يشاء، يهدي به من يشاء. قال الشيخ عبد الوهاب: وتكرير ذلك لحكمة، فإن الله لا يسهو، هذا كلامه. وقد يقال: لعل الحكمة التأكيد لعلو مقام الهداية، كيف وهو المجانب لمقام الضلالة والغواية. وعن الزهري قال: شخصت إلي هشام بن عبد الملك، فلما كنت بالبلقاء رأيت حجراً مكتوباً عليه بالعبرانية، فأرشدت إلى شيخ يقرؤه، فلما قرأه ضحك وقال: أمر عجيب، مكتوب عليه: باسمك اللهم، جاء الحق من ربك بلسان عربي مبين، لا إله إلا الله محمد رسول الله وكتبه موسى بن عمران.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 298

باب: سلام الحجر والشجر عليه قبل مبعثه
عن سمرة قال: قال رسول الله: «إني لأعرف حجراً بمكة كان يسلم عليّ قبل أن أبعث، إني لأعرفه الآن» قال جاء في بعض الروايات أن هذا الحجر هو الحجر الأسود: أي وقيل غيره، وأنه هو الذي في زقاق بمكة يعرف بزقاق الحجر: أي ولعله غير الحجر الذي به أثر المرفق، ذكر أنه اتكأ عليه بمرفقه، وهو الذي يقال له زقاق المرفق وغير الحجر الذي به أثر الأصابع.
وروي «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أراد الله تعالى كرامته بالنبوة، كان إذا خرج لحاجة أي لحاجة الإنسان أبعد حتى لا يرى بناء، ويفضي إلى الشعاب وبطون الأودية، فلا يمر بحجر ولا شجر إلا قال: الصلاة والسلام عليك يا رسول الله، وكان يلتفت عن يمينه وشماله وخلفه فلا يرى أحداً» اهـ وإلى ذلك يشير صاحب الأصل بقوله:
لم يبق من حجر صلب ولا شجر
إلا وسلم بل هنا ما وهبا
وإلى ذلك يشير أيضاً صاحب الهمزية بقوله:

والجمادات أفصحت بالذي أخ
رس عنه لأحمد الفصحاء
أي والجمادات التي لا روح فيها نطقت بكلام فصيح لا تلثم فيه: أي بالشهادة له بالرسالة، ولم تنطق به أهل الفصاحة والبلاغة وهم الكفار من قريش وغيرهم.
وعن عليّ رضي الله تعالى عنه قال: «كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم بمكة، فخرجنا في بعض نواحيها، فما استقبله جبل ولا شجر إلا وهو يقول: السلام عليك يا رسول الله».
أقول: وإلى تسليم الحجر قبل البعثة يشير الإمام السبكي رحمه الله تعالى في تائيته بقوله:
وما جزت بالأحجار إلا وسلمت
عليك بنطق شاهد قبل بعثة
وأما حديث عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله: «لما أوحى إليّ جعلت لا أمرّ بحجر ولا شجر إلا قال السلام عليك يا رسول الله» وما ذكره بعضهم أن الجن قالوا له بمكة: من يشهد أنك رسول الله؟ قال تلك الشجرة، ثم قال لها من أنا؟ فقالت: رسول الله» فليس من المترجم له.
وفي الخصائص الصغرى: وخصى بتسليم الحجر، وبكلام الشجر، وبشهادتهما له بالنبوة، وإجابتهما دعوته.
وفي كلام السهيلي: يحتمل أن يكون نطق الحجر والشجر كلاماً مقروناً بحياة وعلم. ويحتمل أن يكون صوتاً مجرداً غير مقترن بحياة وعلم. وعلى كل هو علم من أعلام النبوة.
وفي كلام الشيخ محيي الدين بن العربي: أكثر العقلاء، بل كلهم يقولون عن الجمادات لا تعقل، فوقفوا عند بصرهم. والأمر عندنا ليس كذلك؟ فإذا جاءهم عن نبيٍّ أو وليٍّ أن حجراً كلمه مثلاً يقولون خلق الله فيه العلم والحياة في

ذلك الوقت. والأمر عندنا ليس كذلك بل سر الحياة سار في جميع العالم.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 361

وقد ورد «أن كل شيء سمع صوت المؤذن من رطب ويابس يشهد له، ولا يشهد إلا من علم وأطال في ذلك» وقال قد أخذ الله بأبصار الإنس والجن عن إدراك حياة الجماد إلا من شاء الله كنحن وأضرابنا، فإننا لا نحتاج إلى دليل في ذلك، لكون الحق تعالى قد كشف لنا عن حياتها عيناً وأسمعنا تسييحها ونطقها، وكذلك اندكاك الجبل لما وقع التجلي إنما كان ذلك منه لمعرفته بعظمة الله عز وجل، ولولا ما عنده من العظمة لما تدكدك، والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 361

باب: بيان حين المبعث وعموم بعثته

قال ابن إسحاق: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعين سنة بعثه الله رحمة للعالمين، وكافة للناس أجمعين. وكان الله قد أخذ له الميثاق على كل نبي بعثه قبله بالإيمان به، والتصديق له، والنصر على من خالفه، وأن يؤدوا ذلك إلى كل من آمن بهم وصدقهم: أي فهم وأممهم من حملة أمته كما سيأتي عن السبكي.

فعن أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه: «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث على رأس الأربعين». قال: وهذا هو المشهور بين الجمهور من أهل السير، والعلم بالأثر. وقيل بزيادة يوم. وقيل بزيادة عشرة أيام، وقيل بزيادة شهرين. وقيل بزيادة سنتين، وهو شاذ، وأكثر منه شذوذاً ما قيل إنه بزيادة ثلاث سنين، وما قيل إنه بزيادة خمس سنين. قال بعضهم: والأربعون هي سن الكمال، ونهاية بعث الرسل: أي لا يرسلون دونها، ومن ثم قال في الكشاف: ويروى أنه لم يبعث نبي إلا على رأس أربعين سنة، هذا كلام الكشاف. وأما ما يذكر عن المسيح أنه رفع إلى السماء وهو ابن ثلاث أو أربع وثلاثين سنة: أي ومعلوم أنه دعا إلى الله قبل ذلك، فهو قول شاذ حكاه وهب بن منبه عن النصارى اهـ: أي وعليه جرى غير واحد من المفسرين، بل قال في ينبوع الحياة: لم يبلغني أن أحداً من المفسرين ذكر في مبلغ سنة إذ رفع أكثر من ثلاث وثلاثين سنة هذا كلامه.

وفي الهدى: وأما ما يذكر عن المسيح أنه رفع إلى السماء وله ثلاث وثلاثون سنة، فهذا لا يعرف به أثر متصل يجب المصير إليه، هذا كلامه. وبوافق ما تقدم عن المفسرين وما في (العرائس): ولما تمت له يعني عيسى عليه الصلاة والسلام ثلاثون سنة أوحى الله تعالى إليه أن يبرز للناس، ويدعوهم، ويضرب الأمثال لهم، ويداوي المرضى والزمني والعميان والمجانين، ويقمع الشياطين، ويذلهم ويدحرهم، ففعل ما أمر به، وأظهر المعجزات، فأحيا ميتاً يقال له عازر بعد ثلاثة أيام من موته.

وعبارة الجلال المجلي في قطعة التفسير: أحيا عيسى عليه الصلاة والسلام أربعة. عازر صديقاً له، وابن العجوز، وابنة العاشر، وسام بن نوح، هذا كلامه. وذكر البغوي قصة كل واحد فراجع. وكان عيسى عليه الصلاة والسلام يمشي

على الماء، ومكث في الرسالة ثلاث سنوات ثم رفع، ويوافق ذلك أيضاً قول ابن الجوزي: وأما حديث: وما من نبي إلا نبىء بعد الأربعين فموضوع، لأن عيسى عليه الصلاة والسلام نبىء ورفع إلى السماء وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة، بل قيل نبىء وهو طفل، فاشتراط الأربعين في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ليس بشيء، هذا كلامه: أي وفيه أن هذا بمجرد لا يدل على وضع الحديث، ويوافقه أيضاً قول القاضي البيضاوي: ونبىء نوح وهو ابن خمسين سنة، وقيل أربعين، ويوافقه أيضاً قول بعضهم: ومما يدل على أن بلوغ الأربعين ليس شرطاً للنبوة، وقصة سيدنا يحيى صلوات الله وسلامه عليه بناء على أن الحكم في قوله تعالى: {وآتيناها الحكم صبياً} النبوة، لا الحكمة وفهم التوراة كما قيل بذلك، بل أحكم إليه عقله في صباه واستنباهه، قيل كان ابن سنتين أو ثلاث.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 362

ولما ولي الخلافة المقتدر وهو غير بالغ صنف الإمام الصولي له كتاباً فيمن ولي الأمر وهو غير بالغ، واستدل على جواز ذلك بأن الله بعث يحيى بن زكريا نبياً وهو غير بالغ، وذكر فيه كل من استعمله النبي صلى الله عليه وسلم من الصبيان. قال بعضهم: وهو كتاب حسن، فيه فوائد كثيرة. وكان ذبح يحيى قبل رفع عيسى عليهما الصلاة والسلام بسنة ونصف سنة. ومما يدل على ما تقدم عن الهدى: أي من إنكار أن عيسى عليه الصلاة والسلام رفع وله ثلاث وثلاثون سنة قول بعضهم: الأحاديث الصحيحة تدل على أنه إنما رفع وهو ابن مائة وعشرين سنة. من تلك الأحاديث قوله في مرض موته لابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها «أخبرني جبريل أنه لم يكن نبي إلا عاش نصف عمر الذي كان قبله، وأخبرني أن عيسى ابن مريم عاش عشرين ومائة سنة، ولا أراني إلا ذاهباً على رأس الستين» وفي الجامع الصغير «ما بعث الله نبياً إلا عاش نصف ما عاش الذي قبله» وعلى كون كل نبي عاش نصف ما عاش النبي الذي قبله يشكل أن نوحاً كان أطول الأنبياء عمراً، ومن ثم قيل له كبير الأنبياء، وشيخ المرسلين. وهو أول من تنشق عنه الأرض بعد نبينا، ثم رأيت أن الحافظ الهيثمي ضعف حديث: ما بعث الله نبياً إلا عاش نصف ما عاش النبي الذي قبله. وقال العماد بن كثير: إنه غريب جداً. وعن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم عام تبوك قام من الليل يصلي، فاجتمع رجال من أصحابه يحرسونه: أي ينتظرون فراغه من الصلاة، لأن نزول {والله يعصمك من الناس} كان قبل هذا، حتى إذا صلى وانصرف إليهم قال لهم: لقد أعطيت الليلة خمساً ما أعطيهن أحد قبلي» زاد في رواية «لا أقولهن فخراً. أما أولاهن فأرسلت إلى الناس كلهم عامة» أي من في زمنه وغيرهم ممن تقدم أو تأخر: أي وللشجر والحجر إلى آخر ما يأتي «وكان من قبلي» وفي لفظ «وكان كل نبي إنما يرسل إلى قومه» أي جميع أهل زمنه أو جماعة منهم خاصة. ومن الأول نوح، فإنه

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

كان مرسلًا لجميع من كان في زمنه من أهل الأرض، ولما أخبر بأنه لا يؤمن منهم إلا من آمن معه وهم أهل السفينة وكانوا ثمانين: أربعين رجلاً، وأربعين امرأة.

وفي عوارف المعارف: أصحاب السفينة، كانوا أربعمائة. وقد يقال من الأدميين وغيرهم فلا مخالفة، دعا على من عدا من ذكر باستئصال العذاب لهم، فكان الطوفان الذي كان به هلاك جميع أهل الأرض إلا من آمن، ولو لم يكن مرسلًا إليهم ما دعا عليهم بسبب مخالفتهم له في عبادة الأصنام، لقوله تعالى: {وما كنا معذبين} أي حتى في الدنيا {حتى نبعث رسولا}.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 362

وقد ثبت أن نوحاً أول الرسل: أي لمن يعبد الأصنام، لأن عبادة الأصنام أول ما حدثت في قومه وأرسله الله إليهم ينهاهم عن ذلك، وحينئذ لا يخالف كون أول الرسل آدم أرسله الله تعالى إلى أولاده بالإيمان بالله تعالى وتعليم بشرائه. وذكر بعضهم أنه كان مرسلًا لزوجته حواء في الجنة، لأن الله تعالى أمره أن يأمرها وينهاها في ضمن أخياره بأمره ونهيه، بقوله تعالى: {يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة} وذلك عين الإرسال كما ادعاه بعضهم.

فعلم أن عموم رسالة نوح عليه الصلاة والسلام لجميع أهل الأرض في زمنه لا يساوي عموم رسالة نبينا، لما علمت أن رسالته عامة حتى لمن يوجد بعد زمنه، وحينئذ يسقط السؤال وهو لم يبق بعد الطوفان إلا مؤمن، فصارت رسالة نوح عليه الصلاة والسلام عامة. ويسقط جواب الحافظ ابن حجر عنه بأن هذا العموم الذي حصل بعد الطوفان لم يكن من أصل بعثته بل طراً بعد الطوفان، بخلاف رسالة نبينا محمد، قيل كان بين الدعوة والطوفان مائة عام، وقد حققنا فيما سبق أن آدم ومن بعده دعا إلى الإيمان بالله تعالى وعدم الإشراك به، إلا أن الإشراك به وعبادة الأصنام اتفق أنه لم يقع إلا زمن نوح ومن بعده.

وأما قول اليهود أو بعضهم وهم العيسوية طائفة من اليهود أتباع عيسى الأصفهاني: إنه إنما بعث للعرب خاصة دون بني إسرائيل، وإنه صادق ففاسد، لأنهم إذا سلموا أنه رسول الله، وأنه صادق لا يكذب لزمهم التناقض، لأنه ثبت بالتواتر عنه أنه رسول الله لكل الناس.

أقول: قال بعضهم: ولا ينافيه قوله تعالى: {وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه} لأنه لا يدل على اقتصار رسالته عليهم، بل على كونه متكلماً بلغتهم ليفهموا عنه أولاً، ثم يبلغ الشاهد الغائب، ويحصل الإفهام لغير أهل تلك اللغة من الأعاجم بالتراجم الذين أرسل إليهم، فهو مبعوث إلى الكافة وإن كان هو وكتابه عربيين كما كان موسى وعيسى عليها الصلاة والسلام مبعوثين لبني إسرائيل بكتابيهما العبراني: أي وهو التوراة، والسرياني وهو الإنجيل، مع أن من جملتهم جماعة لا يفهمون بالعبرانية ولا بالسريانية كالأروام، فإن لغتهم اليونانية والله أعلم.

وأشار إلى الثانية من الخمس بقوله: «ونصرت بالرعب على العدو ولو كان بيني وبينه مسيرة شهر» أي أمامه وخلفه «يملاً مني رعباً» أي يقذف الرعب في قلوب أعدائه، وجعل الغاية شهراً لأنه لم يكن بين بلده وبين أحد من

أعدائه: أي المحاربين له أكثر من شهر.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 362
أي وجاء أن سيدنا سليمان عليه الصلاة والسلام ذهب هو وجنده من الإنس والجن وغيرهما إلى الحرم. وكان يذبح كل يوم خمسة آلاف ناقة، وخمسة آلاف ثور، وعشرين ألف شاة لأن مساحة جنده كانت مائة فرسخ، قال لمن حضر من أشراف جنده: هذا مكان يخرج منه نبي عربي يعطى النصر على جميع من ناواه، وتبلغ هيئته مسيرة شهر، القريب والبعيد عنده في الحق سواء، لا تأخذه في الله لومة لائم. ثم قالوا: فبأي دين يا نبي الله يدين؟ قال: يدين الحنيفة، فطوبى لمن آمن به، قالوا: كم بين خروجه وزماننا، قال مقدار ألف عام.

وأشار إلى الثالثة بقوله: «وأحلت لي الغنائم كلها، وكان من قبلي» أي من أمر بالجهاد منهم «يعطونها ويحرمونها» أي لأنهم كانوا يجمعونها: أي والمراد ما عدا الحيوانات من الأمتعة والأطعمة والأموال، فإن الحيوانات تكون ملكاً للغانمين دون الأنبياء. ولا يجوز للأنبياء أخذ شيء من ذلك بسبب الغنيمة كذا في الوفاء. وجاء في بعض الروايات «وأطعمت أمتك الفيء ولم أحله لأمة قبلي» أي والمراد بالفيء ما يعم الغنيمة، كما أنه قد يراد بالغنيمة ما يعم الفيء. هذا وفي بعض الروايات «وكانت الأنبياء يعزلون الخمس فتجيء النار، أي نار بيضاء من السماء فتأكله» أي حيث لا غلول «وأمرت أن أقسمه في فقراء أمتي» وفي تكملة تفسير الجلال السيوطي لتفسير الجلال المحلي أن ذلك لم يعهد في زمن عيسى عليه الصلاة والسلام، ولعله لم يكن ممن أمر بالجهاد، فلا يخالف ما سبق.

وأشار إلى الرابعة بقوله: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، أينما أدركتني الصلاة تمسحت» أي تيممت حيث لا ماء «وصليت» فلا يختص السجود منها بموضع دون غيره «وكان من قبلي لا يعطون ذلك» أي الصلاة في أي محل أدركتهم فيه، إنما كانوا يصلون في كنائسهم وبيعهم: أي ولم يكن أحد منهم يتيمم، لأن التيمم من خصائصنا. وفي رواية جابر «ولم يكن أحد من الأنبياء يصلي حتى يبلغ محرابه».

وجاء في تفسير قوله تعالى: {واختار موسى قومَه} الآيات. من المأثور أن الله تعالى قال لموسى: «أجعل لكم الأرض مسجداً؟ فقال لهم موسى: إن الله قد جعل لكم الأرض مسجداً، قالوا: لا نريد أن نصلي إلا في كنائسنا، فعند ذلك قال الله تعالى: {فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة} إلى قوله {المفلحون} أي وهم أمة محمد. وفيه أنه قيل إن عيسى عليه الصلاة والسلام كان يسبح في الأرض يصلي حيث أدركته الصلاة. ويحتاج إلى الجمع بين هذا وبين ما تقدم من قوله: لم يكن أحد من الأنبياء يصلي حتى يبلغ محرابه، إلا أن يقال لا يصلي مع أمته إلا في محرابه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 362
وأما عيسى عليه الصلاة والسلام فخص بأنه كان يصلي حيث أدركته الصلاة وسيأتي في الخصائص الكلام على ذلك.

وأشار إلى الخامسة بقوله: «قيل لي سل فإن كل نبي قد سأل، فأخرت مسألتني إلى يوم القيامة فهي لكم ولمن شهد أن الله لا إله إلا الله، وهي لإخراج من في قلبه ذرة من الإيمان ليس له عمل صالح إلا التوحيد» أي إخراج من ذكر من النار لأن شفاعته غيره تقع فيمن في قلبه أكثر من ذلك قاله القاضي عياض.

أي وقد جاء في بيان من يشفع بإذن الله له في الشفاعة، فلا يبقى نبي ولا شهيد إلا شفع وفي رواية «ثم تشفع الملائكة والنبيون والشهداء والصالحون والمؤمنون، فيشفعهم الله عز وجل» وقد جاء «إن أول شافع جبريل ثم إبراهيم، ثم موسى ثم يقوم نبيكم رابعاً لا يقوم بعد أحد فيما يشفع فيه». وفي الحديث «أتي تحت العرش فأخر ساجداً فيقال يا محمد ارفع رأسك، سل تعطه واشفع تشفع، فأرفع رأسي، فأقول يا رب أمتي يا رب، فيقال انطلق، فمن كان في قلبه مثقال حبة من بر أو شعير من إيمان» وفي لفظ «حبة من خردل» وفي لفظ «أدنى أدنى أدنى من مثقال حبة من خردل فأخرجه» أي من النار «فانطلق فأفعل» أي أخرجه من النار «وأدخله الجنة». وله شفاعته قبل هذه في إدخال أهل الجنة الجنة بعد مجاوزة الصراط، ففي الحديث «فإذا دخلت الجنة فنظرت إلى ربي خررت ساجداً، فيأذن الله لي في حمده وتمجيده، ثم يقول: ارفع رأسك يا محمد واشفع تشفع واسأل تعطه، فأقول: يا رب شفعي في أهل الجنة أن يدخلوا الجنة، فيأذن الله تعالى في الشفاعة إلى آخر ما تقدم.

ومن هذا يعلم أن الشفاعة في الإخراج من النار، إنما تكون منه وهو في الجنة، فما تقدم من قوله: «أتي تحت العرش فأخر ساجداً» إلى آخره، إنما ذلك في الشفاعة في فصل القضاء، فهذا خلط من بعض الرواة: أي خلط الشفاعة في الموقف التي هي الشفاعة في فصل القضاء بالشفاعة، بعد مجاوزة الصراط في دخول أهل الجنة الجنة وبالشفاعة بعد دخول الجنة في إخراج أهل التوحيد من النار، والشفاعة في فصل القضاء هي المشار إليها في قوله: «وأعطيت الشفاعة» فقد قال ابن دقيق العيد: الأقرب أن اللام فيها للعهد، والمراد الشفاعة العظمى في إراحة الناس من هول الموقف: أي وهذا هو المقام المحمود الذي يحمده ويغبطه في الأولون والآخرين، المعني بقوله تعالى: {عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً}.

وعن حذيفة رضي الله تعالى عنه «تجمع الناس في صعيد واحد، فأول مدعو محمد فيقول: لبيك وسعديك، والشر ليس إليك، والمهدي من هديت، وعبدك بين يديك، ولك وإليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك، تباركت وتعاليت، سبحانك رب البيت».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 362

وقد هاجت فتنة كبيرة ببغداد بسبب هذه الآية، أعني {عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً} فقالت الحنابلة: معناه يجلسه الله تعالى على عرشه. وقال غيرهم: بل هي الشفاعة العظمى في فصل القضاء، فدام الخصام إلى أن اقتتلوا فقتل كثيرون.

وهذه الشفاعة إحدى الشفاعات الثلاث المعنية بقوله: «لي عند ربي ثلاث شفاعات وعدنيهن».

وفي كلام بعضهم: له تسع شفاعات آخر غير فصل القضاء، جرى في اختصاصه بعضها خلاف، وهي: الشفاعة في إدخال قوم الجنة بغير حساب ولا عقاب. قال النووي وجماعة: هي مختصة به، والشفاعة في أناس استحقوا دخول النار فلا يدخلونها. قال القاضي عياض وغيره: وبشرك فيها من يشاء الله تعالى. والشفاعة في إخراج من أدخل النار من الموحدين وفي قلبه مثقال ذرة من إيمان وهي مختصة به. والشفاعة في إخراج من أدخل منهم النار وفي قلبه أزيد من ذرة من إيمان، وبشاركه فيها الأنبياء والملائكة والمؤمنون. وظاهر هذا السياق أن المراد بمن في قلبه مثقال ذرة من إيمان إلى آخره عام في أمته وغيرهم من الأمم. وهو يخالف قول بعضهم: جاء في الصحيح «فأقول يا رب أئذن لي فيمن قال لا إله إلا الله - أي ومات على ذلك - قال: ليس ذلك لك ولكن وعزتي وكبريائي وعظمتي لأخرجن من النار من قال لا إله إلا الله». ولا يشكل على ذلك قوله: «أتاني أت من عند ربي، فخيرني بين أن يدخل نصف أمتي» وفي رواية «ثلثي أمتي الجنة» أي بلا حساب ولا عذاب «وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، وهي لمن مات لا يشرك بالله شيئاً، فاخترت الشفاعة وعلمت أنها أوسع لهم».

لأنا نقول: المراد بالذين تناله شفاعته ممن مات لا يشرك بالله شيئاً خصوص أمته: وأما من قيل له فيه ليس ذلك لك فهم الموحدون من الأمم السابقة فليتأمل مع ما سبق من شفاعة الأنبياء والملائكة والمؤمنين. والشفاعة في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها. وجوز النووي اختصاصها به. والشفاعة في تخفيف العذاب عن بعض الكفار كأبي طالب وأبي لهب في كل يوم اثنين بالنسبة لأبي لهب، والشفاعة لمن مات بالمدينة الشريفة، ولعل المراد أنه لا يحاسب.

وقد أوصل ابن القيم شفاعاته إلى أكثر من عشرين شفاعة. وفي رواية «أعطيت ما لم يعطه أحد من الأنبياء: نصرت بالرعب، وأعطيت مفاتيح الأرض» أي وفي لفظ «وبينا أنا نائم ثم رأيتني أوتيت مفاتيح خزائن الأرض، فوضعت بين يدي» ولا منافاة، لأنه يجوز أنه أعطى ذلك يقظة بعد أن أعطيه مناماً «وسميت أحمد» أي ومحمداً أي لأن أحداً من الأنبياء لم يسم بذلك، فهو من خصائصه بالنسبة للأنبياء، كذا في الخصائص الصغرى، وتقدم أن التسمية بأحمد من خصائصه على جميع الناس: وفي وصفه نفسه بما ذكر، وقول عيسى عليه الصلاة والسلام {إني عبد الله} الآية، وقول سليمان عليه الصلاة والسلام {علمنا منطلق الطير وأوتينا من كل شيء} الآية هو الأصل في ذكر العلماء مناقبهم في كتبهم، وهذا مأخوذ من قوله تعالى: {وأما بنعمة ربك فحدث} ومن قوله: «التحدث بنعمة الله شكر، وتركه كفر» قال الله تعالى: {لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابي لشديد}.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 362

صعد سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه المنبر فقال: الحمد لله الذي صيرني ليس فوقي أحد ثم نزل، فقيل له في ذلك؟ فقال: إنما فعلت ذلك إظهاراً للشكر.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وعن سفيان الثوري رحمه الله: من لم يتحدث بنعمة الله فقد عرّضها للزوال. والحق في ذلك التفصيل، وهو أن من خاف من التحدث بالنعمة وإظهارها الرياء، فعدم التحدث بها وعدم إظهارها أولى، ومن لم يخف ذلك فالتحدث بها وإظهارها أولى أي وفي الشفاء أنه أحمد المحمودين، وأحمد الحامدين، ويوم القيامة يحمده الأولون والآخرون لشفاعته لهم، فحقيق أن يسمى محمداً وأحمد، وتقدم أن هذا يوافق ما تقدم عن الهدى أن أحمد مأخوذ من الفعل الواقع على المفعول.

وقد جاء «أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي الذي يمحو الله بي الكفر، وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب الذي ليس بعدي نبي، وجعلت أمتي خير الأمم».

قال القاضي البيضاوي، وفي التسمية بالأسماء العربية تنويه إلى تعظيم المسمى، هذا كلامه. وفي رواية «لما أسري بي إلى السماء قرّني ربي حتى كان بيني وبينه كقاب قوسين أو أدنى، قيل لي: قد جعلت أمتك آخر الأمم لأفصح الأمم عندهم» أي بوقوفهم على أخبارهم «ولا أفصحهم عند الأمم» أي لتأخرها عنهم، وعليه فالضمير في (دنا) يعود إليه . وذكر بعضهم أن {دنا فتدلى} الآية، عبارة عن تقريبه تعالى للنبي ، فالضمير في دنا إلي آخره يعود إلي الله تعالى وهو معنى لطيف. وفي رواية «نحن الآخرون من أهل الدنيا، والأولون يوم القيامة، المقضيّ لهم قبل الخلائق» وفي رواية «نحن آخر الأمم، وأول من يحاسب، تنفرج لنا الأمم عن طريقنا فنمضي عرّ محجلين من أثر الطهور» وفي رواية «من أثار الموضوع، فتقول الأمم: كادت هذه الأمة أن تكون أنبياء كلها» هذا، وفي رواية «غرا من أثر السجود محجلين من أثر الموضوع» وفي رواية «فضلت على الأنبياء بست» أي ولا مخالفة بين ذكر الخمس أولاً وبين ذكر الست هنا، لأنه يجوز أن يكون اطلع أولاً على بعض ما اختص به ثم اطلع على الباقي، هذا على اعتبار مفهوم العدد، ثم أشار إلى بيان الست بقوله : «أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهوراً ومسجداً، وأرسلت إلى الخلق كافة» والخلق يشمل الإنس والجن والملك والحيوانات والنبات والحجر.

قال الجلال السيوطي: وهذا القول، أي إرساله للملائكة. رجحته في كتاب الخصائص وقد رجحه قبلي الشيخ تقي الدين السبكي، وزاد أنه مرسل لجميع الأنبياء والأمم السابقة من لدن آدم إلى قيام الساعة. ورجحه أيضاً البارزي، وزاد أنه مرسل إلى جميع الحيوانات والجمادات، وأزيد على ذلك أنه أرسل إلى نفسه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 362

وذهب جمع إلى أنه لم يرسل للملائكة منهم ما الحافظ العراقي في نكته على ابن الصلاح والجلال المحلي في شرح جمع الجوامع، ومشيت عليه في شرح التقريب. وحكى الفخر الرازي في تفسيره والبرهان النسفي في تفسيره فيه الإجماع هذا كلامه، وبهذا الثاني أفتى والد شيخنا الرملي، وعليه فيكون قوله :

«أرسلت للخلق كافة» وقوله تعالى: {ليكون للعالمين نذيراً} من العام المخصوص أو الذي أريد به الخصوص.
ولا يشكل عليه حديث سلمان «إذا كان الرجل في أرض وأقام الصلاة صلى خلفه من الملائكة ما لا يرى طرفاه، يركعون بركوعه، ويسجدون بسجوده» لأنه يجوز أن لا يكون ذلك صادراً عن بعثته إليهم.
ولا يشكل ما ورد «بعثت إلى الأحمر والأسود» لما تقدم أن المراد بذلك العرب والعجم. وفي الشفاء: وقيل الحمر الإنس، والسود الجان، واستدل للقول الأول القائل بأنه أرسل للملائكة بقوله تعالى: {ومن يقل منهم} أي من الملائكة {إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم} فهي إنذار للملائكة على لسانه في القرآن العظيم الذي أنزل عليه، فثبت بذلك إرساله إليهم ودعوى الإجماع منازع فيها، فهي دعوى غير مسموعة، ثم رأيت الجلال السيوطي ذكر هذا الاستدلال وهو واضح، وذكر تسعة أدلة أيضاً، وهي لا تثبت المدعي الذي هو أن الملائكة يكلفون بشرعه، كما لا يخفى على من رزق نوع فهم بالوقوف عليها. فعلم أنه مرسل لجميع الأنبياء وأمهم على تقدير وجوده في زمنهم، لأن الله تعالى أخذ عليهم وعلى أممهم الميثاق على الإيمان به ونصرته مع بقائهم على نبوتهم ورسالتهم إلى أممهم، فنبوته ورسالته أعم وأشمل، وتكون شريعته في تلك الأوقات بالنسبة إلى أولئك الأمم ما جاءت به أنبياءهم، لأن الأحكام والشرائع تختلف باختلاف الأشخاص والأوقات قاله السبكي: أي لجميع الأنبياء وأممهم من جملة أمته، فقد قال لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «والذي نفسي بيده لو أن موسى عليه الصلاة والسلام كان حياً ما وسعه إلا أن يتبعني».

وأخرج أحمد وغيره عن عبد الله بن ثابت، قال: «جاء عمر رضي الله تعالى عنه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله إني مررت بأخ لي من قريظة، فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ فتغير وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر: رضينا بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد رسولاً، فسرى عن رسول الله، وقال: والذي نفس محمد بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه لضللتهم/ «إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 362
وفي النهر لأبي حيان «إن عبد الله بن سلام استأذن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقيم على السبت، وأن يقرأ من التوراة في صلاته من الليل فلم يأذن له» وكون جميع الأنبياء وأمهم من أمته، فالمراد أمة الدعوة لا أمة الإجابة لأنها مخصوصة بمن آمن به بعد البعثة على ما تقدم ويأتي. وبعثته رحمة حتى للكفار بتأخير العذاب عنهم، ولم يعاجلوا بالعقوبة كسائر الأمم المكذبة، وحتى للملائكة، قال تعالى: {وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين}.
وقد ذكر في الشفاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لجبريل: «هل أصابك من هذه الرحمة شيء؟ قال: نعم، كنت أخشى العاقبة، فأمنت لثناء الله تعالى عليّ في القرآن بقوله عز وجل: {ذي قوة عند ذي العرش مكين}». قال الجلال السيوطي: إن هذا الحديث لم نقف له علي إسناد، فهو أفضل من سائر المرسلين وجميع الملائكة المقربين، وفي لفظ آخر «فضلت على الأنبياء

بست لم يعطهن أحد كان قبلي: غفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر، وأجلت لي الغنائم، وجعلت أمتي خير الأمم، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، وأعطيت الكوثر، ونصرت بالرعب، والذي نفسي بيده إن صاحبكم لصاحب لواء الحمد يوم القيامة، آدم فمن دونه» وفي رواية «فما من أحد إلا وهو تحت لوائي يوم القيامة ينتظر الفرج، وإن معي لواء الحمد، أنا أمشي ويمشي الناس معي حتى آتي باب الجنة» الحديث.

أقول: قد سئلت عما حكاه الجلال السيوطي أنه ورد إلى مصر نصراني من الفرنج وقال لي: شبهة إن أزلتموها أسلمت، فعقد له مجلس بدار الحديث الكاملة، ورأس العلماء إذ ذاك الشيخ عز الدين بن عبد السلام، فقال له النصراني والناس يسمعون: أي أفضل عندكم المتفق عليه، أو المختلف فيه؟ فقال له الشيخ عز الدين: المتفق عليه، فقال له النصراني: قد اتفقنا نحن وأنتم على نبوة عيسى واختلفنا في نبوة محمد فيلزم أن يكون عيسى أفضل من محمد، فأطرق الشيخ عز الدين ساكناً من أول النهار إلى الظهر حتى ارتج المجلس واضطرب أهله، ثم رفع الشيخ رأسه وقال: عيسى قال ليني إسرائيل {ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد} فيلزمك أن تتبعه فيما قال، وتؤمن بأحمد الذي بشر به فأقام الحجة على النصراني وأسلم بأنه كيف أقام الحجة عليّ كون محمد أفضل من عيسى إذ غاية ما ذكر أن محمداً رسول الله . فأجبت بأنه حيث ثبت أن محمداً رسول الله وجب الإيمان به وبما جاء به ومما جاء به، وأخبر به أنه أفضل من جميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام. وقد سئل أبو الحسن الحمال بالحاء المهملة من فقهاءنا معاشر الشافعية: محمد وموسى أيهما أفضل؟ فقال محمد، ف قيل له: ما الدليل على ذلك؟ فقال: إنه تعالى أدخل بينه وبين موسى لام الملك فقال تعالى: {واصطنعتك لنفسي} وقال لمحمد: {إن الذين يبائعونك إنما يبائعون الله} ففرق بين من أقام بوصفه وبين من أقامه مقام نفسه والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 362

وفي رواية «إذا كان يوم القيامة كان لي لواء الحمد وكنت إمام المرسلين وصاحب شفاعتهم» وفي لفظ «ألا وأنا حبيب الله ولا فخر، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أكرم الأولين والآخرين على الله ولا فخر، وأنا أول شافع، وأنا أول مشفع يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول من يحرك حلق الجنة: أي حلق بابها، فيفتح الله لي فأدخلها ومعني فقراء المؤمنين ولا فخر» أي وفي رواية «آتي باب الجنة يوم القيامة فأستفتح، أي بتحرك حلقة الباب أو قرعه بها لا بصوت، فيقول الخازن أي وهو رضوان: من أنت؟ فأقول محمد» وفي رواية «أنا محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح» وفي رواية «أن لا أفتح لأحد قبلك» زاد في رواية «ولا أقوم لأحد بعدك لأفتح له» فمن خصائصه أن رضوان لا يفتح إلا له، ولا يفتح لغيره من الأنبياء وغيرهم، وإنما يتولى ذلك غيره من الخزنة، وهي خصوصية عظيمة نبه عليها القطب الخضري، وكون الفاتح له الخازن لا ينافي ما قبله من كون الفاتح له الحق سبحانه وتعالى لما علم أن

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

الخازن إنما فتح بأمر الله فهو الفاتح الحقيقي. وفي رواية «أنا أول من يفتح له باب الجنة ولا فخر فآتي فأخذ بحلقة الجنة، فيقال من هذا؟ فأقول محمد، فيفتح لي، فيستقبلني الجبار جل جلاله فأخر له ساجداً» أي فالكلام في يوم القيامة، فلا يرد إدريس بناء على أن دخوله الجنة مترتب على فتح الباب غالباً، لأن ذلك قبل يوم القيامة، وفي يوم القيامة يخرج إلى الموقف، فيكون مع أمته للحساب. ولا ينافيه ما جاء «أول من يقرع باب الجنة بلال بن حمامة» على تقدير صحته، لأنه يجوز أن يكون يقرع الباب الأصلي لا حلقه، أو الأول من الأمة والله أعلم.

وفي الأوسط للطبراني بإسناد حسن «حرمت الجنة على الأنبياء حتى أدخلها، وحرمت على الأمم حتى تدخلها أمتي» وسيأتي أن هذا من جملة ما أوحى إليه ليلة المعراج، الذي أشار إليه قوله تعالى: {وأوحى إلى عبده ما أوحى} ولعل هذا هو المراد مما جاء في المرفوع عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «حرمت الجنة على جميع الأمم حتى أدخلها أنا وأمتي» وأن ظاهرها من أنه لا يدخلها أحد من الأنبياء إلا بعد دخول هذه الأمة ليس مراداً. وفي هاتين الروايتين منقبة عظيمة لهذه الأمة المحمدية، وهي أنه لا يدخل أحد الجنة من الأمم السابقة ولو من صلحائها وعلماؤها وزهادها حتى يدخل من كان يعذب في النار من عصاة هذه الأمة بناء على أنه لا بد من تعذيب طائفة من هذه الأمة في النار. ولا بعد في ذلك، لأنه تقدم أن أول من يحاسب من الأمم، هذه الأمة. فيجوز أن الأمم لا يفرغ حسابهم، ولا يأتون إلى باب الجنة إلا وقد خرج من كان يعذب من هذه الأمة في النار ودخل الجنة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 362
وجاء «إنه يدخلها قبله من أمته سبعون ألفاً مع كل واحد سبعون ألفاً لا حساب عليهم» وذلك معارض لقوله: «أنا أول من يدخل الجنة» إلا أن يقال: أول من يدخل الجنة من الباب، وهؤلاء السبعون ألفاً ورد أنهم يدخلون من أعلى حائط الجنة فلا معارضة.

ولا يعارض ذلك ما جاء «أول من يدخل الجنة أبو بكر» لأن المراد أول من يدخلها من رجال هذه الأمة غير الموالي. ولا يعارض ذلك ما تقدم عن بلال رضي الله تعالى عنه «أنه أول من يقرع باب الجنة» لأنه لا يلزم من القرع الدخول وعلى تسليم أن القرع كناية عن الدخول، فالمراد من الموالي. ولا يعارض ذلك أيضاً ما جاء «أول من يدخل الجنة بنتي فاطمة» كما لا يخفى، لأن المراد أول من يدخلها من نساء هذه الأمة فالأولية إضافية.

وجاء «لأشفعن يوم القيامة لأكثر مما في الأرض من حجر وشجر» وعن أنس رضي الله تعالى عنه «فضلت على الناس بأربع: بالسخاء، والشجاعة، وقوة البطش، وكثرة الجماع» أي فعن سلمى مولاته أنها قالت «طاف رسول الله صلى الله عليه وسلم على نساته التسع ليلته وتطهر من كل واحدة قبل أن يأتي الأخرى وقال: هذا أطهر وأطيب».

ومما يدل على قوة بطشه ما وقع له مع ركائه كما سيأتي. وفي الخصائص الصغرى: وكان أفرس العالمين، فهو أجود بني آدم على الإطلاق، كما أنه أفضلهم وأشجعهم وأعلمهم وأكملهم في جميع الأخلاق الجميلة والأوصاف الحميدة.

قال ابن عبد السلام: من خصائصه أن الله تعالى أخبره بالمغفرة: أي لما تقدم وتأخر، ولم ينقل أنه أخبر أحداً من الأنبياء بمثل ذلك: أي ولأنه لو وقع لنقل لأنه مما تتوفر الدواعي على نقله، بل ومما اختص به وقوع غفران نفس الذنب المتقدم والمتأخر، كما تقدم من قوله في بيان ما اختص به عن الأنبياء «وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر» أي ولا ينافي ذلك قوله تعالى في حق داود {فغفرنا له ذلك} لأنه غفران لذنب واحد. قال ابن عبد السلام: بل الظاهر أنه لم يخبرهم أي بغفران ذنوبهم، بدليل قولهم في الموقف «نفسى نفسى، لأنى» إلى آخره. وعن أبي موسى رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله: «من سمع بي من يهودي أو نصراني ثم لم يسلم دخل النار» أي لأنه يجب عليه أن يؤمن به.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 362

أقول: والذي في مسلم «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي أو نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار» أي من سمع بنبينا ممن هو موجود في زمنه وبعده إلى يوم القيامة ثم مات غير مؤمن بما أرسل به كان من أصحاب النار. أي ومن جملة ما أرسل به أنه أرسل إلى الخلق كافة لا لخصوص العرب تأمل، وإنما خص اليهود والنصارى بالذكر تنبيهاً على غيرهما لأنه إذا كان حالهما ذلك مع أن لهم كتاباً فغيرهم مما لا كتاب له كالمجوسى أولى، لأن اليهود كتابهم التوراة، والنصارى كتابهم الإنجيل لأن شريعة التوراة التي هي شريعة موسى يقال لها اليهودية أخذاً من قول موسى عليه الصلاة والسلام {إنا هدنا إليك} أي رجعنا إليك، فمن كان على دين موسى يسمى يهودياً، وشريعة الإنجيل يقال لها النصرانية، أخذاً من قول عيسى عليه الصلاة والسلام {من أنصاري إلى الله} فمن كان على دين عيسى يسمى نصرانياً، وكان القياس أن يقال له أنصاري. وقيل النصراني نسبة إلى ناصرة قرية من قرى الشام نزل بها عيسى عليه السلام كما تقدم، ولا مانع من رعاية الأمرين في ذلك. وجاء في رواية «وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة» أي والأمم السابقة كانوا يصلون متفرقين كل واحد على حدته، وإن أمته حط عنها الخطأ والنسيان وحمل ما لا تطيقه، الذي أشارت إليه خواتيم سورة البقرة، وإن شيطانه أسلم وفي الخصائص الصغرى «وأسلم قرينه» ومجموع تلك الخصال سبع عشرة خصلة. قال الحافظ ابن حجر: ويمكن أن يوجد أكثر من ذلك لمن أمعن التتبع.

وذكر أبو سعيد النيسابوري في كتابه (شرف المصطفى) أنه عد الذي اختص به نبينا عن الأنبياء فإذا هو ستون خصلة: أي ومن ذلك أي مما اختص به في أمته أن وصف الإسلام خاص بها لم يوصف به أحد من الأمم السابقة سوى الأنبياء

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

فقط فقد شرفت هذه الأمة المحمدية بأن وصفت بالوصف الذي كان يوصف به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وهو الإسلام على القول الراجع نقلاً ودليلاً لما قام عليه من الأدلة الساطعة قاله الجلال السيوطي رحمه الله.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 362

باب: بدء الوحي له

عن عائشة رضي الله تعالى عنها أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من النبوة حين أراد الله تعالى كرامته ورحمة العباد به الرؤيا الصالحة «لا يرى رؤيا إلا جاءت كفلق» أي وفي لفظ «كفرق الصبح» أي كضياؤه وإثارتها، فلا يشك فيها أحد كما لا يشك أحد في وضوح ضياء الصبح ونوره. وفي لفظ «فكان لا يرى شيئاً في المنام إلا كان» أي وجد في اليقظة كما رأي، فالمراد بالصالحة الصادقة. وقد جاءت في رواية البخاري في التفسير: أي ولا يخفى أن رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم كلها صادقة وإن كانت شاقّة كما في رؤياه يوم أحد.

قال القاضي وغيره وإنما ابتدء رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرؤيا لثلا يفجأه الملك الذي هو جبريل عليه السلام بالنبوة: أي الرسالة، فلا تتحملها القوى البشرية: أي لأن القوى البشرية لا تتحمل رؤية الملك وإن لم يكن على صورته التي خلقه الله عليها ولا على سماع صورته ولا على ما يخبر به لا سيما الرسالة، فكانت الرؤيا تأنيساً له والمراد بالملك جبريل، لكن ذكر بعضهم أن من لطف الله تعالى بنا عدم رؤيتنا للملائكة أي على الصورة التي خلقوا عليها لأنهم خلقوا على أحسن صورة فلو كنا نراهم لطارت أعيننا وأرواحنا لحسن صورهم.

وعن علقمة بن قيس «أول ما يؤتى به الأنبياء في المنام، أي ما يكون في المنام حتى تهدأ قلوبهم، ثم ينزل الوحي» اه: أي في اليقظة لأن رؤيا الأنبياء وحي وصدق وحق، لا أضغاث أحلام ولا تخيل من الشيطان، إذ لا سبيل له عليهم، لأن قلوبهم نورانية، فما يرونه في المنام له حكم اليقظة، فجميع ما ينطبع في عالم مثالهم لا يكون إلا حقاً، ومن ثم جاء «نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا».

أقول: وحينئذ يكون في القول بأن من خصوصياته اجتماع أنواع الوحي الثلاثة له وعد منها الرؤيا في المنام، وعد منها الكلام من غير واسطة، وبواسطة جبريل نظر، لما علمت أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام جميعهم مشتركون في الرؤيا، وموسى عليه الصلاة والسلام حصل له كل من الكلام بلا واسطة وبواسطة جبريل. وذكر بعضهم أن مدة الرؤيا ستة أشهر قال فيكون ابتداء الرؤيا حصل في شهر ربيع الأول، وهو مولده ثم أوحى الله إليه في اليقظة أي في رمضان ذكره البيهقي وغيره.

وجاء في الحديث: «الرؤيا الصادقة» وفي البخاري «الرؤيا الحسنة: أي الصادقة من الرجل الصالح جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة». قال

بعضهم: معناه أن النبي صلى الله عليه وسلم حين بعث أقام بمكة ثلاث عشرة سنة، وبالمدينة عشر سنين يوحى إليه ومدة الوحي إليه في اليقظة ثلاث وعشرون سنة، ومدة الوحي إليه في المنام أي التي هي الرؤيا ستة أشهر، فالمراد خصوص رؤيته وخصوص نبوته، وهذا القيل نقله في الهدى وأقره حيث قال: كانت الرؤيا ستة أشهر، ومدة النبوة ثلاثاً وعشرين سنة، فهذه الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءاً، هذا كلامه. وحينئذ يكون المعنى ورؤيتي جزء من ستة وأربعين جزءاً من نبوتي، ولا يخفى أن هذا لا يناسب «الرؤيا الصالحة من الرجل الصالح» إذ هو يقتضي أن مطلق الرؤيا الصالحة جزء من مطلق النبوة الشامل لنبوته ونبوة غيره فليتأمل. ولم أقف في كلام أحد على مشاركة أحد من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام له في هاتين المدتين. وحينئذ تحمل الخصوصية التي ادعاها بعضهم على هذا.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

ومما يدل على أن المراد مطلق الرؤيا ومطلق النبوة لا خصوص رؤياه ونبوته، ما جاء في ذلك من الألفاظ التي بلغت خمسة عشر لفظاً. ففي رواية «أنها جزء من سبعين جزءاً» وفي رواية «من أربعة وأربعين» وفي رواية «أنها جزء من خمسين جزءاً من النبوة» وفي رواية «من تسعة وأربعين» وفي أخرى «أنها جزء من ستة وسبعين» وفي أخرى «من خمسة وعشرين جزءاً» وفي أخرى «من ستة وعشرين جزءاً» وفي أخرى «من أربعة وعشرين جزءاً» فإن ذلك باعتبار الأشخاص لتفاوت مراتبهم في الرؤيا. وذكر الحافظ ابن حجر أن أصح الروايات مطلقاً رواية ستة وأربعين، ويلها رواية أنها جزء من سبعين جزءاً. فعلم أن الرؤبة المذكورة جزء من مطلق النبوة: أي كجزء منها من جهة الاطلاع على بعض الغيب، فلا ينافي انقطاع النبوة بموته.

ومن ثم جاء «ذهبت النبوة» أي لا توجد بعدي. «وبقيت المبشرات» أي المرآئي التي كانت مبشرات للأنبياء بالنبوة، بدليل ما في رواية «لم يبق بعدي من المبشرات» أي مبشرات النبوة «إلا الرؤيا» أي مجرد الرؤيا الخالية عن شيء من مبشرات النبوة، بدليل ما في لفظ «لم يبق إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم» أي لنفسه «أو ترى له». لا يقال: الرؤيا الصادقة تكون من الكافر أو ترى له، وهو خارج بالرجل الصالح وبالمسلم. لانا نقول: لو فرض وقوع ذلك كان استدراجاً. وفيه أنها واقعة، وظاهر سياق الحديث الحصر، وكما تكون الرؤيا مبشرة بخير عاجل أو آجل تكون منذرة بشر كذلك قال بعضهم: وقد تطلق البشارة التي هي الخبر السار على ما يشمل النذارة التي هي الخبر الضار بعموم المجاز، بأن يراد بالبشارة ما يعود إلى الخير، لأن النذارة ربما قادت إلى الخير. وفي الإتقان: ومن المجاز تسمية الشيء باسم ضده نحو {فبشرهم بعذاب أليم} أه أي وهي في هذه الآية للتهكم. وجاء رجل أي وهو أبو قتادة الأنصاري إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: «يا رسول الله إنني أرى في المنام الرؤيا تمرضني، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: الرؤيا الحسنة من الله، والسيئة من الشيطان، فإذا رأيت الرؤيا تكرهها فاستعد بالله من الشيطان واتفل عن يسارك ثلاث مرات فإنها لا

تضرك» أي وحكمة التفل احتقار الشيطان واستقذاره. وفي رواية «إذا رأى أحدكم ما يكره فليعد بالله من شرها ومن الشيطان، كأن يقول: أعود بالله من شر ما رأيت ومن شر الشيطان، وليتفل ثلاثاً، ولا يحدث بها أحداً فإنها لا تضره» زاد في رواية «وأن يتحول عن جنبه الذي كان عليه» زاد في أخرى «وليقم فليصل» أي ليكون فعل ذلك سبباً للسلامة من المكروه الذي راه. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وفي البخاري «إذا رأى أحدكم الرؤيا يحبها فإنما هي من الله فليحمد الله عليها وليتحدث بها: أي ولا يخبر بها إلا من يحب، وإذا رأى غير ذلك مما كره فإنما هي من الشيطان» أي لا حقيقة لها، وإنما هي تخيل يقصد به تخويف الإنسان والتهويل عليه «فليستعد بالله من شرها، ولا يذكرها لأحد فإنها لا تضره» وفي الأذكار «ثم ليقل: اللهم إني أعود بك من عمل الشيطان وسيئات الأحلام» وفي الحديث «الرؤيا من الله، والحلم من الشيطان». قيل في معناه لأن صاحب الرؤيا يرى الشيء على ما هو عليه، بخلاف صاحب الحلم فإنه يراه على خلاف ما هو عليه، فإن الحلم مأخوذ من حلم الجلد: إذا فسد. والرؤيا قيل إنها أمثلة يدركها الرائي بجزء من القلب لم تستول عليه آفة النوم، وإذا ذهب النوم من أكثر القلب كانت الرؤيا أصفى وذكر الفخر الرازي أن الرؤيا الرديئة يظهر تعبيرها، أي أثرها عن قرب، والرؤيا الجيدة إنما يظهر تعبيرها بعد حين. والسبب فيه أن حكمة الله تعالى تقتضي أن لا يحصل الإعلام بوصول الشر إلا عند قرب وصوله حتى يكون الحزن والغم أقل. وأما الإعلام بالخير فإنه يحصل متقدماً على ظهوره بزمان طويل حتى تكون البهجة الحاصلة بسبب توقع حصول ذكر الخير أكثر، وهذا جري على ما هو الغالب، وإلا فقد قيل لجعفر الصادق: كم تتأخر الرؤيا؟ فقال: «رأي النبي صلى الله عليه وسلم في منامه كان كلباً أبقع يلغ في دمه» فكان أي ذلك الكلب الأبقع شمرأ قاتل الحسين وكان أبرص، فكان تأخير الرؤيا بعد خمسين سنة.

وجاء عن عمرو بن شرحبيل أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة: «إذا خلوت سمعت نداء أن يا محمد يا محمد» وفي رواية «أرى نوراً» أي يقظة لا مناماً «وأسمع صوتاً وقد خشيت أن يكون والله لهذا الأمر» وفي رواية «والله ما أبغضت بغض هذه الأصنام شيئاً قط ولا الكهان، وإني لأخشى أن أكون كاهناً» أي فيكون الذي يناديني تابعاً من الجن، لأن الأصنام كانت الجن تدخل فيها، وتخطب سدنتها، والكاهن يأتيه الجني بخبر السماء وفي رواية «وأخشى أن يكون بي جنون» أي لمة من الجن «فقلت: كلا يا بن عم ما كان الله ليفعل ذلك بك، فوالله إنك لتؤدي الأمانة، وتصل الرحم، وتصدق الحديث» وفي رواية «إن خلقك لكريم» أي فلا يكون للشيطان عليك سبيل. استدلت رضي الله تعالى عنها بما فيه من الصفات العلية والأخلاق السنية على

أنه لا يفعل به إلا خيراً، لأن من كان كذلك لا يجزى إلا خيراً. ونقل الماوردي عن الشعبي أن الله قرن إسرافيل عليه السلام بنيه ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه، يعلمه الشيء بعد الشيء ولا يذكر له القرآن، فكان في هذه المدة مبشراً بالنبوة، وأمهلته هذه المدة ليتأهب لوحيه. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377 وفيه أنه لو كان في تلك المدة مبشراً بالنبوة ما قال لخديجة ما تقدم، إلا أن يقال ما تقدم إنما قاله لخديجة في أول أمر، وبذل لذلك ما قيل إنه مكث خمس عشرة سنة يسمع الصوت أحياناً ولا يرى شخصاً، وسبع سنين يرى نوراً ولم ير شيئاً غير ذلك، وإن المدة التي بشر فيها بالنبوة كانت ستة أشهر من تلك المدة التي هي اثنان وعشرون سنة، وهذا الشيء الذي كان يعلمه له إسرافيل لم أقف على ما هو، والله أعلم.

وبعد ذلك حبب الله إليه الخلوة التي يكون بها فراغ القلب والانقطاع عن الخلق فهي تفرغ القلب عن أشغال الدنيا لدوام ذكر الله تعالى، فيصفو وتشرق عليه أنوار المعرفة، فلم يكن شيء أحب إليه من أن يخلو وحده. وكان يخلو بغار حراء بالمد والقصر، وهذا الجبل هو الذي نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله إلي يا رسول الله لما قال له تبيرو وهو على ظهره: اهبط عني، فإني أخاف أن تقتل على ظهري فأعذب، فكان يتحنث: أي يتعبد به أي بغار حراء الليالي ذوات العدد، ويروى أولات العدد: أي مع أيامها، وإنما غلب الليالي لأنها أنسب بالخلوة. قال بعضهم: وأبهم العدد لاختلافه بالنسبة إلى المدد، فتارة كان ثلاث ليال، وتارة سبع ليال، وتارة شهر رمضان أو غيره. وفي كلام بعضهم ما قد يدل على أنه لم يختل أقل من شهر، وحينئذ يكون قوله في الحديث الليالي ذوات العدد محمول على القدر الذي كان يتزود له فإذا فرغ زاده رجع إلى مكة وتزود إلى غيرها إلى أن يتم الشهر، وكذا قول بعضهم؟ فتارة كان ثلاث ليال، وتارة سبع ليال، وتارة شهراً. ولم يصح أنه اختلى أكثر من شهر. قال السراج البلقيني في شرح البخاري: لم يجيء في الأحاديث التي وقفنا عليها كيفية تعبده عليه الصلاة والسلام، هذا كلامه وسيأتي بيان ذلك قريباً.

ثم إذا مكث تلك الليالي: أي وقد فرغ زاده يرجع إلى خديجة رضي الله تعالى عنها فيتزود لمثلها: أي قيل وكانت زواته الكعك والزيت. وفيه أن الكعك والزيت يبقى المدة الطويلة، فيمكث جميع الشهر الذي يختلى فيه ثم رأيت عن الحافظ ابن حجر مدة الخلوة كانت شهراً، فكان يتزود لبعض ليالي الشهر فإذا نفذ ذلك الزاد رجع إلى أهله يتزود قدر ذلك، ولم يكونوا في سعة بالغة من العيش، وكان غالب أدمهم اللبن واللحم، وذلك لا يدخر منه لغاية شهر لئلا يسرع الفساد إليه، ولا سيما وقد وصف بأنه كان يطعم من يرد عليه هذا كلامه. وهو يشير فيه إلى ثلاثة أجوبة:

الأول: أنه لم يكن في سعة بحيث يدخر ما يكفيه شهراً من الكعك والزيت.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

الثاني: أن غالب أدمهم كان اللحم واللبن وهو لا يدخر شهراً.
الثالث: أنه على فرض أن يدخر ما يكفيه شهراً أي من الكعك والزيت إلا أنه كان يطعم قريباً ما ادخره.
وإنما اختار الزيت للأدم لأن دسومته لا ينفر منها الطبع، بخلاف اللبن واللحم، ومن ثم جاء «أئتموا بالزيت وادهنوا به فإنه يخرج من شجرة مباركة» وقوله: «أئتموا من هذه الشجرة المباركة» أي من عصارة ثمرة هذه الشجرة المباركة التي هي الزيتونة وهو الزيت. وقيل لها مباركة لأنها لا تكاد تنبت إلا في شريف البقاع التي بورك فيها كأرض بيت المقدس، حتى فجأه الحق وهو في غار حراء: أي في اليوم والشهر المتقدم ذكر.
وعن عبيد بن عبيد رضي الله عنه «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يجاور في حراء في كل سنة شهراً، وكان ذلك مما تحنث فيه قريش في الجاهلية» أي المتألهين منهم: أي وكان أول من تحنث فيه من قريش جده عبد المطلب، فقد قال ابن الأثير: أول من تحنث بحراء عبد المطلب، كان إذا دخل شهر رمضان صعد حراء وأطعم المساكين ثم تبعه على ذلك من كان يتأله: أي يتعبد () كورقة بن نوفل وأبي أمية بن المغيرة، وقد أشار إلى تعبده صاحب الهمزية بقوله:
ألف النسك والعبادة والخل
وة طفلاً وهكذا النجباء
وإذا حلت الهداية قلباً
نشطت في العبادة الأعضاء
أي ألف العبادة والخلوة في حال كونه طفلاً، ومثل هذا الشأن العلى شأن الكرام، وإنما كان هذا شأن الكرام، لأنه إذا حلت الهداية قلباً نشطت الأعضاء في العبادة، لأن القلب رئيس البدن المعول عليه في صلاحه وفساده ولعل الخلوة في كلام صاحب الهمزية المراد بها مطلق اعتزاله للناس، وأراد بطفلاً زمن رضاعه عند حليلة.

فقد تقدم عنها رضي الله تعالى عنها أنها قالت: لما ترعرع رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج إلى الصبيان وهم يعلبون فيتجنبهم لا خصوص اعتزاله الناس في غار حراء فلا ينافي قوله طفلاً ظاهر ما تقدم من أن خلوته بغار حراء كانت في زمن تزوجه بخديجة رضي الله تعالى عنها، فكان يجاور ذلك الشهر، يطعم من جاءه من المساكين: أي لأنه كان من نسك قريش في الجاهلية: أي في ذلك المحل أن يطعم الرجل من جاءه من المساكين. وقد قيل إن هذا كان تعبده في غار حراء أي مع الانقطاع عن الناس، وإلا فمجرد إطعام المساكين لا يختص بذلك المحل: إلا إن كان ذلك المحل صار في ذلك الشهر مقصوداً للمساكين دون غيره.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وقيل كان تعبده التفكير مع الانقطاع عن الناس: أي لا سيما إن كانوا على باطل، لأن في الخلوة يخشع القلب وينسى المألوف من مخالطة أبناء الجنس المؤثرة في البنية البشرية، ومن ثم قيل: الخلوة صفوة الصفوة. وقول بعضهم: كان يتعبد بالتفكير: أي مع الانقطاع عما ذكرنا، وإلا فمجرد التفكير لا يختص بذلك المحل، إلا أن يدعى أن التفكير فيه أتم من التفكير في

غيره لعدم وجود شاغل به. وقيل تعبدته كان بالذكر وصححه في (سفر السعادة) وقيل بغير ذلك.
من ذلك الغير أنه قيل كان يتعبد قبل النبوة بشرع إبراهيم. وقيل بشرية موسى غير ما نسخ منها في شرعنا وقيل بكل ما صح أنه شريعة لمن قبله غير ما نسخ من ذلك في شرعنا.

وفي كلام الشيخ محيي الدين بن العربي: تعبد قبل نبوته بشرية إبراهيم حتى فجاه الوحي وجاءته الرسالة، فالولي الكامل يجب عليه متابعة العمل بالشريعة المطهرة حتى يفتح الله له في قلبه عين الفهم عنه فيلهم معاني القرآن، ويكون من المحدثين بفتح الدال ثم يصير إلى إرشاد الخلق. وكان إذا قضى جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف قبل أن يدخل بيته الكعبة فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله تعالى ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذي أراد الله تعالى به ما أراد من كرامته وذلك شهر رمضان، وقيل شهر ربيع الأول، وقيل شهر رجب خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله: أي عياله التي هي خديجة رضي الله تعالى عنها إما مع أولادها أو بدونهم، حتى إذا كانت الليلة التي أكرمه الله تعالى فيها برسالاته ورحم العباد بها، وتلك الليلة ليلة سبع عشرة من ذلك الشهر، وقيل رابع عشر منه، وقيل كان ذلك ليلة ثمان من ربيع الأول: أي وقيل ليلة ثالثة.

قال بعضهم: القول بأنه في ربيع الأول يوافق القول بأنه بعث على رأس الأربعين لأن مولده كان في ربيع الأول على الصحيح: أي وهو قول الأكثرين وقيل كان ذلك ليلة أو يوم السابع والعشرين من رجب.

فقد أورد الحافظ الدمي في سيرته عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: «من صام يوم سبع وعشرين من رجب كتب الله تعالى له صيام ستين شهراً» وهو اليوم الذي نزل فيه جبريل على النبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة وأول يوم هبط فيه جبريل هذا كلامه، أي أول يوم هبط فيه على النبي صلى الله عليه وسلم ولم يهبط عليه قبل ذلك، وسيأتي في بعض الروايات أن جبريل عليه السلام نزل في سحر تلك الليلة التي هي ليلة الاثنين. ويجوز أن يكون كل من تلك الليالي كانت ليلة الاثنين، فقد جاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لبلال: «لا يفوتك صوم يوم الاثنين، لأنني ولدت فيه، ونبئت فيه» فلا مخالفة بين كونه نبياً في الليل وبين كونه نبياً في اليوم، لأن السحر قد يلحق بالليل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وفي كلام بعضهم أتاه جبريل ليلة السبت وليلة الأحد، ثم ظهر له بالرسالة يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان في حراء، فجاء بأمر الله تعالى وهذا القول: أي أن البعث كان في رمضان قال به جماعة، منهم الإمام الصرصري حيث قال:

وأنت عليه أربعون فأشرق
شمس النبوة منه في رمضان

واحتجوا بأن أول ما أكرمه الله تعالى بنبوته أنزل عليه القرآن. وأجيب بأن المراد بنزول القرآن في رمضان نزوله جملة واحدة في ليلة القدر إلى بيت العزة في سماء الدنيا، قال رسول الله: «فجاءني وأنا نائم بنمط» وهو ضرب من البسط، وفي رواية «جاءني وأنا نائم بنمط من ديباج، فيه كتاب أي كتابة، فقال اقرأ، فقلت: ما أقرأ» أي أنا أمي لا أحسن القراءة أي قراءة المكتوب أو مطلقاً «فغطني، أو فغطني» بالتاء بدل من الطاء به: أي غمني بذلك النمط، بأن جعله على فمه وأنفه قال: «حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلني فقال اقرأ أي من غير هذا المكتوب، فقلت: ماذا أقرأ وما أقول ذلك إلا افتداء منه: أي تخلصاً منه أن يعود لي بمثل ما صنع أي إنما استفهمت عما أقرؤه ولم أنف خوفاً أن يعود لي بمثل ما صنع عند النفي: أي وفي رواية «فقلت والله ما قرأت شيئاً قط، وما أدري شيئاً أقرؤه»: أي لأنني ما قرأت شيئاً فهو من عطف السبب على المسبب قال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم} فقرأتها فانصرف عني، وهبت» أي استيقظت «من نومي فكانما كتب في قلبي كتاباً».

أقول: أي استقر ذلك في قلبي وحفظته. ثم لا يخفى أن كلام هذا البعض، وهو أنه جاءه ليلة السبت وليلة الأحد، ثم ظهر له يوم الاثنين، محتمل لأن يكون أتاه بذلك النمط في ليلة السبت وليلة الأحد، وسحر يوم الاثنين وهو نائم لا يقظة لقوله: «ثم هبت من نومي».

ولا ينافي ذلك قوله، ثم ظهر له بالرسالة، أي أعلن له بما يكون سبباً للرسالة الذي هو أقرأ الحاصل في اليقظة. وحينئذ يكون تكرر مجيئه هو السبب في استقرار ذلك في قلبه. وحينئذ لا يبعده قوله في الليلة الثانية: «ما قرأت شيئاً» لأن المراد لم يتقدم لي قراءة قبل مجيئك إلي، ولا يبعده أيضاً قوله: «ما أدري ما أقرأ» لأنه لم يستقر ذلك في قلبه لما علمت أن سبب الاستقرار التكرار، فلم يستقر ذلك في قلبه في الليلة الأولى. وفي سيرة الشامية أن مجيء جبريل عليه السلام له بالنمط لم يتكرر، وأنه كان قبل دخوله غار حراء، وهذا السياق يدل على أنه كان بعده. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وفي (سفر السعادة) ما يقتضي أنه جاء بالنمط يقظة في حراء، ونصه «فبينما هو في بعض الأيام قائم على جبل حراء إذ ظهر له شخص وقال: أبشر يا محمد أنا جبريل وأنت رسول الله لهذه الأمة، ثم أخرج له قطعة نمط من حرير مرصعة بالجواهر ووضعها في يده وقال: اقرأ، قال والله ما أنا بقارئ ولا أدري

في هذه الرسالة كتابة « أي لا أعلم ولا أعرف المكتوب فيها، قال: «فضمني إليه وغطني حتى بلغ مني الجهد، فعل ذلك بي ثلاثاً وهو يأمرني بالقراءة، ثم قال اقرأ باسم ربك». هذا كلامه فليتأمل، والله أعلم «قال فخرجت» أي من الغار: أي وذلك قبل مجيء جبريل إليه باقراً خلافاً لما يقتضيه السياق «حتى إذا كنت في شط من الجبل» أي في جانب منه «سمعت صوتاً من السماء يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفتم أنظر إليه، فإذا جبريل على صورة رجل صافٍ قدميه» أي وفي رواية «واضعاً إحدى رجليه على الأخرى في أفق السماء» أي نواحيها «يقول: يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل، فوقفتم أنظر إليه، فما أتقدم وما أتأخر، وجعلت أصرف وجهي عنه في أفق السماء، فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك، فما زلت واقفاً، ما أتقدم أمامي وما أرجع ورأيتي، حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك، ثم انصرف عني وانصرفت راجعاً إلى أهلي حتى أتيت خديجة: أي في الغار، فجلست إلى فخذه مضيئاً إليها أي مستنداً إليها، فقالت: يا أبا القاسم أين كنت؟ فوالله لقد بعثت رسلي في طلبك فبلغوا مكة ورجعوا إلي».

أقول: وهذا يدل على أن خديجة رضي الله تعالى عنها كانت معه بغار حراء، وهو الموافق لما تقدم من قوله ومعه أهله أي خديجة رضي الله تعالى عنها على ما تقدم.

وقد يخالف ذلك ما روي أن خديجة رضي الله تعالى عنها صنعت طعاماً ثم أرسلته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلم تجده بحراء، فأرسلت في طلبه إلى بيت أعمامه وأخواله فلم تجده، فشق ذلك عليها، فبينما هي كذلك إذا أتاها فحدثها بما رأى وسمع، فإن هذا يدل على أنها لم تكن معه بحراء. وقد يقال: يجوز أن تكون خرجت معه أولاً وأرسلت رسلها إليه وهي بحراء فلم تجده، وأن الرسل أخطؤوا محل وقوفه بالجبل الذي هو حراء، ثم رجعت إلى مكة وأرسلت رسلها إليه بحراء، لاحتمال عوده إليه، ثم أرسلت إلى بيت أعمامه وأخواله لما لم تجده بحراء، فأرسلها تكرر مرتين مع اختلاف محلها، ويكون قوله: «وانصرفت راجعاً إلى أهلي»: أي بمكة لا بحراء، لأنه يجوز أن يكون بلغه رجوع خديجة رضي الله تعالى عنها إلى مكة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

هذا على مقتضى الجمع. وأما على ظاهر الرواية الأولى يكون رجوعه إلى أهله بحراء كما ذكرنا، وهو يدل على أن خروجه إلى شط الجبل كان من غار حراء كما ذكرنا لا من مكة الذي يدل عليه قول الشمس الشامي «فخرج مرة أخرى إلى حراء، قال: فخرجت حتى أتيت الشط من الجبل سمعت صوتاً» إلى آخره فليتأمل والله أعلم.

قال «ثم حدثتها بالذي رأيت»: أي من سماع الصوت ورؤية جبريل، وقوله له: يا محمد أنت رسول الله، فقالت أبشريا بن عمي واثبت، فوالذي نفسي بيده إنني لأرجو أن تكون نبي هذه الأمة، ثم قامت فجمعت عليها ثيابها: أي التي تتجمل بها عند الخروج.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

ثم انطلقت إلى ورقة بن نوفل فأخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه رأى وسمع: أي رأى جبريل وسمع منه أنت رسول الله وأنا جبريل، فقال ورقة: قدوس قدوس بالضم والفتح، والذي نفسي بيده لئن كنت صدقت يا خديجة، لقد جاءه الناموس الأكبر الذي يأتي موسى الذي هو جبريل، وإنه لنبي هذه الأمة، فقول لي يثبت. والقديس: الطاهر المنزه عن العيوب، وهذا يقال للتعجب، أي وجاء بدل قدوس سبح سبح، وما لجبريل يذكر في هذه الأرض التي تعبد فيها الأوثان، جبريل أمين الله بينه وبين رسوله: أي لأن هذا الاسم لم يكن معروفاً بمكة ولا غيرها من بلاد العرب، فرجعت خديجة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول ورقة بن نوفل، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم جواره وانصرف: أي فرغ ما تزوده وليس المراد انقضاء جواره بانقضاء الشهر، لأن ذلك كان قبل أن يجيء إليه جبريل باقراً باسم ربك يقظة كما تقدم. أي وذلك كان في الشهر الذي أكرمه الله فيه برسالته.

فعند ذلك صنع كما كان يصنع، بدأ بالكعبة فطاف بها، فلقية ورقة بن نوفل وهو يطوف بالكعبة، فقال له: يا ابن أخي أخبرني بما رأيت وسمعت، فأخبره رسول الله ، فقال له ورقة والذي نفسي بيده إنك لنبي هذه الأمة ولقد جاءك الناموس الأكبر الذي جاء موسى، ولتكذبه ولتؤذبه، ولتقاتلنه ولتخرجه بها السكت، ولا تكون إلا ساكنة. ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأبصرن الله نصراً يعلمه، ثم أدنى ورقة رأسه منه وقبل بأفوخه، أي وسط رأسه، لأن الأفوخ بالهمزة وسط الرأس إذا استد وقيل استداده كما في رأس الطفل يقال له الفادية بالفاء. ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى منزله أي ولا مانع من تكرار مراجعة ورقة فتارة قال قدوس قدوس، وتارة قال سبح سبح، أو جمع بين ذلك في وقت واحد. وبعض الرواة اقتصر على أحد اللفظين، وقد جاء أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه دخل على خديجة أي وليس عندها رسول الله ، فقالت له: يا عتيق إذهب بمحمد إلى ورقة: أي بعد أن أخبرته بما أخبرها به رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيذكر، فلما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذ أبو بكر بيده فقال: انطلق بنا إلى ورقة، وذهب به إلى ورقة، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي: يا محمد يا محمد فأطلق هارباً إلى الأرض، فقال له: لا تفعل، إذا أتاك فاثبت حتى تسمع ما يقول ثم ائتني: أي وهذا قبل أن يراه ويجتمع به ويجيء إليه بالقرآن. وحينئذ يكون تكرر سؤال ورقة ثلاث مرات، الأولى على يد أبي بكر رضي الله تعالى عنه. وذلك قبل أن يرى جبريل. والثانية التي رأى فيها جبريل وسمع منه ولم يجتمع به، وذلك عند اجتماعه به في المطاف. والثالثة التي بعد مجيء جبريل له يقظة بالقرآن أي باقراً باسم ربك على المشهور، من أنه أول ما نزل، وذلك على يد خديجة، ولا ينافي ذلك ما ذكره الحافظ ابن حجر كما سيأتي أن القصة واحدة لم تتعد ومخرجها متحد، لأن مراده قصة مجيء جبريل

له يقظة باقراً باسم ربك وسيأتي ما فيه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وإنما قال ورقة له يا ابن أخي، قيل لأنه يجتمع مع عبد الله والد النبي صلى الله عليه وسلم في قصي فكان عبد الله بمثابة الأخ له أو أنه قال ذلك توقيراً له وإنما ذكر ورقة موسى دون عيسى عليهما الصلاة والسلام، مع أن عيسى أقرب منه وهو على دينه لأنه كان علي دين موسى، ثم صار على دين عيسى عليهما الصلاة والسلام أي كان يهودياً. ثم صار نصرانياً، أي لأن نبوة موسى عليه الصلاة والسلام مجمع عليها أي على أنها ناسخة لما قبلها، وأن شريعة عيسى عليه الصلاة والسلام، قيل إنها متممة ومقررة لشريعة موسى عليه الصلاة والسلام لا ناسخة لها، قيل ولأن ورقة كان ممن تنصر أي كما علمت، والنصارى لا يقولون بنزول جبريل على عيسى عليه الصلاة والسلام أي بل كان يعلم الغيب، لأنهم يقولون فيه إنه أحد الأقانيم الثلاثة اللاهوتية وذلك الأقنوم هو أقنوم الكلمة التي هي العلم حل بناسوت المسيح واتحد به، فلذلك كان يعلم علم الغيب ويخبر بما في الغد.

أقول: وفيه أن في رواية «وإنك على مثل ناموس موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام» أي ففي بعض الروايات جمع وفي بعضها اقتصر على موسى. وفي الاقتصار على موسى دون الاقتصار على عيسى ما علمت، ثم رأيت أنه جاء في غير الصحيح الاقتصار على عيسى فقال هذا الناموس الذي نزل على عيسى، فهو كما جاء الجمع بينهما جاء الاقتصار على كل منهما.

ولا ينافي ذلك أي مجيء جبريل لعيسى ما تقدم عن النصارى من أنهم لا يقولون بنزول جبريل على عيسى، لجواز أن يكون المراد لا ينزل عليه دائماً وأبداً بالوحي، بل في بعض الأحيان، وفي بعضها يعلم الغيب بغير واسطة. ثم رأيت في فتح الباري أن عند إخبار خديجة لورقة بالقصة قال لها هذا ناموس عيسى بحسب ما هو فيه من النصرانية، وعند إخبار النبي صلى الله عليه وسلم له بالقصة قال له هذا ناموس موسى للمناسبة بينهما لأن موسى أرسل بالنعمة على فرعون، وقد وقعت النعمة على يد نبينا على فرعون هذه الأمة الذي هو أبو جهل، هذا كلامه فليتأمل. وقد جاء أنه قال في حق أبي جهل في يوم بدر «هذا فرعون هذه الأمة» والله أعلم.

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها «جاءه الملك سحراً» أي سحر يوم الاثنين يقظة لا مناماً، أي بغير نمط «فقال له اقرأ. قال: ما أنا بقارئ» أي لا أوجد القراءة، قال: «فأخذني فغطني» أي ضمني وعصرني. وفي لفظ «فأخذ بحلقي حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ» أي لا أحسن القراءة، أي لا أحفظ شيئاً أقرؤه «فأخذني فغطني الثانية حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ فقلت: ما أنا بقارئ» أي أي شيء أقرؤه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وفيه أنه لو كان كذلك لقال ما أقرأ، أو ماذا أقرأ. إلا أن يقال أطلق ذلك وأراد لازمه الذي هو الاستفهام، خصوصاً وقد قدمه قال: «فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: {اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم}».

أقول: فقولنا: أي بغير نمط هو ظاهر الروايات، ويجوز أن يكون لفظ النمط سقط في هذه الرواية كغيرها من الروايات، ويؤيده اقتصار السيرة الشامية على مجيئه بالنمط. وأيضاً كيف الجمع بين قوله هنا ما ذكر وبين قوله هناك: «فكأنما كتب في قلبي كتاباً» «وما بالعهد من قدم». إلا أن يقال يجوز أن يكون جوز أن يكون جبريل يريد منه قراءة غير الذي قرأه وكتب في قلبه. ولا يخفى أنه علم أن قول جبريل اقرأ أمر بالقراءة. وفيه أنه من التكليف بما لا يطاق، أي في الحال: أي ومن ثم ادعى بعضهم أنه لمجرد التنبيه واليقظة لما يلقي إليه. وفيه أنه لو كان كذلك لم يحسن أن يقال في جوابه: ما أنا بقارئ الذي معناه لا أوجد القراءة. إلا أن يقال جبريل عليه الصلاة والسلام أراد التنبيه لا الأمر، وجوابه بناء على مقتضى ظاهر اللفظ. وعلم أن قوله: ما أنا بقارئ في المواضع الثلاثة معناه مختلف: ففي الأول معناه الإخبار بعدم إجاد القراءة، والثاني معناه الإخبار بأنه لا يحسن شيئاً يقرؤه وإن كان ذلك هو مستند الأول، والثالث معناه الاستفهام عن أي شيء أن يقرؤه، وفيه ما علمت. وبعضهم جعل قوله الأول لا اقرأ: لا أحسن القراءة بدليل أنه جاء في بعض الروايات ما أحسن أن اقرأ. وحينئذ يكون بمعنى الثاني، فيكون تأكيداً له: أي الغرض منهما شيء واحد. قال بعضهم: وجه المناسبة بين الخلق من العلق والتعليم وتعليم العلم أن أدنى مراتب الإنسان كونه علقه، وأعلىها كونه عالماً، فالله سبحانه وتعالى امتن على الإنسان بنقله من أدنى المراتب وهي العلقه إلى أعلاها، وهي تعلم العلم.

وقد اشتملت هذه الآيات على براعة الاستهلال: وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب الحال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله فإنها اشتملت على الأمر بالقراءة والبدء فيها بيسم الله، إلى غير ذلك مما ذكره في الإتيان. قال فيه: من ثم قيل إنها جديرة أن تسمى عنوان القرآن، لأن عنوان الكتاب ما يجمع مقاصده بعبارة موجزة في أوله، وكرر جبريل الغط ثلاثاً للمبالغة. وأخذ منه بعض التابعين وهو القاضي شريح أن المعلم لا يضرب الصبي على تعليم القرآن أكثر من ثلاث ضربات. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377 وأورد الحافظ السيوطي عن الكامل لابن عدي بسند ضعيف عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما «أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى أن يضرب المؤدب الصبي فوق ثلاث ضربات».

وذكر السهيلي أن في ذلك: أي الغط ثلاثاً إشارة إلى أنه يحصل له شذائد ثلاث ثم يحصل له الفرج بعد ذلك فكانت الأولى إدخال قريش له الشعب والتضييق عليه. والثانية اتفاهم على الاجتماع على قتله. والثالثة خروجه من أحب البلاد

إليه، وجاءه جبريل وميكائيل: أي قبل قول جبريل له اقرأ فشق جبريل بطنه وقلبه، إلى آخر ما تقدم في الكلام على أمر الرضاع ثم قال له جبريل: اقرأ الحديث، فعلم أن اقرأ باسم ربك نزلت من غير بسملة، وقد صرح بذلك الإمام البخاري، وما ورد عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «بأن أول ما نزل جبريل على محمد قال: يا محمد استعذ بالله السميع العليم من الشيطان الرجيم، ثم قال: قل بسم الله الرحمن الرحيم، ثم قال: اقرأ باسم ربك» قال الحافظ ابن كثير. هذا الأثر غريب، في إسناده ضعف وانقطاع، أي فلا يدل للقول بأن أول ما نزل بسم الله الرحمن الرحيم، حكاه ابن النقيب في مقدمة تفسيره، وبه يرد على الجلال السيوطي حيث قال: وعندني فيه أن هذا لا يعد قولاً برأسه، فإن من ضرورة نزول السورة أي سورة اقرأ نزول البسملة معها، فهي أول آية نزلت على الإطلاق، هذا كلامه والله أعلم.

قال الحافظ ابن حجر: هذا الذي وقع له في ابتداء الوحي من خصائصه، إذ لم ينقل عن أحد من الأنبياء عليه الصلاة والسلام أنه جرى له عند ابتداء الوحي مثل ذلك. «ولما قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم تلك الآية رجع بها ترجف بوادره» والبادرة اللحمة التي بين المنكب والعنق، تتحرك عند الفزع ويقال لها الفريضة والفرائص: أي وفي رواية «فؤاده» أي قلبه، ولا مانع من اجتماع الأمرين، لأن تحرك البادرة ينشأ عن فزع القلب «حتى دخل على خديجة فقال: زملوني زملوني» أي غطوني بالثياب «فزملوه حتى ذهب عنه الروع» بفتح الراء: أي الفزع «ثم أخبرها الخبر وقال: لقد خشيت على نفسي» وفي رواية «علي عقلي» كما في (الأمثاع) «قالت له خديجة: كلا أبشر، فوالله لا يخزيك الله أبداً» أي لا يفضحك «إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكل» أي الشيء الذي يحصل منه التعب والإعياء لغيرك «وتكسب المعدوم» بضم التاء. والمعدوم الذي لا مال له لأن من لا مال له كالمعدوم: أي توصل إليه الخير الذي لا يجده عند غيرك.

وبهذا يعلم سقوط قول الخطابي الصواب المعدم بلا واو، لأن المعدوم: أي الشخص المعدوم لا يكسب: أي لا يعطى الكسب «وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق» أي على حوادثه «فانطلقت به خديجة حتى أتت به ورقة بن نوفل، فقالت له خديجة رضي الله تعالى عنها: أي عم اسمع من ابن أخيك» أي وقولها أي عم صوابه ابن عم، لأنه ابن عمها لا عمها كما وقع في مسلم. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

قال ابن حجر: وهو وهم لأنه وإن كان صحيحاً لجواز إرادة التوقير، لكن القصة لم تتعدد ومخرجها متحد: أي فلا يقال يجوز أنها جاءت إليه بعد نزول الآية مرتين، قالت في مرة أي عم، وفي مرة أي ابن عم «قال ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى: فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم خبر ما رأى، فقال له ورقة: هذا الناموس الذي أنزل على موسى» أي صاحب سر الوحي وهو جبريل «يا ليتني فيها جذعاً» أي يا ليتني حينئذ أكون في زمن الدعوى إلى الله: أي إظهاره الذي جاء به وأنذر، أو أصل وجودها بناء على تأخر الدعوى التي هي الرسالة عن

النبوة على ما يأتي شاباً حتى أبلغ في نصرتها «يا ليتني أكون حياً حين يخرجك قومك، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أو مخرجي هم؟» بتشديد الياء المفتوحة لأنه جمع مخرج، والأصل أو مخرجوني حذف النون للإضافة فصار مخرجوي، قلبت الواو ياء وأدغمت، قال ورقة: «نعم لم يأت رجل بما جئت به إلا عودي» أي فتكون المعادة سبباً لإخراجه. وهذا يفيد بظاهره أن من تقدم من الأنبياء أخرجوا من أماكنهم لمعاداة قومهم لهم، وإلا فمجرد المعادة لا يقتضي الإخراج، فلا يحسن أن يكون علامة عليه، وقد يؤيد ذلك ما تقدم عند الكلام على بناء الكعبة أن كل نبي إذا كذبه قومه خرج من بين أظهرهم إلى مكة يعبد الله عز وجل بها حتى يموت وتقدم ما فيه.

وفي كونه لم يقل شيئاً في جواب قول ورقة إنه يكذب ويؤذي ويقاثل، وقال في جواب قوله: إنه يخرج أو مخرجي هم؟ استفهاماً إنكارياً، دليل على شدة حب الوطن وعسر مفارقتة، خصوصاً وذلك الوطن حرم الله وجوار بيته ومسقط رأسه، قال ورقة: «وإن أدركت يومك أنصرك نصراً مؤزراً» أي شديداً قوياً، من الأزرق وهو الشدة. الذي في الحديث الصحيح «وإن يدركني يومك» وسيأتي في بعض الروايات «وإن يدركني ذلك» قال السهيلي: وهو القياس، لأن ورقة سابق بالوجود، والسابق: هو الذي يدركه ما يأتي بعده كما جاء «أشقى الناس من أدركته الساعة وهو حي» هذا كلامه. أي وفي بعض الروايات أنه قال لها: «إن ابن عمك لصادق وإن هذا البدء نبوة» وفي لفظ «إنه لنبي هذه الأمة» أي وفي الشفاء أن قوله لخديجة: «لقد خشيت على نفسي» ليس معناه الشك فيما أتاه الله تعالى من النبوة، ولكنه لعله خشى أن لا تحمل قوته مقاومة الملك وأعباء الوحي، بناء على أنه قال ذلك بعد لقاء الملك وإرساله إليه بالنبوة، فإن للنبوة أثقالاً لا يستطيع حملها إلا أولوا العزم من الرسل. وفي كلام الحافظ ابن حجر، اختلف العلماء في هذه الخشية على اثني عشر قولاً، وأولها بالصواب وأسلمها من الارتياب أن المراد بها الموت أو المرض أو دوام المرض هذا كلامه، فليتأمل مع رواية «خشيت على عقلي». رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

قال: وفي بعض الروايات أن خديجة قبل أن تذهب به إلى ورقة ذهبت به إلى عداس وكان نصرانياً من أهل نينوى: قرية سيدنا يونس عليه الصلاة والسلام، فقالت له: يا عداس أذكرك الله إلا ما أخبرتني هل عندكم علم من جبريل: أي فإن هذا الاسم لم يكن معروفاً بمكة ولا غيرها من أرض العرب كما تقدم، فقال عداس: قدوس قدوس، ما شأن جبريل يذكر بهذه الأرض التي أهلها أهل أوثان؟ أي والقدوس المنزه عن العيوب وأن هذا يقال للتعجب كما تقدم، فقالت: أخبرني بعلمك فيه؟ قال: هو أمين الله بينه وبين النبيين، وهو صاحب موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام اهـ. وفيه أنه سيأتي عند الكلام على ذهابه للطائف بعد موت أبي طالب يلتمس إسلام ثقيف اجتماعه بعدادس الموصوف بما ذكر، لكن في تلك القصة ما قد

يبعد معه كل البعد أنه المذكور هنا فلي تأمل، ثم رأيت أن عداساً المذكور هنا كان راهباً وكان شيخاً كبير السن، وقد وقع حاجباه على عينيه من الكبر، وأن خديجة قالت له: أنعم صباحاً يا عداس، فقال: كان هذا الكلام كلام خديجة سيدة نساء قريش، قالت أجل، قال ادني مني فقد ثقل سمعي، فدنت منه ثم قالت له ما تقدم، وهذا صريح في أنه غير عداس الآتي ذكره، وأنهما اشتركا في الاسم والبلد والدين، أي وكونهما غلامين لعتبة بن ربيعة. ففي كلام ابن دحية: عداس كان غلاماً لعتبة بن ربيعة من أهل نينوى، عنده علم من الكتاب، فأرسلت إليه خديجة تسأله عن جبريل، فقال: قدوس قدوس الحديث ولا يخفى أن هذا اشتباه وقع من بعض الرواة بلا شك.

وفي رواية أن عداساً هذا قال لها: يا خديجة إن الشيطان ربما عرض للعبد فأراه أموراً، فخذني كتابي هذا فانطلقني به إلى صاحبك، فإن كان مجنوناً فإنه سيذهب عنه، وإن كان من الله فلن يضره، فانطلقت بالكتاب معها، فلما دخلت منزلها إذا هي برسول الله صلى الله عليه وسلم مع جبريل يقرئه هذه الآيات {ن؟ والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون وإنك لعلی خلق عظیم فستبصر وبيصرون بأيكم المفتون} فلما سمعت خديجة قراءته اهتزت فرحاً ثم قالت للنبي فداك أبي وأمي، امض معي إلى عداس، فلما رآه عداس كشف عن ظهره فإذا خاتم النبوة يلوح بين كتفيه، فلما نظر عداس إليه خر ساجداً يقول: قدوس قدوس، أنت والله النبي الذي بشر بك موسى وعيسى الحديث. وفيه إن كان هذا قبل أن تذهب به إلى ورقة اقتضى أن نزول سورة ن؟ قبل اقراء، ولا يحسن ذلك مع قوله لجبريل ما أنا بقارىء، إذ هو صريح في أنه لم يقرأ قبل ذلك شيئاً، ومن ثم كان المشهور أن أول ما نزل اقراء. وكون ن؟ نزلت لهذا السبب مخالف لما ذكر في أسباب النزول أنها نزلت لما وصفه المشركون بأنه مجنون، إلا أن يقال لا مانع من تعدد النزول.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وذكر ابن دحية أيضاً أنه لما أخبرها بجبريل ولم تكن سمعت به قط، كتبت إلى بحيرا الراهب فسألته عن جبريل، فقال لها: قدوس قدوس يا سيدة نساء قريش، أنى لك بهذا الاسم؟ فقالت: بعلي وابن عمي أخبرني بأنه يأتيه، فقال: إنه السفير بين الله وبين أنبائه، وإن الشيطان لا يجترىء أن يتمثل به، ولا أن يتسمى باسمه. وهذه العبارة: أي كون جبريل هو السفير بين الله وبين أنبيائه صدرت من الحافظ السيوطي، وزاد: ولا يعرف ذلك لغيره من الملائكة.

واعترض عليه بعضهم بأن إسرافيل كان سفيراً بين الله وبينه. فعن الشعبي أنه جاءت النبوة وهو ابن أربعين سنة، وقرن بنبوته إسرافيل ثلاث سنين، فلما مضت ثلاث سنين قرن بنبوته جبريل، وفي لفظ عنه: فلما مضت ثلاث سنين تولى عنه إسرافيل وقرن به جبريل: أي وقد تقدم أن إسرافيل قرن به قبل النبوة ثلاث سنين يسمع حسه ولا يرى شخصه، يعلمه الشيء بعد الشيء إلى آخره، وحينئذ يلزم أن يكون قرن به بعد النبوة ثلاث سنين أيضاً، وسيأتي عن

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

بحث بعض الحفاظ أنها مدة فترة الوحي فليتأمل. وأجاب الحفاظ السيوطي عن ذلك بأن السفير هو المرصد لذلك، وذلك لا يعرف لغير جبريل، ولا ينافي ذلك مجيء غيره من الملائكة إلى النبي صلى الله عليه وسلم في بعض الأحيان.

ولك أن تقول: إن كان المراد بالمجيء إليه بوحي من الله كما هو المتبادر فليس في هذه الرواية أن إسرافيل وغيره من الملائكة كان يأتيه بوحي من الله قبل مجيء جبريل له بوحي غير النبوة، ولا يخرج ذلك عن الاختصاص باسم السفير، وبأن إسرافيل لم ينزل لغير النبي صلى الله عليه وسلم من الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كما ثبت في الحديث، فلم يكن السفير بين الله وجميع أنبيائه.

قيل وإنما خص بذلك لأنه أول من سجد من الملائكة لآدم. ورأيته سئل هل عيسى بعد نزوله يوحى إليه؟ فأجاب بنعم، وأورد حديث النواس بن سمعان الذي أخرجه مسلم وأحمد وأبو داود والترمذي والنسائي وغيرهم. وفيه التصريح بأنه يوحى إليه. قال: والظاهر أن الجائي إليه بالوحي جبريل قال: بل هو الذي يقطع به ولا يتردد فيه، لأن ذلك وظيفته وهو السفير بين الله تعالى وبين أنبيائه، لا يعرف ذلك لغيره من الملائكة ثم استدل على ذلك بما يطول.

قال: وما اشتهر على ألسنة الناس أن جبريل لا ينزل إلى الأرض بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم فهو شيء لا أصل له، وزعم زاعم أن عيسى إنما يوحى إليه وحي إلهام ساقط قال: وحديث «لا وحي بعدي» باطل، أي ويدل له ما رأته في كلام بعضهم: جبريل ملك عظيم ورسول كريم، مقرب عند الله، أمين على وحيه، وهو سفيره إلى أنبيائه كلهم، وسماه روح القدس، والروح الأمين، واختصه بوحيه من بين الملائكة المقربين.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

قال: ورأيت في بعض التواريخ أن جبريل نزل عليه ستا وعشرين ألف مرة ولم يبلغ أحد من الأنبياء هذا العدد، والله أعلم.

وفي أسباب النزول للواحد عن علي رضي الله تعالى عنه «لما سمع النداء: يا محمد قال: لبيك، قال قل: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، ثم قال قل {الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مالك يوم الدين} حتى فرغ من السورة»: أي فلما بلغ «ولا الضالين، فقال: قل آمين فقال آمين» كما في رواية وكيع وابن أبي شيبة وجاء في حديث قال بعضهم إسناده ليس بالقائم «إذا دعا أحدكم فليختم بآمين، فإن آمين في الدعاء مثل الطابع على الصحيفة» وفي الجامع الصغير «آمين خاتم رب العالمين على لسان عباده المؤمنين» أي خاتم دعاء رب العالمين أي يمنع من أن يتطرق إليه ردّ وعدم قبول. ومن ثم «لما سمع رجلاً يدعو، قال قد وجب إن ختم بآمين». فأتى ورقة فذكر له ذلك، فقال له ورقة: أبشر ثم أبشر، فإني أشهد أنك الذي بشر بك ابن مريم، فإنك على مثل ناموس موسى، وإنك نبي مرسل، وإنك ستؤمر بالجهاد بعد يومك، ولئن أدركني ذلك لأجاهدن معك.

أقول: هذا لا يدل للقول بأن الفاتحة أول ما نزل، وعليه كما قال في الكشف أكثر المفسرين، إذ يبعد كل البعد أن تكون هذه الرواية قبل نزول {اقرأ باسم ربك} ثم رأيت عن البيهقي أنه قال فيما تقدم عن أسباب النزول، هذا مرسل ورجاله ثقات، فإن كان محفوظاً فيحتمل أن يكون خبراً عن نزولها بعد ما نزلت عليه اقرأ والمدثر: أي والمدثر نزلت بعد {يا أيها المزمل}. ثم رأيت ابن حجر اعترض ما تقدم عن الكشف بقوله: الذي ذهب إليه أكثر الأمة هو الأول: أي القول بأنه اقرأ، وأما الذي نسبته إلى الأكثر فلم يقل به إلا عدد أقل من القليل بالنسبة إلى من قال بالأول، هذا كلامه. ثم رأيت الإمام النووي قال: القول بأن الفاتحة أول ما نزل بطلانه أظهر من أن يذكر: أي ومما يدل على ذلك ما جاء من طرق عن مجاهد أن الفاتحة نزلت بالمدينة. ففي تفسير وكيع عن مجاهد: فاتحة الكتاب مدنية، وفيه أنه جاء عن قتادة أنها نزلت بمكة.

وعن علي كرم الله وجهه كما في أسباب النزول للواحدي أنها نزلت بمكة من كنز تحت العرش. وفيها عنه «لما قام النبي صلى الله عليه وسلم بمكة فقال: {بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين} قالت قريش رض الله فاك». وفي الكشف أن الفاتحة نزلت بمكة، وقيل نزلت بالمدينة، فهي مكية مدنية، هذا كلامه وتبعه على ترجيح أنها مكية القاضي البيضاوي حيث قال: وقد صح أنها مكية. وفي الإتيان وذكر قوم منه أي مما تكرر نزوله الفاتحة، فليأمل فإنه لا يقال ذلك إلا بناء على أنها نزلت بهما: أي نزلت بمكة ثم بالمدينة مبالغة في شرفها. وقد أشار القاضي البيضاوي إلى أن تكرير نزولها ليس بمجزوم به. وقيل نزل نصفها بمكة ونصفها بالمدينة. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377 قال في الإتيان: والظاهر أن النصف الذي نزل بالمدينة النصف الثاني، قال ولا دليل لهذا القول، هذا كلامه.

واستدل بعضهم على أنها مكية بأنه لا خلاف أن سورة الحجر مكية، وفيها {ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم} وهي الفاتحة. فعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قرئ عليه الفاتحة «والذي نفسي بيده ما أنزل الله تعالى في التوراة ولا في الإنجيل ولا في الزبور ولا في الفرقان مثلها، إنها لهي السبع المثاني والقرآن العظيم الذي أوتيته».

وقد حكى بعضهم الاتفاق على أن المراد بالسبع المثاني في آية الحجر هي الفاتحة. ويردّ دعوى الاتفاق قول الجلال السيوطي: وقد صح عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما تفسير السبع المثاني في آية الحجر بالسبع الطوال. ومما يدل على أن المراد بها الفاتحة، ما ذكر في سبب نزولها وهو أن عيرا لأبي جهل قدمت من الشام بمال عظيم وهي سبع قوافل، ورسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ينظرون إليها وأكثر الصحابة بهم عري وجوع، فخطر ببال النبي صلى الله عليه وسلم شيء لحاجة أصحابه فنزل {ولقد آتيناك} أي أعطيناك {سبعاً من المثاني} مكان سبع قوافل، ولا تنظر إلى ما أعطيناك لأبي جهل وهو متاع الدنيا الدنية {ولا تحزن عليهم} أي على أصحابك {واخفض جناحك} لهم، فإن تواضعك لهم أطيب لقلوبهم من ظفرهم بما تحب من

أسباب الدنيا.
وفي زوائد الجامع الصغير «لو أن فاتحة الكتاب جعلت في كفة الميزان وجعل القرآن في الكفة الأخرى لفضلت فاتحة الكتاب على القرآن سبع مرات». وفي لفظ «فاتحة الكتاب شفاء من كل داء» وفي لفظ «فاتحة الكتاب تعدل ثلثي القرآن» فليتأمل، ولها اثنان وعشرون اسماً.

وذكر بعضهم أن لها ثلاثين اسماً. وذكرها الاستاذ الشيخ أبو الحسن البكري في تفسيره الوسيط، قال السهيلي: ويكره أن يقال لها أم الكتاب: أي لما ورد «لا يقولن أحدكم أم الكتاب وليقل فاتحة الكتاب» قال الحافظ السيوطي رحمه الله: ولا أصل له في شيء من كتب الحديث، وإنما أخرجه ابن الضريس بهذا اللفظ عن ابن سيرين. وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة تسميتها بذلك هذا كلامه، ولا يخفى أنه جاء في تسمية الفاتحة ذكر المضاف تارة وهو سورة كذا وإسقاطه أخرى. وتارة جوّزوا الأمرين معاً، وهو يشكّل على أن تسمية السور توقيفي.

ثم رأيت في الإتيان قال: قال الزركشي في البرهان: ينبغي البحث عن تعداد الأسماء هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات؟ فإن كان الثاني فيمكن الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها وهو بعيد هذا كلامه. ويلزم القول بأنها إنما نزلت في المدينة أن مدة إقامته بمكة كان يصلي بغير الفاتحة. قال في أسباب النزول: وهذا مما لا تقبله العقول: أي لأنه لم يحفظ أنه كان في الإسلام صلاة بغير الفاتحة: أي وبدل لذلك ما رواه الشيخان «لا صلاة لمن يقرأ بفاتحة الكتاب» وفي رواية «لا تجزئ صلاة لا يقرأ فيها الرجل بفاتحة الكتاب» والمراد في كل ركعة، لقوله للمسيء صلواته «إذا استقبلت القبلة فكبر ثم اقرأ بأم القرآن ثم اقرأ بما شئت» إلى أن قال: «ثم اصنع ذلك - أي القراء بأم القرآن - في كل ركعة» وجاء علي شرط الشيخين «أم القرآن عوض عن غيرها، وليس غيرها منها عوضاً» ويدل لذلك أيضاً وصف القول بأنها إنما نزلت بالمدينة بأنه هفوة من قائله، لأنه تفرد بهذا القول، والعلماء على خلافه: أي لأن نزولها كان بعد فترة الوحي بعد نزول {يا أيها المدثر} ويلزم على كونها نزلت بعد المدثر أنه صلى بغير الفاتحة في مدة فترة الوحي: أي لأن المدثر نزلت بعد فترة الوحي على ما سيأتي.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وقد يقال: لا ينافيه ما تقدم من أنه لم يحفظ أنه لم يكن في الإسلام صلاة بغير الفاتحة، لجواز أن يراد صلاة من الصلوات الخمس، وما تقدم مما يدل على تعيين الفاتحة في الصلاة يجوز أن يكون صدر منه بعد فرض الصلوات الخمس. وفي الإمتاع إنزال الملك يبشره بالفاتحة وبالايتين من سورة البقرة، يدل على أنها نزلت بالمدينة.

فقد أخرج مسلم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: «بينما جبريل قاعد عند النبي صلى الله عليه وسلم سمع نغيضاً أو صوتاً من فوقه فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه

ملك، فقال هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتتهما من قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة» هذا كلامه فليتأمل وجه الدلالة من هذا على أنه سيأتي عن الكامل للذهلي ما يصرح بأن خواتيم البقرة نزلت عليه ليلة الإسراء بقاب قوسين. ومما يدل على أن البسملة آية منها نزولها معها أي كما في بعض الروايات، وإلا فالرواية المتقدمة تدل على أنها لم تنزل معها. ويدل لكون البسملة آية من الفاتحة أيضاً ما أخرجه الدارقطني وصححه والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله: «إذا قرأت الحمد لله فاقروا بسم الله الرحمن الرحيم: إنها أم القرآن وأم الكتاب والسبع المثاني، وبسم الله الرحمن الرحيم إحدى آياتها». وقد أخرج الدارقطني عن علي رضي الله تعالى عنه أنه سئل عن السبع المثاني فقال: الحمد لله رب العالمين، فقيل له إنما هي ست آيات، فقال: {بسم الله الرحمن الرحيم آية} وقيل لها السبع المثاني، لأنها سبع آيات وتثنى في الصلاة. وقيل المثاني كل القرآن، لأنه يثنى فيه صفات المؤمنين والكفار والمنافقين وقصص الأنبياء والوعد والوعيد.

قال بعضهم: والوجه أن يقال المراد بالسبع المثاني السبع الطوال: أي كما أنها المراد بقوله تعالى: {ولقد أتيناك سبعاً من المثاني} على ما تقدم، وهي البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والسابعة يونس. وقيل براءة وقيل الكهف.

وعن أم سلمة رضي الله تعالى عنها: «أن النبي صلى الله عليه وسلم عدّ البسملة آية من الفاتحة» وبهذا يعلم ما في تفسير البيضاوي عن أم سلمة من «أنه عدّ بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين آية» فقد ذكر بعض الحفاظ أن هذا اللفظ لم يرد عن أم سلمة، والذي رواه جماعة من الحفاظ عن أم سلمة بألفاظ تدل على أن بسم الله الرحمن الرحيم آية وحدها. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

منها أنها ذكرت أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصلي في بيتها، فيقرأ {بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين} وفي رواية عنها «أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقرأ في الصلوات بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله رب العالمين» والاستدلال على أن البسملة آية من الفاتحة بكونها نزلت معها يقتضي أن البسملة ليست آية من {اقرأ باسم ربك} ومن ثم قال الحافظ الدمياطي: نزول اقرأ بدون بسملة يدل على أن البسملة ليست آية من كل سورة، واستدل به: أي بعدم نزولها في أول سورة اقرأ أيضاً كما قال الإمام النووي من يقول إن البسملة ليست بقرآن في أوائل السور: أي وإنما أنزلت وكتبت للفصل والتبرك بالابتداء بها، وهذا القول ينسب لقول إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه في القديم وهو قول قدماء الحنفية. قال: وجواب المثبتين أي لقرآنتها في ذلك أنها نزلت في وقت آخر كما نزل باقي السورة: أي سورة اقرأ.

وجوابهم أيضاً بأن الإجماع من الصحابة والسلف على إثباتها في مصاحفهم مع مبالغتهم في تجريدتها عن كتابة غير القرآن فيها حتى إنهم لم يكتبوا أمين فيها، واستبدل أيضاً لعدم قرآنيته في أوائل السور بعدم تواترها في محلها. ورد بأن عدم تواترها في محلها لا يقتضي سلب القرآنية عنها. وردّ هذا الردّ بأن الإمام الكافيجي قال: المختار عند المحققين من علماء السنة وجوب التواتر: أي في القرآن في محله ووضعه وترتيبه أيضاً كما يجب تواتره في أصله: أي وفي الفتوحات: البسملة من القرآن بلا شك عند العلماء بالله، وتكرارها في السورة كتكرار ما تكرر في القرآن من سائر الكلمات، وهو بظاهره يؤيد ما ذهب إليه إمامنا من أنها آية من أول كل سورة، ومحتمل لما قاله السهيلي حيث قال: نقول إنها آية من كتاب الله مقترنة مع السورة. وفي كلام أبي بكر بن العربي: وزعم الشافعي أنها آية من كل سورة وما سبقه إلى هذا القول أحد، فإنه لم يعدّها أحد آية من سائر السور. ونقل عن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه أنها آية من أول الفاتحة دون بقية السور. فعن الربيع قال: سمعت الشافعي يقول: أول الحمد بسم الله الرحمن الرحيم، وأول البقرة ال؟ م قال بعضهم: وهو يدل على أن البسملة آية من أول الفاتحة دون بقية السور، فإنها ليست آية من أولها، بل هي آية في أولها إعادة لها وتكريراً لها، وربما يوافق ذلك قول الجلال السيوطي في الخصائص الصغرى: وخص بالبسملة والفتحة هذا كلامه وكونه خص بالبسملة يخالف قوله في الإتيان عن الدارقطني «إن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبعض أصحابه لأعلمنك آية لم تنزل على نبي بعد سليمان غيري: بسم الله الرحمن الرحيم» كما سيأتي، وسيأتي ما فيه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

قيل وإنما تركت البسملة أول براءة لعدم المناسبة بين الرحمة التي تدل عليها البسملة، والتبريء الذي يدل عليه أول براءة. وردّه في الفتوحات، بأنها جاءت في أوائل السور المبدوءة بويل قال: وأين الرحمة من الويل. وذكر بعضهم أن الأنفال وبراءة سورة واحدة: أي فعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: سألت عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه لمّ لم يكتبوا بين براءة والأنفال سطر {بسم الله الرحمن الرحيم}؟ فقال: كانت الأنفال من أول ما نزل بالمدينة، وكانت براءة من آخر ما نزل بالمدينة، وكانت قصتها شبيهة بالأخرى فظننت أنهما سورة واحدة. وفي كلام بعض المفسرين عن طاوس وعمر بن عبد العزيز. أنهما كانا يقولان: إن الضحى وألم نشرح سورة واحدة، فكانا يقرأنهما في ركعة واحدة ولا يفصلان بينهما بسم الله الرحمن الرحيم، وذلك لأنهما رأيا أن أولها منسب لقلوبهم {ألم يجدك يتيماً} وليس كذلك، لأن تلك حال اغتنامه بإيذاء الكفار، فهي حال محنة وضيق، وهذه حال انشراح الصدر وتطيب القلب فكيف يجتمعان؟ هذا كلامه. وذكر أئمتنا أنه يكفي في وجوب الإتيان بالبسملة في الفاتحة في الصلاة الظن المفيد له خبر الأحاد، ولعدم التواتر بذلك لا يكفر من نفي كونها آية من الفاتحة بإجماع المسلمين، وقد جهر بها كما رواه جمع من الصحابة. قال ابن عبد البر بلغت عدتهم أحداً وعشرين صحابياً.

وأما ما رواه مسلم عن أنس قال: «صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر وعثمان فلم أسمع أحداً منهم يقرأ بسم الله الرحمن الرحيم» أجيب عنه بأنه لم ينف إلا السماع، ويجوز أنهم تركوا الجهر بها في بعض الأوقات بياناً للجواز. ويؤيده قول بعضهم: كانوا يخفون البسمة.

وأما ما رواه البخاري وأبو داود والترمذي وغيرهم «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبا بكر وعمر كانوا يفتتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين» فمعناه بسورة الحمد لا غيرها من القرآن. ولا يبعد هذا الحمل ما في رواية عبد الله بن مغفل أنه قال: «سمعتني أبي وأنا أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم فقال: أي بني إياك والحدث، فإني صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ومع أبي بكر وعمر فلم أسمع أحداً منهم يقوله، فإذا قرأت فقل الحمد لله رب العالمين، فإنه لما لم يسمع فهم أنهم لم يأتوا بها رأساً، فقال ذلك، وكذا يقال فيما روي «كانوا يقرؤون بسم الله الرحمن الرحيم» فعلى تقدير ثبوت تلك الرواية وصحتها يجوز أن يكون الراوي فهم مما تقدم ترك البسمة فروي بالمعنى فأخطأ.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

ومما استدل به على أن البسمة ليست آية من الفاتحة ما جاء عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه قال: قال رسول الله: «قال الله تبارك وتعالى: قسمت الصلاة: - أي الفاتحة - بيني وبين عبدي نصفين، فنصفها لي ونصفها لعبدي ولعبدي ما سأل فإذا قال: الحمد لله رب العالمين قال الله تعالى: حمدني عبدي، وإذا قال: الرحمن الرحيم قال مجدني عبدي، وإذا قال: مالك يوم الدين، قال: فوؤض إليّ عبدي، وإذا قال: إياك نعبد وإياك نستعين، قال: هذه بيني وبين عبدي ما سأل، فيقول عبدي: اهدنا الصراط المستقيم» إلى آخرها.

قال أبو بكر بن العربي المالكي: فانتفى بذلك أن تكون بسم الله الرحمن الرحيم آية منها من وجهين: أحدهما أنه لم يذكرها في القسمة. والثاني أنها صارت في القسمة لما كانت نصفين بل يكون ما لله فيها أكثر مما للعبد، لأن بسم الله تعالى لا شيء للعبد فيه، ثم ذكر أن التعبير بالصلاة عن الفاتحة يدل على أن الفاتحة من فروعها، وأطال في ذلك، وسيأتي في الحديبية أنه كان يكتب: باسمك اللهم موافقة للجاهلية. قيل كتب ذلك في أربعة كتب. وأول من كتبها أمية بن أبي الصلت، فلما أنزل {بسم الله مجراها ومرساها} كتب {بسم الله} ثم لما نزل {ادعوا الله أو ادعوا الرحمن} كتب {بسم الله الرحمن} ثم نزلت {إنه من سليمان وإنه بسم الله الرحمن الرحيم} كتب {بسم الله الرحمن الرحيم} كذا نقل عن الشعبي «أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكتب {بسم الله الرحمن الرحيم} حتى نزلت سورة النمل» وهذا يفيد أن البسمة لم تنزل قبل ذلك في شيء من أوائل السور، ويؤيده قول السهيلي: ثم كان بعد ذلك: أي بعد نزول {وإنه بسم الله الرحمن الرحيم} ينزل جبريل عليه الصلاة والسلام بسم الله الرحمن الرحيم مع كل

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

سورة: أي تمييزاً لها عن غيرها. وقد ثبت في سواد المصحف الإجماع من الصحابة رضي الله تعالى عنهم على ذلك، هذا كلامه، فليتأمل ما فيه، فإنه قد يدل للقول بأن البسملة نزلت أول الفاتحة على ما في بعض الروايات. ونقل أبو بكر التونسي إجماع علماء كل أمة على أن الله سبحانه وتعالى افتتح جميع كتبه ببسم الله الرحمن الرحيم.

وفي الإتقان عن الدارقطني «أن النبي صلى الله عليه وسلم: قال لبعض الصحابة لأعلمنك آية لم تنزل على نبي بعد سليمان غيري: بسم الله الرحمن الرحيم» وبهذا يعلم ما في الخصائص الصغرى أن البسملة من خصائصه. وقوله: «على نبي بعد سليمان غيري» يشكك عليه أن عيسى بين سليمان وبينه وكتابه الإنجيل وهو من جملة كتب الله المنزلة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وعن النقاش أن البسملة لما نزلت سبحت الجبال، فقالت قريش: سحر محمداً الجبال قال السهيلي: إن صح ما ذكره فإنما سبحت الجبال خاصة لأن البسملة إنما نزلت على آل داود، وقد كانت الجبال تسبح مع داود، والله أعلم. ثم لم يلبث ورقة أن توفي. قال سبط ابن الجوزي: وهو آخر من مات في الفترة، ودفن بالحجون فلم يكن مسلماً، ويؤيده ما جاء في رواية في سندها ضعف عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أنه مات على نصرانيته. وهذا يدل على أن من أدرك النبوة وصدّق بنبوّته ولم يدرك الرسالة بناء على تأخرها لا يكوم مسلماً بل من أهل الفترة، فلما توفي ورقة قال رسول الله: «لقد رأيت القس يعني ورقة في الجنة وعليه ثياب الحرير» أي والقس بكسر القاف: رئيس النصارى، وبفتحها تتبع الشيء ().

هذا، وفي القاموس: القس مثلث القاف: تتبع الشيء وطلبه كالتقسس، وبالفتح صاحب الإبل الذي لا يفارقها، ورئيس النصارى في العلم. وفي رواية «أبصرته في بطنان الجنة وعليه السندس» وفي رواية «قد رأيت عليه ثياباً بيضاً، وأحسبه - أي أظنه - لو كان من أهل النار لم تكن عليه ثياب بيض». أقول: صريح الرواية الثالثة أنه لم يره في الجنة، فقد تعددت الرؤية. وأما الرواية الثانية فلا تخالف الرواية الأولى لأن السندس من أفراد الحرير، فلا دلالة في ذلك على التعدد، والله أعلم. وفي رواية «لا تسبوا ورقة فإني رأيت له جنة أو جنتين () لأنه آمن بي وصدقني»: أي قبل الدعوة التي هي الرسالة، وحينئذ يكون معنى قوله له: «جنة أو جنتين» هيئت له جنة أو جنتان، ولا مانع أن يكون بعض أهل الفترة من أهل الجنة، إذ لو كان مسلماً حقيقة بأن أدرك الدعوة وصدّق به لم يقل فيه: «وأحسبه لو كان من أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض» وجزم ابن كثير بإسلامه.

قال بعضهم: وهو الراجح عند جهاذة الأئمة: أي بناء على أنه أدرك الدعوة إلى الله تعالى التي هي الرسالة. ففي الإمتاع أن ورقة مات في السنة الرابعة من المبعث، ويوافق ما يأتي عن سيرة ابن إسحاق، وعن كتاب الخميس. وحينئذ يكون قوله: «لأنه آمن بي

وصدقني» واضحاً، لكن ينازع في ذلك قوله: «وأحسبه لو كان أهل النار لم يكن عليه ثياب بيض» وسيأتي عن الذهبي ما يخالفه. ويخالفه أيضاً ما تقدم عن سبط ابن الجوزي أنه من أهل الفترة. وعن يحيى بن بكير قال: سألت جابر بن عبد الله، يعني عن ابتداء الوحي، فقال: لا أحدثك إلا ما حدثنا به رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «جأرت بحراء، فلما قضيت جوارِي هبطت فنوديت فنظرت عن يميني فلم أر شيئاً، فنظرت عن يساري فلم أر شيئاً فنظرت من خلفي فلم أر شيئاً، فرفعت رأسي فرأيت شيئاً بين السماء والأرض» أي وفي رواية «فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس على كرسي» زاد في رواية «متربعا عليه» وفي لفظ «على عرش بين السماء والأرض» فرعبت منه، فاتيت خديجة فقلت: «دثروني دثروني» أي وفي رواية «زملوني زملوني، وصبوا عليّ ماء بارد فدثروني وصبوا عليّ ماء بارداً فنزلت هذه الآية {يا أيها المدثر} أي الملتف بثيابه {قم فأندِرْ وربك كبريّ}»، ولم يقل بعد فأندِرْ وبشر لأنه كما بعث بالندارة بعث بالبشارة لأن البشارة، إنما تكون لمن آمن ولم يكن أحد آمن قبل، وهذا يدل على أن هذه الآية أول ما نزل: أي قبل اقرأ وأن النبوة والرسالة مقترنان.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

قال الإمام النووي: والقول بأن أول ما نزل {يا أيها المدثر} ضعيف باطل، وإنما نزلت بعد فترة الوحي: أي ومما يدل على ذلك قوله: «فإذا الملك الذي جاءني بحراء» ومما يدل على ذلك أيضاً ما في البخاري أن في رواية جابر أنه حدث عن فترة الوحي أي لا عن ابتداء الوحي. فما تقدم من قول بعضهم يعني عن ابتداء الوحي فيه نظر، وكذا في قول الراوي عن جابر «جأرت بحراء، فلما قضيت جوارِي هبطت» لأن جواره بحراء كان قبل فترة الوحي، إلا أن يقال جابر جاء عنه روايتان: واحدة في ابتداء الوحي، وأخرى في فترة الوحي، وبعض الرواة خلط، فإن صدر الرواية يدل على أن ذلك كان عند ابتداء الوحي، وعجزها يدل على أن ذلك كان في فترة الوحي.

هذا، ويجوز أن يكون جاور بحراء في مدة فترة الوحي. ويؤيد ذلك ما في البيهقي عن مرسل عبيد بن عمير «أنه كان يجاور في كل سنة شهراً وهو رمضان، وكان ذلك في مدة فترة الوحي» وسيأتي الجمع بين الروايات في أول ما نزل. وعن إسماعيل بن أبي حكيم مولى الزبير «أنه حدث عن خديجة رضي الله تعالى عنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم: أتستطيع أن تخبرني بصاحبك هذا الذي يأتيك إذا جاءك؟ قال نعم» أي وذلك قبل أن يأتيه بالقرآن: أي بشيء منه، وهو {اقرأ باسم ربك} بناء على أنه أول ما نزل. ولا ينافي ذلك قولها: «هذا الذي يأتيك إذا جاءك» لأن المعنى الذي يتراءى لك إذا رأيته، فجاءه جبريل عليه الصلاة والسلام، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا خديجة، هذا جبريل قد جاءني: أي قد رأيته، لكن سيأتي عن ابن حجر الهيتمي أن ذلك كان بعد البعثة/ «قالت: قم يا بن عمي فاجلس على فخذي، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس على فخذه، قالت: هل تراه؟

قال نعم، قالت، فتحول فاجلس في حجري، فتحول رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس في حجرها، قالت: هل تراه؟ قال نعم، فألقت خمارها ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في حجرها ثم قالت: هل تراه؟ قال لا، قالت: يا ابن عمي اثبت وأبشر فوالله إنه لملك ما هذا بشيطان» وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله:
وأناه في بيتها جبرئيل
ولذي اللب في الأمور ارتياء
أماطت عنها الخمار لتدري
أهو الوحي أم هو الإغماء
اختفى عند كشفها الرأس جبري
ل فما عاد أو أعيد الغطاء
استبان خديجة أنه الكنز
الذي حاولته والكيمياء

أي وأناه. قال ابن حجر: أي بعد البعثة أي النبوة، واجتماعه به في بيتها حامل الوحي جبرئيل، ولصاحب العقل الكامل في الأحوال التي قد تشبهه استبصار، فبسبب كمال استبصارها أزالته عن رأسها ما يغطي به الرأس لتعلم عين اليقين أن هذا الذي يعرض له هل هو حامل الوحي الذي كان يأتي به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبله أو هو الإغماء الذي هو بعض الأمراض الجائرة عليهم، عليهم الصلاة والسلام.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وفيه أنه ينبغي أن يكون المراد به الإغماء الناشئ عن لمة الجن، فيكون من الكهان لا من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام الذي قال بسببه لخديجة لقد خشيت على نفسي، وسيأتي أنه كان يعتريه وهو بمكة قبل أن ينزل عليه القرآن ما كان يعتريه عند نزول الوحي عليه: أي من الإغماء إلى آخره، فبسبب إزالتها ما تغطي به رأسها عنها اختفى فلم يعد إلى أن أعادت غطاء رأسها عليه، فاستبان: علمت علم اليقين أن ما يعرض له هو الوحي: أي لا الجنى، لأن الملك لا يرى الرأس المكشوف من المرأة بخلاف الجنى. وشبه الناظم ذلك بالشيء النفيس والأمر العظيم، لأن كلا من الكنز والكيمياء لا يظفر به إلا القليل من الناس لعزتهما.

أقول: وفي الخصائص الكبرى ما يدل لما قلناه من أن أول ما فعلته خديجة كان عند ترائيه له، وقبل اجتماعه به.

وقلو بعضهم إن ذلك من خديجة كان بإرشاد من ورقة؟ فإنه قال لها اذهبي إلى المكان الذي رأى فيه ما رأى، فإذا رآه فتحسري، فإن لم يكن من عند الله لا يراه: أي فترأى له وهو في بيت خديجة ففعلت، قالت: فلما تحسرت تغيب جبرئيل فلم يره، فرجعت فأخبرت ورقة، فقال إنه ليأتيه الناموس الأكبر.

وفي فتح الباري أن في سيرة ابن إسحاق أن ورقة كان يمر ببلال رضي الله تعالى عنه وهو يعذب، وذلك يقتضي أنه تأخر إلى زمن الدعوة، وإلى أن دخل

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

بعض الناس في الإسلام: أي وفي كلام صاحب كتاب الخميس في الصحيحين أن البوحي تتابع في حياة ورقة وأنه آمن به، وتقدم أنه الموافق لما في الإمتاع من أنه مات في السنة الرابعة من البعثة، وتقدم أنه مخالف لما تقدم عن سبط ابن الجوزي، ومخالف أيضاً لقول الذهبي: الأظهر أنه مات بعد النبوة وقبل الرسالة، أي بناء على تأخرها، ويدل لتأخرها ما تقدم من قول ورقة: «يا ليتني فيها جذع» فقد تقدم أن المراد يا ليتني أكون في زمن الدعوة: أي ومن أدرك النبوة ولم يدرك البعثة لا يكون مسلماً، بل هو كما تقدم من أهل الفترة لأن الإيمان النافع عند الله تعالى الذي يصير به الشخص مستحقاً لدخول الجنة ناجياً من الخلود في النار التصديق بالقلب، بما علم بالضرورة أنه من دين محمد أي بما أرسل به وإن لم يقر بالشهادتين مع التمكن من ذلك حيث لم يطلب منه ذلك ويمتنع.

وقيل لا بد مع ذلك من الإقرار بالشهادتين للتمكن منه وحيث أدرك الرسالة فقد أسلم، وحينئذ يكون صحابياً.

ونقل بعضهم عن الحافظ ابن حجر أنه في الإصابة تردد في ثبوت الصحبة لورقة بن نوفل قال: لكن المفهوم من كلامه في شرح النخبة ثبوتها، وأنه يفرق بينه وبين بحيرا، بأن ورقة أدرك البعثة، وأنه لم يدرك الدعوة بخلاف بحيرا وهو ظاهر، والتعريف السابق يشمله هذا كلامه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وتعريفه السابق للصحابي: هو من اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً. وعبارة شرح النخبة: هل يخرج أي من تعريف الصحابي من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمناً به من لقيه مؤمناً بأنه سيعتد ولم يدرك البعثة محل نظر.

ولا يخفى عليك أن ما في شرح النخبة لا يدل لهذا البعض على أنه تقدم أن ابن حجر في الإصابة قال في بحيرا: ما أدري أدرك البعثة أم لا؟

ولا يخفى عليك ما تقدم عن ابن حجر من أن ورقة أدرك البعثة وأنه لم يدرك الدعوة، فإنه يقتضي أن البعثة عبارة عن النبوة لا عن الرسالة، وأن الرسالة هي الدعوة لا البعثة.

وروى ابن إسحاق عن شيوخه «أنه كان يرقى من العين وهو بمكة قبل أن ينزل عليه القرآن، فلما نزل عليه القرآن أصابه نحو ما كان يصيبه قبل ذلك» هذا يدل على «أنه كان يصيبه قبل نزول القرآن ما يشبه الإغماء بعد حصول الرعدة، وتغميض عينيه، وتبريد وجهه، ويغط كغطيط البكر، فقالت له خديجة: أوجه إليك من يرقيك؟ قال: أما الآن فلا» ولم أقف على من كان يرقيه ولا على ما كان يرقى به.

واشتهر على بعض الألسنة أن آمنة، يعني أمه رقت النبي من العين، ولعل مستند ذلك ما تقدم عن أمه أنها لما كانت حاملاً به جاءه الملك، وقال لها قولي إذا ولدته: أعيده بالواحد من شر كل حاسد والظاهر أنها قالت ذلك. وعن أسماء بنت عميس رضي الله تعالى عنها أنها قالت: «يا رسول الله إن ابني جعفر أي ولديها من جعفر بن أبي طالب تصيبهما العين أفنسترقى لهما؟ قال نعم، لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين». فإن قيل بهذه الأمور علم أن جبريل ملك لا جنى، فمن أين علم أنه يتكلم عن

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

الله تعالى؟ أوجب بأنه على تسليم أن قول ورقة المذكور وما تقدم عنه لا يفيد العلم، فقد يقال: خلق الله تعالى فيه علماً ضرورياً بعد ذلك علم به أنه جبريل، وأنه يتكلم عن الله تعالى، كما خلق في جبريل علماً ضرورياً بأن الموحى إليه هو الله.

وقد ذكر بعض المفسرين أنه كان له عدو من شياطين الجن يقال له الأبيض، كان يأتيه في صورة جبريل. واعترض بأنه يلزم عليه عدم الوثوق بالوحي. وأوجب عنه بمثل ما هنا، وهو أن الله تعالى جعل في النبي صلى الله عليه وسلم علماً ضرورياً يميزه بين جبريل عليه السلام وبين هذا الشيطان، ولعل هذا الشيطان غير قرينه الذي أسلم.

وفي كلام ابن العماد: وشيطان الأنبياء يسمى الأبيض، والأنبياء معصومون منه، وهذا الشيطان هو الذي أغوى به برصيماً الراهب العابد بعد عبادته خمسمائة سنة، وهو المعنى بقوله تعالى: {كمثل الشيطان إذ قال للإنسان اكفر فلما كفر قال إني بريء منك} هذا كلامه والله أعلم.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كان من الأنبياء من يسمع الصوت: أي ولا يرى مصوّتاً، فيكون بذلك نبياً» قال بعضهم: يحتمل أن يكون صوتاً خلقه الله تعالى في الجو: أي ليس من جنس الكلام، وخلق لذلك النبي فهم المراد منه عند سماعه. ويحتمل أن يكون من جنس الكلام المعهود يتضمن كون ذلك الشخص صار نبياً. قال: «وإن جبريل يأتيني فيكلمني كما يأتي أحدكم صاحبه فيكلمه ويصره من غير حجاب» أي وفي رواية «كنت أراه أحياناً كما يرى الرجل صاحبه من وراء الغريال».

ولا يخفى أن هاتين الحالتين كل منهما حالة من حالات الوحي. وحينئذ إما أن يكون جبريل عليه السلام على صورة دحية الكلبي، وهو بكسر الدال المهملة على المشهور وحكي فتحها، أو على صورة غيره، ومنه ما وقع في حديث عمر رضي الله تعالى عنه «بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم طلع علينا رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر، لا يرى عليه أثر السفر، ولا يعرفه منا أحد» الحديث. ورواية البخاري تدل على أنه لم يعرفه إلا في آخر الأمر، وورد «ما جاءني - يعني جبريل - في صورة لم أعرفها إلا في هذه المرة».

وفي صحيح ابن حبان «والذي نفسي بيده ما اشتبه عليّ منذ أتاني قبل مرّته هذه، وما عرفته حتى ولي» وبهذا يعلم ما في كلام الإمام السبكي حيث قسم الوحي إلى ثلاثة أقسام، حيث قال في تائيته:

ولازمك الناموس إما بشكله

وإما بنفث أو بحلية دحية

فليتأمل قيل وكان إذا أتاه على صورة الآدمي يأتيه بالوعد والبشارة.

فإن قيل إذا جاء جبريل عليه السلام على صورة الآدمي دحية أو غيره هل هي الروح تتشكل بذلك الشكل؟ وعليه هل يصير جسده الأصلي حياً من غير روح، أو يصير ميتاً؟

أجيب بأن الجائي يجوز أن لا يكون هو الروح بل الجسد لأنه يجوز أن الله تعالى جعل في الملائكة قدرة على التطور والتشكل بأي شكل أرادوه كالجن، فيكون الجسد واحداً، ومن ثم قال الحافظ ابن حجر: إن تمثل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيساً لمن يخاطبه. والظاهر أن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى، بل يخفي على الرائي فقط. وأخذ من ذلك بعض غلاة الشيعة أنه لا مانع ولا بعد أن الحق سبحانه وتعالى يظهر في صورة علي رضي الله تعالى عنه وأولاده: أي الأئمة الاثني عشر، وهم الحسن والحسين وابن الحسين زين العابدين وابنه محمد الباقر وابن محمد الباقر جعفر الصادق وابن جعفر الصادق موسى الكاظم وابن موسى الكاظم علي الرضا وابن علي الرضا محمد الجواد وابن محمد الجواد علي التقي. والحادي عشر حسن العسكري. والثاني عشر ولد حسن العسكري وهو المهدي صاحب الزمان، وهو حي باق إلى أن يجتمع بسيدنا عيسى عليه الصلاة والسلام على ما فيه. فقد قال عبد الله بن سبأ يوماً لعلي رضي الله تعالى عنه: أنت أنت، يعني أنت الإله، فنفاه علي إلى المدائن وقال: لا تساكني في بلد أبداً. وكان عبد الله بن سبأ هذا يهودياً، كان من أهل صنعاء، وأمّه يهودية سوداء، ومن ثم كان يقال له ابن السوداء، وكان أول من أظهر سب الشيخين ونسبهما للافتيات على سيدنا علي رضي الله تعالى عنه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

ولما قيل لسيدنا علي لولا أنك تضر ما أعلن به هذا ما اجترأ على ذلك، فقال علي: معاذ الله أني أضمر لهما ذلك، لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل، فأرسل إلى ابن سبأ فأظهر الإسلام في أول خلافة عثمان، وقيل في أول خلافة عمر، وكان قصده بإظهار الإسلام بوار الإسلام وخذلان أهله. وكان يقول قبل إظهاره الإسلام في يوشع بن نون بمثل ما قال في علي. وكان يقول في علي إنه حي لم يقتل، وإن فيه الجزء الإلهي، وإنه يحيى في السحاب، والرعد صوته والبرق سوطه، وإنه ينزل بعد ذلك إلى الأرض فيملؤها عدلاً كما ملئت جوراً وظلماً. وعبدالله هذا كان يظهر أمر الرجعة: أي أنه يرجع إلى الدنيا كما يرجع عيسى. وكان يقول: العجب ممن يزعم أن عيسى يرجع إلى الدنيا ويكذب برجة محمد، وقد قال الله تعالى: {إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد} فمحمد أحق بالرجوع من عيسى. وأظهر أمر الوصية: أي أن علياً رضي الله تعالى عنه أوصى له بالخلافة، وكان هو السبب في إثارة الفتنة التي قتل فيها عثمان رضي الله تعالى عنه كما سيأتي. ومن غلاة الشيعة من قال بالوهية أصحاب الكساء الخمسة: محمد وعلي وفاطمة والحسن والحسين رضي الله تعالى عنهم.

ومنهم من قال «بالوهية جعفر الصادق والوهية أبائه» وهم الحسين وابنه زين العابدين وابن زين العابدين محمد الباقر، وهؤلاء الشيعة موافقون في ذلك لمن يقول بالحلول، وهم الحلاجية أصحاب حسين بن منصور الحلاج. كانوا إذا رأوا صورة جميلة زعموا أن معبودهم حل فيها.

وممن زعم الحلول حتى ادعى الألوهية المقنع عطاء الخراساني، وذلك في سنة ثلاث وستين ومائة ادعى أن الله عز وجل حل في صورة آدم، ثم في صورة نوح ثم إلى أن حل في صورته هو، فاقنن به خلق كثير بسبب التمويهات التي أظهرها لهم، فإنه كان يعرف شيئاً من السحر والتيرنجيات، فقد أظهر قمرأ يراه الناس من مسافة شهرين من موضعه ثم يغيب. ولما اشتهر أمره ثار عليه الناس وقصدوه ليقتلوه. وجاءوا إلى القلعة التي كان متحصناً بها. فلما علم ذلك أسقى أهله سمأ فماتوا ومات، ودخل الناس تلك القلعة فقتلوا من بقي حي بها من أتباعه.

والقول بالاتحاد كفر، فقد قال العز بن عبد السلام: من زعم أن الإله يحل في شيء من أجسام الناس أو غيرهم فهو كافر، وأشار إلى أنه كافر إجماعاً من غير خلاف. وأنه لا يجري فيه الخلاف الذي جرى في تكفير المجسمة، ومن ثم ذكر القاضي عياض في الشفاء أن من ادعى حلول الباري في أحد الأشخاص كان كافراً بإجماع المسلمين.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وقول بعض العارفين وهو أبو يزيد البسطامي: سبحاني ما أعظم شأنني، وقوله: «إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدون. وقوله: وأنا ربي الأعلى، وقوله: أنا الحق وهو أنا وأنا هو: ليس من دعوى الحلول في شيء، وإنما قوله: سبحاني إنني أنا الله، محمول على الحكاية: أي قال ذلك على لسان الحق من باب حديث «إن الله تعالى قال على لسان عبده سمع الله لمن حمده» وقوله أنا ربي الأعلى وأنا الحق الخ. إنما قال ذلك لأنه انتهى سلوكه إلى الله تعالى، بحيث استغرق في بحر التوحيد، بحيث غاب عن كل ما سواه سبحانه، وصار لا يرى في الوجود غيره سبحانه وتعالى، الذي هو مقام الفناء ومحو النفس وتسليم الأمر كله له تعالى، وترك الإرادة منه والاختيار. فالعارف إذا وصل إلى هذا المقام ربما قصرت عبارته عن بيان ذلك الحال الذي نازله فصدرت عنه تلك العبارة الموهمة للحلول.

وقد اصطالحوا على تسمية هذا المقام الذي هو مقام الفناء بالاتحاد. ولا مشاحة في الاصطلاح لأنه اتحد مراده بمراد محبوبه، فصار المرادان واحداً لفناء إرادة المحب في مراد المحبوب، فقد فني عن هوى نفسه وحطوطها فصار لا يحب إلا الله ولا يبغض إلا الله، ولا يوالي إلا الله، ولا يعادي إلا الله، ولا يعطي إلا لله، ولا يمنع إلا لله، ولا يرجو إلا لله، ولا يستعين إلا بالله فيكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

وفي كلام سيدي علي رضي الله تعالى عنه حيث أطلق القول بالاتحاد في كلام القوم من الصوفية، فمرادهم فناء مرادهم في مراد الحق جل وعلا، كما يقول بين فلان وفلان اتحاد إذا عمل كل منهما على وفق مراد الآخر {ولله المثل الأعلى} هذا كلامه رضي الله تعالى عنه ورضي عنا به، وهذا مقام غير مقام الوحدة المطلقة الخارجة عن دائرة العقل التي ذكر السعد والسيد أن القول بها باطل وضلال: أي لأنه يلزم عليها القول بالجمع بين الضدين. فقد قال بعض العلماء: حضرة الجمع عبارة عن شهود اجتماع الرب، والعبد في

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

حال فناء العبد، فيكون العبد معدوماً موجوداً في آن واحد، ولا يدرك ذلك إلا من أشهده الله الجمع بين الضدين، ومن لم يشهد ذلك أنكره. ويجوز أن يكون الجسد للملك متعدداً، وعليه فمن الممكن أن يجعل الله لروح الملك قوة يقدر بها على التصرف في جسد آخر غير جسدها المعهود مع تصرفها في ذلك الجسد المعهود كما هو شأن الأبدال، لأنهم يرحلون إلى مكان ويقيمون في مكانهم شبحاً آخر مشبهاً لشبحهم الأصلي بدلاً عنه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وقد ذكر ابن السبكي في الطبقات أن كرامات الأولياء أنواع، وعد منها أن يكون لهم أجساد متعددة، قال: وهذا الذي تسميه الصوفية بعالم المثال، ومنه قصة قضيب البان وغيره: أي كواقعة الشيخ عبد القادر الطحطوطي نفعنا الله تعالى به.

فقد ذكر الجلال السيوطي رحمه الله تعالى أنه رفع إليه سؤال في رجل حلف بالطلاق أن وليّ الله الشيخ عبد القادر الطحطوطي بات عنده ليلة كذا فحلف آخر بالطلاق أنه بات عنده تلك الليلة بعينها، فهل يقع الطلاق على أحدهما! قال: فأرسلت قاصدي إلى الشيخ عبد القادر فسأله عن ذلك، فقال: ولو قال أربعة إني بت عندهم لصدقوا فأتيت أنه لا حنث على واحد منهما لأن تعدد الصور بالتخيل والتشكل ممكن كما يقع ذلك للجنان.

وقد قيل في الأبدال: إنهم إنما سيموا أبدالاً لأنهم قد يرحلون إلى مكان ويقيمون في مكانهم الأول شبحاً آخر شبيهاً بشبحهم الأصلي بدلاً عنه، ويقال عالم المثال كما تقدم، فهو عالم متوسط بين عالم الأجساد وعالم الأرواح، فهو أطف من عالم الأجساد، وأكثف من عالم الأرواح، فالأرواح تتجسد وتظهر في صور مختلفة من عالم المثال. قال: وهذا الجواب أولى مما تكلفه بعضهم في الجواب عن جبريل، بأنه كان يندمج بعضه في بعض أي الذي أجاب به الحافظ ابن حجر.

ومما يدل على وجود المثال رؤيته للجنة والنار في عرض الحائط وقول ابن عباس رضي الله تعالى عنهما في قوله تعالى: {لولا أن رأى برهان ربه} بأنه مثل له يعقوب بمصر وهو بالشام.

ومن ذلك ما اشتهر أن الكعبة شوهدت تطوف ببعض الأولياء في غير مكانها. وممن وقع له ذلك أبو يزيد البسطامي والشيخ عبد القادر الجيلي والشيخ إبراهيم المتبولي نفعنا الله تعالى ببركاتهم، ولعل مجيء جبريل على صورة دحية كان في المدينة بعد إسلام دحية وإسلامه كان بعد بدر، فإنه لم يشهدها وشهد المشاهد بعدها، إذ يبعد مجيئه على صورة دحية قبل إسلامه.

قال الشيخ الأكبر رضي الله تعالى عنه: دحية الكلبي كان أجمل أهل زمانه وأحسنهم صورة، فكان الغرض من نزول جبريل على سيدنا محمد في صورته إعلاماً من الله تعالى أنه ما بيني وبينك يا محمد سفير إلا صورة الحسن والجمال، وهي التي لك عندي، فيكون ذلك بشرى له ولا سيما إذا أتى بأمر الوعيد والزجر، فتكون تلك الصورة الجميلة تسكن منه ما يحركه ذلك الوعيد

والزجر هذا كلامه، وهو واضح لو كان لا يأتيه إلا على تلك الصورة الجميلة، إلا أن يدعي أن من حين أتاه على صورة دحية لم يأتيه على صورة آدمي غيره، وتكون واقعة سيدنا عمر سابقة على ذلك، لكن تقدم أنه كان إذا أتاه على صورة الأدمي يأتيه بالوعد والبشارة: أي بالوعيد والزجر فليتأمل.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377
وفي البرهان للزركشي في التنزيل أي تلقي القرآن طريقان:
أحدهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم انخلع من صورة البشرية إلى صورة الملكية وأخذه من جبريل: أي لأن الأنبياء يحصل لهم الانسلاخ من البشرية إلى الملكية بالفطرة الإلهية من غير اكتساب فيما هو أقرب من لمح البصر.
والثاني أن الملك انخلع من الملكية إلى البشرية حتى أخذه رسول الله صلى الله عليه وسلم منه هذا كلامه. والراجح أن المنزل اللفظ، والمعنى تلقفه جبريل من الله تعالى تلقفاً روحانياً، أو أن الله تعالى خلق تلك الألفاظ أي الأصوات الدالة عليها في الجو وأسمعها جبريل، وخلق فيه علماً ضرورياً أنها دالة على ذلك المعنى القديم القائم بذاته تعالى، وأوحاه إليه كذلك، أو حفظه جبريل من اللوح المحفوظ ونزل به.

واعلم أن من حالات الوحي النفث: أي أنه كان ينفث في روعه الكلام نفثاً قال: «إن روح القدس» أي المخلوق من الطهارة يعني جبريل «نفث» أي ألقى. والنفث في الأصل: النفخ اللطيف الذي لا يرق مع «في روعي» بضم الراء: أي قلبي «أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها ورزقها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب» أي عاملوا بالجميل في طلبكم، وتتمته «ولا يحملنكم استبطاء الرزق على أن تطلبوه بمعصية الله» أي كالكذب «فإن ما عند الله لن ينال إلا بطاعته».

وفي كلام ابن عطاء الله: الإجمال في الطلب يحتمل وجوهاً كثيرة: منها أن لا يطلبه مكياً عليه مشتغلاً عن الله تعالى به. ومنها أن يطلبه من الله تعالى ولا يعين قدرأً ولا وقتاً، لأن من طلب وعين قدرأً أو وقتاً فقد تحكم على ربه وأحاطت الغفلة بقلبه. ومنها أن يطلب وهو شاكر لله إن أعطى، وشاهد حسن اختياره إذا منع.
ومنها أن يطلب من الله تعالى ما فيه رضاه، ولا يطلب ما فيه حظوظ دنياه. ومنها أن يطلب ولا يستعجل الإجابة. وفي حديث ضعيف «اطلبوا الحوائج بعزة النفس، فإن الأمور تجري بالمقادير».

ومن حالات الوحي أنه كان يأتيه في مثل صلصلة الجرس: وهي أشد الأحوال عليه: أي لما قيل إنه كان يأتيه في هذه الحالة بالوعد والندارة.
أقول: روى الشيخان عن عائشة رضي الله تعالى عنها «أن الحارث بن هشام رضي الله تعالى عنه، وهو أخو أبي جهل لأبويه، وكان يضرب به المثل في السؤدد حتى قال الشاعر:
أحسبت أن أباك حين تسبني
في المجد كان الحارث بن هشام
أولى قريش بالمكارم والندی

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377
في الجاهلية كان والإسلام

أسلم يوم الفتح، وسيأتي أنه استجار في ذلك اليوم بأم هانئ أخت علي بن أبي طالب وأراد عليّ قتله، فذكرت ذلك للنبي فقال: «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ» وحسن إسلامه، وشهد حيناً، وكان من المؤلفة كما سيأتي «سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي؟ أي حامله الذي هو جبريل، قال: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ، فيقسم - بالفاء - أي يقلع عني وقد وعيت ما قال» وفي رواية «يأتيني أحياناً له صلصة كصلصلة الجرس، وأحياناً يتمثل لي الملك الذي هو حامل الوحي رجلاً» أي يتصور بصورة الرجل. وفي رواية «في صورة الفتى، فيكلمني فأعي ما يقول» وروي أنه في الحالة الثانية ينفلت منه ما يعيه بخلاف الحالة الأولى. ونص هذه الرواية «كان الوحي يأتيني على نحوين، يأتيني جبريل فيلقيه عليّ كما يلقي الرجل على الرجل، فذلك ينفلت مني. ويأتيني في شيء مثل صوت الجرس حتى يخالط قلبي، فذاك الذي لا ينفلت مني».

قيل وإنما كان ينفلت منه في الحالة الأولى لشدة تأنسه بحامله، لأنه يأتي إليه في صورة يعهدا ويخاطبه بلسان يعهده، فلا يثبت فيما ألقى إليه بخلافه في الحالة الثانية، لأن سماع مثل هذا الصوت الذي يفرع منه القلب مع عدم رؤية أحد يخاطبه إذا علم أنه وحي اضطر إلى التثبت في ذلك، وقولنا: أي حامله يخالف قول الحافظ ابن حجر حيث ذكر أن قوله مثل صلصلة الجرس بين بها صفة الوحي لا صفة حامله.

وفيه أن ذلك لا يناسب قوله وقد وعيت ما قال، وقول بعضهم: الصلصلة المذكورة هي صوت الملك بالوحي، وقوله: «يأتيني أحياناً له صلصلة كصلصلة الجرس، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً» وكان يجد ثقلاً عند نزول الوحي، ويتحدر جبينه عرقاً في البرد كأنه الجمان، وربما غط كغطيط البكر محمرة عيناه.

وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه «كان إذا نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثقل لذلك. ومرة وقع فخذة علي فخذني، فوالله ما وجدت شيئاً أثقل من فخذ رسول الله. وربما أوحى إليه وهو على راحلته فترعد حتى يظن أن ذراعها ينقسم وربما بركت».

أي وجاء «أنه لما نزلت سورة المائدة عليه كان على ناقته فلم تستطع أن تحمله، فنزل عنها».

وفي رواية «فاندق كتف راحلته العضاء من ثقل السورة» ولا يخالفه ما قبله لأنه جاز أن يكون حصل لها ذلك فكان سبباً لنزوله ثم رأيت في رواية ما يصرح بذلك.

وجاء «ما من مرة يوحى إلي إلا ظننت أن نفسي تقبض منه» وعن أسماء بنت عميس «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ انزل عليه الوحي يكاد يغشى عليه» وفي رواية «يصير كهيئة السكران».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377
أقول: أي يقرب من حال المغشي عليه لتغيره عن حاله المعهودة تغيراً شديداً حتى تصير صورته صورة السكران: أي مع بقاء عقله وتمييزه. ولا ينافي ذلك قول بعضهم: ذكر العلماء أنه كان يؤخذ عن الدنيا، لأنه يجوز أن يكون مع ذلك على عقله وتمييزه على خلاف العادة، وهذا هو اللائق بمقامه، وحينئذ لا ينتفض وضوؤه.
ثم رأيت صاحب الوفاء قال: فإن قال قائل ما كان يجري عليه من البرحاء حين نزول الوحي هل ينتفض وضوؤه؟
والجواب لا، لأنه كان محفوظاً في منامه، تنام عيناه ولا ينام قلبه، فإذا كان النوم الذي يسقط فيه الوكاء لا ينقض وضوؤه فالحالة التي أكرم فيها بالمسارة وإلقاء الهدى إلى قلبه أولى، لكون طباعه فيها معصومة من الأذى هذا كلامه. وما ذكرناه أولى، لما تقرر أن الإغماء أبلغ من النوم فليتأمل.

وفي كلام الشيخ محيي الدين ما يدل على أنه وجميع من يأتيه الوحي من الأنبياء كان إذا جاءه الوحي يستلقي على ظهره حيث قال: سبب اضطجاع الأنبياء على ظهورهم عند نزول الوحي إليهم أن الوارد الإلهي الذي هو صفة القيومية إذا جاءهم اشتغل الروح الإنساني عن تدبيره، فلم يبق للجسم من يحفظ عليه قيامه ولا قعوده، فرجع إلى أصله وهو لصوقه بالأرض.
وعن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي صدع فيغلف رأسه بالحناء» قيل وهو محمل قول بعض الصحابة إنه كان يخضب بالحناء، وإلا فهو عليه الصلاة والسلام لم يخضب، لأنه لم يبلغ سنناً يخضب فيه.
وفيه أنه أمر بالخضاب للشباب، فقد جاء «اختضبوا بالحناء، فإنه يزيد في شبابكم وجمالكم ونكاحكم» وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله تعالى عنه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا نزل عليه الوحي لم يستطع أحد منا يرفع طرفه إليه حتى ينقضي الوحي» وفي لفظ «كان إذا نزل عليه الوحي استقبلته الرعدة» وفي رواية «كرب لذلك وتردد له وجهه، وغمض عينيه، وربما غط كغطيط البكر».

وعن زيد بن ثابت رضي الله تعالى عنه: «كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم السورة الشديدة أخذه من الشدة والكرب على قدر شدة السورة، وإذا أنزل عليه السورة اللينة أصابه من ذلك على قدر لينها».
وعن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: «كان إذا نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم الوحي يسمع عند وجهه كدوي النحل».
وذكر الحافظ ابن حجر أن دوي النحل لا يعارض صلصلة الجرس: أي المتقدم ذكرها، لأن سماع الدوي بالنسبة للحاضرين. والصلصلة بالنسبة إلى النبي، فالراوي شبه بدوي النحل، والنبي صلى الله عليه وسلم شبه بصلصلة الجرس: أي فالمراد بهما شيء واحد، والله أعلم.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

ومن حالاته: أي حالات الوحي أي حامله أنه كان يأتيه على صورته التي خلقه الله تعالى عليها له ستمائة جناح.
أقول: فيوحي إليه في تلك الحالة كما هو المتبادر. وفيه أنه جاء عن عائشة وابن مسعود رضي الله تعالى عنهما «أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ير جبريل على صورته التي خلقه الله عليها إلا مرتين: حين سأله أن يريه نفسه، فقال: وددت أنني رأيتك في صورتك: أي وذلك بحراء أوائل البعثة بعد فترة الوحي بالأفق الأعلى من الأرض، وهذه المرة هي المعنية بقوله تعالى: {ولقد رآه بالأفق المبين} ويقوله تعالى {فاستوى وهو بالأفق الأعلى} «طلع جبريل من المشرق فسدّ الأفق إلى المغرب، فخرّ النبي صلى الله عليه وسلم مغشياً عليه، فنزل جبريل عليه السلام في صورة الأدميين وضمه إلى نفسه، وجعل يمسح الغبار عن وجهه» الحديث. والأخرى ليلة الإسراء المعنية بقوله تعالى: {ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى} وسيأتي الكلام على ذلك.
وفي الخصائص الصغرى: خص برؤيته جبريل في صورته التي خلقه الله عليها: أي لم يره أحد من الأنبياء على تلك الصورة إلا نبياً .
وذكر السهيلي أن المراد بالأجنحة في حق الملائكة صفة الملكية وقوة روحانية، وليست كأجنحة الطير. ولا ينافي ذلك وصف كل جناح منها بأنه يسدّ ما بين المشرق والمغرب، هذا كلامه فليتأمل.
ولعله لا ينافيه ما تقدم عن الحافظ ابن حجر من أن تمثل الملك رجلاً ليس معناه أن ذاته انقلبت رجلاً، بل معناه أنه ظهر بتلك الصورة تأنيساً لمن يخاطبه.
والظاهر أن القدر الزائد لا يزول ولا يفنى، بل يخفى على الرائي فقط؟ والله أعلم.
ومن حالات الوحي أي نفسه أي الموحى به لا حامله الذي هو جبريل أن الله تعالى أوحى إليه بلا واسطة ملك؟ بل من وراء حجاب يقظة أو من غير حجاب بل كفاحاً، وذلك ليلة المعراج. واسم الإشارة يحتمل أن يكون لنوعين وقع كل منهما ليلة الإسراء.

ويحتمل أن يكون نوعاً واحداً، وأن الأول بناء على القول بعدم الرؤية. والثاني بناء على القول بالرؤية. وحينئذ لا يناسب عدّ ذلك نوعين كما فعل الشامي، ومن ثم نسب ابن القيم هذا النوع الثاني لبعضهم كالمتبيري منه حيث قال: وقد زاد بعضهم مرتبة ثانية، وهي تكليم الله تعالى له كفاحاً بغير حجاب هذا كلامه، لأن ابن القيم ممن لا يقول بوجود الرؤية؟ فما زاده بعضهم بناء على القول بوجود الرؤية كما علمت. وحينئذ يكون هذا ليلة المعراج، وعلى هذا جاء قوله تعالى: {وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسلاً}.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وقول ابن القيم السادسة: أي من حالات الوحي ما أوحاه الله تعالى إليه، وهو فوق السماوات من فرض الصلوات وغيرها، لأن ذلك إنما هو ليلة المعراج بغير واسطة ملك، وهذا محتمل لأن يكون من غير حجاب، وأن يكون من وراء الحجاب، فهي لم تخرج عما تقدم.
وكذا قوله السابعة: أي من حالات الوحي كلام الله تعالى منه إليه بلا واسطة

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

ملك كما كلم موسى: أي من وراء حجاب، فهي لم تخرج عما تقدم. وحينئذ يكون كلمه في ليلة المعراج بواسطة الملك وكلمه بغير واسطة الملك من وراء حجاب ومشافهة من غير حجاب. وصاحب المواهب نقل عن الولي العراقي كلاماً فيه الاعتراض على ابن القيم بغير ما ذكر، والجواب عنه، وأقره مع ما في ذلك الكلام من النظر الظاهر الذي لا يكاد يخفى، والله أعلم. قال الحافظ السيوطي: وليس في القرآن من هذا النوع: أي مما شافه به الحق تعالى من غير حجاب شيء فيما أعلم. نعم يمكن أن يعدّ منه آخر سورة البقرة: أي آمن الرسول إلى آخر الآيات، لأنها نزلت كما في الكامل للهدلي بقاب قوسين.

وروى الديلمي «قيل يا رسول الله أي آية في كتاب الله تحب أن تصيبك وأمتك؟ قال آخر سورة البقرة، فإنها من كنز الرحمن من تحت العرش، ولم تترك خيراً في الدنيا والآخرة إلا اشتملت عليه» ولعل هذا لا يعارض ما جاء في فضل آية الكرسي من قوله، وقد قيل له: «يا رسول الله أي آية في كتاب الله تعالى أعظم؟ قال آية الكرسي أعظم» وما جاء عن الحسن رضي الله تعالى عنه مرسلاً: أفضل القرآن البقرة، وأفضل آية فيه آية الكرسي» وفي رواية أعظم آية فيها آية الكرسي» وفي الجامع الصغير «آية الكرسي ربع القرآن». ونزل في ذلك الموطن الذي هو قاب قوسين بعض سورة الضحى، وبعض سورة ألم نشرح. قال: «سألت ربي مسألة وودت أني لم أكن سألته، سألت ربي اتخذت إبراهيم خليلاً، وكلمت موسى تكليماً، فقال: يا محمد ألم أجدك يتيماً فأوتيتك، وضالاً فهديتك، وعائلاً فأغنيتك، وشرحت لك صدرك، ووضعت عنك وزرك، ورفع لك ذكرك، فلا أذكر إلا وتذكر معي» انتهى. أقول: قد يقال لا يلزم من النزول في قاب قوسين أن يكون مشافهة من غير حجاب وقوله: «فقال محمد ألم أجدك إلى آخره» ليس هذا نص التلاوة، وإن هذا ظاهر في أن المتلو الدال على ما ذكر نزل قبل ذلك، وأن هذا تذكير به، والله أعلم.

ومن حالات الوحي أنه أوحى إليه بلا واسطة ملك مناماً كما في حديث معاذ «أتاني ربي» وفي لفظ «رأيت ربي في أحسن صورة - أي خلقة - فقال: فيما يختصم الملاً الأعلى يا محمد؟ قلت: أنت أعلم أي رب، فوضع كفه بين كتفي فوجدت بردها بين ثديي، فعلمت ما في السماء والأرض» أي وفي كلام الشيخ محيي الدين بن العربي رضي الله تعالى عنه، فهذا علم حاصل لا عن قوة من القوى الحسية أو المعنوية، وهذا لا يبعد أن يقع مثله للأولياء بطريق الإرث: أي تجلى له الحق بالتجلي الخاص الذي ما ذكر عبارة عنه. وفي رواية «فعلمت علم الأولين والآخرين» أي ومن حالات الوحي رؤيا النوم، قال: «رؤيا الأنبياء وحي» كما تقدم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377
ومن حالاته العلم الذي يليق به الله تعالى في قلبه عند الاجتهاد في الأحكام بناء على ثبوته لا بواسطة ملك، وبذلك فارق النفث في الروع.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وبذكر هذه الأنواع للوحي يعمل أن ما تقدم من حصره في الحالتين المذكورتين عند سؤال الحارث له أغلبيّ أو أن ما عداهما وقع بعد سؤال الحارث له.

وفي (ينبوع الحياة) عن ابن جرير «ما نزل جبريل بوحي قط إلا وينزل معه من الملائكة حفظة يحيطون به وبالنبي الذي يوحي إليه، يطردون الشياطين عنهما، لئلا يسمعا ما يبلغه جبريل إلى النبي، من الغيب الذي يوحى إليه، فيلقوه إلى أوليائهم» ثم رأيت في (الإتقان) ذكر أن من القرآن ما نزل معه الملائكة مع جبريل تشيعه، من ذلك سورة الأنعام، شيعها سبعون ألف ملك، و فاتحة الكتاب شيعها ثمانون ألف ملك، وآية الكرسي شيعها ثمانون ألف ملك، وسورة يس؟ شيعها ثلاثون ألف ملك {واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا} شيعها عشرون ألف ملك، ولعل هذا لا ينافي ما تقدم من أن الغرض من تساقط النجوم عند البعثة حراسة السماء من استراق الشياطين لما يوحي، لجواز أن يكون هذا لحفظ ما يوحي من استراقه في الأرض وبين السماء والأرض.

وعن النخعي: إن أول سورة أنزلت عليه {اقرأ باسم ربك} قال الإمام النووي: وهو الصواب الذي عليه الجماهير من السلف والخلف، هذا كلامه. ولا يخفى أن مراد النخعي بالسورة هنا القطعة من القرآن: أي أوّل آيات أنزلت، فلا ينافي ما تقدم من رواية عمرو بن شرحبيل مما يدل على أن أول سورة أنزلت فاتحة الكتاب، لأن المراد أول سورة كاملة نزلت لا في شأن الإنذار، فلا ينافي ما تقدم من رواية جابر مما يقتضي أن أوّل ما نزل {يا أيها المدثر} لأن المراد بذلك أوّل سورة كاملة نزلت في شأن الإنذار بعد فترة الوحي: أي فإنها نزلت قبل تمام نزول سورة اقرأ، وهذا الجمع تقدم الوعد به، أي لكن يشكّل عليه ما في الكشاف عن رسول الله «ما نزل عليّ القرآن إلا آية آية وحرفاً حرفاً، ما خلا سورة براءة - و{قل هو الله أحد} - فإنهما أنزلتا عليّ ومعهما سبعون ألف صف من الملائكة» فإن هذا السياق يدل على أنه لم ينزل عليه سورة كاملة إلا براءة و{قل هو الله أحد} ويخالفه ما في (الإتقان) أن مما نزل جملة سورة الفاتحة وسورة الكوثر، وسورة تبت، وسورة لم يكن، وسورة النصر والمرسلات والأنعام. لكن ذكر ابن الصلاح أن هذا روي بسند فيه ضعف قال: ولم أر له إسناداً صحيحاً.

وقد روي ما يخالفه، ولم يذكر في (الإتقان) مما نزل جملة سورة براءة، وذكر أن المعوذتين نزلتا دفعة واحدة. وحينئذ يكون المراد بقوله: «إلا آية آية وحرفاً حرفاً» أي كلمة، والمراد بها ما قابل السورة، وإلا فقد أنزل عليه ثلاث آيات وأربع آيات وعشر آيات كما أنزل عليه آية وبعض آية. فقد صح نزول {غير أولي الضرر} منفردة وهي بعض آية.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وفي الإتقان عن جابر بن زيد قال: «أوّل ما أنزل الله تعالى من القرآن بمكة {اقرأ باسم ربك} ثم {ن؟ والقلم} ثم {يا أيها المزمّل} ثم {يا أيها المدثر} ثم الفاتحة، إلى آخر ما ذكر.

ثم قال: قلت هذا السياق غريب، وفي هذا الترتيب نظر، وجابر بن زيد من علماء التابعين، هذا كلامه. وذكر بعض المفسرين أن سورة والتين أول ما نزل من القرآن، والله أعلم. وما تقدم من أن نزول {يا أيها المدثر} كان في شأن الإنذار بعد فترة الوحي، لأنه كان بعد نزول جبريل عليه بـ {اقرأ باسم ربك}، مكث مدة لا يرى جبريل.

أي وإنما كان كذلك ليذهب ما كان يجده من الرعب، وليحصل له التشوف إلى العود، ومن ثم حزن لذلك حزناً شديداً حتى غدا مراراً كي يتردى من رؤوس شواهق الجبال، فكلما وافى بذروة كي يلقي نفسه منها تبيد له جبريل عليه السلام؟ فقال: يا محمد إنك رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه: أي قلبه وتقرّ نفسه ويرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا وافى ذروة جبل تبيد له مثل ذلك. قال: وفي رواية «أنه لما فتر الوحي عنه حزن حزناً شديداً حتى كان يغدو إلى ثبير مرة وإلى حراء مرة أخرى يريد أن يلقي نفسه منه، فكلما وافى ذروة جبل منهما كي يلقي نفسه تبيد له جبريل فقال: يا محمد أنت رسول الله حقاً، فيسكن لذلك جأشه وتقر عينه ويرجع، فإذا طالت عليه فترة الوحي عاد لمثل ذلك، وكانت تلك المدة أربعين يوماً، وقيل خمسة عشر يوماً، وقيل اثني عشر يوماً، وقيل ثلاثة أيام. قال بعضهم وهو الأشبه بحاله عند الله تعالى انتهى.

أقول: ويبعد هذا الأشبه قوله فإذا طالت عليه فترة الوحي، والله أعلم. وفي الأصل وهذه الفترة لم يذكر لها ابن إسحاق مدة معينة.

أقول: في فتح الباري أن ابن إسحاق جزم بأنها ثلاث سنين، والله أعلم.

قال أبو القاسم السهيلي: وقد جاء في بعض الأحاديث المسندة أن مدة هذه الفترة كانت سنتين ونصف سنة: أي وفي كلام الحافظ ابن حجر: وهذا الذي اعتمده السهيلي لا يثبت. وقد عارضه ما جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن مدة الفترة كانت أياماً أي وأقلها ثلاثة: أي وتقدم ما فيه. قال: قال بعض الحفاظ: والظاهر - والله أعلم - أنها أي مدة الفترة كانت بين اقرأ و{يا أيها المدثر} هي المدة التي اقترن معها فيها إسرافيل كما قال الشعبي انتهى.

أقول: ويوافق ذلك ما في الاستيعاب لابن عبد البر أن الشعبي قال: أنزلت عليه النبوة وهو ابن أربعين، وقرن بنبوته إسرافيل عليه الصلاة والسلام ثلاث سنين وقد تقدم ذلك.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وفي الأصل عن الشعبي «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وكل به إسرافيل فكان يتراءى له ثلاث سنين ويأتيه بالكلمة من الوحي ولم ينزل القرآن» أي شيء منه على لسانه «ثم وكل به جبريل فجاءه بالوحي والقرآن» وهو موافق في ذلك لما في سيرة شيخه الحافظ للدمياطي حيث قال: قال بعض العلماء: وقرن به إسرافيل، ثم قرن به جبريل، وهو ظاهر في أن اقتران إسرافيل به كان بعد النبوة، ويؤيده قوله: «ويأتيه بالكلمة من الوحي» ومحمتمل لأن يكون ذلك قبل النبوة، فيوافق ما تقدم عن الماوردي، لكن تقدم أنه كان يسمع حسه ولا يرى شخصه؟ إلا أن يقال: لا يلزم من كونه يتراءى له أن يراه، وقوله يأتيه بالكلمة من الوحي هو معنى قوله يأتيه بالشيء بعد الشيء، ثم رأيت الواقدي أنكر على الشعبي كون إسرافيل قرن به أولاً. وقال:

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

لم يقترن به من الملائكة إلا جبريل: أي بعد النبوة، ويحتمل مطلقاً. قال بعضهم: ما قاله الشعبي هو الموافق لما هو المشهور المحفوظ الثابت في الأحاديث الصحيحة، وخبر الشعبي مرسل أو معضل، فلا يعارض ما في الأحاديث الصحيحة هذا كلامه.

ثم رأيت الحافظ ابن حجر نظر في كلام الواقدي بأن المثبت مقدم على النافي إلا إن صحب النافي دليل نفيه فيقدم، هذا كلامه.

لا يقال: قد وجد الدليل، فقد جاء «بيننا النبي صلى الله عليه وسلم جالس وعنده جبريل إذ سمع نغيضاً: أي هدة من السماء، فرفع جبريل بصره إلى السماء، فقال: يا محمد هذا ملك قد نزل لم ينزل إلى الأرض قط» قال جماعة من العلماء: إن هذا الملك إسرافيل. لانا نقول هذا مجرد دعوى لا دليل عليها؟ ولا يحسن أن يكون مستندهم في ذلك ما في الطبراني عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما. سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لقد هبط علي ملك من السماء ما هبط على نبي قبلي، ولا يهبط على أحد بعدي وهو إسرافيل، فقال أنا رسول ربك» الحديث.

ومن ثم عدّ السيوطي من خصائصه هبوط إسرافيل عليه، إذ ليس في ذلك دليل على أن إسرافيل لم يكن نزل إليه قبل ذلك حتى يكون دليلاً على أن اقتراح جبريل به سابق على اقتراح إسرافيل به.

هذا، وفي كلام الحافظ السيوطي أن مجيء إسرافيل كان بعد ابتداء الوحي بستين، قال كما يعرف ذلك من سائر طرق الأحاديث، وهو بظاهره يرد ما في (سفر السعادة) أنه لما بلغ تسع سنين أمر الله تعالى إسرافيل أن يقوم بملازمته.

ولما بلغ إحدى عشرة سنة أمر جبريل بملازمته فلزمه تسعاً وعشرين سنة فليتأمل.

وعن يحيى بن بكير قال: ما خلق الله خلقاً في السموات أحسن صوتاً من إسرافيل، فإذا قرأ في السماء يقطع على أهل السماء ذكرهم وتسيحهم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

ثم رأيت في فتح الباري: ليس المراد بفترة الوحي المقطرة بثلاث سنين: أي على ما تقدم ما بين نزول اقرأ ويا أيها المدثر عدم مجيء جبريل إليه، بل تأخر نزول القرآن عليه فقط هذا كلامه: أي فكان جبريل يأتي إليه بغير قرآن بعد مجيئه إليه باقراً، ولم يجيء إليه بالقرآن الذي هو يا أيها المدثر إلا بعد الثلاث سنين على ما تقدم، ثم في تلك المدة مكث أياماً لا يأتيه أصلاً، ثم جاءه بيا أيها المدثر، فكان قبل تلك الأيام يختلف إليه هو وإسرافيل، وهذا السياق كما لا يخفى يؤخذ منه عدم المناقاة بين كون مدة فترة الوحي ثلاث سنين كما يقول ابن إسحاق، وستين ونصفاً كما يقول السهيلي، وستين كما يقول الحافظ السيوطي، وبين كونها أياماً أقلها ثلاثة وأكثرها أربعون كما تقدم عن ابن عباس، لأن تلك الأيام التي كانت لا يرى فيها جبريل أصلاً على ما تقدم: أي ولا يرى فيها إسرافيل أيضاً. وفي غير تلك الأيام كان يأتيه بغير القرآن، وحينئذ لا

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

مكتبة مشكاة

يحسن رد الحافظ فيما سبق على السهيلي. وينبغي أن تكون تلك الأيام التي لا يرى فيها جبريل وإسرافيل هي التي يريد فيها أن يلقي نفسه من رؤوس شواهد الجبال، وهذا السياق أيضاً يدل على أن النبوة سابقة على الرسالة بناء على أن الرسالة كانت بياؤها المدثر، وبصرح به ما تقدم من قول بعضهم نبأه بقوله {اقرأ باسم ربك} وأرسله بقوله {يا أيها المدثر قم فأنذر وربك فكبر وثيابك فطهر} وأن بينهما فترة الوحي وعليه أكثر الروايات. وقيل النبوة والرسالة مقترنان، ولعل من يقول بتلك يقول يا أيها المدثر دلت على طلب الدعوة إلى الله تعالى، وهذا غير إظهار الدعوة والمفاجأة بها الذي دل عليه قوله تعالى: {فاصدع بما تؤمر} فليتأمل.

وذكر السهيلي أن من عادة العرب إذا قصدت الملاطفة أن تسمى المخاطب باسم مشتق من الحالة التي هو عليها، فلاطفه الحق سبحانه وتعالى بقوله: {يا أيها المدثر} فبذلك علم رضاه الذي هو غاية مطلوبه، وبه كان يهون عليه تحمل الشدائد، ومن هذه الملاطفة قوله لعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، وقد نام وترب جنبه «قم يا أبا تراب» وقوله لحذيفة في غزوة أحد وقد نام إلى الأسفار «قم يا نومان».

وذكر الشيخ محيي الدين بن العربي في قوله تعالى: {يا أيها المدثر قم فأنذر} اعلم أن التدثر إنما يكون من البرودة التي تحصل عقب الوحي، وذلك أن الملك إذا ورد على النبي صلى الله عليه وسلم بعلم أو حكم تلقى ذلك الروح الإنساني، وعند ذلك تشتعل الحرارة الغريزية فيتغير الوجه لذلك، وتنتقل الرطوبات إلى سطح البدن لاستيلاء الحرارة فيكون من ذلك العرق، فإذا سري عنه ذلك سكن المزاج، وانقشعت تلك الحرارة، وانفتحت تلك المسام، وقبل الجسم الهواء من خارج، فيتحلل الجسم، فيبرد المزاج، فتأخذه القشعريرة فتزاد عليه الثياب ليسخن هذا ملخص كلامه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377

وذكر بعضهم في تفسير قوله تعالى: {وثيابك فطهر} أن الشيخ أبا الحسن الشاذلي نفعنا الله تعالى ببركاته قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقال: يا أبا الحسن طهر ثيابك من الدنس، تحط بمدد الله تعالى في كل نفس، فقلت: يا رسول الله وما ثيابي؟ قال: إن الله كساك حلة التوحيد وحلة المحبة وحلة المعرفة، قال: فهتم حينئذ قوله تعالى: {وثيابك طهر}.

وجاء في وصف إسرافيل في بعض الأحاديث «لا تفكروا في عظم ربكم، ولكن تفكروا فيما خلق الله من الملائكة، فإن خلقاً من الملائكة يقال له إسرافيل زاوية من زوايا العرش على كاهله، وقدماه في الأرض السفلى، وقد مرق رأسه من سبع سموات، وإنه ليتضاءل من عظمة الله تعالى حتى يصير كأنه الوصع» فهو عند نزوله يكون حاملاً لزاوية العرش أو يخلفه غيره من الملائكة في ذلك.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 377
باب: ذكر وضوئه وصلاته أول البعثة

أي أول الإرسال إليه باقراً.
أقول: في المواهب «أنه روي أن جبريل عليه الصلاة والسلام بدا له في أحسن صورة وأطيب رائحة، فقال له: يا محمد إن الله تعالى يقرئك السلام، ويقول لك: أنت رسول الله إلى الجن والإنس فادعهم إلى قول: لا إله إلا الله، ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عين ماء، فتوضأ منها جبريل، ثم أمره أن يتوضأ، وقام جبريل يصلي، وأمره أن يصلي معه، فعلمه الوضوء والصلاة» الحديث. وقوله «فعلمه الوضوء» يحتمل أن يكون بفعله المذكور. ويحتمل أن يكون علمه بقوله افعل كذا في وضوئك وصلاتك، ويدل للأول ما سيأتي. وفيه أن قول جبريل المذكور إنما كان عند أمره بإظهار الدعوة والمفاجأة بها إلى الله تعالى بعد فترة الوحي كما سيأتي، فالجمع بينه وبين قوله ثم ضرب برجله الأرض إلى آخره لا يحسن، لأنه سيأتي أن ذلك كان في يوم نزوله له {اقرأ باسم ربك} ولعله من تصرف بعض الرواة، والله أعلم.

فعن ابن إسحاق: حدثني بعض أهل العلم «أن الصلاة حين افترضت على النبي صلى الله عليه وسلم: أي قبل الإسراء أتاه جبريل وهو بأعلى مكة فهمز له بعقبه في ناحية الوادي، فانفجرت منه عين فتوضأ جبريل ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر ليريه كيف الطهور - أي الوضوء للصلاة - أي فغسل وجهه ويديه إلى المرفقين ومسح برأسه وغسل رجليه إلى الكعبين» كما في بعض الروايات () أي وفي رواية «فغسل كفيه ثلاثاً، ثم تمضمض واستنشق، ثم غسل وجهه، ثم غسل يديه إلى المرفقين، ثم مسح رأسه، ثم غسل رجليه ثلاثاً ثلاثاً، ثم أمر النبي صلى الله عليه وسلم فتوضأ مثل وضوئه». أقول: وبهذه الرواية، يردّ قول بعضهم: إن النبي صلى الله عليه وسلم زاد في الوضوء التسمية وغسل الكفين والمضمضة والاستنشاق ومسح جميع الرأس والتخليل ومسح الأذنين والتثليث، إلا أن يقال مراد هذا البعض أن ما ذكره زاد على ما في الآية. وفي كلام بعضهم: كانت العرب في الجاهلية يغتسلون من الجنابة، ويدامون على المضمضة والاستنشاق والسواك، والله أعلم. ثم قام جبريل فصلى به ركعتين» يحتمل أن تلك الصلاة كانت بالغداه قبل طلوع الشمس. ويحتمل أنها كانت بالعشي: أي قبل غروب الشمس. وفي الإمتاع وإنما كانت الصلاة قبل الإسراء صلاة بالعشي: أي قبل غروب الشمس، ثم صارت صلاة بالغداه، وصلاة بالعشي ركعتين: أي ركعتين بالغداه وركعتين بالعشي. والعشي: هو العصر.

ففي كلام بعض أهل اللغة: العصر العشاء، والعصران الغداة والعشي، وكانت صلواته نحو الكعبة، واستقبل الحجر الأسود: أي جعل الحجر الأسود قبالة وهذا يدل على أنه لم يستقبل في تلك الصلاة بيت المقدس، لأنه لا يكون مستقبلاً لبيت المقدس إلا إذا صلى بين الركنين الأسود واليماني كما كان يفعل بعد فرض الصلوات الخمس وهو بمكة، كما سيأتي «أنه كان يصلي بين الركنين الركن اليماني والحجر الأسود، ويجعل الكعبة بينه وبين الشام» () أي بينه وبين بيت المقدس: أي صخرته، إلا أن يقال يجوز أن يكون عند صلواته إلى

الكعبة كان بينهما إلا أنه كان إلى الحجر الأسود أقرب منه إلى اليماني، فقيل
استقبل الحجر الأسود فلا مخالفة، لكن سيأتي ما قد يفيد أنه لم يستقبل بيت
المقدس إلا في الصلوات الخمس: أي بعد الإسراء وقبل ذلك كان يستقبل
الكعبة إلى أي جهة من جهاتها «ولما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم
بصلاة جبريل، قال جبريل: هكذا الصلاة يا محمد، ثم انصرف جبريل، فجاء
رسول الله صلى الله عليه وسلم خديجة وأخبرها، فغشي عليها من الفرج،
فتوضأ لها ليربها كيف الطهور للصلاة كما أراه جبريل فتوضأت كما توضأ رسول
الله صلى الله عليه وسلم ثم صلى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما
صلى به جبريل عليه الصلاة والسلام».
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 424

وفي سيرة الحافظ الدمي ما يفيد أن ذلك كان في يوم نزول جبريل عليه
الصلاة والسلام له بـ {اقرأ باسم ربك} حيث قال: بعث النبي صلى الله عليه
وسلم يوم الاثنين وصلي فيه، وصلت خديجة آخر يوم الاثنين، ويوافقها ظاهر ما
جاء «أتاني جبريل في أول ما أوحى إليّ فعلمني الوضوء والصلاة، فلما فرغ
الوضوء أخذ غرفة من الماء فنضح بها فرجه» أي رش بها فرجه أي محل الفرج
من الإنسان، بناء على أنه لا فرج له، وكون الملك لا فرج له لو تصور بصورة
الإنسان استدل عليه بأنه ليس ذكراً ولا أنثى، وفيه نظر، لأنه يجوز أن يكون له
آلة ليست كآلة الذكر ولا كآلة الأنثى كما قيل بذلك في الخنثى ويقال لذلك
فرج.

وبعض شراح الحديث حمل الفرج على ما يقابل الفرج من الإزار، وبذلك
استدل أئمتنا على أنه يستحب لمن استنجى بالماء أن يأخذ بعد الاستنجاء كفاً
من ماء ويرش في ثيابه التي تحاذي فرجه، حتى إذا خيل له أن شيئاً خرج ووجد
بللاً قدّر أنه من ذلك الماء، ولعل هذا هو المراد بقوله: «علمني جبريل
الوضوء، وأمرني أن أنضح تحت ثوبي مما يخرج من البول بعد الوضوء» أي
دفعاً لتوهم خروج شيء من البول بعد الوضوء لو وجد بلل بالمحل.
وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما «كان ينضح سراويله حتى يبلها» وما جاء
«أنه لما أقرأه اقرأ باسم ربك، قال له جبريل: انزل عن الجبل، فنزل معه إلى
قرار الأرض قال: فأجلسني على درنوك - بالدال المهملة والراء والنون: أي
وهو نوع من البسط ذو خمل - ثم ضرب برجله الأرض فنبعت عين ماء، فتوضأ
منها جبريل» الحديث فمشروعية الوضوء كانت مشروعية الصلاة التي هي غير
الخمس، وإن ذلك كان في يوم نزول جبريل باقراً، وهو مخالف لقول ابن حزم:
لم يشرع الوضوء إلا بالمدينة.

ومما يرد ما قاله ابن حزم نقل ابن عبد البر اتفاق أهل السير على أنه لم يصل
قط إلا بوضوء، قال: وهذا مما لا يجهله عالم، هذا كلامه، إلا أن يقال مراد ابن
حزم أنه لم يشرع وجوباً إلا في المدينة، وهو الموافق لقول بعض المالكية إنه
كان قبل الهجرة مندوباً: أي وإنما وجب بالمدينة بآية المائدة {يا أيها الذين
آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم} الآية.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

ويرده ما في الإتيان أن هذه الآية مما تأخر نزوله عن حكمه يعنى قوله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا إذا قمتم إلى الصلاة فاغسلوا} إلى قوله: {لعلكم تشكرون} فالآية مدنية إجماعاً، وفرض الوضوء كان بمكة مع فرض الصلاة: أي فالوضوء على هذا مكى بالفرض، مدني بالتلاوة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 424

قال: والحكمة في ذلك: أي في نزول الآية بعد تقدم العمل لما يدل عليه أن تكون قرآنيته متلوة هذا كلامه.

وقوله مع فرض الصلاة، يحتمل أن المراد صلاة الركعتين بناء على أنهما كانتا واجبتين عليه، وهو الموافق لما تقدم عن ابن إسحاق. ويحتمل أن المراد الصلاة الخمس: أي ليلة الإسراء، وهو الموافق لما اقتصر عليه شيخنا الشمس الرملي حيث قال: وكان فرضه مع فرض الصلاة قبل الهجرة بسنة، هذا كلامه. وحينئذ يكون قبل ذلك مندوباً حتى في صلاة الليل.

وقول صاحب المواهب: ما ذكر من أن جبريل عليه الصلاة والسلام علمه الوضوء وأمره به يدل على أن فرضية الوضوء كانت قبل الإسراء فيه نظر ظاهر، إذ لا دلالة في ذلك على الفرضية، إذ يحتمل أن يكون اللفظ الصادر من جبريل له أمرتك أن تفعل كفعلي وصيغة أمره مشتركة بين الوجوب والندب.

وذكر بعضهم أن الغرض من نزول آية المائدة بيان أن من لم يقدر على الوضوء والغسل لمرض أو لعدم الماء يباح له التيمم: أي لفرضية الوضوء والغسل سابقة على نزولها ويؤيد ذلك قول عائشة رضي الله تعالى عنها في الآية: فأنزل الله تعالى آية التيمم، ولم تقل آية الوضوء وهي هي، لأن الوضوء كان مفروضاً قبل أن توجد تلك الآية، ويوافق ما ذكره ابن عبد البر من اتفاق أهل السير على أن الغسل من الجنابة فرض عليه وهو بمكة.

وعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما ما يقتضي أن فرض الغسل كان مع فرض الصلوات ليلة الإسراء. فقد جاء عنه «كانت الصلاة خمسين، والغسل من الجنابة سبع مرات، فلم يزل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأل حتى جعل الصلاة خمسا والغسل من الجنابة مرة». قال بعض فقهاءنا: رواه أبو داود ولم يضعفه، وهو إما صحيح أو حسن، قال ذلك البعض. ويجوز أن يكون المراد بها: أي الغرض من نزولها فرض غسل الرجلين في قراءة من قرأ «وأرجلكم بالنصب» فإن حديث جبريل ليس فيه إلا مسحهما: أي وهو أن جبريل أول ما جاء النبي صلى الله عليه وسلم بالوحي توضع فغسل وجهه وبديه إلى المرفقين ومسح رأسه ورجليه إلى الكعبين وسجد سجدتين: أي ركع ركعتين مواجهة البيت، ففعل النبي صلى الله عليه وسلم كما يرى جبريل يفعله، هذا كلامه، وفيه نظر، لأن أكثر الروايات «وغسل رجله» كما تقدم فرجليه في هذه الرواية معطوفة على وجهه كما أن أرجلكم في الآية على قراءة الجر معطوفة على الوجوه، وإنما جرّ للمجاورة وإن كان الجر للمجاورة في غير النعت قليلاً، أو عبر عن الغسل الخفيف بالمسح.

وفي كلام الشيخ محيي الدين مسح الرجلين في الوضوء بظاهر الكتاب، وغسلهما بالسنة المبينة للكتاب. قال: ويحتمل العدول عن الظاهر بناء على أن المسح فيه يقال للغسل، فيكون من الألفاظ المترادفة، وفتح أرجلكم لا يخرجها عن الممسوح، فإن هذه الواو قد تكون واو المعية.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 424
وجاء «أنه كان يتوضأ لكل صلاة» أي عملاً بظاهر قوله تعالى: {إذا قمتم إلى الصلاة} الآية «فلما كان يوم الفتح صلى الصلوات الخمس بوضوء واحد فقال له سيدنا عمر رضي الله تعالى عنه: فعلت شيئاً لم تكن تفعله، فقال عمداً فعلته يا عمر» أي للإشارة إلى جواز الاقتصار على وضوء واحد للصلوات الخمس، وجواز ذلك ظاهر في نسخ وجوب الوضوء عليه لكل صلاة، وبوافقه قول بعضهم: قيل كان ذلك الوضوء لكل صلاة واجباً عليه ثم نسخ، هذا كلامه: أي ويؤيد ذلك ظاهر ما جاء أنه أمر بالوضوء لكل صلاة طاهراً كان أو غير طاهر، فلما شق ذلك عليه وضع عنه الوضوء إلا من حدث، أي ويكون وقت المشقة يوم فتح مكة، لما علمت أنه لم يترك الوضوء لكل صلاة إلا حينئذ. وهذا السياق يدل على أن وجوب الوضوء لكل صلاة كان من خصوصياته .
ويدل لذلك ما روي عن أنس رضي الله تعالى عنه «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتوضأ لكل صلاة، قيل لهم كيف تصنعون: أي هل كنتم تفعلون كفعله قال: يجزي أحدنا الوضوء ما لم يحدث» أي فوجوب الوضوء لكل صلاة كان من خصوصياته ثم نسخ.

وذكر فقهاؤنا أن الغسل كان واجباً عليه لكل صلاة () فنسخ بالنسبة للحدث الأصغر تخفيفاً، فصار الوضوء بدلاً عنه، ثم نسخ الوضوء لكل صلاة فظاهر سياقهم يقتضي أن وجوب الغسل ثم الوضوء لكل صلاة كان عاماً في حقه وحق أمته. ويحتاج إلى بيان وقت نسخ وجوب الغسل في حق أمته وبيان وقت نسخ وجوب الوضوء، لكل صلاة في حق الأمة، ومنه يعلم أن نسخ وجوب الوضوء لكل صلاة يكون بالنسبة للأمة ثم بالنسبة إليه . وحينئذ لا يشكّل قول فقهاءنا الآية تقتضي وجوب الطهر بالماء أو التراب لك صلاة، خرج الوضوء بالسنة، أي بما تقدم من فعله يوم الفتح، ويتجويزه للأمة أن يصلي الواحد منهم الصلوات بوضوء واحد، وبقي التيمم على مقتضى الآية، فقد وقع النسخ أولاً بالنسبة للأمة، ثم ثانياً بالنسبة إليه ، ولعل وجوب الغسل لكل صلاة كان بوحى غير قرآن أو باجتهاد.

ولا يخفى أن كون ظاهر الآية يقتضي وجوب الوضوء والتيمم لكل صلاة إنما هو بقطع النظر عما نقله إمامنا رضي الله تعالى عنه عن زيد بن أسلم أن الآية فيها تقديم وحذف، وأن التقدير إذا قمتم إلى الصلاة من النوم {أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستم النساء فاغسلوا وجوهكم الآية}، والله أعلم.
وعن مقاتل بن سليمان؟ فرض الله تعالى في أول الإسلام الصلاة ركعتين بالغداة أي قبل طلوع الشمس وركعتين بالعشي أي قبل غروب الشمس.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 424
أقول: إن كان المراد بأول الإسلام نزول جبريل عليه باقراً يرّد ما تقدم عن الإمتاع أن أول ما وجب ركعتان بالعشي ثم صارت صلاة بالغداة وصلاة بالعشي ركعتين إلا أن يراد الأولوية الإضافية.
وفي بعض الأحاديث ما يدل على أن وجوب الركعتين كان خاصاً به دون أمته.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

منها قوله : «أول ما افترض الله على أمتي الصلوات الخمس»، وفيه أنه افترض عليها قبل ذلك صلاة الليل ثم نسخ بالصلوات الخمس.

وفي الإمتاع «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج إلى الكعبة أول النهار فيصلّي صلاة الضحى، وكانت صلاة لا تنكرها قريش، وكان أصحابه إذا جاء وقت العصر تفرقوا في الشعاب فرادى ومثنى: أي فيصلون صلاة العشي، وكانوا يصلون الضحى والعصر، ثم نزلت الصلوات الخمس» هذا كلامه. وهو يفيد أن الركعتين الأوليين كان يصليهما وقت الضحى لا قبل الشمس فليتأمل والله أعلم، ثم فرضت الخمس ليلة المعراج.

وذهب جمع إلى أنه لم يكن قبل الإسراء صلاة مفروضة: أي لا عليه ولا على أمته إلا ما وقع الأمر به من صلاة الليل من غير تحديد: أي بقوله تعالى: {فاقرؤوا ما تيسر} أي صلوا.

أقول: وهو الناسخ لما وجب قبل ذلك من التحديد في أول السورة الحاصل بقوله: {قم الليل إلا قليلاً نصفه أو انقص منه قليلاً أو زد عليه} وقد نسخ قيام الليل بالصلوات الخمس ليلة الإسراء، ولم يذكر أئمتنا وجوب صلاة الركعتين عليه، بل قالوا: أول ما فرض عليه الإنذار والدعاء إلى التوحيد، ثم فرض عليه قيام الليل المذكور في أول سورة المزمل، ثم نسخ بما في آخرها، ثم نسخ بالصلوات الخمس، وهو مخالف لما تقدم عن ابن إسحاق من وجوب صلاة الركعتين عليه، ويوافق قول ابن كثير في قولهم ماتت خديجة قبل أن تفرض الصلوات: مرادهم قبل أن تفرض الصلوات الخمس ليلة الإسراء.

قال بعضهم: وإنما قال ذلك، لأن أصل الصلاة قد فرض في حياة خديجة الركعتين بالغداة والركعتين بالعشي.

وفي كلام ابن حجر الهيتمي: لم يكلف الناس إلا بالتوحيد فقط، ثم استمر على ذلك مدة مديدة، ثم فرض عليهم من الصلاة ما ذكر في سورة المزمل، ثم نسخ ذلك كله بالصلوات الخمس، ثم لم تكثر الفرائض وتتابع إلا بالمدينة، ولما ظهر الإسلام وتمكن في القلوب، وكان كلما زاد ظهوراً وتمكن ازدادت الفرائض وتتابع هذا كلامه.

ولم أقف على ما كان يقرأ في صلاة الركعتين قبل فترة الوحي وبعدها وقبل نزول الفاتحة، بناء على تأخر نزولها عن ذلك كما هو الراجح، ثم رأيت في الإتيان ذكر أن جبريل حين حولت القبلة أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الفاتحة ركن في الصلاة كما كانت بمكة، هذا كلامه. وينبغي حمله على الصلوات الخمس، وحينئذ يكون ما تقدم من قول بعضهم لم يحفظ أنه كان في الإسلام صلاة بغير الفاتحة محمولاً على ذلك أيضاً، وقد تقدم ذلك، والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 424

باب: ذكر أول الناس إيماناً به

أي بعد البعثة: أي الرسالة، وهي المرادة عند الإطلاق بناء على أنها مقارنة للنبوة.

لا يخفى أنه لما بعث أخفى أمره وجعل يدعو إلى الله سرّاً، واتبعه ناس عامتهم

ضعفاء من الرجال والنساء، وإلى هذا الإشارة بقوله: «إن هذا الدين بدا غربياً وسيعود كما بدا، فطوبى للغرباء» ولا يخفى أن أهل الأثر وعلماء السير على أن أول الناس إيماناً به على الإطلاق خديجة رضي الله عنها. أقول: نقل الثعلبي المفسر اتفاق العلماء عليه. وقال النووي: إنه الصواب عند جماعة من المحققين. وقال ابن الأثير: خديجة أول خلق الله تعالى أسلم بإجماع المسلمين، لم يتقدمها رجل ولا امرأة. وفيه أن بناته الأربع كنّ موجودات عند البعثة وبعده تأخر إيمانهن، إلا أن يقال خديجة تقدم لها إشراك بخلافهن، أخذاً مما يأتي. وعن ابن إسحاق أن خديجة كانت أول من آمن بالله ورسوله وصدقت ما جاء به عن الله تعالى، وكان لا يسمع شيئاً يكرهه من قومه إلا فرح الله عنه بها إذا رجع إليها وأخبرها به.

ثم عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه. ففي المرفوع عن سلمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أول هذه الأمة وروداً على الحوض أولها إسلاماً عليّ بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه» وجاء «أنه لما زوجه فاطمة قال لها زوجتك سيداً في الدنيا والآخرة، وإنه لأول أصحابي إسلاماً، وأكثرهم علماً، وأعظمهم حلاًماً» وكان لم يبلغ الحلم كما سيأتي حكاية الإجماع عليه، كان سنه ثمان سنين، وكان عند النبي صلى الله عليه وسلم قبل أن يوحى إليه يطعمه ويقوم بأمره، لأن قريشاً كان أصابهم قحط شديد وكان أبو طالب كثير العيال، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمة العباس: «إن أخاك أبا طالب كثير العيال والناس فيما ترى من الشدة، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله، تأخذ واحداً وأنا واحداً فجاءا إليه وقالا: إنا نريد أن نخفف عنك من عيالك حتى ينكشف عن الناس ما هم فيه، فقال لهما أبو طالب: إذا تركتما لي عقيلاً قيل وطالباً فاصنعا ما شئتما، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم علياً رضي الله تعالى عنه فضمه إليه، وأخذ العباس جعفرأ فضمه إليه وتركاه له عقيلاً وطالبا، فلم يزل عليّ مع رسول الله».

وفي خصائص العشرة للزمخشري «أن النبي صلى الله عليه وسلم تولى تسميته بعليّ وتغذيته أياماً من ريقه المبارك بمصه لسانه» فعن فاطمة بنت أسد أم عليّ رضي الله تعالى عنها أنها قالت: «لما ولدته سماه علياً وبصق في فيه، ثم إنه ألقمه لسانه، فما زال يمصه حتى نام، قالت: فلما كان من الغد طلبنا له مرضعة فلم يقبل ثدي أحد، فدعونا له محمداً فألقمه لسانه فنام، فكان كذلك ما شاء الله عز وجل» هذا كلامه فليتأمل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

وعنها رضي الله تعالى عنها أنها في الجاهلية أرادت أن تسجد لهبل وهي حامل بعليّ فتقوّس في بطنها فمنعها من ذلك. وكان عليّ رضي الله تعالى عنه أصغر إخوته، فكان بينه وبين أخيه جعفر عشر سنين، وبين جعفر وأخيه عقيل كذلك، وبين عقيل وأخيه طالب ذلك أيضاً، فكل أكبر من الذي بعده بعشر سنين، فأكبرهم طالب ثم عقيل ثم جعفر ثم عليّ: أي وكلهم أسلموا إلا طالباً فإنه

اختطفته الجن فذهب ولم يعلم إسلامه. وقد جاء أنه قال لعقيل لما أسلم «يا أبا يزيد إنني أحبك حين حباً لقرابتك مني، وحباً لما كنت أعلم لحب عمي إياك». وكان عقيل أسرع الناس جواباً وأبلغهم في ذلك قال له معاوية يوماً: أين ترى عمك أبا لهب من النار؟ فقال: إذا دخلتها يا معاوية فهو على يسارك مفترشاً عمتك حمالة الحطب، والراكب خير من المركوب. ولما وفد على معاوية وقد غضب من أخيه عليّ لما طلب منه عطاءه وقال له اصبر حتى يخرج عطاؤك مع المسلمين فأعطيك، فقال له: لأذهبنّ إلى رجل هو أوصل إليّ منك، فذهب إلى معاوية فأعطاه معاوية مائة ألف درهم، ثم قال له معاوية: اصعد المنبر فاذكر ما أولاك عليّ وما أوليتك، فصعد فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس إنني أخبركم أنني أردت عليّاً على دينه فاخترت دينه، وإنني أردت معاوية على دينه فاخترتني على دينه. وفي رواية أن معاوية قال لجماعة يوماً بحضرة عقيل: هذا أبو يزيد يعني عقيلاً، لولا علمه بأني خير له من أخيه لما أقام عندنا وتركه، فقال عقيل: أخي خير لي في ديني وأنت خير لي في دنياي، وأسأل الله تعالى خاتمه الخير. توفي عقيل في خلافة معاوية.

قال: وسبب إسلام علي كرم الله تعالى وجهه «أنه دخل على النبي صلى الله عليه وسلم ومعه خديجة وهما يصليان سراً، فقال: ما هذا؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دين الله الذي اصطفاه لنفسه وبعث به رسوله، فأدعوك إلى الله وحده لا شريك له، وإلى عبادته، وإلى الكفر باللات والعزى، فقال علي: هذا أمر لم أسمع به قبل اليوم فليست بقاض أمراً حتى أحدث أبا طالب، وكره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يفشي عليه سره قبل أن يستعلن أمره، فقال له: يا عليّ إذا لم تسلم فإتكم هذا، فمكث ليلته. ثم إن الله تبارك وتعالى هداه للإسلام، فأصبح غادياً إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأسلم» اهـ.

أقول: وذلك في اليوم الثاني من صلواته هو وخديجة، وهو يوم الثلاثاء كما في سيرة الدمياطي: أي لأنه تقدم أن صلواته مع خديجة كانت آخر يوم الاثنين، وهذا إنما يأتي على القول بأن النبوة والرسالة تقارنتا لا على أن الرسالة تأخرت عن النبوة، وأن بينهما فترة الوحي على ما تقدم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

وفي أسد الغابة «أن أبا طالب رأى النبي صلى الله عليه وسلم وعلياً يصليان وعليّ على يمينه، فقال لجعفر رضي الله تعالى عنه: صل جناح ابن عمك، فصلى عن يساره، وكان إسلام جعفر بعد إسلام أخيه عليّ بقليل. قال بعضهم: وإنما صح إسلام علي: أي مع أنهم أجمعوا على أنه لم يكن بلغ الحلم: أي ومن ثم نقل عنه أنه قال:

سبقتكمو إلى الإسلام طراً

صغيراً ما بلغت أوان حلمي

أي كان عمره ثمان سنين على ما سبق، لأن الصبيان كانوا إذ ذاك مكلفين، لأن القلم إنما رفع عن الصبي عام خبير.

وعن البيهقي أن الأحكام إنما تعلق بالبلوغ في عام الخندق. وفي لفظ في عام الحديبية وكانت قبل ذلك منوطة بالتميز.

هذا، وقد ذكر أنه لم يحفظ عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال شعراً. وقيل لم يقل إلا بيتين: أي ولعل أحدهما ما تقدم، ثم رأيت عن القاموس أن البيتين هما قوله:

تلکم قريش تمناني لتقتلني
فلا وربك ما بزوا ولا ظفروا
فإن هلكت فرهن مهجتي لهمو
بذات ودقين لا تبقي ولا تذر
وذات ودقين: هي الداهية.

وقد ذكر أن الزبير بن العوام أسلم وهو ابن ثمان سنين، وقيل ابن خمس عشرة سنة، وقيل ابن اثنتي عشرة سنة، وقيل ابن ست عشرة سنة. ومما يدل للأول ما جاء عن بعضهم: كان علي والزبير وطلحة وسعد بن أبي وقاص ولدوا في عام واحد.

ومن العجب أن الزمخشري في خصائص العشرة اقتصر على أن سنّ الزبير حين أسلم ست عشرة سنة، وذكر بعد ذلك بأسطر أنه أول من سلّ سيفاً في سبيل الله وهو ابن اثنتي عشرة سنة مقتصراً على ذلك.

ومما يدل للأول أيضاً ما جاء في كلام بعض آخر: أسلم علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وهما ابنا ثمان سنين، وإجماعهم على أن علياً لم يكن بلغ الحلم يرد القول بأن عمره كان إذ ذاك عشر سنين: أي بناء على أن سن إمكان الاحتلام تسع سنين كما تقول به أئمتنا.

ويوافق ما حكاه بعضهم أن الراشد بالله وهو الحادي والثلاثون من خلفاء بني العباس لما كان عمره تسع سنين وطىء جارية حبشية فحملت منه، فولدت ولداً حسناً. ويرد القول بأن سنه إذ ذاك كان ثلاث عشرة أو خمس عشرة أو ست عشرة سنة.

أقول: قال بعض متأخري أصحابنا: وإنما صحت عبادة الصبي المميز ولم يصح إسلامه، لأن عبادته نفل وإسلام لا يتنفل به. وعلى هذا مع ما تقدم يشكل ما في الإمتاع: وأما علي بن أبي طالب فلم يكن مشركاً بالله أبداً، لأنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في كفالته كأحد أولاده، يتبعه في جميع أموره، فلم يحتج أن يدعى للإسلام فيقال أسلم، هذا كلامه فليتأمل، فإن علياً كان تابعاً لأبيه في دينه ولم يكن تابعاً له كأولاده.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

وقوله فلم يحتج أن يدعى للإسلام يرد ما تقدم من قوله له: أدعوك إلى الله وحده إلى آخره.

ثم رأيت في الحديث ما يدل لما في (الإمتاع) وهو «ثلاثة ما كفروا بالله قط: مؤمن آل يس؟، وعلي بن أبي طالب، وأسوية امرأة فرعون». والذي في العرائس: روي عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «سباق الأمم ثلاثة لم يكفروا بالله طرفة عين: حزقيل مؤمن آل فرعون، وحبيب النجار صاحب يس؟، وعلي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنهم وهو أفضلهم»

إلا أن يراد بعدم كفرهم أنهم لم يسجدوا لصنم. وفيه أنه قد يخالف ذلك قوله له: «وأدعوك إلى الكفر بالللات والعزى» وأنه قيل أيضاً إن أبا بكر لم يسجد لصنم قط.

وقد عد ابن الجوزي من رفض عبادة الأصنام الجاهلية: أي لم يأت بها: أبا بكر الصديق، وزيد بن عمرو بن نفيل، وعبيد الله بن جحش، وعثمان بن الحويرث، وورقة بن نوفل، ورباب بن البراء، وأسعد بن كريب الحميري، وقس بن ساعدة الإيادي، وأبا قيس بن صرمة. ولا يخفى أن عدم السجود للأصنام لا ينافي الحكم بالكفر على من لم يسجد لها، لكن في كلام السبكي: الصواب أن يقال الصديق لم يثبت عنه حال كفر بالله تعالى، فلعل حاله قبل البعث كحال زيد بن عمرو بن نفيل وأضرابه، فلذلك خص الصديق بالذكر عن غيره من الصحابة، هذا كلامه، وهو واضح إذا لم يكن أحد من جميع من ذكر أسلم. وفي كلام الحافظ ابن كثير: الظاهر أن أهل بيته آمنوا قبل كل أحد: خديجة وزيد وزوجة زيد أم أيمن وعلي رضي الله تعالى عنهم، فليتأمل قوله آمنوا قبل كل أحد، وكذا يتأمل قول ابن إسحاق: أما بناته فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن.

وعن ابن إسحاق: ذكر بعض أهل العلم «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة وخرج معه علي مستخفياً من قومه فيصلبان فيها، فإذا أمسيا رجعا كذلك، ثم إن أبا طالب عثر: أي اطلع عليهما يوماً وهما يصلبان: أي بنخلة، المحل المعروف، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ابن أخي ما هذا الذي أراك تدب به؟ فقال: هذا دين الله ودين ملائكته ورسله ودين أبينا إبراهيم، بعثني الله به رسولا إلى العباد، وأنت أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى، وأحق من أجابني إلى الله تعالى وأعانني عليه، فقال أبو طالب: إني لا أستطيع أن أفارق دين آبائي وما كانوا عليه». وفي رواية «أنه قال له: ما بالذي تقول من بأس، ولكن والله لا تعلقوني استي أبداً» وهذا كما لا يخفى ينبغي أن يكون صدر منه قبل ما تقدم من قوله لابنه جعفر: صل جناح ابن عمك وصل على يساره لما رأى النبي صلى الله عليه وسلم يصلي وعلياً على يمينه، لكن يروى أن علياً رضي الله تعالى عنه ضحك يوماً وهو على المنبر فسئل عن ذلك؟ فقال: تذكرت أبا طالب حين فرضت الصلاة ورأيت أصلي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بنخلة، فقال: ما هذا الفعل الذي أرى؟ فلما أخبرناه قال: هذا حسن ولكن لا أفعله أبداً، إني لا أحب أن تعلقوني استي، فلما تذكرت الآن قوله ضحكك. وقوله حين فرضت الصلاة يعني الركعتين بالغداة والركعتين بالعشي، وهذا يؤيد القول بأن ذلك كان واجباً.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

وذكر أن أبا طالب قال لعلي: أي بني، ما هذا الذي أنت عليه؟ فقال: يا أبت أمنت بالله ورسوله، وصدقت ما جاء به، ودخلت معه واتبعته، فقال له: أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه. أي ويذكر عنه أنه كان يقول: إني لأعلم أن ما يقوله ابن أخي لحق، ولولا أنني أخاف أن تعيرني نساء قريش لا تبعته.

وعن عفيف الكندي رضي الله تعالى عنه قال: كنت امرأ تاجراً قدمت للحج، وأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة، وكان العباس لي صديقاً، وكان يختلف إلى اليمن يشتري العطر ويبيعه أيام الموسم، فبينما أنا عند العباس بمنى: أي وفي لفظ بمكة في المسجد إذا رجع مجتمع: أي بلغ أشده خرج من خباء قريب منه، فنظر إلي الشمس، فلما رآها مالت توضاً فأسبغ الوضوء: أي أكمله ثم قام يصلي: أي إلى الكعبة كما في بعض الروايات، ثم خرج غلام مراهق: أي قارب البلوغ فتوضأ ثم قام إلى جنبه يصلي، ثم جاءت امرأة من ذلك الخباء فقامت خلفهما، ثم ركع الرجل وركع الغلام وركعت المرأة، ثم خر الرجل ساجداً وخر الغلام وخرت المرأة، فقلت: ويحك يا عباس ما هذا الدين؟ فقال: هذا دين محمد بن عبد الله أخي، يزعم أن الله بعثه رسولاً، وهذا ابن أخي علي بن أبي طالب، وهذه امرأته خديجة، قال عفيف بعد أن أسلم: يا ليتني كنت رابعاً» أي ولعل زيد بن حارثة لم يكن موجوداً عندهم في ذلك الوقت، فلا ينافي أنه كان يصلي معهم أو أن ذلك كان قبل إسلامه، لأنه سيأتي قريباً أن إسلامه كان قبل إسلام علي، وكذا أبو بكر لم يكن موجوداً عندهم، بناء على أن إسلامه كان قبل إسلام علي، ويؤيده ما قيل: أول من صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر، لكن في الاستيعاب لابن عبد البر أن العباس قال لعفيف الكندي لما قال له ما هذا الذي يصنع؟ قال: يصلي، وهو يزعم أنه نبي، ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الغلام. وفيه أن علياً قال: لقد عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة خمس سنين، أي ولعل المراد أنه عبده بغير الصلاة.

وقوله في هذا الحديث: فنظر إلى الشمس، فلما رآها مالت توضاً وصلى قد يخالف ما تقدم من أن فرض الصلاة كان ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي قبل غروب الشمس فقط.

أقول: قد يقال لا مخالفة، لأنه يجوز أن تكون صلاته في الوقت ليست مما فرض عليه، والجماعة في ذلك جائزة، وقد فعلها في النقل المطلق، وهذا يدل على أن الجماعة كانت مشروعة بمكة حتى في صدر الإسلام قبل فرض الصلوات الخمس.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

وفي كلام بعض فقهاءنا أنها لم تشرع إلا في المدينة دون مكة لقهر الصحابة رضي الله تعالى عنهم، إلا أن يقال المراد بمشروعيتها طلبها، فكانت في المدينة مطلوبة استحباباً أو وجوباً، كفاية أو عيناً على الخلاف عندنا في ذلك، وفي مكة كانت مباحة، لكن في كلام بعض آخر من فقهاءنا أن الجماعة لم تفعل بمكة لقهر الصحابة. وفيه أن القهر إنما ينافي إظهار الجماعة لا فعلها، إلا أن يقال تركت حسماً للباب. وفيه أنه يبعد تركها وهم مستخفون في دار الأرقم فليتأمل، والله أعلم.

ثم بعد إسلام علي رضي الله تعالى عنه أسلم من الصحابة رضي الله تعالى عنهم زيد بن حارثة بن شرحبيل.

وقال ابن هشام: شرحبيل مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهبته له خديجة، أي لما تزوجها، أي وكان اشتراه لها ابن أخيها حكيم بن حزام ممن سباه من الجاهلية، أي فإن عمته خديجة أمرته أن يبتاع لها غلاماً ظريفاً عربياً،

فلما قدم سوق عكاظ وجد زيداَ يباع، أي وعمره ثمان سنين، فإنه أسر من عند أخواله طي، وعليه اقتصر السهيلي.
فإن أمه لما خرجت به لتزيره أهلها فأصابته خيل فباعوه فاشتراه، أي وقيل اشتراه من سوق حباشة بأربعمائة درهم، ويقال بستمائة درهم، فلما رآته خديجة أعجبت فأخذته أي ولعل هذا مراد من قال فباعه من عمته خديجة أي اشتراه لها، فلما تزوجها وهو عندها أعجب به فاستوهبه منها فوهبته له، فأعتقه رسول الله صلى الله عليه وسلم وتبناه قبل الوحي ().

أي وقيل اشتراه لها فإنها جاء إلى خديجة، فقال: «رأيت غلاماً بالبطحاء قد أوقفوه لبييعوه، ولو كان لي ثمنه لاشتريته، قالت وكم ثمنه؟ قال سبعمائة درهم، قالت: خذ سبعمائة درهم فاذهب فاشتره، فاشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاء به إليها، وقال: إنه لو كان لي لأعتقته، قالت: هو لك فأعتقه» وقيل بل اشتراه رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشام لخديجة حيث توجه مع ميسرة فوهبته له فليتأمل ذلك.
وزعم أبو عبيدة أن زيد بن حارثة لم يكن اسمه زيداَ، ولكن النبي صلى الله عليه وسلم سماه بذلك باسم جدّه قصي حين تبناه.
ثم إنه خرج في إبل لأبي طالب إلى الشام، فمّر بأرض قومه، فعرفه عمه فقام إليه وقال: من أنت يا غلام؟ قال: غلام من أهل مكة، قال: من أنفسهم؟ قال لا، قال: فحر أنت أم مملوك؟ قال: مملوك، قال: عربيّ أنت أم أعجمي؟ قال: بل عربيّ، قال: ممن أهلك؟ قال من كلب، قال: من أي كلب؟ قال: من بني عبد ود، قال: ويحك ابن من أنت؟ قال ابن حارثة بن شرحبيل، قال: وأين أصبت؟ قال: في أخوالي قال: ومن أخوالك؟ قال: طي، قال: ما اسم أمك؟ قال: سعدى، فالتزمه وقال ابن حارثة ودعا أباه، فقال: يا حارثة هذا ابنك، فأتاه حارثة، فلما نظر إليه عرفه، قال: كيف صنع مولاك إليك؟ قال: يؤثرنى على أهله وولده، ورزقت منه حياً فلا أصنع إلا ما شئت، فركب معه أبوه وعمه وأخوه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

وفي رواية أنا ناساً من قومه حجوا فرأوا زيداَ فعرفوه وعرفهم فانطلقوا وأعلموا أباه ووصفوا له مكانه، فجاء أبوه وعمه.
وقد يقال: لا مخالفة، لجواز أن يكون اجتماعه بعمه وأبيه كان بعد إخبار أولئك الناس، فلما جاء أهلك في طلبه ليفدوه خيره النبي صلى الله عليه وسلم بين المكث عنده والرجوع إلى أهله، فاختر المكث عند رسول الله .

فقد ذكر أنهم لما جاؤوا للنبي ، قالوا: يا بن عبد المطلب يا بن سيد قومه () :
أي وفي لفظ، لما قدم أبوه وعمه في فدائه سألوا عن النبي ، فقيل: هو في المسجد، فدخلوا عليه، فقالوا: يا بن عبد المطلب يا بن هاشم يا بن سيد قومه، أنتم أهل حرم الله وجيرانه، تفكون الأسير العاني، وتطعمون الجائع جئناك في ولدنا عندك، فامنن علينا وأحسن في فدائه فإننا سندفع لك، فقال: وما ذاك؟ قال: زيد بن حارثة، فقال: أو غير ذلك؟ قالوا: وما هو؟ قال ادعوه فخيروه،

فإن اختاركم فهو لكم من غير فداء، وإن اختارني فوالله ما أنا بالذي أختار على الذي اختارني فداء، فقالوا، زدت على النصف. وفي لفظ زدتنا على النصف وأحسننت، فدعاه فقال: تعرف هؤلاء؟ قال: نعم أبي وعمي، ولعل سكوته عن أخيه لاستصغاره بالنسبة لأبيه وعمه، على أن أكثر الروايات الاقتصار على مجيء أبيه وعمه.

وفي كلام السهيلي «أن زيداً لما جاء قال له من هذان؟ فقال: هذا أبي حارثة بن شرحبيل، وهذا كعب بن شرحبيل عمي. فعند ذلك قال له: أنا من علمت، وقد رأيت صحبتي لك فاخترني أو اخترهما، فقال زيد: ما أنا بالذي أختار عليك أحداً، أنت مني مكان الأب والعم، فقالا، وبحك يا زيد تختار العبودية على الحرية وعلى أهلك وعمك وأهل بيتك؟ قال نعم، ما أنا بالذي أختار عليه أحداً، فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم منه ما رأى أخرجه إلى الحجر: أي الذي هو محل جلوس قريش، فقال إن زيداً ابني أرثه ويرثني فطابت أنفسهما وانصرفا».

وفي كلام ابن عبد البر أنه حين تبناه رسول الله صلى الله عليه وسلم كان سنه ثمان سنين، وأنه حين تبناه طاف به على حلق قريش يقول: هذا ابني وارثاً وموروثاً، ويشهدهم على ذلك، وكان الرجل في الجاهلية يعاقد الرجل فيقول، دمي دمك، وهدمي هدمك، وثأري ثأرك، وحربي حربك، وسلمي سلمك، ترثني وأرثك، وتطلب بي وأطلب بك، وتعقل عني وأعقل عنك، فيكون للحليف السدس من ميراث الحليف: أي من حالفه، فنسخ ذلك، وهذا الذي ذكره ابن عبد البر من أنه حين تبناه كان عمره ثمان سنين يدل على أن ذلك كان عقب ملكه له قبل الوحي، وأن ذلك كان قبل مجيء أبيه وعمه، وحينئذ يكون عتقه وتبنيه بعد مجيء أبيه وعمه إظهاراً لما تقدم فليتأمل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

وفي أسد الغابة أن حارثة أسلم. وفي كلام بعضهم: لم يثبت إسلام حارثة إلا المنذري.

ولما تبنى رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً كان يقال له زيد بن محمد، ولم يذكر في القرآن من الصحابة أحد باسمه إلا هو كما سيأتي. قال ابن الجوزي: إلا ما يروى في بعض التفاسير أن السجل الذي في قوله تعالى: {يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب} اسم رجل كان يكتب للنبي (). أي وقد أبدى السهيلي حكمة لذكر زيد باسمه في القرآن، وهي أنه لما نزل قوله تعالى: {ادعوهم لأبائهم} وصار يقال له زيد بن حارثة ولا يقال له زيد بن محمد، ونزع منه هذا التشريف شرفه الله تعالى بذكر اسمه في القرآن دون غيره من الصحابة، فصار اسمه يتلى في المحارب.

ولا يخفى أنه يأتي في زيد ما تقدم في علي، ولم تذكر في القرآن امرأة باسمها إلا مريم ولزيد أخ اسمه جيلة أسن منه.

سئل جيلة: من أكبر أنت أم زيد؟ فقال زيد: أكبر مني وأنا ولدت قبله: أي لأن زيداً أفضل منه لسبقه للإسلام.

ثم أسلم من الصحابة أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه. قال بعضهم في سبب إسلامه، إنه كان صديقاً لرسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر غشيانه في منزله ومحادثته، وكان سمع قول ورقة له لما ذهب معه إليه كما تقدم، فكان متوقفاً لذلك، فهو مع حكيم بن حزام في بعض الأيام إذ جاءت مولاة لحكيم وقالت له: إن عمك خديجة تزعم في هذا اليوم أن زوجها نبيّ مرسل مثل موسى، فانسل أبو بكر حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله عن خبره، فقص عليه قصته المتضمنة لمجيء الوحي له بالرسالة، فقال صدقت، بأبي أنت وأمي وأهل الصدق أنت، أنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فيقال إنه سماه يومئذ الصديق، وهذا السياق ربما يدل على أن إسلام أبي بكر تأخر إلى نزول {يا أيها المدثر} بعد فترة الوحي، بناء على ما تقدم، وكونه سماه يومئذ الصديق لا ينافي ما سيأتي أنه سمي بذلك صبيحة الإسراء لما صدقه وقد كذبه قريش، لجواز أنه لم يشتهر بذلك إلا حينئذ. وقد جاء في تفسير قوله تعالى: {والذي جاء بالصدق وصدق به} أن الذي جاء بالصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي صدق به أبو بكر. قال: ولما سمعت خديجة مقالة أبي بكر، خرجت وعليها خمار أحمر فقالت: الحمد لله الذي هداك يا بن أبي قحافة، واسمه عبد الله: أي سماه بذلك رسول وكان اسمه قبل ذلك عبد الكعبة، فابو بكر رضي الله تعالى عنه أول من غير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه، ولقبه عتيق لحسن وجهه، أو لأنه عتق من الذم والعيب () أي أو نظر إليه فقال هذا عتيق من النار، فهو أول لقب وجد في الإسلام.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

وقيل سمته بذلك أمه لأنه كان لا يعيش لها ولد، فلما ولدته استقبلت به الكعبة ثم قالت اللهم هذا عتيقك من الموت فهبه لي فعاش. قيل ويدل له ما ذكر بعضهم أن أمه كانت إذا هزته تقول: عتيق وما عتيق، ذو المنظر الأنيق.

وفي كلام ابن حجر الهيتمي: وضح أن الملقب له به النبي صلى الله عليه وسلم لما دخل عليه في بيت عائشة، وأنه غلب عليه من يومئذ. قال: وبه يندفع أن الملقب له أبوه وزعم أنه أمه هذا كلامه، وليتأمل قوله في بيت عائشة مع ما تقدم وما في كلام السهيلي. قيل وسمي عتيقاً، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له حين أسلم أنت عتيق من النار.

وكان أبو بكر رضي الله تعالى عنه صدرأ معظماً في قريش على سعة من المال وكرم الأخلاق من رؤساء قريش ومحط مشورتهم، وكان من أعف الناس. كان رئيساً مكرماً سخياً يبذل المال، محبباً في قومه، حسن المجالسة، وكان من أعلم الناس بتعبير الرؤيا، ومن ثم قال ابن سيرين وهو المقدم في هذا العلم اتفاقاً كان أبو بكر أعبر هذه الأمة بعد النبي، وكان أعلم الناس بأنساب العرب.

فقد جاء عن جبير بن مطعم البالغ النهاية في ذلك أنه قال: إنما أخذت النسب من أبي بكر لا سيما أنساب قريش، فإنه كان أعلم قريش بأنسابها وبما كان فيها من خير وشر، وكان لا يعدّ مساوياً لهم، فمن ثم كان محبباً فيهم، بخلاف عقيل بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه، فإنه كان بعد أبي بكر، أعلم قريش

بأنسابها وبآبائها وما فيها من خير وبشر لكن كان مبغضاً إليهم لأنه كان يعد مساويهم، وكان عقيل يجلس إليه في المسجد النبوي لأخذ علم الأنساب وأيام العرب ووقائعهم.

وفي كلام بعضهم: كان أبو بكر عند أهل مكة من خيارهم، يستعينون به فيما يأتيهم وكانت له بمكة ضيافات لا يفعلها أحد. قال الزمخشري: ولعله كني بأبي بكر، لابتكاره الخصال الحميدة، وكان نقش خاتمه «نعم القادر الله» وكان نقش خاتم عمر رضي الله تعالى عنه «كفى بالموت واعظاً يا عمر» وكان نقش خاتم عثمان «أمنت بالله مخلصاً» وكان نقش خاتم عليّ «الملك لله» وكان نقش خاتم أبي عبيدة بن الجراح «الحمد لله».

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما دعوت أحداً إلى الإسلام إلا كانت عنده كبوة - أي وقفة وتأخر وتردد - إلا ما كان من أبي بكر». وفي رواية «ما كلمت أحداً في الإسلام إلا أبي عليّ وراجعني في الكلام، إلا ابن أبي قحافة فإني لم أكلمه في شيء إلا قبله واستقام عليه» () أي ومن ثم كان أسدّ الصحابة رأياً، وأكملهم عقلاً، لخبر تمام «أتاني جبريل فقال لي إن الله أمرك أن تستشير أبا بكر» ونزل فيه وفي عمر {وشاورهم في الأمر} كان أبو بكر رضي الله تعالى عنه بمكان الوزير من رسول الله ، فكان يشاوره في أموره كلها.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

وقد جاء «إن الله تعالى أيدني بأربعة وزراء: اثنين من أهل السماء جبريل ومكائيل، واثنين من أهل الأرض أبي بكر وعمر» وفي حديث رواه ثقات «إن الله يكره أن يخطأ أبو بكر» وفي رواية «إن الله يكره في السماء أن يخطأ أبو بكر الصديق في الأرض».

وجاء الحسن بن علي وهو صغير إلى أبي بكر وهو يخطب على المنبر، فقال له: انزل عن مجلس أبي، فقال: مجلس أبيك والله لا مجلس أبي، فأجلسه في حجره وبكى، فقال علي: والله ما هذا عن رأيي، فقال: والله ما اتهمتك. ووقع نظير ذلك لسيدنا عمر رضي الله تعالى عنه مع سيدنا الحسين، فإنه قال له وهو يخطب: انزل عن منبر أبي، فقال له: منبر أبيك لا منبر أبي، من أمرك بهذا؟ فقام عليّ فقال له: ما أمره بهذا أحد، ثم قال للحسين: لأوجعك يا غدر، فقال: لا توجع ابن أخي، صدق منبر أبيه.

قال: وسبب مبادرته إلى التصديق ما علمه من دلائل نبوته ، وبراهين صدق دعوته قبل دعوته، ولرؤيا رآها قبل ذلك. رأى القمر نزل إلى مكة فدخل في كل بيت منه شعبة ثم كان جميعه في حجره، فقصها عليّ بعض أهل الكتاب، فعبرها له بأنه يتبع النبي المنتظر الذي قد ظل زمانه، وأنه يكون أسعد الناس به، ولعل هذا الذي من أهل الكتاب هو بحيرا. فقد رأيت أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه رأى رؤيا فقصها على بحيرا، فقال له: إن صدقت رؤياك فإنه سيبعث نبي من قومك تكون أنت وزيره في حياته، وخليفته بعد مماته.

أي وأخرج أبو نعيم عن بعض الصحابة أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه آمن بالنبي صلى الله عليه وسلم قبل النبوة: أي علم أنه النبي المنتظر، لما مر عن بحيرا الراهب، ولما سمعه من شيخ عالم من الأزدي قد قرأ الكتب نزل به في اليمن، فقال له أحسبك حرمياً، فقال أبو بكر نعم، فقال له أحسبك قرشياً، قال نعم، فقال له أحسبك تيمياً، قال نعم قال له: بقيت لي فيك واحدة، قال وما هي؟ قال له: تكشف لي عن بطنك، فقال له لا أفعل أو تخبرني لم ذلك؟ فقال: أجد في العلم النجيج الصادق أن نبياً يبعث في الحرم يعاون علي أمره فتى وكهل. فأما الفتى فخواص غمرات ودفاع معضلات، وأما الكهل فأبيض نحيف على بطنه شامة وعلى فخذه اليسرى علامة: أي مع كونه حرمياً قرشياً تيمياً، بدليل قوله أحسبك حرمياً أحسبك قرشياً أحسبك تيمياً، وما عليك أن تريني ما سألتك، فقد تكاملت فيك الصفة: أي كونه حرمياً قرشياً تيمياً أبيض نحيفاً إلا ما خفي علي، فقال أبو بكر فكشفت له عن بطني فرأى شامة بيضاء أو سوداء فوق سرتي، أي ورأى العلامة على الفخذ الأيسر، فقال أنت هو ورب الكعبة، قال أبو بكر: فلما قضيت أربي من اليمن أتيت لأودعه، فقال: أحافظ عني أبياتاً من الشعر قلتها في ذلك النبي؟ قلت نعم، فذكر له أبياتاً، قال أبو بكر: فقدمت مكة وقد بعث النبي صلى الله عليه وسلم فجاءني صناديد قريش كعقبة بن أبي معيط وشيبة بن ربيعة وأبي جهل وأبي البختری، فقالوا يا أبا بكر يتيم أبي طالب يزعم أنه نبي، ولولا انتظارك ما انتظرنا به، فإذا قد جئت فأنت الغاية والكفاية: أي لأن أبا بكر كما تقدم كان صديقاً له، قال أبو بكر: فصرفتهم على أحسن شيء ثم جئته ففرغت عليه الباب فخرج إلي وقال لي: يا أبا بكر إنني رسول الله إليك وإلى الناس كلهم، فأمن بالله، فقلت: وما دليلك على ذلك؟ قال: الشيخ الذي أفادك الأبيات، فقلت: ومن أخبرك بهذا يا حبيبي؟ قال: الملك العظيم الذي يأتي الأنبياء قبلي، قلت مد يدك

فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال أبو بكر رضي الله تعالى عنه: فانصرفت وما بين لابتها أشد سروراً من رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلامي. وفي لفظ أشد سروراً مني بإسلامي، ولا مانع من صدور الأمرين منه رضي الله تعالى عنه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

ويحتاج للجمع بين هذا وبين ما تقدم من أنه كان مع حكيم بن حزام يوماً إلى آخره على تقدير صحة الروايتين، وما جاء من شعر حسان رضي الله تعالى عنه من أن أبا بكر أول الناس إسلاماً حيث يقول فيه: وأول الناس منهم صدق الرسلا وأنه سمع ذلك منه ولم ينكره، بل قال: صدقت يا حسان كما سيأتي عند الكلام على الهجرة.

وقول بعض الحفاظ إن أبا بكر رضي الله تعالى عنه أول الناس إسلاماً هو المشهور عند الجمهور من أهل السنة لا ينافي ما تقدم من أن علياً أو الناس إسلاماً بعد خديجة، ثم مولاه زيد بن حارثة، لأن المراد أول رجل بالغ ليس من الموالي أسلم أبو بكر. أي وعبارة ابن الصلاح والأورع أن يقال: أول من أسلم من الرجال الأحرار. أي

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

غير الموالي أبو بكر، ومن الصبيان عليّ ومن النساء خديجة، ومن الموالي زيد بن حارثة، وهذا ما قبله يدل على أن إسلام زيد بن حارثة كان بعد البلوغ، وإلا فلا حاجة لزيادة «ليس من الموالي» تأمل.
أو أن مراد من قال إن أبا بكر سبق علياً في الإسلام: أي في إظهار الإسلام، لأنه حين أسلم أظهر إسلامه بخلاف عليّ، فقد جاء عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: إن أبا بكر رضي الله عنه سبقني إلى أربع وعدها منها إظهار الإسلام وقال أنا أخفيته، ولعله لا ينافي ذلك ما جاء بسند حسن أن أول من جهر بالإسلام عمر بن الخطاب، لأن ذلك كان عند اختفائه هو وأصحابه في دار الأرقم كما سيأتي، فالأولية في إظهار الإسلام إضافية.

قال ابن كثير: وورد عن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال: أنا أول من أسلم، ولا يصح إسناد ذلك إليه. قال وقد روي في هذا المعنى أحاديث أوردها ابن عساکر كثيرة منكراً كلها لا يصح شيء منها هذا كلامه. وعلى تقدير صحتها مراده أول من أسلم من الصبيان؟ فالأولية إضافية.
ومما يؤثر عن علي رضي الله تعالى عنه: لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويؤخر التوبة لطول الأمل، يحب الصالحين ولا يعمل بأعمالهم. البشاشة فح المودة، والصبر قبر العيوب، والغالب بالظلم مغلوب، العجب ممن يدعو ويستبطن الإجابة وقد سد طرقها بالمعاصي.
وأول من أسلم من النساء بعد خديجة رضي الله تعالى عنها أم الفضل زوج العباس، وأسما بنت أبي بكر، وأم جميل فاطمة بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب.
وينبغي أن تكون أم أيمن سابقة في الإسلام على أم الفضل على ما تقدم. وقول السراج البلقيني موافقة للزين العراقي: إن أول رجل أسلم ورقة بن نوفل، لقوله النبي صلى الله عليه وسلم أنا أشهد أنك الذي بشر بك عيسى ابن مريم وأنت على مثل ناموس موسى، وأنت نبي مرسل قد علمت ما فيه، وأنه كان من أهل الفترة كما صرح به الحافظ الذهبي، وهو يردّ القول المتقدم بأن وفاة ورقة تأخرت عن البعثة، فورقة ونحوه كبحيرا ونسطورا من أهل الفترة لا من أهل الإسلام. ويؤيده ما تقدم أنه بإجماع المسلمين لم يتقدم خديجة في الإسلام لا رجل ولا امرأة، لكن هؤلاء من القسم الذي تمسك بدين قبل نسخه وأمن وصدق بأنه الرسول المنتظر، وذلك نافع له في الآخرة. ومن ثم قال لما توفي ورقة: «لقد رأيت القس - يعني ورقة - في الجنة وعليه ثياب الحرير لأنه آمن بي وصدقني» إلى آخر ما تقدم.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

وعلى تسليم أنه لا يشترط في المسلم: أن يؤمن ويصدق برسائله بعد وجودها، بل يكفي ولو قبل ذلك، فليس ورقة بصحابي لأن الصحابي من اجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد الرسالة مؤمناً بما جاء به عن الله تعالى: أي محكوماً بإيمانه.
ومن ثم رد الحافظ الذهبي على ابن منده أي ومن وافقه كالزين العراقي في

عده له من الصحابة: أي كما عد منهم بحيرا ونسطورا بقوله: الأظهر أن من مات بعد النبوة وقبل الرسالة فهو من أهل الفترة هذا كلام الحافظ الذهبي. والمراد بالرسالة نزول {يا أيها المدثر} لا إظهارها، ونزول قوله تعالى: {فاصدع بما تؤمر} بناء على تأخر الرسالة عن النبوة. وحين أسلم أبو بكر رضي الله تعالى عنه دعا إلي الله تعالى ورسوله من وثق به من قومه. فأسلم بدعائه عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية بن عبد شمس. أي ولما أسلم عثمان رضي الله تعالى عنه أخذه عمه الحكم بن أبي العاص بن أمية والد مروان فأوثقه كتافاً وقال: ترغب عن ملة آبائك إلى دين محمد؟ والله لا أحلك أبداً حتى تدع ما أنت عليه، فقال عثمان: والله لا أدعه أبداً ولا أفارقه، فلما رأى الحكم صلابته في الحق تركه، وقيل عذبه بالدخان ليرجع فما رجع. وفي كلام ابن الجوزي أن المعذب بالدخان ليرجع عن الإسلام الزبير بن العوام هذا كلامه، ولا مانع من تعدد ذلك. وجاء «لكل نبي رفيق في الجنة، ورفيقي فيها عثمان بن عفان». وأسلم بدعاء أبي بكر أيضاً الزبير بن العوام (1) رضي الله تعالى عنه وكان عمره ثمان سنين على ما تقدم. وعبد الرحمن بن عوف (1) رضي الله تعالى عنه: أي وكان اسمه في الجاهلية عبد عمر، وقيل عبد الكعبة، وقيل عبد الحارث، فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الرحمن قال: وكان أمية بن خلف لي صديقاً، فقال لي يوماً: أرغبت عن اسم سماك به أبواك؟ فقلت نعم، فقال لي: إني لا أعرف الرحمن ولكن أسميك بعبد الإله، فكان يناديني بذلك.

قال: وسبب إسلام عبد الرحمن بن عوف ما حدث به قال: سافرت إلى اليمن غير مرة وكنت إذا قدمت نزلت على عسكلان بن عواكف الحميري، فكان يسألني هل ظهر فيكم رجل له نبأ له ذكر؟ هل خالف أحد منكم عليكم في دينكم؟ فأقول لا حتى كانت السنة التي بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قدمت اليمن فنزلت عليه إلى آخر القصة. وعن علي رضي الله تعالى عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لعبد الرحمن بن عوف: «أنت أمين في أهل الأرض أمني في أهل السماء» وجاء «أنه وصفه بالصادق الصالح البار». رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431 وأسلم بدعاية أبي بكر رضي الله تعالى عنه أيضاً سعد (1) بن أبي وقاص: أي فإن أبا بكر لما دعاه إلى الإسلام لم يبعد، وأتى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله عن أمره فأخبر به () فأسلم وكان عمره تسع عشرة سنة، وهو رضي الله تعالى عنه من بني زهرة، ومن ثم قال وقد أقبل عليه: «سعد خالي فليرني امرؤ خاله». وفي كلام السهيلي أنه عم آمنة بنت وهب أم النبي، وكرهت أمه إسلامه وكان باراً بها، فقالت له: ألست تزعم أن الله يأمرك بصلة الرحمن وبر الولدين؟ قال: فقلت نعم، فقالت: والله لا أكلت طعاماً ولا شربت شراباً حتى تكفر بما جاء به محمد: أي وتمس إسافاً وناثلة، فكانوا يفتحون فاهاً ثم يلقون فيه

الطعام والشراب، فأنزل الله تعالى {ووصينا الإنسان بوالديه حسناً وإن جاهداك لتشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما} الآية، وفي رواية أنها مكثت يوماً وليلة لا تأكل، فأصبحت وقد خمدت ثم مكثت يوماً وليلة لا تأكل ولا تشرب. قال سعد: فلما رأيت ذلك قلت لها: تعلمين والله يا أمه لو كان لك مائة نفس تخرج نفساً نفساً ما تركت دين هذا النبي، فكلتي إن شئت أو لا تأكلي، فلما رأت ذلك أكلت.

وفي الأنساب للبلاذري عن سعد قال: أخبرت أمي أنني كنت أصلي العصر: أي الركعتين اللتين كانوا يصلونهما بالعشي فجئت فوجدتها على بابها تصيح: ألا أعوان يعينوني عليه من عشيرتي فأحبسه في بيت وأطبق عليه بابه حتى يموت أو يدع هذا الدين المحدث؟ فرجعت من حيث جئت، وقلت: لا أعود إليك ولا أقرب منزلك فهجرتها حيناً، ثم أرسلت إليّ أن عد إلى منزلك ولا تتضيفن فيلزمنا عار فرجعت إلى منزلي، فمرة تلقاني بالبشر ومرة تلقاني بالبشر وتعيرني بأخي عامر وتقول: هو البر لا يفارق دينه، ولا يكون تابعاً، فلما أسلم عامر لقي منها ما لم يلق أحد من الصياح والأذى حتى هاجر إلى الحبشة، ولقد جئت والناس مجتمعون عليّ أمي وعليّ أخي عامر فقلت: ما شأن الناس؟ فقالوا: هذه أمك قد أخذت أخاك عامراً، وهي تعطي الله عهداً لا يظلمها نخل ولا تأكل طعاماً ولا تشرب شراباً حتى يدع صباه، فقلت لها: والله يا أمه لا تستظلين ولا تأكلين ولا تشربين حتى تتبؤني مقعدك من النار. وجاء «أنه أمر سعد بن أبي وقاص أن يأتي الحارث بن كلدة طبيب العرب ليستوصفه في مرض نزل بسعد وكان ذلك في حجة الوداع، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم يعود عبد الرحمن بن عوف لمرض نزل به فوجد عنده الحارث، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن: إني لأرجو أن يشفيك الله حتى يضربك قوم وينتفع بك آخرون، ثم قال للحارث بن كلدة عالج سعداً مما به وكان سعد بالمجلس، فقال: والله إني لأرجو شفاءه فيما ينفعه من رجله، هل معك من هذه الثمرة العجوة شبيء؟ قال نعم، فخلط ذلك الثمر بحلبة ثم أوسعها سمناً ثم أحساه إياها فكانما نشط من عقال» وهذا استدل به على إسلام الحارث بن كلدة، لأن حجة الوداع لم يحج فيها مشرك، فهو معدود من الصحابة. وأنكر بعضهم إسلامه وجعله دليلاً على جواز استشارة أهل الكفر في الطب إذا كانوا من أهله.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

وممن أسلم بدعاية أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه أيضاً طلحة بن عبد الله التيمي فجاء به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم حين استجاب له فأسلم.

أي ولما تظاهر أبو بكر وطلحة بالإسلام أخذهما نوفل بن العدوية، وكان يدعى أسد قريش فشدهما في حبل واحد ولم يمنعهما بنو تيم، ولذلك سمي أبو بكر وطلحة القرينين ولشدة ابن العدوية وقوة شكيمته كان يقول: «اللهم اكفنا شر ابن العدوية».

أقول: سبب إسلام طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه ما تقدم أنه قال: حضرت سوق بصرى فإذا راهب في صومعته يقول: سلوا أهل هذا الموسم هل ثم من أهل الحرم أحد؟ فقلت: نعم أنا، قال: هل ظهر أحمد بعد؟ قلت: ومن أحمد؟ قال: ابن عبد الله بن عبد المطلب، هذا شهره الذي يخرج فيه، وهو آخر الأنبياء، مخرجه من الحرم، ومهاجره إلى أرض ذات نخل وسباخ، فإياك أن تسبق إليه، قال طلحة: فوقع في قلبي ما قال، فخرجت سريعا حتى قدمت مكة، فقلت: هل كان من حدث؟ قالوا: نعم، محمد بن عبد الله الأمين يدعو إلى الله، وقد تبعه ابن أبي قحافة، فخرجت حتى دخلت على أبي بكر رضي الله تعالى عنه فأخبرته بما قال الراهب، فخرج أبو بكر حتى دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره بذلك، فسر بذلك وأسلم طلحة. وطلحة هذا هو أحد العشرة المبشرين بالجنة، وقد شاركه رجل آخر في اسمه واسم أبيه ونسبه، وهو طلحة بن عبيد الله التيمي، وهو الذي نزل فيه قوله تعالى: {وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه} الآية، لأنه قال لئن مات محمد رسول الله لأتزوجن عائشة. وفي لفظ يتزوج محمد بنات عمنا ويحبهنّ عنا، لئن مات لأتزوجن عائشة من بعده، فنزلت الآية. قال الحافظ السيوطي: وقد كنت في وقفة شديدة من صحة هذا الخبر، لأن طلحة أحد العشرة أجلّ مقاماً من أن يصدر عنه ذلك، حتى رأيت أنه رجل آخر شاركه في اسمه واسم أبيه ونسبه هذا كلامه.

والحاصل أن أبا بكر أسلم على يده خمسة من العشرة المبشرين بالجنة، وهم: عثمان وطلحة بن عبيد الله، ويقال له طلحة الفياض، وطلحة الجودي، والزيبر، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وزاد بعضهم سادساً، وهو أبو عبيدة بن الجراح وكان كل من أبي بكر وعثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بزازا، وكان الزيبر جزارا، وكان سعد بن أبي وقاص يصنع النبل، والله أعلم، ثم دخل الناس في الإسلام أرسالاً من الرجال والنساء. وذكر في الأصل جماعة من السابقين للإسلام منهم عبد الله بن مسعود وأن سبب إسلامه ما حدث به، قال: «كنت في غم لآل عقبة بن أبي معيط، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر بن أبي قحافة، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هل عندك لبن؟ فقلت نعم ولكنني مؤتمن، قال: هل عندك من شاة لم ينز عليها الفحل؟ قلت نعم فأتيته بشاة شصوص لا ضرع لها فمسح النبي صلى الله عليه وسلم مكان الضرع فإذا ضرع حافل مملوء لبناً» كذا في الأصل. وفي الصحاح كما في النهاية الشصوص التي ذهب لبنها، وحينئذ يكون قول الأصل لا ضرع لها، أي لا لبن لها، ويدل لذلك قول ابن حجر الهيثمي في شرح الأربعين «فمسح ضرعها» وقول ابن مسعود فمسح مكان الضرع، أي محل اللبن «فأتيته النبي صلى الله عليه وسلم بصخرة منقورة فاحتلب النبي صلى الله عليه وسلم فسقى أبا بكر وسقاني، ثم شرب، ثم قال للضرع: اقلص فرجع كما كان» أي لا وجود له على ظاهر ما في الأصل، أو لا لبن فيه على ما في النهاية كالصباح، وإلى ذلك أشار الإمام السبكي في تأييده بقوله:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

ورب عناق ما نزا الفحل فوقها
مسحت عليها باليمين فدّرت

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

قال ابن مسعود: فلما رأيت هذا من رسول الله ، قلت: يا رسول الله علمني، فمسح رأسي وقال: «بارك الله فيك فإنك غلام معلم».

أقول: فإن قيل قول ابن مسعود ولكني مؤتمن، وعدوله عن ذات اللبب إلى غيرها يخالف ما سيأتي في حديث المعراج والهجرة أن العادة كانت جارية بإباحة مثل ذلك اللبب لابن السبيل إذا احتاج إلى ذلك، فكان كل راع مأذوناً له في ذلك وإذا كان ذلك أمراً متعارفاً مشهوراً يبعد خفاؤه. قلنا: قد يقال لا مخالفة لأن ابن السبيل المسافر، وجاز أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله تعالى عنه لم يكونا مسافرين، لجواز أن تكون تلك الغنم التي كان فيها ابن مسعود ببعض نواحي مكة القريبة منها، التي لا يعدّ قاصدها مسافراً، ولعله لا ينافي ذلك ما سيأتي أن من خصائصه أبيع له أخذ الطعام والشراب من مالهما المحتاج إليهما إذا احتاج إليهما، وأنه يجب على مالهما بذل ذلك له.

وكان عبد الله بن مسعود يعرف بأمه وهي أم عبد، وكان قصيراً جداً طوله نحو ذراع خفيف اللحم، ولما ضحكت الصحابة رضي الله تعالى عنهم من دقة رجله قال رسول الله: «لرجل عبد الله في الميزان أثقل من أحد» وقال في حقه: «رضيت لأمتي ما رضي لها ابن أم عبد، وسخطت لها ما سخط لها ابن أم عبد».

وقوله: «لرجل عبد الله في الميزان» يدل للقول بأن الموزون الإنسان نفسه لا عمله، وكان يكرمه ويدنيه ولا يحجبه، فلذلك كان كثير الولوج عليه ، وكان يمشي أمامه ومعه، ويستتره إذا اغتسل، ويوقظه إذا نام، ويلبسه نعليه إذا قام، فإذا جلس أدخلهما في ذراعيه، ولذلك كان مشهوراً بين الصحابة رضي الله تعالى عنهم بأنه صاحب سر رسول الله ، وبشره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجنة، ولم أقف على أنه أسلم حين أجفلت الشاة، لكن قول العلامة ابن حجر الهيتمي في شرح الأربعين: أسلم قديماً بمكة لما مرّ به وهو يرعى غنماً إلى آخره، يدل على أنه أسلم حينئذ. ومما يؤثر عنه: الدنيا كلها هموم، فما كان فيها من سرور فهو ربح، والله أعلم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

وذكر في الأصل أن من السابقين أبا ذر الغفاري، واسمه جندب بن جنادة بضم الجيم فيهما قال: وسبب إسلامه ما حدث به قال: صليت قبل أن ألقى النبي صلى الله عليه وسلم ثلاث سنين لله أتوجه حيث يوجهني ربي، فبلغنا أن رجلاً خرج بمكة يزعم أنه نبي فقلت لأخي أنيس انطلق إلى هذا الرجل فكلمه وأتني بخبره، فلما جاء أنيس قلت له: ما عندك فقال: والله رأيت رجلاً يأمر بخير وينهي عن الشر، وفي رواية: رأيتك على دينه يزعم أن الله أرسله ورأيتته يأمر بمكارم الأخلاق، قلت فما يقول الناس فيه؟ قال: يقولون شاعر كاهن ساحر، والله إنه لصادق وإنهم ليكذوبون، فقلت اكفني حتى أذهب فأنظر، قال نعم وكن على حذر من أهل مكة، فحملت جراباً وعصاً ثم أقبلت حتى أتيت مكة، فجعلت لا أعرفه وأكره أن أسأل عنه، فمكثت في المسجد ثلاثين ليلة ويوماً، وما كان

لي طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطني، وما وجدت على بطني سحنة جوع. والسحنة: بالتحريك، قيل حرارة يجدها الإنسان من الجوع، ففي ليلة لم يطف بالبيت أحد وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وصاحبه جاءا فطافا بالبيت، ثم صلى رسول الله، فلما قضى صلاته أتته، فقلت: السلام عليك يا رسول الله، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فرأيت الاستبشار في وجهه ثم قال من الرجل؟ قلت من غفار بكسر المعجمة قال: متى كنت؟ قال: كنت من ثلاثين ليلة ويوماً ههنا، قال: فمن كان يطعمك قلت ما كان لي طعام إلا ماء زمزم فسمنت حتى تكسرت عكن بطني، وما أجد على بطني سحنة جوع قال: «مبارك، إنها طعام طعم وشفاء سقم» أي وجاء «ماء زمزم لما شرب له، إن شربته لتشفى شفاك الله، وإن شربته لتشبع أشبعك الله، وإن شربته لتقطع ظمأك قطعه الله، وهي هزيمة جبريل، وسقيا الله إسماعيل» وجاء «التضلع من ماء زمزم براءة من النفاق» وجاء «آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من ماء زمزم».

وذكر أن أبا ذر أول من قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم السلام عليك التي هي تحية الإسلام، فهو أول من حيا رسول الله صلى الله عليه وسلم بتحية الإسلام، وبايع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يأخذه في الله لومة لائم، وعلى أن يقول الحق ولو كان مرأياً، ومن ثم قال رسول الله: «ما أظلت الخضراء» أي السماء «ولا أقلت الغبراء» أي الأرض «أصدق من أبي ذر» وقال في حقه: «أبو ذر يمشي في الأرض على زهد عيسى ابن مريم» وفي الحديث «أبو ذر أزهد أمتي وأصدقها» وقد هاجر أبو ذر إلى الشام بعد وفاة أبي بكر، واستمر بها إلى أن ولي عثمان، فاستقدمه من الشام لشكوى معاوية منه وأسكنه الريدة، فكان بها حتى مات، فإن أبا ذر صار يغلظ القول لمعاوية ويكلمه بالكلام الخشن.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «أن لقياً أبي ذر لرسول الله صلى الله عليه وسلم كان بدلالة علي رضي الله تعالى عنه، وأنه قال له: ما أقدمك هذه البلدة، فقال له أبو ذر: إن كتمت علي أخبرتك» وفي رواية «إن أعطيتني عهداً وميثاقاً أن ترشدني أخبرتك، ففعل قال أبو ذر: فأخبرته فأرشدني وأوصلني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأسلمت».

وفي الإمتاع «أن علياً استضاف أبا ذر ثلاثة أيام لا يسأله عن شيء وهو لا يخبره، ثم في الثالث قال له: ما أمرك وما أقدمك هذه البلدة؟ قال له: إن كتمت علي أخبرتك قال: فإني أفعل، قال له: بلغنا أنه خرج هنا رجل يزعم أنه نبي، فأرسلت أخي ليكلمه فرجع ولم يشفني من الخبر، فأردت أن ألقاه فقال له: أما إنك قد رشدت، هذا وجهي أي خروجي إليه فاتبعني، أدخل حيث أدخل فإن رأيت أحداً أخافه عليك فمت إلى الحائط كاني أصلح نعلي «وفي لفظ» كاني أريق الماء فامض أنت، قال أبو ذر: فمضى ومضيت حتى دخل ودخلت معه على النبي صلى الله عليه وسلم فقلت له: أعرض علي الإسلام فعرضه علي فأسلمت مكاني» الحديث.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وما تقدم من قوله له: «من كان يطعمك» وجواب أبي ذر له بقوله: ما كان لي طعام إلا ماء زمزم يبعد أن يكون عليّ رضي الله تعالى عنه أضاف أبا ذر ولم يأكل عنده، وكذا يبعده ما جاء أن أبا بكر قال: يا رسول الله ائذن لي في إطعامه الليلة، قال أبو ذر: فانطلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر، فانطلقت معهما، ففتح أبو بكر باباً، فجعل يفيض لنا من زيب الطائف، فكان ذلك أول طعام أكلته، إلا أن يحمل الطعام على خصوص الزبيب. ويمكن التوفيق بين الروایتين: أي رواية دخوله على النبي صلى الله عليه وسلم مع عليّ فأسلم، ورواية اجتماعه به في الطواف فأسلم، بأن يكون أبو ذر دخل عليه أولاً مع عليّ ثم لقيه في الطواف، ويكون المراد حينئذ بإسلامه الثاني الثبات عليه بتكرير الشهادتين، وعذره في عدم اجتماعه به في المسجد مدة ثلاثين يوماً عدم خلو المطاف، كما يرشد لذلك قوله: ففي ليلة لم يطف بالبيت أحد إلى آخره، وإلا فيبعد أن يكون لم يدخل المسجد للطواف مدة ثلاثين يوماً.

ويعد هذا الجمع قوله له: «من الرجل إلى آخره» ثم قال: لأبي ذر «يا أبا ذر اكنم هذا الأمر، وارجع إلى قومك فأخبرهم يأتوني، فإذا بلغك ظهورنا فأقبل، فقلت: والذي يعثك بالحق لأصرخنّ بهذا بين ظهرائهم، قال: وكنت في أول الإسلام خامساً» وفي رواية «رابعاً» ولعل المراد من الإعراب فلا ينافي ما يأتي في وصف خالد بن سعيد «فلما اجتمعت قريش بالمسجد ناديت بأعلى صوتي: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله، فقالوا قوموا إلى هذا الصابيء فضربت لأموت» وفي لفظ «فمال عليّ أهل الوادي بكل مدرة وعظم حتى خررت مغشياً علي فأكب عليّ العباس، ثم قال لهم: ويلكم أستم تعلمون أنه من غفار، وأن طريق تجارتكم عليهم، فخلوا عني، قال: فجئت زمزم فغسلت عني الدماء، فلما أصبحت الغداة رجعت لمثل ذلك، فصنع بي مثل ما صنع، وأدركني العباس، وكان منه كالأمس، فخرجت وأتيت أنيساً فقال ما صنعت؟ فقلت: قد أسلمت وصدقت، فقال: ما لي رغبة عن دينك فإني قد أسلمت وصدقت فأتينا أمتنا، فقالت: ما لي رغبة عن دينكما، فإني أسلمت وصدقت ثم أتينا قومنا غفاراً فأسلم نصفهم، وقال نصفهم: إذا قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة أسلمنا، فلما جاء المدينة أسلم نصفهم الثاني» أي لأنه قال لأبي ذر: «إني وجهت إلى الأرض ذات نخل لا أراها إلا يثرب، فهل أنت مبلغ قومك عسى الله أن ينفعهم بك ويأجرك فيهم، وجاءت أسلم: القبيلة المعروفة فقالوا يا رسول الله نسلم على الذي أسلم عليه إخواننا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: غفار غفر الله لها، وأسلم سالمها الله.»
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

أي وقد ذكر أن أبا ذر وقف يوماً عند الكعبة: أي في حجة حجها أو عمرة اعتمرها فاكتنفه الناس فقال لهم: لو أن أحدكم أراد سفراً أليس يعد زاداً؟ فقالوا بلى، فقال سفر القيامة أبعث مما تريدون، فخذوا ما يصلحكم، قالوا: وما يصلحنا؟ قال: حجوا حجة لعظائم الأمور، وصوموا يوماً شديداً حره ليوم

الشنور، وصلوا في ظلمة الليل لوحشة القبور. وممن أسلم خالد بن سعيد بن العاص رضي الله تعالى عنه. قيل كان حين أسلم رابعاً وقيل ثالثاً وقيل خامساً. وهو أول من أسلم من إخوته. ويمكن أن يكون ذلك محمّل قول ابنته أم خالد: أول من أسلم أبي: أي من إخوته. وسبب إسلامه أنه رأى في النوم النار ورأى من فظاعتها وأهوالها أمراً مهولاً، ورأى أنه عليّ شفيها، وأن أباه يريد أن يلقيه فيها، ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذاً بحجزته يمنعه من الوقوع فيها، فقام من نومه فزعاً وقال: أحلف بالله أن هذه الرؤيا حق وعلم أن نجاته من النار تكون على يد رسول الله، فأتى أبا بكر فذكر له ذلك، فقال له: أريد بك خير، هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتبعه، فاتاه فقال يا محمد إلام تدعو؟ قال: أدعو إلى الله وحده، لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وتخلع ما أنت عليه من عبادة حجر لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع، فأسلم خالد.

وفي الوفاء عن أم خالد بنت خالد بن سعيد أنها قالت: كان خالد بن سعيد ذات ليلة نائماً، قبيل مبعث رسول الله، فقال: رأيت كأنه غشيت مكة ظلمة حتى لا يبصر امرؤ كفه، فبينما هو كذلك إذ خرج نور أي من زمزم، ثم علا في السماء فأضاء في البيت، ثم أصاب مكة كلها، ثم تحول إلى يثرب فأصابها حتى أتى لأنظر إلى البسر في النخل، فاستيقظت فقصصتها على أخي عمرو بن سعيد وكان جزل الرأي، فقال: يا أخي إن هذا الأمر يكون في بني عبد المطلب ألا ترى أنه خرج من حفر أبيهم ثم إنه ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم أي بعد مبعثه، فقال: يا خالد أنا والله ذلك النور، وأنا رسول الله، وقص عليه ما بعثه الله به فأسلم خالد، وعلم أبوه بذلك، أبوه وهو سعيد أبو أجيحة وكان من عظماء قريش، كان إذا اعتم لم يعتم قرشي إعتاماً له، ومن ثم قال فيه القائل:

أبا أجيحة من يغتم عتمته

يضرب وإن كان ذا مال وذا عدد

وعند إسلام ولده خالد أرسل في طلبه فانتهره وضربه: أي بمقرعة كانت في يده حتى كسرهما على رأسه، ثم قال: اتبعت محمداً وأنت ترى خلافه لقومه، وما جاء به من عيب ألتهتم وعيب من مضى من آبائهم، فقال: والله تبعته على ما جاء به، فغضب أبوه وقال: اذهب يا لكع حيث شئت، وقال: والله لأمنعك القوت، قال إن منعتني فإن الله يرزقني ما أعيش به، فأخرجه وقال لبنيه ولم يكونوا أسلموا: لا يكلمه أحد منكم إلا صنعت به، فانصرف خالد إلى رسول الله، فكان يلزمه ويعيش معه، ويغيب عن أبيه في نواحي مكة، حتى خرج أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أرض الحبشة في الهجرة الثانية، فكان خالد أول من هاجر إليها.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

وذكر عن والده سعيد أنه مرض فقال إن رفعني الله من مرضي هذا لا يعبد إله ابن أبي كبشة بمكة أبداً، فقال خالد عند ذلك: اللهم لا ترفعه، فتوفي في

مرضه ذلك. وخالد هذا أول من كتب بسم الله الرحمن الرحيم، وأسلم أخوه عمرو بن سعيد بن العاص رضي الله تعالى عنه.

قيل وسبب إسلامه أنه رأى نوراً خرج من زمزم أضاءت له منه نخل المدينة حتى رأى البسر فيها، فقص رؤياه، فقيل له هذه يثر بني عبد المطلب، وهذا النور منهم يكون فكان سبباً لإسلامه، وتقدم قريباً أن هذه الرؤيا وقعت لخالد، فكانت سبب إسلامه، وأنه قصها على أخيه عمرو المذكور، فهو من خلط بعض الرواة، إلا أن يقال لا مانع من تعدد هذه الرؤية لخالد ولأخيه عمرو، وأنها كانت سبباً لإسلامهما، وأسلم من بني سعيد أيضاً أبان والحكم الذي سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله.

أي ومن السابقين للإسلام صهيب، كان أبوه عاملاً لكسرى، أغارت الروم عليهم فسبت صهيباً وهو غلام صغير، فنشأ في الروم حتى كبر، ثم ابتاعه جماعة من العرب وجاؤوا به إلى سوق عكاظ، فابتاعه منهم بعض أهل مكة، أي وهو عبد الله بن جدعان فلما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم مرّ صهيب على دار رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى عمار بن ياسر، فقال له عمار بن ياسر: أين تريد يا صهيب؟ قال: أريد أن أدخل إلى محمد فأسمع كلامه وما يدعو إليه، قال عمار: وأنا أريد ذلك، فدخل على رسول الله، فأمرهما بالجلوس فجلسا، وعرض عليهما السلام، وتلا عليهما ما حفظ من القرآن، فتشهدا ثم مكثا عنده يومهما ذلك حتى أمسيا خرجا مستخفيين، فدخل عمار على أمه وأبيه فسألاه أين كان؟ فأخبرهما بإسلامه وعرض عليهما الإسلام وقرأ عليهما ما حفظ من القرآن في يومه ذلك، فأعجبهما فأسلما على يده فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسميه الطيب المطيب.

وأسلم أيضاً حصين والد عمران بن حصين رضي الله تعالى عنهما بعد إسلام والده عمران.

وسبب إسلامه أن قريشاً جاءت إليه وكانت تعظمه وتجله، فقالوا له: كلم لنا هذا الرجل، فإنه يذكر ألهتنا ويسبها، فجاؤوا معه حتى جلسوا قريباً من باب النبي صلى الله عليه وسلم ودخل حصين، فلما رآه النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أوسعوا للشيوخ، وعمران ولده في الصحابة، فقال حصين: ما هذا الذي بلغنا عنك أنك تشتم ألهتنا وتذكرها؟ فقال: يا حصين كم تعبد من إله؟ قال: سبعة في الأرض وواحد في السماء، فقال: فإذا أصابك الضر لمن تدعو؟ قال: الذي في السماء، قال: فإذا هلك المال من تدعو؟ قال الذي في السماء، قال: فيستجيب لك وحده وتشرك معه، أرضيته في الشرك؟ يا حصين أسلم تسلم فأسلم، فقام إليه ولده عمران فقبل رأسه ويديه ورجليه، فبكى وقال: بكيت من صنع عمران، دخل حصين وهو كافر فلم يقم إليه عمران ولم يلتفت ناحيته، فلما أسلم وفي حقه فدخلني من ذلك الرقة، فلما أراد حصين الخروج قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: شيعوه إلى منزله، فلما خرج من سدة الباب: أي عتبته رآته قريش، قالوا: قد صبا وتفرقوا عنه».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 431

باب: استخفائه وأصحابه في دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله تعالى عنهما ودعائه إلى الإسلام جهرة وكلام قريش لأبي طالب في أن يخلي بينهم وبينه، وما لقي هو وأصحابه من الأذى لإسلام عمه حمزة رضي الله تعالى عنه

عن ابن اسحاق أن مدة ما أخفى أمره: أي المدة التي صار يدعو الناس فيها خفية بعد نزول {يا أيها المدثر} ثلاث سنين: أي فكان من أسلم إذا أراد الصلاة يذهب إلي بعض الشعاب يستخفي بصلاته من المشركين: أي كما تقدم، فبينما سعد بن أبي وقاص في نفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في شعب من شعاب مكة، إذ ظهر عليه نفر من المشركين وهم يصلون، فناكروهم وعابوا عليهم ما يصنعون حتى قاتلوهم، فضرب سعد بن أبي وقاص رجلاً منهم بلحى بغير فشجه، فهو أول دم أهرى في الإسلام، ثم دخل وأصحابه مستخفين في دار الأرقم: أي بعد هذه الواقعة، فإن جماعة أسلموا قبل دخوله دار الأرقم، ودار الأرقم هي المعروفة الآن بدار الخيزران عند الصفا، اشتراها الخليفة المنصور وأعطاه ولده المهدي، ثم أعطاه المهدي للخيزران أم ولديه موسى الهادي وهارون الرشيد، ولا يعرف امرأة ولدت خليفتين إلا هذه، وولادة جارية عبد الملك بن مروان، فإنها (أم الوليد وسليمان).

وقد روت الخيزران عن زوجها المهدي عن أبيه عن جده عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله «من اتقى الله وقاه كل شيء». فكان وأصحابه يقيمون الصلاة بدار الأرقم، ويعبدون الله تعالى فيها إلى أن أمره الله تعالى بإظهار الدين:

أي وهذا السياق يدل على أنه استمر مستخفياً هو وأصحابه في دار الأرقم إلى أن أظهر الدعوة، وأعلن في السنة الرابعة: أي وقيل مدة استخفائه أربع سنين وأعلن في الخامسة. وقيل أقاموا في تلك الدار شهراً وهم تسعة وثلاثون. وقد يقال الإقامة شهراً مخصوصة بالعدد المذكور، فلا منافاة، وإعلانه كان في الرابعة أو الخامسة بقوله تعالى: {فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين} وبقوله تعالى: {وأندر عشيرتك الأقربين} واخضع جناحك لمن اتبعك من المؤمنين} أي أظهر ما تؤمر به من الشرائع، وادع إلى الله تعالى، ولا تبال بالمشركين، وخوف بالعقوبة عشيرتك الأقربين وهم بنو هاشم وبنو المطلب: أي وبنو عبد شمس وبنو نوفل أولاد عبد المطلب بدليل ما يأتي. قال بعضهم: آية {فاصدع بما تؤمر} اشتملت على شرائط الرسالة وشرائعها وأحكامها وحلالها وحرامها.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

وقال بعضهم: إنما أمر بالصدع لغلبة الرحمة عليه. قال: ذكر بعضهم أنه لما نزل عليه قوله تعالى: {وأندر عشيرتك الأقربين} اشتد ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وضاق به ذرعاً: أي عجز عن احتماله () فمكث شهراً أو نحوه جالساً في بيته حتى ظن عماته أنه شاك: أي مريض، فدخلن عليه عائدات، فقال: «ما اشتكيت شيئاً لكن الله أمرني بقوله: {وأندر عشيرتك الأقربين} فأريد أن أجمع بني عبد المطلب لأدعوهم إلى الله تعالى، قلن: فادعهم ولا تجعل عبد العزى فيهم، يعنين عمه أبا لهب، فإنه غير مجيبك إلى ما تدعوه إليه، وخرجن من عنده: أي وكنتي عبد العزى بأبي لهب لجمال وجهه ونضارة لونه كان وجهه وجبينه ووجنتيه لهب النار: أي خلافاً لما زعمه بعضهم أن ولده عقير الأسد أو ولد آخر غيره كان اسمه لهباً.

قال في الإتيان: ليس في القرآن من الكنى غير أبي لهب ولم يذكر اسمه وهو عبد العزى أي الصنم، لأنه حرام شرعاً، هذا كلامه وفيه أن الحرام وضع ذلك لا استعماله.

وفي كلام بعضهم ما يفيد أن الاستعمال حرام أيضاً إلا أن يشتهر بذلك كما في الأوصاف المنقصة كالأعمش.

وفي كلام القاضي: وإنما كناه والكنية تكرمة أي بالعدول عن الاسم إليها لاشتهاره بكنيته، ولأن اسمه عبد العزى الذي هو الصنم فاستكره ذكره، ولأنه لما كان من أصحاب النار كانت الكنية أوفق بحاله في الآخرة، فهي كنية تفيد الذم.

فاندفع ما يقال هذا يخالف قولهم ولا يكنى كافر وفاسق ومبتدع إلا لخوف فتنة أو تعريف، لأن ذلك خاص بالكنية التي تفيد المدح لا الذم ولم يشتهر بها صاحبها.

قال: فلما أصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلى بني عبد المطلب فحضرُوا وكان فيهم أبو لهب، فلما أخبرهم بما أنزل الله عليه أسمعهم ما يكره، قال: تبا لك، ألهذا جمعنا: أي وأخذ حجراً ليرميه به، وقال له: ما رأيت أحداً قط جاء بني أبيه وقومه بأشراً ما جئتهم به، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يتكلم في ذلك المجلس انتهى.

أي وفي الإمتاع: أن أبا لهب ظن أنه يريد أن ينزع عما يكرهون إلي ما يحبون، فقال له هؤلاء عمومتك وبنو عمومتك، فتكلم بما تريد وأترك الصباة، وأعلم أنه ليس لقومك بالعرب طاقة، وإن أحق من أخذك وحبسك أسرتك وبنو أبيك إن أقمت على أمرك، فهو أيسر عليك من أن تتب عليك بطون قريش وتمدها العرب، فما رأيت يا بن أخي أحداً قط جاء بني أبيه وقومه بشراً ما جئتهم به، وعند ذلك أنزل الله تعالى {تبت} أي خسرت وهلكت {يدا أبي لهب وتب} أي خسر وهلك بجملته: أي والمراد بالأول جملته، عبر عنها باليدين مجازاً، والمراد به الدعاء، وبالثاني الخبر على حد قولهم: أهلكه الله وقد هلك.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

أي ولما قال أبو لهب عند نزول {تبت يدا أبي لهب وتب} إن كان ما يقوله محمد حقاً افتديت منه بمالي وولدي نزل {ما أغنى عنه ماله وما كسب} أي وأولاده، لأن الولد من كسب أبيه: أي وفي رواية وهي في الصحيحين «أنه دعا قريشاً فاجتمعوا، فخص وعم فقال: يا بني كعب بن لؤي أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني مرة بن كعب أنقذوا أنفسكم من النار: أي وفيه أنه إنما أمر بالإنذار لعشيرته الأقربين، ثم قال: يا بني هاشم أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد شمس أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد مناف أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني زهرة أنقذوا أنفسكم من النار، يا بني عبد المطلب أنقذوا أنفسكم من النار، يا فاطمة أنقذي نفسك من النار، يا صفية عمة محمد أنقذي نفسك من النار فإنني لا أملك لكم من الله شيئاً» وفي لفظ «لا أملك لكم من الدنيا منفعة، ولا من الآخرة نصيباً، إلا أن تقولوا لا إله إلا الله: أي لا تبقوا على كفركم

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

اتكالا على قرابتكم مني» فهو حث لهم على صالح الأعمال، وترك الاتكال «غير أن لكم رحماً سألها ببلاها» أي أصلها بالدعاء: أي والليل بالفتح كقطام ما يبيل الحلق من الماء أو اللبن، وبيل رحمه إذا وصلها، وبلوا أرحامكم: ندوها بالصلة، وفي الحديث «بلوا أرحامكم ولو بالسلام» أي صلوها: أي وقد ذكر أئمتنا ضابط الصلة.

وفي تخصيصه فاطمة من بين بناته مع أنها أصغرهن، وقيل أصغر بناته رقية. وتخصيصه صفية من بين عماته حكمة لا تخفى. ومن الغريب ما في الكشف من زيادة «يا عائشة بنت أبي بكر، يا حفصة بنت عمر». وعندني أن ذكر عائشة وحفصة بل وفاطمة هنا من خلط بعض الرواة، وأن هذا ذكره بعد ذلك فذكره بعض الرواة هنا، فإن المراد بالإنقاذ من النار الإتيان بالإسلام، بدليل قوله: «إلى أن تقولوا لا إله إلا الله» مع أنه تقدم أن بناته عليه الصلاة والسلام لم يكن كفاراً فليتأمل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

ثم مكث أياماً ونزل عليه جبريل وأمره بإمضاء أمر الله تعالى، فجمعهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثانياً وخطبهم ثم قال لهم: «إن الرائد لا يكذب أهله، والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم، ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم، والله الذي لا إله إلا هو إني لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة، والله لتموتن كما تنامون، ولتبعثن كما تستيقظون، ولتحاسبن بما تعملون، ولتجزون بالإحسان إحساناً وبالسوء سوءاً وإنها لجنة أبدأ، أو لنار أبدأ، والله يا بني عبد المطلب ما أعلم شاباً جاء قومَه بأفضل مما جئتكم به؟ إني قد جئتكم بأمر الدنيا والآخرة» فتكلم القوم كلاماً لينا غير أبي لهب، فإنه قال: يا بني عبد المطلب هذه والله السوأة، خذوا على يديه قبل أن يأخذ على يديه غيركم، فإن أسلمتموه حينئذ ذلتم، وإن منعتموه قتلتم، فقالت له أخته صفية عمه رسول الله صلى الله عليه وسلم رضي الله تعالى عنها: أي أخي أيحسب بك خذلان ابن أخيك، فوالله ما زال العلماء يخبرون أنه يخرج من ضئضيء - أي أصل - عبد المطلب نبي فهو هو، قال: هذا والله الباطل والأمانى، وكلام النساء في الحجال، إذا قامت بطون قريش وقامت معها العرب فما قوتنا بهم، فوالله ما نحن عندهم إلا أكلة رأس، فقال أبو طالب: والله لنمنعنه ما بقينا ثم دعا النبي صلى الله عليه وسلم جميع قريش وهو قائم على الصفا، وقال: «إن أخبرتكم أن خيلاً تخرج من سنح - بالنون والحاء المهملة - أي أصل، وفي لفظ: سفح بالفاء والحاء المهملة - هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم تكذبوني؟ قالوا: ما جربنا عليك كذباً، فقال: يا معشر قريش أنقذوا أنفسكم من النار فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً، إني لكم نذير مبين بين يدي عذاب شديد»، أي وفي لفظ «إنما مثلي ومثلكم كمثل رجل رأى العدو فانطلق يريد أهله فخشى أن يسبقوه إلى أهله، فجعل يهتف يا صباحاه يا صباحاه أتيتم أتيتم».

ومن أمثاله «أنا النذير العريان» أي الذي ظهر صدقه، من قولهم: عري الأمر، إذا ظهر، وقولهم: الحق عار: أي ظاهر، وقيل الذي جرده العدو فأقبل عريانا

ينذر بالعدو، وعن عبد الله بن عمر رضي الله تعالى عنهما أنه حفظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456
واختلفت الروايات في محل وقوفه. ففي رواية «وقف على الصفا» كما تقدم، وفي رواية «وقف على أضمة من جبل فعلا أعلاها حجراً يهتف: يا صباحاه، فقالوا: من هذا الذي يهتف؟ قالوا محمد فاجتمعوا إليه، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً» الحديث وفي رواية «صاح على أبي قبيس: يا آل عبد مناف إني نذير» وروي أنه لما نزل قوله تعالى: {وأندر عشيرتك الأقربين} جمع بني عبد المطلب في دار أبي طالب وهم أربعون» وفي الإمتاع خمسة وأربعون رجلاً وامرأتان، فصنع لهم عليّ طعاماً: أي رجل شاة مع مدّ من البر وصاعاً من لبن، فقدّمت لهم الجفنة، وقال كلوا بسم الله، فأكلوا حتى شبعوا، وشربوا حتى نهلوا. وفي رواية «حتى رووا» وفي رواية «قال ادنوا عشرة عشرة فدنا القوم عشرة عشرة، ثم تناول القعب الذي فيه اللبن فجرع منه ثم ناولهم، وكان الرجل منهم يأكل الجذعة» وفي رواية «يشرب العس من الشراب في مقعد واحد» فقهرهم ذلك، فلما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم يتكلم بده أو لهب بالكلام، فقال: لقد سحركم صاحبكم سحراً عظيماً. وفي رواية: محمد، وفي رواية: ما رأينا كالسحر اليوم، فتفرقوا ولم يتكلم رسول الله، فلما كان الغد قال: «يا عليّ عد لنا بمثل ما صنعت بالأمس من الطعام والشراب، قال عليّ: ففعلت، ثم جمعتهم له فأكلوا حتى شبعوا وشربوا حتى نهلوا، ثم قال لهم: يا بني عبد المطلب إن الله قد بعثني إلى الخلق كافة، وبعثني إليكم خاصة، فقال: {وأندر عشيرتك الأقربين} وأنا أدعوكم إلى كلمتين خفيفتين على اللسان ثقيلتين في الميزان، شهادة أن لا إله إلا

الله وأني رسول الله، فمن يجيبني إلى هذا الأمر ويوازرني - أي يعاونني - على القيام به؟ قال عليّ: أنا يا رسول الله، وأنا أحدثكم سناً وسكت القوم» زاد بعضهم في الرواية «يكن أخي ووزيراً وورثي وخليفتي من بعدي، فلم يجبه أحد منهم، فقام عليّ وقال أنا يا رسول الله، قال اجلس، ثم أعاد القول على القوم ثانياً فصمتوا، فقام عليّ وقال أنا يا رسول الله، فقال: اجلس، ثم أعاد القول على القوم ثالثاً فلم يجبه أحد منهم، فقام عليّ فقال: أنا يا رسول الله، فقال اجلس فأنت أخي ووزير ووصيي ووارثي وخليفتي من بعدي».
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

قال الإمام أبو العباس بن تيمية أي في الزيادة المذكورة أنها كذب وحديث موضوع من له أدنى معرفة في الحديث يعلم ذلك، وقد رواه: أي الحديث مع زيادته المذكورة ابن جرير والبعوي بإسناد فيه أبو مريم الكوفي وهو مجمع على تركه. وقال أحمد: إنه ليس بثقة، عامة أحاديثه بواطيل وقال ابن المديني: كان يضع الحديث، وفي رواية عن عليّ رضي الله تعالى عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر خديجة فصنعت له طعاماً، ثم قال لي ادع لي بني

عبد المطلب، فدعوت أربعين رجلاً» الحديث، ولا مانع من تكرار فعل ذلك ويجوز أن يكون عليّ فعل ذلك عند خديجة وجاء به إلى بيت أبي طالب، ولعل جمعهم هذا كان متأخراً عن جمعهم مع غيرهم المتقدم ذكره ويشهد له السياق، فعل ذلك حرصاً على إسلام أهل بيته، فلما دعا قومه ولم يردوا عليه ولم يجيبوه: أي وفي رواية: صار كفار قريش غير منكرين لما يقول فكان إذ مرّ عليهم في مجالسهم يشيرون إليه إن غلام بني عبد المطلب ليكلم من السماء، وكان ذلك دأبهم حتى غاب الهتهم: أي وسفه عقولهم وضلل آباءهم: أي حتى أنه مر يوماً وهم في المسجد الحرام يسجدون للأصنام، فقال: «يا معشر قريش والله لقد خالفتم ملة أبيكم إبراهيم، فقالوا إنما نعبد الأصنام حباً لله لتقربنا إلى الله فأنزل الله تعالى {قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله} فتناكروه وأجمعوا خلافه وعداوته إلا من عصم الله منهم، وجاءوا إلى أبي طالب وقالوا: يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سبّ ألهتنا وعاب ديننا وسفه أحلامنا وعقولنا، ينسبنا إلى قلة العقل، وضلل آباءنا فيما أن تكفه عنا، وإما أن تخلي بيننا وبينه فإنك على مثل ما نحن عليه من خلافه، فقال لهم أبو طالب قولاً رقيقاً وردهم رداً جميلاً، فانصرفوا عنه، ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يظهر دين الله ويدعو إليه لا يردده عن ذلك شيء، وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله:

ثم قام النبي يدعو إلى الله
وفي الكفر شدة وإباء

أما أشربت قلوبهم الكف

ر فداء الضلال فيهم عياء

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

أي ثم قام يدعو جماعاتهم إلى الله تعالى بأن يقولوا لا إله إلا الله حسبما أمر، فقد جاء أن جبريل تبدي له في أحسن صورة وأطيب رائحة وقال: يا محمد إن الله يقرئك السلام، ويقول لك: أنت رسول الله إلى الجن والإنس، فادعهم إلى قول لا إله إلا الله فدعاهم والحال أن في أهل الكفر قوة تامة وامتناعاً عن اتباعه، اختلط الكفر بقلوبهم وتمكن فيها حبه حتى صارت لا تقبل غيره، وبسبب ذلك صار داء الضلال: أي داء هو الضلال فيهم عضال يعيي الأطباء مداواته وحصول شفاؤه، ثم شري الأمر - أي بالشين المعجمة وكسر الراء وفتح المثناة تحت - كثر وتزايد وانتشر بينهم وبينه حتى تباعد الرجال وتضاغنوا: أي أضمرُوا العداوة والحقد وأكثرت قريش ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم بينها وتذامروا عليه - بالذال المعجمة - وحض أي حث بعضهم بعضاً عليه أي على حربه وعداوته ومقاطعته، ثم إنهم مشوا إلى أبي طالب مرة أخرى فقالوا: يا أبا طالب إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا وإنا قد طلبنا منك أن تنهي ابن أخيك فلم تنهه عنا، وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا وتسفيه أحلامنا: أي عقولنا، وعيب ألهتنا حتى تكفه عنا، أو ننازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين، ثم انصرفوا عنه، فعظم علي بن أبي طالب فراق قومه وعداوتهم، ولم يطب نفساً بأن يخذل رسول الله، فقال له: يا بن أخي، إن قومك قد جاؤوني فقالوا لي كذا وكذا فأبق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق، فظن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن عمه خاذله وأنه

ضعف عن نصرته والقيام معه، فقال له: «يا عم والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله تعالى أو أهلك فيه ما تركته، ثم استعبر رسول الله صلى الله عليه وسلم: أي حصلت له العبرة التي هي دمع العين فبكى، ثم قام»

فلما ولى ناداه أبو طالب فقال: أقبيل يا ابن أخي، فأقبيل عليه، فقال اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك وأنشد أبياتاً منها:
والله لن يصلوا إليك بجمعهم
حتى أوسد في التراب دفينا وحكمة تخصيص الشمس والقمر بالذكر وجعل الشمس في اليمين والقمر في اليسار لا تخفى، لأن الشمس النير الأعظم واليمين أليق به، والقمر النير المححو واليسار أليق به وخص النيرين حيث ضرب المثل بهما لأن الذي جاء به نور، قال تعالى: {يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم وبأبي الله إلا أن يتم نوره}.
ومن غريب التعبير أن رجلاً كان عاملاً لسيدنا عمر رضي الله تعالى عنه فقال لسيدنا عمر: إني رأيت في المنام كأن الشمس والقمر يقتتلان ومع كل واحد منهما نجوم فقال له عمر: مع أيهما كنت؟ قال مع القمر، قال: كنت مع الآية المحوثة، اذهب فلا تعمل لي عملاً؟ فاتفق أن هذا الرجل كان مع معاوية يوم صفين وقتل ذلك اليوم.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

فلما عرفت قريش أن أبا طالب قد أبى خذلان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشوا إليه بعمارة بن الوليد بن المغيرة فقالوا له: يا أبا طالب هذا عمارة بن الوليد بن المغيرة أنهد - أي أشد - وأقوى فتى في قريش وأحملة، فخذ له ولداً: أي بأن تتبناه وأسلم إلينا ابن أخيك الذي خالف دينك ودين آبائك، وفرق جماعة قومك، وسفه أحلامهم فنقتله فإنما هو رجل كرجل، فقال لهم أبو طالب: والله لبئس ما تسومونني أن تعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني تقتلونه؟ هذا والله لا يكون أبداً: أي وقال رأيتم ناقة تحن إلى غير فصيلها () قال المطعم بن عدي: والله يا أبا طالب لقد أنصفك قومك، وجهدوا على التخلص مما تكره، فما أراك تريد أن تقبل منهم شيئاً، فقال له أبو طالب: والله ما أنصفوني، ولكن قد أجمعت: أي قصدت خذلاني ومظاهرة القوم: أي معاوتهم عليّ فاصنع ما بدا لك: أي وقد مات عمارة بن الوليد هذا على كفره بأرض الحبشة بعد أن سحر وتوحش وسار في البراري والقفار كما سيأتي. ومات المطعم بن عدي المذكور على كفره أيضاً فعند عدم قبول أبي طالب ما أرادوه اشتد الأمر.
ولما رأى أبو طالب من قريش ما رأى دعا بني هاشم، وبني المطلب إلى ما هو عليه من منع رسول الله صلى الله عليه وسلم والقيام دونه فأجابوه إلى ذلك، غير أبي لهب فكان من المجاهرين بالظلم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولكل من آمن به، وتوالى الأذى من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى من أسلم معه.

فما وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذية ما حدث به عمه العباس رضي الله تعالى عنه قال: كنت يوماً في المسجد فأقبل أبو جهل فقال: لله عليّ إن رأيت محمداً ساجداً أن أطأ عنقه، فخرجت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته بقول أبي جهل فخرج غضبان حتى دخل المسجد، فعجل أن يدخل من الباب فاقتحم من الحائط، وقرأ {اقرأ باسم ربك الذي خلق الإنسان من علق} حتى بلغ شأن أبي جهل {كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى} إلى أن بلغ آخر السورة سجد، فقال إنسان لأبي جهل يا أبا الحكم، هذا محمد قد سجد، فأقبل إليه ثم نكص راجعاً، فقيل له في ذلك، فقال أبو جهل: ألا ترون ما أرى، لقد سد أفق السماء عليّ. وفي رواية: رأيت بيني وبينه خندقاً من نار، وسيأتي أن قوله تعالى: {أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى} إلى آخر السورة نزل في أبي جهل.

ومن ذلك ما حدث به بعضهم قال: ذكر أن أبا جهل بن هشام قال يوماً لقريش: يا معشر قريش إن محمداً قد أتى إلى ما ترون من عيب دينكم وشتم آلهتكم وتسفيه أحلامكم وسب آبائكم إنني أعاهد الله لأجل له يعني النبي صلى الله عليه وسلم غداً بحجر لا أطيق حمله، فإذا سجد في صلاته رضخت به رأسه فأسلموني عند ذلك أو امنعوني، فليصنع بي بعد ذلك بنو عبد مناف ما بدا لهم، قالوا والله لا نسلمك لشيء أبداً، فامض لما تريد، فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً كما وصف ثم جلس لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره، وغداً رسول الله صلى الله عليه وسلم كما كان يغدو إلى الصلاة: أي وكانت قبلته إلى الشام إلى صخرة بيت المقدس، فكان يصلي بين الركن اليماني والحجر الأسود ويجعل الكعبة بينه وبين الشام على ما تقدم، وقريش جلوس في أنديتهم وهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل، فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم احتمل أبو جهل الحجر ثم أقبل نحوه، حتى إذا دنا منه رجع منهزماً منتقماً لونه: أي متغيراً بالصفرة مع الكدرة من الفزع وقد بيست يده على حجره حتى قذفه من يده: أي بعد أن عالجوا فكه من يده فلم يقدرُوا كما سيأتي، وقامت إليه رجال من قريش وقالوا: ما لك يا أبا الحكم؟ قال: قمت إليه لأفعل ما قلت لكم البارحة، فلما دنوت منه عرض لي فحل من الإبل والله ما رأيت مثله قط، همّ بي أن يأكلني، فلما ذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ذاك جبريل لودنا لأخذه» وإلى ذلك يشير صاحب الهمزية بقوله:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

وأبو جهل إذ رأى عنق الفحل

ل إليه كأنه العنقاء

أي وأبو جهل الذي هو أشد الأعداء على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقت أن همّ أن يلقي الحجر عليه وهو ساجد أبصر عنق الفحل وقد برزت إليه كأنه الداهية العظيمة: أي فرجع عن ذلك الرمي بذلك الحجر: أي وفي رواية أن أبا

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

جهل قال: أتت بيني وبينه كخندق من نار. ولا مانع أن يكون وجد الأمرين معاً. وذكر في سبب نزول قوله تعالى: {إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهي إلى الأذقان فهم مقمحون} أي إنا جعلنا أيديهم متصلة بأعناقهم واصله إلى أذقانهم ملصقة بها، رافعون رؤوسهم لا يستطيعون خفضها من أقمح البعير رفع رأسه {وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون} أن الآية الأولى نزلت في أبي جهل لما حمل الحجر ليرضخ به رأس رسول الله صلى الله عليه وسلم ورفع أثبتت يده إلى عنقه ولزق الحجر بيده فلما عاد إلى أصحابه أخبرهم فلم يفكوا الحجر من يده إلا بعد تعب شديد. والآية الثانية نزلت في آخر لما رأى ما وقع لأبي جهل قال أنا ألقى هذا الحجر عليه، فذهب إليه ، فلما قرب منه عمي بصره فجعل يسمع صوته ولا يراه، فرجع إليهم فأخبرهم بذلك.

وعن الحكم بن أبي العاص: أي وابنه مروان بن الحكم، أن ابنته قالت له: ما رأيت قوماً كانوا أسوأ رأياً وأعجز في أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم منكم يا بني أمية، فقال لها: لا تلومينا يا بنية إنني لا أحدثك إلا ما رأيت، لقد أجمعتنا ليلة على اغتياله ، فلما رأيناه يصلي ليلاً جئنا خلفه فسمعنا صوتاً ظننا أنه ما بقي بتهامه جبل إلا تفتت علينا: أي ظننا أنه يتفتت، وأنه يقع علينا، فما عقلنا حتى قضى صلاته ورجع إلى أهله، ثم تواعدنا ليلة أخرى، فلما جاء نهضنا إليه فرأينا الصفا والمروة التصقتا إحداها على الأخرى، فحالتا بينا وبينه، ويتأمل هذا لأن صلاته إنما تكون عند الكعبة وليست بين الصفا والمروة.

وفي رواية «كان يصلي فجاءه أبو جهل فقال: ألم أنهك عن هذا فأنزل الله تعالى: {أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى} إلى آخر السورة». وفي رواية «أنه لما انصرف من صلاته زاره أبو جهل أي انتهره وقال: إنك لتعلم ما بها ناد أكثر مني، فأنزل الله تعالى: {فليدع ناديه سندع الزبانية}» قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: لو دعا ناديه لأخذته زبانية الله: أي وقال يوماً: ولقد لقي النبي صلى الله عليه وسلم فقال للنبي : لقد علمت أني أمتع أهل البطحاء وأنا العزيز الكريم، فأنزل الله تعالى فيه {ذق إنك أنت العزيز الكريم} كذا قاله الواحدي: أي تقول له الزبانية عند إلقائه في النار ما ذكر توبيخاً له.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

ومن ذلك ما حدث به بعضهم قال: لما أنزل الله تعالى سورة {تبت يدا أبي لهب} جاءت امرأة أبي لهب وهي أم جميل واسمها العوراء، وقيل اسمها أروى بنت حرب أخت أبي سفيان بن حرب، ولها ولولة، وفي يدها فهر: أي بكسر الفاء وسكون الهاء حجر يملأ الكف، فيه طول يدق به في الهاون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر رضي الله تعالى عنه، فلما رآها قال: يا رسول الله إنها امرأة بذية: أي تأتي بالفحش من القول، فلو قمت لتؤذيك، فقال: «إنها لن تراني» فجاءت فقالت: يا أبا بكر صاحبك هجاني: أي وفي لفظ: ما شأن صاحبك ينشد في الشعر؟ قال لا وما يقول الشعر أي ينشئه. وفي لفظ: لا ورب هذا البيت ما هجاك، والله ما صاحبي بشاعر وما يدري ما الشعر: أي لا يحسن إنشاءه، قالت له: أنت عندي تصدق، وانصرفت: أي وهي تقول: قد علمت قريش أني بنت سيدها: أي تعني عبد مناف جد أبيها، ومن

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

كان عبد مناف أباه لا ينبغي لأحد أن يتجاسر علي ذمه، قلت: يا رسول الله لم ترك؟ قال: «لم يزل ملك يسترني بجناحه» أي فقد جاء في رواية أنه قال لأبي بكر: «قل لها: هل ترين عندي أحداً، فسألها أبو بكر، فقالت أتهدأ بي، والله ما أرى عندك أحداً».

أقول: وفي الإمتاع أنها جاءت وهو في المسجد معه أبو بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما وفي يدها فهر، فلما وقفت على النبي صلى الله عليه وسلم أخذ الله على بصرها فلم تره ورأت أبا بكر وعمر، فأقبلت على أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فقالت: أين صاحبك؟ قال وما تصنعين به؟ قالت بلغني أنه هجاني، والله لو وجدته لضربت بهذا الفهر فمه، فقال عمر رضي الله تعالى عنه: ويحك إنه ليس بشاعر، فقالت إني لا أكلمك يا ابن الخطاب: أي لما تعلمه من شدته، ثم أقبلت على أبي بكر لم تعلمه من لينه وتواضعه، فقالت: والثواقب أي النجوم إنه لشاعر وإني لشاعرة: أي فكما هجاني لأهجونه وانصرفت، فقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنها لم تراك، فقال إنها لن تراني، جعل بيني وبينها حجاب: أي لأنه قرأ قرآناً اعتصم به كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ حِجَابًا مَسْتُورًا﴾ وفي رواية أقبلت ومعها فهران وهي تقول:
مذمماً أبينا* ودينه قليناً* وأمره عصيناً* فقالت: أين الذي هجاني وهجا زوجي، والله لئن رأيت لأضربن أثيبه بهذين الفهرين. قال أبو بكر: فقلت لها يا أم جميل والله ما هجاك ولا هجا زوجك، قالت: والله ما أنت بكذاب، وإن الناس ليقولون ذلك، ثم ولت ذاهبة، فقلت: يا رسول الله إنها لم ترك. فقال النبي: «حال بيني وبينها جبريل» ولعل مجيئها قد تكرر فلا منافاة بين ما ذكر وكذا ما يأتي، وكما يقال في الحمد محمد يقال في الذم مذمم، لأنه لا يقال ذلك إلا لمن ذم مرة بعد أخرى، كما أن محمداً لا يقال إلا لمن حمد مرة بعد أخرى كما تقدم. وقد جاء «أنه قال: ألا تعجبون كيف يصرف الله تعالى عني شتم قريش ولعنهم، يشتمون مذمماً، ويلعنون مذمماً وأنا محمد».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

وفي الدر المنثور «أنها أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في الملاء، فقالت: يا محمد علام تهجوني؟ قال: إني والله ما هجوتك، ما هجاك إلا الله. قالت: رأيتني أحمل حطباً أو رأيت في جيدي حبلاً من مسد» وهذا مما يؤيد ما قاله بعض المفسرين أن الحطب عبارة عن النميمة، يقال: فلان يحطب عليّ: أي ينمّ، لأنها كانت تمشي بين الناس بالنميمة، وتغري زوجها وغيره بعداوته، وتبلغهم عنه أحاديث لتحثم بها على عداوته، وأن الحبل عبارة عن حبل من نار محكم.

وعن عروة بن الزبير: مسد النار سلسلة من حديد ذرعا سبعون ذراعاً، والله أعلم وإلى ذلك أشار صاحب الهمزية بقوله:
وأعدت حمالة الحطب الفهر وجاءت كأنها الورقاء
ثم جاءت غضبي تقول أفي مثلي من أحمد يقال الهجاء

وتولت وما رأته ومن أين ترى الشمس مقلة عمياء أي وهيات حمالة الحطب
الفهر؟ ولقبت بذلك، لأنها كانت تحتطب: أي تجمع الحطب وتحمله لبخلها
ودناءة نفسها، أو كانت تحمل الشوك والحسك وتطرحة في طريقه . ولا مانع
من اجتماع الأوصاف الثلاثة، لكن استفهامها يبعد الوصفين الأخيرين. والفهر
الحجر الذي يملأ الكف كما تقدم، لتضرب به النبي صلى الله عليه وسلم
والحال أنها جاءت في غاية السرعة والعجلة كأنها في شدة السرعة الحمامة
الشديدة الإسراع، حالة كونها غضبي من شدة ما سمعت من ذمها في سورة
{تبت يدا أبي لهب}، تقول: أفي مثلي وأنا بنت سيد بني عبد شمس يقال
الهباء والسب حالة كونه من أحمد وتولت والحال أنها ما رأته، وكيف ترى
الشمس عين عمياء.

أقول: في ينبوع الحياة أنها لما بلغها سورة {تبت يدا أبي لهب} جاءت إلى
أخيها أبي سفيان في بيته وهي مضطربة: أي منحرقة غضبي، فقالت له:
ويحك يا أخمس: أي يا شجاع أما تغضب أن هجاني محمد، فقال سأكفيك إياه،
ثم أخذ سيفه وخرج ثم عاد سريعاً فقالت: هل قتلته؟ فقال لها: يا أخية أيسرك
أن رأس أخيك في فم الثعيان؟ قالت: لا والله، قال: فقد كان ذلك يكون
الساعة. أي فإنه رأى ثعباناً لو قرب منه لالتقم رأسه.
ولما نزلت هذه السورة التي هي {تبت يدا أبي لهب} قال أبو لهب لابنه عتبة
أي بالتكبير رضي الله تعالى عنه، فإنه أسلم يوم الفتح كما سيأتي: رأسي من
رأسك حرام إن لم تفارق ابنة محمد، يعني رقية رضي الله عنها فإنه كان
تزوجها ولم يدخل بها ففارقها ووقع في كلام بعضهم طلقها لما أسلم فليتأمل.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

وكان أخوه عتبية بالتصغير متزوجاً ابنته أم كلثوم، ويدخل بها. فقال: أي وقد
أراد الذهاب إلى الشام: لأتين محمداً فلأؤذينه في ربه، فاتاه فقال: يا محمد هو
كافر بالنجم: أي وفي لفظ برب النجم إذا هوى، وبالذي دنا فتدلى، ثم بصق في
وجه النبي صلى الله عليه وسلم وردّ عليه ابنته وطلقها، فقال النبي: «اللهم
سلط» وفي رواية «اللهم ابعث عليه كلباً من كلابك» وكان أبو طالب حاضراً
فوجم لها أبو طالب. وقال: ما كان أغناك يا ابن أخي عن هذه الدعوة، فرجع
عتبية إلى أبيه أبي لهب فأخبره بذلك، ثم خرج هو وأبوه إلى الشام في جماعة،
فنزلوا منزلاً فأشرف عليهم راهب من دير. فقال لهم: إن هذه الأرض مسبعة،
فقال أبو لهب لأصحابه إنكم قد عرفتم نسبي وحقي، فقالوا أجل يا أبا لهب.
فقال أعينونا يا معشر قريش هذه الليلة، فإني أخاف على ابني دعوة محمد،
فأجمعوا متاعكم إلى هذه الصومعة ثم أفرشوا لابني عليه ثم أفرشوا حوله،
ففعلوا ثم جمعوا جمالهم وأناخوها حولهم وأحدقوا بعتبية، فجاء الأسد يتشمم
وجوههم حتى ضرب عتبية فقتله. وفي رواية «فضخ رأسه» وفي رواية «ثنى
ذنبه ووثب وضربه بذنبه ضربة واحدة فخدشه فمات مكانه» وفي رواية
«فضغمه ضغمة فكانت إياها» فقال وهو بأخر رمق ألم أقل لكم إن محمداً
أصدق الناس لهجة ومات، فقال أبوه: قد عرفت والله ما كان ليفلت من دعوة

محمد: أقول: وحلفه بالنجم إلى آخره يدل على أن ذلك كان بعد الإسراء
والمعراج.
ووقع مثل ذلك لجعفر الصادق، قيل له: هذا فلان ينشد الناس هجاءكم يعني
أهل البيت بالكوفة، فقال لذلك القائل: هل علققت من قوله بشيء؟ قال نعم
قال فأنشد:
صلبنا لكم زيدا علة رأس نخلة
ولم أر مهدياً على الجذع يصلب
وقستم بعثمان علياً سفاهة
وعثمان خير من عليٍّ وأطيب

فعند ذلك رفع جعفر يديه، وقال اللهم إن كان كاذباً فسلط عليه كلباً من كلابك،
فخرج ذلك الرجل فافترسه الأسد، وإنما سمي الأسد كلباً لأنه يشبه الكلب في
أنه إذا بال رفع رجله. ونم ثم قيل: إن كلب أهل الكهف كان أسداً. وقيل كان
رجلاً منهم جلس عند الباب طليعة لهم، فسمي باسم الكلب لملازمته
للحراسة، ووصف ببسط الذراعين لأن ذلك من صفة الكلب الذي هو الحيوان.
وقد جاء «أنه ليس في الجنة من الحيوان إلا كلب أهل الكهف، وحمار العزيز،
وناقة صالح» والله أعلم.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

ومما وقع لرسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذية ما حدّث به عبد الله بن
مسعود رضي الله تعالى عنه قال: «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
في المسجد وهو يصلي، وقد نحر جزور وبقي فرثه: أي روثه في كرثه. فقال
أبو جهل: ألا رجل يقوم إلى هذا القذر يلقيه على محمد» أي وفي رواية «قال:
قائل: ألا تنظرون إلى هذا المرأئي أيكم يقوم إلى جزور بني فلان فيعمد إلى
فرثها ودمها وسبلاها فيجيء به، ثم يمهلها حتى إذا سجد وضعه بين كتفيه» وفي
رواية: «أيكم يأخذ سلي جزور بني فلان لجزور ذبحت من يومين أو ثلاثة
فيضعه بين كتفيه إذا سجد، فقام شخص من المشركين» وفي لفظ «أشقى
القوم وهو عقبة بن أبي معيط. وجاء بذلك الفرث، فألقاه على النبي صلى الله
عليه وسلم وهو ساجد: أي فاستضحكوا وجعل بعضهم يميل على بعض أي من
شدة الضحك. قال ابن مسعود: فهنا أي خفنا أن نلقيه عنه» وفي لفظ «وأنا
قائم أنظر لو كانت لي منعة لطرحت عن ظهر رسول الله، حتى جاءت فاطمة
رضي الله تعالى عنها أي بعد أن ذهب إليها إنسان وأخبرها بذلك واستمر
ساجداً حتى ألقته عنه، واستمراره في الصلاة عند فقهائنا لعدم علمه بنجاسة
ما ألقى عليه، ولما ألقته عنه أقبلت عليهم تشتمهم، فقام النبي صلى الله عليه
وسلم فسمعتة يقول وهو قائم يصلي: اللهم أشدد وطأتك: أي عقابك الشديد،
على مضر سنين كسني يوسف. اللهم عليك بأبي الحكم بن هشام، يعني أبا
جهل، وعتبة بن ربيعة وعقبة بن أبي معيط وأمّية بن خلف. زاد بعضهم: وشيبة
بن أبي ربيعة، والوليد بن عتبة» بالمتناة فوق لا بالقاف كما وقع في رواية
مسلم.

فقد اتفق العلماء على أنه غلط، لأنه لم يكن ذلك الوقت موجوداً أو كان صغيراً جداً وعمار بن الوليد: أي وهو المتقدم ذكره الذي أرادوا أن يجعلوه عوضاً عنه .

أقول: والذي في المواهب «فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم الصلاة قال: اللهم عليك بقريش، ثم سمي، اللهم عليك بعمرو بن هشام» إلى آخر ما تقدم ذكره. وفي الإمتاع: «فلما قضى النبي صلى الله عليه وسلم صلاته رفع يديه ثم دعا عليهم، وكان إذا دعا ثلاثاً ثم قال: اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش، اللهم عليك بقريش فلما سمعوا صوته ذهب منهم الضحك وهابوا دعوته، ثم قال: اللهم عليك بأبي جهل بن هشام» الحديث، وإن ابن مسعود قال: والله لقد رأيتهم، وفي رواية: رأيت الذي سمي رسول الله صلى الله عليه وسلم صرعى يوم بدر ثم سحبوا إلى القليب قليب بدر. واعترض بأن عمار بن الوليد مات بالحبشية كافراً كما تقدم وبأتي، وبأن عقبة بن أبي معيط لم يقتل ببدر وإنما أخذ أسيراً منها وقتل بعرق الطيبة كما سيأتي، وبأن أمية بن خلف لم يطرح بالقليب وأجيب بأن قول ابن مسعود: رأيتهم أي رأيت أكثرهم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

وقد يقال: لا مانع أن يكون أتى بهذا الدعاء وهو قائم يصلي، وبعد الفراغ من الصلاة فلا منافاة والله أعلم.

والمراد بسني يوسف بتخفيف الباء، ويروى بسنين باثبات النون مع الإضافة: القحط والجذب: أي فاستجاب الله دعاءه، فأصابتهم سنة أكلوا فيها الجيف والجلود والعظام والعلهز وهو الوبر والدم، أي يخلط الدم بأوبار الإبل ويشوى على النار، وصار الواحد منهم يري ما بينه وبين السماء كالدخان من الجوع، وجاءه جمع من المشركين فيهم أبو سفيان، قالوا: يا محمد إنك تزعم أنك بعثت رحمة، وإن قومك قد هلكوا فادع الله لهم «فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم فسقوا الغيث، فأطبقت عليهم سبعا، فشكا الناس كثرة المطر فقال: اللهم حوالينا ولا علينا. فأنحدرت السحابة».

وجاء أنهم {قالوا ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون} أي لا نعود لما كنا عليه، فلما كشف عنهم ذلك عادوا: أي وفيه أن هذا إنما كان بعد الهجرة فسيأتي «أنه مكث شهراً إذا رفع رأسه من ركوع الركعة الثانية من صلاة الفجر بعد قوله سمع الله لمن حمده يقول: اللهم أنج الوليد بن الوليد، وسلمة بن هشام، وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين بمكة اللهم اشدد وطأتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كسني يوسف» وربما فعل ذلك بعد رفعه من الركعة الأخيرة من صلاة العشاء، وسيأتي ما فيه. وقد يقال: لا مانع أن يكون حصل لهم ذلك قبل الهجرة وبعد الهجرة مرة أخرى سيأتي الكلام عليها.

ثم رأيت في الخصائص الكبرى ما يوافق ذلك حيث قال: قال البيهقي: قد روي في قصة أبي سفيان ما دل على أن ذلك كان بعد الهجرة، ولعله كان مرتين،

أي وسيأتي في السرايا أن ثمامة لما منع عن قريش الميره أن تأتي من اليمن حصل لهم مثل ذلك وكتبوا في ذلك لرسول الله .
وفي البخاري «لما استعصت قريش على النبي صلى الله عليه وسلم دعا عليهم بسنين كسني يوسف، فبقيت السماء سبع سنين لا تمطر» وفي رواية فيه أيضاً: لما أبطؤوا على النبي صلى الله عليه وسلم بالإسلام قال: اللهم اكفنيهم بسبع كسبع يوسف، فأصابتهم سنة حصت كل شيء» الحديث. وفي رواية «اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف، فأصابهم قحط وجهد حتى أكلوا العظام، فجعل الرجل ينظر إلى السماء فيرى ما بينه وبينها كهيئة الدخان من الجهد، فأنزل الله تعالى {فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب أليم} فأتى أبو سفيان رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: يا رسول الله استسق لمضر فإنها قد هلكت، فاستسقى فسقوا، فلما أصابتهم الرفاهية عادوا إلى حالهم، فأنزل الله {يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون}» يعني يوم بدر.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

ومن ذلك ما حدث به عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالبيت ويده في يد أبي بكر وفي الحجر ثلاثة نفر جلوس: عقبة بن أبي معيط، وأبو جهل بن هشام، وأمّية بن خلف، فمرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه، فلما حاذاهم أسمعوه بعض ما يكره، فعرف ذلك في وجه النبي، فدنوت منه حتى وسطته: أي جعلته وسطاً، فكان بيني وبين أبي بكر وأدخل أصابعه في أصابعي وطفنا جميعاً، فلما حاذاهم قال أبو جهل: والله لا نصالحك ما بلّ بحر صوفة وأنت تنهى أن نعبد ما كان يعبد أبائنا فقال رسول الله، أنا ذلك، ثم مشى عنهم فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك، حتى إذا كان الشوط الرابع ناهضوه، أي قاموا له، ووثب أبو جهل يريد أن يأخذ بمجامع ثوبه، فدفعت في صدره فوقع على استه، ودفع أبو بكر أمّية بن خلف، ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عقبة بن أبي معيط ثم انفرجوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو واقف. ثم قال: أما والله لا تنتهون حتى يحل بكم عقابه أي ينزل عليكم عاجلاً. قال عثمان: فوالله ما منهم رجل إلا وقد أخذته الرعدة، فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: بنس القوم أنتم لنيكم، ثم انصرف إلى بيته وتبعناه حتى انتهى إلى باب بيته، ثم أقبل علينا بوجهه. فقال: أبشروا، فإن الله عز وجل مظهر دينه، ومتمم كلمته، وناصر نبيه، إن هؤلاء الذين ترون مما يذبح الله على أيديكم عاجلاً، ثم انصرفنا إلى بيوتنا، فوالله لقد ذبحهم الله بأيدينا يوم بدر».
أقول: ولا يخالف ذلك كون عقبة بن أبي معيط حمل أسيراً من بدر وقتل يعرق الظبية صبوا وهم راجعون من بدر، ولا كون عثمان بن عفان لم يحضر بدرًا والله أعلم.
وفي رواية «أن عقبة بن أبي معيط وطىء على رقبتة الشريفة وهو ساجد حتى كادت عيناه تبرزان».

أي وفي رواية «دخل عقبة بن أبي معيط الحجر فوجده يصلي فيه فوضع ثوبه على عنقه وخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله تعالى عنه حتى أخذ بمنكبه، ودفعه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: {أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم}.
أي وفي البخاري عن عروة بن الزبير رضي الله تعالى عنهما قال: «قلت لعبد الله بن عمرو بن العاص: أخبرني بأشد ما صنع المشركون برسول الله؟ قال: بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي بفناء الكعبة إذ أقبل عقبة بن أبي معيط فأخذ بمنكب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولوي ثوبه في عنقه فخنقه خنقاً شديداً، فأقبل أبو بكر رضي الله تعالى عنه فأخذ بمنكبه ودفع عن رسول الله» الحديث، ولعل أشد ذلك باعتبار ما بلغ عبد الله بن عمرو رضي الله تعالى عنهما أو ما رآه.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

وعنه رضي الله تعالى عنه قال: «ما رأيت قريشاً أصابت من عداوة أحد ما أصابت من عداوة رسول الله، ولقد حضرتهم يوماً وقد اجتمع ساداتهم وكبرائهم في الحجر، فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: ما صبرنا لأمر كصبرنا لأمر هذا الرجل قط ولقد سفه أحلامنا، وشتم آباءنا، وعاب ديننا، وفرق جماعتنا، وسب آلهتنا، لقد صبرنا منه على أمر عظيم، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله، فأقبل يمشي، حتى استلم الركن ثم مر طائفاً بالبيت، فلما مر بهم لمزوه ببعض القول فعرفنا ذلك في وجهه ثم مر بهم الثانية فلمزوه بمثلها فعرفنا ذلك في وجهه، ثم مر بهم الثالثة فلمزوه، فوقف عليهم وقال: أتسمعون يا معشر قريش أما والذي نفسي محمد بيده لقد جئتكم بالذبح، فارتعبوا لكلمته تلك، وما بقي رجل منهم إلا كأنما على رأسه طائر واقع، فصاروا يقولون، يا أبا القاسم انصرف، فوالله ما كنت جهولاً، فانصرف رسول الله، فلما كان الغد اجتمعوا في الحجر، وأنا معهم، فقال بعضهم لبعض ذكرتم ما بلغ منك وما بلغكم عنه حتى إذا ناداكم بما تكرهون تركتموه، فبينما هم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتواثبوا إليه وثبة رجل واحد وأحاطوا به وهم يقولون: أنت الذي تقول كذا وكذا - يعني عيب آلهتهم ودينهم - فقال نعم: أنا الذي أقول ذلك، فأخذ رجل منهم يجمع رداءه عليه الصلاة والسلام، فقام أبو بكر دونه وهو يبكي ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله، فأطلقه الرجل ووقعت الهيئة في قلوبهم فانصرفوا عنه» فذلك أشد ما رأيتهم نالوا من رسول الله .

وفي رواية «ألسنت تقول في آلهتنا كذا وكذا؟ قال بلى، فتشبهوا به بأجمعهم فأتى الصريح إلى أبي بكر، فقيل له أدرك صاحبك، فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد رسول والناس مجتمعون عليه، فقال: ويلكم، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم، فكفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فأقبلوا على أبي بكر يضربونه، قالت بنته أسماء: فرجع إلينا فجعل لا يمس شيئاً من غدايره إلا أجابه وهو يقول: تباركت يا ذا الجلال والإكرام».

وجاء «أنهم جذبوا رأسه ولحيته حتى سقط أكثر شعره، فقام أبو بكر دونه وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله: أي وهو يبكي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: دعهم يا أبا بكر، فوالذي نفسي بيده إني بعثت إليهم بالذبح ففرجوا عنه.»

وعن فاطمة رضي الله تعالى عنها قالت: «اجتمعت مشركو قريش في الحجر، فقالوا إذا مر محمد فليضربه كل واحد منا ضربة فسمعت فدخلت على أبي فذكرت ذلك له: أي قالت له وهي تبكي، تركت الملاء من قريش قد تعاقدوا في الحجر، فحلفوا باللات والعزى ومناة وإساف ونائلة إذا هم رأوك يقومون إليك فيضربونك بأسياهم فيقتلونك فقال: يا بنية اسكتي، وفي لفظ: لا تبكي، ثم خرج أي بعد أن توضع عليهم المسجد، فرفعوا رؤوسهم ثم نكسوا فأخذ قبضة من تراب فرمى بها نحوهم، ثم قال: شأهت الوجوه فما أصاب رجلاً منهم إلا قتل ببدر.»

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

أي وكان بجواره جماعة منهم أبو لهب والحكم بن أبي العاص بن أمية والد مروان وعقبة بن أبي معيط فكانوا يطرحون عليه الأذى فإذا طرحوه عليه أخذه وخرج به ووقف على بابهِ ويقول: يا بني عبد مناف أي جوار هذا ثم يلقيه في الطريق، ولم يسلم ممن ذكر إلا الحكم وكان في إسلامه شيء. وتقدم أنه نفاه إلى وج الطائف، وأنه سيأتي السبب في نفيه، وأشار صاحب الهمزية إلى أن هذه الأذية له لا يظن ظاناً أنها منقصة له، بل هي رفعة له، ودليل على فخامة قدره وعلو مرتبته وعظيم رفعته ومكانته عند ربه، لكثرة صبره وحلمه واحتماله مع علمه باستجابة دعائه ونفوذ كلمته عند الله تعالى وقد قال: «أشد الناس بلاء الأنبياء» وذلك سنة من سنن النبيين السابقين عليهم الصلاة والسلام بقوله:

لا تخل جانب النبي مضاماً

حين مسته منهم الأسواء

كل أمر ناب النبيين فالشدة

سدة فيه محمودة والرخاء

لو يمس النصار هون من النا

ر لما اختير للنصار الصلاة أي لا تظن أن النبي صلى الله عليه وسلم حصل له الضيم وقت مسته الأذيات حالة كونها صادرة منهم، لأن كل أمر من الأمور العظيمة التي أصابت النبيين فالشدة التي تحصل لهم منه محمودة، لأنها لرفع الدرجات، والضيق التي تحصل لهم أيضاً محمودة، لأنه لو كان يمس الذهب هوان من إدخاله النار لما اختير له العرض على النار، فالأنبياء عليهم الصلاة والسلام كالذهب والشدائد التي تصيبهم كالنار التي يعرض عليها الذهب، فإن ذلك لا يزيد الذهب إلا حسناً، فكذلك الشدائد لا تزيد الأنبياء إلا رفعة.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

قال: ومما وقع لأبي بكر رضي الله تعالى عنه من الأذية، ما ذكره بعضهم «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل دار الأرقم ليعبد الله تعالى ومن معه من أصحابه فيها سرّاً أي كما تقدم، وكانوا ثمانية وثلاثين رجلاً ألحّ أبو بكر رضي الله تعالى عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم في الظهور - أي الخروج إلى المسجد - فقال: يا أبا بكر إنا قليل، فلم يزل به حتى خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من أصحابه إلى المسجد، وقام أبو بكر في الناس خطيباً، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس ودعا إلى الله ورسوله، فهو أول خطيب دعا إلى الله تعالى، وثار المشركون على أبي بكر وعلى المسلمين يضربونهم فضربوهم ضرباً شديداً، ووطىء أبو بكر بالأرجل وضرب ضرباً شديداً، وصار عتبة بن ربيعة يضرب أبا بكر بنعلين مخصوفتين، أي مطبقتين، ويحرفهما إلى وجهه حتى صار لا يعرف أنفه من وجهه، فجاءت بنو تيم يتعادون، فأجلت المشركين عن أبي بكر وحملوه في ثوب إلى أن أدخلوه منزله، ولا يشكون في موته، أي ثم رجعوا فدخلوا المسجد، فقالوا والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة، ثم رجعوا إلى أبي بكر وصار والده أبو قحافة وبنو تيم يكلمونه فلا يجيب، حتى إذا كان آخر النهار تكلم وقال: ما فعل رسول الله، فعذلوه، فصار يكرر ذلك، فقالت أمه والله ما لي علم بصاحبك، فقال اذهبي إلى أم جميل بنت الخطاب أخت عمر بن الخطاب: أي فإنها كانت أسلمت رضي الله تعالى عنها كما تقدم، وهي تخفي إسلامها فأسأليها عنه، فخرجت إليها وقالت لها، إن أبا بكر يسأل عن محمد بن عبد الله، فقالت: لا أعرف محمداً ولا أبا بكر، ثم قالت لها: تريدان أن أخرج معك؟ قالت نعم، فخرجت معها إلى أن جاءت أبا بكر رضي الله تعالى عنه فوجدته صريعاً، فصاحت وقالت إن قوماً نالوا هذا منك لأهل فسق، وإني لأرجو أن ينتقم الله منهم، فقال لها أبو بكر، ما فعل رسول الله؟ فقالت له: هذه أمك تسمع، قال: فلا عين عليك

منها، أي أنمها لا تفشي سرك، قالت سالم، فقال: أين هو؟ فقالت في دار الأرقم، فقال والله لا أذوق طعاماً ولا أشرب شرباً أو أتى رسول الله، قالت أمه: فأمهلناه حتى إذا هدأت الرجل وسكن الناس فخرجنا به يتكئ على حتى دخل على رسول الله، فرق له رقة شديدة، وأكب عليه يقبله، وأكب عليه المسلمون كذلك، فقال: بأبي وأمي أنت يا رسول الله، ما بي من بأس إلا ما نال الناس من وجهي، وهذه أمي برة بولدها، فعسى الله أن ينقذها بك من النار، فدعا لها رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعاها إلى الإسلام فأسلمت انتهى.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

هذا، وذكر الزمخشري في كتابه خصائص العشرة أن هذه الواقعة حصلت لأبي بكر لما أسلم وأخبر قريشاً بإسلامه فليتأمل، فإن تعدد الواقعة بعيد. ومما وقع لابن مسعود رضي الله تعالى عنه من الأذية أن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمعوا يوماً، فقال: والله ما سمعت قريش القرآن جهراً إلا من رسول الله، فمن فيكم يسمعهم القرآن جهراً؟ فقال عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه، أنا فقالوا نخشى عليك منهم، إنما نريد رجلاً له عشيرة يمنعونه من القوم، فقال: دعوني فإن الله سيمنعني منهم. ثم إنه قام عند المقام وقت الشمس وقريش في أنديةهم فقال: {بسم الله الرحمن

الرحيم} رافعاً صوته {الرحمن علم القرآن} واستمر فيها فتأملته قريش، وقالوا ما بال ابن أم عبد، فقال بعضهم: يتلو بعض ما جاء به محمد ثم قاموا إليه يضربون وجهه وهو مستمر في قراءته حتى قرأ غالب السورة، ثم انصرف إلى أصحابه وقد أدمت قريش وجهه، فقال له أصحابه: هذا الذي خشينا عليكم منه فقال: والله ما رأيت أعداء الله أهون عليّ مثل اليوم، ولو شئتم لأتيتهم بمثلها غداً، قالوا لا قد أسمعتهم ما يكرهون.

ومما وقع له من الأذية، أنه كان إذا قرأ القرآن تقف له جماعة من يمينه وجماعة عن يساره ويصفقون ويصفرون ويخلطون عليه بالأشعار، لأنهم تواصلوا {وقالوا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه} حتى كان من أراد منهم سماع القرآن أتى خفية واسترق السمع خوفاً منهم.

ومما وقع له من الأذية ما كان سبباً لإسلام عمه حمزة رضي الله تعالى عنه، وهو ما حدث به ابن إسحاق قال: حدثني به رجل من أسلم أن أبا جهل مر برسول الله صلى الله عليه وسلم عند الصفا: أي وقيل عند الحجون، فأذاه وشتمه ونال منه ما يكرهه: أي وقيل إنه صب التراب على رأسه: أي وقيل ألقى عليه فرثاً ووطىء برجله على عاتقه، فلم يكلمه رسول الله صلى الله عليه وسلم ومولاة لعبد الله بن جدعان في سكن لها تسمع ذلك وتبصره، ثم انصرف أبو جهل إلى نادي قريش: أي محل تحدثهم في المسجد فجلس معهم، فلم يلبث حمزة أن أقبل متوحشاً بسيفه راجعاً من قنصه: أي من صيده، وكان من عادته إذا رجع من قنصه لا يدخل إلى أهله إلا بعد أن يطوف بالبيت، فمرّ على تلك المولاة، فأخبرته الخبر: أي فقالت له: يا أبا عمارة، لو رأيت ما لقي ابن أخيك محمد أنفأ من أبي الحكم بن هشام، تعني أبا جهل، وجده ههنا جالساً فأذاه وسبه وبلغ منه ما يكره، ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد: أي وقيل الذي أخبرته مولاة أخته صفية بنت عبد المطلب، قالت له: إنه صب التراب على رأسه، وألقى عليه فرثاً، ووطىء برجله على عاتقه. وعلى إلقاء الفرث عليه اقتصر أبو حيان في النهر، فقال لها حمزة: أنت رأيت هذا الذي تقولين؟ قالت نعم.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

وفي رواية فلما رجع حمزة من صيده إذا امرأتان تمشيان خلفه، فقالت إحداهما: لو علم ماذا صنع أبو جهل بابن أخيه أقصر عن مشيته، فالتفت إليهما فقال: ما ذلك؟ قالت أبو جهل فعل بمحمد كذا وكذا. ولا مانع من تعدد الأخبار من المرأتين والمولأتين فاحتمل حمزة الغضب ودخل المسجد، فرأى أبا جهل جالساً في القوم فأقبل نحوه حتى قام على رأسه رفع القوس وضربه فشجه شجة منكورة، ثم قال: أتشتمه؟ فأننا على دينه أقول ما يقول، فرد عليّ ذلك إن استطعت.

أي وفي لفظ: أن حمزة لما قام على رأس أبي جهل بالقوس صار أبو جهل يتضرع إليه ويقول: سفه عقولنا وسب ألهتنا، وخالف أباءنا قال ومن سفه منكم؟ تعبدون الحجارة من دون الله، أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً

رسول الله، فقامت رجال من بني مخزوم: أي من عشيرة أبي جهل إلى حمزة لينصروا أبا جهل، فقالوا: ما نراك إلا قد صبات، فقال حمزة: وما يمنعني وقد استبان لي منه، أنا أشهد أنه رسول الله وأن الذي يقوله حق، والله لا أنزع فامنعوني إن كنتم صادقين. فقال لهم أبو جهل: دعوا أبا عمارة: أي ويكنى أيضاً بابي يعلى اسم ولد له أيضاً فأني والله لقد أسمعت ابن أخيه شيئاً قبيحاً، وتم حمزة على إسلامه: أي استمر، أي بعد أن وسوس له الشيطان، فقال لنفسه لما رجعت إلى بيته أنت سيد قريش اتبعت هذا الصابي وتركت دين آبائك؟ الموت خير لك مما صنعت، ثم قال: اللهم إن كان رشداً فأجعل تصديقه في قلبي وإلا فأجعل لي مما وقعت فيه مخرجاً فبات ليلة، ثم لم يبت بمثلها من وسوسة الشيطان حتى أصبح، فغداً إلى رسول الله، فقال: يا بن أخي إنني قد وقعت في أمر لا أعرف المخرج منه، وإقامة مثلي على ما لا أدري أرشد هو أم غيٌّ شديد فأقبل عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكره ووعظه وخوفه وبشره، فألقى الله تعالى في قلبه الإيمان بما قال رسول الله، فقال: أشهد أنك لصادق، فأظهر يا ابن أخي دينك ().

وقد قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: إن هذه الواقعة سبب لنزول قوله تعالى: {أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس} يعني حمزة {كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها} يعني أبا جهل، وسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بإسلام حمزة سروراً كبيراً لأنه كان أعز فتى في قريش وأشدهم شكيمه: أي أعظمهم في عزة النفس وشهامتها، ومن ثم لما عرفت قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد عزّ كفوا عن بعض ما كانوا ينالون منه، وأقبلوا على بعض أصحابه بالأذية سيما المستضعفين منهم الذين لا جوار لهم: أي لا ناصر لهم، فإن كل قبيلة عدت على من أسلم منها تعذبه وتفتنه عن دينه () بالحبس والضرب، والجوع والعطش، وغير ذلك: أي حتى إن الواحد منهم ما يقدر أن يستوي جالساً من شدة الضرب الذي به، وكان أبو جهل يحرضهم على ذلك، وكان إذا سمع بأن رجلاً أسلم وله شرف ومنعة جاء إليه ووبخه وقال له: ليغلبن رأيك وليضعفن شرفك، وإن كان تاجراً قال: والله لتكسدن تجارتك ويهلك مالك، وإن كان ضعيفاً أغرى به () حتى أن منهم من فتن عن دينه ورجع إلى الشرك، كالحارث بن ربيعة بن الأسود، وأبي قيس بن الوليد بن المغيرة، وعلي بن أمية بن خلف والعاص بن منبه بن الحجاج، وكل هؤلاء قتلوا على كفرهم يوم بدر.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

وممن فتن عن دينه وثبت عليه ولم يرجع للكفر بلال رضي الله تعالى عنه وكان مملوكاً لأمية بن خلف، فعن بعضهم أن بلالاً كان يجعل في عنقه جبل يدفع إلى الصبيان يلعبون به ويطوفون به في شعاب مكة وهو يقول «أحد، أحد» بالرفع والتنوين أو بغير تنوين: أي الله أحد أو يا أحد، فهو إشارة لعدم الإشراك، وقد أثر الجبل في عنقه.

وعن ابن إسحاق أن أمية بن خلف كان يخرج بلائاً إذا حميت الظهرية بعد أن يجيئه ويعطشه يوماً وليلة فيطرحه على ظهره في الرمضاء أي الرمل إذا اشتدت حرارته لو وضعت عليه قطعة لحم لنضجت، ثم يأمر بالصخرة العظيمة فتوضع على صدره، ثم يقول له لا تزال هكذا، حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فيقول أحد أحد: أي أنا لا أشرك بالله شيئاً، أنا كافر باللات والعزى.

أي وقيل كان بلال مولداً من مولدي مكة، وكان لعبد الله بن جدعان التيمي وكان من جملة مائة مملوك مولدة له، فلما بعث الله تعالى نبيه أمر بهم فأخرجوا من مكة: أي خوف إسلامهم، فأخرجوا إلا بلالاً فإنه كان يرعى غنمه، فأسلم بلال وكنم إسلامه فسلم بلال يوماً على الأصنام التي حول الكعبة. ويقال إنه صار يبصق عليها ويقول خاب وخسر من عبدك، فشعرت به قريش فشكوه إلى عبد الله وقالوا له أصبوت؟ قال ومثلي يقال له هذا، فقالوا له إن أسودك صنع كذا وكذا فأعطاهم مائة من الإبل ينحرونها للأصنام ومكنهم من تعذيب بلال، فكانوا يعذبونه بما تقدم، أي ويجوز أن يكون ابن جدعان بعد ذلك ملكه لأمية بن خلف. فلا يخالفه ما تقدم من أن أمية بن خلف كان يتولى تعذيبه، وما يأتي من أنا أبا بكر رضي الله عنه اشتراه منه. ويقال إنه مر عليه وهو يعذب فقال سينجيك أحد أحد.

أي وقيل مر عليه ورقة بن نوفل، وهو يقول أحد أحد فقال نعم أحد أحد والله يا بلال، ثم أتى إلى أمية، وقال له: والله لئن قتلتموه على هذا لأتخذنه حناناً أي لأتخذن قبره منسكاً ومسترحماً، لأنه من أهل الجنة، وتقدم أن هذا يدل على أن ورقة أدرك البعثة التي هي الرسالة، وتقدم ما فيه، فكان بلال بقوله أحد أحد يمزج مرارة العذاب بحلاوة الإيمان. وقد وقع له رضي الله تعالى عنه أنه لما احتضر وسمع امرأته تقول واحزنه صار يقول: واطرباه، غدا ألقى الأحبة محمداً وحزبه، فكان بلال يمزج مرارة الموت بحلاوة اللقاء.

وقد ذكر بعضهم أن هذا قاله أبو موسى الأشعري، ومن معه لما وفدوا عليه وهو في خيبر: أي صاروا يقولون: غداً نلقى الأحبة، محمداً وحزبه.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

ومر به أبو بكر رضي الله تعالى عنه يوماً وهو ملقى على ظهره في الرمضاء، وعلى ظهره تلك الصخرة، فقال لأمية بن خلف: ألا تتقي الله تعالى في هذا المسكين؟ حتى متى تعذبه؟ قال: أنت أفسدته فأنقذه مما ترى، قال أبو بكر: عندي غلام أسود أجلد منه وأقوى: أي علي دينك، أعطيكه به؟ قال: قبلت، قال: هو لك، فأعطاه أبو بكر غلامه ذلك وأخذ بلالاً فأعتقه. وفي تفسير البغوي قال سعيد بن المسيب: بلغني أن أمية بن خلف قال لأبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه في بلال حين قال أتبعنيه؟ قال: نعم أبيعك بقسطاس، يعني عبداً لأبي بكر رضي الله تعالى عنه، كان صاحب عشرة آلاف دينار وغلمان وجوار ومواش، وكان مشركاً يأبى الإسلام، فاشتراه أبو بكر به، هذا كلامه.

وفي الإمتاع: لما ساوم أبو بكر أمية بن خلف في بلال، قال أمية لأصحابه: لألعبن بأبي بكر لعبة ما لعبها أحد بأحد، ثم تضاحك وقال له: أعطني عبدك

قسطاس، فقال أبو بكر: إن فعلت تفعل؟ قال نعم. قال: قد فعلت، فتضحك، وقال لا والله حتى تعطيني معه امرأته، قال: إن فعلت تفعل؟ قال نعم، قال: لا والله حتى تعطيني ابنته مع امرأته، قال: إن فعلت تفعل؟ قال نعم، قال: قد فعلت ذلك، فتضحك وقال: لا والله حتى تزيدني معه مائتي دينار، فقال أبو بكر رضي الله عنه: أنت رجل لا تستحيي من الكذب، قال: لا واللوات والعزى لأن أعطيتني لأفعلن، فقال: هي لك، فأخذه، هذا كلامه.

وقيل اشتراه بتسع. وقيل بخمس أواق، أي ذهباً: أي وقيل ببردة وعشرة أواق من فضة، وفي رواية برطل من ذهب. ويروى أن سيده قال لأبي بكر: لو أبيت إلا أوقية أي لو قلت لا أشتريه إلا بأوقية لبعناك، فقال: لو طلبت مائة أوقية لأخذته بها.

ولما قال المشركون: إنما أعتق أبو بكر بلالاً ليد كانت له عنده فيكافئه بها أنزل الله تعالى {والليل إذا يغشى} السورة، فالأتقى أبو بكر رضي الله تعالى عنه، والأشقى أمية بن خلف.

قال الإمام فخر الدين، أجمع المفسرون هنا على أن المراد بالأتقى أبو بكر. وذهب الشيعة إلى أن المراد به عليّ رضي الله تعالى عنه وكرم وجهه. ويرده وصف الأتقى بقوله تعالى: {وما لأحد من نعمه تجزي} لأن هذا الوصف لا يصدق على عليّ رضي الله تعالى عنه، لأنه كان في تربية النبي صلى الله عليه وسلم أي كما تقدم، فكان منعماً عليه نعمه يجب عليه جزاؤها: أي نعمه دنيوية، لأنها التي يجازى عليها، بخلاف أبي بكر فإنه لم يكن له عليه نعمه دنيوية، وإنما كان له نعمه الهداية وهي نعمه لا يجازى عليها. قال الله تعالى: {قل لا أسألكم عليه أجراً} فتعين حمل الآية على أبي بكر رضي الله تعالى عنه، فيلزم من ذلك أن يكون أبو بكر بعد رسول الله، وبقية الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أفضل الخلق، لأن الله تعالى يقول: {إن أكرمكم عند الله أتقاكم} والأكرم هو الأفضل، وبين ذلك الفخر الرازي بأن الأمة مجمعة على أن أفضل الخلق بعد النبي صلى الله عليه وسلم إما أبو بكر وإما علي، فلا يمكن حمل الآية على عليّ لما تقدم، فتعين حملها على أبي بكر.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

وذكر بعض أهل المعاني: أي المبيين لمعاني القرآن كالزجاج والفراء والأخفش أن المراد بالأشقى والأتقى الشقي والتقي، فأوقع أفعال التفضيل موضع فعيل، فهو عام في أمية بن خلف وأبي بكر وغيرهما وإن كان السبب خاصاً، والذي بخل واستغنى المراد به أبو سفيان، لأنه كان عاتباً أباً بكر في إنعامه وإعتاقه وقال له أضع مالك والله لا تصيبه أبداً، وقيل المراد به أمية بن خلف.

ولما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم أن أبا بكر اشتري بلالاً قال له الشركة يا أبا بكر، فقال: قد أعتقته يا رسول الله: أي لأن بلالاً قال لأبي بكر حين اشتراه: إن كنت اشتريتني لنفسك فأمسكني، وإن كنت اشتريتني لله عز وجل

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

فدعني لله فأعتقه.
هذا، وذكر «أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي أبا بكر رضي الله تعالى عنه، فقال لو كان عندنا مال اشتريت بلالاً، فانطلق العباس رضي الله تعالى عنه فاشتراه فبعث به إلى أبي بكر: أي ملكه له فأعتقه» فليتأمل الجمع بين هذا وما تقدم.
وقد اشترى أبو بكر رضي الله تعالى عنه جماعة آخرين ممن كان يعذب في الله، منهم حمامة أم بلال. ومنهم عامر بن فهيرة، فإنه كان يعذب في الله تعالى حتى لا يدري ما يقول، وكان لرجل من بني تيم من ذوي قرابة أبي بكر رضي الله تعالى عنه. ومنهم أبو فكيهة كان عبداً لصفوان بن أمية، أسلم حين أسلم بلال، فمر به أبو بكر رضي الله تعالى عنه وقد أخذه أمية أبو صفوان وأخرجه نصف النهار في شدة الحر مقيداً إلى الرمضاء، فوضع على بطنه صخرة، فخرج لسانه وأخو أمية يقول له زده عذاباً حتى يأتي محمد فيخلصه بسحره فاشتراه أبو بكر رضي الله تعالى عنه. ومنهم امرأة وهي زبيرة بزاى فنون مشددة مكسورتين فمثناة تحتية ساكنة، وهي في اللغة الحصاة الصغيرة، عذبت في الله تعالى حتى عميت، قال لها يوماً أبو جهل: إن اللات والعزى فعلا بك ما ترين، فقالت له: كلا والله لا تملك اللات والعزى نفعاً ولا ضراً، هذا أمر من السماء وربى قادر على أن يرد عليّ بصري، فأصبحت تلك الليلة وقد رد الله تعالى عليها بصرها، فقالت قريش: إن هذا من سحر محمد، فاشترها أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأعتقها، أي وكذا ابنتها.

وفي السيرة الشامية أم عنيس بالنون أو الباء الموحدة فمثناة تحتية فسين مهملة، أمة لبني زهرة، كان الأسود بن عبد يغوث يعذبها ولم يصفها بأنها بنت زبيرة، فاشترها أبو بكر رضي الله تعالى عنه وأعتقها. وكذا النهديّة وابنتها، وكانتا للوليد بن المغيرة. وكذا امرأة يقال لها لطيفة. وكذا أخت عامر بن فهيرة أو أمه، كانت لعمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قبل أن يسلم.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

فقد جاء أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه مر على عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه وهو يعذب جارية أسلمت استمر يضربها حتى ملّ قبل أن يسلم، ثم قال لها: إني أعتذر إليك فإني لم أتركك حتى ملّيت، فقالت له كذلك يعذبك ربك إن لم تسلم، فاشترها منه وأعتقها.
وفي السيرة الشامية وصفها بأنها جارية بني المؤمل بن حبيب، وكان يقال لها لبينة، فجملة هؤلاء تسعة.

وممن فتن عن دينه فثبت عليه خباب بن الأرتّ بالمشناة فوق، فإنه سبي في الجاهلية فاشترته أم أنمار أي وكان قيناً أي حداداً، وكان يالفه ويأتيه، فلما أسلم وأخبرت بذلك مولاته صارت تأخذ الحديدية وقد أحمتها بالنار فتضعها على رأسه، فشكا ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: «اللهم انصر خباباً، فاشتكت مولاته رأسها فكانت تعوي مع الكلاب، فقيل لها اكتوي، فكان خباب يأخذ الحديدية وقد أحماها فيكوي رأسها».

وفي البخاري عن خباب قال: «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برده في ظل الكعبة» ولقد لقينا يعني معاشر المسلمين من المشركين شدة شديدة، فقلت: يا رسول الله ألا تدعو الله لنا؟ فقعد محمراً

وجهه، فقال: إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ما يصرفه ذلك عن دينه، ويوضع المنشار على فرق رأس أحدهم فيشق ما يصرفه ذلك عن دينه، وليظهرن الله تعالى هذا الأمر حتى يصير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه».

قال: وعن خباب رضي الله تعالى عنه أنه حكى عن نفسه، قال: لقد رأيتني يوماً وقد أوقدوا لي ناراً ووضعوها على ظهري فما أطفأها إلا ودك ظهري: أي دهنه.

وممن فتن عن دينه فثبت عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه، كان يعذب بالنار.

وفي كلام ابن الجوزي «كان يُمَرُّ به وهو يعذب بالنار فيمَرُّ يده على رأسه، ويقول: يا نار كوني برداً وسلاماً على عمار كما كنت على إبراهيم» هذا كلامه. ثم إن عماراً كشف عن ظهره فإذا هو قد برص، أي صار أثر النار أبيض كالبرص، ولعل حصول ذلك كان قبل دعائه بأن النار تكون برداً وسلاماً عليه. وعن أم هانئ رضي الله تعالى عنها أن عمار بن ياسر وأباه ياسراً وأخاه عبد الله، وسمية أم عمار رضي الله تعالى عنهم كانوا يعذبون في الله تعالى، فمَرَّ بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: صبراً آل ياسر، صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة» أي وفي رواية «صبراً يا آل ياسر، اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت» فمات ياسر في العذاب، وأعطيت سمية لأبي جهل: أي أعطاه له عمه أبو حذيفة بن المغيرة، فإنها كانت مولاته فطعننها في قلبها فماتت: أي بعد أن قال لها: إن أمنت بمحمد إلا لأنك عشقتيه لجمالته، ثم طعننها بالحربة في قُبُلها حتى قتلها، فهي أول شهيدة في الإسلام اهـ.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

أي وعن بعضهم كان أبو جهل يعذب عمار بن ياسر وأمه، ويجعل لعمار درعاً من حديد في اليوم الصائف، فنزل قوله تعالى: {أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون}.

وجاء «أن عمار بن ياسر قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد بلغ منا العذاب كل مبلغ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: صبراً أبا اليقظان، ثم قال: اللهم لا تعذب أحداً من آل عمار بالنار».

قال بعضهم: وحضر عمار بداراً ولم يحضرها من أبواه مؤمنان إلا هو: أي من المهاجرين. فلا ينافي أن بشر بن البراء بن معرور الأنصاري حضر بداراً وأبواه مؤمنان.

ومما أُوذِيَ به أبو بكر الصديق رضي الله تعالى عنه ما روي عن عائشة رضي الله تعالى عنها، قالت: «لما ابتلي المسلمون بأذى المشركين: أي وحصروا بني هاشم والمطلب في شعب أبي طالب، وأذن لأصحابه في الهجرة إلى الحبشة وهي الهجرة الثانية، خرج أبو بكر رضي الله تعالى عنه مهاجراً نحو أرض الحبشة، حتى إذا بلغ برك الغماد» () بالغين المعجمة موضع بأقاصي هجر، وقيل موضع وراء مكة بخمسة أميال، أي وفي رواية «حتى إذا سار يوماً

أو يومين لقيه ابن الدغنة - بفتح الدال وكسر الغين المعجمة وتخفيف النون - وهو سيد القارة: أي وهو اسمه الحارث» والقارة: قبيلة مشهورة كان يضرب بهم المثل في قوّة الرمي، ومن ثم قيل لهم: رماة الحدق لا سيما ابن الدغنة. والقارة: أكمة سوداء نزلوا عندها فسموا بها «قال له: أين تريد يا أبا بكر؟ قال أبو بكر: أخرجني قومي فأريد أن أسيح في الأرض فأعبد ربي، قال ابن الدغنة: فإن مثلك يا أبا بكر يخرج، إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وأنا لك جار، فارجع فأعبد ربك ببلدك، فرجع مع ابن الدغنة. فطاف ابن الدغنة في أشراف قريش، وقال لهم: إن أبا بكر لا يخرج مثله، أخرجون رجلاً يكسب المعدوم، ويصل الرحم، ويحمل الكل، ويقري الضيف، ويعين على نوائب الحق وهو في جواربي؟ فلم تكذب قريش بجواب ابن الدغنة» أي لم يردّ جواره «وقالوا لابن الدغنة: مر أبا بكر فليعبد ربه في داره فليصل فيها وليقرأ ما شاء ولا يؤذنا بذلك ولا يستعلن به، فإننا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا، فقال ابن الدغنة ذلك لأبي بكر رضي الله تعالى عنه، فمكث أبو بكر يعبد ربه في داره ولا يستعلن بصلاته، ولا يقرأ في غير داره، ثم ابنتى مسجداً بفناء داره فكان يصلي فيه ويقرأ القرآن، وكان رجلاً بكاء لا يملك عينيه إذا قرأ القرآن، فكانت نساء قريش يزدحمن عليه، فأفزع ذلك كثيراً من أشراف قريش» أي مع المشركين «فأرسلوا إلى ابن الدغنة

فقدم عليهم، فقالوا: إنا أجرنا أبا بكر بجوارك على أن يبعد ربه في داره، فقد جاوز ذلك فابنتى مسجداً بفناء داره، فأعلن بالصلاة والقراءة، وإنا قد خشينا أن يفتن نساءنا وأبناءنا بهذا، فإن أحب أن يقتصر على عبادة ربه في داره فعل، وإن رأى أن يعلن فاسأله أن يردّ إليك ذمتك، فإننا قد كرهنا أن نخفرك - أي نزيل خفارتك - أي ننقض جوارك ونبطل عهدك، فأتى ابن الدغنة إلى أبي بكر فقال: قد علمت الذي قد عاقدت لك عليه، فإما أن تقتصر على ذلك، وإما أن ترجع إلي ذمتي، فإني لا أحب أن تسمع العرب أنني أخفرت: أي أزيلت خفارتي في رجل عقدت له، فقال له أبو بكر: فإني أرد عليك جوارك وأرضى بجوار الله تعالى، قال: ولما رد جوار ابن الدغنة لقيه بعض سفهاء قريش وهو عابر إلى الكعبة فحشى على رأسه تراباً، فمرّ عليه بعض كبراء قريش من المشركين، فقال له أبو بكر رضي الله تعالى عنه: ألا ترى ما صنع هذا السفهيه؟ فقال له: أنت فعلت بنفسك، فصار أبو بكر يقول: رب ما أحلمك، قال ذلك ثلاثاً انتهى».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

أي وفي كلام بعضهم: وينبغي لك أن تتأمل فيما وصف به ابن الدغنة، أبا بكر بين أشراف قريش بتلك الأوصاف الجليلة المساوية لما وصفت به خديجة النبي، ولم يطعنوا فيها مع ما هم متلبسون به من عظيم بغضه ومعاداته بسبب إسلامه، فإن هذا منهم اعتراف: أي اعتراف بأن أبا بكر كان مشهوراً بينهم بتلك الأوصاف شهرة تامة، بحيث لا يمكن أحد أن ينازع فيها، ولا أن يجحد شيئاً منها، وإلا لبادروا إلى جحدها بكل طريق أمكنهم، لما تحلوا به من قبيح العداوة له بسبب ما كانوا يرون منه من صدق موالاته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعظيم محبته له.

ومما يؤثر عنه رضي الله تعالى عنه: صنائع المعروف تقي مصارع السوء. ثلاث

من كنّ فيه كنّ عليه: البغي، والنكث، والمكر.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 456

باب: عرض قريش عليه أشياء من خوارق العادات وغير العادات ليكيف عنهم لما رأوا المسلميين يزيدون ويكثر، وسؤالهم له أشياء من خوارق العادات معينات وغير معينات، وبعثهم إلى أبحار يهود بالمدينة يسألونهم عن صفة النبي صلى الله عليه وسلم وعما جاء به، وحديث الزبيدي، وحديث المستهزئين به، ومن حديثهم حديث الأراشي ومنقصد أديته فرداً خائباً حدث محمد بن كعب القرظي قال: حدثت «أن عتبة بن ربيعة. وكان سيداً مطاعاً في قريش - قال يوماً وهو جالس في نادي قريش: أي متحدثهم والنبي صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد وحده: يا معشر قريش ألا أقوم لمحمد وأكلمه وأعرض عليه أموراً لعله يقبل بعضها، فنعطيه إياها ويكف عنا؟ قالوا: يا أبا الوليد فقم إليه فكلمه. قال: وفي رواية «أن نفرأ من قريش اجتمعوا» وفي أخرى «أشراف قريش من كل قبيلة اجتمعوا وقالوا ابعثوا إلي محمد حتى تعذروا فيه، فقالوا انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر، فليات هذا الرجل الذي فرق جماعتنا، وشتت أمرنا وعاب ديننا، فليكلمه ولينظر ماذا يريد؟ فقالوا لا نعلم أحداً غير عتبة بن ربيعة» انتهى. «فقام عتبة حتى جلس إلى رسول الله، فقال: يا بن أخي إنك منا حيث قد علمت من البسطة في العشيرة والمكان في النسب - أي من الوسط أي الخيار حسياً ونسباً - وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم، فرقت به جماعتهم، وسفهت به أحلامهم، وعبت به آلهتهم ودينهم، وكفرت به من مضى من آبائهم» قال زاد بعضهم أنه قال أيضاً: «أنت خير أم عبد الله؟ أنت خير أم عبد المطلب؟ أي فسكت، إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبت، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فقل يسمع لقولك، لقد أفضجتنا في العرب حتى طار فيهم أن في قريش ساحراً، وأن في قريش كاهناً، ما تريد إلا أن يقوم بعضنا لبعض بالسيوف حتى نتفانى» انتهى «فاسمع مني أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قل يا أبا

الوليد أسمع، فقال: يا ابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفاً سوّدناك علينا حتى لا نقطع أمراً دونك، وإن كنت تريد ملكاً ملكناك علينا» أي فيصير لك الأمر والنهي، فهو أخص مما قبله «وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً من الجن تراه لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل، حتى يداوى، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله صلى الله عليه وسلم يسمع منه قال: لقد فرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم، قال: فاسمع مني، قال أفعل، قال {بسم الله الرحمن الرحيم حم} تنزيل من الرحمن الرحيم كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون}، ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها فقرأها عليه وقد أنصت عتبة لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليها

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

يسمع منه، ثم انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي قوله تعالى: {فإن أعرضوا فقل أذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود} فأمسك عتبة على فيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك، ثم انتهى إلى السجدة فيها فسجد. ثم قال: قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت، فانت وذاك، فقام عتبة إلى أصحابه، فقال بعضهم لبعض: يحلف لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به. فلما جلس إليهم، قالوا: ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال: ورائي أني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعوني فاجعلوها لي، خلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه، فوالله ليكون لقوله الذي سمعت منه نبأ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم وعزه عزكم وكنتم أسعد الناس به، قالوا: سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه، قال: هذا رأيي فيه، فاصنعوا ما بدا لكم» قال: وفي رواية «أن عتبة لما قام من عند النبي صلى الله عليه

وسلم أبعد عنهم ولم يعد عليهم، فقال أبو جهل: والله يا معشر قريش ما نرى عتبة إلا قد صبا إلى محمد وأعجبه كلامه فانطلقوا بنا إليه، فأتوه فقال أبو جهل: والله يا عتبة ما جئناك إلا أنك قد صبوت إلى محمد وأعجبتك أمره، فقص عليهم القصة، فقال: والله الذي تصبها بنية يعني الكعبة ما فهمت شيئاً مما قال، غير أنه أذركم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، فأمسكت بفيه فأنشدته الرحم أن يكف، وقد علمت أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب، فخفت أن ينزل عليكم العذاب، فقالوا له: ويلك يكلمك الرجل بالعربية لا تدري ما قال؟ قال: والله ما سمعت مثله، والله ما هو بالشعر» إلى آخر ما تقدم «فقالوا: والله سحرك يا أبا الوليد، قال: هذا رأيي فيكم، فاصنعوا ما بدا لكم اهـ.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن قريشاً: أي أشرافهم وشيختهم، منهم الأسود بن زمعة، والوليد بن المغيرة، وأميرة بن خلف، والعاص بن وائل، وعتبة بن ربيعة، وشيبة بن ربيعة، وأبو سفيان، والنضر بن الحارث، وأبو جهل.

وفي الينبوع «أتى الوليد بن المغيرة في أربعين رجلاً من الملاء: أي من السادات منزل أبي طالب وسأله أن يحضر لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ويأمره بأشكائهم ما يشكون منه» أي أن يزيل شكواهم منه «وبجيبهم إلى أمر فيه الألفة والإصلاح، فأحضره وقال: يا بن أخي هؤلاء الملاء من قومك فأشكهم وتألفهم، فعاتبوا النبي صلى الله عليه وسلم على تسفيه أحلامهم وأحلام آبائهم وعيب آلهتهم» الحديث: أي قالوا له «يا محمد إنا بعثنا إليك لنكلمك، فإننا والله لا نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك، لقد شتمت الآباء، وعيبت الدين، وسببت الآلهة، وسفهت الأحلام، وفرقت الجماعة، ولم يبق أمر قبيح إلا آتيته فيما بيننا وبينك، فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا فنحن نسودك ونشرفك علينا، وإن كان هذا الذي يأتيك تابعاً من الجن قد غلب عليك بذلنا أموالنا في طبعك».

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

مكتبة مشكاة

وفي رواية «أنهم لما اجتمعوا ودعوه ، فجاءهم مسرعاً طمعاً في هدايتهم حتى جلس إليهم وعرضوا عليه الأموال والشرف والملك، فقال : ما جئت بما جئتمكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليّ كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً ونذيراً، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم، وأن تقبلوا مني ما جئتمكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه عليّ أصبر لأمر الله تعالى حتى يحكم الله بيني وبينكم».

وفي رواية أخرى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «دعت قريش النبي صلى الله عليه وسلم إلى أن يعطوه مالاً فيكون به أغنى رجل بمكة، ويزوجوه ما أراد من النساء، ويكف عن شتم ألتهن ولا يذكرها بسوء» فقد ذكر «أن عتبة بن ربيعة قال له: إن كان أن ما بك الباءة، فاختر أي نساء قريش فنزوجك عشراً، وقالوا له: ارجع إلى ديننا، واعبد ألتهنا، واترك ما أنت عليه ونحن نتكفل لك بكل ما تحتاج إليه في دنياك وآخرتك، وقالوا له: إن لم تفعل فإننا نعرض عليك خصلة واحدة لك فيها صلاح، قال: وما هي؟ قال: تعبد ألتهنا اللات والعزى سنةً ونعبد إلهك سنةً، فنشترك نحن وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبده خيراً مما نعبد كنت أخذت منه بحظك، وإن كان الذي نعبد خيراً مما نعبد كنا قد أخذنا منه بحظنا، فقال لهم: حتى أنظر ما يأتي من ربي، فجاء الوحي بقوله تعالى: {قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم} السورة».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

وعن جعفر الصادق أن المشركين قالوا له: اعبد معنا ألتهنا يوماً نعبد معك إلهك عشرة، واعبد معنا ألتهنا شهراً نعبد معك إلهك سنة، فنزلت «أي لا أعبد ما تعبدون يوماً، ولا أنتم عابدون ما أعبد عشرة، ولا أنا عابد ما عبدتم شهراً ولا أنتم عابدون ما أعبد سنة، روى ذلك التقدير جعفر رداً على بعض الزنادقة حيث قالوا له طعنًا في القرآن: لو قال امرؤ القيس:

قفا نيك من ذكر حبيب ومنزل وكرر ذلك أربع مرات في نسق أما كان عيباً؟ فكيف وقع في القرآن {قل يا أيها الكافرون} السورة وهي مثل ذلك وقوله: {لكم دينكم ولي دين} نسخ بآية القتال، وبقوله تعالى: {أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون} {بل الله فاعبد وكن من الشاكرين}. ولما قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الله أنزل لما كرهتموه القرآن، قالوا أنت بقرآن غير هذا، فأنزل الله تعالى: {ولو تقول علينا الآيات.

وقد يقال: المناسب للرد عليهم قوله تعالى {قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي} الآية، ثم رأيت في الكشاف ما يوافق ذلك. وهو لما غاظهم ما في القرآن من ذم عبادة الأصنام والوعيد الشديد قالوا أنت بقرآن آخر ليس فيه ما يغیظنا من ذلك تتبعك، أو بدله بأن تجعل مكان آية عذاب آية رحمة، وتسقط ذكر الآلهة ودم عبادتها، نزل قوله تعالى {قل ما يكون لي أن أبدله} الآية.

قال «وجلس أي مجلساً فيه ناس من وجوه قريش منهم أبو جهل بن هشام

وعتبة بن ربيعة، أي وشيبة بن ربيعة وأمّية بن خلف والوليد بن المغيرة، فقال لهم: أليس حسناً ما جئت به؟ فيقولون بلى والله» وفي لفظ «هل ترون بما أقول بأساً؟ فيقولون لا، فجاء عيد الله بن أم مكتوم - وهو ابن خال خديجة أم المؤمنين، وهو ممن أسلم بمكة قديماً - والنبي صلى الله عليه وسلم مشغول بأولئك القوم وقد رأى منهم مؤانسة وطمع في إسلامهم، فصار يقول: يا رسول الله علمني مما علمك الله وأكثر عليه، فشق عليه ذلك، فأعرض عن ابن أم مكتوم ولم يكلمه» انتهى.

أي وفي رواية «أشار إلى قائد ابن أم مكتوم بأن يكفه عنه حتى يفرغ من كلامه، فكفه القائد، فدفعه ابن أم مكتوم، فعبس وأعرض عنه مقبلاً على من كان يكلمه، فعاتبه الله تعالى في ذلك بقوله: {عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك { السورة} أي والمجيء مع العمى ينشأ عن مزيد الرغبة وتجشم الكلفة والمشقة في المجيء، ومن كان هذا شأنه فحقه الإقبال عليه لا الإعراض عنه» فكان بعد ذلك إذا جاءه يقول مرحباً بمن عاتبني فيه ربي ويبسط له رداءه» قال: وبهذا يسقط ما للقاضي أبي بكر بن العربي هنا انتهى. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

أقول: لعل الذي له هو ما ذكره تلميذه السهيلي، وهو أن ابن أم مكتوم لم يكن أسلم حينئذ، وإلا لم يسمه بالاسم المشتق من العمى دون الاسم المشتق من الإيمان لو كان دخل في الإيمان قبل ذلك، وإنما دخل فيه بعد نزول الآية، وبدل على ذلك قوله للنبي استدنتني يا محمد، ولم يقل استدنتني يا رسول الله، ولعل في قوله تعالى: {لعله يزكى}، ما يعطى الترجي والانتظار، ولو كان إيمانه قد تقدم قبل هذا لخرج عن حد الترجي والانتظار للتركي، هذا كلامه. وعن الشعبي قال: دخل رجل على عائشة رضي الله تعالى عنها وعندها ابن أم مكتوم وهي تقطع له الأترج وتجعله في العسل وتطعمه، فقبل لها في ذلك، فقالت: ما زال هذا له من آل محمد منذ عاتب الله عز وجل فيه نبيه، والله أعلم.

وفي فتاوى الجلال السيوطي من جملة أسئلة رفعت إليه، فأجاب عنها بأنها باطلة: أن أبا جهل قال: يا محمد إن أخرجت لنا طاوساً من صخرة في داري أمنت بك، فدعا ربه عز وجل فصارت الصخرة تثن كائين المرأة الحبلى ثم انشقت عن طاوس صدره من ذهب ورأسه من زبرجد، وجناحاه من ياقوتة، ورجلاه من جوهر، فلما رأى ذلك أبو جهل أعرض ولم يؤمن.

ومما سألوه من الآيات غير المعينات على ما رواه الشيخان أو معينة كما في رواية عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما، وسيأتي ما يعلم منه أنهم سألوه أولاً آية غير معينة ثم عينوها فلا مخالفة. فقد ذكر ابن عباس أن قريشاً سألت النبي صلى الله عليه وسلم أن يريهم آية: أي وفي رواية عن ابن عباس «اجتمع المشركون أي بمنى، منهم الوليد بن المغيرة، وأبو جهل بن هشام، والعاص بن وائل، والعاص بن هشام، والأسود بن عبد يغوث، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، والنضر بن الحارث على

رسول الله ، فقالوا: إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين، نصفاً على أبي قبيس، ونصفاً على قعيقعان، وقيل يكون نصفه بالمشرق ونصفه الآخر بالمغرب، وكانت ليلة أربعة عشر: أي ليلة البدر، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن فعلت تؤمنوا؟ قالوا نعم، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يعطيه ما سألوا، فانشق القمر نصفاً على أبي قبيس ونصفاً على قعيقعان» وفي لفظ «فانشق القمر فرقتين: فرقة فوق الجبل، وفرقة دونه» ولعل الفرقة التي كانت فوق الجبل كانت جهة المشرق، والتي كانت دون الجبل كانت في جهة المغرب» فقال رسول الله : «اشهدوا اشهدوا» ولا منافاة بين الروايتين، ولا بينهما وبين ما جاء في رواية «فانشق القمر نصفين: نصفاً على الصفا، ونصفاً على المروة قدر ما بين العصر إلى الليل ينظر إليه ثم غاب» أي ثم إن كان الانشقاق قبل الفجر فواضح وإلا فمعجزة أخرى، لأن القمر ليلة أربعة عشر يستمر جميع الليل، وسيأتي عن زين المعمر «أنه عاد بعد غروبه، فقال رسول الله «اشهدوا» والفرقتان هما المرادتان بالمرتين في بعض الروايات التي أخذ بظاهرها بعضهم كالزين العراقي «فقال إنه انشق مرتين» لأن المرة قد تستعمل في الأعيان وإن كان أصل وضعها الأفعال. فقد قال ابن القيم: كون القمر انشق مرتين مرة بعد مرة في زمانين من له خبرة بأحوال الرسول وسيرته يعلم أنه غلط وأنه لم يقع

الانشقاق إلا مرة واحدة «وعند ذلك قال كفار قريش سحركم ابن أبي كبشة» أي وهو أبو كبشة أحد أجداده من قبل أمه، لأن وهب بن عبد مناف بن زهرة جد أبي أمية أمه يكنى أبا كبشة، أو هو من قبل مرضعته حليلة، لأن والدها أو جدها كان يكنى بذلك، أو كان لها بنت تسمى كبشة فكان زوجها الذي هو أبوه من الرضاة يكنى بتلك البنت كما تقدم في الرضاع.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

وقد روي عنه فقال: «حدثني حاضي أبو كبشة أنهم لما أرادوا دفن سلول وكان سيداً عظيماً حفروا له فوقوا علي باب مغلق ففتحوه، فإذا سرير وعليه رجل وعليه حلة عدة وعند رأسه كتاب: أنا أبو شهر ذو النون ماوى المساكين، ومستفاد الغارمين، أخذني الموت غصبا، وقد أعياى الجبابرة» قيل: قال «كان ذو النون هذا هو سيف بن ذي يزن الحميري» وقيل أبو كبشة جده لأبيه، لأن أبا أم جده عبد المطلب كان يدعى أبا كبشة، وكان يعبد النجم الذي يقال له الشعري، وترك عبادة الأصنام مخالفة لقريش، فهم يشيرون بذلك إلى أن له في مخالفته سلفاً.

وقيل الذي عبد الشعري وترك عبادة الأصنام رجل من خزاعة، فشبهوه به في مخالفته لهم في عبادة الأصنام: أي ومما قد يؤيد هذا الأخير ما في الإتيان حيث مثل بهذه الآية للنوع المسمى بالتتكيت، وهو أن يخص المتكلم شيئاً من بين الأشياء بالذكر لأجل نكتة كقوله تعالى: {وأنه هو رب الشعري} خص الشعري بالذكر دون غيرها من النجوم وهو سبحانه وتعالى رب كل شيء، لأن العرب كان ظهر فيهم رجل يعرف بابن أبي كبشة، عبد الشعري ودعا خلقاً إلى

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

عبادتها، فأنزل الله تعالى {وأنه هو رب الشعري} التي ادعت فيها الربوبية هذا كلامه. وكبشة ليس مؤنث كبش، لأن مؤنث الكبش لي من لفظه، فقال رجل منهم: إن محمداً إن كان سحر القمر أي بالنسبة إليكم فإنه لا يبلغ من سحره أن يسحر الأرض كلها: أي جميع أهل الأرض. وفي رواية «لئن كان سحرنا ما يستطيع أن يسحر الناس كلهم، فاسألوا من يأتيكم من بلد آخر، هل رأوا هذا؟ فسألوهم فأخبروهم أنهم رأوا مثل ذلك». وفي رواية «أن أبا جهل قال هذا سحر، فاسألوا أهل الآفاق» وفي لفظ «انظروا ما يأتيكم به السفار حتى تنظروا هل رأوا ذلك أم لا، فأخبروا أهل الآفاق» وفي لفظ «فجاء السفار وقد قدموا من كل وجه فأخبروهم أنهم رأوه منشقاً، فعند ذلك قالوا هذا سحر مستمر» أي مطرد، فهو إشارة إلى ذلك وإلى ما قبله من الآيات. وفي لفظ «قالوا هذا سحر، أسحر السحرة، فأنزل الله تعالى {اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر} أي مطرد كما تقدم، أو محكم أو قوي شديد، أو ما زاهب لا يبقى، وهذا الكلام كما لا يخفى يدل على أنه لم يختص برؤية القمر منشقاً أهل مكة، بل جميع أهل الآفاق. وبه يرد قول بعض الملاحدة: لو وقع انشقاق القمر لاشترك أهل الأرض كلهم في معرفته، ولم يختص بها أهل مكة. ولا يحسن الجواب عنه بأنه طلبه جماعة خاصة، فاختصت رؤيته بمن اقترح وقوعه، ولا بأنه قد يكون القمر حينئذ في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق

دون بعض، ولا بقول بعضهم إن انشقاق القمر آية ليلية جرى مع طائفة في جنح ليلة ومعظم الناس نيام.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

وفي فتح الباري حنين الجذع وانشقاق القمر، نقل كل منهما نقلاً مستفيضاً يفيد القطع عند من يطلع على طرق الحديث.

أقول: وإلى انشقاق القمر أشار صاحب الهمزية بقوله:

شق عن صدره وشق له البد

ر ومن شرط كل شرط جزاء

أي شق عن صدره. وفي نسخة قلبه وكل منهما صحيح، لأنه شق صدره أولاً ثم شق قلبه ثانياً، وشق لأجله القمر ليلة أربعة عشر، وإنما شق له، لأن من شرط كل شرط جزاء، لأنه لما شق صدره جوزي على ذلك بأعظم مشابه له في الصورة، وهو شق القمر الذي هو من أظهر المعجزات بل أعظمها بعد القرآن، وقد أشار إلى ذلك أيضاً الإمام السبكي في تائيته بقوله:

وبدر الدياجي انشق نصفين عندما

أرادت قريش منك إظهار آية

أي فإنهم ائتمروا فيما بينهم، فاتفقوا على أن يقترحوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يريهم انشقاق القمر الذي هو بعيد عن الأطماع في غاية الامتناع: أي فقد سأله أولاً آية غير معينة ثم عينوها.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وفي الإصابة عن بعضهم قال: «وأنا ابن تسع عشرة سنة سافرت مع أبي وعمي من خراسان إلى الهند في تجارة، فلما بلغنا أوائل بلاد الهند وصلنا إلى شعبة من الضياع، فعرج أهل القافلة نحوها فسألناهم عن ذلك، فقالوا هذه ضيعة الشيخ زين الدين المعمر، فرأينا شجرة خارج الضيعة تظل خلقاً كثيراً وتحته جمع عظيم من أهل تلك الضيعة، فلما رأونا رحبوا بنا، فرأينا زنبيلاً معلقاً في بعض أغصان تلك الشجرة، فسألناهم فقالوا في هذا الزنبيل الشيخ زين الدين رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعا له بطول العمر ست مرات، فبلغ ستمائة سنة كل دعوة بمائة سنة، فسألناهم أن ينزلوا الشيخ لنسمع كلامه وحديثه، فتقدم شيخ منهم فأنزل الزنبيل، فإذا هو مملوء بالقطن والشيخ في وسط القطن وهو كالفرخ فوضع فمه على أذنه وقال: يا جداه هؤلاء قوم قد قدموا من خراسان وقد سألوا أن تحدثهم كيف رأيت رسول الله ، وماذا قال لك؟ فعند ذلك تنفس الشيخ وتكلم بصوت كصوت النحل بالفارسية ونحن نسمع، فقال: سافرت مع أبي وأنا شاب من هذه البلاد إلي الحجاز في تجارة، فلما بلغنا بعض أودية مكة وكان المطر قد ملأ الأودية فرأيت غلاماً حسن الشمائل يرعى إبلًا في تلك الأودية وقد حالت السيل بينه وبين إبله وهو يخشى من خوض الماء لقوة السيل، فعلمت حاله، فأتيت إليه وحملته وخضت به السيل إلى عند إبله من غير معرفة سابقة، فلما وضعته عند إبله نظر إليّ ودعا لي، ثم عدنا إلى بلادنا وتناولت المدة، ففي ليلة ونحن جلوس في ضيعتنا هذه في ليلة مقمرة ليلة البدر والبدر في كبد السماء، إذ نظرنا إليه قد انشق نصفين، فغرب نصف في المشرق ونصف في المغرب وأظلم الليل ساعة، ثم طلع النصف من المشرق والثاني من المغرب إلى أن التقيا في وسط السماء كما كان أول مرة، فتعجبنا من ذلك غاية العجب، ولم نعرف لذلك سبباً، فسألنا الركبان عن سببه فأخبرونا أن رجلاً هاشمياً ظهر بمكة وادعى أنه رسول الله إلى كافة العالم وأن

أهل مكة سألوه معجزة، واقترحوا عليه أن يأمر لهم القمر فينشق في السماء ويغرب نصفه في المشرق ونصفه في المغرب، ثم يعود إلى ما كان عليه، ففعل لهم ذلك، فاشتقت إلى رؤياه، فذهبت إلى مكة وسألت عنه فدلوني على موضعه، وأتيت إلى منزله، واستأذنت فأذن لي في الدخول فدخلت عليه، فلما سلمت عليه نظر إليّ وتبسم وقال: ادن مني وبين يديه طيق فيه رطب، فتقدمت وجلست وأكلت من الرطب، وصار يناولني، إلى أن ناولني ست رطباً، ثم نظر إليّ وتبسم وقال لي: ألم تعرفني؟ قلت لا، فقال: ألم تحمليني في عام كذا في السيل؟ ثم قال: أمدد يدك فصافحني وقال: قل أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمداً رسول الله، فقلت ذلك، فسرّ أي وقال عند خروجي من عنده بارك الله في عمرك، قال ذلك ست مرات، فبارك الله لي في عمري بكل دعوة مائة سنة، فعمري اليوم ستمائة سنة: أي في المائة السادسة مشرف على تمامها تأمل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

وسئل الحافظ السيوطي عن مثل هذا الحديث، وهو الحديث الذي رواه معمر، الذي يزعم أنه صحابي، وأنه يوم الخندق صار ينقل التراب بغلقين: وبقيّة الصحابة بغلق واحد، فضرب النبي صلى الله عليه وسلم بكفه الشريف بين كتفيه أربع ضربات، وقال له: عمرك الله يا معمر، فعاش بعد ذلك أربعمائة سنة ببركة الضربات التي ضربها بين كتفيه كل ضربة مائة سنة، وقال له بعد أن صافحه: من صافحك إلى ست أو سبع لم تمسه النار، هل هو صحيح أم هو كذب وافتراء لا تجوز روايته؟ فأجاب بأنه باطل وأن معمرًا هذا كذاب دجال، لأنه ثبت في الصحيح أنه قال قبل موته بشهر «أرأيتمكم ليلتكم هذه، فإن على رأس مائة سنة لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد» وقد قال أهل الحديث وغيرهم: إن من ادعى الصحة بعد مائة سنة من وفاته فهو كذاب، ومعلوم أن آخر الصحابة مطلقاً موتاً أبو الطفيل، مات سنة عشرة ومائة من الهجرة ثبت ذلك في صحيح مسلم» واتفق عليه العلماء، فمن ادعى الصحة بعد أبي الطفيل فهو كذاب.

ومما سألوه من الآيات المعينات ما حدث به بعضهم، قال: «إن قريشاً قالت له: سل ربك يسير عنا هذه الجبال التي قد ضيقت علينا، ويبسط لنا بلادنا، وليخرق فيها أنهاراً كأنهار الشام والعراق، وليبعث لنا من مضى من آباءنا، وليكن فيمن بعث لنا قصي بن كلاب، فإنه كان شيخ صدق، فنسأله عما تقول أحق هو أم باطل. قال: زاد في رواية: فإن صدقوك وصنعت ما سألناك صدقناك وعرفنا منزلتك من الله تعالى، وأنه بعثك إلينا رسولاً كما تقول، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما بهذا بعثت لكم، إنما جئتمكم من الله بما بعثني به» اهـ.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

ثم قالوا له: «واسأل ربك يبعث معك ملكاً يصدقك فيما تقول ويراجعنا عنك» أي وفي لفظ «قالوا له لم لا ينزل علينا الملائكة، فتخيرنا بأن الله أرسلك أو نرى ربنا فيخبرنا بأنه أرسلك فنؤمن حينئذ بك. وقال آخر: يا محمد لن نؤمن لك حتى تأتينا بالله والملائكة قبيلاً، واسأله أن يجعل لك جناحاً وقصوراً وكنوزاً من ذهب وفضة يغنيك بها عما نراك تتبغي، فإنك تقوم بالأسواق، وتلتمس المعاش كما نلتمسه» أي فلا بد أن تتميز عنا حتى نعرف فضلك ومنزلتك من ربك إن كنت رسولاً: أي وفي لفظ «قالوا إن محمداً يأكل الطعام كما نحن نأكل، ويمشي في الأسواق، ويلتمس المعاش كما نلتمس نحن، فلا يجوز أن يمتاز عنا بالنبوة. فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما أنا بالذي يسأل ربه هذا وأنزل الله تعالى {وقالوا مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق} ولما قالوا الله أعظم أن يكون رسوله بشراً منا أنزل الله تعالى {أكان للناس عجباً أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس} ثم قالوا: وأسقط السماء علينا كسفاً: أي قطعاً كما زعمت أن ربك إن شاء فعل، وقد بلغنا أنك إنما تعلمك رجل باليمامة يقال له الرحمن، وإنا والله لن نؤمن بالرحمن أبداً: أي وقد عنوا بالرحمن مسيلم، وقيل عنوا كاهناً كان لليهود باليمامة، وقد رد الله تعالى عليهم بأن الرحمن المعلم له هو الله تعالى بقوله {قل هو} أي الرحمن {ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب} أي توبتي ورجوعي () وعند ذلك قام حزينا أسفاً على ما فاتته من هدايتهم التي طمع فيها، وقال له عبد الله بن

عمته عاتكة بنت عبد المطلب قبل أن يسلم رضي الله تعالى عنه: يا محمد قد عرض عليك قومك ما عرضوا فلم تقبل، ثم سألوك أموراً ليعرفوا بها منزلتك من الله كما تقول ويصدقوك ويتبعوك فلم تفعل، ثم سألوك أن تعجل بعض ما تخوفهم به من العذاب فلم تفعل، والله لن نؤمن بك أبداً حتى تتخذ إلى السماء سلماً، ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى

تأتيها ثم تأتي معك بصك: أي كتاب معه أربعة من الملائكة يشهدون أنك كما تقول، وإيم الله إنك لو فعلت ذلك، ما ظننت أنني أصدقك، فأنزل الله تعالى عليه الآيات التي فيها شرح هذه المقالات في سورة الإسراء، وفيها الإشارة إلى أنه تعالى خيره بين أن يعطيه جميع ما سألوا، وأنهم إن كفروا بعد ذلك استأصلهم بالعذاب كالأمم السابقة، وبين أن يفتح لهم باب الرحمة والتوبة لعلهم يتوبون وإليه راجعون، فاختر الثاني، لأنه يعلم من كثير منهم العناد، وأنهم لا يؤمنون، وإن حصل ما سألوا فيستأصلوا بالعذاب، لأن الله تعالى يقول: {واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة}.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

وعن محمد بن كعب ما حاصله «أن الملاء من قريش أقسموا للنبي بالله عز وجل أنهم يؤمنون به إذا صار الصفا ذهباً، فقام يدعو الله تعالى أن يعطيهم ما سألوه فأتاه جبريل: فقال له: إن شئت كان ذلك ولكني لم آت قوماً بأية اقترحوها فلم يؤمنوا بها إلا أمرت بتعذيبهم» وفيه أنه حينئذ يشكل رواية سؤالهم انشقاق القمر.

وفي رواية «أتاه جبريل، فقال: يا محمد إن ربك يقرئك السلام ويقول: إن شئت أن يصبح لهم الصفا ذهباً، فإن لم يؤمنوا أنزلت عليهم العذاب، عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت أن لا تصير ذهباً وفتحت لهم باب الرحمة والتوبة، فقال: لا، بل أن تفتح لهم باب الرحمة والتوبة». وفي رواية «وإن شئت تركتهم حتى يتوب تأييبهم، فقال: بل حتى يتوب تأييبهم».

وأيضاً وافق على فتح باب الرحمة والتوبة، لأنه أن سؤالهم لذلك جهل، لأنه خفيت عليهم حكمة إرسال الرسل، وهي امتحان الخلق وتعبيدهم بتصديق الرسل، ليكون إيمانهم عن نظر واستدلال، فيحصل الثواب لمن فعل ذلك، ويحصل العقاب لمن أعرض عنه، إذ مع كشف الغطاء يحصل العلم الضروري، فلا يحتاج إلى إرسال الرسل، ويفوت الإيمان بالغيب.

وأيضاً لم يسألوا ما سألوا من تلك الآيات إلا تعنتاً واستهزاء، لا على جهة الاسترشاد ودفع الشك، وإلى سؤالهم تلك الآيات وارتياهم في القرآن، وقولهم فيه إنه سحر وافتراء: أي سحر يآثره: أي يأخذه عن مثله وعن أهل بابل، يفرق به بين المرء وأخيه، وبين المرء وزوجه، وبين المرء وعشيرته {إن هو إلا قول البشر} من قول أبي اليسر، وهو عبد لبني الحضرمي كان النبي صلى الله عليه وسلم يجالسه وإلى قول أبي جهل أيضاً: تزاحمنا نحن وبنو عبد المطلب الشرف، حتى صرنا كفرسي رهان قالوا منا نبى يوحى إليه، والله لا نرضى به

ولا نتبعه أبداً إلا أن يأتينا وحي كما يأتيه، فنزل قوله تعالى: {وإذا جاءتهم آية
قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتي رسل الله} وإلى هذا أشار صاحب
الهمزية بقوله:
عجباً للكفار زادوا ضللاً
بالذي فيه للعقول اهتداء
والذي يسألون منه كتاب
منزل قد أتاهم وارتقاء
أي أعجب عجباً من حال الكفار حالة كونهم زادوا ضللاً بالقرآن الذي فيه
اهتداء للعقول، وأعجب عجباً أيضاً من الأمر الذي يطلبونه منه، وهو كثير من
حملته كتاب منزل معه عليهم من السماء وهو القرآن:
أو لم يكفهم من الله ذكر
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486
فيه للناس رحمة وشفاء
أعجز الإنس آية منه والجن
فهلاً يأتي به البلغاء
كل يوم يهدي إلى سامعيه
معجزات من لفظه القراء
تتحلى به المسامع والأفـ
ـواه فهو الحلي والحلواء
رقّ لفظاً وراق معنى فجاءت
في حلاها وحليها الخنساء
وأرتنا فيه غوامض فضل
رقة من زلاله وشفاء
إنما تجتلي الوجوه إذا ما
جلبت عن مراتها الأصداء
سور منه أشبهت صوراً مذ
ـا ومثل النظائر النظراء
والأقاويل عندهم كالتماثـ
ـيل فلا يوهمنك الخطباء
كم أبانت آياته عن علوم
من حروف أبان عنها الهجاء
فهي كالحب والنوى أعجب الزرا
ع منها سنابل وزكاء
فأطالوا فيه التردد والريد
ب فقالوا سحر وقالوا افتراء
وإذا البيئات لم تغن شيئاً

فالتماس الهدى بهن عناء
وإذا ضلت العقول على عد
ـم فماذا تقوله الفصحاء
أي أو لم يكفهم عما سألوه عناداً ذكر واصل إليهم، حالة كونه من الله تعالى

رحمة وشفاء للناس والجن والملائكة، أعجز الإنس والجن آية منه، فهلا يأتي بتلك الآية أهل البلاغة، كل وقت يهدي قراؤه إلى سامعيه معجزات من لفظه، ولذلك تتحلى بسماعه المسامع، من التحلية التي هي لبس الحلي، وتتحلى بالفاظه الأفواه من الحلواء فهو الحلي، والحلواء حسن من جهة اللفظ، وتصفى من شوائب النقص من جهة المعنى، فأرتنا رقة من زلاله، وصفاء من ذلك الزلال، خبايا فضل فيه وهي العلوم المستنبطة منه، وإنما تظهر الوجوه ظهوراً واضحاً لإخفاء معه بوجه إذا قولت بمرآه، وقت جلاء الأصداء عن تلك المرأة سور منه أشبهت صوراً منا، من حيث اشتمال كل صورة منا على عقل وفهم، وخلق لا يشاركه فيه غيره، والأقويل الصادرة من الكفار في القرآن كالصور التي يصورها المصورون فإنه لا وجود لها في الحقيقة؛ فما قالوه في القرآن باطل قطعي البطلان، فاحذر الخطباء أن توقع في وهمك أن ما تأتي به يقارب القرآن، كم أوضحت آياته علوماً حالة كونها متولدة من حروف قليلة كشف عنها التهجي، كالحب الذي يلقيه الزارع، والنوى الذي يلقيه الغارس، أعجب الزراع والغراس منها: أي من تلك الحبوب والنوى سنابل وثمار وتمر فاق الحصر، فأطالوا في تلك السور الشك فقالوا سحر وتمويه لا حقيقه له، وقالوا مرة أخرى أساطير الأولين، وإذا كانت الحجج والبراهين لم تفدهم شيئاً من الهدى، فطلب الهدى منهم بتلك الحجج تعب لا يفيد شيئاً، وإذا ضلت العقول عن طرق الحق مع علم منها بتلك الطرق فأى قول يقوله الفصحاء: أي وقال الوليد بن المغيرة يوماً: أنزل القرآن على محمد، وأترك أنا وأنا كبير قريش وسيدها، ويترك أبو مسعود الثقفي سيد ثقيف ونحن عظماء القريتين: أي مكة والطائف؟ فأنزل الله تعالى {وقالوا لولا} أي هلا {أنزل هذا القرآن على رجل من

القريتين عظيم} أي أعظم وأشرف من محمد، فرد الله تعالى عليهم بقوله: {أهم يقسمون رحمة ربك} الآية.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

وفي لفظ قال بعضهم: «كان الأحق بالرسالة الوليد بن المغيرة من أهل مكة أو عروة بن مسعود الثقفي من أهل الطائف». ثم لا يخفى أن كفار قريش بعثوا مع النضر بن الحارث عقبة بن أبي معيط إلى أحبار يهود بالمدينة وقالوا لهما: أسألهم عن محمد وصفا لهم صفته وأخبراهم بقوله، فإنهم أهل الكتاب الأول: أي التوراة، لأنه قبل الإنجيل وعندهم علم ليس عندنا، فخرجا، حتى قدما المدينة وسألا أحبار يهود: أي قالوا لهم: أتيناكم لأمر حدث فينا، منا غلام يتيم حقير يقول قولاً عظيماً، يزعم أنه رسول الله. وفي لفظ «رسول الرحمن»، قالوا صفوا لنا صفته، فوصفوا، قالوا فمن يتبعه منكم؟ قالوا سفلتنا، فضحك خبر منهم وقالوا: هذا النبي الذي نجد نعته ونجد قومه أشد الناس له عداوة.

قالت لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بهن فهو نبي مرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقول. سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول: أي وهم أهل الكهف ما كان من أمرهم؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب. وسلوه عن رجل

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

طواف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها: أي وهو ذو القرنين ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك: أي بحقيقة الأولين وبعارض من عوارض الثالث، وهو كونها من أمر الله فاتبعوه فإنه نبي، فرجع النضر وعقبة إلى قريش وقالوا لهم: قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين محمد وأخبراهم الخبر، فجاؤوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم وسألوه عن ذلك، فقال لهم عليه الصلاة والسلام: أخبركم غداً، ولم يستثن: أي لم يقل إن شاء الله تعالى وانصرفوا، فمكث خمسة عشرة يوماً، وقيل ثلاثة أيام، وقيل أربعة أيام لا يأتيه الوحي، وتكلمت قريش في ذلك بما أخبر به النبي، فقالوا: إن محمداً قلاه ربه وتركه: أي ومن جملة من قال ذلك له أم جميل امرأة عمه أبي لهب، قالت له: ما أرى صاحبك إلا وقد ودعك وقلاك: أي تركك وبغضك. وفي رواية قالت: امرأة من قريش: أبطأ عليه شيطانه، وشتق عليه ذلك منهم. ثم جاءه جبريل بسورة الكهف وفيها خبر الفتية الذين ذهبوا وهم أهل الكهف». ويروى «أنهم يكونون مع عيسى ابن مريم عليه الصلاة والسلام إذا نزل، ويحجون البيت. وخبر الرجل الطواف وهو ذو القرنين: أي وهو إسكندر ذو القرنين كان له قرنان صغيران من لحم تواريهما العمامة».

وفي لفظ: كان له شبه القرنين في رأسه، وقيل غدירתان من شعر، وقيل لأنه قرن ما بين طلوع الشمس ومغربها: أي بلغ قطري المشرق والمغرب، وقيل ضرب على قرن رأسه فمات ثم أحيي، ثم ضرب على قرنه الآخر فمات ثم أحيي. وقيل لأنه ملك الروم وفارس، وقيل لأنه انقرض في زمنه قرنان من الناس، والقرن زمان مائة سنة، وكان ذو القرنين رجلاً صالحاً من أهل مصر من ولد يونن. وفي لفظ يونان بن يافث بن نوح، وكان من الملوك العادلة، وكان الخضر صاحب لوائه الأكبر. وقيل كان نبياً قاله الضحاك.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

وجاءه جبريل بالجواب عن الروح المذكور ذلك في سورة الإسراء، وهو أن الروح من أمر الله: أي قل لهم الروح من أمر ربي: أي من علمه لا يعلمه إلا هو: أي وكان في كتبهم أن الروح من أمر الله: أي مما استأثر الله تعالى بعلمه ولم يطلع عليه أحداً من خلقه، ومن ثم جاء في بعض الروايات ما تقدم «إن أجابكم عن حقيقة الروح فليس بنبي، وإلا بأن أجابكم عنها بأنها من أمر الله فهو نبي» ولعل هذا هو المراد كما جاء في بعض الروايات «سلوه عن الروح، فإن أخبركم به فليس بنبي، وإن لم يخبركم فهو نبي».

أقول: إذا كان في كتبهم أن حقيقة الروح مما استأثر الله تعالى بعلمه كيف يسألونه فيخبرهم بذلك؟ إلا أن يقال: المراد إن أجابكم بغير قوله من أمر ربي فاعلموا أنه غير نبي، فإنه يحاول أن يخبركم عن حقيقتها، وحقيقتها لا يعلمها إلا الله تعالى.

ويوافق ما في مآثور التفسير «من أمر ربي» من علم ربي لا علم لي به. وفي بعض الروايات عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «سلوه عن الروح التي نفخ الله تعالى في آدم، فإن قال لكم من الله تعالى، فقولوا له كيف يعذب الله في النار شيئاً هو منه».

وحاصل الجواب الذي أشارت إليه الآية أن الروح أمر بمعنى مأمور: أي مأمور من مأموراته، وخلق من خلقه، لا أنها جزء منه، والله أعلم: أي وهذا يدل على أن المسؤول عنه روح الإنسان التي هي سبب في إفاضة الحياة للجسد. وفي كلام الإمام الغزالي رحمه الله تعالى أن الروح روحان: حيواني، وهي التي تسميه الأطباء المزاج، وهو جسم لطيف بخاري معتدل، سار في البدن الحامل لقواه من الحواس الظاهرة والقوى الجسمانية، وهذه الروح تفنى بفناء البدن وتنعدم بالموت. وروح روحاني وهي التي يقال لها النفس الناطقة، ويقال لها اللطيفة الربانية، ويقال لها العقل، ويقال لها الروح ويقال لها القلب، من الألفاظ الدالة على معنى واحد، لها تعلق بقوى النفس الحيواني، وهذه الروح لا تفنى بفناء البدن، وتبقى بعد الموت، هذا كلامه. وفي كلام بعضهم: والروح عند أكثر أهل السنة جسم لطيف، مغاير للأجسام ماهية وهيئة، متصرف في البدن، حال فيه حلول الدهن في الزيتون يعبر عنه بأنا وأنت. وإذا فارق البدن مات. وذهب جمع منهم الغزالي والإمام الرازي وفاقاً للحكماء والصوفية إلى أنه جوهر مجرد غير حال بالبدن، يتعلق به تعلق العاشق بالمعشوق، يدبر أمره على وجه لا يعلمه إلا الله اهـ. رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

ورأيت في كلام الشيخ الأكبر أن الإمام ركن الدين السمرقندي لما فتح المسلمون بلاد الهند، خرج بعض علمائها لينظر المسلمين، فسأل عن العلماء، فأشاروا إلى الإمام ركن الدين السمرقندي، فقال له الهندي: ما تعبدون؟ قالوا: نعبد الله بالغيب، قال: ما أنبأكم؟ قالوا: محمد، قال: فما الذي قال في الروح؟ قال: هو من أمر ربي، فقال صدقتم فأسلم، وليس المراد بالروح خلق من الملائكة على صورة بني آدم، أو ملك عظيم عرض شحمة أذنه خمسمائة عام إلى غير ذلك مما قيل. قال بعضهم: قلت كذا في هذه الرواية أنهم سألوه: أي مشركو مكة عن الروح. وحديث ابن مسعود يدل على أن السؤال عن الروح ونزول الآية كان بالمدينة: أي من اليهود، هذا كلامه. وفيه أنه سيأتي جواز تكرار السؤال وتكرار نزول الآية إلى آخر ما يأتي، وبه يعلم ما في الإتيان حيث تعقب قول بعضهم: إن أصحاب محمد سألوه عن الروح وعن ذي القرنين بقوله: قلت: السائل عن الروح وذي القرنين مشركو مكة أو اليهود كما في أسباب النزول لا الصحابة. وفي الإتيان: قد يعدل عن الجواب أصلاً إذا كان السائل قصده التعنت نحو {ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي} قال صاحب الإفصاح: إنما سأل اليهود تعجيزاً وتغليظاً إذا كان الروح يقال بالاشتراك على روح الإنسان والقرآن وعيسى وجبريل وملك آخر وصنف من الملائكة، فقصد اليهود أن يسألوه، فبأي مسمى أجابهم؟ قالوا: ليس هو، فجاءهم الجواب مجملاً. وكان هذا الإجمال كيداً يرد به كيدهم، وفي سورة الكهف أيضاً آية {ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت} أي إذا أردت أن تقول سأفعل شيئاً فيما يستقبل من الزمان تقول إن شاء الله، فإن نسيت التعليق بذلك ثم تذكرت تأتي بها، فذكرها بعد النسيان كذكرها بعد القول. قال جمع منهم الحسن: ما دام في المجلس: أي وظاهره وإن طال الفصل.

وفي الخصائص الكبرى أن هذا: أي الإتيان بالمشيئة بعد التذكر من خصائصه ، وليس لأحد منا أن يستثني: أي يأتي بالمشيئة إلا في صلة يمينه .
أقول: كان ينبغي أن يقول في صلة إخباره، لأن مساق الآية في الإخبار لا في الحلف.

فإن قيل: هي عامة في الخير والحلف. قلنا كان ينبغي أن يقول حينئذ في صلة كلامه وحينئذ يقتضي كلامه أن نشاركه في الخبر دون الحلف والله أعلم.
ثم لا يخفى أنه قيل سبب احتباس الوحي أنه لم يقل إن شاء الله تعالى وهو المشهور، وقيل لأنه كان في بيته كلب. وفي لفظ: كان تحت سريره جرو ميت، فقد جاء «أنه لما عاتب جبريل في احتباسه، قال: أما علمت أن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب: أي فإنه قال لخادمتة خولة: يا خولة ما حدث في بيت رسول الله؟ جبريل لا يأتيني، قالت: فقلت في نفسي: لو كنست البيت، فأهويت بالمكنسة تحت السرير فأخرجت الجرو ميتاً».

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

أقول: قال ابن كثير: قد ثبت في الحديث المروي في الصحاح والسنن والمسانيد من حديث جماعه من الصحابة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تدخل الملائكة بيتاً فيه صورة، ولا كلب، ولا جنب» وقد أورد بعض الزنادقة سؤالاً، وهو إذا كانت الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب أو صورة: أي صورة التماثيل التي فيها الأرواح، يلزم أن لا يموت من عنده كلب أو صورة، وأن لا يكتب عمله.

وأجيب عنه بأن المراد لا تدخل ذلك البيت دخول إكرام لصاحبه وتحصيل بركة، فلا ينافي دخولهم لكتابة الأعمال وقبض الأرواح، والله أعلم.
وقيل لأنه زجر سائلاً ملحاً، وقد كان قبل ذلك يرد السائل بقوله: «أتاكم الله من فضله» أي وربما سكت، فقد روى الشيخان «ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئاً فقال لا» قال الحافظ ابن حجر: المراد بذلك أنه لا ينطق بالرد، بل إن كان عنده شيء أعطاه وإلا سكت، وهذا هو المراد بما جاء أنه ما ردّ سائلاً قط: أي ما شافهه بالرد.

وقد حكى بعضهم قال: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت: يا رسول الله استغفر لي، فسكت، فقلت: يا رسول الله إن ابن عيينة حدثنا عن جابر أنك ما سئلت شيئاً قط فقلت لا، فتبسم واستغفر لي، أي فكان يأتي بالأول حيث لا يكون المقام يقتضي الاقتصار على السكوت، ولعل هذا في غير رمضان.

فلا يخالف ما رواه البزار عن أنس رضي الله تعالى عنه قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا دخل شهر رمضان أطلق كل أسير وأعطى كل سائل» وبين الشيخ ابن الجوزي في النشر سبب إلحاح هذا السائل، فقال: «إن النبي صلى الله عليه وسلم أهدى إليه قطف عنب قبل أوامه، فهم أن يأكل منه، فجاءه سائل فقال: أطعموني مما رزقكم الله، فسلم إليه ذلك القطف، فلقية بعض الصحابة فاشتراه منه وأهداه للنبي، فعاد السائل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فسأله فأعطاه إياه، فلقية رجل آخر من الصحابة فاشتراه منه

وأهداه للنبي ، فعاد السائل فسأله فانتهره وقال: إنك ملحّ» قال: وهذا سياق غريب جداً، وهو معضل.

وقيل سبب ذلك غير ذلك، من ذلك الغير «أن جبريل عليه السلام لما قال له : ما حبسك عني؟ قال: كيف نأتيكم وأنتم لا تقصون أظفاركم، ولا تنقون براجمكم، ولا تأخذون شعوركم، ولا تستاكون».

أقول: واختلاف هذه الأسباب ظاهر في أن الواقعة متعددة. ولا ينافيه قوله: ونزلت: أي آية سورة الضحى رداً عليهم في قولهم إن محمداً قلاه ربه وتركه، وهي {ما ودّعك ربك وما قلى} (1) أي ما قطعك قطع المودع، وما أبغضك، لأنه يجوز أن يكون مما تكرر نزوله لاختلاف سببه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

ويمكن أن يقال: يجوز أن تكون الواقعة واحدة وتعددت أسبابها. ولا ينافيه إخبار جبريل عليه السلام تارة بأن سبب احتباسه عدم قص الأظفار وما ذكر معه، وتارة بأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب، وتارة بقوله: {وما تنزل إلا بأمر ربك} كما يأتي قريباً، وكما سيأتي في قصة الإفك، لكن قال الحافظ ابن حجر: قصة إبطال جبريل بسبب الجرو مشهورة، لكن كونها سبب نزول الآية أي {ما ودّعك ربك وما قلى} غريب فالمعتمد ما في الصحيح هذا كلامه.

أقول: ومما يدل على أن واقعة الجرو كانت بالمدينة ما في بعض التفاسير أن هذا الجرو كان للحسن والحسين رضي الله عنهما، وما رواه مسلم عن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: «وأعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل عليه السلام في ساعة أن يأتيه، فجاء تلك الساعة ولم يأتها فيها، قالت: وكان بيده عصا فطرحها من يده وهو يقول: ما يخلف الله وعده ولا رسله، ثم التفت فإذا كلب تحت السرير، فقال: متى دخل هذا الكلب؟ فقلت: والله ما دريت به، فأمر به فأخرج، فجاء جبريل عليه الصلاة والسلام، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وعدتني فجلست لك ولم تاتي؟ فقال: منعني الكلب الذي كان في بيتك، إنا لا ندخل بيتاً فيه كلب ولا صورة».

وفي زيادة الجامع الصغير «أتاني جبريل فقال لي: إنني كنت أتيتك البارحة فلم يمنعني أن أكون دخلت عليك البيت الذي كنت فيه إلا أنه كان عليّ الباب تماثيل، وكان في البيت ستر فيه تماثيل، وكان في البيت كلب، فأمر برأس التمثال الذي في البيت فليقطع فيصير كهيئة الشجرة، وأمر بالستر فليقطع فيجعل منه وسادتين منبوذتين توطنان، وأمر بالكلب فأخرج» ومعلوم أن مجيء جبريل له إكرام وتشريف له ، فلا ينافي ما تقدم فليتأمل.

ولما نزلت السورة المذكورة كبر فرحاً بنزول الوحي، واستمر لا يجاهر قومه بالدعوة حتى نزل {وأما بنعمة ربك فحدث} فعند ذلك كبر أيضاً، وكان ذلك سبباً للتكبير في افتتاح السورة التي بعدها وفي ختمها إلى آخر القرآن.

وعن أبي بن كعب رضي الله تعالى عنه «أنه قرأ كذلك على النبي صلى الله عليه وسلم بعد أمره له بذلك، وأنه كان كلما ختم سورة وقف وقفة ثم قال: الله أكبر».

هذا، وقيل ابتداء التكبير من أول ألم نشرح لا من أول والضحي. وقيل إن التكبير إنما هو لآخر السورة، وابتدأؤه من آخر سورة الضحي إلى آخر {قل أعوذ برب الناس} والإتيان بالتكبير في الأول والآخر جمع بين الروايتين والرواية التي جاءت بأنه كبر في أول السورة المذكورة والرواية الأخرى أنه كبر في آخرها.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

ومما يدل على أن التكبير أول سورة الضحي، ما جاء عن عكرمة بن سليمان قال: «قرأت على إسماعيل بن عبد ربه، فلما بلغت الضحي قال: كبر، فإني قرأت على عبد الله بن كثير أحد القراء السبعة، فلما بلغت {والضحى} قال لي: كبر حتى تختم. وأخبرني ابن كثير أنه قرأ على مجاهد، فأمره بذلك، وأخبره أن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أمره بذلك وأخبره ابن عباس أن أبي بن كعب أمره بذلك، وأخبره أبي أن النبي صلى الله عليه وسلم أمره بذلك» قال بعضهم: حديث غريب.

ونقل عن إمامنا الشافعي رضي الله تعالى عنه أنه قال لآخر: إذا تركت التكبير: أي من الضحي إلى الحمد في الصلاة وخارجها فقد تركت سنة من سنن نبيك، لكن في كلام الحافظ ابن كثير: ولم يرد ذلك أي التكبير عند نزول سورة الضحي بإسناد يحكم عليه بصحة ولا ضعف.

وقد ذكر الشيخ أبو المواهب الشاذلي رضي الله تعالى عنه عن شيخه أبي عثمان أنه قال: إنما نزلت سورة {ألم نشرح} عقب قوله: {وأما بنعمة ربك فحدث} إشارة إلى أن من حدث بنعمة الله فقد شرح الله صدره قال: كأنه تعالى يقول إذا حدثت بنعمتي ونشرتها بين عبادي فقد شرحت صدرك. وعن ابن إسحاق: ذكر لي «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل: لقد احتبست عني يا جبريل حتى سوأت ظناً» وفي لفظ «ما منعك أن تزورنا أكثر مما تزورنا؟ فقال له جبريل {وما ننتزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً} أي لا تنتقل من مكان إلى مكان، ولا ننزل في زمان دون زمان إلا بأمره ومشيتته على مقتضى حكمته، وما كان ربك تاركاً لك كما زعم الكفار، بل كان ذلك لحكمة رآها.

وأما حديث الزبيدي، فقد حدث بعضهم الزبيدي، فقد حدث بعضهم قال: «بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس في المسجد ومن معه من الصحابة إذا رجل من زبيد يطوف على حلق قريش حلقة بعد أخرى وهو يقول: يا معشر قريش كيف تدخل عليكم المارة أو يجلب إليكم جلب، أو يحل بضم الحاء أي ينزل بساحتكم تاجر وأنتم تظلمون من دخل عليكم في حرمكم؟ حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في أصحابه، فقال له: ومن ظلمك؟ فذكر أنه قدم بثلاثة أجمال خيرة إبله أي أحسنها فسامه بها أبو جهل ثلث أثمانها، ثم لم يسمه بها لأجله سائم، قال: فأكسد عليّ سلعتي فظلمني، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم: وأين جمالك؟ قال: هذه هي بالحزورة، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم وقام أصحابه فنظروا إلى الجمال فرأى

جمالاً حسناً، فساوم ذلك الرجل حتى ألحقه برضاه، وأخذها رسول الله صلى الله عليه وسلم فباع جملين منها بالثمن، وأفضل بغيراً باعه وأعطى أرامل بني عبد المطلب ثمنه، وكل ذلك وأبو جهل جالس في ناحية من السوق ولم يتكلم، ثم أقبل إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال له: إياك يا عمرو أن تعود لمثل ما صنعت بهذا الرجل فتري مني ما تكره، فجعل يقول: لا أعود يا محمد لا أعود يا محمد، فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل على أبي جهل أمية بن خلف ومن معه من القوم، فقالوا له: ذلت في يد محمد، فإما أن تكون تريد أن تتبعه، وإما رعب دخلك منه، فقال لهم: لا أتبعه أبداً، إن الذي رأيتم مني لما رأيته، رأيته مع رجلاً عن يمينه ورجلاً عن شماله معهم رماح يشرعونها إليّ، لو خالفته لكانت إياها أي لأتوا على نفسي». رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

ونظير ذلك «أن أبا جهل كان وصياً على يتيم فأكل ماله وطرده، فاستغاث اليتيم بالنبي صلى الله عليه وسلم على أبي جهل، فمشى معه إليه ورد عليه ماله، فقيل له في ذلك فقال: خفت من حربته عن يمينه وحربته عن شماله لو امتنعت أن أعطيه لطعنني». وأما حديث المستهزيين. فمما استهزيء به على رسول الله صلى الله عليه وسلم ما حدث به بعضهم «أن أبا جهل بن هشام ابتاع من شخص يقال له الإراشي بكسر الهمزة نسبة إلى إراشة بطن من خثعم أجماً فمطله بأثمانها، فدلته قريش على النبي صلى الله عليه وسلم لينصفه من أبي جهل استهزاء برسول الله، لعلمهم بأنه لا قدرة له على أبي جهل: أي بعد أن وقف على ناديم فقال: يا معشر قريش من رجل يعينني على أبي الحكم بن هشام فإني غريب وابن سبيل، وقد غلبني علي حقي، فقالوا له أترى ذلك الرجل؟ يعنون رسول الله، اذهب إليه فهو يعينك عليه، فجاء إلى رسول الله، فذكر له حاله مع أبي جهل - أي قال له: يا أبا عبد الله إن أبا الحكم بن هشام قد غلبني على حق لي قبله وأنا غريب وابن سبيل، وقد سألت هؤلاء القوم عن رجل يأخذ لي بحقي منه فأشاروا إليك، فخذ حقي منه يرحمك الله - فخرج النبي صلى الله عليه وسلم مع الرجل إلى أبي جهل وضرب عليه بابه، فقال: من هذا؟ قال محمد، فخرج إليه وقد انتقع لونه: أي تغير وصاح كلون النقع - الذي هو التراب، وهو الصفرة مع كدرة كما تقدم - فقال له: أعط هذا حقه، قال نعم، لا تبرح حتى أعطيه الذي له، فدفعه إليه. قال: ثم إن الرجل أقبل حتى وقف على ذلك المجلس فقال: جزاه الله خيراً يعني النبي صلى الله عليه وسلم - فقد والله أخذ لي بحقي، وقد كانوا أرسلوا رجلاً ممن كان معهم خلف النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا له انظر ماذا يصنع؟ فقالوا لذلك الرجل ماذا رأيته؟ قال: رأيته عجباً من العجب، والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه فقال: أعط هذا حقه، فقال نعم لا تبرح حتى أخرج إليه حقه، فدخل

فخرج إليه بحقه فأعطاه إليه، فعند ذلك قالوا لأبي جهل: ويحك ما رأينا مثل ما صنعت، قال: ويحكم، والله ما هو إلا أن ضرب عليّ بابي وسمعت صوته

فملئت رعباً، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسي فحلاً من الإبل ما رأيت مثله قط،
لو أبيت أو تأخرت لأكلني» وإلى هذه القصة أشار صاحب الهمزية بقوله:
واقترضه النبي دين الإراشي
وقد ساء بيعه والبشراء
ورأى المصطفى أتاه بما لم
ينج منه دون الوفاء النجاء
هو ما قد راه من قبل لكن
ما على مثله يعد الخطاء

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

أي وطلب من أبي جهل أن يؤدي دين الإراشي وقد ساء بيعه وشراؤه مع ذلك
الرجل ورأى المصطفى وقد أتاه بفحل من الإبل لم ينج منه دون الوفاء لذلك
الدين. كثير النجاء، وذلك الذي أتاه به هو الفحل الذي قد راه من قبل: أي لما
أراد عدو الله أن يلقي عليه الحجر وهو ساجد كما تقدم، لكن ما على مثله
فضلاً عنه يعدّ الخطأ لأن خطاه لا ينحصر.
أي ومن استهزاء أبي جهل بالنبي «أنه في بعض الأوقات سار خلف النبي صلى
الله عليه وسلم يخلج بأنفه وفمه يسخر به، فاطلع عليه، فقال له: كن كذلك،
فكان كذلك إلى أن مات».

قال ابن عبد البر: وكان من المستهزئين الذين قال الله تعالى فيهم {إنا
كفيناك المستهزئين} أبو جهل وأبو لهب وعقبة بن أبي معيط والحكم بن
العاص بن أمية وهو والد مروان بن الحكم عم عثمان بن عفان، والعاص بن
وائل، فمن استهزاء أبي جهل ما تقدم.
ومن استهزاء أبي لهب به أنه كان يطرح القذر على باب رسول الله صلى الله
عليه وسلم كما تقدم، ومرّ يوماً من الأيام فرأه أخوه حمزة رضي الله تعالى
عنه قد فعل ذلك، فأخذه وطرحه على رأسه، فجعل أبو لهب ينفذ رأسه
ويقول صابئاً أحمق.
ومن استهزاء عقبة بن أبي معيط به أنه كان يلقي القذر أيضاً على بابه كما
تقدم، وقد قال: «كنت بين شرّ جارين أبي لهب وعقبة بن أبي معيط، إن كانا
ليأتيان بالفروث فيطرحونها على بابي» كما تقدم.

ومن استهزائه «أنه بصق في وجه النبي صلى الله عليه وسلم فعاد بصاقه على
وجهه وصار برصاً: أي فإنه كان يكثر مجالسة عقبة بن أبي معيط، فقدم عقبة
يوماً من سفر فصنع طعاماً ودعا الناس من أشرف قريش ودعا النبي، فلما
قرب إليهم الطعام أبى رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأكل، فقال: ما أنا
بأكل طعامك حتى تشهد أن لا إله إلا الله، فقال عقبة: أشهد أن لا إله إلا الله،
وأشهد أنك رسول الله، فأكل من طعامه وانصرف الناس، وكان عقبة صديقاً
لأبي بن خلف، فأخبر الناس أياً بمقالة عقبة، فأتى إليه وقال: يا عقبة صوت؟
قال: والله ما صوت، ولكن دخل منزلي رجل شريف، فأبى أن يأكل طعامي إلا
أن أشهد له، فاستحييت أن يخرج من بيتي ولم يطعم، فشهدت له فطعم
والشهادة ليست في نفسي، فقال له أبيّ وجهي ووجهك حرام إن لقيت محمداً
فلم تطأه وتبرق في وجهه وتلطم عينه، فقال له عقبة: لك ذلك، ثم إن عقبة
لقي النبي صلى الله عليه وسلم ففعل به ذلك» قال الضحاك: لما بزق عقبة

لم تصل البزقة إلى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم بل وصلت إلى وجهه هو كشهاب نار فاحترق مكانها، وكان أثر الحرق في وجهه إلى الموت. وحينئذ يكون المراد بقوله فيما تقدم «فعاد بصاقه برصاً في وجهه» أي صار كالبرص «وأنزل الله تعالى في حقه {ويوم يعصّ الظالم على يديه} أي في النار يأكل إحدى يديه إلى المرفق ثم يأكل الأخرى، فتنبت الأولى فيأكلها وهكذا». رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

ومن استهزاء الحكم بن العاص «أنه كان يمشي ذات يوم وهو خلفه يخلج بفيه وأنفه، يسخر بالنبي، فالتفت إليه النبي صلى الله عليه وسلم فقال له: كن كذلك فكان كذلك» أي كما تقدم نظير ذلك لأبي جهل «واستمر الحكم بن العاص يخلج بأنفه وفمه بعد أن مكث شهراً مغشياً عليه حتى مات» أسلم يوم فتح مكة وكان في إسلامه شيء «اطلع على رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب بيته وهو عند بعض نسائه بالمدينة، فخرج إليه بالعنزة - أي وقيل بمدري في يده - والمدري كالمسلة يفرق به شعر الرأس - وقال: من عذيري من هذه الوزعة، لو أدركته لفقأت عينه، ولعنه وما ولد، وغربه عن المدينة إلى وجّ الطائف، فلم يزل حتى ولي ابن أخي عثمان رضي الله تعالى عنه الخلافة، فدخل المدينة بعد أن سأل عثمان أبا بكر في ذلك، فقال: لا أحل عقدة عقدها رسول الله، ثم سأل عمر لما ولي الخلافة فقال له مثل ذلك، ولما أدخله عثمان نقم عليه الصحابة بسبب ذلك، فقال: أنا كنت شفعت فيه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعدني برده: أي أنني أردّه» ولا ينافي ذلك سؤال عثمان لأبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهم في ذلك كما لا يخفى، لأنه يحتمل أن يردّه عثمان إما بنفسه أو بسؤاله، وسيأتي ذلك في جملة أمور نقيهما عليها الصحابة.

وعن هند ابن خديجة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنهما «أن النبي صلى الله عليه وسلم مرّ بالحكم، فجعل يغمز بالنبي، فرآه فقال: اللهم اجعل به وزعاً فرجف وارتعش مكانه» والوزع: الارتعاش. وفي رواية «فما قام حتى ارتعش».

وعن الواقدي «استأذن الحكم بن العاص على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف صوته، فقال: ائذنوا له، لعنه الله ومن يخرج من صلبه إلا المؤمنين منهم وقليل ما هم، ذو مكر وخديعة، يعطون الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق» «وكان لا يولد لأحد ولد بالمدينة إلا أتى به النبي، فأتى إليه بمروان لما ولد، فقال: هو الوزع ابن الوزع، الملعون ابن الملعون» وعلى هذا فهو صحابي إن ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم رآه، لأنه يحتمل أنه أتى به إليه فلم يأذن بإدخاله عليه، وربما يدل لذلك قوله هو الوزع إلى آخره. وفي كلام بعضهم أن مروان ولد بمكة. وفي كلام بعض أجراءه ولد بالطائف بعد أن نفى أبوه إلى الطائف: أي ولم يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم فهو ليس بصحابي، ومن ثم قال البخاري: مروان بن الحكم لم ير النبي، وعن عائشة رضي الله تعالى عنها، أنها قالت لمروان «نزل في أبيك {ولا تطع كل

حلاف مهين همار مشاء بنميم} وقالت له «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبيك وجدك الذي هو العاص بن أمية: إنهم الشجرة الملعونة في القرآن» ولي مروان الخلافة تسعة أشهر. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لمروان بن الحكم، حيث قال لأخيها عبد الرحمن بن أبي بكر لما بايع معاوية لولده، قال مروان: سنة أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، فقال عبد الرحمن: بل سنة هرقل وقيصر، وامتنع من البيعة ليزيد بن معاوية، فقال له مروان: أنت الذي أنزل الله فيك {والذي قال لوالديه أف لكما} فبلغ ذلك عائشة، فقالت كذب والله ما هو به، ثم قالت له: أما أنت يا مروان فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك وأنت في صلبه.
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

وعن جبير بن مطعم «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمّر الحكم بن العاص، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ويل لأمتي مما في صلب هذا» قال بعضهم: وكون النبي صلى الله عليه وسلم مع ما هو عليه من الحلم والإغضاء على ما يكره فعل بالحكم ذلك، يدل على أمر عظيم ظهر له في الحكم وأولاده.

وعن حمران بن جابر الجعفي، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ويل لبني أمية ثلاث مرات» أي وقد ولي منهم الخلافة أربعة عشر رجلاً، أولهم معاوية بن أبي سفيان، وآخرهم مروان بن محمد، وكانت مدة ولايتهم ثنتين وثمانين سنة، وهي ألف شهر. وقال بعضهم: لا يزيد ذلك يوماً ولا ينقص يوماً. قال ابن كثير: وهذا غريب جداً، وفيه نظر، لأن معاوية حين تسلم الخلافة من الحسن كان ذلك سنة أربعين أو إحدى وأربعين، واستمر الأمر في بني أمية إلى أن انتقل إلى بني العباس سنة ثنتين وثلاثين ومائة، ومجموع ذلك ثنتان وتسعون سنة، وألف شهر تعدل ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر هذا كلامه.

ومن استهزاء العاص بن وائل أنه كان يقول: غرّ محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث. أي ومن استهزائه. أن خباب بن الأرت رضي الله تعالى عنه كان قيناً بمكة: أي حداداً يعمل السيوف، وقد كان باع للعاص سيوفاً فجاءه يتقاضى ثمنها، فقال له: يا خباب أليس يزعم محمد هذا الذي أنت على دينه أن في الجنة ما ابتغى أهلها من ذهب أو فضة أو ثياب أو خدم أو ولد؟ قال خباب بلى، قال: فأنظرني إلى يوم القيامة يا خباب حتى أرجع إلى تلك الدار فأقضيك هناك حقك، والله لا تكونن أنت وصاحبك أثر عند الله مني ولا أعظم حظاً في ذلك.

وفي لفظ أن العاص قال له: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقال: والله لا أكفر بمحمد حتى يميئك الله ثم يبعثك، قال: فذرني حتى أموت ثم أبعث فسوف أوتي مالاً وولداً فأقضيك، فأنزل الله تعالى فيه {أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتينّ مالاً وولداً أطلع الغيب أم اتخذ عند الرحمن عهداً} كلا سنكتب ما يقول

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

ونمد له من العذاب مدًّا ونرثه ما يقول ويأتينا فرداً}!. وفي كلام ابن حجر الهيتمي، وفي البخاري من عدة طرق: أن خباباً رضي الله تعالى عنه طلب من العاص بن وائل السهمي ديناً له عليه، قال: لا أعطيك حتى تكفر بمحمد، فقال: لا أكفر به حتى يميتك الله ثم يبعثك. وفيه أن هذا تعليق للكفر بممكن: أي وتعليق الكفر ولو بمحال عادي، وكذا شرعي أو عقلي على احتمال كفر، لأنه ينافي عقد التصميم الذي هو شرط في الإسلام.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486
وأجيب بأنه لم يقصد التعليق قطعاً، وإنما أراد تكذيب ذلك اللعين في إنكار البعث، ولا ينافيه قوله «حتى» لأنها تأتي بمعنى إلا المنقطعة فتكون بمعنى لكن الذي صرحوا بأن ما بعدها كلام مستأنف، وعليه خرج ابن هشام الخضراوي حديث «كل مولود يولد على الفطرة حتى يكون أبواه يهودانه» أي لكن أبواه.

وعد بعضهم من المستهزئين الحارث بن عيطلة، ويقال ابن عيطل ينسب إلى أمه، وكان من استهزائه ما تقدم عن العاص بن وائل وأبي جهل من الاختلاج خلف رسول الله .

وعد منهم الأسود بن يغوث، وهو ابن خال النبي ، كان إذا رأى المسلمين قال لأصحابه استهزاء بالصحابة: قد جاءكم ملوك الأرض الذين يرثون كسرى وقيصر: أي لأن الصحابة كانوا متقشفين، ثيابهم رثة، وعيشهم خشن، ويقول للنبي : أما كلمت اليوم من السماء يا محمد، وما أشبه هذا القول. وعد منهم الأسود بن عبد المطلب. ومن استهزائه أنه كان هو وأصحابه يتغامزون بالنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ويصفرون إذا رأوهم.

وعد منهم النضر بن الحارث، فهلك غالبهم قبيل الهجرة بضروب من البلاء. أقول: والذي ينبغي أن يكون المراد بالمستهزئين في الآية وهي {إنا كفيناك المستهزئين} الوليد بن المغيرة والد خالد وعم أبي جهل، فإنه كان من عظماء قريش، وكان في سعة من العيش ومكنة من السيادة، كان يطعم الناس أيام مني حيساً، وينهي أن توقد نار لأجل طعام غير ناره، وينفق على الحاج نفقة واسعة، وكانت الأعراب تثني عليه، كانت له البساتين من مكة إلى الطائف، وكان من جملة ما يستأن لا ينقطع نفعه شتاء ولا صيفاً، وبركته أصابته الجوائح والآفات في أمواله حتى ذهبت بأسرها ولم يبق له في أيام الحج ذكر. وكان المقدم في قريش فصاحة، وكان يقال له ريحانة قريش، ويقال له الوحيد أي في الشرف والسؤدد والجاه والرياسة. قال بعضهم: بل هو وحيد في الكفر والخبث والعناد.

والعاص بن وائل والد عمرو بن العاص والأسود بن المطلب والأسود بن عبد يغوث والحارث بن عيطلة. وفي لفظ: ابن الطلائع. والطلائع في اللغة: الداهية، قال بعضهم وهو اشتباه، لأن ابن الطلائع اسمه مالك لا حارث.

والحارث بن العيطلة كان أحد أشرف قريش في الجاهلية، وإليه كانت الحكومة والأموال التي تجعل للآلهة، وذكره ابن عبد البر في الصحابة. قال في أسد الغابة: لم أر أحداً ذكره في الصحابة إلا أبا عمرو يعني ابن عبد البر. والصحيح أنه كان من المستهزئين، وهؤلاء الخمسة هم الذين اقتصر عليهم القاضي البيضاوي، لما يروي «أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهو في المسجد: أي يطوف بالبيت؛ وقال له أمرت أن أكفيكم، فلما مر الوليد بن المغيرة قال له: يا محمد كيف تجد هذا؟ فقال: بنس عبد الله، فأوماً إلى ساق الوليد وقال كفيته، ومرّ العاص بن وائل، فقال: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال عبد سوء، فأشار إلى أخمصه وقال كفيته، ثم مرّ الأسود بن المطلب فقال كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: عبد سوء، فأوماً إلى عينه، وقال كفيته، ثم مرّ الأسود بن عبد يغوث فقال: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال عبد سوء، فأوماً إلى رأسه وقال كفيته، ثم مرّ الحارث بن عيطلة فقال: كيف تجد هذا يا محمد؟ قال: عبد سوء، فأوماً إلى بطنه وقال كفيته» وحينئذ يكون معنى كفاية هذا له أنه لم يسع ولم يتكلف في تحصيل ذلك، وإلى هذا أشار الإمام السبكي في تائيته بقوله:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486
وجبريل لما استهزأت فرقة الردى
أشار إلى كل بأفبح مية
والله أعلم.

قال: وروى الزهري «أن الأسود بن عبد يغوث خرج من عند أهله فأصابته السموم فاسودّ وجهه، فأتى أهله فلم يعرفوه وأقفلوا دونه الباب، ووسلط عليه العطش فلا زال يشرب الماء حتى انشق بطنه» وهذا يناسب ما سيأتي عن الهمزية، ولا يناسب أن جبريل عليه الصلاة والسلام أشار إلى رأسه، وفي كلام البلاذري عن عكرمة «أن جبريل أخذ بعنق الأسود بن عبد يغوث فحنى ظهره حتى احقوقف، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خالي خالي» أي لأنه كما تقدم ابن خاله، فهو إما على حذف المضاف، أو لأجل مراعاة أبيه: أي يراعى لأجل أبيه الذي هو خالي «فقال جبريل: يا محمد دعه» وفي رواية «قال له جبريل: خلّ عنك، ثم حثاه حتى قتله» وهذا لا يناسب كون جبريل أشار إلى رأسه.

والمناسب لذلك ما ذكره بعضهم أنه امتخض رأسه قيحاً، ثم لم يزل يضرب برأسه أصل شجرة حتى مات، وكذا الحارث بن عيطلة: أي وفي كلام القاضي وحارث بن قيس.

وفي تكملة الجلال السيوطي عدي بن قيس، فقد أكل حوتاً مملحاً فلم يزل يشرب عليه الماء حتى انقذ بطنه، وهذا المناسب لما ذكر هنا أن جبريل أشار إلى بطنه، لكن لا يناسب ما قاله القاضي البيضاوي أنه أشار إلى أنفه فامتخض قيحاً.

وأما الأسود بن المطلب فقد عمي بصره. فقد ذكر «أنه خرج ليستقبل ولده، وقد قدم من الشام، فلما كان ببعض الطريق جلس في ظل شجرة، فجعل جبريل يضرب وجهه وعينه بورقة من ورقها حتى عمي، فجعل يستغيث بسلامه، فقال له غلامه: لا أحد يصنع بك شيئاً: أي وقيل ضربه بغصن فيه شوك، فسالت حدقتاه، وصار يقول: ها هوذا طعن بالشوك في عيني، فيقال له ما نرى شيئاً، وقيل أتى شجرة فجعل ينطح رأسه بها حتى خرجت عيناه» أي وفعل ذلك لا ينافي ما ورد «فأشار أي جبريل إلى وجهه فعمي بصره في الحال» لجواز أن يراد بالحال الزمن القريب، وفي رواية: أنه كان يقول «دعا عليّ محمد بالعمى فاستجيب له، ودعوت عليه بأن يكون طريداً شريداً فاستجيب لي» وسيأتي عن بعضهم في غزوة بدر «أنه دعا على الأسود بن المطلب بالعمى وفقد أولاده، فجعل له العمى وفقد أولاده ببدر. وأما الوليد بن المغيرة فمر بشخص يعمل النبل فتعلق بثوبه سهم فلم ينقلب لينحيه تعاضماً، فعدا فأصاب السهم عرقاً في ساقه فقطعه فمات. وأما العاص بن وائل، فدخلت شوكة في أخمصه فانتفخت رجله حتى صارت كالرحى ومات» وإلى الخمسة الذين ذكرنا أنهم المرادون بقوله تعالى: {إنا كفيناك المستهزئين} أشار صاحب الهمزية بقوله:

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

وكفاه المستهزئين وكم سا
ء نبياً من قومه استهزاء
خمسة كلهم أصيبوا بداء
والردى من جنوده الأدواء
فدهي الأسود بن مطلب
أي عمي ميت به الأحياء
ودهي الأسود بن عبد يغوث
أن سقاه كأس الرد استسقاء
وأصاب الوليد خدشة سهم
قصرت عنها الحية الرقطاء
وقضت شوكة على مهجة العا
ص فله النقعة الشوكاء
وعلى الحارث القيوح وقد سا
ل بها رأسه وسال الوعاء
خمسة طهرت بقطعهم الأر
ض فكف الأذى بهم شلاء

أي وكفى الله رسوله المستهزئين به، ومرات كثيرة أحزن نبينا كغيره من الأنبياء استهزاء قومه به، وهؤلاء المستهزئون به خمسة كلهم أصيبوا بداء عظيم، والهلاك من جملة جنوده الأمراض.
فأهلك الأسود بن المطلب عمي عظيم الأحياء أموات بسببه، وهو المناسب لكون جبريل أشار إلى عينيه. ودهي أيضاً الأسود بن عبد يغوث استسقاء سقاه كأس الموت، وهذا لا يناسب كون جبريل أشار إلى رأسه. وأصاب الوليد أثر سهم في ساقه قصرت عنه الحية الرقطاء: أي سمها. وقضت شوكة على

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

مهجة العاص دخلت في رجله، فلهه هذه النقعة الخشنة للمس. وقضت على الحارث القيوح والحال أنه قد سار رأسه، وفسد ذلك الوعاء لتلك القيوح، وهذا هو المناسب لكون جبريل أشار إلى أنفه، لا لقول بعضهم إنه أشار إلى بطنه. خمسة طهرت بهلاكهم الأرض، فكف الأذى بهم بشلاء: فاقدة الحركة. وقد جاء عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن هؤلاء الخمسة هلكوا في ليلة واحدة، فعلم أن هؤلاء هم المرادون بقوله تعالى: {إنا كفيناك المستهزئين} كما ذكرنا، وإن كان المستهزئون غير منحصرين فيهم فلا ينافي عدّ منبه ونيبه ابني الحجاج منهم. فقد قيل: كانا ممن يؤذي رسول الله، وكانا يلقيانه فيقولان له أم وجد الله من يبعثه غيرك؟ إن هاهنا من هو أسن منك وأيسر، فإن كنت صادقاً فأتنا بملك ليشهد لك ويكون معك، وإذا ذكر لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم قال معلم مجنون يعلمه أهل الكتاب ما يأتي به. ولا ينافي عدّ أبي جهل وغيره منهم كما تقدم.

وفي سيرة ابن المحدث قال عليه الصلاة والسلام «من قرأ سورة الهمزة أعطاه الله عشر حسنات بعدد من استهزأ بمحمد وأصحابه». ومن استهزأ أبي جهل أيضاً بالنبي صلى الله عليه وسلم أنه قال يوماً لقريش: يا معشر قريش يزعم محمد أن جنود الله الذين يقذفونكم في النار ويحبسونكم فيها تسعة عشر، وأنتم أكثر الناس عدداً، فيعجز كل مائة رجل منكم عن واحد منهم؟.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486
أي وفي رواية «أن بعض قريش وكان شديداً قويّ البأس، بلغ من شدته أنه كان يقف على جلد البقرة ويجاذبه عشرة لينزعوه من تحت قدمه فيتمزق الجلد ولا يتزحزح عنه، قال له: أنا أكفيك سبعة عشر، واكفوني أنتم اثنين، ويقال إن هذا دعا النبي صلى الله عليه وسلم إلى المصارعة، وقال له: يا محمد إن صرعتين أمنت بك، فصرعه النبي صلى الله عليه وسلم مراراً فلم يؤمن». وفي رواية أنا أبا جهل قال: أنا أكفيكم عشرة فاكفوني تسعة، فأنزل الله تعالى {وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة} أي لا يطاقون كما تتوهمون {وما جعلنا عدتهم إلا فتنة} ضلالاً {للذين كفروا} الآية: أي بأن يقولوا ما ذكر، أو يقولوا لم كانوا تسعة عشر؟ وماذا أراد الله بهذا العدد: أي وهذا العدد لحكمة استأثر الله تعالى بعملها، وقد أبدى بعض المفسرين لذلك حكماً تراجع. وقد جاء في وصف تلك الملائكة «أن أعينهم كالبرق الخاطف، وأنيابهم كالصياصي» أي القرون «ما بين منكبي أحدهم مسيرة سنة» وفي رواية «ما بين منكبي أحدهم كما بين المشرق والمغرب، لأحدهم قوة مثل قوة الثقلين، نزعت الرحمة منهم».

وأخرج العتبي في (عيون الأخبار) عن طاوس: إن الله خلق مالكاً وخلق له أصابع على عدد أهل النار، فما من أهل النار معذب إلا ومالك يعذبه بأصبع من أصابعه، فوالله لو وضع مالك أصبعاً من أصابعه على السماء لأذابها، وهؤلاء التسعة عشر هم الرؤساء، ولكل واحد أتباع لا يعلم عدتهم إلا الله تعالى. قال تعالى: {وما يعلم جنود ربك إلا هو} أي وهؤلاء الأتباع منهم.

وأخرج هناد عن كعب قال: يؤمر بالرجل إلى النار فيبتدره مائة ألف ملك: أي والمتبادر أن هؤلاء من خزنتها.

وفي كلام بعضهم: لم يثبت لملائكة النار عدد معين سوى ما في قوله تعالى: {عليها تسعة عشر} وإنما ذلك لسقر التي هي إحدى دركات النار، لقوله تعالى قبل ذلك {سأصليه سقر} وقد يكون على كل واحدة منها مثل هذا العدد أو أكثر. قيل و«بسم الله الرحمن الرحيم» عدد حروفها على عدد هؤلاء الزبانية التسعة عشر، فمن قرأها وهو مؤمن دفع الله تعالى عنه بكل حرف منها واحداً منهم.

أقول: ومن استهزاء أبي جهل أيضاً أنه قال يوماً لقريش وهو يهزأ برسول الله صلى الله عليه وسلم وبما جاء به من الحق: يا معشر قريش يخوفنا محمد بشجرة الزقوم، يزعم أنها شجرة في النار يقال لها شجرة الزقوم، والنار تأكل الشجر، إنما الزقوم التمر والزبد.

وفي لفظ: العجوة تترب بالزبد، هاتوا تمراً وزبداً وتزقموا، فأنزل الله تعالى {إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم} أي منبتها في أصل جهنم ولا تسلط لجهنم عليها، أما علموا أن من قدر على خلق من يعيش في النار وبلتذ بها فهو أقدر على خلق الشجر في النار وحفظه من الإحراق بها؟
رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

وقد قال ابن سلام رضي الله تعالى عنه: إنها تحيا باللهب كما يحيا شجر الدنيا بالمطر، وثمر تلك الشجرة مرّ له زفرة. وأخرج الترمذي وصححه النسائي والبيهقي وابن حبان والحاكم عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في بحار الدنيا لأفسدت على أهل الأرض معاشهم فكيف بمن تكون طعامه؟» أي وقال: يا محمد لتتركن سبّ ألهتنا أو لنسبن إلهك الذي تعبد، فأنزل الله تعالى: {ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم} فكف عن سبّ ألهتهم، وجعل يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ.

ثم رأيت في الدر المنثور في تفسير {إنا كفيناك المستهزئين} قيل نزلت في جماعة مرّ النبي صلى الله عليه وسلم بهم، فجعلوا يغمزون في قفاه ويقولون. هذا الذي يزعم أنه نبي ومعه جبريل، فغمز جبريل عليه الصلاة والسلام بأصبعه في أجسادهم فصارت جروحاً وأنتنت، فلم يستطع أحد يدنو منهم حتى ماتوا فلينظر الجمع على تقدير الصحة.

وقد يدعى أنهم طائفة آخرون غير من ذكر، لأنهم المستهزئون ذلك الوقت، أي فقد تكرر نزول الآية، والله أعلم.

قال: ومن استهزاء النضر بن الحارث أنه كان إذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلساً يحدث فيه قومه ويحذرهم ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله تعالى خلفه في مجلسه ويقول لقريش: هلموا فإني والله يا معشر قريش أحسن حديثاً منه، يعني النبي «ثم يحدثهم عن ملوك فارس، لأنه كان يعلم أحاديثهم ويقول: ما حديث محمد إلا أساطير الأولين.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

ويقال إنه الذي {قال سأُنزل مثل ما أنزل الله} انتهى: أي لأنه ذهب إلى الحيرة واشترى منها أحاديث الأعاجم ثم قدم بها مكة فكان يحدث بها ويقول: هذه كأحاديث محمد عن عاد وثمود وغيرهم. ويقال إن ذلك كان سبباً لنزول قوله تعالى: {ومن الناس من يشتري لهو الحديث}. قال في النبوع: والمشهور أنها نزلت في شراء المغنيات. وقال: ولا بعد في أن تكون الآية نزلت فيهما ليتحقق العطف في قوله تعالى: {وإذا تتلى عليه آياتنا ولى مستكبراً} أي فإن هذا الوصف الثاني إنما يناسب النضر، فليتأمل، ولما تلا عليهم نبأ الأولين قال النضر بن الحارث: لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين، فأنزل الله تعالى تكذيباً له {قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً} أي معيناً له.

وجاء «أن جماعة من بين مخزوم منهم أبو جهل والوليد بن المغيرة تواصوا على قتله، فبينما قائماً يصلي سمعوا قراءته، فأرسلوا الوليد ليقبله، فانطلق حتى أتى المكان الذي يصلي فيه فجعل يسمع قراءته ولا يراه، فانصرف إليهم وأعلمهم بذلك فأتوه، فلما سمعوا قراءته قصدوا الصوت، فإذا الصوت من خلفهم، فذهبوا إليه فسمعوه من أمامهم ولا زالوا كذلك حتى انصرفوا خائبين، فأنزل الله تعالى قوله: {وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون} وتقدم في سبب نزولها غير ذلك. ويمكن أن يدعي أنها نزلت لوجود الأمرين فليتأمل.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

وجاء «أن النضر بن الحارث رأى النبي صلى الله عليه وسلم منفرداً أسفل ثنية الحجون فقال: لا أجده أبداً أخلى منه الساعة فأغتاله، فدنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليغتاله، فرأى أسود تضرب بأذنانها على رأسه فاتحة أفواهها فرجع على عقبه مرعوباً فلقي أبا جهل فقال: من أين؟ فأخبره النضر الخبر، فقال أبو جهل: هذا بعض سحره».

ومما تعنتوا به أنه لما نزل قوله تعالى: {إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم} أي وقودها. وحصب بالزنجية حطب: أي حطب جهنم. وقد قرأتها عائشة رضي الله تعالى عنها {كذلك أنتم لها واردون لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون} شق على كفار قريش وقالوا لعبد الله بن الزبير: قد زعم محمد أنا وما نعبد من آلهتنا حصب جهنم، فقال ابن الزبير: أنا أخصم لكم محمداً ادعوه لي، فدعوه له، فقال: يا محمد هذا شيء لآلهتنا خاصة أم لكل من عبد من دون الله؟ فقال: بل لكل من عبد من دون الله، فقال ابن الزبير: أخصمت ورب هذه البنية - يعني الكعبة - ألسنت تزعم يا محمد أن عيسى عبد من دون الله وكذا عزيزاً والملائكة، عبدت النصارى عيسى واليهود عزيزاً وبنو مليح الملائكة، فضج الكفار وفرحوا فأنزل الله تعالى: {إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون} يعني عيسى وعزيزاً والملائكة، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

تم بعون الله الجزء الأول ويليه الجزء الثاني وأوله: باب الهجرة الأوليحتمل أنه أتى به إليه فلم يأذن بإدخاله عليه، وربما يدل لذلك قوله هو الوزع إلى آخره.

وفي كلام بعضهم أن مروان ولد بمكة. وفي كلام بعض آجر أنه ولد بالطائف بعد أن نفى أبوه إلى الطائف: أي ولم يجتمع بالنبي صلى الله عليه وسلم فهو ليس بصحابي، ومن ثم قال البخاري: مروان بن الحكم لم ير النبي، وعن عائشة رضي الله تعالى عنها، أنها قالت لمروان «نزل في أبيك {ولا تطع كل حلاف مهين هماز مشاء بنميم} وقالت له «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لأبيك وجدك الذي هو العاص بن أمية: إنهم الشجرة الملعونة في القرآن» ولي مروان الخلافة تسعة أشهر. وعن عائشة رضي الله عنها أنها قالت لمروان بن الحكم، حيث قال لأخيها عبد الرحمن بن أبي بكر لما بايع معاوية لولده، قال مروان: سنة أبي بكر وعمر رضي الله تعالى عنهما، فقال عبد الرحمن: بل سنة هرقل وقيصر، وامتنع من البيعة ليزيد بن معاوية، فقال له مروان: أنت الذي أنزل الله فيك {والذي قال لوالديه أف لكما} فبلغ ذلك عائشة، فقالت كذب والله ما هو به، ثم قالت له: أما أنت يا مروان فأشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعن أباك وأنت في صلبه.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

وعن جبير بن مطعم «كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمّرّ الحكم بن العاص، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: ويل لأمتي مما في صلب هذا» قال بعضهم: وكون النبي صلى الله عليه وسلم مع ما هو عليه من الحلم والإغضاء على ما يكره فعل بالحكم ذلك، يدل على أمر عظيم ظهر له في الحكم وأولاده.

وعن حمران بن جابر الجعفي، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ويل لبني أمية ثلاث مرات» أي وقد ولي منهم الخلافة أربعة عشر رجلاً، أولهم معاوية بن أبي سفيان، وآخرهم مروان بن محمد، وكانت مدة ولايتهم ثنتين وثمانين سنة، وهي ألف شهر. وقال بعضهم: لا يزيد ذلك يوماً ولا ينقص يوماً. قال ابن كثير: وهذا غريب جداً، وفيه نظر، لأن معاوية حين تسلم الخلافة من الحسن كان ذلك سنة أربعين أو إحدى وأربعين، واستمر الأمر في بني أمية إلى أن انتقل إلى بني العباس سنة ثنتين وثلاثين ومائة، ومجموع ذلك ثنتان وتسعون سنة، وألف شهر تعدل ثلاثاً وثمانين سنة وأربعة أشهر هذا كلامه.

ومن استهزاء العاص بن وائل أنه كان يقول: غرّ محمد نفسه وأصحابه أن وعدهم أن يحيوا بعد الموت، والله ما يهلكنا إلا الدهر ومرور الأيام والأحداث.

رقم الجزء: 1 رقم الصفحة: 486

باب الهجرة الأولى إلى أرض الحبشة وسبب رجوع من هاجر إليها من المسلمين إلى مكة وإسلام عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه

لما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما نزل بالمسلمين من توالي الأذى عليهم من كفار قريش مع عدم قدرته على انقاذهم مما هم فيه، قال لهم: تفرقوا في الأرض فإن الله تعالى سيجمعكم قالوا: إلى أين نذهب؟ قال: ها هنا وأشار بيده إلى جهة أرض الحبشة؛ قال: وفي رواية «قال لهم اخرجوا إلى جهة أرض الحبشة، فإن بها ملكاً لا يظلم عنده أحد؛ أي وهي أرض صدق حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه» انتهى. أي ويجوز أن يكون ذلك عند استفساره عن محل إشارته. فقد جاء في الحديث «من فرّ بدينه من أرض إلى أرض وإن كان شبراً من الأرض استوجب له الجنة، وكان رفيق أبيه إبراهيم خليل الله ونيبه محمد» فهاجر إليها ناس ذو عدد مخافة الفتنة، وفراراً إلى الله تعالى بدينهم. ومنهم من هاجر بأهله. ومنهم من هاجر بنفسه؛ فممن هاجر بأهله عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه، هاجر ومعه زوجته رقية بنت النبي ، وكان أول خارج. وقيل أول من هاجر إلى الحبشة حاطب بن أبي عمرو. وقيل سليط بن عمرو، ولا ينافيهما قوله «إن عثمان لأول من هاجر بأهله بعد لوط» أي حيث (قال إني مهاجر إلى ربي) فهاجر إلى عمه إبراهيم الخليل، ثم هاجرا عليهما الصلاة والسلام حتى أتيا حران، ثم هاجرا إلى أن نزل إبراهيم عليه الصلاة والسلام فلسطين، ونزل لوط عليه الصلاة والسلام المؤتفكة. ووجه عدم المناقاة أن كلا من حاطب وسليط يجوز أن يكون هاجر بغير أهله وكان مع رقية أم أيمن حاضنته ، وكانت رقية رضي الله تعالى عنها ذات جمال بارع وكذا عثمان رضي الله تعالى عنه، ومن ثم كان النساء يغنيهما بقولهن: أحسن شيء قد يرى إنسان رقية وبعدها عثمان

ومن ثم ذكر «أنه بعث رجلاً إلى عثمان ورقية رضي الله تعالى عنهما فاحتبس عليه الرسول، فلما جاء إليه قال له : إن شئت أخبرتك ما حبسك؟ قال نعم، قال: وقفت تنظر إلى عثمان ورقية تعجب من حسنهما» أي ومعلوم أن ذلك كان قبل آية الحجاب.

ويذكر أن نفرًا من الحبشة كانوا ينظرون إليها فتأذت من ذلك فدعت عليهم فقتلوا جميعاً. وقد جاء في وصف حسن عثمان رضي الله تعالى عنه قوله «قال لي جبريل: إن أردت أن تنظر من أهل الأرض شبيه يوسف الصديق فانظر إلى عثمان بن عفان» وسيأتي ذلك مع زيادة. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

وأبو سلمة هاجر ومعه زوجته أم سلمة: أي وقيل هو أول من هاجر بأهله، وهو مخالف للرواية السابقة أن عثمان أول من هاجر بأهله. ويمكن أن تكون الأولوية فيه إضافية فلا ينافي ما سبق عن عثمان.

وعامر بن ربيعة هاجر ومعه امرأته ليلى: أي وعنها رضي الله تعالى عنها كان عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه من أشد الناس علينا في إسلامنا، فلما ركبت بعيري أريد أن أتوجه إلى أرض الحبشة إذا أنا بعمر بن الخطاب، فقال لي: إلى أين يا أمّ عبدالله؟ فقلت: قد أديتمونا في ديننا، نذهب في أرض الله حيث لا نؤذى، فقال صحبكم الله، ثم ذهب فجاء زوجي عامر فأخبرته بما رأيت

من رقة عمر، فقال: ترجين أن يسلم عمر، والله لا يسلم حتى يسلم حمار الخطاب: أي استبعاداً لما كان يرى من قسوته وشدته على أهل الإسلام، وهذا دليل على أن إسلام عمر كان بعد الهجرة الأولى للحبشة، وهو كذلك: أي خلافاً لمن قال إنه كان تمام الأربعين من المسلمين: أي ممن أسلم. وفيه أن المهاجرين إلى أرض الحبشة كانوا فوق ثمانين كما قاله بعضهم، اللهم إلا أن يقال إنه كان تمام الأربعين بعد خروج المهاجرين إلى أرض الحبشة، وربما يدل لذلك قول عائشة رضي الله تعالى عنها في قصة الصديق وفي ضرب قريش له رضي الله تعالى عنه لما قام خطيباً في المسجد الحرام، وقد تقدمت حيث قالت: وكان المسلمون تسعة وثلاثين رجلاً، لكن في الرواية أنهم قاموا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الدار شهراً وهم تسعة وثلاثون رجلاً، وقد كان حمزة بن عبد المطلب أسلم يوم ضرب أبو بكر فليتامل.

وفي لفظ عن أم عبدالله زوج عامر قالت: إنا لنرحل إلى أرض الحبشة، وقد ذهب عامر، تعني زوجها، إلى بعض حاجته، إذ أقبل عمر بن الخطاب حتى وقف عليّ وكنا نتقي منه الأذى والبلاء والشدة علينا، فقال: إنه لخروج يا أم عبدالله، فقلت: والله لنخرجن إلى أرض فقد أذيتونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا مخرجاً وفرجاً، فقال: صحبتكم الله، ورأيت له رقة لم أكن أراها، ثم انصرف وتفرست فيه حزناً لخروجنا، وقلت لعامر: يا أبا عبدالله لو رأيت ما وقع من عمر وذكرت ما تقدم.

وممن هاجر أبو سيرة، وهو أخو أبي سلمة رضي الله تعالى عنهما لأمه، أمهما برة بنت عبد المطلب عمه رسول الله، هاجر ومعه امرأته أم كلثوم. وممن هاجر بنفسه عيد الرحمن بن عوف وعثمان بن مظعون رضي الله تعالى عنهما: أي وكان أميراً عليهم كما قيل، وجزم به ابن المحدث في سيرته. وقال الزهري: لم يكن لهم أمير. وسهيل بن البيضاء: أي والزيبر بن العوام وعبدالله بن مسعود رضي الله تعالى عنهم. وقيل إنما كان عبدالله بن مسعود في الهجرة الثانية فخرجوا سرا: أي متسللين، منهم الراكب، ومنهم الماشي حتى انتهوا إلى البحر، فوفق الله تعالى لهم سفينتين للتجار حملوهم فيهما بنصف دينار: أي وفي المواهب: وخرجوا مشاة إلى البحر، فاستأجروا سفينة بنصف دينار؛ هذا كلامه فليتامل.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

وكان مخرجهم في رجب من السنة الخامسة من النبوة، فخرجت قريش في آثارهم حتى جاؤوا إلى البحر، فلم يجدوا أحداً منهم، ولعل خروجهم سرا لا ينافيه ما تقدم عن ليلى امرأة عامر بن ربيعة من سؤال عمر لها وأخبارها له بأنها تريد أرض الحبشة، فلما وصلوا إلى أرض الحبشة نزلوا بخير دار عند خير جار، فمكثوا في أرض الحبشة بقية رجب وشعبان إلى رمضان، فلما كان شهر رمضان قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم على المشركين {والنجم إذا هوى} أي وقد أنزلت عليه في ذلك الوقت. ففي كلام بعضهم «جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً مع المشركين، وأنزل الله تعالى عليه سورة

{والنجم إذا هوى} فقرأها عليهم حتى إذا بلغ {أفرايتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى} وسوس إليه الشيطان بكلمتين، فتكلم بهما طائفاً أنهما من جملة ما أوحى إليه، وهما: تلك الغرائيق العلى: أي الأصنام، وإن شفاعتهن لترتجى» وفي لفظ: «لهي التي ترتجى» شبهت الأصنام بالغرائيق التي هي طير الماء، جمع غرنوق بكسر الغين المعجمة وإسكان الراء ثم نون مفتوحة، أو غرنوق بضم الغين والنون أيضاً، أو غرنوق بضم الغين وفتح النون: وهو طير طويل العنق وهو الكركي أو يشبهه. ووجه الشبه بين الأصنام وتلك الطيور أن تلك الطيور تعلق وترتفع في السماء، فالأصنام شبهت بها في علو القدر وارتفاعه ثم مضى يقرأ السورة حتى بلغ السجدة فسجد وسجد القوم جميعاً: أي المسلمون والمشركون.

أقول: قال بعضهم: ولم يكن المسلمون سمعوا الذي ألقى الشيطان، وإنما سمع ذلك المشركون فسجدوا لتعظيم ألهتهم، ومن ثم عجب المسلمون من سجود المشركين معهم من غير إيمان.

قال بعضهم: والنجم هي أول سورة نزل فيها سجدة: أي أول سورة نزلت جملة كاملة فيها سجدة فلا ينافي أن {اقرأ باسم ربك} سورة نزلت فيها سجدة، لأن النازل منها أوائلها كما علمت.

وقد جاء «أنه قرأ يوماً {اقرأ باسم ربك} فسجد في آخرها وسجد معه المؤمنون فقام المشركون على رؤوسهم يصفقون».

وقد روى أبو هريرة رضي الله تعالى عنه «أنه سجد في النجم: أي غير سجدة المتقدمة التي سجد معه المشركون» ومجموع ذلك يردّ حديث ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «أنه لم يسجد في شيء من المفصل قبل أن يتحول إلى المدينة» لأن سورة النجم من المفصل، لأن عند أئمتنا أن أول المفصل الحجرات على الراجح من أقوال عشرة.

لا يقال: لعل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ممن يرى أن النجم ليس من المفصل. لأننا نقول {اقرأ باسم ربك} من المفصل اتفاقاً. وعلى ما قال أئمتنا يكون في المفصل ثلاث سجدة: في النجم والانشقاق {واقرأ باسم ربك} وهي أي النجم أول سورة أعلنها رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

وذكر الحافظ الدميّطي «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأى من قومه كفا عنه: أي تركاً وعدم تعرض له، فجلس خالياً فتمنى، فقال: ليته لم ينزل عليّ شيء ينفرهم عني» وفي رواية: «تمنى أن ينزل عليه ما يقارب بينه وبينهم حرصاً على إسلامهم، وقارب رسول الله صلى الله عليه وسلم قومه ودنا منهم ودنوا منه، فجلس يوماً مجلساً في ناد من تلك الأندية حول الكعبة، فقرأ عليهم {والنجم إذا هوى}» إلى آخر ما تقدم والله أعلم.

ومن جملة من كان من المشركين حينئذ الوليد بن المغيرة لكنه رفع تراباً إلى جبهته فسجد عليه، لأنه كان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود.

وقيل الذي فعل ذلك، سعيد بن العاص، ويقال كلاهما فعل ذلك، وقيل الفاعل لذلك أمية بن خلف وصحح، وقيل عتبة بن ربيعة، وقيل أبو لهب، وقيل المطلب.

وقد يقال: لا مانع أن يكونوا فعلوا ذلك جميعاً، بعضهم فعل ذلك تكبراً، وبعضهم فعل ذلك عجزاً، وممن فعل ذلك تكبراً أبو لهب، فقد جاء «وفيها سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم وسجد معه المؤمنون والمشركون والجن والإنس، غير أبي لهب فإنه رفع حفنة من تراب إلى جبهته، وقال يكفي هذا». ولا يخالف ذلك ما نقل عن ابن مسعود «ولقد رأيت الرجل أي الفاعل لذلك قتل كافراً» لأنه يجوز أن يكون المراد بقتل مات «فعند ذلك قال المشركون له: قد عرفنا أن الله تعالى يحيي ويميت ويخلق ويرزق، ولكن آلهتنا هذه تشفع لنا عنده فأما إذا جعلت لنا نصيباً فنحن معك، فكبر ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس في البيت».

وفيه أنه كيف يكبر عليه ذلك مع أنه موافق لما تمناه من أن الله ينزل عليه ما يقارب بينه وبين المشركين حرصاً على إسلامهم المتقدم ذلك عن سيرة الدمياطي، إلا أن يقال هذا كان بعد ما عرض السورة على جبريل، وقال له: ما جئتك بهاتين الكلمتين المذكور ذلك في قولنا: «فلما أمسى أتاه جبريل: فعرض عليه السورة وذكر الكلمتين فيها، فقال له جبريل: ما جئتك بهاتين الكلمتين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قلت على الله ما لم يقل أي فكبر عليه ذلك - فأوحى الله تعالى إليه ما في سورة الإسراء {وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره} بموافقتك لهم على مدح آلهتهم بما لم نرسل به إليك {وإذا} لو فعلت أي دمت عليه {لاتخذوك خليلاً} إلى قوله {ثم لا تجد لك علينا نصيراً} أي مانعاً يمنع العذاب عنك، وهذا يدل لما تقدم أنه تكلم بذلك ظاناً أنه من جملة ما أوحى إليه.

وقيل نزل ذلك لما قال له اليهود حسداً له على اقامته بالمدينة: لئن كنت نبياً فالحق بالشام لأنها أرض الأنبياء حتى نؤمن بك، فوقع ذلك في قلبه فخرج برحله فنزلت، فرجع أي بدليل ما بعدها. وقيل إن التي بعدها نزلت في أهل مكة وقيل إن آية {وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك} نزلت في ثقيف، قالوا: لا ندخل في أمرك حتى تعطينا خلالاً نفتخر بها على العرب: لا نعشر، ولا نحشر، ولا ننحني في صلاتنا، وكل رباً لنا فهو لنا، وكل رباً علينا فهو موضوع عنا، وأن تمتعنا باللات سنة، وأن تحرم وادينا كما حرمت مكة، فإن قالت العرب لم فعلت ذلك؟ فقل إن الله أمرني.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

وقيل نزلت في قريش قالوا: لا نمكنك من استلام الحجر حتى تلمم بآلهتنا وتمسها بيدك.

وقد يدعى أن هذا مما تعدد أسباب نزوله، والقاضي البيضاوي اقتصر على ما عدا الأول، والله أعلم.

قال: وقيل إن هاتين الكلمتين لم يتكلم بهما رسول الله، وإنما ارتصد الشيطان سكتة عند قوله الأخرى، فقالهما محاكياً نغمته، فظنهما النبي صلى الله عليه وسلم كما في (شرح المواقف) ومن سمعه أنهما من قوله: أي حتى قال: قلت على الله ما لم يقل، وتباشير بذلك المشركون، وقالوا إن محمداً قد رجع إلى ديننا: أي دين قومه حتى ذكر أن آلهتنا لتشفع لنا، وعند ذلك أنزل الله

تعالى قوله {وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أمنيته} أي قراءته ما ليس من القرآن: أي مما يرضاه المرسل إليهم. وفي البخاري «إذا حدث ألقى الشيطان في حديثه (فينسخ الله ما يلقي الشيطان) يبطله (ثم يحكم الله آياته) أي يثبتها (والله عليم) بالقاء الشيطان ما ذكر (حكيم) في تمكينه من ذلك، يفعل ما يشاء ليميز به الثابت على الإيمان من المتزلزل فيه، ولم أقف على بيان أحد من الأنبياء والمرسلين وقع له مثل ذلك.

وفيه كيف يجترىء الشيطان على التكلم بشيء من الوحي. ومن ثم قيل: هذه القصة طعن في صحتها جمع وقالوا إنها باطلة وضعها الزنادقة: أي ومن ثم أسقطها القاضي البيضاوي. ومن جملة المنكرين لها القاضي عياض، فقد قال: هذا الحديث لم يخرج أحد من أهل الصحة، ولا رواه ثقة بسند سليم متصل وإنما أولع به المفسرون المؤرخون، المولعون بكل غريب. أي وقال البيهقي: رواه هذه القصة كلهم مطعون فيهم. وقال الإمام النووي نقلاً عنه وأما ما يرويه الإخباريون والمفسرون أن سبب سجود المشركين مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ما جرى على لسانه من الثناء على ألهتهم فباطل لا يصح منهم شيء، لا من جهة النقل، ولا من جهة العقل، لأن مدح إله غير الله كفر، ولا يصح نسبة ذلك إلى رسول الله، ولا أن يقوله الشيطان على لسان رسول الله، ولا يصح تسليط الشيطان على ذلك: أي وألا يلزم عدم الوثوق بالوحي.

وقال الفخر الرازي: هذه القصة باطلة موضوعة، لا يجوز القول بها. قال الله تعالى {وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى} أي الشيطان لا يجترىء أن ينطق بشيء من الوحي. وقال بصحتها جمع منهم خاتمة الحفاظ الشهاب ابن حجر، وقال: رد عياض لا فائدة فيه، ولا يعود عليه، هذا كلامه، وفتنا أمر تلك السجدة في الناس حتى بلغ أرض الحبشة أن أهل مكة: أي عظماءهم قد سجدوا وأسلموا حتى الوليد بن المغيرة، وسعيد بن العاص. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

وفي كلام بعضهم: والناقل لإسلامه أنه لما رأى المشركين قد سجدوا متابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم اعتقد أنهم أسلموا واصطلحوا معه، ولم يبق نزاع معهم، فطار الخبر بذلك، وانتشر حتى بلغ مهاجرة الحبشة، فطنوا صحة ذلك، فقال المهاجرون بها: من بقي بمكة: إذا أسلم هؤلاء عشائرتنا أحب إلينا فخرجوا: أي خرج جماعة منهم من أرض الحبشة راجعين إلى مكة: أي وكانوا ثلاثة وثلاثين رجلاً، منهم عثمان بن عفان، والزيبر ابن العوام وعثمان بن مظعون، وذلك في شوال، حتى إذا كانوا دون مكة ساعة من نهار لقوا ركباً فسألوهم عن قريش، فقال الركب: ذكر محمد ألهتهم بخير فتابعه الملاء، ثم عاد لشتيم ألهتهم وعادوا له بالشر، وتركناهم على ذلك، فائتمر القوم في الرجوع إلى أرض الحبشة، ثم قالوا: قد بلغنا مكة فندخل ننظر ما فيه قريش ويحدث عهداً من أراد بأهله ثم نرجع فدخلوا مكة؛ أي بعضهم بجوار وبعضهم مستخفياً.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

قال في الإمتاع: ويقال إن رجوع من كان مهاجراً بالحبشة إلى مكة كان بعد الخروج من الشعب، هذا كلامه. وفيه نظر ظاهر، ويرشد إليه التبري لأنهم مكثوا في الشعب ثلاث سنين أو سنتين، ومكث هؤلاء عند النجاشي حينئذ كان دون ثلاثة أشهر كما علمت. وأيضاً الهجرة الثانية للحبشة إنما كانت بعد دخول الشعب كما سيأتي.

قال في الأصل: ولم يدخل أحد منهم إلا بجوار إلا ابن مسعود؛ فإنه مكث يسيراً ثم رجع إلى أرض الحبشة.

أي وهذا من صاحب الأصل تصريح بأن ابن مسعود كان في الهجرة الأولى، وهو موافق في ذلك لشيوخه الحافظ الدمياطي، لكن الحافظ الدمياطي جزم بأن ابن مسعود كان في الهجرة الأولى ولم يحك خلافاً، وصاحب الأصل حكى خلافاً أنه لم يكن فيها، وبه جزم ابن إسحاق حيث قال: إن ابن مسعود إنما كان في الهجرة الثانية، فكان ينبغي للأصل أن يقول على ما تقدم. هذا، وفي كلام بعضهم: فلم يدخل أحد منهم مكة إلا مستخفياً، وكلهم دخلوا مكة إلا عبدالله بن مسعود فإنه رجع إلى أرض الحبشة.

وقد يقال: لما لم يطل مكث ابن مسعود بمكة ظن به أنه لم يدخلها، فلا ينافي ما سبق. ويجوز أن يكون أكثرهم دخل مكة بلا جوار فأطلقوا على الكل أنهم دخلوا مستخفين، فلا يخالف ما سبق أيضاً، ولما رجعوا لقوا من المشركين أشد ما عهدوا.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

قال: وممن دخل بجوار: عثمان بن مظعون، دخل في جوار الوليد بن المغيرة، ولما رأى ما يفعل بالمسلمين من الأذى قال: والله إن غدويّ ورواحي أماناً بجوار رجل من أهل الشرك وأصحابي وأهل ديني يلقون من الأذى في الله ما لا يصيبني لنقص كبير، فمشى إلى الوليد فقال: يا أبا عبد شمس وفت ذمتك وقد رددت إليك جوارك، قال له: ابن أخي لعله أذاك أحد من قومي وأنت في ذمتي فأكيفك ذلك؟ قال: لا والله ما اعترض لي أحد ولا آذاني، ولكن أرضي بجوار الله عز وجل وأريد أن لا أستجير بغيره، قال: انطلق إلى المسجد فأررد إليّ جوارني علانية كما أجزتك علانية، فانطلقا حتى أتيا المسجد فقال الوليد: هذا عثمان قد جاء يرد عليّ جوارني، فقال عثمان صدق، وقد وجدته وفياً كريم الجوار، ولكنني لا أستجير بغير الله عز وجل، قد رددت عليه جواره، فقال الوليد أشهدكم أنني بريء من جواره إلا أن يشاء، ثم انصرف عثمان وليد بن ربيعة بن مالك في مجلس من قريش ينشدهم قبل إسلامه، فجلس عثمان معهم، فقال لبيد * ألا كل شيء ما خلا الله باطل * فقال عثمان: صدقت، فقال لبيد * وكل نعيم لا محالة زائل * فقال عثمان: كذبت، نعيم الجنة لا يزول، فقال لبيد: يا معشر قريش ما كان يؤذي جليستكم فمتى حدث هذا فيكم؟ فقال رجل من القوم: إن هذا سفيه. فمن سفاهته فارق ديننا فلا تجدن في نفسك من قوله، فرد عليه عثمان، فقام ذلك الرجل فلطم عينه والوليد بن المغيرة قريب يرى ما بلغ من عثمان، فقال: أما والله يا ابن أخي كانت عينك عما أصابها لغنية، ولقد كنت في ذمة منيعة فخرجت منها، وكنت عن الذي لقيت غنياً، فقال عثمان رضي الله

تعالى عنه: بل كنت إلى الذي لقيت فقيراً، والله إن عيني الصحيحة التي لم تلطم لفقيره إلى مثل ما أصاب أختها في الله عز وجل، ولي فيمن هو أحب إليّ منكم أسوة، وإنني لفي جوار من هو أعزّ منك انتهى، فعثمان فهم أن ليبدأ أراد بالنعيم ما هو شامل لنعيم الآخرة ومن ثم قال له نعيم الجنة لا يزول. لا يقال: لولا أن ليبدأ يريد مطلق النعيم الشامل لنعيم الآخرة لما تشوش من الردّ عليه. لأننا نقول: يجوز أن يكون تشوشه من مشافهة عثمان له بقوله كذبت.

على أن هذا السياق دالّ على أن ليبدأ قال هذا الشعر قبل إسلامه، ويؤيده ما قيل: أكثر أهل الأخبار على أن ليبدأ لم يقل شعراً منذ أسلم، وبه يردّ ما في الاستيعاب أن هذا: أي قوله: ألا كل شيء إلى آخره شعر حسن، فيه ما يدل على أنه قاله في الإسلام، وكذلك قوله:

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

فوكل امرى يوماً سيعلم سعيه
إذا كشفت عند الإله المحاصل

وقد يقال: لا يلزم من قوله المذكور الذي لا يصدر غالباً إلا عن مسلم أن يكون قاله في حال إسلامه، كما وقع لأمية بن أبي الصلت حيث قال في شعره ما لا يقوله إلا مسلم مع كفره، ومن ثم قال فيه «أمن شعره وكفر قلبه» وفي رواية «كاد يسلم».

وذكر محيي الدين بن العربي قوله. «أصدق بيت قالته العرب» وفي رواية «أشعر كلمة تكلمت به العرب كلمة ليبدأ: ألا كل شيء ما خلا الله باطل».

اعلم أن الموجودات كلها وإن وصفت بالباطل فهي حق من حيث الوجود، ولكن سلطان المقام إذا غلب على صاحبه يرى ما سوى الله تعالى باطلاً من حيث إنه ليس له وجود من ذاته، فحكمه حكم العدم، وهذا معنى قول بعضهم قوله باطل: أي كالباطل، لأن العالم قائم بالله تعالى لا بنفسه، فهو من هذا الوجه باطل، والعارف إذا وصل إلى مقامات القرب في بداية عرفانه ربما تلاشت هذه الكائنات وحجب عن شهودها بشهود الحق، لا أنها زالت من الوجود بالكلية، ثم إذا كمل عرفانه يشهد الحق تعالى والخلق معاً في أن واحد، وما كل أحد يصل إلى هذا المقام، فإن غالب الناس إن شهد الحق لم يشهد الخلق، وإن شهد الخلق لم يشهد الحق كما تقدم عند الكلام على الوحدة أنه لا يدركها إلا من أدرك اجتماع الضدين، ولعل من المشهد الأول قول الأستاذ الشيخ أبي الحسن البكري رضي الله تعالى عنه: أستغفر الله مما سوى الله، لأن الباطل يستغفر من إثبات وجوده لذاته.

ويوافق قول أكثر أهل الأخبار: قول السهيلي: وأسلم ليبدأ وحسن إسلامه، وعاش في الإسلام ستين سنة لم يقل فيها بيت شعر، فسأله عمر رضي الله تعالى عنه: أي في خلافته عن تركه للشعر، فقال: ما كنت لأقول شعراً بعد أن علمني الله تعالى البقرة وآل عمران، فزاده عمر في عطائه خمسمائة من أجل هذا القول، فكان عطاؤه ألفين وخمسمائة. وقيل إنه قال بيتاً واحداً في الإسلام وهو:

فالحمد لله الذي لم يأتني أجلي
حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

قال: وممن دخل بجوار: أبو سلمة بن عبد الأسد ابن عمته ، فإنه دخل في جوار خاله أبي طالب. ولما أجاره مشى إليه رجال من بني مخزوم. فقالوا: يا أبا طالب منعت منا ابن أختك فمالك ولصاحبنا تمنعه منا؟ فقال: إنه استجار بي وهو ابن أختي، وأنا إن لم أمنع ابن أختي لم أمنع ابن أخي. فقام أبو لهب على أولئك الرجال، وقال لهم: يا معشر قريش لا تزالون تعارضون هذا الشيخ في جواره من قومه، والله لتنتهن أو لأقومنّ معه في كل مقام يقوم فيه حتى يبلغ ما أراد، قالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة؛ أي لأنه كان لهم ولياً وناصراً على رسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى: أي وطمع أبو طالب في أبي لهب حيث سمعه يقول ما ذكر، ورجا أن يقوم معه في شأنه ، وأنشد أبياتا يحرضه فيها على نصرته .

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

وممن أودي في الله بعد إسلامه ووقع له نظير ما وقع لعثمان بن مظعون رضي الله عنه عمر بن الخطاب.

وسبب إسلامه على ما حدّث به بعضهم قال: قال لنا عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه: أتحيون أن أعلمكم كيف كان بدء إسلامي أي ابتداءؤه والسبب فيه؟ قلنا: نعم قال: كنت من أشد الناس على رسول الله ، فبينما أنا في يوم حار شديد الحرّ بالهاجرة في بعض طرق مكة، إذ لقيني رجل من قريش: أي وهو نعيم بن عبد الله النحام بالحاء المهملة. قيل له ذلك، لأنه قال فيه: لقد سمعت نجمته في الجنة، أي صوته وحسه، كان يخفي إسلامه خوفاً من قومه، وأخبرني أن أختي يعني أم جميل، واسمها فاطمة كما تقدم، وقيل زينب، وقيل أمنة قد صبئت: أي أسلمت وكذا زوجها وهو سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل أحد العشرة المشهود لهم بالجنة، وهو ابن عمّ عمر، وكانت أخت سعيد عاتكة تحت عمر، فرجعت مغضبا، وقد كان رسول يجمع الرجل والرجلين إذا أسلما عند الرجل به قوّة يكونان معه يصيبان من طعامه وقد ضم إلى زوج أختي رجلين ممن أسلم: أي أحدهما خباب بن الأثرث بالمثلثة فوق، والآخر لم أقف على اسمه.

وفي السيرة الهشامية الاقتصار على خباب، وأنه كان يختلف إليهما ليعلمهما القرآن، فجئت حتى قرعت الباب، فقيل لي: من بالباب؟ قلت: ابن الخطاب، وكان القوم جلوساً يقرؤون صحيفة معهم، فلما سمعوا صوتي تبادروا: أي واستخفوا ونسوا الصحيفة، فقامت المرأة يعني أخته ففتحت لي فقلت لها يا عدوة نفسها قد بلغني أنك قد صبوت وضربتني بشيء كان في يدي فسال الدم، فلما رأت الدم بكت وقالت: يا ابن الخطاب ما كنت فاعلاً فافعل فقد أسلمت،

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

فدخلت وجلست على السرير، فنظرت فإذا بالصحيفة في ناحية من البيت، فقلت: ما هذا الكتاب؟ أعطينيهِ: أي فإن عمر كان كاتباً، فقالت: لا أعطيكه لست من أهله، أنت لا تغتسل من الجنابة ولا تتطهر، وهذا لا يمسه إلا المطهرون، فلم أزل حتى أعطتنيهِ: أي بعد أن اغتسل كما في بعض الروايات، وفي بعض الروايات قالت له: يا أخي إنك نجس على شركك فإنه لا يمسه إلا المطهرون، وقولها لا تغتسل من الجنابة، ربما يخالف قول بعضهم إن أهل الجاهلية كانوا يغتسلون من الجنابة، وكون عمر كان يخالفهم في ذلك من البعيد، وكون هذا منها يحمل على أنه لم يغتسل غسلًا يعتدُّ به يخالفه ما تقدم عن بعض الروايات أنه لما اغتسل دفعت له تلك الرقعة وفي لفظ قالت له: إنا نخشاك عليها، قال لا تخافي وحلف لها بالهتة ليردنها إذا قرأها، فدفعتها له، أي وطمعت في إسلامه، فإذا فيها (بسم الله الرحمن الرحيم)، قال: فلما مررت على (بسم الله الرحمن الرحيم) ذعرت أي فزعت ورميت الصحيفة من يدي: ثم رجعت إلى نفسي فأخذتها، فإذا فيها {سبح لله ما في السموات وما في الأرض وهو العزيز الحكيم} فكلما مررت باسم من أسمائه عز وجل ذعرت: أي فألقيتها ثم ترجع إلي نفسي فأخذها حتى بلغت {أمنوا بالله ورسوله} إلى قوله تعالى {إن كنتم مؤمنين} فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله صلى الله عليه وسلم فخرج القوم يتبادرون بالتكبير استبشاراً بما سمعوا مني، وحمدوا الله عز وجل، ثم

قالوا: يا ابن الخطاب أبشر فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم دعا، فقال «اللهم أعز الإسلام» وفي لفظ «أيد الإسلام بأحد الرجلين، إما بأبي جهل بن هشام، وإما بعمر بن الخطاب» أي وفي لفظ «بأحب هذين الرجلين إليك أبي الحكم عمرو بن هشام يعني أبا جهل وعمر بن الخطاب» أي وفي غير ما رواية بعمر ابن الخطاب، من غير ذكر أبي جهل.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

وعن عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: إنما قال «اللهم أعز عمر بالإسلام» لأن الإسلام يعز ولا يعز، ولعل قول عائشة ما ذكر نشأ عن اجتهاد منها، بدليل تعليلها واستبعادها أن يعز الإسلام بعمر فليأمل. وكان دعاؤه بذلك يوم الأربعاء فأسلم عمر يوم الخميس. قال عمر رضي الله تعالى عنه: فلما عرفوا مني الصدق، قلت لهم أخبروني بمكان رسول الله، قالوا: هو في بيت بأسفل الصفا ووصفوه: أي وهي دار الأرقم فخرجت» وفي رواية «أن عمر قال: يا خباب انطلق بنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقام خباب وابن عمه سعيد معه قال عمر: فلما قرعت الباب قيل من هذا؟ قلت: ابن الخطاب، فما اجتراً أحد أن يفتح لي الباب لما عرفوه من شدتي على رسول الله، ولم يعلموا إسلامي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: افتحوا له، فإن يرد الله به خيراً يهده». وفي لفظ يهديه باثبات الياء، وهي لغة «فتحوا لي: أي والذي أذن في دخوله حمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنه، فإن إسلام عمر كان بعد إسلام حمزة بثلاثة أيام، وقيل بثلاثة أشهر. وكان إسلام عمر وهو ابن ست وعشرين سنة. قال: وأخذ رجلان بعضدي حتى دنوت من النبي، فقال: أرسلوه، فأرسلوني، فجلست بين يديه فأخذ بمجامع قميصي فجذبني

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

إليه ثم قال: أسلم يا ابن الخطاب، اللهم اهده، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، فكبر المسلمون تكبيرة سمعت، بطرف مكة».

أي وفي الأوسط للطبراني، ورواه الحاكم بإسناد حسن عن ابن عمر «أن رسول الله، ضرب صدر عمر بيده حين أسلم ثلاث مرات وهو يقول: اللهم أخرج ما في صدر عمر من غلِّ وأبدله إيماناً» أي ولعل خباباً وسعيداً لم يدخلوا معه وإلا لبشرا بإسلام عمر.

وفي رواية «لما ضرب الباب وسمعوا صوته قام رجل فنظر من خلل الباب فراه متوشحاً سيفه: أي ولم ير معه خباباً ولا سعيداً، فرجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو فزع، فقال: يا رسول الله، هذا عمر بن الخطاب متوشحاً سيفه، نعوذ بالله من شره، فقال حمزة بن عبد المطلب: فائذن له، فإن كان جاء يريد خيراً بذلنا له، وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه». وفي لفظ «إن يرد بعمر خير يسلم، وإن يرد غير ذلك يكن قتله علينا هيناً، ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ائذن له، فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه في صحن الدار، فأخذ بحجزته وجذبه جذبة شديدة وقال: ما جاء بك يا بن الخطاب؟ فوالله ما أدري أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

وفي لفظ «أخذ بمجامع ثوبه وحمايل سيفه، وقال: ما أنت منته يا عمر حتى ينزل الله بك من الخزي والنكال ما أنزل الله بالوليد بن المغيرة» أي أحد المستهزئين به كما تقدم، فقال «يا رسول الله جئت لأؤمن بالله ورسوله أشهد أنك رسول الله» وفي رواية «أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرفت» وفي رواية «سمعها أهل المسجد».

وفي رواية «لما جاء دفع الباب فوجد بلالاً وراء الباب، فقال بلال: من هذا؟ فقال: عمر بن الخطاب، فقال: حتى استأذن لك على رسول الله، فقال بلال: يا رسول الله عمر بالباب، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن يرد الله به خيراً أدخله في الدين، فقال لبلال: افتح له، وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بضبعه فهزه».

وفي رواية: «أخذ ساعده وانتهره؛ فارتعد عمر هيبه لرسول الله صلى الله عليه وسلم وجلس» وفي لفظ «أخذ بمجامع ثيابه ثم نثره نثرة فما تمالك عمر أن وقع على ركبتيه، فقال: اللهم هذا عمر بن الخطاب، اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، ما الذي تريد وما الذي جئت له؟ فقال عمر: اعرض عليّ الذي تدعو إليه فقال: تشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله فأسلم عمر مكانه».

أقول: ولا ينافي هذا ما تقدم من إسلامه وإتيانه بالشهادتين في بيت أخته قبل خروجه إليه: وقوله ولم يعلموا إسلامي، لأنه يجوز أن يكون مراده بقوله جئت

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

لأومن جئت لأظهر إيماني عندك وعند أصحابك، وعند ذلك قال له رسول الله :
«أسلم يا بن الخطاب» إلى آخره، وقوله للنبي : اعرض عليّ الذي تدعو إليه
يجوز أن يكون عمر جوّز أن الذي يدعو إليه ويصير به المسلم مسلماً أخص
مما نطق به من الشهادتين، والله أعلم. قال عمر: وأحببت أن يظهر إسلامي
وأن يصيبني ما يصيب من أسلم من الضرر والإهانة، فذهبت إلى خالي وكان
شريفاً في قريش وأعلمته أنني صبت: أي وهو أبو جهل.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

وقد جاء في بعض الروايات، قال عمر: لما أسلمت تذكرت أيّ أهل مكة أشد
لرسول الله صلى الله عليه وسلم عداوة حتى آتته فأخبره أنني قد أسلمت،
فذكرت أبا الجهل فجئت له فدققت عليه الباب، فقال: من بالباب؟ قلت عمر
بن الخطاب، فخرج إليّ فقال: مرحباً وأهلاً يا بن أختي، ما جاء بك؟ قلت جئت
لأخبرك. وفي لفظ لأبشرك ببشارة، فقال أبو جهل: وما هي يا ابن أختي؟
فقلت: إنني قد آمنت بالله وبرسوله محمد وصدّقت ما جاء به، فضرب الباب
في وجهي: أي أغلقه، وهو بمعنى أجاف الباب كما في بعض الروايات وقال:
قبحك الله وقبح ما جئت به: أي وإنما كان أبو جهل خال عمر بن الخطاب رضي
الله تعالى عنه، قيل لأن أم عمر أخت أبي جهل، وقيل لأن أم عمر بنت هشام
بن المغيرة والد أبي جهل، فأبو جهل خال أم عمر وقيل إن أم عمر بنت عم
أبي جهل وصححه ابن عبد البر، وعصية الأم أخوال الابن. قال عمر: وجئت
رجلاً آخر من عظماء قريش وأعلمته أنني صبت فلم يصيبني منها شيء، فقال
لي رجل: تحب أن يعلم إسلامك؟ قلت نعم، قال: إذا جلس الناس يعني قريشاً
في الحجر واجتمعوا فائت فلاناً لشخص كان لا يكتفم السر وهو جميل بن معمر
رضي الله عنه. أسلم يوم الفتح، وشهد مع النبي صلى الله عليه وسلم حينئذ،
وكان يسمى ذا القليين، وفيه نزلت {ما جعل الله لرجل من قلوبين في جوفه}
ومات في خلافة عمر رضي الله تعالى عنه، وحزن عليه عمر حزناً شديداً، فقل
له فيما بينك وبينه إنني قد صبت، قال فلما اجتمعت الناس في الحجر جئت
الرجل فدنوت منه وأخبرته، فرفع صوته بأعلاه، فقال: ألا إن عمر بن الخطاب
قد صبا، فما زال الناس يضربوني وأضربهم، فقام خالي - يعني أبا جهل على
الحجر فأشار بكمه وقال: ألا إنني أجرت ابن أختي، فانكشف الناس عني،
فصرت «أي بعد ذلك» أرى الواحد من المسلمين يضرب وأنا لا أضرب، فقلت:
ما هذا بشيء حتى يصيبني ما يصيب المسلمين، فأمهلت حتى جلس الناس في
الحجر وصلت إلى خالي وقلت له: جوارك عليك ردّ،

فقال: لا تفعل يا بن أختي، فقلت: بل هو ذاك، فما زلت أضرب وأضرب حتى
أعز الله الإسلام».

أي وفي السيرة الهشامية: بينما القوم يقاتلونه ويقاتلهم، إذ أقبل شيخ من
قريش عليه حلة حبرة وقميص موشى حتى وقف عليهم: أي وهو العاص بن
وائل فقال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا صباً عمر، قال: فمه، رجل اختار لنفسه
أمراً فماذا تريدون؟ أترون بني عدي بن كعب مسلمين لكم صاحبهم هكذا،

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

خلوا عن الرجل، فانفرجوا عنه كأنهم ثوب كشط عنه. أي وفي البخاري «لما أسلم عمر اجتمع الناس عند داره وقالوا صباً عمر، فبينما عمر في داره خائفاً إذ جاءه العاص بن وائل، فقال له: مالك؟ قال: زعم قومك أنهم سيقتلونني إن أسلمت: أي إذ أسلمت، قال: أمنت لا سبيل إليك، فخرج العاص فلقى الناس قد سأل بهم الوادي، فقال: أين تريدون؟ فقالوا: نريد هذا عمر بن الخطاب الذي صبا، قال: لا سبيل إليه فأنا له جار، فكسر الناس، وتصعدوا عنه» أي ويذكر «أن عتبة بن ربيعة وثب عليه فألقاه عمر إلى الأرض وبرك عليه وجعل يضربه وأدخل أصبعيه في عينيه، فجعل عتبة يصيح، وصار لا يدنو منه أحد إلا أخذ بشراسيفه وهي أطراف أضلاعه».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

وعن عمر رضي الله تعالى عنه في سبب إسلامه، قال «خرجت أتعرض لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن أسلم فوجدته قد سبقني إلى المسجد، فقممت خلفه، فاستفتح بسورة الحاقة، فجعلت أتعجب من تأليف القرآن، فقلت: هذا والله شاعر كما قالت قريش، فقرأ {إنه لقول رسول كريم وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون} قال: قلت كاهن علم ما في نفسي، فقرأ {ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون} إلى آخر السورة، فوقع الإسلام في قلبي كل موقع».

أي ومن ذلك ما في السيرة الهشامية عن عمر رضي الله تعالى عنه «قال: جئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة، فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، وكان إذا صلى استقبل الشام» أي صخرة بيت المقدس «وجعل الكعبة بينه وبين الشام، فكان مصلاه بين الركن الأسود والركن اليماني» أي لأنه لا يكون مستقبلاً لبيت المقدس إلا حينئذٍ كما تقدم «قال: فقلت حين رأيته لو أنني استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول، قال: فقلت لئن دنوت منه أستمع لأروعه، فجئت من قبل الحجر فدخلت تحت ثيابها يعني الكعبة، فجعلت أمشي رويداً ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي فقرأ الرحمن حتى قمت في قبلته مستقبلة ما بيني وبينه إلا ثياب الكعبة، فلما سمعت القرآن رق له قلبي فبكيت ودخلني الإسلام، فلم أزل قائماً في مكاني ذلك حتى قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاته ثم انصرف فتبعته، فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم حسني عرفني وظن إنما تبعته لأوذيته فنهمني أي زجرني، ثم قال: ما جاء بك يا بن الخطاب هذه الساعة؟ قلت: جئت لأؤمن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله» وفي رواية «ضرب أختي المخاض ليلاً، فخرجت من البيت فدخلت في أستار الكعبة، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل الحجر فصلى فيه ما شاء الله ثم انصرف، فسمعت شيئاً لم أسمع مثله، فخرج فاتبعته، فقال: من هذا؟ قلت عمر، قال: يا عمر ما تدعني لا ليلاً ولا نهاراً، فخشيت أن يدعو عليّ، فقلت: أشهد أن لا إله إلا الله وأنت رسول الله، فقال: يا عمر أتسرّه. قلت: لا والذي بعثك بالحق لأعلنه كما أعلنت الشرك، فحمد الله تعالى، ثم قال: هداك الله يا عمر، ثم مسح صدري ودعا لي بالثبات، ثم انصرفت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخل بيته».

أي ويحتاج للجمع بين هذه الروايات على تقدير صحتها، ثم رأيت العلامة ابن

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

مكتبة مشكاة

حجر الهيتمي، قال: ويمكن الجمع بتعداد الواقعة قبل إسلامه، هذا كلامه فليتأمل ما فيه.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3
قال: ومن ذلك أي مما كان سبباً لإسلام عمر «أن أبا جهل بن هشام، قال: يا معشر قريش إن محمداً قد شتم أهتكم وسفه أحلامكم، وزعم أن من مضى من أسلافكم يتهافتون في النار، ألا ومن قتل محمداً فله عليّ مائة ناقة حمراء وسوداء، وألف أوقية من فضة: أي وفي لفظ: جعلوا لمن يقتله كذا وكذا أوقية من الذهب، وكذا كذا أوقية من الفضة، وكذا كذا ناقة من المسك، وكذا كذا ثوباً وغير ذلك، فقال عمر: أنا لها، فقالوا له: أنت لها يا عمر وتعاهد معهم على ذلك، قال عمر: فخرجت متقلداً سيفي متنكباً كنانتي: أي جعلتها في منكبي أريد رسول الله . فمررت على عجل يذبح، فسمعت من جوفه صوتاً يقول: يا آل ذريح، صائح يصيح، بلسان فصيح، يدعو إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فقلت في نفسي: إن هذا الأمر لا يراد به إلا أنت، وذريح اسم للعجل المذبوح، وقيل له ذلك من أجل الدم، لأن الذريح شديد الحمرة، يقال أحمر ذريحي: أي شديد الحمرة، ثم مر برجل أسلم وكان يكتم إسلامه خوفاً من قومه، يقال له نعيم: أي ابن عبدالله النحام كما تقدم، فقال له: أين تذهب يا ابن الخطاب؟ فقال: أريد هذا الصابيء الذي فرّق أمر قريش وسفه أحلامها وسب آلهتها فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك: أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على وجه الأرض وقد قتلت محمداً؟ فلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال: وأي أهل بيتي؟ قال: خنتك أي زوج أختك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وأختك قد أسلما فعليك، وإنما فعل ذلك نعيم ليصرفه عن أذية رسول الله ، وقيل الذي لقيه سعد بن أبي وقاص، فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد أن أقتل محمداً، قال له: أنت أصغر وأحق من ذلك، تريد أن تقتل محمداً وتدعك بنو عبد مناف أن تمشي على الأرض، فقال له عمر: ما أراك إلا وقد صبات فأبدأ بك فأقتلك، فقال سعد: أشهد أن لا إله إلا الله وإن

محمداً رسول الله، فسئل عمر سيفه وسل سعد سيفه وشد كل منهما على الآخر حتى كاد أن يختلطا، ثم قال سعد لعمر: مالك يا عمر لا تصنع هذا بخنتك وأختك، فقال صبا قال نعم، فتركه عمر وسار إلى منزل أخته» أي ولا مانع أن يكون لقي كلا من نعيم وسعد بن أبي وقاص وقال له كل منهما ما ذكر.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

وفي هذه الرواية «وجد عندهم خباب بن الأرت معه صحيفة فيها سورة طه يقرؤها عليهم، وإنه دق عليهم الباب، فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب: أي وترك الصحيفة، فلما دخل قال لأخته: ما هذه الهيمنة التي سمعت؟ قالت له: ما سمعت شيئاً غير حديث تحدثنا به بيننا، قال بلى والله لقد أخبرت أنكما - يخاطب أخته وزوجها - بايعتما محمداً على دينه، وبطش بزواج أخته فألقاه إلى الأرض وجلس على صدره وأخذ بلحيته، فقامت إليه أخته لتكفه عن زوجها،

فضربها فشجها: أي فلما رأت الدم قالت له: يا عدو الله أتضربني على أن أوحده الله تعالى؟ لقد أسلمت على رغم أنفك فاصنع ما أنت صانع، فلما رأى ما بأخته وما صنع بزوجها ندم وقال لأخته: أعطني هذه الصحيفة أنظر ما هذا الذي جاء به محمد؟ وكان عمر كاتباً، قالت: أخشاك عليها، فحلف ليردنها إذا قرأها إليها، فقالت له: يا أخي أنت نجس ولا يمسه إلا الطاهر، فقام واغتسل: أي وفي لفظ فذهب يغتسل، فخرج إليها خباب وقال: أتدفعين كتاب الله تعالى إلى عمر وهو كافر؟ قالت نعم، إني أرجو أن يهدي الله أخي، ورجع خباب إلى محله ودخل عمر، فأعطته تلك الصحيفة؛ فلما قرأها عمر وبلغ {فلا يصدّك عنها من لا يؤمن بها واتبع هواه فتردى} قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وإن محمداً عبده ورسوله» اهـ أي وفي رواية «أنه لما قرأ الصحيفة قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه: أي وقيل إنه لما انتهى إلى قوله تعالى {إني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري} قال: ينبغي لمن يقول هذا أن لا يعبد معه غيره، فلما سمع ذلك

خاباب خرج إليه فقال: يا عمر إني لأرجو أن يكون الله تعالى قد خصك بدعوة نبيه، فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم ابن هشام أو بعمر بن الخطاب، فالله الله يا عمر، فقال له عند ذلك: دلني يا خباب على محمد حتى آتبه فأسلم: أي عنده وعند أصحابه، فلا ينافي ما في الرواية الأولى أنه أسلم، فقال له خباب هو في بيت عند الصفا معه نفر من أصحابه؛ فعمد إلى رسول الله «الحديث.

أقول: ويمكن الجمع بين هاتين الروايتين حيث كانت القصة واحدة ولم تتعدد؛ بأنه يجوز أن يكون زوج أخته استخفى أولاً مع خباب ورفيقه ثم ظهر فأوقع به وبأخته ما ذكر، وأنه في الرواية الأولى اقتصر علي ذكر أخته والصحيفة تعددت، واحدة فيها {سبح لله ما في السموات وما في الأرض} والثانية فيها طه، اقتصر في الرواية الأولى على إحداهما وهي التي فيها {سبح لله} وفي الرواية الثانية على الأخرى التي فيها (طه) وإنه في الرواية الأولى أسلم، وفي الرواية الثانية سكت عن ذلك، والله أعلم.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

وعن ابن عباس أيضاً رضي الله تعالى عنهما: لما أسلم عمر رضي الله تعالى عنه قال المشركون: لقد انتصف القوم منا. وعن ابن عباس أيضاً رضي الله تعالى عنهما «لما أسلم عمر رضي الله تعالى عنه نزل جبريل عليه الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم فقال: يا محمد استبشر أهل السماء بإسلام عمر».

قال: وروى البخاري عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه «ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر» اهـ وزاد بعضهم عن ابن مسعود: والله لقد رأيتنا وما نستطيع أن نصلي بالكعبة أي عندها ظاهرين أمنين حتى أسلم عمر، فقاتلهم حتى تركونا، فصلينا: أي وجهروا بالقراءة وكانوا قبل ذلك لا يقرؤون إلا سراً كما تقدم. وعن صهيب: لما أسلم عمر جلسنا حول البيت حلقاً.

وفي كلام ابن الأثير: مكث مستخفياً في دار الأرقم ومن معه من المسلمين إلى أن كملوا أربعين بعمر بن الخطاب، وعند ذلك خرجوا، وتقدم ما في ذلك. ومما يؤثر عن عمر رضي الله تعالى عنه: من اتقى الله وقاه، ومن توكل عليه كفاه. السيد هو الجواد حين يسأل، الحليم حين يستجهل. أشقى الولاة من شقيت به رعيته. أعدل الناس أعذرهم للناس.

وفي مختصر تاريخ الخلفاء لابن حجر الهيتمي أن عمر أول من قال: أطال الله تعالى بقاءك، وأيدك الله، قال ذلك لعلي رضي الله تعالى عنه. وهو أول من استقضى القضاء في الأمصار.

ويروى أن الأرقم هذا لما كان بالمدينة بعد الهجرة تجهز ليذهب فيصلي في بيت المقدس فلما فرغ من جهازه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يودعه فقال له: ما يخرجك؟ أي من المدينة حاجة أم تجارة؟ قال: لا يا رسول الله بأبي أنت وأمي، ولكن أريد الصلاة في بيت المقدس، فقال رسول الله «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام» فجلس الأرقم ولم يذهب لبيت المقدس.

ولما حضرته الوفاة أوصى أن يصلي عليه سعد بن أبي وقاص، فلما مات كان سعد بالعقيق، فقال مروان: يحبس صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل غائب وأراد الصلاة عليه فأبى ولده ذلك على مروان، ووقع بينهم كلام؛ ثم جاء سعد وصلى على الأرقم.

أي وقيل لعمر رضي الله عنه: ما سبب تسمية النبي صلى الله عليه وسلم لك بالفاروق؟ قال: لما أسلمت والنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه مختلفون قلت يا رسول الله ألسنا على الحق إن متنا وإن حيننا؟ قال بلى، والذي نفسي بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم، فقلت: فقيم الاختفاء، والذي بعثك بالحق ما بقي مجلس كنت أجلس فيه بالكفر إلا أظهرت فيه الإسلام غير هائب ولا خائف، والذي بعثك بالحق لنخرجن، فخرجنا في صفيين حمزة في أحدهما وأنا في الآخر، له: أي لذلك الجمع ككديد الطحين أي لذلك الجمع غبار ثائر من الأرض لشدة وطء الأقدام، لأن الكديد التراب الناعم إذا وطئ ثار غباره قال: حتى دخلنا المسجد، فنظرت قريش إليّ وإلى حمزة فأصابتهم كآبة لم يصيهم مثلها: أي فطاف بالبيت وصلى الظهر معلناً ثم رجع ومن معه إلى دار الأرقم، فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم يومئذ الفاروق، فرق الله بي بين الحق والباطل.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

أي وفي رواية «أنه خرج في صفيين: حمزة في أحدهما. وعمر في الآخر، لهم كديد ككديد الطحين».

وفي رواية: أن عمر رضي الله تعالى عنه قال له يا رسول الله لا ينبغي أن تكتم هذا الدين، أظهر دينك، وفي رواية «والله لا يعبد الله سراً بعد اليوم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه المسلمون وعمر أمامهم، معه سيفه ينادي: لا إله إلا الله محمد رسول الله حتى دخل المسجد، ثم صاح مسمعاً لقريش: كل من تحرك منكم لأمكنن سيفي منه، ثم تقدم أمام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يطوف والمسلمون، ثم صلوا حول الكعبة،

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وَقَرُّوْا الْقُرْآنَ جَهْرًا، وَكَانُوا كَمَا تَقْدُمُ لَا يَقْدُرُونَ عَلَى الصَّلَاةِ عِنْدَ الْكَعْبَةِ وَلَا يَجْهَرُونَ بِالْقُرْآنِ».

وفي المنتقى على ما نقله بعضهم «فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وعمر أمامه، وحمزة بن عبد المطلب رضي الله تعالى عنهما، حتى طاف بالبيت وصلى الظهر معلناً، ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى دار الأرقم».

وفيه أن صلاة الظهر لم تكن فرضت حينئذٍ، إلا أن يقال المراد بصلاة الظهر الصلاة التي وقعت في ذلك الوقت: أي ولعل المراد بها صلاة الركعتين اللتين كان يصليهما بالغداه صلاههما في وقت الظهر.

وعن عمر رضي الله عنه «وافقت ربي في ثلاث: قلت: يا رسول الله لو اتخذنا من مقام إبراهيم صلى، فنزلت {واتخذوا من مقام إبراهيم صلى} وقلت: يا رسول الله: إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر، فلو أمرتهن أن يحتجن، فنزلت آية الحجاب، واجتمع على رسول الله صلى الله عليه وسلم نساؤه في الغيرة، فقلت لهن: عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن، فنزلت، أي وقد قال له بعض نسائه: يا عمر أما في رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟» ومنع رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي على عبدالله بن أبي بن سلول.

وفي البخاري «لما توفي عبدالله بن أبي جاء ولده عبدالله رضي الله عنه إلى رسول الله، فسأله أن يعطيه قميصه يكفن فيه أباه فأعطاه» وهذا لا يخالف ما في تفسير القاضي البيضاوي، من أن ابن أبي دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه، فلما دخل عليه، فسأله أن يستغفر له ويكفنه في شعاره الذي يلي جسده الشريف ويصلي عليه، فلما مات أرسل له قميصه ليكفن فيه، لأنه يجوز أن يكون إرساله للقميص بسؤال ولده له بعد موت أبيه. قال في الكشف: فإن قلت: كيف جازت له تكرمة المنافق وتكفينه في قميصه.

قلت: كان ذلك مكافأة له على صنيع سبق له؛ وذلك أن العباس عم رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أخذ أسيراً بدر لم يجدوا له قميصاً، وكان رجلاً طوالاً، فكساه عبدالله قميصه: أي ولأن الضنة بإرساله القميص سيما وقد سئل فيه مخلل بالكرم، وقال له المشركون يوم الحديبية: إنا لا نأذن لمحمد ولكن نأذن لك، فقال: لا، إن لي في رسول الله أسوة حسنة، فشكر رسول الله صلى الله عليه وسلم له ذلك وإكراماً لابنه.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

وفي هذا تصريح بأن ابن أبي كان مع المسلمين في بدر وفي الحديبية. ثم إن ابنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يصلي عليه، فقال له: أسألك أن تقوم على قبره لا تشمت به الأعداء: أي وذلك بعد سؤال ولده له في ذلك كما تقدم عن القاضي البيضاوي، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، فقام عمر رضي الله تعالى عنه، فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وسلم وقال: يا رسول الله أتصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إنما خيرت، فقال {استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم} وسأزيده على السبعين، وفي رواية: أتصلي على ابن أبيّ وقد قال يوم كذا وكذا؟ أعدّ عليه قوله، فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: آخر عني يا عمر، فلما أكثرت عليه قال: إني خيرت، لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها، فصلى عليه رسول الله، فأنزل الله تعالى {ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره} إلى قوله {وهم فاسقون} ولينظر ما معنى التخيير في الآية، وما الجمع بين قوله «سأزيد على السبعين» وقوله «ولو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها»؟.

ثم رأيت القاضي البيضاوي قال في وجه التخيير: وقوله سأزيد على السبعين إنه فهم من السبعين العدد المخصوص لأنه الأصل، فجوّز أن يكون ذلك حدا يخالفه حكم ما وراءه، فبين له: أي الحق سبحانه أن المراد به التكثر بقوله في الآية الأخرى {سواء عليهم استغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم} هذا كلامه وحينئذ يشكل قوله «لو أعلم أني إن زدت على السبعين يغفر له لزدت عليها» فإن هذا مقتض لعدم الصلاة عليه، لا للصلاة عليه فليتأمل، وقد قال علي رضي الله تعالى عنه: إن في القرآن لقرآناً من رأي عمر، وما قال الناس في شيء وقال فيه عمر إلا جاء القرآن بنحو ما يقول عمر. وقد أوصل بعضهم موافقاته: أي الذي نزل القرآن على وفق ما قال وما أراد إلى أكثر من عشرين: أي وقد أفردها بعضهم بالتأليف، وقد سئل عنها الجلال السيوطي فأجاب عنها نظماً.

قال عبدالله بن عمر رضي الله تعالى عنهما: ما نزل بالناس أمر، فقال الناس وقال عمر إلا نزل القرآن على نحو ما قال عمر.

وعن مجاهد: كان عمر يرى الرأي فينزل به القرآن. وقد قال «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» ومن موافقاته ما سيأتي في أسارى بدر.

ومنها أنه لما سمع قوله تعالى {ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين} الآية، قال {فتبارك الله أحسن الخالقين} فنزلت كذلك.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

ومنها أن بعض اليهود قال له إن جبريل الذي يذكره صاحبكم عدوّ لنا، فقال {من كان عدواً لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين} فنزلت كذلك «واستأذن رضي الله تعالى عنه النبي صلى الله عليه وسلم في العمرة فأذن له وقال: يا أخي لا تنسنا من دعائك» أي وفي رواية «يا أخي أشركنا في صالح دعائك ولا تنسنا، قال عمر ما أحب أن لي بقوله: يا أخي ما طلعت عليه الشمس» وجاء «أول من يصفحه الحق عمر بن الخطاب، وأول من يسلم عليه» وجاء «إن الله وضع الحق على لسان عمر يقول به» وجاء «لو كان بعدي نبي لكان عمر بن الخطاب» وممن نزل القرآن على وفق ما قال مصعب بن عمير أيضاً رضي الله تعالى عنه، كان اللواء بيده يوم أحد

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

وسمع الصوت أن محمداً قد قتل، فصار يقول {وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل} فنزلت.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 3

باب: اجتماع المشركين على منابرة بني هاشم وبني المطلب ابني عبد مناف وكتابة الصحيفة

قد اجتمع كفار قريش على قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: قد أفسد علينا أبناءنا ونساءنا، وقالوا لقومه: خذوا منا دية مضاعفة ويقتله رجل من قريش وتريحونا وتريحون أنفسكم، فأبى قومه، فعند ذلك اجتمع رأيهم على منابرة بني هاشم وبني المطلب، واخراجهم من مكة إلى شعب أبي طالب.

فيه تصريح بأن شعب أبي طالب كان خارجاً عن مكة، والتضييق عليهم بمنع حضور الأسواق، وأن لا ينكحوهم، وأن لا يقبلوا لهم صلحاً أبداً، ولا تأخذهم بهم رافة حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل: أي وفي لفظ: لا تنكحوهم، ولا تنكحوا إليهم، ولا تبعوهم شيئاً، ولا تتناعوا منهم شيئاً، ولا تقبلوا منهم صلحاً الحديث، وكتبوا بذلك صحيفة وعلقوها في الكعبة: أي توكيداً على أنفسهم. وقيل كانت عند خالة أبي جهل.

وقد يجمع بأنه يجوز أن تكون كانت عندها قبل أن تعلق في الكعبة على أنه سيأتي أنه يجوز أن الصحيفة تعددت، وكان اجتماعهم وتخالفهم في خيف بني كنانة بالأطح ويسمى محصباً، وهو بأعلى مكة عند المقابر، فدخل بنو هاشم وبني المطلب مؤمنهم وكافرهم الشعب إلا أبا لهب فإنه ظاهر عليهم قريشاً، وكان سنه حين دخل الشعب ستة وأربعين سنة. وفي الصحيح «أنهم في الشعب جهدوا كانوا يأكلون الحَبَطَ وورق الشجر».

وفي كلام السهيلي: كانوا إذا قدمت العير مكة يأتي أحدهم السوق ليشتري شيئاً من الطعام يقاته، فيقوم أبو لهب فيقول: يا معشر التجار غالبوا على أصحاب محمد حتى لا يدركوا شيئاً معكم، فقد علمتم مالي ووفاء ذمتي، فيزيدون عليهم في السلعة قيمتها أضعافاً حتى يرجع إلى أطفاله وهم يتضاغون من الجوع، وليس في يده شيء يعللهم به، فيغدو التجار على أبي لهب فيريحهم، هذا كلامه.

ولا منافاة بين خروج أحدهم السوق إذا جاءت العير بالميرة إلى مكة، وكونهم منعوا من الأسواق والمبايعه لهم كما لا يخفى.

وكان دخولهم الشعب هلال المحرم سنة سبع من النبوة، وحينئذٍ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان بمكة من المسلمين أن يخرجوا إلى الحبشة.

أقول: وفي رواية «أن خروج بني هاشم وبني المطلب إلى الشعب لم يكن اخراج قريش لهم، وإنما خرجوا إليه لأن قريشاً لما قدم عليهم عمرو بن العاص من عند النجاشي خائباً، وردت معه هديتهم، وفقد صاحبه الذي هو عمارة بن الوليد، وبلغهم اكرام النجاشي لجعفر ومن معه من المسلمين: أي

كما سيأتي، وظهور الإسلام في القبائل، كبر ذلك عليهم، واشتد أذاهم على المسلمين، واجتمع رأيهم على أن يقتلوا النبي صلى الله عليه وسلم علانية، فلما رأى أبو طالب ذلك جمع بني هاشم والمطلب مؤمنهم وكافرهم، وأمرهم أن يدخلوا برسول الله عليه الصلاة والسلام الشعب ويمنعوه ففعلوا، فبنو هاشم وبنو المطلب كانوا شيئاً واحداً، لم يفترقوا حتى دخلوا معهم في الشعب، انخذل عنهم بنو عميهم عبد شمس ونوفل، ولهذا يقول أبو طالب في قصيدته:

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 25

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا
عقوبة شر عاجلاً غير آجل
وقال في قصيدة أخرى:

جزى الله عنا عبد شمس ونوفلا
وتيمماً ومخزوماً عقوقاً ومأثماً

فلما علمت قريش ذلك، أجمع رأيهم على أن يكتبوا عهداً ومواثيق، على أن لا يجالسوهم» الحديث.

وفيه أنه سيأتي أن خروج عمرو بن العاص إلى الحبشة إنما كان بعد الهجرة الثانية، وهي بعد دخول بني هاشم والمطلب إلى الشعب، والله أعلم.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 25

باب الهجرة الثانية إلى الحبشة

لا يخفى أنه لما وقع ما ذكر انطلق إلى الحبشة عامة من آمن بالله ورسوله: أي غالبهم، فكانوا عند النجاشي ثلاثة وثمانين رجلاً وثمانية عشرة امرأة، وهذا بناء على أن عمار بن ياسر كان منهم. وقد اختلف في ذلك، وكلام الأصل يميل إلى ذلك، وكان من الرجال جعفر ابن أبي طالب ومعه زوجته أسماء بنت عميس، والمقداد بن الأسود، وعبدالله بن مسعود وعبيدالله بالتصغير بن جحش ومعه امرأته أم حبيبة بنت أبي سفيان، فتنصر هناك ثم مات على النصرانية: أي وبقيت أم حبيبة رضي الله تعالى عنها على إسلامها، وتزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم كما سيأتي.

وعن أم حبيبة رضي الله تعالى عنها قالت «رأيت في المنام كأن عبيدالله بن جحش زوجي بأسوأ حال وتغيرت صورته، فإذا هو يقول حين أصبح: يا أم حبيبة إني نظرت في هذا الدين فلم أر ديناً خيراً من دين النصرانية، وقد كنت دنت بها ثم دخلت في دين محمد ثم خرجت إلى دين النصرانية، قالت: فقلت والله ما خير لك، وأخبرته بما رأيته له فلم يحفل بذلك وأكب على الخمر يشربه حتى مات، فرأيت في المنام كأن آتياً يقول لي: يا أم المؤمنين ففرعت وأولتها بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم يتزوجني، فكان كذلك.

أي وذكر ابن إسحاق أن أبا موسى الأشعري هاجر إلى الحبشة، ومراده أنه هاجر إليها من اليمن لا من مكة كما فهم الواقدي، فاعترض عليه في ذلك.

فعن أبي موسى «أنه بلغه مخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو باليمن، فخرج هو ونحو خمسين رجلاً في سفينة مهاجرين إليه، فآلقتهم السفينة إلى النجاشي بالحبشة، فوجدوا جعفر وأصحابه، فأمرهم جعفر

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

بالإقامة، واستمروا كذلك حتى قدموا عليه هم وجعفر عند فتح خيبر كما سيأتي.

وبهذا يندفع قول بعضهم: ما ذكره ابن إسحاق من أن أبا موسى الأشعري هاجر من مكة إلى الحبشة من الغريب جداً، ولعله مدرج من بعض الرواة، فأقاموا بخير دار عند خير جار، فبعثت قريش خلفهم عمرو بن العاص ومعه عمارة بن الوليد بن المغيرة التي أرادت قريش دفعه لأبي طالب ليكون بدلاً عن النبي صلى الله عليه وسلم إذا قتلوه بهدية إلى النجاشي والهدية فرس وجبة ديباج: أي وأهدوا لعظماء الحبشة هدايا ليرد من جاء إليه من المسلمين، فلما دخلا عليه سجدا له وقعد واحد من يمينه والآخر عن شماله.

وفي كلام بعضهم: فأجلس عمرو بن العاص على سريريه وقبل هديتهما، فقالا: إن نغراً من بني عمنا نزلوا أرضك فرغبوا عنا وعن آلهتنا: أي ولم يدخلوا في دينكم، بل جاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنتم، وقد بعثنا إلى الملك فيهم أشرف قريش لتردوهم إليهم قال: وأين هم؟ قالوا بأرضك، فأرسل في طلبهم: أي وقال له عظماء الحبشة: ادفعهم إليهما فهما أعرف بحالهم، فقال: لا والله حتى أعلم على أي شيء هم؟ فقال عمرو: هم لا يسجدون للملك: أي وفي لفظ لا يخرون لك ولا يحيونك بما يحييك الناس إذا دخلوا عليك رغبة عن سنتكم ودينكم، فلما جاؤوا قال لهم جعفر رضي الله تعالى عنه: أنا خطيبكم اليوم: أي فإنه لما جاءهم رسول النجاشي يطلبهم اجتمعوا، ثم قال بعضهم لبعض: ما تقولون للرجل إذا جئتموه. قال جعفر ما ذكر، وقال: إنما نقول ما علمنا وما أمرنا به رسول الله، ودع يكون ما يكون، وقد كان النجاشي دعا أساقفته وأمرهم بنشر مصاحفهم حوله، فلما جاء جعفر وأصحابه صاح جعفر، وقال: جعفر بالباب يستأذن ومعه حزب الله، فقال النجاشي: نعم يدخل بأمان الله وذمته، فدخل عليه ودخلوا خلفه فسلم، فقال له الملك: مالك لا تسجد؟ رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 27

وفي لفظ: إن عمراً قال لعمارة: ألا ترى كيف يكتنون بحزب الله وما أجابهم به، وإن عمراً قال للنجاشي: ألا ترى أيها الملك أنهم مستكبرون لم يحيوك بتحيتك، فقال النجاشي: ما منعكم أن لا تسجدوا وتحيونني بتحيتي التي أحيا بها، فقال جعفر: إنا لا نسجد إلا لله عز وجل، قال: ولم ذلك؟ قال: لأن الله تعالى أرسل فينا رسولاً، وأمرنا أن لا نسجد إلا لله عز وجل، وأخبرنا أن تحية أهل الجنة السلام فحييناك بالذي يحيي به بعضنا بعضاً: أي وعرف النجاشي ذلك، لأنه كذلك في الإنجيل كما قيل: أي وأمرنا بالصلاة أي غير الخمس، لأنها لم تكن فرضت، بل التي هي ركعتان بالغداة وركعتان بالعشي: أي ركعتان قبل طلوع الشمس، وركعتان قبل غروبها على ما تقدم. والزكاة: أي مطلق الصدقة، لا زكاة المال لأنها إنما فرضت بالمدينة أي في السنة الثانية، ومراده بالزكاة الطهارة، قال عمرو بن العاص للنجاشي: فإنهم يخالفونك في ابن مريم، ولا يقولون إنه ابن الله عز وجل وعلا. قال: فما تقولون في ابن مريم وأمه؟ قال: نقول كما قال الله عز وجل: روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

العدراء: أي البكر البتول: أي المنقطعة عن الأزواج، التي لم يمسهما بشر، ولم يفرضها أي يشقها. ويخرج منها ولد: أي غير عيسى صلى الله على نبينا وعليه وسلم، فقال النجاشي: يا معشر الحبشة والقسيسين والرهبان ما يزيدون على ما تقولون؛ أشهد أنه رسول الله، وأنه الذي بشر به عيسى في الإنجيل: أي ومعنى كونه روح الله أنه حاصل عن نفخة روح القدس الذي هو جبريل، ومعنى كونه كلمة الله تعالى أنه قال له كن فكان: أي حصل في حال القول.

وفي لفظ أن النجاشي قال لمن عنده من القسيسين والرهبان: أنشدكم الله الذي أنزل الإنجيل على عيسى هل تجدون بين عيسى وبين يوم القيامة نبياً مرسلاً؟ أي صفته ما ذكر هؤلاء؛ فقالوا: اللهم نعم، قد بشرنا به عيسى، فقال: من آمن به فقد آمن بي، ومن كفر به فقد كفر بي؛ فعند ذلك قال النجاشي: والله لولا ما أنا فيه من الملك لأتيته فأكون أنا الذي أحمل نعله وأوضئه: أي أغسل يديه، وقال للمسلمين: أنزلوا حيث شئتم سيوم بأرضي: أي آمنون بها، وأمر لهم بما يصلحهم من الرزق، وقال: من نظر إلى هؤلاء الرهط نظرة تؤذيهم فقد عصاني.

وفي لفظ، ثم قال: اذهبوا فأنتم آمنون، من سبكم غرم، قالها ثلاثاً: أي أربع دراهم وضعفها كما جاء في بعض الروايات، وأمر بهدية عمرو ورفيقه فردت عليهما.

وفي لفظ، أن النجاشي قال: ما أحب أن يكون لي ديراً من ذهب: أي جبلاً وأن أؤدي رجلاً منكم، ردوا عليهم هداياهم فلا حاجة لي بها، فوالله ما أخذ الله تعالى مني الرشوة حين رد عليّ ملكي فأخذ الرشوة، وما أطاع الناس في فأطيعهم فيه.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 27

وكان النجاشي أعلم النصارى بما أنزل على عيسى، وكان قيصر يرسل إليه علماء النصارى لتأخذ عنه العلم.

أي وقد بينت عائشة رضي الله تعالى عنها السبب في قول النجاشي: ما أخذ الله مني الرشوة حين رد عليّ ملكي. وهو أن والد النجاشي كان ملكاً للحبشة فقتلوه وولوا أخاه الذي هو عم النجاشي، فنشأ النجاشي في حجر عمه لبيباً حازماً، وكان لعمه اثنا عشر ولداً لا يصلح واحد منهم للملك، فلما رأت الحبشة نجابة النجاشي خافوا أن يتولى عليهم فيقتلهم بقتلهم لأبيه، فمشوا لعمه في قتله، فأبى وأخرجه وباعه، ثم لما كان عشاء تلك الليلة مرت على عمه صاعقة فمات، فلما رأت الحبشة أن لا يصلح أمرها إلا النجاشي ذهبوا وجاءوا به من عند الذي اشتراه، وعقدوا له التاج، وملكوه عليهم، فسار فيهم سيرة حسنة.

وفي رواية: ما يقتضى أن الذي اشتراه رجل من العرب، وأنه ذهب به إلى بلاده ومكث عنده مدة، ثم لما مرج أمر الحبشة وضاق عليهم ما هم فيه خرجوا في طلبه وأتوا به من عند سيده، ويدل لذلك ما سيأتي عنه أنه عند وقعة بدر أرسل خلف من عنده من المسلمين فدخلوا عليه، فإذا هو قد لبس مسحاً وقعد على التراب والرماد، فقالوا له: ما هذا أيها الملك؟ فقال: إنا نجد في الإنجيل أن الله

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

سبحانه وتعالى إذا أحدث بعبده نعمة وجب على العبد أن يحدث لله تواضعاً، وإن الله تعالى قد أحدث إلينا وإليكم نعمة عظيمة، وهي أن محمداً التقى هو وأعداؤه بواد يقال له بدر كثير الأراك، كنت أرعى فيه الغنم لسيدي، وهو من بني ضمرة، وإن الله تعالى قد هزم أعداءه فيه، ونصر دينه. وذكر السهيلي أن بكاءه عندما تليت عليه (سورة مريم) أي كما سيأتي حتى أخضل لحيته، يدل على طول مكثه ببلاد العرب حتى تعلم من لسان العرب ما فهم به تلك السورة.

قال: وعن جعفر بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه: لما نزلنا أرض الحبيشة جاورنا خير جار وأمنا على ديننا، وعبدنا الله تعالى لا نؤذى ولا نسمع شيئاً نكرهه، فلما بلغ ذلك قريشاً ائتمروا أن يبعثوا رجلين جليدين، وأن يهدوا للنجاشي هدايا مما يستظرف من متاع مكة، وكان أعجب ما يأتيه منها الأدم، فجمعوا له أدماً كثيراً ولم يتركوا من بطارقتهم بطريقاً إلا أهدوا له هدية: أي هبتوا له هدية؛ ولا يخالف ما تقدم من أن الهدية كانت فرساً وجبة ديباج، لأنه يجوز أن يكون بعض الأدم ضم إلى تلك الفرس والحية للملك، وبقيّة الأدم فرق على أتباعه ليعاونوهما على ما جاء بصدده، والاقتصار على الفرس والحية في الرواية السابقة لأن ذلك خاص بالملك. ثم بعثوا عمارة بن الوليد وعمرو ابن العاص يطلبان من النجاشي أن يسلمنا لهم: أي قبل أن يكلمنا، وحسن له بطارقتهم ذلك، لأنهما لما أوصلا هداياهم إليهم قالوا لهم: إذا نحن كلمنا الملك فيهم فأشيروا عليه بأن يسلمهم لنا قبل أن يكلمهم: أي موافقة لما وصت عليه قريش.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 27

فقد ذكر أنهم قالوا لهما: ادفعوا لكل بطريق هدية قبل أن تكلمنا النجاشي فيهم، ثم قدما للنجاشي هداياه، ثم أسألاه أن يسلمهم إليكما قبل أن يكلمهم، فلما جاء إلى الملك قال له: أيها الملك إنه قد صبا إلى بلدك منا غلمان سفهاء؛ فارقوا دين قومهم ولم يدخلوا في دينك، جاؤوا بدين مبتدع لا نعرفه نحن ولا أنت: أي جاءهم به رجل كذاب خرج فينا يزعم أنه رسول الله ولم يتبعه منا إلا السفهاء، وقد بعثنا إليك فيهم أشراف قومهم من آبائهم وأعمامهم وعشائرتهم ليردوهم إليهم؛ فهم أعلم بما عابوا عليهم، فقال بطارقتهم: صدقوا أيها الملك، قومهم أعلم بهم فأسلمهم لهما ليرداهم إلى بلادهم وقومهم، فغضب النجاشي وقال: لاها الله، أي لا والله لا أسلمهم، ولا يكاد قوم يجاوروني ونزلوا بلادي واختاروني على من سواي، حتى أدعوهم فأسألهم عما يقول هذان من أمرهم، فإن كان كما يقولان سلمتهم إليهما، وإلا منعتهم منهما وأحسنت جوارهم ما جاوروني، ثم أرسل لنا ودعانا، فلما دخلنا سلمنا، فقال من حضره: ما لكم لا تسجدون للملك؟ قلنا، لا نسجد إلا الله عز وجل، فقال النجاشي: ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا في ديني ولا في دين أحد من الملل، فقلنا: أيها الملك، كنا قوماً أهل جاهلية، نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونأتي الفواحش، ونقطع الأرحام، ونسيء الجوار، ويأكل القوي الضعيف، فكنا على ذلك حتى

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

بعث الله لنا رسولاً كما بعث الرسل إلى من قبلنا، وذلك الرسول منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه، فدعانا إلى الله تعالى لنوحده ونعبده، ونخلع: أي نترك ما كان يعبد آباؤنا من دونه من الحجارة والأوثان، وأمرنا أن نعبد الله تعالى وحده، وأمرنا بالصلاة، أي ركعتين بالغداه وركعتين بالعشي، والزكاة، أي مطلق الصدقة، والصيام أي ثلاثة أيام من كل شهر: أي وهي البيض أو أي ثلاثة على الخلاف في ذلك. وأمرنا بصدق الحديث، وأداء الأمانة، وصلة الأرحام وحسن الجوار، والكف عن المحارم

والدماء؛ أي ونهانا عن الفواحش، وقول الزور، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، فصدقناه وأماننا به، وأتبعناه على ما جاء به، فعدا علينا قومنا ليردونا إلى عبادة الأصنام واستحلال الخبائث، فلما قهرونا وظلمونا وضيقوا علينا، وحاولوا بيننا وبين ديننا خرجنا إلى بلادك واخترناك على من سواك، ورجوناك أن لا نظلم عندك يا أيها الملك، فقال النجاشي لجعفر: هل عندك مما جاء به شيء؟ قلت نعم. قال: فاقرأه عليّ، فقرأت عليه صدرأ من كهيعص، فبكى والله النجاشي حتى أخضل، أي بل لحيته وبكت أساقفته، وفي لفظ: هل عندك مما جاء به عن الله تعالى شيء؟ فقال جعفر نعم، قال: فاقرأه عليّ، قال البغوي: فقرأ عليه (سورة العنكبوت والروم) ففاضت عيناه وأعين أصحابه بالدمع، وقالوا: زدنا يا جعفر من هذا الحديث الطيب، فقرأ عليهم (سورة الكهف) فقال النجاشي: هذا والله الذي جاء به موسى: أي وفي رواية: إن هذا والذي جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة، أي وهذا كما قيل يدل على أن عيسى كان مقرراً لما جاء به موسى، وفي رواية بدل موسى عيسى، وبؤيد، ما في لفظ أنه قال: ما زاد هذا على ما في الإنجيل إلا هذا العود لعود كان في يده أخذه من الأرض.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 27

وفي لفظ أن جعفرأ قال للنجاشي: سلهما أعييد نحن أم أحرار؟ فإن كنا عبيدأ أبقنا من أربابنا فارددنا إليهم، فقال عمر: بل أحرار، فقال جعفر: سلهما هل أهرقنا دماء بغير حق فيقتص منا؟ هل أخذنا أموال الناس بغير حق فعلينا قضاؤهم؟ فقال عمرو: لا، فقال النجاشي لعمرو وعمارة: هل لكما عليهما دين؟ قال: لا، قال: انطلقا، فوالله لا أسلمهم إليكما أبداً، زاد في رواية: ولو أعطيتموني ديراً من ذهب أي جبلاً من ذهب، ثم غدا عمرو إلى النجاشي: أي أتى إليه في غد ذلك اليوم وقال له: إنهم يقولون في عيسى قولأ عظيماً: أي يقولون إنه عبدالله أي وإنه ليس ابن الله.

أي وفي لفظ أن عمرأ قال للنجاشي: أيها الملك إنهم يشتمون عيسى وأمه في كتابهم فاسألهم، فذكر له جعفر ما تقدم في الرواية الأولى. هذا، وعن عروة بن الزبير: إنما كان يكلم النجاشي عثمان بن عفان، وهو حصر عجيب فليتأمل.

وروى الطبراني عن أبي موسى الأشعري بسند فيه رجال الصحيح «أن عمرو بن العاص مكر بعمارة بن الوليد: أي للعداوة التي وقعت بينه وبينه في

سفرهما: أي من أن عمرو بن العاص كان معه زوجته وكان قصيراً دميماً، وكان عمارة رجلاً جميلاً ففتن امرأة عمرو وهوته، فنزل هو وإياه في السفينة، فقال له عمارة: مر امرأتك فلتقبلني، فقال له عمرو: ألا تستحيي، فأخذ عمارة عمراً ورمى به في البحر، فجعل عمرو يصيح وينادي أصحاب السفينة، ويناشد عمارة حتى أدخله السفينة وأضمرها عمرو في نفسه ولم يبدها لعمارة، بل قال لامرأته: قبلي ابن عمك عمارة لتطيب بذلك نفسه، فلما أتيا أرض الحبشة مكر به عمرو، فقال: أنت رجل جميل والنساء يحببن الجمال، فتعرض لزوجته النجاشي لعلها أن تشفع لنا عنده، ففعل عمارة ذلك وتكرر ترده عليها حتى أهدت إليه من عطرها: أي ودخل عندها، فلما رأى عمرو ذلك أتى النجاشي وأخبره بذلك: أي فقال له: إن صاحبي هذا صاحب نساء، وإنه يريد أهلك وهو عندها الآن، فاعلم علم ذلك، فبعث النجاشي، فإذا عمارة عند امرأته، فقال: لولا أنه جاري لقتلته؛ ولكن سأفعل به ما هو شر من القتل، فدعا بساحر فنسخ في إحليله نفخة، طار منها هائماً على وجهه مسلوب العقل حتى لحق بالوحوش في الجبال إلى أن مات على تلك الحال اهـ.

أي ومن شعر عمرو بن العاص يخاطب به عمارة بن الوليد:
إذا المرء لم يترك طعاماً يحبه
ولم ينه قلباً غاوباً حيث يمما
قضى وطرا منه وغادر سبة
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 27
إذا ذكرت أمثالها تملأ الفما

ولا زال عمارة مع الوحوش إلى أن كان موته في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه، وإن بعض الصحابة وهو ابن عمه عبدالله بن أبي ربيعة في زمن عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه قد استأذنه في المسير إليه لعله يجده، فأذن له عمر رضي الله تعالى عنه فسار عبدالله إلى أرض الحبشة، وأكثر النشدة عنه والفحص عن أمره، حتى أخبر أنه في جبل، يرد مع الوحوش إذا وردت ويصدر معها إذا صدرت، فجاء إليه ومسكه، فجعل يقول له: أرسلني وإلا أموت الساعة، فلم يرسله فمات من ساعته، وسيأتي بعد غزوة بدر أنهم أرسلوا للنجاشي عمرو بن العاص أيضاً وعبدالله بن أبي ربيعة.

هذا وكان اسمه قبل أن يسلم بجيراً، فلما أسلم سماه رسول الله صلى الله عليه وسلم عبدالله، وأبوه ربيعة الذي هو أبو عبدالله، كان يقال له ذو الرمحين، وأم عبدالله هي أم أبي جهل بن هشام، فهو أخو أبي جهل لأمه أرسلوهما إليه ليدفع لهما من عنده من المسلمين ليقتلوهم فيمن قتل بيدر.

ومن العجب أن صاحب المواهب ذكر أن إرسال قريش لعمرو بن العاص وعبدالله بن أبي ربيعة ومعهما عمارة بن الوليد في الهجرة الأولى للحبشة، وإنما كان عمرو وعمارة في الهجرة الثانية، وابن أبي ربيعة إنما كان مع عمرو بعد بدر كما علمت، وإن كان يمكن أن يكون عبدالله بن أبي ربيعة أرسلته قريش مرتين إلا أنه بعيد.

ويرده قول بعضهم: إن قريشاً أرسلت في أمر من هاجر إلى الحبشة مرتين: الأولى أرسلت عمرو بن العاص وعمارة. والثانية أرسلت عمرو بن العاص

وعبدالله بن أبي ربيعة فليتأمل.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 27

ومكث بنو هاشم في الشعب ثلاث سنين. وقيل سنتين في أشد ما يكون في البلاء وضيق العيش، وولد عبدالله بن عباس في الشعب، فمن قريش من سره ذلك، ومنهم من ساءه وقالوا: انظروا ما أصاب كاتب الصحيفة: أي من شلل يده كما تقدم؛ وصار لا يقدر أحد أن يوصل إليهم طعاماً ولا أدماً حتى أن أبا جهل لقي حكيم بن حزام ومعه غلام يحمل قمحاً يريد عمته خديجة زوج النبي صلى الله عليه وسلم وهي معه في الشعب؛ فتعلق به وقال: أتذهب بالطعام إلى بني هاشم، والله لا تذهب أنت وطعامك حتى أفضحك بمكة، فقال له أبو البخترى بن هشام: مالك وماله؟ فقال أبو جهل: إنما يحمل الطعام لبني هاشم، فقال أبو البخترى: طعام كان لعمته عنده أفتمنعه أن يأتيها؟ خل سبيل الرجل، فأبى أبو جهل حتى نال أحدهما من صاحبه، فأخذ أبو البخترى لحي بعير: أي العظم الذي تنبت عليه الأسنان فضربه فشجه ووطئه وطئاً شديداً. وأبو البخترى - بالحاء المهملة - وفي مختصر أسد الغابة - بالحاء المعجمة - ممن قتل بيد كافر؛ وحتى إن هاشم بن عمرو بن الحارث العامري رضي الله تعالى عنه، فإنه أسلم بعد ذلك - أدخل عليهم في ليلة ثلاثة أجمال طعاماً، فعملت بذلك قريش، فمشوا إليه حين أصبح وكلموه في ذلك، فقال: إني غير عائد لشيء خالفكم؛ ثم أدخل عليهم ثانياً جملاً وقيل جمليين، فعلمت به قريش فغالطته: أي أغلظت له القول وهمت به، فقال أبو سفيان بن حرب: دعوه يصل رحمه، أما إني أحلف بالله لو فعلنا مثل ما فعل كان أحسن بنا، وكان أبو طالب في كل ليلة يأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتي فراشه ويضع به، فإذا نام الناس أقامه وأمر أحد بنيه أو غيرهم أي من أخوته أو بني عمه أن يضطجع مكانه خوفاً عليه أن يغتاله أحد ممن يريد به السوء: أي وفي الشعب ولد عبدالله بن عباس رضي الله تعالى عنهما، ثم أطلع الله رسوله على أن الأرضة: أي وهي سوسة تأكل الخشب إذا مضى عليها سنة نبت لها جناحان تطير بهما، وهي التي دلت الجن

على موت سليمان؛ على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام أكلت ما في الصحيفة من ميثاق وعهد: أي الألفاظ المتضمنة للظلم وقطيعة الرحم؛ ولم تدع فيها اسماً لله تعالى إلا أثبتته فيها. وفي رواية ولم تترك الأرضة في الصحيفة اسماً لله عز وجل إلا لحسته، وبقي ما فيها من شرك أو ظلم أو قطيعة رحم، أي والرواية الأولى أثبت من الثانية. قال: وجمع بين الروایتين بأنهم كتبوا نسخاً فأكلت الأرضة من بعض النسخ اسم الله تعالى، وأكلت من بعض النسخ ما عدا اسم الله تعالى، لئلا يجتمع اسم الله تعالى مع ظلمهم انتهى، أي والتي علق في الكعبة هي التي لحست تلك الدابة ما فيها من اسم الله تعالى، كما يدل عليه ما يأتي، فذكر ذلك لعمه أبي طالب، فقال له عمه: والثواقب أي النجوم، لأنها تثقب الشياطين، وقيل التي تضيء لأنها تثقب الظلام بضوئها، وقيل الثريا خاصة لأنها أشد النجوم

ضوءاً - ما كذبتني قط: أي ما حدثتني كذباً. وفي رواية أنه قال له: أريك أخبرك بهذا الخبر؟ قال نعم، فانطلق في عصابة: أي جماعة من قومه أي من بني هاشم وبني المطلب.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 27

أي وفي رواية أن أبا طالب لما ذكر لأهله قالوا له: فما ترى؟ قال: أرى أن تلبسوا أحسن ثيابكم، وتخرجوا إلى قريش، فتذكروا ذلك لهم قبل أن يبلغهم الخبر، فخرجوا حتى أتوا المسجد على خوف من قريش، فلما رأتهم قريش ظنوا أنهم خرجوا من شدة البلاء ليسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل، فتكلم معهم أبو طالب، وقال: جرت أمور بيننا وبينكم، فأتوا بصحيفتكم التي فيها موثيقكم، فلعله أن يكون بيننا وبينكم صلح: أي مخرج يكون سبباً للصلح، وإنما قال أبو طالب ذلك خشية أن ينظروا في الصحيفة قبل أن يأتوا بها: أي فلا يأتون بها، فأتوا بصحيفتهم لا يشكون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يدفع إليهم: أي لأنه الذي وقعت عليه العهود والمواثيق، فوضعوها بينهم وقالوا لأبي طالب: أي توبيخاً له ولمن معه: قد أن لكم أن ترجعوا عما أحدثتم علينا وعلى أنفسكم، فقال أبو طالب: إنما أتيتكم في أمر نصف بيننا وبينكم: أي أمر وسط لا حيف فيه علينا ولا عليكم، إن ابن أخي أخبرني أن هذه الصحيفة التي في أيديكم قد بعث الله تعالى عليها دابة لم تترك فيها اسماً من أسماء الله تعالى إلا لحسته وتركت فيها غدركم وتظاهركم علينا بالظلم. أقول: هذه على الرواية الثانية، وأما على الرواية الأولى التي هي أثبت فيكون قوله لم تترك اسماً إلا أثبتته ولحست موثيقكم وعهدكم. ثم رأيت ابن الجوزي ذكر ذلك، فقال: إن أبا طالب قال: إن ابن أخي قد أخبرني ولم يكذبني قط أن الله تعالى قد سلط على صحيفتكم التي كتبتكم الأرضة، فلحست كل ما كان فيها من جور أو ظلم أو قطيعة رحم، وبقي فيها كل ما ذكر به الله تعالى.

وفي الينبوع أن أبا طالب قال لما حضرت الصحيفة: إن صحيفتكم هذه صحيفة إنم وقطيعة رحم، وإن ابن أخي أخبرني أن الله تعالى سلط عليها الأرضة، فلم تدع ما كتبتكم إلا باسمك اللهم، والله أعلم. قال أبو طالب: فإن كان الحديث كما يقول، فأفبقوا: أي وفي رواية نزعتم: أي رجعتم عن سوء رأيكم: أي وإن لم ترجعوا فوالله لا نسلمه حتى نموت من عند آخرنا، وإن كان الذي يقول باطلاً دفعنا إليكم صاحبنا فقتلتم أو استحييتم، فقالوا: قد رضينا بالذي تقول: أي وفي رواية أنصفتنا، ففتحوا الصحيفة فوجدوا الأمر كما أخبر به الصادق المصدوق، فلما رأته قريش صدق ما جاء به أبو طالب قالوا: أي قال أكثرهم: هذا سحر ابن أخيك، وزادهم ذلك بغياً وعدواناً، وبعضهم ندم وقال: هذا بغى منا على اخواننا وظلم لهم. أي وقد جاء أن أبا طالب قال لهم أي بعد أن وجدوا الأمر كما أخبر به: يا معشر قريش علام نحصر ونحيس وقد بان الأمر وتبين أنكم أولى بالظلم والقطيعة والإساءة؟ ودخلوا بين أستار الكعبة وقالوا: اللهم انصرنا على من ظلمنا،

وقطع أرحامنا واستحل ما يحرم عليه منا، ثم انصرفوا إلى الشعب، وعند ذلك مشى طائفة منهم وهم خمسة في نقض الصحيفة: أي ما تضمنته، وهم: هشام بن عمرو بن الحارث، وزهير بن أمية ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب، وقد أسلم بعد ذلك كالذي قبله كما تقدم، والمطعم بن عدي مات كافراً كما تقدم، وأبو البختری بن هشام قتل ببدر كافراً. كما تقدم وزمعة بن الأسود قتل ببدر كافراً.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 27
واختلف في كاتب الصحيفة، فعند ابن سعد أنه بغيض بن عامر فشلت يده، ولم يعرف له إسلام: وعند ابن إسحاق أن الكاتب لها هشام بن عمرو المتقدم ذكره.

قال: وقيل إن الكاتب لها منصور بن عكرمة: أي فشلت يده فيما يزعمون، كذا في النور نقلاً عن سيرة ابن هشام. وقيل النضر بن الحارث، فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فشلت بعض أصابعه، وهو ممن قتل على كفره عنده منصرفه من بدر. وقيل الكاتب لها طلحة بن أبي طلحة العبدري. قال ابن كثير رحمه الله: والمشهور أنه منصور.

ويجمع بين هذه الأقوال باحتمال أن يكون كتب بها نسخ: أي فكل كتب نسخة انتهى: أي وينبغي أن يكون الذي شلت يده هو كاتب الصحيفة التي علق في الكعبة، ولعلها هي التي كتبت أولاً، وإلى أكل الأرضة الصحيفة، وإلى عد الخمسة الذين سعوا في نقض الصحيفة أشار صاحب الهمزية بقوله:

فديت خمسة الصحيفة بالخم

سة إذا كان للكرام فداء

فتية بيتوا على فعل خير

حمد الصبح أمره والمساء

بالأمر أتاه بعد هشام

زمعة إنه الفتى الأتاء

وزهير والمطعم بن عدي

وأبو البختری من حيث شاؤوا

نقضوا مبرم الصحيفة إذ شد

دت عليه من العدا الأنداء

أذكرتنا بأكلها أكل منسأ

ة سليمان الأرضة الخرساء

وبها أخبر النبي وكم أخ

رج خبا له الغيوب خباء

أي فديت خمسة الصحيفة: أي الناقضين لها بالخمسة المستهزئين السابق ذكرهم، فتية ثبتوا وتراودوا واشتوروا بالحجون ليلاً على فعل خير وهو نقض الصحيفة، حمد الصباح والمساء منهم ذلك الفعل، بالأمر عظيم وهو نقض الصحيفة أتاه بعد هشام زمعة بن الأسود وإنه الكريم في قومه، الأتاء: أي

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

المبالغ في إبتاء الخير، وأتاه زهير، وأتاه المطعم بن عدي، وأتاه أبو البخترى من المكان الذي قصدوه فنقضوا مبرم الصحيفة: أي الأمر الذي أبرمته أذكرتنا الأرضة الخرساء بأكلها تلك الصحيفة. منسأة: أي عصى سليمان، وبأكلها للصحيفة أخبر النبي، ومرات كثيرة أخرج شيئاً مخبأ الغيوب له ساترة، والمراد أن كل واحد من هؤلاء الخمسة الذين نقضوا الصحيفة فدى بأولئك الخمسة المستهزئين من الأذى الذي أصابهم المتقدم ذكره؛ فلا ينافي أن بعض هؤلاء الذين نقضوا الصحيفة مات كافراً.

قال: جاء أن هشام بن عمرو بن الحارث رضي الله تعالى عنه - فإنه أسلم بعد ذلك كما تقدم - مشى إلى زهير بن أمية بن عاتكة بنت عبد المطلب رضي الله تعالى عنه، فإنه أسلم بعد ذلك أيضاً كما تقدم، فقال له: يا زهير أرضيت أن تأكل الطعام، وتلبس الثياب وأخوالك قد علمت لا يبايعون ولا يبتاعون؟ فقال: ويلك يا هشام فماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، والله لو كان معي رجل آخر لقمتم لأنقضها يعني الصحيفة قال: وجدت رجلاً، قال من هو؟ قال: أنا، فقال زهير: ابغنا رجلاً ثالثاً، فذهب إلى المطعم بن عدي، فقال له: يا مطعم أرضيت أن يهلك بطنان من بني عبد مناف، يعني بني هاشم وبني المطلب وأنت تشهد على ذلك؟ فقال له: ويحك ماذا أصنع؟ إنما أنا رجل واحد، قال: وجدت ثانياً، قال: من هو؟ قلت: أنا، قال ابغنا رجلاً ثالثاً، قال: قد فعلت، قال: من هو؟ قلت: زهير بن أمية، قال: ابغنا رابعاً، فذهبت إلى أبي البخترى بن هشام، فقلت له نحواً مما قلت للمطعم، فقال: وهل معين علي هذا الأمر؟ قلت نعم، قال: من هو؟ قلت: زهير بن أمية، والمطعم بن عدي، وأنا معك، قال ابغنا خامساً، فذهبت إلى زمعة بن الأسود فكلمته، فقال وهل من أحد يعين على ذلك فسميت له القوم.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 27

ثم إن هؤلاء اجتمعوا ليلاً عند الحجون، وأجمعوا أمرهم وتعاهدوا على القيام في نقض الصحيفة حتى ينقضوها، وقال زهير أنا أبدوكم فأكون أول من يتكلم، فلما أصبحوا غدوا إلى أنديتهم؛ وغدا زهير وعليه حلة فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس، فقال: يا أهل مكة أأكل الطعام وتلبس الثياب وبنو هاشم، أي والمطلب هلكن؟ لا يبايعون ولا يبتاع منهم، والله لا أقعد حتى تشق هذه الصحيفة القاطعة الظالمة، فقال أبو جهل كذبت والله لا تشق، قال زمعة بن الأسود أنت والله أكذب، ما رضينا كتابتها حين كتبت، قال أبو البخترى صدق زمعة، قال المطعم صدقتما وكذب من قال غير ذلك، نبراً إلى الله تعالى منها ومما كتب فيها، وقال هشام بن عمرو نحواً من ذلك، فقال أبو جهل: هذا أمر قضى بالليل، فقام المطعم بن عدي إلى الصحيفة فشققها انتهى. أي وهذا يدل للرواية الدالة على أن الأرضة لحست اسم الله تعالى، وأثبتت ما فيها من العهود والمواثيق، وإلا فعد أمحاء ذلك منها لا معنى لشققها. وفي كلام بعضهم يحتمل أن أبا طالب إنما أخبرهم بعد سعيهم في نقضها. قال ابن حجر الهيثمي: وبعده أن الإخبار بذلك حينئذ ليس له كبير جدوى، وقام

هؤلاء الخمسة ومعهم جماعة ولبسوا السلاح ثم خرجوا إلى بني هاشم وبني
المطلب، فأمرهم بالخروج إلى مساكنهم ففعلوا.
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 27
باب ذكر خبر وفد نجران

ثم قدم عليه وهو بمكة وفد نجران، وهم قوم من النصارى، ونجران: بلدة بين
مكة واليمن، على نحو من سبع مراحل من مكة، كانت منزلاً للنصارى، وكانوا
نحواً من عشرين رجلاً حين بلغهم خبره ممن هاجر من المسلمين إلى
الحبشة، فوجدوه في المسجد، فجلسوا إليه سألوه وكلموه ورجال من قريش
في أديتهم حول الكعبة ينظرون إليهم، فلما فرغوا من مسألة رسول الله
صلى الله عليه وسلم كما أرادوا دعاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى
الله تعالى وتلا عليهم القرآن، فلما سمعوه فاضت أعينهم من الدمع، ثم
استجابوا له وأمنوا به، وعرفوا منه ما هو موصوف به في كتابهم، فلما قاموا
عنه اعترضهم أبو جهل في نفر من قريش، فقالوا لهم: خبيكم الله من ركب،
بعثكم من وراءكم من أهل دينكم ترتادون أي تنظرون الأخبار لهم لتأتوهم بخير
الرجل، فلم تطمئن مجالسكم عنده حتى فارقتم دينكم فصدقتموه بما قال، لا
نعلم ركباً أحق: أي أقل عقلاً منكم، فقالوا لهم: سلام عليكم لا نجاهلكم لنا
ما نحن عليه ولكم ما أنتم عليه، ويقال نزل فيهم قوله تعالى {الذين آتيناهم
الكتاب} إلى قوله {لا نتغي الجاهلين} ونزل قوله تعالى {وإذا سمعوا ما
أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق}.

وذكر في الوفاء وفود ضماد الأزدي عليه، فقال: عن ابن عباس رضي الله
تعالى عنهما أن ضماداً قدم مكة وكان من أزد شنوءة، وكان يرقى من الريح:
أي ولعل المراد به اللمة من الجن، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن
محمدًا مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعل الله أن يشفيه على يدي،
قال: فأتيته فقلت: يا محمد إني أرقى من الريح، فإن الله يشفي على يدي من
شاء، فهل لك؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن الحمد لله نحمده
ونستعينه، من يهد الله فلا مضل له، ومن يضل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا
إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، فقال ضماد: أعد عليّ
كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث مرات
فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل
كلماتك هؤلاء، هات يدك أبايعك على الإسلام، فبايعه وقال له رسول الله صلى
الله عليه وسلم: وعلى قومك؟ قال: وعلى قومي.

باب ذكر وفاة عمه أبي طالب، وزوجته خديجة رضي الله تعالى عنها
لتعلم أنهما ماتا في عام واحد: أي بعد خروج بني هاشم والمطلب من الشعب
بثمانية وعشرين يوماً، وإلى موتها في عام واحد أشار صاحب الهمزية بقوله:
رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 38

وقضى عمه أبو طالب والد
دهر في السراء والضراء

ثم ماتت خديجة ذلك العا
م ونالت من أحمد المناء
وذلك قبل الهجرة إلى المدينة بثلاث سنين، وبعد مضي عشر سنين من بعثته :
أي من مجيء جبريل عليه الصلاة والسلام بالوحي. وهو يردُّ قول ابن إسحاق
ومن تبعه أن خديجة رضي الله تعالى عنها ماتت بعد الإسراء.

وأفاد كلام صاحب الهمزية أن موت خديجة كان بعد موت أبي طالب. وقيل
كانت وفاة خديجة رضي الله تعالى عنها قبل أبي طالب بخمس وثلاثين ليلة.
وقيل بعده بثلاثة أيام. ويؤيد ما في الهمزية قول الحافظ عماد الدين بن كثير
المشهور أنه مات قبل خديجة رضي الله تعالى عنها؛ أي بثلاثة أيام. ودفنت
بالحجون، ونزل في حفرتها ولها من العمر خمس وستون سنة ولم تكن الصلاة
على الجنازة شرعت.

وذكر الفاكهاني المالكي في شرح الرسالة أن صلاة الجنازة من خصائص هذه
الأمّة، لكن ذكر ما يخالفه في الشرح المذكور حيث قال: وروي «أن آدم عليه
الصلاة والسلام لما توفي أتى بحنوط، وكفن من الجنة، ونزلت الملائكة
فغسلته وكفنته في وتر من الثياب وحنطوه وتقدم ملك منهم فصلى عليه
وصلت الملائكة خلفه، ثم أقبروه وأحدوه ونصبوا اللبن عليه وابنه شيث عليه
الصلاة والسلام الذي هو وصيه معهم، فلما فرغوا قالوا له: هكذا فاصنع بولدك
وإخوتك، فإنها سنتكم» هذا كلامه: أي ويبعد أنه لم يفعل ذلك بعد القول
المذكور له. ويحتمل أن المراد بالصلاة مجرد الدعاء لا هذه الصلاة المعروفة
المشتملة على التكبير، لكن يبعده ما في العرائس عن ابن عباس رضي الله
تعالى عنهما «أن آدم لما مات قال ولده شيث لجبريل صلِّ عليه، فقال له
جبريل: بل أنت تقدم فصلِّ على أبيك، فصلى عليه وكبر ثلاثين تكبيرة» وقد
أخرج الحاكم نحوه مرفوعاً وقال صحيح الإسناد، ومنه تعلم أن الغسل
والتكفين والصلاة والدفن واللحد من الشرائع القديمة، بناء على أن المراد
بالصلاة الصلاة المشتملة على التكبير لا مجرد الدعاء.
وحينئذ لا يحسن القول بأن صلاة الجنازة من خصائص هذه الأمّة، إلا أن يقال لا
يلزم من كونها من الشرائع القديمة أن تكون معروفة لقريش، إذ لو كانت
كذلك لفعلوا ذلك، وسيأتي عنهم أنهم لم يفعلوا ذلك.

وأيضاً لو كانت معروفة لهم لصلّى على خديجة ومن مات قبلها من المسلمين
كالسكران ابن عم سودة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنهما الذي هو زوجها،
وسيأتي أنه لما قدم المدينة وجد البراء بن معرور قد مات فذهب هو وأصحابه
فصلّى على قبره، وأنها أول صلاة صليت على الميت في الإسلام، ومعرور
معناه في الأصل مقصود.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 38

لا يقال: يجوز أن يكون المراد بتلك الصلاة مجرد الدعاء. لأننا نقول قد جاء أنه
كبر في صلاته أربعاً. وقد روى هذه الصلاة تسعة من الصحابة ذكرهم السهيلي،
وسيأتي عن الإمتاع: لم أجد في شيء من السير متى فرضت صلاة الجنازة،

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

ولم ينقل أنه صلى على أسعد بن زرارة وقد مات في السنة الأولى: ولا على عثمان بن مظعون وقد مات في السنة الثانية. وفي كلام بعضهم: صلاة الجنائز فرضت في السنة الأولى من الهجرة، وأول من صلى عليه أسعد بن زرارة فليتأمل. وفي كلام بعضهم: كانوا في الجاهلية يغسلون موتاهم، وكانوا يكفنونهم ويصلون عليهم. وهو أن يقوم ولي الميت بعد أن يوضع على سريره ويذكر محاسنه كلها ويثني عليه ثم يقول: عليك رحمة الله ثم يدفن، أي وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمي ذلك العام عام الحزن، ولزم بيته وأقل الخروج، وكانت مدة إقامتها معه خمسا وعشرين سنة على الصحيح.

ويذكر «أنه دخل على خديجة رضي الله تعالى عنها وهي مريضة فقال لها: يا خديجة أتكرهين ما أرى منك، وقد يجعل الله في الكره خيرا؟ أشعرت أن الله قد أعلمني أنه سيزوجني» وفي رواية «أما علمت أن الله قد زوجني معك في الجنة مريم ابنة عمران، وكلثم أخت موسى وهي التي علمت ابن عمها قارون الكيمياء، وأسية امرأة فرعون، فقالت: أله أعلمك بهذا يا رسول الله؟» وفي رواية «أله فعل ذلك يا رسول الله؟ قال نعم، قالت: بالرفاء والبنين» زاد في رواية «أنه أطعم خديجة من عنب الجنة» وقولها بالرفاء والبنين هو دعاء كان يدعى به في الجاهلية عند التزويج، والمراد منه الموافقة والملازمة، مأخوذ من قولهم رفات الثوب: ضمنت بعضه إلى بعض، ولعل هذا كان قبل ورود النهي عن ذلك.

هذا، وفي الإمتاع أن سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما تزوج أم كلثوم بنت علي بن أبي طالب رضي الله عنه جاء إلى مجلس المهاجرين الأولين في الروضة فقال رفئوني، فقالوا ماذا يا أمير المؤمنين؟ قال: تزوجت أم كلثوم بنت علي هذا كلامه، ولعل النهي لم يبلغ هؤلاء الصحابة حيث لم ينكروا قوله، كما لم يبلغ سيدنا عمر رضي الله تعالى عنهم. وفي الشهر الذي ماتت فيه خديجة رضي الله تعالى عنها وهو شهر رمضان بعد موتها بأيام تزوج سودة بنت زمعة، وكانت قبله عند السكران ابن عمها، وهاجر بها إلى أرض الحبشة الهجرة الثانية، ثم رجع بها إلى مكة فمات عنها، فلما انقضت عدتها تزوجها، وأصدقها أربعمئة درهم. وقد كانت رأت في نومها أن النبي صلى الله عليه وسلم وطئ عناقها فأخبرت زوجها، فقال: إن صدقت رؤياك أموت أنا ويتزوجك رسول الله، ثم رأت في ليلة أخرى أن قمرا انقضَّ عليها من السماء وهي مضطجعة، فأخبرت زوجها فقال: لا ألبث حتى أموت فمات من يومه ذلك. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 38

وعقد على عائشة رضي الله تعالى عنها وهي بنت ست أو سبع سنين في سؤال. فعن خولة بنت حكيم امرأة عثمان بن مظعون قالت «قلت لما ماتت خديجة: يا رسول الله ألا تتزوج؟ قال: من؟ قلت: إن شئت بكرا، وإن شئت ثيبا، قال: فمن البكر؟ قلت: أحق خلق الله بك، بنت أبي بكر رضي الله تعالى

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

مكتبة مشكاة

عنهما، قال: ومن الثيب؟ قلت: سودة بنت زمعة، قد آمنت بك واتبعتك على ما تقول، قال: فاذهبي فاذكريهما عليّ، قالت: فدخلت على سودة بنت زمعة فقلت لها: ماذا أدخل الله عليك من الخير والبركة؟ قالت: وما ذاك؟ قالت: أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطبك عليه، قالت: وددت، ادخلي على أبي فاذكري ذلك له وكان شيخاً كبيراً فدخلت عليه وحيته بتحية الجاهلية فقال: من هذه؟ قلت: خولة بنت حكيم، قال: فما شأنك؟ قلت: أرسلني محمد بن عبدالله أخطب عليه سودة، قال: كفاء كريم، قال: ما تقول صاحبتك؟ قالت تحب ذلك، قال ادعيها إلي، فدعوته قال: أي بنية إن هذه تزعم أن محمد بن عبدالله بن عبد المطلب قد أرسل يخطبك وهو كفاء كريم، أتحيين أن أزوجك منه؟ قالت نعم، قال: ادعيه لي، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فزوجه إياها، ولما قدم أخوها عبد بن زمعة وقد بلغه ذلك صار يحثي على رأسه التراب، ولما أسلم قال: لقد كدني السفه يوم أحتي على رأسي التراب إذ تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم سودة يعني أخته» وذهبت خولة إلى أم رومان أم عائشة فقالت لها «ماذا أدخل الله عليكم من البركة والخير؟ قد أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطب عليه عائشة، قالت: انتظري أبا بكر حتى يأتي، فجاء أبو بكر فقلت له: يا أبا بكر ماذا أدخل الله عليكم من الخير والبركة؟ قال: وما ذاك؟ قلت: قد أرسلني رسول الله صلى الله عليه وسلم أخطب عليه عائشة، قال: وهل تصلح أي تحل له؟ إنما هي بنت أخيه، فرجعت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك، فقال: ارجعي إليه، فقولي له: أنا أخوك وأنت أخي في الإسلام،

وابنتك تصلح لي - أي تحل، فرجعت فذكرت ذلك له، قالت أم رومان رضي الله تعالى عنها: إن مطعم بن عدي قد كان ذكرها على ابنه جبير ووعده، والله ما وعدت قط فأخلفه - تعني أبا بكر - فدخل أبو بكر على مطعم وعنده امرأته أم ابنه المذكور، فكلمت أبا بكر بما أوجب ذهاب ما كان في نفسه من عدته لمطعم، فإن المطعم لما قال له أبو بكر: ما تقول في أمر هذه الجارية أقبل المطعم على امرأته وقال لها: ما تقولين يا هذه؟ فأقبلت على أبي بكر وقالت له: لعلنا إن أنكحنا هذا الفتى إليكم تصيبه وتدخله في دينك الذي أنت عليه، فأقبل أبو بكر على المطعم وقال له: ماذا تقول أنت؟ فقال: إنها لتقول ما تسمع، فقام أبو بكر وليس في نفسه من الوعد شيء، فرجع فقال لخولة: ادعي لي رسول الله صلى الله عليه وسلم فدعته فزوجه إياها وعائشة حينئذ بنت ست سنين، وقيل سبع سنين وهو الأقرب».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 38

فعلم أن العقد على سودة تقدم على العقد على عائشة، لأن العقد على سودة كان في رمضان الشهر الذي ماتت فيه خديجة رضي الله تعالى عنها وعلى عائشة كان في شوال، ومعلوم أن الدخول بسودة كان بمكة وعلى عائشة كان بالمدينة.

ثم رأيت بعضهم ذكر أن خولة ذهبت إلى طلب عائشة وأن النبي صلى الله عليه وسلم عقد عليها قبل ذهابها لسودة وعقده عليها، ولا تخفى المخالفة، إلا أن يراد بالعقد على سودة الدخول بها. وفيه أنه لا يحسن ذلك مع قوله قبل ذهابها لسودة.

ولما اشتكى أبو طالب: أي مرض وبلغ قريشاً ثقله: أي اشتداد المرض به قال بعضهم لبعض: إن حمزة وعمر قد أسلما، وقد فشا أمر محمد في قبائل قريش كلها، فانطلقوا بنا إلى أبي طالب فليأخذ لنا على ابن أخيه وليعطه منا، فإننا والله ما نأمن أن يبتزونا أمرنا أي يسلبونه، ومنه قولهم: من عزّ بز: أي من غلب أخذ السلب: وهو الثياب التي هي البز. وفي لفظ: إنا نخاف أن يموت هذا الشيخ فيكون منا شيء: أي قتل محمد كما في بعض الروايات، فتعيرنا العرب ويقولون تركوه حتى إذا مات عمه تناولوه، فمشى إليه أشرفهم منهم عتبة وشيبة ابنا ربيعة وأبو جهل وأممية بن خلف وأبوسفيان رضي الله تعالى عنه، فإنه أسلم ليلة الفتح كما سيأتي، وأرسلوا رجلاً يدعى المطلب؛ فاستأذن لهم علي أبي طالب فقال: هؤلاء شيخة قومك وسرواتهم يستأذنون عليك، قال أدخلهم؛ فدخلوا عليه فقالوا: يا أبا طالب أنت منا حيث قد علمت. وفي لفظ قالوا: يا أبا طالب أنت كبيرنا وسيدنا وقد حضرك ما ترى وتخوفنا عليك؛ وقد علمت الذي بيننا وبين ابن أخيك فادعه وخذ له منا وخذ لنا منه لينكف عنا وننكف عنه، وليدعنا وديننا وندعه ودينه، فبعث إليه أبو طالب فجاءه، ولما دخل على أبي طالب وكان بين أبي طالب وبين القوم فرجة تسع الجالس، فخشي أبو جهل أن يجلس النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الفرجة فيكون أرقى منه؛ فوثب أبو جهل فجلس فيها، فلم يجد النبي صلى الله عليه وسلم مجلساً قرب أبي طالب، فجلس عند الباب انتهى.

وفي الوفاء أنه قال لهم: خلوا بيني وبين عمي، فقالوا: ما نحن بفاعلين؛ وما أنت بأحق به منا، إن كانت لك قرابة فإن لنا قرابة مثل قرابتك، فقال أبو طالب لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا ابن أخي هؤلاء أشرف قومك، وفي لفظ: هؤلاء شيخة قومك وسرواتهم، وقد اجتمعوا لك ليعطوك وليأخذوا منك. وفي لفظ: سألوك النصف، وفي لفظ: أعط سادات قومك ما سألوك، فقد أنصفوك أن تكف عن شتم آلهتهم ويدعوك وإلهك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أرأيتم إن أعطيتكم ما سألتكم هل تعطوني كلمة واحدة تملكون بها العرب وتدين لكم بها العجم؟ أي تطيع وتخضع، فقال أبو جهل: نعم وأتيك عشر كلمات. وفي لفظ لنعطيكها وعشراً معها، فما هي؟ قال: تقولون لا إله إلا الله وتقلعون عما تعبدون من دونه، فصفقوا بأيديهم ثم قالوا يا محمد أتريد أن تجعل الآلهة إلهاً واحداً، إن أمرك لعجب، فأنزل الله تعالى {ص} والقرآن ذي الذكر { إلى آخر الآيات، وفي لفظ قالوا: أيسع لحاجتنا جميعاً إله واحد، وفي لفظ قالوا: سلنا غير هذه الكلمة. وفي لفظ أن أبا طالب قال: يا بن أخي هل من كلمة غيرها، فإن قومك قد كرهوها، قال: يا عم ما أنا بالذي يقول غيرها، ثم قال: لو جئتموني بالشمس حتى تضعوها في يدي ما سألتكم غيرها، ثم قال بعضهم لبعض: والله ما هذا الرجل بمعطيكم شيئاً مما تريدون، فانطلقوا وأمضوا على دين آبائكم حتى يحكم الله بينكم وبينه ثم تفرقوا. وفي لفظ قالوا عند قيامهم: والله لننشمك وإلهك الذي يأمرك بهذا، أي وفي لفظ لتكفن عن سب آلهتنا أو لنسبن إلهك الذي أمرك بهذا.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

قال في النبوع: وهذه العبارة أحسن من الأولى، لأنهم كانوا يعرفون أنه يعبد الله، وما كانوا ليسبوا الله عالمين، لكنهم ما كانوا يعرفون أن الله أمره بذلك، وذكر أن ذلك سبب نزول قوله تعالى {ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم}.

هذا، وفي النهي أن سبب نزول هذه الآية أن كفار قريش قالوا لأبي طالب: إما أن تنتهي محمداً عن سب آلهتنا والنقص منها، وإما أن نسب إلهه ونهجه، قال فيه: وحكم هذه الآية باق في هذه الأمة، فإذا كان الكافر في منعة وخيف أن يسب الإسلام أو الرسول فلا يحل للمسلم ذم دين الكافر، ولا يتعرض لما يؤدي إلى ذلك، لأن الطاعة إذا كانت تؤدي إلى مفسدة خرجت عن أن تكون طاعة فيجب النهي عنها كما ينهي عن المعصية هذا كلامه.

وعند ذلك قال أبو طالب قال لرسول: والله يا ابن أخي ما رأيتك سألتهم شحطاً أي بالحاء والطاء المهملتين أمراً بعيداً، فلما قال ذلك طمع رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه، فجعل يقول: أي عم فأنت فقلها أستحل لك بها الشفاعة يوم القيامة: أي لو ارتكبت ذنباً بعد قولها، وإلا فالإسلام يجب ما قبله، فلما رأى حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: والله يا ابن أخي لولا مخافة السببة: أي العار عليك وعلى بني أبيك من بعدي، وأن تظن قريش أنني إنما قتلها جزعاً: أي بالجيم والزاي خوفاً من الموت، وهذا هو المشهور. وقيل بالخاء المعجمة والراء، أي ضعفاً لقلتها، وفي رواية: لأقررت بها عينك لما أرى من شدة وجدك، لكنني أموت على ملة الأشياخ عبد المطلب وهاشم وعبد مناف، فأنزل الله تعالى {إنك لا تهدي من أحببت} الآية.

أي وعين مقاتل «أن أبا طالب قال عند موته: يا معشر بني هاشم أطيعوا محمداً وصدقوه تفلحوا وترشدوا، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: يا عم تأمرهم بالنصيحة لأنفسهم وتدعها لنفسك؟ قال. فما تريد يا ابن أخي؟ قال: أريد أن تقول لا إله إلا الله أشهد لك بها عند الله تعالى، فقال: يا ابن أخي قد علمت أنك صادق لكنني أكره أن يقال» الحديث، قال في الهدى: وكان من حكمة أحكم الحاكمين بقاءه على دين قومه لما في ذلك من المصالح التي تبدو لمن تأملها: أي وكذا أقرباؤه وبنو عمه تأخر إسلام من أسلم منهم، ولو أسلم أبو طالب وبادر أقرباؤه وبنو عمه إلى الإيمان به لقبل قوم أرادوا الفخر برجل منهم وتعصبوا له، فلما بادر إليه الأباعد وقتلوا على حبه من كان منهم حتى إن الشخص منهم يقتل أباه وأخاه، علم أن ذلك إنما هو عن بصيرة صادقة وبقين ثابت.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 38

وذكر «أنه لما تقارب من أبي طالب الموت نظر العباس إليه يحرك شفثيه فأصغى إليه بأذنه، فقال: يا ابن أخي، والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرته بقولها، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم أسمع». وفيه أنه لم يثبت أن العباس ذكر ذلك بعد الإسلام وأيضاً نزول الآية حيث ثبت أن نزولها في حق أبي طالب يرد ذلك.

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

ويرده أيضاً ما في الصحيحين عن العباس رضي الله تعالى عنه أنه قال «قلت يا رسول الله إن أبا طالب كان يحيطك وينصرك فهل ينفعه ذلك؟ قال نعم، وجدته - أي كشف لي عن حاله وما يصير إليه يوم القيامة - فوجدته في غمرات من النار فأخرجته إلى ضحضاح» أي وفي لفظ آخر «قال نعم، هو - أي يوم القيامة - في ضحضاح من النار، لولا أنا لكان في الدرك الأسفل من النار» ولو كانت الشهادة المذكورة عند العباس ما سأل هذا السؤال ولأدائها بعد الإسلام، إذ لو أدائها لقبلت.

وقد يقال: إنما سأل هذا السؤال ولم يعد الشهادة بعد الإسلام، لأنه لما قال له أولاً لم أسمع، فهم أنه حيث لم يسمعها لم يعتد بها سأل هذا السؤال وفهم أن إعادة الشهادة بعد إسلامه لا تفيد شيئاً.

ويرده أيضاً ما جاء في رواية «أنه لما كرر علي أبي طالب أن يقول كلمة الشهادة وهو يابى إلي أن قال هو علي دين عبد المطلب قال: أما والله لأستغفرن لك ما لم أنه عن ذلك. أي عن الاستغفار لك فأنزل الله عز وجل ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم} أي وتقدم أن سبب نزول هذه الآية طلب استغفاره لأمه عند زيارة قبرها، أن يقال لا مانع من تكرار سبب نزولها، لجواز أنه جؤز الفرق بين أمه وعمه، لأن أمه لم تدع للإسلام بخلاف عمه، وفي منع استغفاره لأمه ما تقدم. ولا يشكل على ذلك قوله يوم أحد «اللهم اغفر لقومي» لأن ذلك أي غفران الذنوب مشروط بالتوبة: أي الإسلام، فكأنه دعا لهم بالتوبة التي هي الإسلام، ويؤيده رواية «اللهم اهد قومي» أي للإسلام.

قال: وأيضاً جاء في صحيح ابن حبان عن علي رضي الله تعالى عنه قال «لما مات أبو طالب أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله إن عمك الشيخ الضال قد مات، قال: اذهب فواره، قال علي رضي الله تعالى عنه: فلما واريته جئت إليه، فقال لي اغتسل». أقول: لأنه غسله، وبه وبقوله «من غسل ميتاً فليغتسل» استدل أئمتنا على أن من غسل ميتاً مسلماً أو كافراً استحبه له أن يغتسل.

وروى البيهقي خبر «أن علياً رضي الله تعالى عنه غسله بأمر النبي صلى الله عليه وسلم له بذلك» لكن ضعفه وفي رواية عن علي رضي الله تعالى عنه «لما أخبرت النبي صلى الله عليه وسلم بموت أبي طالب بكى وقال: اذهب فاغسله وكفنه وواره، غفر الله له ورحمه».

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 38

وأما ما روي عنه أنه عارض جنازة عمه أبي طالب فقال: وصلتك رحم، وجزيت خيراً يا عم» فقال الذهبي إنه خبر منكر، والله أعلم.

وجاء أيضاً «أنه ذكر عنده عمه أبو طالب فقال: إنه ستنفعه شفاعتي» وفي رواية «لعله تنفعه شفاعتي يوم القيامة فيجعل في ضحضاح من النار» أي مقدار ما يغطى بطن قدميه. وفي رواية «في ضحضاح من النار يبلغ كعبيه يغلي منها دماغه» وفي لفظ عن ابن عمر قال: قال رسول الله «إذا كان يوم

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

القيامة شفعت لأبي وأمي وعمي أبي طالب، وأخ لي كان في الجاهلية» يعني أخاه من الرضاعة من حليلة كما في رواية تأتي.
أقول: يجوز أن يكون ذكر شفاعته لأبويه كان قبل إحيائهما وإيمانهما به كما قدمناه جواباً عن نهيه عن الاستغفار لهما، والله أعلم.
وفي لفظ آخر «شفعت في أبي وعمي أبي طالب وأخي من الرضاعة - يعني من حليلة - ليكونوا من بعد البعث هباء».

ومما يستأنس به لإيمان أبيه ما جاء «أنه قال لابنته فاطمة رضي الله تعالى عنها وقد عرّت قوماً من الأنصار في ميتهم: لعلك بلغت معهم الكدى - بالدال المهملة أو الكرا بالراء، يعني القبور - فقالت: لا، فقال: لو كنت بلغت معهم الكدى ما رأيت الجنة حتى يراها جد أبيك يعني عبد المطلب» ولم يقل جدك يعني أباه الذي هو عبدالله، وتقدم القول بأن حليلة وأولادها أسلموا.
وعليه فيجوز أن يكون هذا منه قبل أن يسلم أخوه من الرضاعة كما تقدم مثل ذلك في أبيه وأمه. وفي رواية الحديث الأول من هو منكر الحديث، وفي الثاني من هو ضعيف، وقال فيه ابن الجوزي: إنه موضوع بلا شك: أي وهذا أي قبول شفاعته في عمه أبي طالب عد من خصائصه، فلا يشكل بقوله تعالى {فما تنفعهم شفاعتنا الشافعين} أو لا تنفعهم شفاعتنا الشافعين في الإخراج من النار بالكلية: أي وفي هذا الثاني أنه لا يناسب أن شفاعته لهم أن يكونوا من بعد البعث هباء: أي في صيورتهم هباء، إلا أن يقال إنه لم يستجب له في ذلك.

قال: وجاء أيضاً عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إن أهون أهل النار - أي وهم الكفار - عذاباً أبو طالب، وهو ينتعل بنعلين يغلي منهما دماغه» أي وفي رواية «كما يغلي المرجل» أي القدر من النحاس «حتى يسيل دماغه على قدميه» وفي رواية «كما يغلي المرجل بالقمقم» قيل والقمقم بكسر القافين: البسر الأخضر يطبخ في المرجل استعجالاً لنضجه يفعل ذلك أهل الحاجة.
وذكر السهيلي الحكمة في اختصاص قدميه بالعذاب وزعم بعض غلاة الرافضة أن أبا طالب أسلم، واستدل له بأخبار واهية ردها الحافظ ابن حجر في الإصابة. رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 38

أي وقد قال: وقفت على جزء جمعه بعض أهل الرفض أكثر فيه من الأحاديث الواهية الدالة على إسلام أبي طالب، ولم يثبت من ذلك شيء.
وروى أبو طالب عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «حدثني محمد أن الله أمره بصلة الأرحام» وأن يعبد الله وحده ولا يعبد معه غيره» وقال «سمعت ابن أخي الأمين يقول اشكر ترزق، ولا تكفر تعذب» انتهى.
وفي المواهب عن شرح التنقيح للقرافي أن أبا طالب ممن آمن بظاهره وباطنه وكفر بعدم الإذعان للفروع، لأنه كان يقول: إني لا أعلم أن ما يقوله ابن أخي لحق، ولولا أنني أخاف أن يعيرني نساء قريش لاتبعت، فهذا تصريح باللسان واعتقاد بالجنان، غير أنه لم يذعن للأحكام، هذا كلامه. وفيه أن الإيمان باللسان الإتيان بلا إله إلا الله، ولم يوجد ذلك منه كما علمت، وتقدم أن الإيمان النافع عند الله الذي يصير به الشخص مستحقاً لدخول الجنة ناجياً من الخلود في النار، التصديق بالقلب بما علم بالضرورة أنه من دين محمد وإن لم يقر

السيرة الحلبية في سيرة الأمين المأمون الإسلامية

بالشهادتين مع التمكين من ذلك حيث لم يطلب منه ذلك ويمتنع، وأبو طالب طلب منه ذلك وامتنع.

وقد روي الطبراني عن أم سلمة «أن الحارث بن هشام - أي أخا أبي جهل بن هشام - أتى النبي صلى الله عليه وسلم يوم حجة الوداع، فقال: إنك تحت على صلة الرحم، والإحسان إلى الجار، وإيواء اليتيم، وإطعام الضيف، وإطعام المسكين، وكل هذا مما يفعله هشام، يعني والده، فما ظنك به يا رسول الله؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: كل قبر لا يشهد صاحبه أن لا إله إلا الله فهو جذوة من النار، وقد وجدت عمي أبا طالب في طمطم من النار، فأخرجه الله لمكانه مني وإحسانه إليّ، فجعله في ضحضاح من النار».

وذكر أن أبا طالب لما حضرته الوفاة جمع إليه وجهاء قريش فأوصاهم، وكان من وصيته أن قال: يا معشر قريش أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب، فيكم المطاع، وفيكم المقدم الشجاع، والواسع الباع، لم تتركوا للعرب في المآثر نصيباً إلا أحرزتموه، ولا شرفاً إلا أدركتموه، فلکم بذلك على الناس الفضيلة، ولهم به إليكم الوسيلة. أوصيكم بتعظيم هذه البنية: أي الكعبة، فإن فيها مرضاة للرب، وقواماً للمعاش. صلوا أرحامكم ولا تقطعوها، فإن في صلة الرحم منساً - أي فسحة - في الأجل، وزيادة في العدد. واتركوا البغي والعقوق فبيهما هلكت القرون قبلكم. أجبوا الداعي، وأعطوا السائل فإن فيهما شرف الحياة والممات. وعليكم بصدق الحديث وأداء الأمانة، فإن فيهما محبة في الخاص ومكرمة في العام. وإنني أوصيكم بمحمد خيراً، فإنه الأمين في قريش - أي وهو الصديق في العرب، وهو الجامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاء بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان مخافة الشتان - أي البغض - وهو لغة في الشتان - وأيم الله كأنني أنظر إلى صعاليك العرب، وأهل البر في الأطراف والمستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته، وعظّموا أمره، فخاض بهم غمرات الموت، فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذناً، ودورها خراباً، وضعفاؤها أرباباً، وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها، وأعطته قيادها دونكم يا معشر قريش، كونوا له ولاة، ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد منكم سبيله إلا ارشد، ولا يأخذ أحد بهديه إلا سعد.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 38

وفي لفظ آخر أنه لما حضرته الوفاة دعا بني عبد المطلب فقال: لن تزالوا بخير ما سمعتم من محمد وما اتبعتم أمره، فأطيعوه ترشدوا.

ولما مات أبو طالب نالت قريش من النبي صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تطمع فيه في حياة أبي طالب، حتى إن بعض سفهاء قريش نثر على رأس النبي صلى الله عليه وسلم التراب، فدخل بيته والتراب على رأسه، فقامت إليه بعض بناته وجعلت تزيله عن رأسه وتبكي، ورسول الله صلى الله

عليه وسلم يقول لها لا تبكي لا تبكي يا بنية، فإن الله تعالى مانع أباك، وكان يقول «ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه - أي أشد الكراهة - حتى مات أبو طالب» وتقدم، وسيأتي بعض ما أودي به.

قال: ولما رأى قريشاً تهجموا قال يا عم ما أسرع ما وجدت فقدك. ولما بلغ أبا لهب ذلك قام أبو لهب بنصرته أياماً وقال له: يا محمد امض لما أردت، وما كنت صانعاً إذا كان أبو طالب حياً فاصنعه، لا واللوات والعزى لا يوصل إليك حتى أموت.

وأتفق أن ابن العطيلة - أي وهو أحد المستهزئين المتقدم ذكرهم سب النبي، فأقبل عليه أبو لهب ونال منه، فولى وهو يصيح: يا معشر قريش صبا أبو عتبة - يعني أبا لهب - فأقبلت قريش على أبي لهب وقالوا له: أفارقت دين عبد المطلب؟ فقال: ما فارقت» وفي لفظ «قالوا له: أصبوت؟ قال: ما فارقت دين عبد المطلب، ولكن أمنع ابن أخي أن يضام حتى يمضي لما يريد، قالوا: قد أحسنت وأجملت ووصلت الرحم، فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم على ذلك أياماً لا يتعرض له أحد من قريش وهابوا أبا لهب إلى أن جاء أبو جهل وعقبة بن أبي معيط إلى أبي لهب فقالا له: أخبرك ابن أخيك أين مدخل أبيك؟ أي المحل الذي يكون فيه، يزعم أنه في النار، فقال له أبو لهب: يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: نعم ومن مات علي مثل ما مات عليه عبد المطلب دخل النار، فقال أبو لهب: لا برحت لك عدواً وأنت تزعم أن عبد المطلب في النار، فاشتد عليه هو وسائر قريش انتهى.

وفي لفظ «قال له: يا محمد أين مدخل عبد المطلب؟ قال: مع قومه، فخرج أبو لهب إلى أبي جهل وعقبة، فقال: قد سألته، فقال: مع قومه، فقالا: يزعم أنه في النار، فقال: يا محمد أيدخل عبد المطلب النار؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم نعم» الحديث، ولا يخفى أن عبد المطلب من أهل الفترة، وتقدم الكلام عليهم والله أعلم.

رقم الجزء: 2 رقم الصفحة: 38

باب ذكر خروج النبي صلى الله عليه وسلم إلى الطائف
سميت بذلك، لأن رجلاً من حضرموت نزلها فقال لأهلها: ألا أبنني لكم حائطاً يطيف ببلدكم فيناه، فسمي الطائف، وقيل غير ذلك.

لما مات أبو طالب ونالت قريش من النبي صلى الله عليه وسلم ما لم تكن نالته منه في حياته كما تقدم خرج إلى الطائف: أي وهو مكروب مشوش خاطر مما لقي من قريش وقرابته وعترته خصوصاً من أبي لهب وزوجته أم جميل حمالة الحطب من الهجو والسب والتكذيب.

وعن علي رضي الله تعالى عنه أنه قال بعد موت أبي طالب «لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أخذته قريش تتجاذبه وهم يقولون له أنت الذي جعلت الألهة إلهاً واحداً؟ قال: فوالله ما دنا منا أحد إلا أبو بكر فصار يضرب هذا ويدفع هذا وهو يقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله؟».

وخروجه إلى الطائف كان في شوال سنة عشر من النبوة وحده، وقيل معه مولاة زيد بن حارثة يلتمس من ثقيف الإسلام رجاء أن يسلموا، وأن يناصروه على الإسلام والقيام معه على من خالفه من قومه. قال في الإمتاع: لأنهم كانوا

أخواله. قال بعضهم: ومن ثم أي من أجل أنه خرج إلى الطائف عند ضيق صدره وتعب خاطره جعل الله الطائف مستأنساً على من ضاق صدره من أهل مكة، كذا قال.
وفي كلام غيره: ولا جرم جعل الله الطائف مستأنساً لأهل الإسلام ممن بمكة إلى يوم القيامة، فهي راحة الأمة، ومنتفس كل ذي ضيق وغممة {سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً} فليتأمل.
